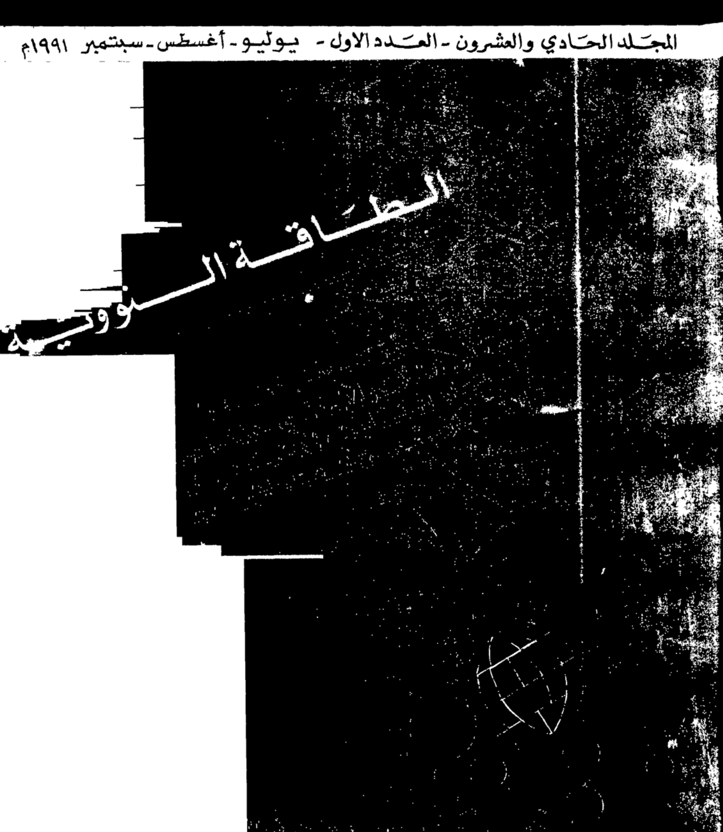


عالم الفكر

المجلد الحادي والعشرون - العدد الاول - يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٩١م



"مجلة عالم الفكر"

قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات ـ والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :ـ

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزوبده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين . . . ,١٢ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة

وزارة الاعلام ـ الكويت ـ ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

25

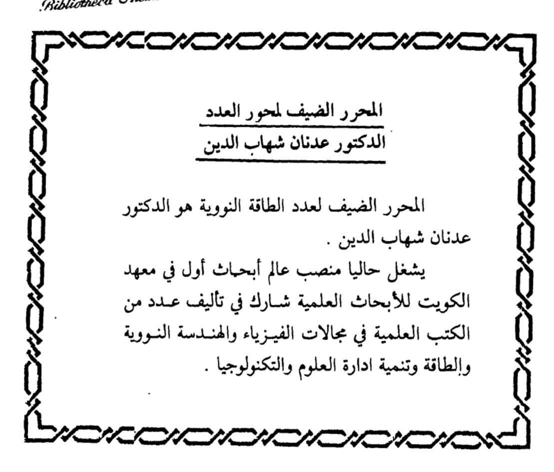
عالم الفكر

رئيس التحرير: حمد يوسف الرومي
مستشارة التحرير: دكتورة نورية صالح الرومي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٩١ م
المراسلات باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة - وزارة الإعلام - الكويت ص . ب ١٩٣ الرمز 13002

المحتويات





المحرر الضيف لمحور العدد
الدكتور عدنان شهاب الدين

المحرر الضيف لعدد الطاقة النووية هو الدكتور عدنان شهاب الدين .

يشغل حاليا منصب عالم أبحاث أول في معهد الكويت للأبحاث العلمية شارك في تأليف عدد من الكتب العلمية في مجالات الفيزياء والهندسة النووية والطاقة وتنمية ادارة العلوم والتكنولوجيا .

كلمة التحرير

إن جريمة النظام العراقي بعد احتلاله للكويت قد عملت على هدم كل شيء ، بما في ذلك الفكر والثقافة في هذا البلد ، فلقد كانت الكويت قبل الاحتلال تزخر بمراكز إشعاع فكري وثقافي نوعي ومتميز ، وقد استهدف الاحتلال الفكر ومؤسساته بالتدمير ، ومن هذه المؤسسات الرائدة والمتميزة « مجلة عالم الفكر » الصادرة عن وزارة الإعلام بدولة الكويت ـــ والتى احتجبت عن قرائها بسبب الاحتلال مدة عام كامل .

لقد كان من دواعي سرورنا وغبطتنا حرص المثقفين والمتخصصين في التسابق للحصول على نسخ من المجلة . ولقد كان مما يثلج صدورنا نفادها من الأسواق العربية وتزايد الطلب عليها ، وهذا دليل على رصانتها ونوعية ماتقدمه من فكر نيّر ومفيد للقارىء العربي .

أما لماذا عمل الاحتلال العراقي على تدمير الفكر والثقافة ومؤسساتهما في الكويت فإن ماحدث ليس صدفة أو بدون قصد عندما لجأ النظام العراقي بعد احتلاله الكويت إلى تدمير الفكر . فإذا كان الفكر قيمة إنسانية بلورتها نشاطات ذهنية مبدعة لمفكرين متميزين ، وأن نمو هذا الفكر يشكل خطرا على الاستبداد والقهر والظلم والديكتاتورية ، فإن من الطبيعي أن يلجأ مثل ذلك النظام إلى تدمير الفكر ومحاربته حتى ينسجم مع ممارساته وسلوكه الشاذ ؛ لأنه قام بتربية أفراده حزبيا على رفض حرية الفكر ، ومحاربة الفكر المتقدم ، وفعل هذا في العراق طوال عقدين من الزمان فأراد لذلك النهج أن ينسحب على الكويت بعد احتلاله الغادر ليجردها من الثقافة والعلم والفكر المبدع وبذلك يستطيع أن يقهر أهلها وينشر الجفاف ، والتخلف كما فعل في العراق لاعتقاده بأن ممارسة كهذه تسهل عليه السيطرة وإخضاع الناس ، وتحويلهم إلى رعاع تابعين خاضعين لهيمنته ، مكملا البطش الجسدي بالبطش الذهني والعقلي .

إن الإجابة عن السؤال المطروح آنفا :

لماذا عمل الاحتلال العراقي على تدمير الفكر والثقافة ومؤسساتهما في الكويت ؟؟

تكمن في عداء النظام العراقي للفكر ولحريته وانتشار الثقافة الجادة في نوعيتها ، فهذا النظام لم يكن يؤمن إلا بالإعلام المجرد من الثقافة والذي يخدم سياساته ومغامراته وسلطته .....

إن مجلة عالم الفكر وهي تعود اليوم إلى قرائها تحمل نفس التصميم والإصرار على مواصلة الجهد الفكري الذى رسمته منهجا لها ، متحدية الصعاب ومرتفعة فوق الجراح من أجل إغناء الفكر العربي وتهذيبه من كل ما لوثه من ممارسات الأنظمة القمعية والديكتاتورية كالنظام العراقي الغاشم . وعلى الرغم من كل الصعاب التى واجهتها ، فإن مجلة عالم الفكر تصدر اليوم في ٢ أغسطس ١٩٩١ متحدية هذا التاريخ من العام الذى سبقه .

هيئة التحرير

تقديم

فؤاد زكريا

ليس هذا مجرد عدد جديد من مجلة عمّقت جذورها في أرض الثقافة العربية عبر سنوات من العمل المخلص والعطاء الجاد ، إنه رمز لقيم شريفة أريد لها أن تُنتهك ، ولوطن كامل أريد له أن يغتصب ولحياة خصبة وادعة وواعدة ، أريد لها أن تنتهي شر نهاية .

إن عودة « عالم الفكر » إلى الصدور بعد عام واحد من أبشع غزو تعرض له أي وطن طوال القرن العشرين ، تحمل أعمق الدلالات . إنها تعني أن « روح » العدوان قد اندحرت ، بعد أن اندحر « جسده » في قتال خاطف أثبت زيف الأساطير التى اختلقها المعتدي حول قوته وجبروته . لقد أراد العدوان أن يطفىء تلك الشعلة الفكرية التى كانت تنطلق من الكويت لتضىء سماء العالم العربي كله . ولم يكن نهمه ليشبع من النهب المادي والقتل والتشويه ، بل أراد أن يمسخ ذلك الإنتاج الثقافي الرائع الذى كانت الكويت منبعه ، فيحيله إلى دعاية فجة ممجوجة تستهدف تقديس فرد واحد وعبادته ، وتتنازل في سبيل ذلك عن كل قيمة شريفة اكتسبها عقل الإنسان خلال صراعه الطويل ضد الاستبداد .

نعم ، كان للعدوان « روح » ولكنها روح شوهاء لاتترك للعقل أدنى فرصة للبحث عن حق أو خير أو جمال ، وإنما تقمع كل نزوع إلى السمو في الإنسان ،-وتغذي مشاعر الخوف والجبن والنفاق ، ولا تقبل من الذهن الإنساني إلا أن يرفع الراية البيضاء ويعلن استسلامه دون شروط لما يراد منه أن يقوله أو يفكر فيه . وكانت التجربة قد بدأت في بلد الطاغية نفسه ، وظلت تقضي على كل عقل يقاوم أو ينقد ، وتخيف كل عقل يجسر على أن يتخذ لنفسه موقفا مستقلا ، حتى استطاعت آخر الأمر أن تدخل الشاردين جميعا في حظيرة الاستكانة والتدجين والاستسلام والتهليل لأكبر محتقر للعقل عرفه تاريخ البشر .

وكان مطلوبا من ثقافة الكويت أن تنغلق على نفسها في هذا السجن الكئيب وأن تنسى إلى الأبد تلك الانطلاقة الرائعة التي جعلت من نواتجها الكبرى : « العربي » ، و « عالم الفكر » و « عالم المعرفة » ، و « المسرح العالمي » ، أداة حقيقية لتوحيد العالم العربي . كانت تلك وحدة قائمة على الاستنارة والوعي والبحث عن الحقيقة ، ولهذا السبب بالذات كانت مكروهة في نظام لايعترف إلا بالوحدة التى تحققها جنازير الدبابات .. كانت الكتب والدوريات الثقافية الكويتية توحّد العرب في إنتاجها وإبداعها وتوزيعها .. إذ كان المشرفون على إصدارها يتنوعون في عهودها المختلفة ، مابين المثقف الكويتي ، والعربي غير الكويتي دون أدنى تمييز . وكانت تشكل منبرا ينشر إبداع العقول العربية من كافة أقطارها ، ويجد فيها أصحاب المواهب الفكرية والأدبية ساحة

للالتقاء الخصب مع أقرانهم من كل بلد عربي . ولكن ربما كان الأهم من ذلك كله هو أنها كانت تقدم زادا ثقافيا شهريا أو فصليا رفيع المستوى ، زهيد الكلفة ، لقراء ربما كانوا هم الأحق بأن ينطبق عليهم ، دون مبالغة أو ابتذال ، ذلك التعبير الذى أصبح مستهلكا في لغتنا المعاصرة ، وأعني به : الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج .

كانت الأعمال الثقافية النابعة من الكويت ، والموجهة إلى العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه تحقق على أفضل نحوٍ عدالة توزيع الثروة الثقافية بين العرب جميعا . وإذا كان الكثير من اللغط قد أثير خلال أزمة الخليج ، حول مدى العدالة في توزيع الثروة الاقتصادية بين العرب ، فإن الأمر الذى لايختلف عليه اثنان هو أن الكويت قدمت ، طوال العقدين الأخيرين ، نموذجا مشرفا لتعميم الخير الثقافي على الجميع .

وفي ضوء هذه الحقيقة يمكننا أن نفهم تلك الظاهرة التى استرعت انتباه الكثيرين خلال احتدام أزمة الخليج ، وأعنى بها أن قدرا كبيرا من الأسى على الظلم الفادح الذى لحق بشعب الكويت ، كان ينصب على المجال الثقافي بالذات . كان الكثيرون ، بالطبع ، يندون بالغدر المفاجىء ، والقسوة غير المفهومة ، والنهب البربري الذى مارسته قوى العدوان ، كما كان الكثيرون يتحسرون على ضياع مبادىء التضامن والإخاء العربي تحت أقدام أول جندي عراقي اقتحم أرض الكويت . غير أن ما استأثر بالقدر الأكبر من مشاعر الحزن على ذلك المصير المؤلم الذى آلت إليه الكويت بعد الاحتلال ، والذي لم يكن أحد في ذلك الحين يعلم متى ستزول آثاره السوداء ، هو انطفاء تلك الشعلة الفكرية اللامعة التي كان نورها يعم الجميع . ولن يكون المرء مغاليا لو قال إن نسبة كبيرة من العرب تعرف الكويت من خلال إنتاجها الثقافي أكثر مما تعرفها عن طريق أي جانب آخر من جوانب حياتها .

□ □ □

كانت « روح العدوان » تستهدف إطفاء تلك الشعلة إلى الأبد ، وتشويه النتاج العقلي والروحي النابع من الكويت على نحو يصبح معه صورة مطابقة لتلك المسوخ الثقافية التى لم يكن النظام القمعي ، طوال ما يربو على عقد كامل ، يرضى عنها بديلا في عاصمة الرشيد . وكان التضاد صارخا ، ومثيرا للأسى ، بين السعي إلى إطفاء شعلة الفكر إلى أبد الآبدين ، والسعي إلى إضرام شعلة لاتنطفىء في فوهة كل بئر للنفط ، غير أن الرابطة الوثيقة بين الضدين كانت واضحة وضوح الشمس : فلكي تطفىء شعلة الفكر الخيّر ، لابد لك أن توقد شعلة الخراب إلى الأبد .

وحين نرى اليوم نبض الحياة يدب من جديد في باكورة هذا الإنتاج الثقافي الأصيل النابع من أرض الكويت ، فما أسهل أن نتحدث عن تلك « المعجزة » التي أتاحت لبلد تعرض لتخريب شامل بل لخطة جهنمية كان هدفها الحقيقي محوه من خريطة العالم المعاصر ، أن يستعيد حيويته في وقت لايتجاوز العام منذ العدوان ، ولا يتجاوز نصف العام بعد دحر ذلك العدوان . غير أن المعجزات لاتحدث ، في عصرنا هذا إلا بالإرادة والتصميم ، ولابد أنها كانت إرادة خيرة وتصميما نبيلا تلك التى حدت ببلد تعرض لكل هذا الدمار إلى أن يضع إعادة بناء الثقافة في مرتبة مساوية لإعادة بناء مرافق حياته الأساسية ، ويجعل لهما ترتيبا متكافئا ضمن أولويات التعمير ، ويستأنف إصدار دورياته وكتبه الثقافية في الوقت نفسه الذى يسعى فيه إلى إطفاء حرائقه وإزالة ألغامه وتوفير أسباب الحياة الضرورية لأهله .

وفي ذات الوقت الذي تعمل فيه الكويت على مواصلة دورها المتميز في نشر الثقافة بين ربوع عالمنا العربي ، ينشغل العالم بالبحث عن أماكن تخزين أسلحة الدمار الشامل التى أخفاها النظام العدواني . والمقارنة لاتحتاج إلى شرح أو تعليق : فهي تمثل التضاد بين السعي النبيل إلى إعلاء كلمة الحياة وبين البحث المحموم عن أبشع وسائل الفتك والإفناء . إنهما نظرتان إلى الحياة وإلى العالم تتناقضان إلى حد يستحيل معه التوفيق بينهما . وهكذا كان مسعى قوى الهدم يتجه إلى ابتلاع المسالمين من أنصار الحياة . وحين انهار الهدامون على أيدي من هم أشد منهم بطشا ، ظلوا متشبثين بالبقايا البائسة من أدواتهم الشيطانية ، على حين واصل الآخرون مسيرتهم من أجل نصرة العقل الواعي .

إن مسيرة التنوير جديرة بمساندة كل إنسان شريف ، ومن المؤسف حقا أن الكارثة التي حلت لا على الكويت وحدها ، بل على العالم العربي بأسره في صيف عام ١٩٩٠ ، قد كشفت عن حقيقة أليمة ، هي أننا لم نقطع من طريق التنوير سوى أقل الخطوات ، وأن الشوط مازال أمامنا طويلا بعيدا . فقد تساقطت أعداد لاحصر لها من العقول والأقلام التى ظللنا طويلا نؤمن بعمق فكرها واتساع علمها وأخفقت مذاهب واتجاهات فكرية كاملة إخفاقا ذريعا فى أول اختبار حاسم تمر به ، وتبين أن جراثيم الزيف وضيق الأفق والمغالطة والتصديق الساذج والتقلب في المواقف وغلبة الانفعال المؤقت على المنطق البعيد النظر ـــ تبين أن هذه الجراثيم كلها متغلغلة في أعمق أعماق العقل العربي ، وأن المعركة الحقيقية هي التى تدور على ساحة هذا العقل .

أجل ، لقد وقعت الكارثة حين تصور البعض أن أرض معركتنا هي ميادين القتال العسكري واختلقوا الأسباب ليحسموا المشكلات العادية بالسلاح ، وتناسوا أن ساحة كفاحنا

ينبغي أن تكون هي العلم والثقافة والتكنولوجيا ، وأن نضالنا ينبغي أن يتجه إلى فتح الأذهان لافتح البلدان . وها هي ذي « عالم الفكر » تعلن ، بمجرد صدورها ، أن الوعي بطبيعة المعركة الحقيقية التي تواجهنا قد استعيد ، وتخطو خطوة أخرى في طريقة الاستنارة الفكرية العربية . وإذا كانت « عالم الفكر » تصدر اليوم بعد محنة قاسية خيبت كثيرا من آمالنا في النهضة العقلية العربية ، فإن الإصرار الذى تمثله عودتها في هذا الوقت المتأزم بالذات ، دليل على أن إرادة التنوير لن تستسلم لليأس ، حتى وهي تعلم أن الطريق إلى الرشد العقلي أطول كثيرا مما كانت تعتقد .

وسوف تثبت الأيام أن مايقوم على ازدراء العقل والعبث به هو الزَّبَد الذى يذهب هباء وجفاء ، وأن ماينشر نور الوعي هو الذى يمكث في الأرض .

التمهيد

شهدت بدايات القرن العشرين انطلاقات جديدة وجذرية لمفهوم الانسان للبنية الأساسية المادية للكون . ففي العقد الأول من هذا القرن أكمل العالم المعروف اينشتين النظرية النسبية الخاصة وألحقها في بداية العقد الثالث بالنظرية العامة . وعالجت هاتان النظريتان بعض أوجه القصور والنقص في الميكانيكا الكلاسيكية والجاذبية ، كما شهدت العشرينات مولد نظرية الكم التي عالجت خللاً جذرياً للميكانيكا الكلاسيكية في شرح حركة الجسيمات ذات الأبعاد المتناهية الصغر . على أن أهمية هذه الاكتشافات والنظريات العلمية لم تقتصر على إصلاح قصور ديناميكية الميكانيكا الكلاسيكية عند حدود السرعات العالية والأبعاد الصغيرة ، بل تعدت ذلك لتكشف لنا عن مفاهيم جديدة جذرية للبنية الأساسية للكون . ومن أهم هذه المفاهيم الجديدة التكافؤ بين الكتلة والطاقة الكامنة في المادة كما تعبر عن ذلك معادلة اينشتين الشهيرة : « الطاقة الكامنة لأي جسيم تساوي كتلته مضروبة بمربع سرعة الضوء » . وقبيل الحرب العالمية الثانية شهد العالم مولد عصر الطاقة النووية حين تم الكشف عن ظاهرة الانشطار النووي لعنصر اليورانيوم وما يصاحب ذلك من تحول جزء من كتلة نواة اليورانيوم إلى طاقة هائلة تفوق بأضعاف كثيرة الطاقة الكامنة المنطلقة في التفاعلات الكيميائية .

ولئن كان هذا الاكتشاف قد بشر بعهد جديد وواعد للحضارة الإنسانية يرتكز على تطوير واستخدام هذا المصدر الجديد والوفير للطاقة على نطاق واسع وبكلفة زهيدة ، إلا أن أحداث ومداخلات الحرب العالمية الثانية عملت على توجيه هذا الاكتشاف العلمي الأساسي الواعد إلى بداية سيئة ، منذرة بأخطار

عدنان شهاب الدين

جسيمة ، حين نجحت الولايات المتحدة الأمريكية بالتعاون مع بعض حلفائها الأوربيين في تطوير تكنولوجيا لإطلاق هذه الطاقة النووية الكامنة في قنبلة نووية ذات قدرة تدميرية هائلة ومروعة . واستخدمت الولايات المتحدة قنبلتين نوويتين ألقيتا على مدينتي هيروشيما وناغازاكي في اليابان للإسراع في استسلام اليابان للحلفاء وإسدال الستارة النهائية على مأساة الحرب العالمية الثانية .

ومع نهاية الحرب بدأت جهود حقيقية في الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي وبعض الدول الأوربية لتطوير تكنولوجيا الاستخدام السلمي للطاقة النووية ، وتكللت هذه الجهود بالنجاح في منتصف الخمسينات في إنشاء المفاعلات النووية لتوليد الكهرباء لأغراض التنمية . وشهد عقدا الستينات والسبعينات تطورا متسارعا في بناء المفاعلات النووية وفي تطوير تكنولوجيا المفاعلات . إلا أن ذلك صاحبه تطور مأساوي في تطوير وتكديس أسلحة نووية ذات قدرة تدميرية أشد ، كافية لإنهاء الحضارة الإنسانية من على وجه هذا الكوكب بل وإحداث تغيير جذري مروع في بيئة هذا الكوكب لا قدر الله . كما أن الحلم الذي راود البعض في البداية في حصر انتشار مثل هذا السلاح المدمر تمهيدا للتخلص منه تبدد ، بعد أن ساهمت الحرب الباردة بين الشرق والغرب في انتشار الأسلحة النووية وطرق استخدامها بين عدد من الدول بدأ بروسيا وبريطانيا وفرنسا والصين وعدد من الدول النامية مثل الهند وإسرائيل ، وهناك دول أخرى تملك القدرة العلمية والتكنولوجية لتطوير تكنولوجيا السلاح النووي لكنها بانتظار القرار السياسي للمضي بذلك .

على أن الخيار السلمي لاستخدام الطاقة النووية في توليد الكهرباء واجهته كذلك مصاعب وتحديات عديدة ، خاصة في نهاية السبعينات وفي عقد الثمانينات المنصرم . فبالرغم من التطورات التكنولوجية الرائعة التي أنجزت في مجال تصميم وبناء مفاعلات نووية متقدمة لتوليد الكهرباء في العديد من الدول الصناعية ، إلا أن هاجس السلامة والأمن من الحوادث النووية المحتملة في مثل هذه المنشآت والأخطار المحتملة من النفايات المشعة الناتجة عن المفاعلات النووية أصبح مهيمنا على الرأي العام العالمي ، خاصة بعد وقوع حادث « ثري مايل ايلاند » في بنسلفانيا بالولايات المتحدة عام ١٩٧٨ وحادث انفجار أحد مفاعلات محطة تشرنوبل لتوليد الكهرباء بالاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٦ .

وبرزت نتيجة لذلك معارضة شديدة للتوسع في استخدام الطاقة النووية لتوليد الكهرباء في بعض الدول الصناعية ، ولاقت هذه الآراء تجاوبا ملموسا من قطاعات كبيرة من الرأي العام في هذه البلدان ، أدت إلى إبطاء بل وتعطيل برامج الطاقة النووية في بعض البلدان الصناعية مثل الولايات المتحدة وألمانيا والسويد . ومع ذلك فإن خيار الطاقة النووية لتوليد الكهرباء هو خيار قائم لا يمكن إنكار إنجازاته وليس من السهل إلغاء استمراره ، ولا يزال أنصار الطاقة النووية يوضحون بأن الطاقة النووية هي من أسلم وأكثر خيارات توليد الطاقة أماناً ، بالرغم من الحوادث القليلة التي وقعت حتى الآن ، وأن المخاوف من الحوادث النووية والمخاطر من المواد المشعة المستخدمة في المفاعلات النووية والنفايات النووية هي مخاطر ومخاوف مبالغ بها ، ومازال العلماء والفنيون القائمون على أمر الصناعة النووية يؤكدون بأن تكنولوجيا الطاقة النووية الحالية والتطورات المستقبلية لها تجعل من هذه المخاطر في الحدود الدنيا المقبولة وأقل كثيرا من مخاطر مصادر الطاقة البديلة .

ومهما يكن الأمر ، فإن الرأي العام العالمي ينظر إلى الطاقة النووية بالرهبه والهلع ، ماثلا في عقله وضميره الصور البشعة لانفجار القنابل النووية في هيروشيما وناغازاكي . ولا شك أن التوصل إلى نظرة عقلانية إلى الطاقة النووية ، محاسبنها ومحاذيرها ، أمر ليس باليسير ، خاصة وأن تكنولوجيا توليد الكهرباء بواسطة الطاقة النووية بالغة التعقيد وتستند إلى أسس ونظريات علمية ليست سهلة الفهم والإدراك حتى لدى الكثير من المتعلمين . أضف إلى ذلك أن ما ينجم عن الطاقة النووية من إشعاعات لا يمكن للإنسان أن يتبينها بحواسه البيولوجية مما يزيد من صعوبة التعامل بموضوعية مع مفاهيم وقضايا هذه التكنولوجيا .

على أنه يجب علينا أن نعلم بأن الطاقة النووية تستخدم حالياً لانتاج حوالي ١٨٪ من إجمالي إنتاج الكهرباء في العالم وهذه النسبة في ارتفاع مستمر ، وإن كان ذلك الارتفاع قد تباطأ كثيراً في الآونة الأخيرة . وما زالت بعض الدول تتابع وضع خطط جديدة وتنفذ مشاريع لبناء محطات نووية جديدة لتوليد الكهرباء . كما أن المخاوف العالمية من ظاهرة « الاحماء العالمي » (Global Warming) أعادت التفكير بالخيار النووي لتوليد الكهرباء في الكثير من الدول التي كانت قد أبطأت أو أوقفت مشاريعها النووية لتوليد الكهرباء ، كل هذه الأمور تجعل من الأهمية بمكان أن يتعرف القارىء العربي على القضايا الرئيسية المعاصرة للطاقة النووية وعلى وجه الخصوص المتعلقة باستخداماتها السلمية لتوليد الكهرباء .. وهذا ما يعرض إليه هذا العدد من مجلة « عالم الفكر » ، حيث استكتبت المجلة عدداً من أبرز العلماء العرب المختصين لعرض بعض الجوانب الهامة لموضوع « الطاقة النووية .. مالها وما عليها » .

وفي المقال الأول ، يقدم لنا الاستاذ الدكتور عبدالرزاق قدورة عرضاً رائعاً ودقيقاً ، وبأسلوب شيق ومبسط ، للاكتشافات العلمية المثيرة في النصف الأول من هذا القرن في مجال الكشف عن مكونات المادة الذرية والقوى النووية التي تربط بينها ، وكيف أدت هذه الاكتشافات إلى تغيير جذري في مفاهيمنا حول بنية الكون ومكوناته والعلاقات التي تحكم القوى المؤثرة في أدق وأصغر مكونات المادة ، ويبين لنا المقال بأسلوب مشوق قصة ووقائع اكتشاف الطاقة النووية وقدراتها الهائلة وكيف تم أول تطوير لاستخدامها عسكرياً أثناء الحرب العالمية الثانية .

وفي المقال الثاني يعرض لنا الدكتور عدنان مصطفى ، خصائص تكنولوجيا المفاعلات النووية المستخدمة حالياً لتوليد الكهرباء ويبرز لنا بأسلوب مبسط ودقيق الركائز العلمية والهندسية لأنظمة السلامة والأمن في المفاعلات النووية موضحاً مكوناتها وكيف تعمل سوياً لتحقيق هدف تقليل المخاطر إلى أقل بكثير من الحدود الدنيا المقبولة في النشاطات الصناعية المشابهة . ويبين المقال كذلك أن المخاطر الناجمة عن إطلاق المواد المشعة أثناء التشغيل الاعتيادي لمحطات توليد الطاقة الكهرونووية هي أقل بكثير من المخاطر التي نتعرض لها نتيجة لتعرضنا لجرعات إشعاعية من مصادر طبيعية أو نتيجة لنشاطات أخرى . ويخلص الدكتور عدنان مصطفى في مقاله إلى التأكيد بأن الطاقة الكهرونووية ستبقى واحدة من أهم مصادر توليد الطاقة الكهربائية في العالم في العقود القادمة .

وفي المقال الثالث يقدم لنا الدكتور محمد ناصف قمصان بعداً هاماً آخر لموضوع التلوث الإشعاعي للبيئة الناتج

عن استخدامات الطاقة النووية ، حيث يعرض في مقاله هذا إلى توضيح المفاهيم المتعلقة بالمواد المشعة والإشعاعات بأنواعها المختلفة فيعرفها ويبين مصادرها وطرق قياسها وتأثيرها ، كما يقدم لنا سرداً هاماً لأهم الحوادث الإشعاعية وتأثيرها على الإنسان والبيئة الطبيعية .

ولقد حرصنا أن نضع في متناول القارىء الكريم كذلك صورة موضوعية للآراء المعارضة لاستخدام الطاقة النووية ، فقدم لنا الدكتور سعود عياش مراجعة لأحد الكتب التي تعبر بوضوح عن وجهة نظر الفريق المعارض للطاقة النووية ، وهو الكتاب الصادر عن « اتحاد العلماء المعنين » (Union of Concerned Scientists) ، وهذا الاتحاد هو جمعية نفع عام تتكون من بعض العلماء الذين ينادون بأن مخاطر تكنولوجيا الطاقة النووية لتوليد الكهرباء الراهنة أكثر بكثير مما هو معلن عنه من قبل الحكومات المعنية والصناعة النووية ، وهذا الاتحاد يقف موقف المعارض من استخدام الطاقة النووية لتوليد الكهرباء في الوقت الراهن .

د. عدنان شهاب الدين

* * *

تطور الطاقة النووية

محمد عبد الرزاق قدورة

المدير العام المساعد لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (اليونسكو) ١٩٧٦ ـ ١٩٨٨

١ ـ الجن والقمقم

خرافة القمقم القديمة تحتمل رواية جديدة ينشد فيها الانسان الحكمة ، على أرض مظلمة فيسلك سبلا شتى ، أكثرها مسدود ، وبعضها ينتهى بقبس من نور ، وبقمقم يخرج منه مارد خادم وسيد . من القمقم الأول خرجت النار ، ومن الآخر الطاقة النووية . والإنسان محاط بهذا النفر من الجن ، طلقاء عبقريته ، يحكمهم ويحكمونه ، ويسوقونه الى النعيم أو الجحيم .

وهذا المقال هو قصة القمقم الأخير .

٢ ـ النور القصير

النور بهاء الكون ، وألوانه فنون الكائنات . وللنور ألوان مختلفة لأن له أطوالا شتى فالنور الأحمر أطول من الأزرق بمرتين ، وبينهما الألوان الأخرى . وليس النور مقتصرا على ما تحس به أعيننا ، فمن النور ما هو أطول من الأحمر بالاف آلاف المرات أو أكثر ، ومنه ما هو أقصر من الأزرق بمثل ذلك . وكلما قصر النور ازدادت مقدرته على كشف دقائق الأشياء . فالبحث عن هذه رهين بانارتها بنور قصير ، ثم باستقباله بما يناسب من أدوات ، وبتفسيره لاستخراج ما يحويه من إشارات . فقصة الكشف عن بنيان المادة هى قصة النور القصير .

٣ ـ البسيط من المعقد

اذا مسك طفل لعبه ، فسرعان ما يحاول تحطيمها ليرى داخلها . وكذلك الانسان ، فهو منذ بدأ يفكر ، يستشف وراء ظواهر الطبيعة المعقدة أسبابها البسيطه حتى يفهم الكسوف والخسوف ، وهدير الأمواج ، وتغريد الطيور ، ونمو الوليد ، ومصاب المريض . وهو يبحث ، فى هذا المنحى ، عن اللبنات التى تُبنى منها المادة ، وعن اللصاق

الذى يربط اللبنات ، وعن النظام الذي تخضع له اللبنات واللصاق : أى ، بكلمات أخرى ، عن حبيبات المادة ، والقوى التى تربطها ، والقوانين التى تحكمها .

وقبل ان نروى نبذة من هذا المسعى ، نلخص ما تم التوصل اليه حتى الآن .

٤ - حبيبات المادة

كل مادة من المواد مؤلفة من أجزاء صغيرة منفصلة ، يسمى الواحد جزيئاً . ولكى نتصور مبلغ صغر الجزيء نذكر أن كأسا من الماء يحوى عشرة ملايين مليار جزيء من الماء . (هذا العدد هو واحد عن يمينه خمسة وعشرون صفراً) . وقطر الجزيء الواحد قريب من جزء واحد من عشرة آلاف مليون جزء من المتر . (واحد وعشرة أصفار) .

والمواد إما بسيطة أو مركبة من مواد بسيطة . فالماء مادة مركبة من مادتين بسيطتين هما الاكسجين والهيدروجين . وتسمى المادة البسيطة عنصرا . وفى الطبيعة مائة عنصر ونيف ، أخفها الهيدروجين ومن أثقلها الارانيوم . وكل عنصر مؤلف من وحدات صغيرة منفصلة ، تسمى الواحدة منها ذرة . والذرة قريبة فى كتلتها وأبعادها من الجزيء .

تعرف كل ذرة من الذرات بعددين هما العدد الذرى وعدد الكتلة . والذرة مؤلفة من نواة صغيرة واقعة فى مركزها ، ومن عدد من الالكترونات تحيط بالنواة . وعدد الالكترونات فى الذرة هو عددها الذري . والالكترون جسيم ذو كتلة أصغر من كتلة أخف الذرات ، وهى ذرة الهيدروجين ، بألفى مرة . ويحمل الالكترون شحنة كهربائية سالبة ، يمكن أن نتصور مبلغ صغرها إذا علمنا أن التيار الكهربائي الذى يسري فى مصباح كهربائى عادي ينقل ، فى الثانية الواحدة ، شحنة كهربائية تعادل شحنة مليار الكترون (١٨ صفرا)

وتكاد النواة تحتوى كل كتلة الذرة . وقطرها أصغر من قطر الذرة بمائة ألف مرة . فكثافتها (أى مبلغ تركيز الكتلة فيها) عالية . ولو أمكن ملء كأس من الماء بمادة مؤلفة من نوى متراصة فقط ، أى مادة كثافتها كثافة النواة ، لكانت كتلة هذا الكأس مليون مليار كيلو غرام (١٥ صفرا) ، أى أكبر من كتلة جبال الهملايا . ولا توجد مثل هذه المادة ، إلا فى بعض النجوم عند نهاية حياتها .

وتتألف النواة من بروتونات ونوترونات . والبروتون جسيم كتلته أكبر من كتلة أكبر من كتلة الالكترون بألفي مرة . ويحمل شحنة كهربائية تساوى شحنة الالكترون ، ولكنها موجبة ، بينما شحنة الالكترون سالبة . والنوترون ذو كتلة أكبر قليلاً من كتلة البروتون ، ولا يحمل شحنة كهربائية . وعدد البروتونات فى نواة الذرة يساوى عدد الذرى ، ولذلك فشحنة النواة الكهربائية تساوى شحنة الالكترون المحيطة بالنواة فى الذرة (وقد ذكرنا أن عدد هذه الالكترونات هو العدد الذري) . ولكن شحنة النواة موجبة ، وشحنة الالكترونات سالبة ، فالشحنة الكلية للذرة معدومة ، أى أن الذرة ، فى حالتها الطبيعية ، محايدة كهربائيا .

مجموع عددي البروتونات والنوترونات فى نواة الذرة يساوى عدد الكتلة فيها . وأخف الذرات ، وهى ذرة الهيدروجين ، عددها الذري واحد ، أي أن هذه الذرة تحوى الكترونا واحدا ، ونواتها تحوى بروتونا واحدا وعدد الكتلة فيها يساوي واحداً ايضا ، أى ان عدد البروتونات والنوترونات فى نواة هذه الذرة يساوى الواحد . ولما كان فيها بروتون ، فهذا يعنى انه ليس فيها نوترونات . ونلخص ما سبق بأن نكتب :

اسم العنصر	الهيدروجين
العدد الذري (أى عدد الالكترونات فى الذرة وعدد البروتونات فى النواة)	١
عدد الكتلة (أى مجموع عددى البروتونات والنوترونات فى النواة)	١
عدد النوترنات (الفرق بين عدد الكتلة والعدد الذري)	٠

وإذا انتقلنا الى العناصر الأثقل من الهيدروجين ، وكتبنا خصائصها هذه بالترتيب نفسه وجدنا :

الهليوم	الليثيوم	البريليوم	البور	الفحم	النتروجين	الاكسجين	.... الارانيوم
٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	.... ٩٢
٤	٦	٨	١٠	١٢	١٤	١٦	.... ٢٣٨
٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	.... ١٤٦

ونلاحظ أن عدد البروتونات يساوى عدد النوترونات فى النوى الخفيفة ، ولكن عدد النوترونات يصبح أكبر فى الثقيلة .

الخواص الكيميائية لعنصر من العناصر محددة بعدد الالكترونات فى ذرته ، أى بعدده الذري . ولكن لكل عنصر مايسمى بالنظائر ، وهى ذرات لها العدد الذري نفسه الذى للعنصر ، أى فى ذرتها عدد الالكترونات الذى فى العنصر ، وعدد البروتونات فى نواته ، ولكن لها عدد كتلة آخر ، أى عدد نوترونات آخر . فللهيدروجين مثلا نظيران يسميان الدوتيريوم والتريتيوم . والعدد الذري لكل منهما ، كالعدد الذري للهيدروجين ، هو الواحد . ففى ذرة كل منهما إذن ، كذرة الهدروجين ، الكترون واحد . وفى نواة كل منهما ، كنواة الهدروجين ، بروتون واحد . ولكن عدد كتلة الدوتيريوم يساوى ٢ ، ففي نواته بروتون ونوترون . وعدد كتلة التريتيوم يساوى ٣ ، ففى نواته بروتون واثنان من النوترونات . ونلخص ما سبق بأن نكتب :

اسم النظير	الهيدروجين	الدوتيريوم	التريتيوم
عدد الكتلة	١	٢	٣
عدد النوترونات	٠	١	٢

وفى العناصر الأثقل ، لا يسمى كل نظير باسم خاص ، كما هي حال الهيدروجين ، بل يعرف بما يميزه وهو عدد الكتلة . فنتحدث عن الاورانيوم الطبيعي بانه الاورانيوم ٢٣٨ ، لأن هذا هو عدد كتلته ولنتحدث عن نظيره القابل

للانشطار بانه الاورانيوم ٢٣٥ ، وهذا عدد كتلته ، فهو إذن يحوي ككل نظير للاورانيوم ، ٩٢ بـروتونـا . ويحوي ٢٣٥ - ٩٢ = ١٤٣ نوترونا (بينما يحوي الاورانيوم ٢٣٨ ، كما ذكرنا ، ١٤٦ نوتروناً) .

ذكرنا ، حتى الآن ، ثلاثه جسيمات هى الالكترون والبروتون والنترون . وذكرنا من خصائص كل منها كتلته وقطره وشحنته الكهربائية . وهناك خاصة أخرى لكل جسيم هى اللف . ويمكن تصورها بانها ناتجة من دوران الجسيم حول محور له مار بمركزه (كدوران الأرض حول محورها الذى ينتج منه الليل والنهار) وهذا اللف صغير جدا ، ككل المقادير الأخرى التى تعرف الجسيمات . وهو يقاس بوحدة ذرية مناسبة . واللف ، بدلالة هذه الوحـدة ، يساوى النصف لكل من الالكتزون والبروتون والنوترون .

لكل جسيم من هذه الجسيمات جسيم مضاد يتفق معه فى الصفات الميكانيكية ، أى فى أبعاده وكتلته ، ويعاكسه فى الصفات الكهربـائية المغنـاطيسية ، كشحنتـه الكهربـائية . وكـان أول جسم مضاد اكتشف هـو الجسيم المضاد للالكترون ، وذلك عام ١٩٣٧ . وهو يسمى البوزيترون . ثم اكتشف الجسيم المضاد للبروتون عام ١٩٥٥ ، ويسمى البروتون المضاد ، ثم الجسيم المضاد للنترون . ويعرف اليوم أن لكل جسيم فى الطبيعة ، وعدد المعروف منها كبير كما سنرى ، جسيما مضادا . وإذا التقى جسيم وجسيم مضاد أفنى الواحد منهما الآخر وانقلبت كتلتاهما الى طاقة .

حتى أوائل الثلاثينات من هذا القرن ، كان يبدو وكأن هدف اكتشاف الحبيبات الأساسية للمادة ، وردها الى عدد صغير ، قد تكلل بالنجاح باكتشاف الالكترون والبروتون ولكن ما لبثت الاكتشافات الجديدة أن توالت ، فاكتشف النترون ، ثم الالكترون المضاد ، ثم جسيم متوسط فى كتلته بين الالكترون والبروتون ، سمي لذلك بالميزون (اى المتوسط) ثم ميزون ثان فثالث فآخر ، واكتشفت أيضا جسيمات أثقل من البروتون . وفى أواخر الخمسينات أصبح عدد هذه الجسيمات يعد بالمئات ، صنفت فى عائلتين كبيرتين هما الجسيمات الخفيفة ، أخوات الالكتـرون التى لا تتفاعل مع النواة ومركباتها بالتفاعلات النووية والجسيمات الثقيلة أخوات البروتون التى تتفاعل بالتفاعلات النووية . وقسمت هذه الأخيرة الى فئتين : الجسيمات التى لفها يساوى نصف عدد فردى ، والجسيمات التى لفها نصف عدد زوجى .

وفى أوائل الستينات اقترح الفيزيائى الامريكي مرى غلمان أن البروتون والنوترون (وكل الجسيمات الثقيلة) ليست بسيطة بل إن كلا منها مؤلف من اجتماع ثلاثة (او اثنين) من أجسام أبسط سمي الواحد منها الكوارك . وكلمة كوارك لا معنى لها فى الأصل ، اخترعها الروائى الارلندى جيمس جويس ، واستعارها غلمان . ويتفق الفيزيائيون اليوم على وجود الكوارك ، وإن كان لم يكتشف بعد بشكل منفرد .

وما لبثت أنواع الكوارك نفسها أن تعددت حتى يعد منها اليوم ستة وثلاثين كواركاً مختلفا أما الجسيمات الخفيفة ، الالكترون وأخواته ، فإنها ما تزال تعتبر اليوم بسيطة عنصرية ويبلغ عددها اثنى عشر جسيما .

٥ ـ القوى الرابطة

نعرف اليوم أربع قوى أساسية تربط أجزاء المادة بعضها ببعض . (وهناك حديث عن قوة خامسة لم ينته بعد إلى نتيجة) . وهذه القوى هى بترتيب شدتها ، بدءاً بالأضعف : القوة الثقالية ، القوة الكهربائية المغناطيسية ، القوة الضعيفة ، القوة النووية . وقد اكتشفت بهذا الترتيب ايضا ، أى الأضعف ثم الأقوى لسبب سنذكره فيما بعد .

القوة الأولى هى القوة الثقالية وهى القوى المهيمنة على حياة البشر اليومية . وأول ما يلفت انتباهنا من حوادث الطبيعة هو حركة الأجرام السماوية ونظامها البديع : شروق الشمس والقمر وغروبها وحركات الكواكب السيارة ، ودوران القبة السماوية ونجومها الثابتة . ولذلك فلا عجب أن تكون نظريات الفلك أولى النظريات التى بنيت . والقوة الثقالية التى يتجاذب بها كل جسمين ماديين هى القوة التى تسبب هذه الحوادث . فتدور الأرض بسببها حول الشمس والقمر حول الأرض ، وتسقط الأجسام ، ويكون لكل جسم على الأرض ثقل يلزمه بالبقاء على سطحها . وبالرغم من أن هذه القوة هى أضعف القوى جميعا ، فإنها أوضحها لغير المجرب لسببين : أولهما ان مداها غير محدود ، وثانيهما أنها جاذبة دوما .

والقوة الثانية هى القوة الكهربائية المغناطيسية . وقد كانت حوادث الكهرباء والمغناطيس تظن بأنها مستقلة الواحدة عن الأخرى حتى أتت تجارب الفيزيائى والكيميائى البريطانى فارادي (١٧٩١ ـ ١٨٦٧) ونظريات الفيزيائي البريطاني ماكسويل (١٨٣١ ـ ١٨٧٩) فدلت على توحيدها . والقوة الكهربائيه المغناطيسية تفعل بين الشحنات الكهربائية . وهى تارة جاذبة وتارة دافعة . وأثرها المحسوس أقل كثيرا من القوة الثقالية ، مع أنها أشد منها كثيرا ، وذلك لأن المادة عادة محايدة كهربائيا فلا يظهر فيها أثر القوة الكهربائية المغناطيسية . ولكن هذه القوة هى ذات الأثر الحاسم فى كل التفاعلات الكيميائية ، وتؤثر فى كل حوادث الحياة ، بما فيها ما يجرى داخل أجسامنا وأدمغتنا .

هاتان القوتان كانتا الوحيدتين المعروفتين حتى القرن التاسع عشر الذى ظهرت فى أواخره ملامح القوتين الأخيرتين . ولكن الشك فى وجود قوى أخرى قديم ، فقد كتب اسحاق نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) فى كتابة « علم الضوء » الذى صدر فى أوائل القرن الثامن عشر : « إن فعل الثقال والمغناطيس يمتد الى مسافات محسوسة ، ولذلك يحس بها عامة الناس . ولكن لعل هناك أنواعاً اخرى من الجذب ، قصيرة المدى جدا ، لم تكشف بعد »

القوة الضعيفة هى القوة التى تسبب تفكك الجسيمات بفعل النشاط الإشعاعى . وهى قوة قصيرة المدى ، فليس لها أثر محسوس إلا على مسافات قريبة من قطر النواة .. وهى إنما تسمى قوة ضعيفة لأنها أضعف من القوة النووية . والقوة النووية هى التى تضم أجزاء النواة بعضا الى بعض ، وتتفاعل بها الجسيمات الثقيلة . ومداها قصير يقارب قطر النواة .

برهنت نظرية محمد عبدالسلام وستيفن فاينبرغ على ان القوة الكهربائية المغناطيسية والقوة الضعيفة قوة واحدة فى الأصل ، ثم تفرعتا . وهناك من يرى ان القوى الأربع كلها كانت قوة واحدة عند نشوء الكون ، ثم اختلفت . وما يزال مسعى التوحيد هذا قائما .

لكل قوة من هذه القوى الأربع جسيم حامل (أو أكثر) يحملها بين الجسمين اللذين تفعل فيهما . والجسيم الأول الذى اكتشف من هذه الجسيمات هو حامل القوة الكهربائية المغناطيسية ، وهو حبيبة الضوء التى تسمى الفوتون . والفوتون يتحرك دوما بسرعة الضوء ولفه يساوي الواحد . وجسيم القوة الثقالية لم يكتشف بعد تجريبيا ، وإن كانت كل الدلائل تشير إلى وجوده . وهو يسمى الغرافيتون ، ويتحرك دوما بسرعة الضوء ، ولفه يساوى ٢ . وحامل القوة الضعيفة يسمى البوزون الشعاعي المتوسط ، وله أنواع ثلاثة تختلف فى شحناتها الكهربائية : موجبة وسالبة ومعدومة . وكتلة كل منها أكبر من كتلة البروتون بحوالى مائة مرة ، ولفه يساوي واحد . وحامل القوة النووية يسمى الغليون (وهى مشتقة من اللصق) ، وله ثمانية أنواع ، تتحرك كلها بسرعة الضوء دوما ، ولا تحمل شحنة كهربائية ، ولفها يساوي الواحد .

٥ ـ القوانين الناظمة

أول نظرية عن تفاعل أجزاء المادة مع بعضها ببعض هى نظرية نيوتن فى الثقالة التى فسرت حركات الأجرام السماوية بوجود قوة تفعل بين أية كتلتين ماديتين . وهذه القوة تتناسب طردا مع كل من الكتلتين وعكسا مع مربع المسافة بينهما . وقد كانت هذه النظرية أنجح النظريات العلمية ، وما تزال أساس التقانة والهندسة . ولم تعدل إلا فى مطلع القرن العشرين بنظرية اينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) فى النسبية الخاصة ، عام ١٩٠٥ ، ثم فى النسبية العامة عام ١٩١٦ . ونظرية النسبية العامة هى اليوم نظرية الثقالة الأساسية ، ونجاحها رائع متزايد .

أول من وضع نظرية الحوادث الكهربائية والمغناطيسية ، بعد أن برهن فارادي تجريبيا على الارتباط بينهما ، هو ماكسويل . وقد كان لهذه النظرية أثر عميق فى تقدم العلم والتقانة ونشأة صناعة الكهرباء والمواصلات . وبقيت سائدة حتى ولادة نظرية النسبية ثم الميكانيك الكوانتى فعدلت على ضوئهما ، محافظة على أساسها . وتسمى النظرية التى ألفت بين نظرية ماكسويل ، وبين النظرية النسبية والميكانيك والكوانتى ، والتى أقامها فاينمان وآخرون ، بالتحريك الكهربائى الكوانتى وهى رائعة فى دوقة تنبؤاتها وتصديق التجربة لها .

أما النظرية النووية فتطورت ، وما تزال ، بالتشابه مع التحريك الكهربائي الكوانتى ، ولذلك تسمى التحريك الملون الكوانتى .

٦ ـ مراتب الطاقة

تغطى دراسة بنية المادة مجالاً واسعاً من المسافات منذ الأبعاد الفلكية التى تصل الى مليارات السنين الضوئية (أى عشرة ملايين مليار متر) إلى أبعاد النواة التى تساوي جزءا من مليون جزء من المتر . فأكبر المسافات المدروسة أكبر من أصغرها بعشرة آلاف مليار مليار مليار مرة (واحد عن يمينه أربعون صفرا) . ويواكب هذا التسلسل فى مراتب المسافات المسبورة ، تسلسل فى مراتب الطاقة اللازمة لسبرها فكلما أردنا أن نرى أبعادا أصغر من المادة أى أن نمضي قدما فى سبر أغوارها ، احتجنا الى سابر ذي طاقة أعلى . وهذا السابر قد يكون ضوءاً ، أو قد يكون جسيما ماديا كالالكترون

أو البروتون أو سواهما . وفى كل الأحوال تواكب السابر ، سواءً أكان ضوءاً أم جسيما ماديا ، موجة مرافقة ينقص طولها كلما زادت طاقته .

والحاجة الى طاقات أعلى فأعلى كلما أردنا أن نرى مجالات من المادة أصغر فأصغر متعلقة بأن هذه المجالات من المادة تكون طاقة ربطها أعظم كلما كانت أبعادها أصغر فاذا بدأنا من طاقة الربط فى جزيء ، أى الطاقة اللازمة لفصل بعض أقسام هذا الجزيء عن البعض الآخر ، ثم نظرنا فى الطاقة المقابلة لها فى ذرة ، فاننا نجد أن طاقة الربط فى الذرة أكبر من نظيرها في الجزء بعشر مرات تقريبا . فاذا قارنا الذرة بالنواة وجدنا أن طاقة الربط فى النواة أكبر من طاقة الربط فى الذرة بمائة الف مرة . واليوم عندما تدرس الجسيمات الأساسية التى يتكون منها البروتون يحتاج البحث الى طاقة أكبر من طاقة الربط فى النواة بمليون مرة وأكثر . وهذه الطاقة الهائلة تتولد فى المسرعات النووية .

٧ ـ الأفكار الأولى

ننتقل الآن ، بعد أن لخصنا المعرفة الحالية عن بنية المادة ، إلى الامام ، بنشوء هذه المادة قبل ٢٥٠٠ سنة حين انتبه تالس اليونانى إلى أن اية مادة يمكن أن تصنف فى صنف من أصناف ثلاثة : الأجسام الصلبة ، والمائعة ، والغازية . ولاحظ أن الماء يمكن أن يوجد فى أى طور من هذه الأطوار الثلاثة ، فتساءل : ألا يمكن أن تكون كل المواد مكونة من الماء بأشكال مختلفة ؟ ومنهم من ذهب إلى أن المادة الأساسية التى منها المواد جميعا هى الهواء وليس الماء . ثم وسع آنا كسيمنز اليونانى الفكرة فاقترح أن هناك أربع مواد أساسية يتألف منها كل شيء هى الماء والهواء والتراب والنار .

وفى عام ٥٨٥ قبل الميلاد اقترح دمقرطس أن المادة مكونة من جسيمات عنصرية لا تنقسم ، وقد سمى العرب هذا الجسيم العنصرى الأساسى بالجوهر الفرد والجزء الذى لا يتجزأ . وأصحاب هذا الرأى هم الذين يذهبون إلى ان المادة طبيعة منقطعة أو حبيبية ، أى اننا اذا اخذنا قطعة من مادة فقسمناها نصفين ، ثم قسمنا أحدهما نصفين من جديد ، وهكذا دواليك ما أمكن ذلك فإننا نصل إلى قطعة دنيا تأبى الانقسام هى هذا الجوهر الفرد والجزء الذى لا يتجزأ . ويخالف هذا الرأي من يرى أن المادة مستمرة ، وأنه مهما قسمناها ، فانها تبقى قابلة للانقسام دون ما حد ولا نهاية . ويُذَكِر هذا النقاش بين أنصار الانقطاع وأنصار الاستمرار بالنقاش بين الذين اعتقدوا أن الضوء حركة موجية ، والذين قالوا بأنه جسيمات تتحرك حركة القذائف من المنبع الى المسير وكانت الغلبة فى هذا النقاش حول الضوء تارة لهؤلاء وتارة لأولئك . ومن أنصار النظرية الجسيمية نيوتن ، وقد سببت هيبته انتصارها فترة من الزمن . ثم غلبتها النظرية الموجية عندما اكتشف الانعراج وفسره هايغنز بالامواج . وأحيا اينشتاين النظرية الجسيمية من جديد عند تفسيره للمفعول الكهرضوئى (اى صدور الكترونات من المادة عند إنارتها) . وبعد ذلك أتى الميكانيك الكوانتى فدمج النظريتين معا وقال إن الضوء هو موجة وهو جسيم فى آن واحد وإن هذا لا يصح فى الضوء وحده ، بل إن كل جسيم مادي ، كالالكترون مثلا ، هو أيضا موجة . وليس هذا الرأى سهل الفهم ولكنه مستند الى كل التجارب التى أجريت لاختباره فأيدته .

أما النقاش حول النظرية الذرية فبقى نقاشاً غير مجدٍ حتى توافرت الظروف لاختبارها فدلت على صحتها كما سنرى .

فى أوائل القرن التاسع عشر اقترح الكيميائى البريطانى جون دولتن (١٧٦٦ - ١٨٤٤) ان فى الطبيعة أجساماً مركبة ، وأخرى عنصرية بسيطة . إن كل عنصر من العناصر مؤلف من ذرات منفصلة متميزة . وقد افترض دولتن ذلك ليفسر به أنه إذا اتحد غازان ليؤلفا غازا ثالثا ، فانهما يفعلان ذلك بنسبة محددة (أو بعدد قليل من النسب المحددة) ، وذلك مهما كان مقدار الغازين الأصليين . واقترح غى لوساك (١٧٧٨ - ١٨٥٠) أن الغاز الثالث ، المتولد من اتحاد الغازين الأصليين ، يكون مؤلفا من لبنات أساسية ، تسمى الواحدة منها جزيئا ويتكون الجزيء ، فى الغاز المركب ، من عدد من ذرات الغاز الأول ، ومن عدد من ذرات الغاز الثانى انضمت الى بعضها ليتكون منها جزيء الغاز الناتج .

وفى عام ١٨١٥ اقترح الكيميائي البريطاني وليام بروت (١٧٨٥ - ١٨٥٠) أن ذرة أي عنصر بسيط مؤلفة من اجتماع عدد من ذرات أخف العناصر ، وهو الهيدروجين . وكان السبب فى هذا الاقتراح هو ملاحظة الكيميائيين أن الأوزان الذرية للعناصر الكيميائية المعروفة كلها أضعاف صحيحة تقريبا للوزن الذري للهيدروجين .

ثم برهنت التجارب الكهربائية الكيميائية للفيزيائي والكيميائي البريطانى فارادى على أن المادة ، وهى عادة غير مشحونة كهربائيا ، محايدة ، تحمل فى داخلها شحنات موجبة ، وأخرى سالبة ، تتساوى فيعدل بعضها أثر بعض ، وتصبح المادة فى مجملها محايدة .

وزادت العناية بالنظرية الذرية بعد أن اكتشف الكيميائي الروسى دمترى مندلييف (١٨٣٤ -١٩٠٧) الجدول الدوري للعناصر فى عام ١٨٦٩ . ويعرف كل عنصر ، فى الجدول الدوري للعناصر ، بعددين هما العدد الذري ، والوزن الذري ، وكلاهما يزداد عند الانتقال ، عبر الجدول ، من العناصر الخفيفة الى العناصر الأثقل . والعدد الذري هو ترتيب الموضع الذى يحتله العنصر فى الجدول الدوري بدءاً بأخف العناصر ، الهيدروجين ، الذى ترتيبه الأول ، ولذلك فعدده الذري يساوى الواحد ويزداد العدد الذري وحدة كلما تم الانتقال فى الجدول الدوري من عنصر الى الذى يليه . فالعنصر الذى يلي الهيدروجين مباشرة فى الجدول الدوري هو الهيليوم ، فترتيبه الثانى ، ولذلك فعدده الذري يساوى > ويليه الليثيوم (فعدده الذري ٣) وهكذا . أما الوزن الذري فهو عدد المرات التى يكون بها عنصر أثقل من الهيدروجين ، الذي اتخذ وحدة للأوزان الذرية . وقد اكتشف مندلييف دورية فى الصفات الكيميائيه للعناصر المدرجة فى الجدول الذري . فعند الانتقال ، فى أول الجدول الدوري ، من العنصر الأول ، أى الهيدروجين ، إلى العنصر الثانى ، أي الهليوم ، يتبين اختلاف كبير بين هذين العنصرين ، فأولهما نَهِمٌ للتفاعل مع العناصر الأخرى ، ويكون مع الكثير منها أحماضاً ، أما الثاني فهو خامل لا يتفاعل مع أحد . ولكن إذا سرنا قدما فى الجدول الدوري فسرعان ما نلقى من جديد عنصرا خاملا هو النيون (وعدده الذري ١٠ أي أكبر من العدد الذري للعنصر الخامل الأول الذى هو الهليوم بثمانية) . فاذا استمررنا فى التقدم وجدنا العنصر الخامل الثالث ، وهو الأرغون ، عند العدد الذرى ١٨ (أى أكبر من النيون أيضا بثمانية) ، ثم الرابع ، وهو الكربتون عند العدد ٣٦ (أى اكبر من الأرغون بثمانية عشر) ، والخامس ، وهو الكزينون عند ٥٤ (أي أكبر من الكريبتون بثمانية عشر أيضا) ، وأخيرا السادس ، وهو الرادون عند ٨٦ (أى

أكبر من الكزينون باثنتين وثلاثين) . وهذه الدورية التى معالمها : ٨، ٨، ١٨، ١٨، ٣٢ تظهر فى سلاسل أخرى من العناصر كالمعادن القلوية التى تبدأ بالليثيوم ، ومولدات الملوحة التي تبدأ بالفلور . وقد كانت هذه الدورية مفيدة للكيميائيين وسمحت لهم بالتنبؤ بوجود عناصر لم تكن معروفة بعد لأن الجدول الدوري كان يحوى مربعات خالية وكان ينبغى لهذه العناصر المجهولة أن تملأها . وكان تفسير هذه الدورية من المراحل الأساسية فى البرهان على صحة النظرية الذرية ، وفى اكتشاف مركبات الذرة .

٨ ـ الاشعة المهبطية

بدأت دراسة الأشعة المهبطية فى الثلاثينات من القرن التاسع عشر منذ أيام فارادى . وتتولد هذه الاشعة عندما يوضع داخل أنبوب مغلق ، عادة من الزجاج ، مقدار من الغاز تحت ضغط منخفض يحسن اختياره ، ومسريان يوصل أحدهما بالقطب السالب لمنبع كهربائي (ويسمى هذا المسرى بالمهبط لأنه الموضع الذى يهبط اليه التيار ومنه اسم الأشعة) ، ويوصل الثاني بالقطب الموجب للمنبع نفسه (ويسمى هذا المنبع بالمصعد) . ويطبق بين هذين المنبعين توتر كهربائي . ويحدث فى الأنبوب عندئذ انفراغ كهربائي مؤلف من أشعة هى الاشعة المهبطية . وقد تساءل المجربون عن طبيعتها وهل هى جسيمات مادية أم اشعاع كهربائي مغناطيسي . ولكشف ذلك أخضعوا الأشعة لحقل كهربائي ، ولحقل مغناطيسي ، ودرسوا انحرافها بفعل واحد منهما ، وبفعلهما معا . ونتيجة لذلك اكتشفوا أن الأشعة المهبطية مؤلفة من جسيمات مادية ذات كتلة صغيرة ، وشحنة كهربائية سالبة ، سُمي الواحد منها بالالكترون .

٩ ـ اكتشاف الالكترون :

تم هذا الاكتشاف بفضل تجارب الفيزيائي البريطاني جوزيف جون تمسن (١٨٥٦ ـ ١٩٤٠) وقد اخضع تمسن الحزمة المهبطية لفعل حقلين متصالبين (كهربائي ومغناطيسي) حيث يحرف الحقل الكهربائي الحزمة في اتجاه ، ويحرفها الحقل المغناطيسي في الاتجاه المعاكس . وبحسن انتقاء قيمتي الحقلين ، أمكن جعل الانحراف معدوما . ويسمح ذلك عندئذ بقياس نسبة شحنة الجسيم الذي تتكون منه الأشعة المهبطية الى كتلته . وقد وجد تمسن هذه النسبة أكبر من نظيرتها في ذرة الهيدروجين ، التى كان قاسها فارادى ، بألفي مرة تقريبا . واستنتج تمسن من ذلك أن هذا الجسيم هو حبيبة الكهرباء السالبة ، وسماه لذلك بالاكترون . وفي عام ١٩٠٥ تمكن ربرت ميليكان (١٨٦٨ ـ ١٩٥٣) من قياس شحنة الالكترون وحدها ، وذلك بجعله قطرات من الزيت مشحونة كهربائيا تسقط بين لوحين أفقيين أقيم بينهما توتر كهربائي . ولما كانت نسبة شحنة الالكترون الى كتلته معروفة من تجارب تمسن ، فقد أمكن استنتاج كتلة الالكترون التى تبين أنها أصغر من كتلة ذرة الهيدروجين بألفي مرة تقريبا .

١٠ ـ الأشعة المصعدية

بعد اكتشاف الالكترون بقليل ، اكتشف تمسن وآخرون الأشعة المصعدية ، وهى تشابه الاشعة المهبطية ، ولكنها تسري في عكس اتجاهها ، أى تسري من المصعد إلى المهبط . وسرع الجسيمات التى تتألف منها أصغر بكثير من سرع الالكترونات التى تتألف منها الأشعة المهبطية . وعند قياس نسبة شحنة جسيمات الأشعة المصعدية إلى كتلتها تبين

أن قيمتها أصغر من القيمة المقابلة لها في الأشعة المهبطية بآلاف المرات . ووجدت أعلى قيمة لنسبة الشحنة الى الكتلة عندما طلي المصعد بمركب من مركبات الهيدروجين . وقد استنتج ان الأشعة المصعدية مؤلفة ، في هذه الحالة ، من ذرات الهيدروجين التى تحمل شحنة موجبة تساوي شحنة الالكترون وتعاكسها . وسميت هذه الجسيمات بالبروتونات . وكتلة البروتون أكبر من كتلة الالكترون بألفى مرة ، وشحنتاهما متساويتان ومتعاكستان فى الإشارة . وهكذا تبين أن ذرة الهيدروجين مؤلفة من اجتماع بروتون والكترون ، وأن جل كتلة الذرة في البروتون ، وأن شحنة الالكترون سالبة ، وشحنة البروتون موجبة ، وهما متساويتان ، فمجموعها يساوى الصفر ، ولذلك فان ذرة الهيدروجين العادية معتدلة كهربائيا أي لاتحمل أية شحنة .

١١ - الأشعة السينية

اكتشف هذه الأشعة ولهلم رنتغن (١٨٤٥ - ١٩٢٣) أثناء تجارب أجراها على التفريغ الكهربائى في الغازات ، وذلك عام ١٨٩٥ . وقد تبين له ان الأشعة السينية ليست مؤلفة من جسيمات مادية (كالأشعة المهبطية والمصعدية) لأنها لاتنحرف بفعل الحقول الكهربائية والمغناطيسية بينها الجسيمات المادية المشحونة كهربائيا تنحرف . وقد ظهر أن الأشعة السينية تصدر من بقع صغيرة لامعة على سطح المصعد الذى كانت تصدمه الأشعة المهبطية ، أي الألكترونات الآتية من المهبط . ومن هنا استنتج الباحثون أن الأشعة السينية هي إشعاع كهربائي مغناطيسي ، كالضوء المرئي ، ولكن طول موجته أقصر منه بكثير ، وهو قادر لذلك على النفوذ في مواد معتمة لاينفذها الضوء المرئي . وعندما تصدم الالكترونات الواردة في الأشعة المهبطية المصعد تهيج ذراته فتصدر هذه عندئذ الأشعة السينية ، كما ان إشعال فتيل الشمعة يهيج الذرات فيه فتصدر هذه الضوء المرئي .

١٢ - النشاط الإشعاعى

حفز اكتشاف رنتغن للأشعة السينية الفيزيائي الفرنسي هنرى بكرل (١٨٥٢ - ١٩٠٨) على دراسة خصائصها . ولم تكن كيفية إصدار الاشعة السينية معروفة بعد ، فافترض بكرل أنها تنتج من حادثة الفلورة . والفلورة حادثة تصدر بفضلها بعض المواد ضوءاً إذا ماهيجت بشكل مناسب ، كأن تهيج كهربائيا أو بتعريضها لضوء . وجرب بكرل عددا من المواد هيجها بتعريضها لضوء الشمس ثم فحصها ليكشف ما إذا كانت تصدر أشعة سينية . وبقيت تجاربه دون جدوى إلى أن جرب يوما ملحا من أملاح الارانيوم فوضع هذا الملح على لوحة فوتوغرافية ملفوفة بورق أسود ثخين لحمايتها من نور الشمس . ثم وضع الملح واللوحة في ضوء الشمس الساطع فترة من الزمن ليحفز الفلورة في ملح الارانيوم وبعد ذلك حمض اللوحة التصويرية فوجد فيها آثاراً سوداء تدل على أنها تعرضت لإشعاع آتٍ من الملح الذى كان موضوعاً فوقها . . ولكن تفسيره بأن اللوحة التصويرية قد تعرضت لهذا الاشعاع لأن الملح فوقها كان قد تفلور بفعل أشعة الشمس ، ما لبث أن تبين خطؤه ، عندما حمض لوحة أخرى ، عليها أيضا ملح من الارانيوم ، ولكن هذا الملح لم يعرض للشمس ابداً ، أى أنه لم يفلور . فادرك بكرل عندئذ أن الأشعة التى تسود لوحة التصوير آتية من الارانيوم باستمرار دون أن تحتاج إلى أي تهيج أو فلورة . وهكذا تم اكتشاف حادثة جديدة هامة كانت من بوادر العصر النووي هي حادثة النشاط الإشعاعى .

ودرس الفيزيائي الفرنسي بيير كورى (١٨٥٩ ـ ١٩٠٦) ، وزوجه البولونية مارى سكلودوف (١٨٦٧ ـ ١٩٣٤) هذه الحادثة دراسة مفصلة ، فاكتشفا عنصرا جديدا هو الراديوم الذي يعتبر نشاطه الإشعاعى أكبر بكثير من الارانيوم . ودرسها أيضا الفيزيائي البريطاني ، النيوزلندي الأصل ارنست رذرفرد (١٨٧١ ـ ١٩٣٦) الذى اكتشف نواة الذرة .

١٣ ـ اكتشاف النواة

اكتشاف الأشعة السينية والنشاط الإشعاعي مهد الطريق للعصر النووى الذى كانت فاتحته اكتشاف النواة .

بدأ رذرفرد أبحاثه بدراسة الأشعة السينية في عام ١٨٩٦ ، أي بعد اكتشافها مباشرة ، وذلك تحت إشراف تمسن في مخبر كافندش بكمبردج . وكان يدرس ، بشكل خاص ، تأين المواد (أي تولد شحنات موجبة وسالبة فيها) بفعل الأشعة السينية ، ثم عودة هذه الشحنات الى الاتحاد بعضها ببعض ، لتتألف من اجتماعها ، من جديد ، المادة المعتدلة كهربائيا التى كانت موجودة قبل إخضاعها لمرور الاشعة السينية . وكان من الطبيعي أن يدرس الأشعة التى اكتشفها بكرل في أثناء سعيه لفهم طبيعة الأشعة السينية ، هذه الأشعة التى تشكل ما يسمى بالنشاط الاشعاعي . وقد اكتشف رذرفرد أن الأشعة الصادرة في النشاط الإشعاعى من نوعين مختلفين ، سمى النوع الأول أشعة الفا والثاني أشعة بيتا . ووجد أن أشعة بيتا أشد نفوذاً من أشعة الفا ، وان كلا منها مؤلف من أجسام مادية مشحونة ، وأن أشعة بيتا ذات شحنة سالبة ، وأشعة الفا ذات شحنة موجبة ، وبقياس انحرافها بفعل الحقول الكهربائية والمغناطيسية ، برهن رذرفرد على أن أشعة بيتا مؤلفة من الكترونات ، وان أشعة الفا هى ذرات الهليوم التى تحمل شحنة كهربائية موجبة تساوى ضعف الالكترون فكتلة جسيم الفا أكبر من كتلة جسيم بيتا بثمانى آلاف مرة .

وفى تجارب أجراها رذرفرد فى مونتريال بكندا مع الكيميائي البريطاني فردريك سودي (١٨٧٧ ـ ١٩٥٦) ، برهن على أن النشاط الإشعاعى ناتج من تفكك ذرات بعض العناصر وانقلابها إلى عناصر أخرى . فالنشاط الإشعاعي إذن هو تجسيد لحلم راود العاملين في الكيمياء القديمة خلال عصور وهو قلب بعض المواد إلى مواد أخرى (كالخسيسة إلى ثمينة)

انتبه رذرفرد الى أن جسيم الفا ، الذى كان قد كشف أنه احد مركبات النشاط الاشعاعى وأنه ذرة الهليوم التى تحمل شحنتين ، يمكن أن يستخدم كقذيفة عالية الطاقة جدا لسبر أغوار الذرة . وقد بينت تجارب رذرفرد ، وتجارب الفيزيائي الألماني هانس غايغر (١٨٨٢ ـ ١٩٤٥) على أنه إذا قذفت مادة ما بجسيمات الفا ، فان هذه الجسيمات تخترقها وكأنها خلاء ليس فيه شيء ، مما يدل على أن أغلب الذرة خال من المادة . إلا انه ، من حين لآخر ، ينحرف جسيم من جسيمات ألفا ، لأن شحنته كهربائية الموجبة ، تقترب اقترابا كافيا من إحدى الشحنات الكهربائية الموجبة أو السالبة الموجودة في الذرة ، فتدفعها هذه ، أو تجذبها ، قليلا أو كثيرا فتحرفها عن مسارها الأصلى . وقد تبين أنه في حالات نادرة ، يرتد جسيم الفا على أعقابه تقريبا ، كأنه قد اصطدم بحاجز لايتزحزح . واستنتج رذرفرد من ذلك أن هذا لايمكن أن يحدث إلا إذا كانت الشحنة الموجبة فى الذرة مركزة كلها في حيز صغير جدا ، وصادف أن اتجه جسيم الفا

في اتجاه هذا الحيز مباشرة ، فتدافعت الشحنتان الموجبتان ، الموجودتان في الذرة وكذلك في جسيم الفا ، تدافعا شديدا .

تجربة رذرفرد ذات النتيجة العجيبة هذه قال عنها : « كأننا كنا نرمى صفحات من الورق بقنابل من مدفع ، وترتد القنابل على أعقابها . » وقد أنهت هذه النتيجة النموذج الأول الذى كان قد اقترح للذرة ، وقضت عليه قضاء نهائيا . وكان هذا النموذج يسعى الى أن يمثل الواقع المعروف من أن الذرة مؤلفة من شحنات موجبة وشحنات سالبة (هى الالكترونات) متساوية ومتعاكسة . وكان أبسط نموذج ممكن يحقق استقرار الذرة هو أن تكون الذرة كرة تتوزع فيها الشحنة الموجبة بانتظام ، وتتعلق فيها في مواضع محددة الالكترونات الحاملة للشحنة السالبة وقالوا للإشارة الى هذا النموذج إنه نموذج قطعة الحلوى بحبات الزبيب . فقطعة الحلوى الممتدة هى الشحنة الموجبة . وحبات الزبيب المعلقة داخلها هى الالكترونات (اى الشحنة السالبة) . أما نموذج رذرفرد فهو أن الشحنة الموجبة مركزة في مركز الذرة ، في حيز أصغر من حيز الذرة بمائة ألف مرة ، ويسمى هذا الحيز النواة . أما الالكترونات فمحيطة بالنواة على مسافات أكبر من قطر النواة بمائة الف مرة .

واكتشف رذرفرد بعد الحرب العالمية الأولى أنه يمكن تحقيق التفكك الصنعي للنتروجين بقذفه بجسيمات الفا . واقترح ايضا في عام ١٩٢٠ وجود جسيم شبيه بنواة الهيدروجين ولكنه لايحمل شحنة كهربائية . وقد اكتشف هذا الجسيم فعلا في عام ١٩٣٢ ، وسمي بالنترون . وكان مكتشفه جيمس تشادويك (١٨٩١ ـ ١٩٧٤) . وفي عام ١٩٢٠ ايضا اقترح رذرفرد أن تسمى نواة الهيدروجين بالبروتون لأنها تحمل الشحنة الكهربائية الموجبة العنصرية .

وفي مخبر كافنديش ، الذى أداره رذرفرد من عام ١٩٢٠ حتى وفاته عام ١٩٣٧ ، تمت اكتشافات أساسية اخرى في مجال الفيزياء النووية ، منها ، بالاضافة الى النترون ، بناء أول مسرع نووى بناه ككرفت وولتن ، وسرعا فيه بروتونات استخدماها لتوليد النشاط الإشعاعى الاصطناعى .

تحدثنا حتى الآن عن مركبتين للنشاط الإشعاعى هما أشعة الفا وأشعة بيتا . وهناك مركبة ثالثة اكتشفها بول فيلار عام ١٩٠٠ ، وبرهن على أنها أشعة كهربائية مغناطيسية (كالضوء المرئي وكالأشعة السينية) ولكنها أشد نفاذا منهما ، وتسمى أشعه غاما . ولدينا هنا تسلسل رتبوى فى طول الموجة ، يقابله تسلسل رتبوى عكسى فى الطاقة . فأطول هذه الأشعة موجة ، وأصغرها طاقة ، هو الضوء المرئي . وتليه الأشعة السينية التي طول موجتها أقل من طول موجة الضوء المرئي . . . بألف مرة ، وطاقتها أعلى من طاقته بألف مرة . ثم تأتى أشعة غاما ، وهى أقصر من الأشعة السينية بألف مرة ، وأعلى منها طاقة بألف مرة .

من المفاهيم الأساسية التى عرفها رذرفرد لدراسة النشاط الإشعاعى مفهوم نصف الحياة لعنصر ذى نشاط إشعاعى . وتعريف نصف الحياة هو الزمن اللازم ليتفكك نصف العنصر أى لينقلب الى عنصر آخر باصدار جسيم الفا

وجسيم بيتا . وقاس رذرفرد نصف حياة الثوريوم (وهو أول نصف حياة قيس) بدراسة تناقص إشعاعه مع الزمن . ونصف الحياة مهم في تحديد الأزمان فى علم الأرض (الجيولوجيا) . فحساب عمر الأرض مثلا يتم بدراسة نصف حياة العناصر ذات النشاط الإشعاعى التى يتفكك الواحد منها الى الآخر فتتولد بذلك سلسلة أولها الارانيوم وآخرها الرصاص .

فسر رذرفرد، بالتعاون مع سودى ، النشاط الإشعاعى بأنه انقلاب عنصر الى آخر فاذا كان الجسيم الصادر هو جسيم الفا ، أى نواة الهليوم الحاملة شحنتين موجبتين ، فان العنصر الابن يكون ذا عدد ذري أصغر من العدد الذري للعنصر الأب بوحدتين (هما العدد الذرى للهليوم) ، ويكون ذا وزن ذري أصغر من الوزن الذري للعنصر الأب بأربع وحدات (هى الوزن الذري للهليوم) . أما إذا كان الجسيم الصادر هو جسيم بيتا ، أى الكترون ، فان العنصر الابن يكون ذا عدد ذري أكبر من العدد الذري للعنصر الأب بوحدة واحدة (لأن الالكترون ذو شحنة سالبة تساوى الواحد) ، ويكون ذا وزن مساوٍ للوزن الذري للعنصر الأب (لأن الالكترون ذو كتلة لاتذكر) . وإذا كان الجسيم الصادر هو جسيم غاما يكون للعنصر الابن والعنصر الأب عدد ذري واحد ، ووزن واحد ، أي يكونان العنصر نفسه ، وإنما يختلفان في أن العنصر الأب يكون حاملا لفيض من الطاقة يتخلص منه باصدار جسيم

١٤ ـ نظرية النسبية

لايمكن الحديث عن تاريخ الطاقة النووية دون ذكر النظريتين الأساسيتين اللتين تقودان الفيزياء منذ أوائل القرن العشرين وهما نظرية النسبية والميكانيك الكوانتى .

في عام ١٩٠٥ نشر الفيزيائي الألماني الأصل ألبرت اينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥) ثلاث نشرات أثرت في الفيزياء أعمق الأثر . وقد كان صاحب هذه الاكتشافات الرائعة فتى في السادسة والعشرين ، لم يحصل على الدكتوراه إلا منذ ثلاث سنوات ، وليس على صلة بالجامعات والمعاهد ، بل كان يعمل منعزلا في مكتب براءات الاختراع السويسري . عرضت النشرة الأولى لاينشتاين النظرية الجسيمية للضوء أي أن الضوء مكون من حبيبات منفصلة يسمى الواحد منها فوتوناً ، وتتعلق طاقته بطول موجة الضوء . وقد فسر اينشتاين بهذه الفرضية المفعول الكهرضوئى ، أي إصدار بعض المواد الكترونات إذا أنارها الضوء . وقد تحقق من صحة هذه النظرية الفيزيائي الأمريكي روبرت ميليكان في تجارب أجراها في أعوام ١٩١٢ الى ١٩١٥ .

أما النشرة الثانية لاينشتاين فكانت نظرية رياضية للحركة البراونية . وهذه الحركة مسماة باسم عالم النبات الأسكتلندى ربرت براون (١٧٧٣ ـ ١٨٥٨) الذى كان أول من شاهدها في السوائل ، وهى حركة عشوائية لجسيمات صغيرة معلقة في سائل تحدث بفعل صدم هذه الجسيمات من قبل جزيئات السائل . وكانت هذه الحركة قد شوهدت لأول مرة عام ١٨٢٧ ، وشكلت دليلا قويا على صحة النظرية الحركية للجزيئات . وقد شكلت نشرة اينشتاين دعما قويا لفرضية أن السائل مكون من جزيئات منفصلة ، لأنها برهنت على أن الجسيمات المعلقة فيه تسلك سلوك جزيئات كبيرة . وقد برهن على صحة تنبؤات نشرة اينشتاين هذه الفيزيائى الفرنسي جان بيران في تجارب أجراها عام ١٩٠٩

هاتان النشرتان الأوليان لهما أهمية عظيمة ، بل إن نوبل منحت لاينشتاين بالاستناد الى أولاهما . ولكنهما يصغران تجاه النشرة الثالثة التى عرض فيها اينشتاين النظرية النسبية .. (اليوم يسمى هذا القسم بالنسبية الخاصة لأن اينشتاين أقام نظرية أخرى هي النسبية العامة نشرها عام ١٩١٦ ، وهى اليوم النظرية الثقالية) .

من الأفكار الأساسية في الميكانيك النيوتنى أن كل حركة نسبية ، أى أنه لايمكن ان نكشف حركة جسم إلا بمقارنتها بجسم آخر نتخذه مرجعا للمقارنة . فاذا أردنا مثلا أن ندرس سقوط حبة من هباء الغبار في غرفة ، أمكننا أن نفعل ذلك بقياس بعدها عن جدارين متعامدين من جدران الغرفة وعن أرضها ، وتحديد كيفية تغير هذه الأبعاد الثلاثة عند انقضاء الزمن . فالغرفة (المحددة بجداريها المتعامدين وأرضها) تشكل جملة المقارنة التى نقيس بالنسبة اليها موضوع حبة هباء الغبار . ونستطيع أن نختار جملة المقارنة كيفما نشاء شريطة ألا تكون ذات سرعة متغيرة . فنستطيع مثلا أن نجري تجربة مشابهة على حبة من هباء الغبار فى عربة من قطار متخذين جملة للمقارنة مؤلفة من جدارين متعامدين وأرض العربة . أو قد نفعل مثل ذلك فى طائرة . والشيء الهام فى قوانين نيوتن هي أنها تكون بالشكل ذاته في كل جمل المقارنة هذه . فلا يمكن إذن ، بإجراء تجارب ميكانيكية اكتشاف حركة جملة من جمل المقارنة بالنسبة إلى جملة أخرى ، وبكلام آخر إذا كنا داخل طائرة مغلقة النوافذ ، فاننا لانستطيع - باجراء أية تجربة من التجارب - أن نكتشف فيما إذا كانت الطائرة تطير ، وأن نقيس سرعتها .

عندما برهنت تجارب فارادى ، ثم نظرية ماكسويل ، على توحيد الكهرباء والمغناطيسية ، وأن الضوء اهتزاز كهربائي مغناطيسي ، أصبح يبدو انه من الممكن أن نكتشف حركة جملة مقارنة بالنسبة الى جملة مقارنة أخرى بقياسات ضوئية . وقد سعى الى تحقيق ذلك الفيسزيائيان الامريكيان البرت مايكلسن (١٨٥٢ - ١٩٣١) وادوارد مورلى (١٨٣٨ - ١٩٢٣) . وكانت تجربتهما تستند إلى ان الأرض في دورانها حول الشمس تتحرك بسرعة قريبة من ثلاثين كيلومترا في الثانية . فاذا صدرت نبضة من الضوء في اتجاه حركة الأرض حول الشمس وتركت تنتشر مسافة محددة ، ثم عكست على مرآة لجعلها تعود الى منبعها الأصلى ، وأنها في ذهابها ثم إيابها تجمع إلى سرعتها الذاتية (سرعة الضوء ٣٠٠،٠٠٠ كيلومتر في الثانية) سرعة الأرض ، فتضاف السرعتان في أحد شقى رحلة الضوء وتنطرحان في الشقة الأخرى . وإذا كررت التجربة مرة أخرى ، ولكن بجعل النبضة الآن تسير في اتجاه عمودي على حركة الأرض ، فان السرعتين (سرعة الضوء وسرعة الأرض) تتركبان ايضا ، ولكن بشكل آخر . فاذا صدرت نبضتان في آن واحد ، إحداهما في اتجاه حركة الارض ، والثانية في اتجاه عمودي وانعكستا على مرآتين موضوعتين على بعدين متساويين من المنبع ، لتعودا اليه ، فانه يمكن بمقارنة زمن وصولهما اكتشاف حركة الأرض حول الشمس وقياس سرعة هذه الحركة .

هذه التجربة شبيهة بسباق بين سباحين يسبحان في نهر : فيقطع أحدهما عرض النهر من ضفته الأولى الى الثانية ليعود الى الأولى . ويسبح الثاني في اتجاه تيار النهر ، فيسبح عكس التيار مسافة تساوى عرض النهر ، ثم يسبح في اتجاه التيار ليعود الى نقطة انطلاقه

تجربة مايكلسون ومورلى لم تؤد الى أية نتيجة تكشف حركة الأرض . أى أنه تبين بنتيجتها أنه يستحيل كشف حركة جملة مقارنة بالنسبة إلى جملة اخرى ، حتى باستخدام تجارب ضوئية وهذا يعني ان ما يصح في حالة الحركات الميكانيكية يبقى صحيحا في حالة الحركات الكهربائية المغناطيسية .

نظرية اينشتاين في النسبية تفسر كل ذلك . وهي تنطلق من فرضية أساسية هي أن سرعة الضوء هي هي كائنا من كان الذى يقيسها ، ومهما كانت حركة هذا القائس . ولكن هذا المبدأ الأساسي (وهو مبدأ لامفر منه إذا أردنا تفسير النتيجة السلبية لتجربة مايكلسن ومورلى) يفرض تغييرا أساسيا في مفهومنا عن الزمان والمكان . فيصبح قياس البرهات الزمانية ، والمسافات المكانية ، خاضعا لحركة القائس : فلا يجد قائسان ، يتحرك أحدهما بالنسبة للآخر . النتيجة نفسها ، إذا قاسا برهة زمانية أو مسافة مكانية . وهكذا تصل نظرية النسبية الى أن المكان نسبي ، والزمان نسبي ، بل تصل الى أبعد من ذلك فتقول إن الزمان والمكان هما مركبتان من كائن أشمل هو « الزمان المكان » . ونعلم أن المكان المألوف له أبعاد ثلاثة (الطول والعرض والارتفاع) ، وأن للزمان المألوف بعداً واحداً . فنظرية النسبية تُحلُّ محلهما « الزمان المكان » ذا الأبعاد الأربعة .

نضيف الى هذه الملامح الرئيسية لنظرية النسبية فكرة أخرى هي تكافؤ الكتلة والطاقة . وينص هذا المبدأ على أن كل كتلة يمكن أن تنقلب الى طاقة مقدارها جداء هذه الكتلة في مربع سرعة الضوء . وهذا هو الأساس الذى تستند إليه الطاقة النووية فهى مبنية على قلب جزء من كتلة النواة إلى طاقة ، واستخدام هذه الطاقة .

نظرية النسبية هي أعظم نظرية فيزيائية معاصرة ، ولاتنافسها هذه المرتبة إلا نظرية الميكانيك الكوانتى . وقد قوبلت في مطلعها بازدراء وعداء مالبثا أن انقلبا عناية فائقة وإجلالاً عندما أيدت التجربة ، بعد الحرب العالمية الاولى ، بعض التنبؤات الفلكية لنظرية النسبية العامة ، وقد أجرى هذه القياسات الفيزيائي والفلكي البريطاني آرثر ادنختون (١٨٨٢ - ١٩٤٤) ، وكان من أكثر أنصار النظرية النسبية حماسا لها . ويروى عنه أنه قيل له مرة : (لايفهم نظرية النسبية إلا ثلاثة أشخاص على ظهر الأرض بمن فيهم آينشتاين) . فسكت قليلا ثم قال : ليت شعرى من هو الثالث ؟

علاقة آينشتاين بالطاقة النووية علاقة وثيقة . فبالاضافة الى الأساس النظري الذي تشكله علاقة تكافؤ الكتلة والطاقة التي تحويها النظرية النسبية ، فان اينشتاين كان من الذين بنوا النظرية الكوانتية الأولى ، وذلك في نشرته عن المفعول الكهروضوئي (وإن كان اينشتاين أصبح فيما بعد من المشككين في الميكانيك الكوانتي الحديث لتخليه جزئيا عن مبدأ السببية) . وقد أثر آينشتاين في نمو الطاقة النووية ، والنقاش الدائر حولها ، تأثيرا عميقا آخر بمبادرتين أولهما حدثت في ربيع ١٩٤٠ عندما كتب الى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية حينئذ فرانكلن رزفلت رسالة شهيرة يحذر فيها من أن المانيا ربما كانت تبني قنبلة نووية ، وينصح فيها بان تقيم الولايات المتحدة برنامجا واسعا لصنع الأسلحة النووية . والمبادرة الثانية لآينشتاين كانت توقيعه على نداء أعده الفيلسوف والرياضي البريطاني الشهير برتراند راسل ، وأصبح يعرف

بنداء اينشتاين ورسل . ويبين العالمان في ندائهما هذا أخطار الحرب النووية ، ويناشدان الأمم حل خلافاتها سلميا . وقد وقع اينشتاين هذا النص قبل وفاته بأيام في عام ١٩٥٥ ».

١٥ - الميكانيك الكوانتي

بدأت النظرية الكوانتية الأولى عندما سعى ماكس بلانك (١٨٥٨ - ١٩٤٧) إلى تفسير طيف الإشعاع الصادر عن جسم . ومن المعلوم أن كل جسم من الأجسام في الطبيعة يصدر إشعاعا كهربائيا مغناطيسيا أي ضوءاً ، إلا أن هذا الضوء يكون غير مرئي إذا كانت درجة حرارة الجسم منخفضة . فاذا أخذنا قطعة من الحديد ، وسخناها فانها تحمى وتصدر إشعاعاً غير مرئي ، هو أشعة تحت حمراء . فاذا سخناها اكثر بدأت تتوهج ، أي تصدر اشعاعاً مرئيا ، يكون أحمر ، فاذا سخنت القطعة أكثر ، ابيضّ هذا اللون ، أي تولدت فيه مع اللون الأحمر ألوان اخرى .

وقد سعى الفيزيائيون إلى حساب هذا الطيف ، أي تحديد المقادير النسبية فيه لأطوال موجاته (أي لألوانه ، إذا كان مرئيا) . واستخدموا لذلك نظرية ماكسويل الكهربائية المغناطيسية التي كان قد ثبت نجاحها الدائم ، كما استخدموا الميكانيك النيوتوني الذي كان أيضا ناجحا ناجعا . ولكن نتائج حساباتهم كانت دائماً على خلاف مع الواقع التجريبي . ولم تحل هذه الأزمة حتى أتى بلانك بفرضية ثورية افترض فيها أن الاشعاع الصادر من الجسم المشع يصدر منه بشكل حبيبات منفصلة سمى الواحدة منها كوانتوم . وجاء بعد ذلك آينشتاين فوسع هذه الفرضية وعممها وقال أن كل إشعاع كهربائي مغناطيسي أي كل ضوء مرئي أو غير مرئي ، هو مجموعة من حبيبات منفصلة ، سمى الواحدة منها فوتونا ، أي كوانتوما (أو كما) من الضوء . وقال إن طاقة الفوتون الواحد متناسبة عكسا مع طول موجته ، فكلما قصر طول الموجة كبرت الطاقة ، والعكس بالعكس .

بعد اكتشاف النواة ، وبناء نموذج للذرة يُشَبِّهها بمجموعة شمسية صغيرة ، وهو موضوع الفقرة التالية ، أصبحت المشاكل التي تعترض الميكانيك النيوتوني ، ونظرية ماكسويل الكهربائية المغناطيسية ، أصعب بكثير من تلك التي تمكن بلانك واينشتاين من حلها في نطاق النظرية الكوانتية الأولى ، وفرضية الفوتون ، فاضطر الفيزيائيون ، حتى يتمكنوا من بناء نظرية تتفق مع الواقع التجريبي الذري ، إلى التخلي جزئيا عن مبدأ السببية في الفيزياء وإلى أن يخترعوا علاقة جديدة تسمى علاقة اللاحتمية التي تنص على أنه لا يمكن ، في آن واحد ، قياس كل المقادير التي تحدد حركة جسيم . فلا يمكن مثلا قياس موقع الكترون وسرعته في آن واحد . وهذا يعني أنه لا يمكن تحديد مساره بالضبط . وكل ما يسمح الميكانيك الكوانتي بمعرفته هو احتمال وجود الالكترون في موقع ما في لحظة ما . وهذا يعني التخلص جزئيا عن السببية التي تنص ، كما في الميكانيك النيوتوني ، على أنه إذا عرفنا موقع جسم ما ، وسرعته ، في لحظة ما ، وعرفنا قانون القوة التي يخضع لها الجسم ، فاننا نستطيع تحديد موقعه وسرعته في أية لحظة مقبلة .

نما الميكانيك الكوانتي في أواخر العشرينات ، وأوائل الثلاثينات ، من هذا القرن . ومن أشهر من بنوه الفيزيائي الالماني فورنر هايزنبرغ (١٩٠١ - ١٩٧٦) ، والنمسوي أروين شردنغر (١٨٨٧ - ١٩٦١) . والبريطاني

بول ديراك (١٩٠٢ ـ ١٩٨٤)) ، والدنمركي ينلزبور (١٨٨٥ ـ ١٩٦٢) . أما اينشتاين فبقي حتى آخر حياته يشكك فيه ، ويسعى الى نقضه لتخليه عن السببية وقبوله بمقدار من العشوائية حتى إنه قال مرة : (إن الله تعالى لا يلعب بالنرد) وقد دارت بين اينشتاين وبين بور مساجلات دامت سنوات ، تبادلا خلالها رسائل تملأ مجلدات ، ينقد فيها اينشتاين الميكانيك الكوانتي ، ويدافع عنه بور . واليوم يعتبر الميكانيك الكوانتي ، على ما فيه من مفارقات فكرية تصدم الحس المألوف ، أنجح نظرية فيزيائية ، ومن أروع بنات الفكر الانساني ، وله تأثير عميق على كثير من فروع العلم .

١٦ ـ نموذج الذرة

بعد اكتشاف الالكترون والبروتون ، والبرهان على أنهما مكوّنا الذرة ، بدأ البحث عن إقامة نموذج لها . والمادة العادية لاتحمل أية شحنة كهربائية ، مما يدل على أنها تحوى عددا من الالكترونات يساوى عدد ما فيها من البروتونات . وأبسط ذرة من الذرات هى ذرة الهيدروجين التى تحوى بروتونا والكترونا واحداً . ولذلك تركزت الدراسة على ذرة الهيدروجين . والبروتون والالكترون فى الذرة يتجاذبان لأن لهما شحنتين كهربائيتين متساويتين ومتعاكستين . فهما إذن يشبهان فى ذلك شمسا وكوكبا سيارا حولها . ويمكن عندئذ من معرفة قوة التجاذب هذه ، ومن تطبيق قوانين نيوتن ، التى نجحت أعظم نجاح فى دراسة حركات الأجرام السماوية ، أن تستنتج طبيعة حركة البروتون والالكترون فى ذرة الهدروجين . ولا ريب أنه لايمكن رؤية هذه الحركة مباشرة لصغر أبعاد الذرة ، ولكن آثارها واضحة فى ما يصدر عن الذرة من ضوء .

غير أن هناك صعوبة كبرى فى هذا المخطط ، ذلك أنه إذا كان الالكترون يدور حول البروتون فى ذرة الهيدروجين ، كما تدور الأرض حول الشمس ، فى المجموعة الشمسية ، فان هذا يعنى أن الالكترون لا يسير على خط مستقيم ، بسرعة ثابتة ، بل إنه يغير منحى سرعته باستمرار حتى يدور حول البروتون فى مسار دائم . ولكن قوانين الكهرباء والمغناطيسية تنص على أنه إذا غيرت شحنة كهربائية منحى سرعتها فانها ينبغى أن تصدر إشعاعا تتخلى عنه على حساب طاقتها . فدوران الالكترون إذن حول البروتون فى ذرة الهيدروجين ، ينبغى أن يصدر اشعاعا باستمرار ، أي أن تنقص طاقته باستمرار ، أي ان يقترب من البروتون باستمرار في مسار حلزوني يجعله في النهاية يقع على البروتون ويصطدم به فيكون شأنه ، حسب هذه النظرية كتابع صنعي للارض يدور في جوها الهوائي ، فيحتك به ، فيفقد طاقته باستمرار ، ويدور حول الأرض في مسار حلزوني يجعله يقترب منها باستمرار الى أن يقع عليها ويصطدم بها . ومن البدهي أن هذا ليس هو ما يحدث فى ذرة الهيدروجين ، لأن للالكترون والبروتون حركة دائمة تجعل الذرة مستقرة . وكان هذا هو ما جعل الفيزيائيين ، قبل اكتشاف النواة ، يتخلون عن هذا النموذج للذرة ، واقترحوا بدلا منه نموذج (قطعة الحلوى ذات الزبيب) التى تتوزع فيها شحنة الذرة الموجبة على كل حيزها ، وتتعلق الالكترونات داخلها كحبات الزبيب . غير أن هذا النموذج أصبح مرفوضا بعد تجارب رذرفرد التى أدت إلى اكتشاف النواة ، والى التأكد من أن شحنة الذرة الموجبة كلها مركزة فيها أي فى حيز أصغر فى أبعاده من الذرة بمائة ألف مرة .

وهكذا اضطر الفيزيائيون إلى الرجوع من جديد إلى نموذج للذرة يجعلها كمجموعة شمسية مصغرة ، أي عادوا

إلى صعوبة تفسير كيف يمكن للالكترونات أن تدور حول النواه أي أن تغير منحى سرعتها باستمرار ، ولا تصدر مع ذلك الإشعاع الذي تنص على إصداره نظرية ماكسويل الكهربائية المغناطيسية .

كانت هذه الصعوبة عقدة معضلة لم يتمكن الفيزيائيون من حلها ، إلى أن أتى بور عام ١٩١٣ وقطعها باعتماده مبدأ جديداً مستمداً من النظرية الكوانتية الأولى لبلانك . فقد افترض بور أن الالكترون فى الذرة لايمكن أن يكون له أي مسار ، بل إن له عدداً من المسارات المسموح له بها ، بينما تحرم عليه كل المسارات الأخرى . وافترض أن الالكترون فى مساره المسموح له به يستطيع أن يدور ، أي يغير منحى سرعته ، من دون أن يصدر الاشعاع الذى تنص على ضرورة صدوره نظرية ماكسويل .

وقد طبق بور هذه الأفكار الثورية على ذرة الهيدروجين . فتخيل عددا من الدوائر حول نواة الهيدروجين ، يمكن للالكترون أن يتخذ أية واحدة منها مسارا له حول النواة (البروتون) وأصغر الدوائر قطراً ، أي تلك التى يكون فيها الالكترون أقرب ما يكون الى النواة ، هى المسار الطبيعي للالكترون فى ذرة الهدروجين العادية . فإذا هيجت هذه الذرة بشكل ما ، بالحرارة أو بالكهرباء مثلاً ، وأعطيت بذلك طاقة كافية ، أمكن للالكترون أن يقفز من هذه الدائرة الأولى ، أى المسار الأدنى ، إلى الدائرة الثانية التى تليها مباشرة ، وأصبحت ذرة الهدروجين مهيجة . وبعد زمن قصير جداً يعود الالكترون إلى المسار الادنى ، قافزاً اليه من المسار الثانى الذى كان فيه ، ويصدر عندئذ إشعاعا تساوى طاقته الفرق بين طاقة الالكترون في مساره الثانى وطاقته في مساره الأول . وهذا التهييج الذى وصفناه للذرة هو أضعف تهييج ممكن لها وقد تتهيج تهييجا أكبر ، فينتقل الالكترون ، لا إلى المسار الثانى ، بل إلى المسار الثالث أو الرابع أو الخ . . . وبعد تهيج الذرة ، لا يلبث الالكترون أن يقفز من مساره الذى حمل اليه بالتهييج إلى مسار أدنى منه ، أى أقرب إلى النواة فيصدر إشعاعا تساوى طاقته الفرق بين طاقتي الالكترون فى المسارين . وهذه الإشعاعات المختلفة الصادرة عند زوال تهيج الذرة تشكل ألوان الضوء المختلفة الصادرة عن ذرة الهيدروجين التى يشكل مجموعها ما يسمى بطيف الهيدروجين . واذا زاد تهيج ذرة الهيدروجين عن حد أعلى معين خرج الالكترون من الذرة نهائيا ، ويقال عن الذرة عندئذ إنها قد تأينت أي أنها فقدت شحنة سالبة ، هى شحنة الالكترون المطرود ، فأصبحت تحمل ، بسبب ذلك شحنة كهربائية موجبة ، تساوى الوحدة . وفى حالة ذرة الهيدروجين فان هذا يعني أنه بقي فى الذرة البروتون وحده .

لاقت أفكار بور هذه مقاومة شديدة من عدد من الفيزيائيين ، إلا أن نجاحها فى تفسير طيف الهيدروجين ، وحساب أطوال أمواج الإشعاعات التى يتكون منها ، جعل لها فى النهاية الغلبة . وقد سعى بور ، وآخرون منهم أرثر سمر فلد ، إلى تطبيق هذه الأفكار على ذرات أخرى غير ذرة الهيدروجين . وخلال هذا المسعى اضطروا الى تعقيد النظرية وتوسيعها . فبدلاً من كل مدار من المدارات الأصلية التى كان قداقترحها بور ، اضطروا الى افتراض ثلاثة مدارات حتى يفسروا طيف الذرة وتغيره بفعل حقل مغناطيسي إذا أثر فيها . ثم اضطروا اخيراً إلى ان يتخيلوا أن الالكترون لايدور فقط حول النواة ، بل إنه يدور أو يلف ، حول نفسه أيضا ، تماما كما تفعل الأرض التى تدور حول الشمس ، وتلف حول نفسها . وفى كل هذه الفرضيات الجديدة ظاهرة الانقطاع ، فالمسار لا يمكن أن يكون فى أى

مكان ، بل إن هناك عددا محدودا فقط من المسارات المسموحة ، وكل ما سواها محرم . واللف لايمكن أن تكون له أية قيمة ، بل إنه مقصور على قيم قليلة فقط . ولف الالكترون يقاس بوحدة ذرية مناسبة ، وهو يساوى النصف ، إلا أنه يمكن أن يكون فى أحد الاتجاهين المتعاكسين .

كان نجاح نموذج الذرة الذي اقترحه بور ، ووسّعه هو وزملاؤه ، نجاحاً رائعاً ، ولكن بقيت فيه بعض الصعوبات . وكان من أهمها أنه كان نموذجاً « وصوليا » يأخذ من الميكانيكا النيوتونى ، ومن نظرية ماكسويل الكهربائية المغناطيسية ، ما يناسبه ، ويتخلى عما لايرضى عنه ، ويفترض فرضيات إضافية تلزم بعض المقادير بأن يحرم عليها أن تتخذ إلا قيما معينة منقطعة الواحدة منها عن الأخرى . والدافع الوحيد إلى هذه الخيارات هو تفسير الواقع التجريبي وإمكان التنبؤ به ، أى حساب أطياف الذرات حسابا ينطبق على الواقع . ولا شك أن نموذج بور وفق فى ذلك إلى حد بعيد ، ولكن بقيت مع ذلك بعض الفروق بين تنبؤاته وبين الواقع ، وكانت هذه هى الصعوبة الثانية القاضية التى فرضت بناء نظرية جديدة متناسقة ، لاتكون انتهازية كنظرية بور ، بل تنطلق من عدد قليل من المبادىء المقبولة ، وتخترع طرائق فى الحساب ، تؤدى بشكل طبيعى الى التنبؤ بالأطياف .

هذه النظرية المرجوة هى الميكانيك الكوانتى الذى كان أول بناته لويس دوبروي (١٨٩٢ ـ ١٩٨٧) فقد اقترح دوبروى فى عام ١٩٢٤ أنه كما أن لكل إشعاع طبيعة موجية وأخرى حبيبية (أى أن النور لهتزاز له طول موجة محدد ، وهو فى الوقت نفسه ، حبيبة جسيمية هى الفوتون) ، فان كل جسيم مادي هو أيضا حبيبة واهتزاز ذو طول موجة محددة . وهذه الفكرة العجيبة بقيت تكهنا لم يعبأ به أكثر الفيزيائيين إلى أن برهن الفيزيائيان الأمريكيان دافيسن وغرمر ، ثم الفيزيائى البريطانى تمسن (إبن مكتشف الالكترون) ، أن حزمة من الالكترونات لها فعلا خواص موجية ، وانها يمكن ان تولد حادثة الانعراج المعروفة فى الضوء . وعندئذ بدأ الفيزيائيون باقامة معادلة موجية للذرة ، وحل هذه المعادلة ، فأسسوا بذلك الميكانيك الكوانتى ، الذى يتنبأ بخصائص الذرة ، ضمن الحدود التى يرسمها هو ، تنبؤاً مدهشا فى دقته وصحته .

١٧ ـ بنية النواة

ذكرنا أن كل نواة تعرف بعددين هما العدد الذري والوزن الذري . والعدد الذري وهو ترتيب العنصر المدروس فى الجدول الدوري للعناصر الذى أقامه مندلييف ، هو عدد الشحنات الموجبة التى تحويها النواة . أما الوزن الذري فهو وزن الذرة مقيسا بوحدة هى وزن نواة الهيدروجين . والوزن الذري يساوي ضعف العدد الذري فى النوى الخفيفة ، ويزيد على ذلك فى النوى الثقيلة .

ومنذ اكتشف رذرفرد النواة بتجاربه التى قذف فيها صفائح رقيقة جدا من الذهب بجسيمات ألفا ، والفيزيائيون يدرسون النواة . وكانت أولى المسائل التى عالجوها هى قطر النواة ومركباتها . وقد تبين ، منذ البدء ، أن النواة أصغر من الذرة بمائة ألف مرة . وكلما كان جسم مركب صغيرا كلما كانت طاقة ربط أجزائه أكبر . ولذلك فإن طاقة ربط أجزاء

النواة داخلها أكبر من طاقة ربط أجزاء الذرة داخلها (كالالكترونات) بمائة ألف مرة أو أكثر . وهذا يفسر كيف تخرج من النواة الجسيمات ذات الطاقات العالية التى تؤلف جسيمات النشاط الإشعاعى أى جسيمات الفا وبيتا وغاما . ومن الواضح أن النواة تحوى بروتونات وأن هذا هو مصدر شحنتها الموجبة . ولكن لايمكن أن تكون النواة مؤلفة من بروتونات فقط ، لأنه لو حدث هذا لوجب أن يكون عددها الذري مساوياً وزنها الذرى ، وهذا هو غير الواقع وكان الحل الأول الذى أعطي لهذه المسألة هو ان في النواة عدداً من البروتونات يساوى الوزن الذرى وهذا يتفق مع كون الوزن الذري للبروتون . . . . يساوي الواحد) ، وعددا من الالكترونات يساوي الفرق بين الوزن الذري والعدد الذري . ولنضرب على ذلك مثالا نواة الاكسجين . فالعدد الذري للاكسجين يساوى ٨ ووزنه الذرى يساوى ١٦ فالنموذج الذى يقول إن النواة مؤلفة من بروتونات والكترونات يفترض أن فى نواة الاكسجين ١٦ بروتونا ، فيكون وزنها الذرى يساوى ١٦ ، كما هو الواقع ، وان فيها ٨ الكترونات ، فيكون العدد الذري لنواة الاكسجين أى مقدار شحنتها الموجبة الكلية هو ١٦ - ٨ = ٨ . وهذا يتفق مع الواقع أيضا . ومن التبريرات الأساسية التى يستند اليها هذا النموذج ، ليبرهن على وجود الالكترونات داخل النواة ، هو أن الالكترونات تصدر فعلا من النواة فى التفكك الاشعاعى مشكلة أشعة بيتا التى هى الكترونات .

إلا أن فرضية وجود الالكترونات داخل النواة أصبحت غير مقبولة عندما نشأ الميكانيك الكوانتى ووضع مبدأ اللاحتمية . فالسبب فى ذلك هو أن تحديد موقع الالكترون داخل النواة أى ضمن حيز صغيرا جدا ، يفرض على الالكترون ، بسبب صغر كتلته أن يكون ذا طاقة عالية جدا تفوق طاقة الربط النووي . فلا يمكن اذن للالكترون أن يبقى داخل النواة ، بل إنه لو وجد لأخرجته طاقته العالية منها . وهناك سبب آخر ينفى وجود الالكترونات داخل النوى هو قيمة لفة النواة . فمن النوى ، ما لو وجد فيه الكترونات وبروتونات ، للزم أن تكون قيمة لفه غير القيمة الفعلية المشاهدة تجريبيا . ومنها نواة النتروجين الذى عدده الذري ٧ ، ووزنه الذري ١٤ . ونموذج وجود الالكترونات ضمن النواة ينص على أن تحوي هذه النواه ١٤ بروتونا ، ٧ الكترونات . ولف البروتون كلف الالكترون ، يساوى النصف . فلو صح أن في هذه النواة ما ذكرناه من بروتونات والكترونات ، لوجب أن يكون لفها نصف عدد فردي بينما الواقع التجريبي يدل على أن لفها يساوي نصف عدد زوجي .

دحضت هذه الدلائل فرضية وجود الالكترونات الحرة داخل النواة . ولكن رذرفرد اقترح أنه ربما توجد داخل النواة جسيمات مؤلفة من ارتباط بروتون والكترون ارتباطا وثيقا ومثل هذا الجسيم ، لو وجد تكون شحنته الكهربائية الكلية تساوى الصفر لأنها مجموع شحنتى البروتون والالكترون المتساويتين والمتعاكستين . ولذلك سماه رذرفرد النترون (وهى كلمة مشتقة من كلمة معتدل أو محايد) . وبدأ البحث عن هذا الجسيم منذ عام ١٩٢٤ فى تجارب أجراها جيمس تشادويك ، وكان يسعى خلالها إلى أن يكشف تفاعلا تأسر خلاله النواة الكترونا لتنقلب إلى نواة ذات عدد ذري أصغر من الأصل بمقدار الواحد . وبقى هذا البحث بلا جدوى حتى عام ١٩٣٢ حين تمكن تشادويك بالاستناد الى تجارب هان أجراها ، وأخطأ فى تفسيرها ، الفيزيائي الفرنسي فردريك جوليو ، وزوجه ايرين كورى ، من اكتشاف النترون فى تفاعل قذفت فيه نوى البريليوم ، التى وزنها الذرى ٩ ، بجسيمات الفا آتية من البولونيوم ذى النشاط

الإشعاعى . وهكذا تم اكتشاف النترون الذى لاينظر إليه اليوم ، كما كانت فرضية رذرفرد الأساسية ، على انه اتحاد الكترون وبروتون ، بل على أنه جسيم أساسى كالبروتون تماماً . وهويتفق مع البروتون فى أكثر صفاته ، ويمتاز عنه بأنه لا يحمل شحنة كهربائية . وكتلته أكبر من كتلة البروتون قليلا ، ولفه كلف البروتون يساوى النصف . وباكتشاف النترون أصبحت بنية النواة معروفة : فهى مؤلفة من عدد من البروتونات يساوى العدد الذري ، ومن عدد من النترونات يساوي الفرق بين الوزن الذري والعدد الذري . فنواة الاكسجين مثلا مؤلفة من ٨ بروتونات و٨ نترونات .

ومن النوى ما يكون له نفس عدد البروتونات ، وأعداد مختلفة من النترونات . وتسمى هذه النوى نظائر . ونضرب على ذلك مثلاً نظيري الأرانيوم اللذين يساوب وزناهما الذريان ٢٣٥ و٢٣٨ . فكلا النظيرين له العدد الذري نفسه ، وهو العدد الذي يحدد الأرانيوم ويعطيه صفاته الكيميائية ، ويساوي ٩٢ . ففي نواة كل نظيرين إذن إثنان وتسعون بروتونا . والنظير الأول ٢٣٥ يحوي ٢٣٥ ـ ٩٢ = ١٤٣ نوترونا أما النظير الثاني فيحوي ٢٣٨ ـ ٩٢ = ١٤٦ نوترونا .

النواة إذن مؤلفة من بروتونات ونوترونات . والبروتونات داخل النواة تتنافر بسبب شحناتها الكهربائية الموجبة . وما دامت النواة مستقرة فهذا يعني أنه توجد داخل النواة قوة أخرى أكبر من قوة التنافر الكهربائي ، تربط أجزاء النواة بعضها ببعض ، وهذه القوى هي القوى النووية .

رأينا كيف أن الزوجين جوليو ـ كوري فاتهما اكتشاف النوترون لأنهما لم يحسنا تفسير التجربة التي أجرياها ، فسبقهما إلى ذلك تشادويك . ولكنهما ما لبثا بعد قليل أن تمكنا من اكتشاف آخر هو النشاط الإشعاعي الصنعي ، وذلك بقذف نوى الألمنيوم بجسيمات الفا ليتولد من ذلك فوسفور ذو نشاط إشعاعي يصدر أشعة بيتا موجبة .

١٨ ـ تجارب فرمى

في منتصف الثلاثينات بدأ الفيزيائي الايطالي انريكو فرمى (١٩٠١ ـ ١٩٥٤) سلسلة من التجارب والدراسات النظرية كانت حاسمة في نمو الفيزياء والتقانة النووية ، وانتهت عام ١٩٤٥ ببناء أول قنبلة نووية .

انتبه فرمى إلى أن النوترونات البطيئة أنجع بكثير من جسيمات ألفا في توليد النظائر الجديدة . والسبب هو أن النوترونات لا تحمل شحنة كهربائية فتستطيع أن تتسلل الى داخل النواة بسهولة أكبر بكثير من جسيمات ألفا التي تدفعها عنها النواة لأن كلا من النواة وجسيم الفا يحمل شحنة موجبة . وبالاستناد الى ذلك بدأ فرمى في عام ١٩٣٤ دراسة منتظمة لامتصاص النوترونات البطيئة في النوى المعروفة ، فتبين له أنه تتولد بالنتيجة نظائر مشعة في كل الحالات تقريباً . ومن النوى التي جربها فرمى الأرانيوم . وقد تفاعلت النوترونات فعلاً مع نوى الأرانيوم وتولدت من ذلك نوى جديدة ظن فرمى أنها نتجت من امتصاص نوى الأرانيوم للنترونات ، أي أنها نوى أثقل من الأرانيوم . وكان هذا الاستنتاج خطأ ، لأن ما حدث فعلاً كان هو أن نوى الأرانيوم امتصت فعلاً النوترونات ، فانشطرت بسبب ذلك الى

نوى أخف من الأرانيوم هي نوى الباريوم واليود التي تساوي كل منها نصف نواة الأرانيوم تقريباً . وهكذا كان فرمى قد ولد ، لأول مرة في تجربة فيزيائية ، انشطاراً نووياً ، ولكنه لم يتعرف إليه ، وفسره بتفسير خطأ . والانشطار النووي هو أساس القنبلة النووية . ولو كان فرمى أحسن تفسير تجربته بالشكل الصحيح ، لربما كان قد تغير التاريخ . ذلك أن فرمى كان يجري هذه التجارب في إيطاليا مع مجموعة من الفيزيائيين الايطاليين . وبعد ذلك بقليل حصل فرمى على جائزة نوبل ، وذهب الى السويد لتلقيها ، ومن هناك ، بدلاً من العودة إلى بلده ايطاليا ، هاجر الى الولايات المتحدة ، ورأس بعدئذ الفريق الذي بنى أول قنبلة نووية .

كان فرمى آخر الفيزيائيين الكبار الماهرين بالتجربة والنظرية . وهو الذي أقام أول نظرية مقبولة لتفكك النواة الذي يصدر منه جسيم بيتا . وكان هذا التفكك محيراً للفيزيائيين لأن طاقة النواة الناتجة من التفكك ، وطاقة جسيم بيتا ، كانا في مجموعهما أقل من طاقة النواة الأصلية المتفككة . وكان هذا في الواقع انتهاكاً ، على ما يبدو ، لمبدأ حفظ الطاقة ، وهو من أسس الفيزياء الراسخة . ولحل هذه المعضلة ، اقترح الفيزيائي النمساوي باولي (١٩٠٠ ـ ١٩٥٨) وجود جسيم آخر يصدر في تفكك بيتا ، ولكن لا يكشفه القياس ، لأنه لا يحمل شحنة كهربائية ولأنه ضعيف التفاعل جداً بكل الجسيمات الأخرى . وقد سمي هذا الجسيم الافتراضي بالنوترينو . وقد اقترح فرمى أن التفكك النووي ناتج من وجود قوة جديدة سميت بالقوة الضعيفة ، وهي تشكل الآن مع قوة الثقالة والقوة الكهربائية المغناطيسية ، والقوة النووية القوى الأربع التي تحكم تفاعلات الطبيعة .

استطاع فرمى أن يبطيء النوترونات التي كان يستخدمها قذائف يقذف بها النوى . والفائدة من ذلك هي أنه إذا كانت النوترونات بطيئة فانها تستطيع أن تبقى الى جوار النوى زمناً أطول أثناء قذفها بها ، فيزداد بذلك احتمال دخولها الى النواة ، وجعلها تنتقل من حال الى حال . وقد انتبه فرمى إلى أن خير سبيل لتبطيء النوترونات هي جعلها تصدم بجسيمات تساويها في الكتلة ، وأحسن الجسيمات لذلك هي النوترونات التي تكاد كتلتها تساوي كتلة النترونات ، ولا تقل عنها الا قليلاً . وقد استخدم فرمى مادة البارافين لأن فيها تركيزاً عالياً من البروتونات إذ أنها مؤلفة من فحمات مائية أي من جزئيات ناتجة من اتحاد الفحم بالهدروجين . وكان تطوير تقانة النوترونات البطيئة إنجازاً عظيماً استحق عليه فرمى جائزة نوبل عام ١٩٣٨ .

رأينا أن فرمى فاته اكتشاف الانشطار النووي الذي كان نصيب الفيزيائيين الألمانيين اوتوهان (١٨٧٩ ـ ١٩٦٨) وفريتز ستراسمان ، والفيزيائية النمساوية ليز مايتز (١٨٧٨ ـ ١٩٦٨) ، وذلك عام ١٩٣٨ .

١٩ ـ الانشطار النووي

أثارت نتائج فرمى وزملائه ، التي أساؤوا بها تفسير تجاربهم التي قذفوا بها الأرانيوم بالنوترونات ، اهتمام الباحثين في فرنسا وألمانيا . وهكذا بدأ هان ومايتز وستراسمان تجارب عديدة قذفوا بها الأرانيوم بالنوترونات ودرسوا ما

ينتج من ذلك من عناصر . وقد وجدوا تسعة عناصر مختلفة نتجت من القذف ، أحدها الأرانيوم نفسه ، وباقيها عناصر بدا وكأنها تؤيد تفسير فرمى أي أنها عناصر أثقل من الأرانيوم .

في كل هذه التجارب ، كانت إحدى النوى التي تنتج هي الباريوم ، وهو عنصر أخف من الأرانيوم بمرتين تقريباً . ولكن لما كان من الصعب أن يفهم الانسان كيف يمكن أن ينقلب الأرانيوم بمجرد دخول نوترون فيه الى عنصر يبعد عنه في الجدول الدوري بستة وثلاثين محلاً ، ولم يفكر الباحثون في البدء بامكانية انشطار النواة فانهم على مهارتهم في التعرف على العناصر ، أخفقوا عدة مرات في التعرف على الباريوم ، وظنوه عنصراً آخر أقرب من الأرانيوم ، فظنوه مرة الأكتينيوم ومرة الراديوم . وأخيراً تمكن هان وستراسمان من البرهان على أن العنصر الناتج هو فعلاً الباريوم ، أي أقاما الدليل على الانشطار النووي .

ويوم الثلاثاء ٢٢ ديسمبر (كانون الأول) من عام ١٩٣٨ كتب هان وستراسمان نشرة أرسلاها الى المجلة الألمانية العلمية الكبرى (ناتور فيسنشافتن ، شرحا فيها ما وصفه هان بأنه نتيجة مخيفة تناقض كل التجارب السابقة . وقد انتبه مدير المجلة الى أهمية هذه النشرة فظهرت في عدد المجلة المؤرخ في ٦ يناير (كانون الثاني) من عام ١٩٣٩ ، أي بعد أيام من وصولها ، مع أن العدد كان معداً بكامله قبل ذلك .

كان هان قد كتب رسالة الى لين مايتز شرح فيها النتيجة التي توصل اليها مع ستراسمان من أن الباريوم ينتج من قذف الأرانيوم بالبروتونات . وكانت مايتز قد هاجرت قبل فترة قصيرة الى السويد حيث تلقت الرسالة . وزارها في تلك الفترة ابن اختها اوتو فريش الذي كان قد هاجر من النمسا الى الدنمارك ، وكان يعمل مع بور . فاطلعته مايتنر على رسالة هان وعكفت مايتنر مع فريش على محاولة فهم العملية التي يمكن بها لنواة الأرانيوم أن تخرج منها نواة الباريوم . وكان بور قد اقترح أن النواة قد تكون شبيهة بقطرة من الماء . ويمكن لمثل هذه القطرة أن تنقسم الى قطرتين صغيرتين بشكل تدريجي ، فتبدأ أولاً بالتطاول ثم يحدث في منتصفها إختناق يبقى يتناقص حتى ينعدم فتنفصل القطرتان الصغيرتان الناجمتان عن القطرة الأصلية . ويساعد على هذا الانقسام التنافر الكهربائي القائم بين أجزاء النواة . وقد حسبت مايتنر ومعها فريش تفاصيل هذه العملية فوجدا فعلاً أن هذا يمكن أن يحدث ، وأن القطرتين الصغيرتين المتولدتين تتنافران بقوة شديدة بسبب ما بينهما من تنافر كهربائي (لأن كلا منهما تحمل شحنة موجبة) فتخرجان من حادثة الانشطار بطاقة عظيمة ناتجة من أن مجموع كتلتها أصغر من كتلة نواة الأرانيوم الأصلية المنشطرة ، وهذا النقص في الكتلة يكافىء ، وفقاً لعلاقة اينشتاين التي تربط الكتلة بالطاقة ، ما يشاهد من طاقة في نصفي النواة المنشطرة .

وقد عاد فريش ، بعد زيارته هذه لخالته في ستوكهلم ، الى كوبنهاغن ، وحدَّث بور بنتائج حساباته مع مايتنر ، فاهتم بور بذلك اهتماماً عظيماً وطلب بور أن ينشرا هذه النتيجة ففعلا ذلك وظهرت النشرة في مجلة نيتشر البريطانية في ١١ فبراير (شباط) عام ١٩٣٩ ، وعنوانها « نوع جديد من التفاعل النووي » . وقد سمى المؤلفان هذه الحادثة بالانشطار تشبيهاً بما يحدث في الخلايا الحيوية عند انقسامها . وقد أجرى فريش تجربة سريعة للبرهان على أن للأقسام

الناتجة من الانشطار فعلاً طاقة عالية . وظهرت نشرته التي تصف ذلك في العدد التالي من نيتشر أيضاً في ١٨ فبراير (شباط) ١٩٣٩..

انتشر هذا الخبر كالنار في الهشيم في أوساط الفيزيائيين في أوروبا وأمريكا ، وذلك حتى قبل أن تصدر النشرات في ناتوز فيسنشافتن (في يناير / كانون الثاني ١٩٣٩) ، وفي نيتشر في الشهر التالي . وهرع الفيزيائيون الأمريكيون إلى تكرار التجارب ومشاهدة الانشطار ، وكذلك فعل جوليو كوري في باريس حين أجرى تجربة ناجحة في ٢٦ يناير / كانون الثاني .

٢٠ ـ التفاعل المتسلسل

خلال أيام من اكتشاف الانشطار انتبه بعض الفيزيائيين إلى أنه ربما خرجت نترونات من النواة المنشطرة لتديم الانشطار في نوى أخرى لم تنشطر بعد ، فتولد هذه بدورها نترونات تشطر نوى جديدة ، وهكذا بالتتالي في تفاعل متسلسل يتضخم عدد المشاركات فيه من النوى بشكل سريع جداً ، فتتولد بذلك طاقة عظيمة جداً في زمن قصير جداً ، أي يحدث انفجار عظيم ، أعظم من أشد الانفجارات الكيميائية بملايين المرات .

وحالما أدرك العاملون في هذا المجال ما يمكن تحقيقه فيه ، انقلب البحث من عمل علمي بحت ، إلى نشاط يمكن أن يؤثر في حياة الأمم وتاريخها . وعلى الرغم من أن الفيزيائيين كانوا على علم بالطاقة الهائلة المختزنة داخل النواة ، فإنهم كانوا يظنون أن استخراجها من الصعوبة والتعقيد بحيث يستحيل أن تصبح مصدراً عملياً للطاقة . وقد عبر عن ذلك أكبرهم رذرفرد عندما قال عام ١٩٣٣ إن من يبحث عن منبع للطاقة في التحويلات الذرية يهرف بما لا يعرف ، إلا أن اكتشاف الانشطار والتفاعل المتسلسل غير كل ذلك تغييراً جذرياً لم يعلم به رذرفرد لأنه توفي قبل ذلك بعام ونيف .

منذ البدء انتبه بور إلى أن الانشطار الذي يحدث في الأرانيوم إنما يحدث في النظير ٢٣٥ ، وهو نادر جداً في الطبيعة ، وليس في النظير الشائع ٢٣٨ ، الذي يتكون منه كل الأرانيوم الطبيعي تقريباً . بل إن هذا النظير ٢٣٨ يكون عائقاً أمام انشطار النظير الأخف قليلاً ٢٣٥ ، لأنه يمتص كثيراً من النترونات دون أن ينشطر ، ويحول بينها وبين أن تولد الانشطار في النظير ٢٣٥ . ولمجابهة هذه الصعوبة ينبغي طبعاً فصل النظيرين ٢٣٥ و ٢٣٨ الواحد عن الآخر في الأرانيوم الطبيعي ، وهذا ما فعله الأمريكيون عند بناء القنبلة الذرية الأولى ولكن العملية صعبة للغاية

كان من أوائل من درسوا التفاعل المتسلسل الفيزيائي جوليو كوري في مخبره الجديد في كولج دوفرانس . وقد استعان بعالمين شابين كانا قد هاجرا الى فرنسا ومنحا جنسيتها ـ وكانت التجارب تتلخص في وضع منبع للنوترونات في مركز برميل من مائع قد حل فيه الارانيوم ، وقياس مقادير النترونات داخل المائع من مركزه إلى محيطه . وتسمح هذه القياسات بتمييز النترونات الأصلية الصادرة من المنبع من النترونات الثانوية المتولدة من انشطار نوى الارانيوم الموجودة

في المائع . فاذا كان عدد النترونات الثانوية ، المتولدة من الانشطار ، يساوى عدد النترونات المولدة للانشطار ، أو أكثر منها ، كان التفاعل متسلسلا .

وفي الوقت نفسه أجرت مجموعة فرمى العاملة في جامعة كولومبيا بنيويورك تجارب مشابهة إلا انها أحجمت عن نشر نتائجها خوفاً من وقوعها في أيدى دول المحوز وخاصة ألمانيا . وقد سعى أحد أعضاء هذه المجموعة الى إقناع العلماء البريطانيين والفرنسيين بكتمان نتائجهم أيضا وعدم نشرها ، فتوفق مع البريطانيين ، وأخفق مع الفرنسيين الذين نشروا نتائجهم فى نيتشر فى ١٥ مارس آذار ١٩٣٩ . وبسبب ذلك عاد الامريكيون أنفسهم عن وقف النشر الذى كانوا قد التزموا به ونشروا نتائجهم فى المجلة الامريكية فيزيكال رفيو في ١٥ نيسان/ ابريل ١٩٣٩ . ثم تتالت النشرات عن الانشطار حتى زادت عام ١٩٣٩ على مائة نشرة .

دلت نتائج القياسات فى أمريكا وفى فرنسا على أنه يصدر وسيط مابين نوترونين وثلاثة نوترونات عند الانشطار مقابل كل نترون أصلى بسبب الانشطار أى أن التفاعل فعلا متسلسل .

سارع العلماء الامريكيون الى إبلاغ حكومتهم بما اكتشفوه . وقد فعل ذلك فرمى فاجتمع بعدد من الضباط فى ١٧ آذار وأبلغهم بالنتائج ، مع أنه كان مايزال حتى ذلك التاريخ يشك فى إمكان بناء قنبلة تستند إلى حادثة الانشطار .

أما الفرنسيون ، وعلى رأسهم جوليو ، فقد كان اهتمامهم مركزاً ليس على الاستعمال العسكرى لحادثة الانشطار ، بل على استخدامها الصناعى لتوليد الطاقة ، فحصلوا على عدد من براءات الاختراع لمصلحة المؤسسات العلمية الفرنسية حتى تتمول مما يمكن أن ينتج من استخدام طاقة الانشطار من موارد .

حالما اطلع العلماء البريطانيون والالمانيون على نشرة جوليو وزميليه عن التفاعل المتسلسل فى نيتشر ، التى ظهرت فى ابريل/ نيسان ١٩٣٩ ، أبلغوا حكومتهم . وقد كان الهم الأول للحكومة البريطانية أن تتمكن من الهيمنة على منابع الارانيوم الوحيدة المعروفة عندئذ بأنها ذات مقادير كبيرة ، وهى تلك الموجودة فى ما يسمى اليوم بالزائير ، والذى كان عندئذ مستعمرة بلجيكية . وكانت بريطانيا تخشى من وقوعها فى أيدى المانيا . وباستثناء ذلك لم يكن المشروع الذى أقيم فى بريطانيا لاستثمار التفاعل المتسلسل مشروعا كبيرا لأن بعض كبار العلماء البريطانيين ، ومن بينهم مستشارون للحكومة ، اعتقدوا أن احتمال بناء أسلحة نووية أمر ضعيف .

أما في المانيا فقد عقد العلماء اجتماعا فى ٢٩ ابريل/ نيسان ١٩٣٩ ، تقرر بعده أن تجمع مقادير الارانيوم المتوافرة فى ألمانيا لتوضع تحت تصرف مشروع مركزي ، إلا أن الخلافات والطموحات الشخصية عرقلت البدء ومنعت قيام أية أبحاث مجدية خلال ربيع ١٩٣٩ وصيفه .

وفي الاتحاد السوفييتي اهتم العلماء بالتفاعل المتسلسل ، ولكنهم ركزوا على إنتاج الطاقة عن طريقه ، ولم يعنوا

بإنتاج السلاح . وبقيت جهودهم في نطاق أكاديمية العلوم ، ولم يبلغوا الحكومة رسميا عن أهمية الموضوع . وكذلك أدلى العلماء اليابانيون بدلوهم ولكن كانت أكثر أبحاثهم فى النطاق النظري .

٢١ ـ المفاعل النووي

كانت الخطوة التالية بعد اكتشاف التفاعل المتسلسل هى بناء أداة يمكن أن يبدأ بها التفاعل ويستمر . وأصبح هذا هو الهدف الرئيسى للعلماء النوويين فى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا . وكان من المعروف ، كما ذكرنا سابقا ، أن النترونات البطيئة أكثر جدوى بكثير من النترونات السريعة فى توليد انشطار نوى الارانيوم ولذلك مزج الارانيوم بالماء أو بالبارافين (اى بمركبين غنيين بالهدروجين اى بالبروتونات) لكى تبطّأ النترونات .

كانت دراسة التفاعل المتسلسل قد برهنت على أنه ينتج فى حادثة الانشطار عدد من النترونات يتراوح بين اثنين وثلاثة مقابل كل نترون تمتصه النواة فتنشطر . وكان إمكان بناء مفاعل نووى ، أى جهاز تتواصل فيه حادثة التفاعل المتسلسل فتولد طاقة قابلة للاستعمال ، رهينا بمصير هذه النترونات الثانوية المتولدة من الانشطار ، ذلك أن بعضها يضيع لا محالة قبل أن يتمكن هو نفسه من أن يدخل نواة جديدة فيحملها على الانشطار . فإذا كان هذا العدد الضائع من النترونات كبيرا ضعف التفاعل المتسلسل وخمد حتى يتلاشى . وهذه الحادثة شبيهة بتكاثر السكان . فاذا تولد من كل زوجين من البشر ، أى من رجل وامرأة متزوجين ، عدد من الأطفال أكثر من اثنين ، وعاش منهم عدد كاف حتى بلغوا سن الزواج وأنجبوا بدورهم ، تكاثر عدد السكان ، وإلا تناقص حتى يتلاشى .

فالعامل الأساسى فى بناء مفاعل هو إذن نسبة عدد النترونات فى جيل الى عدد النترونات فى الجيل الذى يسبقه . فان كان هذا العدد أكبر من الواحد ، تكاثرت النترونات وتواصل التفاعل المتسلسل واشتد ، بل إنه ، إذا ما استمر عدداً كافيا من الأجيال فقد يصل إلى مرحلة الانفجار .

وهناك عامل آخر يحكم إمكان عمل المفاعل . هو أن ضياع النترونات لا يحدث فقط داخل المفاعل ، بل انه قد تتسرب بعض النترونات خارجة من المفاعل عبر جدرانه وتضيع عندئذ ضياعا لارجاء فى تعويضه . واذا كان المفاعل صغيراً كان عدد ما يضيع من النترونات فيه بالتسرب عبر جدرانه جزءاً محسوساً من عدد النترونات الكلي ، فاستحال أن يترعرع التفاعل ويدوم . ولذلك فان هناك حجماً أدنى إذا كان المفاعل أصغر منه لم يستمر التفاعل المتسلسل مهما بذل من جهد لإدامته . ويسمى هذا الحجم الأدنى بالحجم الحرج ولذلك فلابد للمفاعل إذا أريد له أن يعمل ويولد الطاقة من أن يكون حجمه أكبر من الحجم الحرج .

فهناك إذن شرطان أساسيان ليعمل المفاعل هما أن تكون نسبة عدد النترونات فى كل جيل إلى عدد النترونات فى الجيل الذى يسبقه أعلى من الواحد (وهذا هو الشرط الأول) ، وأن يكون حجم المفاعل أكبر من الحجم الحرج (وهذا هو الشرط الثانى) . وإذا لم يتحقق الشرط الأول فلا أمل فى بناء مفاعل مهما كان حجمه . أما إذا تحقق الشرط الأول فيصبح هناك أمل فى بنائه ، ويستلزم تحقيق هذا الأمل أن يتحقق الشرط الثانى .

والحجم الحرج فى أول مفاعل أمكن بناؤه عام ١٩٤٢ كان يحوى ما يقارب خمسين طناً من الارانيوم .

وأول أنواع المفاعلات التى جربت فى أوائل الاربعينات ، وأيام الحرب ، كانت مؤلفة من كتلة من اكسيد الارانيوم المغمورة فى الماء ، ولو توافر الارانيوم الصافى عندئذ لكان أفضل ولكن لم تكن التقانة قد تقدمت بعد للحصول عليه . وسرعان ما انتبه المجربون إلى أنه من الأفضل توزيع الارانيوم فى الماء بدلا من وضعه فيه كتلة واحدة . والسبب فى ذلك هو أن النترون الذى ينتج من انشطار نواة من الارانيوم إذا اضطر إلى أن يتحرك مسافة محسوسة فى كتلة الارانيوم ، وهو على سرعته العالية التى صدر بها ، فانه يتعرض لأن تبتلعه نواة من الارانيوم ابتلاعا لاتنشطر به ، فيكون النترون قد ضاع ولم يشترك فى التفاعل المتسلسل . ولذلك كان من الأفضل أن يتحرك النترون ، بعد صدوره من النواة المنشطرة ، فى الماء الذى يلطفه أى يخفف سرعته بحيث يصبح إذا امتصته بعدئذ نواة من الارانيوم ، قادراً على أن يشطرها .

كان أول نجاح فى هذا السبيل هو ما حققه جوليو وزملاؤه فى فرنسا عام ١٩٣٩ عندما وضعوا كتلة من الارانيوم ، على شكل كرة مبللة بالماء نصف قطرها خمسون سنتمتراً داخل برميل من الماء . وقد وضعوا فى مركز الكرة منبعا للنترونات ، وقاسوا عدد النترونات الخارج من الماء ، فتأكد لهم أنه قد تحقق تفاعل متسلسل ، وإن كان ضعيفا ، لم يدم إلا زمنا محدوداً ، ولم تنتج منه أية طاقة . وقد نشروا نتيجتهم فى مجلة علمية قرأها الآخرون . وبعد هذا أبقوا أعمالهم مكتومة .

ظهرت هذه النشرة فى آب/ اغسطس ١٩٣٩ . وظهرت فى الشهر نفسه نشرة لبور وويلر برهنا فيها على ما كان بور قد خمنه من أن الانشطار لايحدث إلا فى النظير ٢٣٥ للارانيوم ، وهو نظير نادر فى الطبيعة ، وليس فى نظيره المألوف المنتشر الذى وزنه الذري ٢٣٨ . وبالاستناد الى نظريتهم هذه ، تنبأوا بما هى النوى الأخرى التى يمكن أن يحدث فيها انشطار ايضا ، بما فى ذلك نوى لم تكن بعد معروفة . ومن بين هذه ذكروا نواة البلوتونيوم ٢٣٩ التى صنعت بالاستناد اليها إحدى القنبلتين الذريتين الأولين فى الحرب العالمية الثانية .

٢٢ - المشروع الامريكى

بالرغم من أن الفرنسيين والبريطانيين والألمانيين عملوا فى الطاقة النووية فى عام ١٩٣٩ ، وأوائل ١٩٤٠ ، فإن تطور الحرب العالمية الثانية الذى أجبر فرنسا على توقيع الهدنة ، ووضع انكلترا فى خطر ماحق ، وبعثر جهود العلماء فى ألمانيا ، أدى إلى تعطيل كل هذه المشاريع أو تباطؤها . والبلد الوحيد الذى ركز على تطوير الطاقة النووية جهوده ، هو الولايات المتحدة الامريكية بمالها من سلطان اقتصادى عظيم ، ومقدرة علمية فائقة ، وبراعة فى التنظيم نادرة .

كان من أوائل تباشير نجاح المشروع الامريكى هو ما فعله فرمى ، بايحاء من الفيزيائى الهنغارى سزيلار ، المهاجر الى الولايات المتحدة ، من التخلى عن الهدروجين كملطف ، اى مبطئ للنترونات ، وإحلال فحم الغرافيت محله . وهكذا بدأ فعلاً العمل المثمر لبناء أول مفاعل نووي .

وكانت أول صعوبة واجهت المجربين هي أن الشوائب التى لابد من أن يحويها الارانيوم وفحم الغرافيت ، ولو بمقادير صغيرة جداً ، كانت قادرة على امتصاص عدد كاف من النترونات مما كان يؤدى الى شل التفاعل المتسلسل وقتله . فكان لابد من تنقية الارانيوم وفحم الغرافيت تنقية فائقة بحيث لا تزيد فيها الشوائب على بضعة أجزاء من مليون جزء .

وفى كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٤٠ بدأ غلن سيبرغ (٩١٢.) تجارب أدت الى اكتشاف البلوتونيوم ، وتمكن من صنع مقادير منه لا تزيد عن بضعة أجزاء من مليون جزء من الغرام، بينما تحتاج القنبلة منه الى أطنان . وفى يناير/ كانون الثانى ١٩٤١ تم البرهان على ان البلوتونيوم كالارانيوم تنشطر نواته بفعل النترونات .

وفى نيسان/ ابريل ١٩٤٠ أعلن جون دننغ انه تمكن من فصل مقادير زهيدة جداً من النظير ٢٣٥ للارانيوم ، باستعماله مطياف الكتلة الذى تستخدم فيه حقول كهربائية ومغناطيسية لفصل النوى ذوات الكتل المختلفة . وقد استطاع بفصل هذه المقادير الزهيدة من التأكد من تنبؤ بور بأن النظير ٢٣٥ للارانيوم هو الذى ينشطر فعلا ، وليس النظير٢٣٨ . وتركز الاهتمام عندئذ على كيفية فصل مقادير كبيرة من النظيرين ٢٣٥ و ٢٣٨ المختلطين ضمن الارانيوم الطبيعى . وقد جربت فى هذا المجال عدة طرق تستند كلها إلى الفرق بين كتلتى النظرين ٢٣٥ و ٢٣٨ وكان من هذه الطرق الانتثار الغازي عبر غشاء ، والانتثار الحرارى الغازي ، والفصل بالقوة النابذة ، والفصل الكهربائي المغناطيسي .

وفى أوائل عام ١٩٤١ قرر الرئيس رزفلت تأسيس المجلس الوطنى لأبحاث الدفاع ، وسمى فانفربوش رئيسا له ، وكانت مهمة المجلس تهيئة الولايات المتحدة للدخول فى الحرب وتجنيد الجهود العلمية الوطنية لذلك . وفى تموز/ يوليوعام ١٩٤١ تلقى بوش تقريرا عن المشروع البريطانى فى مجال الطاقة النووية ، فكان حافزا قويا للجهد الأمريكى . وقد أدى ذلك الى جعل لورنس ، الفيزيائي الامريكى الذى كان قد بنى أول مسرّع نووي دائري ، المسمى السكلوترون ، يطور مسرعه هذا ليجعله قادرا على فصل النظائر بمقادير صناعية . وقد نجح لورنس فى ذلك فأنتج في شباط/ فبراير ١٩٤٢ أول مقادير ضغيرة من نظيرى الارانيوم . وأصبح جهازه هذا هو النموذج الذى بنيت على أساسه الآلات التى تفصل النظائر ، والتى أنتجت واحدة منها الارانيوم ٢٣٥ المستعمل فى أول قنبلة ذرية ، تلك ألتى القيت على هيروشيما ، والتى ما تزال بناتها مستخدمة حتى اليوم .

بعد هجوم اليابان على بيرل هاربر فى ديسمبر/ كانون الأول ١٩٤١ ، وإغراقها الأسطول الامريكى فيها ، دخلت الولايات المتحدة الحرب ، فازداد الاهتمام بصنع القنبلة النووية وعين عندئذ فانفر بوش ثلاثة رؤساء للمشروع ، كلهم من حملة جوائز نوبل الامريكية وهم كنتن ، ولورنس ، ويورى . وكانت مهمة كنت هى الإشراف على برنامج تبنى به قنبلة تستخدم البلوتونيوم . وقد أعد كنتن برنامجاً لذلك قسمه الى أربع مراحل . فى المرحلة الأولى ، التى ينبغى أن تنتهى فى تموز/ يوليو عام ١٩٤٢ ، يتم التأكد من إمكان تحقيق تفاعل متسلسل ينتج البلوتونيوم . وفى المرحلة الثانية ، التى تنتهى فى كانون الثانى/ يناير ١٩٤٣ يتم تحقيق التفاعل المتسلسل الأول . وفى الثالثة ، ونهايتها كانون الثانى/ يناير ١٩٤٣ يستخرج البلوتونيوم من الارانيوم . وفى الرابعة والاخيرة ، ونهايتها كانون الثانى/ ينـاير ١٩٤٥ تصنع القنبلة . وقد تحققت كل هذه المراحل فى مواعيدها ، أو قبلها ، الا الأخيرة فقد تأخرت ستة أشهر . وكان تحقيق المرحلتين الأوليين هوعمل فرمى ، والمرحلة الثالثة ، مرحلة استخراج البلوتونيوم من الارانيوم ، مسؤولية سيبرغ ، واستبقى كنتن لنفسه المرحلة الاخيرة .

كانت عملية استخراج البلوتونيوم من بين كل نتائج الانشطار الاخرى للارانيوم عملية معقدة صعبة ، يزيد من

تعقيدها أن البلوتونيوم ذونشاط اشعاعي ، وأن عدداً كبيراً من نتائج الانشطار الاخرى هي أيضا ذات نشاط إشعاعي . ولذلك كانت مقادير البلوتونيوم الناتجة في المراحل الاخرى أصغر من أن تراها العين المجردة .

سرعان ما أدرك العلماء المشرفون على المشروع أنه لابد من أن ينتقل ، اذا أريد له أن ينجح من مرحلة الأعمال العلمية المخبرية ، الى مرحلة الانتاج الصناعي الضخم ، وأن ترتفع نفقة المثابرة فيه من موازنة سنوية تقل عن مليون دولار الى موازنة تزيد على مئات ملايين الدولارات . وهكذا دخلت حكومة الولايات المتحدة في الإشراف على المشروع بشكل واسع النطاق .

كان أول مادعا الحكومة الامريكية الى الاهتمام بالمشروع النووي هو مبادرة من الفيزيائي الهنغاري ليو سزيلار ، الذي واكب تطور الطاقة النووية منذ أوائل ايامها ، وتنبأ ، في وقت مبكر جداً لم يكن الآخرون فيه قد فطنوا بعد الى ما ينبغي عمله ، بكثير من الامور جعلته يخترع طرائق أودعها في براءة اختراع قدمها للبحرية البريطانية عام ١٩٣٤ .

وكان سزيلار واعيا بامكان إقدام ألمانيا على بناء قنبلة نووية ، فسعى إلى إقناع أينشتاين بأن يكتب رسالة الى رزفلت ينبه فيها الى هذا الخطر ، ويدعو الى أن تبدأ الولايات المتحدة مشروعاً كبيراً لتسبق الى صنع القنبلة . وقد كتب سزيلار الرسالة ، ووقعها اينشتاين ، وحملها الى البيت الابيض أحد مستشاري الرئيس رزفلت فأقر رزفلت الاقتراح وأمر بتأسيس أول لجنه استشارية للنظر فيه ، وبيان طرائق تنفيذه . وبعد ذلك سمى رزفلت رئيسا للمشروع فانقر بوش ، وانتقى بوش نائبا له هو الفيزيائي الامريكي كننت .

وفي ٢٢ ايار/ مايو ١٩٤٢ ـ دعا كننت رؤساء المشاريع الثلاثة ، أي كنتن ولورنس ويوري لاجتماع عقد في مكتبه . وقد نظر المجتمعون في الإمكانات المتوفرة لهم فتبين لهم أنه توجد خمس طرق ممكنة ، من حيث المبدأ ، تؤدي إلى صنع القنبلة . فهناك أولا موضوع عنصر الانفجار النووي الذي يمكن أن يكون إما الارانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم ٢٣٩ . وهناك طرائق ثلاث ممكنة (أهملوا ما سواها) لفصل نظير الارانيوم ٢٣٥ هي الانتشار الغازي ، والفصل بالقوة النابذة والفصل الكهربائي المغناطيسي . وهناك اخيراً ملطفان ممكنان : إما فحم الغرافيت أو الماء الثقيل . وكان المجتمعون واعين بانهم لا يعرفون أي هذه الطرق يؤدي الى الهدف ، وأيها هو طريق مسدود . كما أنهم لم يكونوا يعرفون بين الطرق الناجحة الممكنة أيها أقصرها الى الهدف . وكان الشبح الذي يرعبهم هو أن المانيا قد سبقتهم وانها ستصنع القنبلة اولاً ، وعندها تكون لها الغلبة . وهكذا اتخذ المجتمعون قرارا مبنيا على عامل السرعة والخطر فقرروا أن يجربوا الطرق الخمس جميعا .

قبل انتهاء عام ١٩٤٢ اختصرت الطرق الخمس إلى ثلاث فقط ، بالتخلي عن الفصل بالقوة النابذة ، لما صادفه من عقبات هندسية كبيرة في تحقيق الدقة المطلوبة ، وبالتخلي عن الماء الثقيل كملطف لصعوبة الحصول عليه ، ولنجاح فرمي في استخدام الغرافيت كملطف .

وفي منتصف عام ١٩٤٢ حدث الانعطاف الحاسم في المشروع عندما تسلمه الجيش ودعيت الشركات الامريكية الصناعية الخاصة الكبرى للاشتراك فيه . وقد سُمّي الجنرال لزلي غروفز ليرأس مشروع مانهاتان هذا لإنتاج القنبلة

النووية . وكان الجنرال غروفر قد أشرف على بناء وزارة الدفاع الامريكية المسمى بنتاغون . وكان رجلاً حازماً قديراً منجزاً ، ولولاه لما تمكن الامريكيون من إنهاء صنع القنبلة في الموعد الذي تم فيه . وحالما سُمّي غروفز اجتمع ببوش ، وبعد صعوبات أولى أصبحا صديقين وتعاونا بشكل كامل . وقبل العلماء ، أحيانا على مضض ، هيمنة الجيش على المشروع وفرضه السرية المطلقة . ومنذ ذلك التاريخ تضخم المشروع حتى أصبح يعمل فيه عشرات الآلاف من الأشخاص لإنتاج الارانيوم ٢٣٥ والبلوتونيوم ٢٣٩ .

٢٣ ـ صنع القنبلة

بنى غروفز مصانع المشروع في ولاية تنسي ، وكانت ثلاثة مصانع : أحدها لفصل النظائر بالانتشار الغازي ، والثاني لفصلها كهربائيا مغناطيسيا بطريقة لورنس ، والثالث لانتاج الطاقة الكهربائية اللازمة للمشروع . وكانت المادة الخام التي يبدأ منها الفصل تحوي أقل من جزء واحد بالمائة من الارانيوم ٢٣٥ المطلوب للقنبلة ، وكان الهدف هو أن يتم الحصول على ناتج فيه نسبة مئوية من الارانيوم ٢٣٥ تكون أعلى من تسعين بالمائة .

كانت هذه المصانع جبارة ، فكان يعمل في مصنع الفصل الكهربائي المغناطيسي اثنان وعشرون ألف شخص . وكان الفصل يتم في المصنع على مرحلتين في المرحلة الأولى تسعة فروع ، في كل فرع ٩٦ خزاناً ، طول الواحد أربعون متراً ، وعرضه ٢٥ متراً ، وارتفاعه خمسة أمتار . ولصنع المغانط اللازمة للفصل احتاج الأمر الى مائة ألف طن من النحاس ، وحتى لايحرم الاقتصاد الحربي الأمريكي من هذا النحاس ، استخدمت الفضة بدلاً من النحاس في صنع المغانط فاستعار المشروع من الخزانة الأمريكية ٨٦٠٠٠ طن من الفضة أعيدت بعد الحرب بكاملها تقريبا .

أما مصنع الفصل بالانتشار الغازي فقد كان أكبر بناء على سطح الأرض . وكانت أكبر صعوبة فيه هي بناء الأغشية التي تلعب دور المنخل فتسمح لأحد نظيرى الارانيوم بالمرور من ثقوبها ، وتمنع النظير الآخر من ذلك . فهذه الثقوب ، وهي مجهرية لا ترى بالعين المجردة ، ينبغي إذن أن تكون ذات قطر مناسب ، وان يكون الغشاء الذي يحويها قادراً على تحمل الضغط الذي يدفع جزيئات سادس فلور الارانيوم المستخدمة الى المرور من خلالها إذا كان الارانيوم فيها هو النظير الصحيح . وقد صادف صنع الغشاء المناسب عقبات كبيرة ، وأدى إلى خلاف بين العلماء والشركات الصانعة . وأخيراً بت غروفز في الأمر واختار أحد الحلين المقترحين وبدأ العمل في المصنع لفصل النظائر في ٢٠ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٥ .

وأخيرا استعملت طريقتا الفصل معاً ، أي الفصل بالانتشار الغازي ، والفصل الكهربائي المغناطيسي ، مضافا اليها طريقة الفصل بالانتشار المائع التي كان قد طورها في سلاح البحرية الامريكية فيليب ابلسن ، فأمكن بذلك معالجة بضع عشرات من أطنان الارانيوم الطبيعي لانتاج ستين كيلو غراما من الارانيوم ٢٣٥ استخدمت في قنبلة هيروشيما .

وفي الوقت الذى كان يجرى فيه العمل على فصل نظائر الارانيوم ، كان عمل آخر ينجز في شيكاغو لانتاج البلوتونيوم ٢٣٩ . وكان رئيس هذا المشروع فرمي . وبعد محاولات عديدة لتحقيق التفاعل المتسلسل في التجارب التي كانت تجرى في ملعب مهجور واقع تحت ملعب كرة القدم في جامعة شيكاغو ، تحقق التفاعل المتسلسل في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٢ . هاتف كمتن فوراً الى كونانت ليبلغه الخبر . وخوفاً من أن يقع السر في أسماع من لا ينبغي أن

يعرفوه ، استخدم عبارات رمزية فقال : لقد نزل البحار الايطالى لتوه فى شاطىء العالم الجديد . فسأله كونانت : هل هذا صحيح ؟ وهل استقبله السكان هناك بمودة . فقال كنتن : لقد نزلوا جميعا بسلام وسعادة .

وحالما بني أول مفاعل أمكن التفكير فى بناء نماذج متـ.ـيـ.ـ ، تكون على مقياس صناعي ، ويمكن استخدامها لإنتاج البلوتونيوم اللازم للقنبلة . وقد دعيت الشركة الكيمائية الكبرى دوبون لتنفيذ المشروع الصناعى ، متعاونة فى ذلك مع فريق فرمي لانتقاء نوع المفاعل الأفضل ، ومع فريق سيبرغ لفصل البلوتونيوم المتولد من النتائج الأخرى لانشطار الارانيوم فى المفاعل . وبنت شركة دويون المفاعل الأول فى أوك ردج فى عام ١٩٤٣ ..وكانت استطاعة هذا المفاعل التجريبى مليون واط ، وكان قادرا فى البدء على إنتاج غرام واحد من البلوتونيوم فى اليوم ، ثم ارتفع هذا المقدار عدة أضعاف . وكان استخراج هذا البلوتونيوم يتم فى المصنع الكيميائى الذى بني لهذا الغرض ، والذى كانت كل عملياته تتم بقيادتها من بُعد بسبب النشاط الإشعاعي الخطر الموجود في كل المواد التي يعالجها .

بعد نجاح المفاعل التجريبي والمصنع الكيميائي التجريبي ، بنيت المصانع الفعلية في هانفرد وكانت مؤلفة من ثلاثة مفاعلات وثلاثة مصانع كيميائية للفصل . وكانت استطاعة كل مفاعل مائتي مليون واط . وكانت هذه عملية بناء ضخمة اشترك فيها عدد من العمال بلغ في إحدى المراحل خمسة وخمسين الف شخص . وكان كل مصنع من المصانع الكيميائية ذا طول يبلغ مئتين وخمسين مترا ، ويحوي أربعين حجرة متصلة بدهاليز ، والكل مبني من الخرسانة . وبدأت المفاعلات والمصانع الكيميائية في العمل وإنتاج البلوتونيوم قبل نهاية كانون الثاني/ يناير ١٩٤٥ . وفي صيف ذلك العام كان الإنتاج قد وصل إلى عدة كيلوغرامات من البلوتونيوم استخدمت في انفجار تجريبي وفي القنبلة النووية الثانوية التي ألقيت على ناغازاكي في ١٠ آب/ اغسطس ١٩٤٥ .

كان أول من حاول ان يقدر مقدار الارانيوم اللازم لقنبلة نووية ، ومقدار الطاقة المخرجة الناتجة عن هذه القنبلة ، هم البريطانيون الذين وجدوا بحساباتهم في عام ١٩٤١ أنه يلزم عشرة كيلوغرامات من الارانيوم ٢٣٥ ، ينفجر منها حوالي اثنان بالمائة ، وأن ذلك يولد طاقة انفجارية تساوي الطاقة المتولدة من حوالي أربعة آلاف طن من الديناميت .

وفي أيار/ مايو ١٩٤٢ انتقى كنتن فيزيائيا شابا من العاملين مع لورنس ، هو ربرت ابنهايمر ليرأس مشروع صنع القنبلة الذرية نفسها . وقد تم تنفيذ المشروع في لوس آلاموس في السلسلة الجنوبية من الجبال الصخرية ، وهي منطقة تكثر فيها البراكين المنطفئة ، وتتكون من مجموعة كبيرة من التلال والوديان معزولة عن الأماكن المأهولة بالسكان . وقد برهن ابنهايمر على مهارة ومقدرة فائقتين ، ولكن بقيت شكوك تحيط به لما أشيع عن علاقات لـه سياسية بحركات يسارية . إلا أن غروفر ، لثقته بعلمه ووطنيته أصر على الاحتفاظ به رئيسا للمشروع .

بنيت المخابر والمعامل والمكاتب والمساكن بسرعة فائقة في لوس آلاموس ليستخدمها العلماء والمهندسون العاملون هناك ، وعائلاتهم . وقد بلغ عددهم في آخر المشروع ستة آلاف شخص ، ومن بينهم نفر من أعظم فيزيائيي ورياضيي العالم ، منهم هانس بيتة ، المهاجر من المانيا ، وصاحب نظرية التفاعل النووي داخل النجوم ، وقد رأس القسم

النظري ، منهم إدوار تيلر ، المهاجر من هنغاريا ، والذي أصبح فيها بعد رئيس مشروع بناء القنبلة النووية . وقد قبل في المشروع عدد من العلماء الآتين من بريطانيا ، بعد أن اتفق رزفلت وتشرشل في كيبك عام ١٩٤٣ على التعاون الجزئي في بناء القنبلة . وكان من هؤلاء ردلف بايلز واوتو فريش ، وهما مهاجران من اوربا الوسطى ، ومنهم أيضا كلاوس فوكس المهاجر من ألمانيا ، والذي اتهم بعد ذلك وأدين في تسريب بعض أسرار القنبلة النووية للاتحاد السوفييتي . وكان من الذين أتو مع المجموعة البريطانية الى لوس آلاموس ايضا الفيزيائي الكبير نيلز بور الذي كان قد فر من بلده الدانمارك في عام ١٩٤٣ ، بعد أن بقي فيها فترة بعد احتلال القوات الالمانية لها عام ١٩٤٠ . وقد أصبح بور القطب الذي يتحلق حوله العلماء العاملون في المشروع ، ليعرضوا عليه نظرياتهم ويطلبوا رأيه فيها ويستمعوا إلى إرشاداته القيمة . ومنذ ذلك التاريخ كان بور واعيا لخطر هذا المشروع ، فقد سئل مرة عما إذا كان المشروع سينجح فأجاب : طبعا سينجح ، ولكن ماذا سيحدث بعد ذلك ؟ وكان الأمل الوحيد الذي يراه بور في موضوع القنبلة هو أنها من الخطر بحيث يمكن أن يؤدي استعمالها إلى إفناء الجنس البشري ، ولذلك فان الدول ستتفق فيما بينها على تجنب الحرب . وكان يريد أن تعرض الولايات المتحدة وبريطانيا على الحلفاء الآخرين اقتسام الأسرار النووية ، ويخص بذلك الاتحاد السوفييتي . وقد استمع رزفلت الى آرائه بعناية ، أما تشرشل فغضب وأراد اعتقاله لأنه اعتبره خطراً على الحلفاء .

تم تصميم القنبلة النووية استنادا الى فكرة طرحها ست ندرماير عام ١٩٤٣ ، وتتلخص في إحاطة كرة مجوفة من الارانيوم ٢٣٥ أو البلوتونيوم ٢٣٩ بمادة انفجارية كيميائية شديدة ومتى فجرت هذه المادة النووية الموجودة داخلها (أي الارانيوم او البلوتونيوم) ، نحو المركز . وضغطتها ، فتكون منها كتلة تفوق الكتلة الحرجة ، فيحدث فيها الانفجار النووي . وهكذا بنيت أول قنبلتين نوويتين : الواحدة التي استخدمت الارانيوم ٢٣٥ سميت بالفتى الصغير وارتفاعها متران ونصف تقريبا وقطرها ثلاثة أرباع المتر ، ووزنها أربعة أطنان ، والثانية التي استخدمت البلوتونيوم ٢٣٩ سميت بالرجل البدين وارتفاعها ثلاثة أمتار ونصف ، وثخنها الأقصى في موضع امتلائها متر ونصف ، ووزنها اربعة اطنان ونصف . ووزن الوقود النووي في كل حالة جزء صغير .

وحصل أول انفجار تجريبي في صحراء آلاموغوردو في ولاية نيومكسيكو في الساعة الخامسة والنصف من صباح السادس عشر من تموز/ يوليو عام ١٩٤٥ وقد نجح الانفجار نجاحا باهرا وتولدت منه الكرة النارية ، والسحابة التي تشبه الفطر ، التي أصبحت بعد ذلك مألوفة بفضل وسائل الاعلام . وقد تولد من الانفجار ومضة من النور الساطع أشد ضوءاً من الشمس بمراحل ثم تبعت الومضة هبة من الضغط مخيفة ، لحقها زئير من الرعد هائل بقي هديره يتداوله الصدى بين التلال والوديان عدة دقائق . وكانت الطاقة التي تولدت معادلة لخمسة آلاف طن من الديناميت .

وفي ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٤٥ أمر ترومان ، الذي كان قد تولى رئاسة الجمهورية في الولايات المتحدة بعد وفاة رزفلت ، بإلقاء القنبلة على اليابان في أول موعد يسمح به الطقس بعد الثالث من آب/ اغسطس . وأنذرت اليابان بأن تستسلم في يوم ٢٦ تموز/ يوليو ، وهددت إن لم تفعل بخراب سريع ماحق . ورفض رئيس وزرائها الاستسلام بعد يومين . ثم ألقيت قنبلة الفتى الصغير على هيروشيما من قاذفة من طراز بـ ٢٩ في ٦ آب/ اغسطس ، فتهدم ستون بالمائة

من المدينة ، وبلغ عدد الضحايا مائة وأربعين الفا . وألقيت القنبلة الثانية على ناغازاكي في ٩ آب / اغسطس ، فتهدم ما يقرب من نصف المدينة ، وبلغ عدد الضحايا سبعين ألفا .

ولا يزال النقاش دائرا حول ما إذا كان من الضروري إلقاء هاتين القنبلتين لحمل اليابان على الاستسلام . ومن الوثائق الجديدة التي نشرت ما يدل على أن الامبراطور الياباني كان يبحث عن صيغة للاستسلام عندما فوجيء بسقوط القنبلتين فاستسلم فورا .

٢٤ - إلى اين المصير ؟

كل عصر تاريخي يظن أنه فريد بين أقرانه ، ولكن عصرنا هذا فريد حقا . لأول مرة تستطيع الإنسانية أن تفني نفسها وأكثر الحياة على الأرض . وقد قال ابنهايمر الذي أشرف على صنع القنبلة الذرية ، وسعى عبثا لمنع صنع القنبلة الهيدروجينية ، إن الفيزيائيين قد ذاقو طعم الخطيئة . وقال فيليب موريسن ، الذي اشترك فى المشروع الذري ، انه كان يتخيل نفسه وزملاءه كمن يدغدغ ذنب تنين .

والإنسانية ماتزال اليوم تدغدغ ذنب التنين . فالاسلحة النووية المكدسة سيف معلق فوق رأسها بشعرة . وكل مصنع نووي يبنى يكون كأنه بقعة من القيح على وجه الأرض ، والفضلات النووية التي يعيش بعضها قرونا هى التلوث الأعظم . ونذكر أن البعض يقول إن كلمة جهنم أصلها وادى القمامة قرب القدس أيام بنى إسرائيل .

ولا رجوع الى الوراء فقد أشعل عود الثقاب . وليس اليوم ببعيد الذي يصبح فيه السر النووي المزعوم مبثوثا بين أرجاء الناس في كل مكان . وأى سلطان يستطيع عندئذ ان يكبح جماح فئة جمعت العزم واليأس وأمسكت بالسلاح النووى . الإنسان فى حاجة الى حظ عظيم والى حكمة أعظم .

٢٥ - المغزى ؟

حكاية الطاقة النووية شهيد على بهاء العلم وشقائه .

فالعلم بهىّ ، لأنه وليد القناعة (لايسأل ماليس له جواب) والحرية (لايقبل مالم ينجح فى الامتحان) ، ولأن اسرته أكثر الأسر وئاماً ، تتحلق حول بضاعتها التى اختبرتها ، ولاتدعي لنفسها الحكمة .

والعلم شقي لأنه عاجز عن كبح العمالقة الذين يطلقهم ، فيجلبون الرخاء ، ويعيثون فى الأرض فساداً .

قديما قالوا : « لاعيش بدون خبز ، ولاعيش بالخبز وحده » أيصح هذا الكلام إذا جعلت فيه كلمة « العلم » مكان « الخبز » ؟

« من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » (صدق الله العظيم) .

بعض المراجع

1 - C. Sutton	The Particle Connection
2 - A. Keller	The Infaucy of Atomic Physics
3 - C. Sutton (Editor)	Building the Universe
4 - P. Watkins	The Story of the W and Z
5 - R. Clark	The Greatest Power on Earth
6 - L. Bickel	The Deadly Element
7 - A. Pais	Toward Bound
8 - L. Motz and J. Weaver	The Story of Physics
9 - A. Mckay	The Making of the Atomic Age
10 - J. Herbig	Ketteureaktion: das Drawa der Atomphysikes
11 - M. Gowing	The Development of Atomic Energy

* * *

منظور السلام والأمان في صناعة الطاقة الكهرونووية

عدنان مصطفى

« ليس ثمة شيء سيء أو جيد ، ولكن الظن يبديه كذلك »

(مسرحية هاملت)
وليام شيكسبير ، ١٦٥٤ - ١٦١٦

١ - تقديم

شبت التقنية النووية اليوم عن الطوق ، وساد استغلالها ، وتطور انتشارها في معظم أقطار العالم ، وأقطار العالم الصناعي المتقدم بخاصة . والعلماء والتقنيون الذين عملوا على إيصال هذه التقنية إلى الحال المتقدم الّذي تحرزه اليوم ، رموا من ذلك الى وضع هذه الأداة العصرية المتفوقة البراعة في خدمة نماء ورفاه الإنسان على أرضنا الطيبة . وكما حدث لـ (بروميثيوس) ، عندما أراد إنقاذ الانسانية من تخلفها التنموي ، انطلق - وفقا للأسطورة اليونانية - الى الشمس ليعود منها بشعلة نار ليوقد بها حياة التقنية الأرضية ، حدث أيضا للعلماء والتقنيين الذين ضحوا بكل ماتوفر لديهم من إمكانات لإخراج معالم التقنية السائدة اليوم . وإذ لم يخطر على بال (بروميثيوس) أن يقوم الانسان باستغلال النار في غير إطارها الخيِّر ، خرج الأمر من يد رجال العلم والتقنية النووية ، لينتشر استغلال الطاقة النووية في محورين :

(١) - محور شاقولي خيِّر ، تنامى عليه وجود التقنية النووية الخير ، ليقدم للإنسانية إمكانية توليد الكهرباء لتخفيف إرهاص الطلب على مصادر الطاقة التقليدية (أي النفط والغاز) وعقلنة استغلال هذه المصادر خلال العقود القليلة الباقية من حياتها[1] لصالح أغراض التنمية الإنسانية التي لا تدخل في إطار هدر هذه المصادر بحرقها من جهة ، وتوفير مصدر طاقي عالمي جديد (وربما متجدد) يحل محل النفط والغاز في حالة نضوبهما المتوقع خلال عقود القرن المقبل الأولى من جهة أخرى . « فالصناعة الكهرونووية (قامت) في عام ١٩٨٨ بانتاج (١٨,٥٢٪) من

---

(١) OPEC, 1988, "FACTS AND FIGURES: A Graphical Analysis of World Energy up to 1987, Vienna.

إجمالي الطاقة الكهربائية المولدة عالميا ، وبكلفة تعادل (٥٤,٨٪) من المنتجة بالنفط مثلا . كما أن وتيرة نموها خلال السنين العشر التي خلت ، قد بلغت حدود الـ (٢٢,٧٪) في حين أن مثيلتها بالنسبة لإنتاج الطاقة الكهربائية العالمية الكلية لم ترقَ الى أكثر من (١٣,٣٪) خلال الفترة نفسها ، الشكل (١) [٢] .

(٢) ـ محور شاقولي شرير ، هو منحى انتشار صناعة السلاح النووي . فوفقا لتقويم مركز ستوكهولم الدولي لبحوث السلام (SIPRI) ، قامت هذه الصناعة بانتاج ونشر مالا يقل عن (٣٩٢٨٥) قنبلة نووية مختلفة النوع والحجم وقوة التدمير وتملك طاقة تدميرية لاتقل عن (٥٨,٣ ميغاطن) موزعة بين يدى القوتين العظميين وحليفاتها على النحو المبين في الشكل (٢) . وغني عن البيان القول ، أن هذه الامكانية التدميرية قادرة على اخراج عالمنا الأرضي من حيز الوجود ، لذا فإن بقاءها محفزة للردع أو غيره يشكل سيفا مسلطا على عنق البشرية جمعاء .

ومع أن صناعة التوليد الكهرونووية قد حازت اليوم تقدما تنمويا لايجارى ، وبات مفهوما أن الخطر الأكبر يكمن في القوة التدميرية الجاهزة لانتشار السلاح النووي وليس فيها ، أضف الى ذلك أن الرأى العام بات على علم بأن احتمالات خطر تشغيل منشآت الطاقة الكهرونووية هي أدنى بكثير من معظم صناعات الطاقة الأخرى (الجدول ١) ، فإن ثمة خشية لم تزل قارة في أذهان الجماهير ، واعية أكانت أم لا . ولابد من الاعتراف بأن حادث تشيرنوبيل ، الذى تأكد بانه خطأ مقصود[٣] ، قد شحذ من ردة فعل الناس ضد الطاقة النووية وليس صناعة السلاح النووى وحدها بشكل خاص ، وأخمد الى حد ما من زخم ازدهار صناعة التوليد الكهرونووية الذى حققته خلال النصف الأول من عقد الثمانينات . ولاجدال في أن موقف الرأى العام يبقى المقرر في إعادة الازدهار هذا الى نصابه ، والسماح بالاستمرار في إنماء صناعة التوليد الكهرونووية خلال مرحلة الانتقال الطاقية التي باتت تعايشنا اليوم . ويشكل أمر تجاوز هذا الوضع السلبي أحد أكبر تحديات التنمية الطاقية العالمية خلال البقية الباقية من هذا العصر . وبغية إحراز نصر في هذا الاتجاه لابد من تحقيق سجل لايدحض لـ : (١) سلام المنشآت الكهرونووية (أى خلوها من العيوب) و (٢) وللأمان الذى يسم وجودها وتشغيلها الأمر الذى يزيد من اقتناع جماهير البشرية جمعاء بسلامة جدواها كمصدر طاقي خيّر قادر على أن يخفف عبء الطلب المتزايد على النفط الناضب من جهة ، والإحلال محله في حال غيابه خلال النصف الأول من القرن المقبل من جهة أخرى .

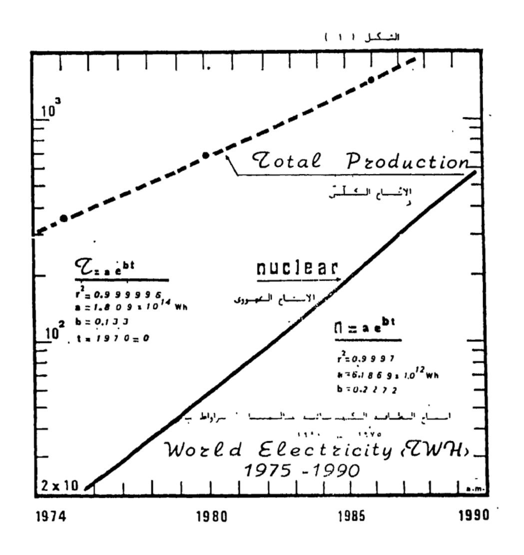
وبغية ايضاح معالم سلام وأمان صناعة الطاقة الكهرونووية ، فقد توجه محور جهدنا في هذا البحث الى اطلاع القارىء العربي الكريم على أبرز تلك المعالم من زاوية علمية إنسانية خالصة ، وذلك دون الخوض كثيرا في تفاصيل علمية وتقنية قد يتطلب إدراكها تخصصا علميا دقيقا .

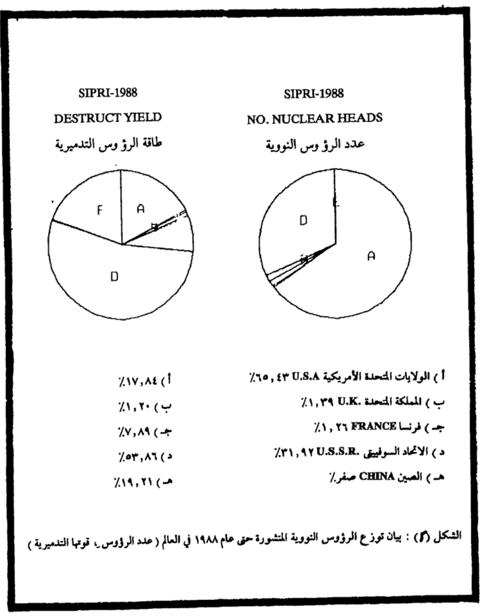
---

(٢) Mustafa, Adnan, 1988, "Perspectives on Arab Nuclear Power", ENERGEX - 88, Tripoli, 25 - 30 November 1988.

(٣) Gittus, John, 1986, "Chernobyl and after - Meeting Summary", Atom, 360, (6-7).

الشكل (١)


Total Production
الإنتاج الكلي
nuclear
الإنتاج النووي
T = a e^bt
r² = 0.999996
a = 1.809 x 10^14 Wh
b = 0.133
t = 1970 = 0
n = a e^bt
r² = 0.9997
a = 6.1869 x 10^12 Wh
b = 0.2272
World Electricity (TWH)
1975 -1990
10³
10²
2 x 10
1974
1980
1985
1990



الشكل (٣) : بيان توزع الرؤوس النووية المنشورة حتى عام ١٩٨٨ في العالم (عدد الرؤوس، قوتها التدميرية)

المصدر : مركز ستوكهولم الدولي لبحوث السلام ، ١٩٨٨ (يشمل التوزيع أعلاه جميع الرؤوس النووية المحمولة بصواريخ استراتيجية وتكتيكية ، طائرات ، غواصات وسفن ، مدفعية ، وقنابل أخرى : التوزع الأيمن لعدد الرؤوس ، والتوزع الأيسر للقوة التدميرية)

الجدول (١) تقويم مخاطر الحوادث النووية لكل ميغاواط (ك) مولد للطاقة الكهرونووية في بريطانيا

منشأة التوليد الكهربائية	عدد الوفيات	الاحتمال السنوى
مفاعل ماء مضغوط (PWR)	١٠ الى ١٠٠ ١٠٠٠ الى ١٠٠٠٠	حتى $١٠^{-٥}$ $١٠^{-٧}$ الى $١٠^{-٩}$
نفطية	١٥٠٠ ١٨٠٠٠	$١٠^{-٥}$ الى $١٠^{-٦}$ $١٠^{-٦}$ الى $١٠^{-٧}$
فحم حجرية	١٠ الى ٥٠ ٦٠٠	٣×١٠^{-٥} $١٠^{-٨}$
كهرمائية	١٠ الى ٢٠٠٠	$١٠^{-٣}$ الى $١٠^{-٤}$

المصدر ـ مؤتمر فوراتوم الدولي الثامن ، لوزان ، ١٩٨٢م ـ مصطفى ، عدنان ، « الندوة السنوية العاشرة لمعهد اليورانيوم » ، لندن ، ١٩٨٥

وقبل الدخول في تفاصيل أمري سلام وأمان صناعة الطاقة الكهرونووية ، لابد لنا من التذكير بأن لدى التفكير باستغلال تقنية ما تنموياً ، ولتكن النووية مثلا ، لابد من أن تكون :

(١) ـ مجدية اقتصاديا كي تتمكن من تسويق إنتاجها وتوطيد بقائها على الصعيد التجارى ،

(٢) ـ وتتوفر مصادر تكوينها ، وتشغيلها ، وادارتها العلمية والتقنية والتجارية على نحو متقدم بحيث تحقق اطراد بقائها في السوق المنافسة ،

(٣) ـ وتحمل حدا أدنى مقبولا من المخاطر العامة ، وذلك من خلال امتلاكها معايير سلام فاعلة وشاملة ،

(٤) ـ وأن يكون تأثيرها البيئي أصغريا .

وقد تبين عمليا ، ومن خلال تجربة فرنسا الكهرونووية مثلا ، إمكان تحقق الشرطين الأولين بشكل فريد . فمن الجدول (٢) نجد أن كلفة توليد الكيلوواط الساعي نوويا أدنى من تلك التي يتم توليدها بالمصادر التقليدية الأخرى كالفحم الحجرى والغاز . وبناء على ذلك توسعت امكانية التوليد الكهرونووية الفرنسية الى حدود (٦٩,٨٪) من مجمل إنتاج فرنسا الكهربائي في عام ١٩٨٨[٤] ، إضافة الى أن هذا التوجه قد حقق لصناعة الطاقة الفرنسية تخفيف

(٤) IAEA, 1988, IAEA Newsbriefs.

عبء اعتمادها على مصادر الطاقة المستوردة كالنفط والغاز . أما العاملان الثالث والرابع المشار إليهما أعلاه ، فيمثلان الأساسين الرئيسين لسلام صناعة الطاقة الكهرونووية وأمانها على التوالي .

٢ - سلام صناعة الطاقة الكهرونووية

يشكل سلام منشأة الطاقة الكهرونووية أمرا تقنيا بالغ التعقيد والتقدم . وبغية تسهيل إدراكه عموما ؛ سنسعى فيما يلي إلى تبسيطه قدر الإمكان وذلك من خلال الإجابة عن السؤال المزدوج التالي :

« ماالذى يمكن أن يحدث لمنشأة كهرونووية ، وماهي المخاطر التي يمكن أن يرسيها ذلك الحدث ؟ »

وللإجابة عن هذا السؤال : لابد من التأكيد أولا بأنه لايمكن البتة حدوث انفجار نووى داخل المنشأة الكهرونووية كالذى تصنعه القنبلة النووية ، وذلك لوجود اختلاف أساسي بين تكوين المفاعل والقنبلة النوويين . فالقنبلة النووية تشتمل على تركيز عال من اليورانيوم - ٢٣٥ أو البلوتونيوم يحقق وضع تكوين « فوق الحرج » يكون بمثابة فتيل جاهز مباشرة للانفجار . في حال أن المفاعل النووى ، مثلا مفاعل الماء الخفيف ، فيكون تركيز اليورانيوم فيه في حدود الـ (٣٪) وهو تركيز هامشي بالنسبة لما هو في القنبلة النووية ، وبالتالي فهو لايسمح بوجود فتيل الانفجار ، أضف الى ذلك أن المفاعل يملك آليات ردع أوتوماتيكية تعمل على شاكلة مطفأة للتفاعل النووى المتسلسل في حال حدوث مايزيد على سوية الطاقة الحرارية عن القدر الأعظمي المحدد للمفاعل . ولهذا فان محور هدف تقانات سلام المفاعلات النووية المختلفة إنما يتركز في اتجاه منع خروج المواد الانشطارية من قلب المفاعل الى محيطه الخارجي . فالمفاعل قيد العمل مثلا يتطلب قدرا كبيرا من الوقود النووي القابل للانشطار (أوكسيد اليورانيوم المغنى الى تركيز ٣٪ في مفاعل الماء الخفيف مثلا) الذى يضمن في قضبان من خليطة الزركونيوم . وعندما يجرى قذف هذا الوقود بالنترونات يبدأ التفاعل المتسلسل بالحدوث مولدا طاقة حرارية ومحولا الوقود داخل قضبانه الى منتجات مشعة تشكل الخطر الوحيد الكامن في المفاعل والمتوجب منع خروجه من قمقم اللقمة الوقودية السيراميكية داخل قضيب الوقود .. وبناء على ذلك يجب أن يتركز سلام المفاعل (بل خلوه من العيوب إزاء هذا المنع) في (احتواء) هذه المنتجات الضارة في قلب المفاعل ، مهما كانت الظروف التي قد يتعرض لها المفاعل مثل : ظروف التشغيل الشاذة ، تراكب أعطال المنشأة النووية ، وأخطاء التشغيل البشرية ، أو التخريب المتعمد داخل المفاعل . وتحقيق هذا الهدف يجب أن لايقتصر على بنيان المفاعل أو أجهزة تبريده ، أو الأجهزة المساعدة ، بل على تصميمها الدقيق جميعا آخذين بعين الاعتبار جميع الاحتمالات وصولا الى الاحتمالات الخيالية الخارقة التي قد يتصورها التقنيون النوويون في عالم الأحلام وجموح الخيال .

وكما هو مبين في الشكل (٣) المبسط ، يتم احتواء منتجات الانشطار النووية في إطار أوعية متتالية يقوم كل منها بدورة ، وحسب إمكاناته المصممة لذلك ، لتحقيق عملية (الاحتواء) بشكل متكامل وفعال . وذلك على النحو التالي :

الجدول (٢) بيان كلف توليد الكهرباء في فرنسا

(سنتيم لكل كيلوواط ساعي وسطي)

تقنية التوليد الكهربائية	المنشأة الأساس	زمن التشغيل (٢٠٠٠ ـ ٤٠٠ ساعة/ عام)	
استثمار نووی	١١,٢	٤٧	
تشغيل نووی	٤,٩	١٦,٧	
وقود نووی	٦,٣	٨,٥	
المجموع	٢٢,٤	٧٢,٢	
استثمار فحم حجری	٨,٥	٣٢,٣	
تشغيل فحم حجری	٣,٤	١٣,٥	
وقود فحم حجری	١٤,٠	١٤,٠	
ازالة الكبريت	٢,٢	٥,١	
المجموع	٢٨,١	٥,١	
استثمار توربيني غازی		١٢,٠	٦٩,٤
تشغيل توربين غازی		٤,٧	٢٢,٢
وقود توربين غازی		١٠٨,٠	١٠٨,٠
المجموع		١٢٤,٧	١٩٦,٦

المصدر ـ الأستاذ الدكتور جولز ، ب . م . س ، ١٩٨٧ ـ مجلة « ATOM » ، آذار ١٩٨٨ ، (٣١ ـ ٣٣)

ـ خط الدفاع الأول

هو الغلاف السيراميكي المحيط بالحشوة الوقودية مشكلا مع الأخيرة مايعرف باللقمة الوقودية . واللقمة الوقودية (أي اليورانيوم ـ ٢٣٥ وغلافه السيراميكي) لاتتضمن أية منتجات غازية تؤدى الى تفجير الغلاف السيراميكي ، إن لم يعمل الغلاف السيراميكي على الحؤول دون حدوث أية غازات تجنبا لأى انفجار يؤدى الى كسر خط الدفاع السيراميكي الأول هذا .

ـ خط الدفاع الثاني

ويتمثل في قضبان خليطة الزركونيوم الحاوية للقائم الوقودية آنفة الذكر . وتقوم هذه القضبان بتيسير توضيع الوقود في قلب المفاعل إضافة الى قيام جدرانها باحتواء أى انفلات للحشوة الوقودية من لقمتها .

ـ خط الدفاع الثالث

ويحوى قضبان الوقود والسائل المبرد (الماء الخفيف في مفاعل الماء المضغوط مثلا) وعاء شامل من الفولاذ.يبلغ ثخنه (٢٠ سنتمترا) ، مقاوم للضغوط المرتفعة (أى الى حوالي ١٥٠ ضغطا جويا) . ويشكل هذا الوعاء خط الدفاع الثالث أمام تسرب نواتج الوقود المنشطر من القضبان الوقودية (إن حدث ذلك ؟) . ويرتبط هذا الوعاء بمالا يقل عن دارتي تبريد أوليتين (إحداهما احتياطية) ، إن لم تكن أربع دارات كما هو الحال في مفاعل وستنجهاوس ، تعمل إحداهما بشكل رئيس على نقل الطاقة الحرارية المولدة عن الانشطار النووى الى خارج قلب المفاعل حيث المبادلات الحرارية في مولد البخار ، الذى يقوم بدوره بنقل الطاقة الحرارية عبر هذه المبادلات لدارة التبريد الثانوية عبر النقل الحرارى فقط . وتقوم المبادلات الحرارية بدور توليد البخار في الدارة الثانوية التي تقود البخار الى منشأة التوليد الكهربائي (انظر يمين الشكل ٣) . وفي حال عمل دارة التبريد الأولية الرئيسة (أو أكثر من دارة) تبقى الدارات الأولية الأخرى جاهزة للقيام بدورها كاملا في حال حدوث أى خلل في عمل الدارة الرئيسة . وبذلك تقوم دارة التبريد الأولية بدور خط دفاع مكمل لابد منه للابقاء على حرارة قلب المفاعل المميزة والمصممة له ، إضافة الى أنها تقوم باجراء نقل غير مباشر للطاقة الحرارية من قلب المفاعل الى دارة التبريد الثانوية . فإن حدث وتمكنت مواد الانشطار النووية وأفلتت من خطوط الدفاع الأولى ، فإنها تبقى محتواة في إطار الدارة الأولية ذاتها ، لهذا تجعل جدران هذه الدارة في حدود الـ (١٠ سنتمتر) .

ـ خط الدفاع الرابع

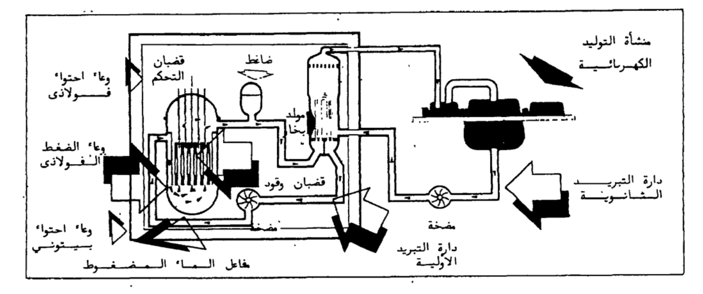
ويتكون من غلاف فولاذى شامل يضم كلا من قلب المفاعل ودارته الأولية ومولد البخار على النحو المبين في الشكل (٣) .

ـ خط الدفاع الخامس

وهو الخط الأخير الذى يتكون من هيكل بناء المفاعل ، ويبنى عادة من جدران بيتونية قادرة على تحمل أقصى احتمالات أخطار خروج المواد الانشطارية التي يمكن أن تكون قد كسرت خطوط الدفاع الداخلية آنفة الذكر . إضافة الى مقاومتها أية عمليات اختراق خارجية بسبب التخريب أو غيره .

وإضافة الى كل هذه الخطوط الدفاعية الرادعة لاتصال المواد الانشطارية النووية مع المحيط ، تقام المنشآت الكهرونووية في مناطق مدروسة الكيان ، كبعدها عن الهزات الأرضية الكبرى ، وتجنبها احتمالات الكوارث الطبيعية كالفيضانات والأعاصير ، وتبعد أيضا عن المناطق الآهلة بالسكان .

وثمة احتياطات أخرى يجب اتخاذها (لضمان) سلام المفاعل النووي بدءا من عمليات التصميم الهندسية ، والانشاء والاختبار ، وانتهاء بالتشغيل العادي والطارىء للمفاعل . لذا يجب على المهندسين النوويين إبداء أى شيء ممكن لمنع حدوث أى حدث طارىء ضمن هذه المراحل جميعا في أى حال وذلك من خلال التصميم الخبير والدقيق . ومن بين أبرز تلك الاحتياطات :



الشكل (٣) ـ تبسيط منشأة توليد كهرونووية تعمل بمفاعل (PWr)

المصدر : تبسيط عن « مؤسسة الطاقة الذرية البريطانية » ، ١٩٨٨

(١) - ضمان نوعية مكونات المنشآت الكهرونووية وفقا لمواصفات التصميم الهندسي والتقني المقررة .

(٢) - تصميم أجهزة سلام كفية تملك جاهزية دائمة ومتنوعة الأدوار لمواجهة ظروف التشغيل الشاذة .

(٣) - تصميم أنظمة سلام للوقاية من الحوادث الكبرى بعيدة الاحتمال ، كفقد سائل التبريد الأولي ، والأخطاء البشرية ، والأحداث الطبيعية الحادة (زلازل ، أعاصير ، فيضانات) ويشار الى هذا النوع من إجراءات سلام المنشأة النووية بتعبير « الدفاع في العمق » . وتجدر الإشارة الى أن إقامة المنشأة الكهرونووية تتطلب مبدئيا تحليلا شاملا ووافيا لجميع احتمالات الحوادث الفرضية بغية جعل إمكانية « الدفاع في العمق » وسيلة لاتقهر . أما الحدث بعيد الاحتمال فيطلق عليه اسم « الحدث الأساسي » في التصميم ، لهذا يجرى تصميم المنشأة النووية بهامش سلام كاف قادر على مواجهة « الحدث الأساسي » دون أن تتعرض المنشأة ومحيطها لأى خطر ينجم عن تسرب المواد الانشطارية . ويوفر هذا النمط من التصميم « أمانا » خاصا تملكه المنشأة لمقاومة أى حدث مهما كان نوعه ومنشؤه .

٣ - تحديات سلام صناعة الطاقة الكهرونووية

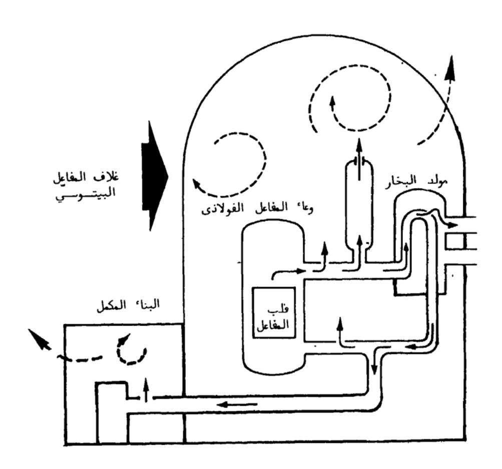
عندما تبقى منتجات الانشطار النووى محفوظة ضمن اللقمة الوقودية ، يكون وضع سلام المنشأة سائدا وليس ثمة خطر يدعو للقلق . والحدث الوحيد الذى يخرج هذا (الخطر) من مكمنه هو (انطلاق) الوقود المنشطر من وعائه السيراميكى متخطيا خطوط الدفاع آنفة الذكر . ولهذا فإن (مفهوم الخطر) في الصناعة الكهرونووية يعني توافق حدوث عدد من النتائج السلبية لانطلاق الوقود من وعائه السيراميكي مع احتمالات ظهور ذلك الانطلاق . وبغية وضع مفهوم الخطر بصورة تعابير عمليـة تناسب بقيـة العوامـل المختلفة الـداخلة في صنع قـرار جدوى إقـامة مشـروع المنشأة الكهرونووية ، فقد جرى تبسيطه في صيغة احتمالية متعددة الجـوانب يمكن تبنيها في تحليـلات (الخطر) السـائدة اليوم(*) . وكيلا ندخل في التعقيدات الاختصاصية لهذه التحليلات ستتابع تمييز بعض المعـالم الرئيسـة لهذا الخـطر باعتبارها تمثل تحديات رئيسة لمجمل إجراءات سلام المنشأة النووية .

يتجسد « الحدث الأساسي » لاختلال سلام المنشأة الكهرونووية في (تصدع) دارة التبريد الأولية . ونظرا لأن الماء الخفيف المبرد في دارته الأولية المغلقة يخضع الى ضغط لايقل عن (١٥٠) ضغطاً جوياً في مفاعلات الماء المضغوط مثلا وتكون درجة حرارته لدى ٣٠٠ درجة مئوية ، فإن أي تصدع في هذه الدارة سيقود الى تدفق الماء المبرد من الصدع بصورة بخار وماء . ومع أن هذا الخلل سيقود اوتوماتيكيا الى وقف للتفاعل المتسلسل ، فإن حرارة التفكك الاشعاعي المتخلفة بعدئذ ستسعى لرفع حرارة الوقود سريعا حتي ينصهر ، ويتم ذلك خلال ٣٠ ثانية . وان لم تحفز دارة التبريد الأولية الاحتياط بشكل مواكب لعزل الجزء المتصدع من الدارة الرئيسة وإيقافها ، يحدث انهيار في كيان اللقمة الوقودية فتنطلق منها عناصر الوقود المنشطرة داخل قضبانها ، وإن لم تتمكن دارة الاحتياط الأولية من إبداء فعلها ، تستمر حرارة قلب المفاعل بالارتفاع لتصهر قضبان الوقود وتنفلت العناصر المنشطرة في كامل ماء المفاعل الخفيف ، لتتسرب من خلال

(*) Vinck, W., and Van Reijen, 1988, "Possibilities and limitations of the quantification of safety objectives", IAEA, INTERNATIONAL CONFERENCE ON NUCLEAR EXPERIENCE, Vienna, 13-17, Sept. 1982.

الصدع الشكل (٤) . وخلال نصف ساعة ينصهر كامل قلب المفاعل ويهبط الى قاع وعاء المفاعل الفولاذي ، الذي ينثقب لدى اطراد حرارة الكتلة الوقودية المنشطرة وتستمر في هبوطها إلى أرضية المفاعل البيتونية ، التي يمكن أن تثقب بدورها لتخرج كتلة قلب المفاعل إلى أرضية المفاعل ، أى الى المحيط الخارجي . وفي عالم الممارسة الواقعية ، يندر حدوث التحدي الكبير هذا (أي الحدث الأساسي) ، نتيجة لكفاءة معايير سلام المفاعل المتجسدة في خطوط الدفاع آنفة الذكر ، وخط دفاع تبريد المفاعل (الرئيس والاحتياطي) بخاصة . فقد أثبتت تجربة تشغيل المفاعلات النووية حتى اليوم ، أن حدوث التصدع ، أو مايعرف (بالانفجار) ، يمكن احتواؤه سريعا بأنظمة طوارىء السلامة التي تجري بشكل كفي حقن سائل تبريد مكمل وبضغوط كافية تعمل جميعا على إعادة استقرار عملية تبريد قلب المفاعل ، وإحباط هذا التحدي الكبير . وتتغاير وسائل ردع (الحدث الأساسي) من متابعة مسيرته الموصوفة أعلاه وفقا لتغاير أشكال وتصاميم المفاعلات المختلفة . وغني عن البيان القول أنه مع نظافة سجل صناعة الطاقة الكهرونووية من (أحداث أساسية) ، فقد تضافر فشل أجهزة الطوارىء مع عيوب التصميم وهلع المشغل البشري الى فقد السائل المبرد في مفاعل ثرى مايلز آيلاند بالولايات المتحدة الأمريكية . ومع أنه لم تحدث ضحايا بشرية ، فإن الحدث الأساسي قد استمر حتى انصهار قلب المفاعل دون متابعة خروجه للمحيط . لهذا فإن هذه التجربة القاسية قد حفزت فكر تقنيي ومصممي المفاعلات النووية على تطوير كفاءة أجهزة التبريد الاحتياطية وإدخال إدارة الطوارىء في إطار إدارة حواسب الكترونية فائقة الكفاءة والخيارات التشغيلية لتلغى دور المشغل البشرى في مثل هذه الأحوال . ورغم احتواء حدث ثرى مايلز آيلاند ، فقد كان أداة مؤثرة في إثارة حفيظة الجماهير والرأى العام ضد الطاقة النووية ، وكان مثار بحث عالمي جاد لتطوير معايير سلام منشآت الطاقة الكهرونووية ، وإخراج أجيال متطورة من هذه المنشآت في أقطار الاقتصاد الحر المتقدمة ، ولاجدال في أن هذه الأجيال قد أبقت سجلات تشغيلها نظيفة حتى اليوم . ومع أن صناعة الطاقة الكهرونووية في الاتحاد السوفييتي قد سايرت العصر في هذا الصدد ، وأخرجت أجيالا مواكبة للتي قيد التشغيل في أقطار الغرب الرأسمالية ، إلا انها تخلفت في إيقاف جيل مفاعل الـ (RBMK) وعدم تطويره من الناحية الوقائية . لقد أدى خطأ (مقصود) في تشغيل مفاعل تشيرنوبيل من هذا النمط الى حدث كامل (الحدث الأساسي) . وقد تضافر ضعف بنيان المفاعل البيتوني مع هذا الحدث ليسمح بانطلاق بعض غازات الوقود المنشطر الى الجو ، حيث عملت الرياح على نشره بعيدا الى خارج حدود الاتحاد السوفييتي . وفي إثر هذا الحدث الرهيب ، أوقفت صناعة الطاقة الكهرونووية السوفييتية جميع أنماط مفاعلات تشيرنوبيل بغية إخراجها من عالم الإنتاج الكهرونووى ، لتحل محلها أجيال متقدمة من صنع الاتحاد السوفييتي وخصوصا المفاعلات سريعة التولد المتقدمة .

ومع سيادة حقائق سلام صناعة الطاقة الكهرونووية آنفة الذكر ، ثمة من يبادر قائلا : « مع أن صناعة الطاقة الكهرونووية تملك هذا السمو في الاتقان الصناعي ، الأمر الذى وفر لها معايير سلام وأمان بالغة التفوق عما هو متاح من معايير في كل صناعات البشرية وصناعات الطاقة التقليدية خاصة ، فإن (الحدث الأساسي) النووي لابد حاصل رغم ضآلة احتمال حدوثه ، وهو أمر تأكد وروده في عالم الواقع عبر حدثي (ثري مايلز آيلند ـ ١٩٧٩) و (تشيرنوبيل ـ ١٩٨٦) . ونتيجة لتقدم دور الصناعة الكهرونووية في إمداد الطاقة الكهربائية عالميا وفي أقطار الشمال المتقدمة بخاصة ، ألا تتوفر وسيلة متقدمة أيضا يمكن من خلالها توقع مثل هذا الحدث الأساسي وذلك كي توفر فرص ردعه



الشكل (٤) بيان مبسط لاحتمال حدوث خطر في مفاعل الماء الخفيف المضغوط ومسارب نواتج الوقود المنشطرة

بالشكل المناسب ؟ » . وغني عن البيان القول بأن الاجابة عن هذا التساؤ ل كانت ولم تزل تشكل محور توجه البحث والتطوير في هذه الصناعة سريعة التطور ، ووسيلة فعالة لتقدم الصناعة الكهرونووية في وجه ارتيابات الجماهير وخشيتها منها ، وذلك منذ أن رأت هذه الصناعة النور وحتى اليوم . ولاريب في أن الاجابة عن هذا التساؤ ل قد حظيت منذ نهوض صناعة الطاقة الكهرونووية في النصف الثاني من عقد الخمسينات باهتمام كبير تجلى في قيام مجموعة بروكهيفين في الولايات المتحدة الأمريكية بتحقيق حول « العواقب النظرية للأحداث الكبرى التي تنتاب منشآت الطاقة النووية »[٦] . وفي التقرير الخاص بهذا التحقيق العلمي الفرضي والمعروف بـ (WASH-740) تم افتراض نشوء حدث أساسي في مفاعل نووي طاقته (٢٠٠ ميكاواط ك) ويقع على بعد ٤٥ كيلومترا عن مدينة رئيسة يقطنها مليون نسمة ، ليتوصل عبر (حوارات) مختلفة لارهاص هذا الحدث على الحياة والبيئة من حوله ، الى أنه في الحال الأخف وطأة للحدث هذا سيتم انطلاق جميع منتجات الانشطار النووي من قلب المفاعل الى داخل غلاف المفاعل البيتوني (انظر الشكل ٤) ودون تسرب أي شيء منها الى خارجه ، الأمر الذي لن يولد تعرضات إشعاعية قاتلة للانسان والبيئة المجاورة لموقع المنشأة النووية . وفي الحال الأكثر حدة ، تم افتراض أن حوالي ٥٠٪ من منتجات الانشطار النووي المكظومة في غلاف المفاعل البيتوني قد انطلق الى المنطقة المجاورة لتوقع المنشأة وذلك بفعل الظروف المناخية المحيطة بالحدث ، وعندها توقع التقرير (W(ASH-740 حدوث ٣٤٠٠ وفاة و ٤٣٠٠٠ جريح مع خسارة في الممتلكات لاتقل عن ٧ بلايين دولار . ومع أن هذا التقرير كان المحرض الرئيس للبحث والتطوير الخاصين بأمور سلام المنشآت الكهرونووية الناهضة وقتئذ ، فإنه تضافر وذِكْرُ قصف هيروشيما وناغازاكي بأول قنبلة نووية في إثارة حفيظة الجماهير ضد انتشار صناعة الطاقة الكهرونووية . ونتيجة لذلك ، بدا ثمة إتفاق خفي بين القيادة السياسية والادارة العليا لصناعة الطاقة الكهرونووية في معظم أقطار الشمال وفي الولايات المتحدة الأمريكية بخاصة حول تهدئة روع الجماهير لديها عبر وسائل إعلامها ، وحيل دون قيام أي جهد يذكر لتطوير إدراك وافتراضات تقرير (W(ASH-740 ، وبذلك تسنى للطرفين التعاون معا في نشر الصناعة الكهرونووية بشكل مواكب ومتناغم مع برامج التسلح النووي عبر عقد الستينات المنصرم . وعبر هذا التلاحم ، فقد محور الإنماء الخير للطاقة النووية (أي الصناعة الكهرونووية) جزءا كبيرا من موثوقية اتجاهه ، وعزز عند نهوض عقد السبعينيات من هذا القرن مقاومة الرأي العام لانتشار الصناعة الكهرونووية . وتجدر الإشارة الى أن شركات النفط متعددة الجنسيات قد استغلت هذا الوضع المضاد لنمو صناعة الطاقة الكهرونووية ، وهي شريكة رئيسة فيها أيضا ، لتعمق من اعتماد أقطار الشمال المتقدمة على النفط وتوسع من استغلالها الرخيص للنفط الذي تسيطر عليه في أقطار الجنوب المتخلفة ، وفي الوطن العربي بخاصة . الا أن ذلك السلوك لم يَحُل دون إثارة وعي الأقطار المصدرة للنفط إزاء الاستنزاف الرخيص لمصادرها النفطية الوطنية والذي تجسد في تعزيز لمسيرة منظمة الأقطار المصدرة للنفط (أوبيك) في الدفاع عن مصالح هذه الأقطار من جهة وفي تزايد قلق الرأي العام في أقطار الشمال الغربية حول سلام منشآت الطاقة الكهرونووية العاملة لديها من جهة أخرى . ونتيجة لعامل الضغط الأخير ، تم في عام ١٩٧٢ تشكيل لجنة خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة الأستاذ نورمان رازموسين

---

(٦) **Theoretical Consequences of Major Accidents in Large Nuclear Power Plants, 1957, U.S. Atomic Energy Commission Report WASH - 740, Washington D.C., 1957, U.S.A.**

في معهد ماساتشوسيتس للتقنية (MIT) « لتقويم سلام المفاعل الكهرونووى »[٧] . ولم يقتصر عمل لجنة رازموسين على تقويم الخطر العام الممكن حدوثه في منشآت الصناعة الكهرونووية خلال العقود المقبلة فحسب ، وإنما حاولت تقويم تردد حدوث أخطار جسيمة من نمط الحدث الأساسي . وفي سبيل ذلك تبنت اللجنة توفيقا من الفرضيات والطرق الإحصائية والحقائق المتاحة عن التجربة والممارسة الكهرونووية وقامت بمعالجته بالحاسب الالكتروني المتاح في بواكير السبعينات ، لتصل بنتيجة ذلك تأكيد الحقيقتين التاليتين :

(١) - ليس ثمة مايؤكد أن عواقب حوادث المفاعلات الكبيرة تفوق جسامة تلك التي تنشأ عن حوادث في صناعات غير نووية ، فعلى العكس يتوقع أن تكون هذه العواقب النووية أصغر مما توقعته شتى دراسات سلام المنشآت الكهرونووية السابقة مثل (WASH-740) .

(٢) - وان احتمال حصول الأحداث الكهرونووية الأساسية أصغر بكثير مما يتوقع حصوله في الصناعات التقليدية والتي تملك عواقب مماثلة مثل المتفجرات والنيران والتسربات الكيميائية السامة وانهيار السدود وحوادث الطيران الجسيمة والزلازل والأعاصير . . . الخ .

ووفقا لتقويم تقرير لجنة رازموسين المعروف بـ (WASH-1400) ، يمكن لنا هنا بيان أن احتمال تردد (الحدث الأساسي) بين الـ (٤٣٤) مفاعلا قيد التشغيل في عام ١٩٩٠ هو تقريبا مرة خلال كل ٤٥ سنة . ويظهر الجدول (٣) مضاهاة لعدد الوفيات الناجمة عن تنوع من الأحداث الكبيرة على سطح الأرض . ويؤكد تقرير لجنة رازموسين أنه في حال الحدث النووى الأكثر سوءا يرتفع عدد الوفيات الى حدود ٣٥٠٠ وفاة نتيجة للتعرض الاشعاعي إضافة الى ٤٥٠٠٠ وفاة لاحقة وتخريب في الممتلكات لايقل عن ١٤ بليون دولار . ويبين تقرير (WASH-1400) أن حصول ذلك الحدث أمر بعيد الاحتمال ، حيث قُدِّرت احتمال حدوثه بمرة واحدة كل مليون سنة . وتجدر الإشارة الى أن هذا التقرير لم يتمكن من تجسيد الأخطار الناجمة عن الإشعاع في الحياة والطبيعة التي تحويها في تقويمات عددية قد تقود الى اعطاء الحوارات التي جاء بها أرضية واقعية بعيدة المدى . وباتباع نفس منهجية لجنة رازموسين يمكن لنا تقويم خطر حادث في مصفاة نفطية ومضاهاته بالحدث النووى الكبير مثلا وذلك على النحو المبين في الجدول (٤) . ومن ذلك نتبين أن صناعة الطاقة الكهرونووية تملك إمكانية سلام متقدمة عن أية صناعة طاقة تقليدية . ومع كل هذا التقدم ، حدث ما حدث في كل من (ثرى مايلز آيلند) وفي (تشيرنوبيل) . وبتقويمه لعواقب الحدث الأخير بيَّن الدكتور هانز بليكس (المدير العام لوكالة الطاقة الذرية IAEA) قائلا : لقد حرر حدثا (ثرى مايلز آيلند) و (تشيرنوبيل) أمر تحليل سلام الصناعة الكهرونووية من عالم الافتراض . وأصبحنا اليوم نتبين من التجربة مايمكن أن يحصل لدى أى حدث حاد . ونتيجة لذلك ، تعلمنا أيضا قدرا كبيرا كيف نتدبر مثل تلك الأحداث ، بل الأهم من ذلك ، تعلمنا كيف نشغل الصناعة بشكل يبعد حدوث أمور كذلك . فكل الأقطار التي تدير وسائلها الكهرونووية قامت بإجراء تقويم دقيق لأنظمة سلام

---

(٧)
Reactor Safety Study, 1975, U.S. Nuclear Regulatory Commission Report WASH - 1400, Washington D.C., 1975, U.S.A.

صناعاتها ، وقامت باجراءات متقدمة لتعزيز كفاءة تلك الأنظمة . ولقد ظهرت ملتقيات دولية للاعلان عن الحوادث والمساعدة في الأحوال الطارئة ، وتم عقد اتفاقيات حول تبادل المعلومات حول مبادىء سلام الصناعة الكهرونووية ومعاييرها . . . »[٨] . ولاريب في أن الدكتور بليكس قد رمى من ذلك الى تأكيد الحقائق التالية :

(١) ـ أن حدث تشيرنوبيل قد أيقظ صناعة الطاقة الكهرونووية على حقيقة تلازم سلام المنشأة الكهرونووية مع وثام تطورها عالميا وانتشارها على حد سواء بين شمال الأرض وجنوبها . كان ذلك موضوعا رئيسا تم طرحه على أقطار الشمال الغربية منذ بواكير عقد الثمانينيات المنصرم وذلك من قبل منظري صناعة الطاقة في أقطار الجنوب وفي الوطن العربي بخاصة[٩] .

(٢) ـ يشكل أمر الانفتاح العالمي لصناعة الطاقة الكهرونووية خطوة رئيسة باتجاه إزالة التباين في الوجود التقني للصناعة الكهرونووية العالمية ، وحافزا مباشرا لابداء تفكير عملي موحد لابتكار وسيلة توقع وردع للأحداث النووية ، كبيرها وصغيرها ، من جهة ويوفر محركا فاعلا لنظم (Normalization) المنشآت الكهرونووية ، الأمر الذى يحقق نشرا ديناميكيا لصناعة الطاقة الكهرونووية على نحو متسق على هذا الكوكب الطيب من جهة أخرى .

(٣) ـ لابد من التسليم بحقيقة وجود ودور الوكالة الدولية للطاقة الذرية (IAEA) في قيادة بحوث سلام المنشآت الكهرونووية وتطويرها ، إضافة الى منحها فرصة إغناء الحقيقتين أعلاه بشتى الوسائل العلمية والتقنية والاعلامية الممكنة ، والعمل على تعزيز مسيرة إنهاض صناعة الطاقة الكهرونووية الناشئة في أقطار الجنوب .

وتجدر الإشارة الى أن تلاحم مختلف البنى العلمية والتقنية في الشرق والغرب قد قاد فعلا الى رقابة حدث (تشيرنوبيل) على نحو دقيق ومستمر ، الأمر الذى وفر لصناعة الطاقة الكهرونووية معطيات شاملة ومتجددة عما يجرى من تطورات أعقبت هذا الحدث المؤسف . ونجد في الشكل (٥) تبسيطا إيضاحيا لخلاصة تقصي مدى توزع الجرع الاشعاعية داخل الاتحاد السوفييتي والأقطار المحيطة به ، الأمر الذى يوفر مدخلا رئيسا من مداخيل واقعية يمكن أن يبنى عليها أي تقويم عصري لسلام الأجيال المتطورة المرتقبة لمنشآت الطاقة الكهرونووية خلال الربع الأول من القرن الحادى والعشرين المقبل .

٤ ـ مدى أمان منشآت الطاقة الكهرونووية

خارج إطار (الحدث الأساسي) آنف الذكر ، لاترسي منشآت الطاقة الكهرونووية (أخطارا) تفوق حدود أمان أية صناعة من صناعات الطاقة التقليدية . وللمقارنة المباشرة ، وكما يظهر الشكلان (٦) و (٧) ، تكفي نظرة على

---

(٨) Blix, H., 1988, "Directions: Dr. Hans Blix, Director General", IAEA News Features, No.1 - 15 April 1988, (12), Vienna, Austria.

(٩) Mustafa, Adnan, 1981, "Nuclear Energy and the Developing World", Proceedings of the Sixth International Symposium held by The Uranium Institute, London, 2-4 September, 1981, (36-47), Butterworth Scientific Limited in Cooperation with The Uranium Institute, London, U.K.

الجدول (٣) مضاهاة الوفيات الناجمة عن أحداث مختلفة مع حوادث المفاعل النووية

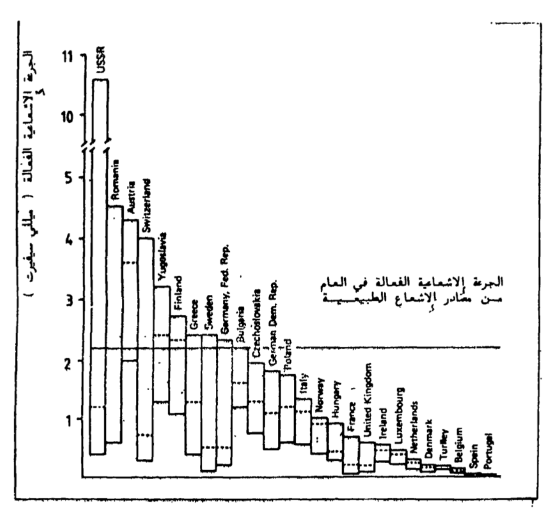
نمط الحادث	العدد الكلي	فرصة الفرد في العام
النيران	٧٤٥١	واحد في الـ ٢٥٠٠٠
الرحلات الجوية	١٧٧٨	واحد في الـ ١٠٠٠٠٠
الصواعق	١٦٠	واحد في الـ ٢٠٠٠٠٠٠
الأعاصير	٩١	واحد في الـ ٢٥٠٠٠٠٠
كل الحوادث	١١١٩٩٢	واحد في الـ ١٦٠٠
الحوادث النووية	صفر	واحد في الـ ٣٠٠ مليون

ـ المصدر . تقرير لجنة رازموسون

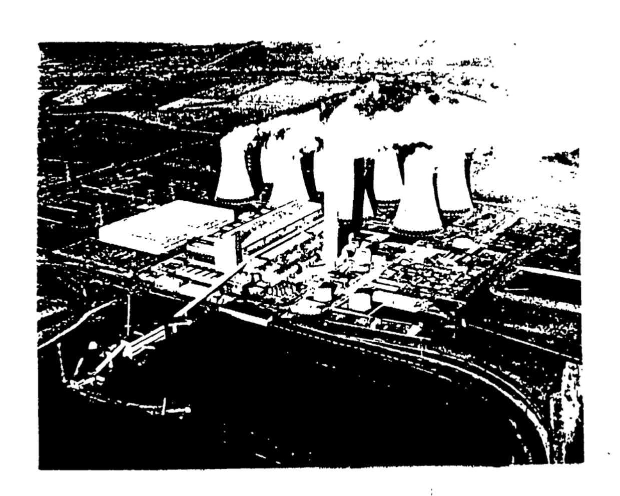
(Reactor Safety Study, U.S. Nuclear Regulatory Commission Report WASH-1400, Washington, D.C.,1975.)

الجدول (٤) مضاهاة فرص حصول الأحداث سنويا لكل وحدة تملك إمكانية قدرها ١ غايغاواط وعامل حمولة ٧٥٪

طبيعة الحدث	ضمن أسابيع من بدء الحدث	تحدث متأخرة خلال ٢٠ ـ ٤٠ سنة	الاحتمال السنوى
مفاعل الماء المضغوط	صفر	٣٠	$١٠^{-٥}$
مفاعل الماء المضغوط (حدث أكبر في مكان ناء)	١٠٠	١٠٠٠ ـ ١٠٠٠٠	$١٠^{-٧}$ ـ $١٠^{-٨}$
(حدث في منطقة حضرية)	بضعة آلاف	بضعة عشرات الآلاف	$١٠^{-٨}$
مصفاة نفطية	١٥٠٠	-	(١١ ـ ١٨)/$١٠^{-٦}$
مصفاة نفطية (حدث جسيم)	١٨٠٠٠	-	(٠,٤ ـ ١,٦)/$١٠^{-٦}$



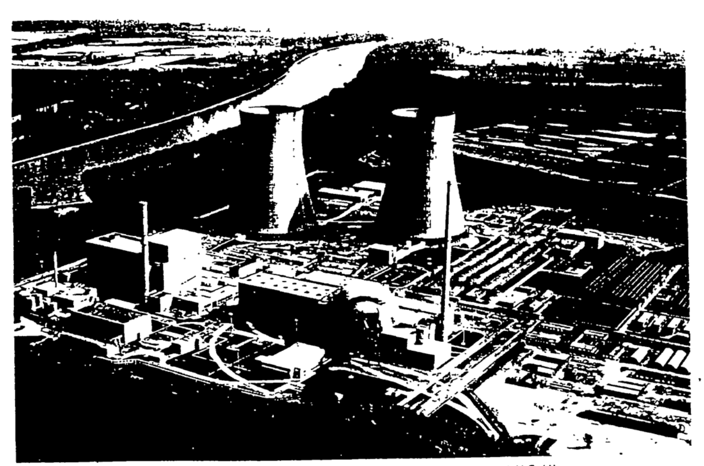
الشكل (٥) مدى توزع الجرعة الاشعاعية الفعالة الناجمة عن حدث تشيرنوبيل (احتسب من معطيات لجنة الأمم المتحدة العلمية حول آثار الاشعاع UNSCEAR , 1988).



... if present trends continue, the... generation of CO_2 in the atmosphere would be equivalent to a doubling... from pre-industrial levels, and could lead to a rise in global mean temperature greater than any in man's history.

الشكل (٦) منظور عام لمنشأة توليد كهربائية تعمل بالوقود الحجري

المصدر ـ الدكتور جونسون ، ستانلي ، ١٩٨٨ ، مجلة (   ) ، العدد ٣٨٠ ، حزيران ١٩٨٨ .



Philippsburg Nuclear Power Plant. Federal Republic of Germany (Bavaria Luftbild GmbH)

الشكل (٧) منظور عام لمنشأة توليد كهرونووية ، الفيليبين

المصدر ـ الوكالة الدولية للطاقة الذرية . مجلة « IAEA Topics » ، حزيران ١٩٨٨

منشأة تعمل بالوقود الحفري (الشكل ٦) لتتبين المقادير الكبيرة من فضلات الاحتراق الغازية والصلبة التي تفرغها هذه المنشأة في الجو . ومع أن المنشأة الكهرونووية لا تطلق مثل ذلك (الشكل ٧) . الى البيئة ، وتعتبر في هذا المجال متفوقة تماما على منشآت التوليد الكهربائية العاملة بالوقود الحفري (أي النفط ، الغاز والفحم الحجري) ، فانها تطلق مقادير صغيرة من المواد المشعة . أضف إلى ذلك أن المنشآت الكهرونووية الكبيرة تطرح مقادير لا يستهان بها من الحرارة المبددة الى البيئة المجاورة (الأرض والهواء والماء) ، لهذا فإن أمان منشأة التوليد الكهرونووية لا يكمن في طبيعة تعاملها والمواد المشعة ، ذلك لأن الأخيرة تبقى محفوظة داخل خطوط الدفاع الكامنة في تقنية المفاعل النووي ، بل في كيفية استيعاب الطاقة الحرارية المبددة منها .

ويفكر معظم الناس بأن فضلات المنشأة الكهرونووية ليست الطاقة الحرارية المبددة ، وإنما الفضلات المشعة التي ترهص الأرض والماء والهواء ، بل ويذهب الرأي العام إلى عزو ما يجري من أمراض غريبة وأحداث شاذة للمجتمعات الانسانية المختلفة إلى تلك الفضلات (كالسرطان مثلا) . والمؤسف أن تضافر الصراع السياسي مع مصالح شركات الطاقة التقليدية قد عزز من هذه القناعة ، ورسم صورة مهينة رهيبة لأعظم عطاءات العلم والتقنية الخيرة في هذا العصر . وإيضاحا لحقيقة الأمر ، لابد لنا من الاقرار بأن المنشآت الكهرونووية ليست (آمنة) بشكل مطلق ، بل ويستحيل أن تعمل بشكل لا تواكبه أية إصدارات إشعاعية ، وهي في هذا الصدد ليست فريدة إن لم تكن في حال مماثل لمنشأة تعمل بالفحم الحجري مثلا ، فهي كما تظهر التجربة تطرح تلويثا إشعاعيا أقل من المنشأة الأخيرة ، أليس هذا غريبا ؟ فبالقاء نظرة على الجدول (٥) ، الذي أجريت خلاله مقارنة لقدر الفضلات التي تطرح من قبل منشأتين تعملان بالفحم الحجري والطاقة النووية وبنفس إمكانية التوليد (أي غايغاواط كهربائي) ، نجد أن الجرعة الإشعاعية العظمى التي يتلقاها الإنسان المقيم في إطار حدود المنشأة عبر الغازات والسوائل المنطرحة منها تكون ١٨ , ٠ من مليون سيفيرت (السيفيرت هو وحدة قياس الجرعة الاشعاعية الدولية (SI) التي سنتحدث عنها بشكل مفصل لاحقا) في حال المنشأة الكهرونووية ، بينما تكون ١٩ , ٠ من مليون سيفيرت في حال المنشأة العاملة على الفحم الحجري ، فما منشأ هذا التقارب في التلويث الشعاعي ؟ . لقد تبين أن مصادر الوقود الحفرية تستضيف اليورانيوم والثوريوم في أماكنها الطبيعية ، ولا يجري استخلاص هذه العناصر المشعة من هذه المصادر التقليدية ، والفحم الحجري خصوصا . لذلك فإن تراكيز اليورانيوم والثوريوم تنطلق مع رماد الفحم الحجري إلى البيئة محققة هذا القدر من التلويث الإشعاعي آنف الذكر . ناهيك عن أكسيد الكبريت ، وأكسيد الآزوت ، وثاني أكسيد الفحم التي تشكل جميعا ما يعرف بالـ (المطر الحامضي) الذي بات من المؤكد أنه المسؤول عن موت أجزاء كبيرة من الخضرة الطبيعية في الأقاليم المستهلكة للطاقة المنتجة بمصادر الوقود الحفرية . كما أن غاز ثاني أكسيد الفحم بات اليوم يشكل مصدر إنذار لا يهدأ ، فقد تأكد جليا أنه مسؤول عن ظاهرة (البيت الأخضر) ، التي يمكن أن تؤدي إلى تصاعد حرارة جو الأرض من حولنا ، وما قد يترتب على ذلك من حدوث ذوبان في ثلج قطبي الأرض ، مسببا ارتفاع مياه المحيطات الأمر الذي قد يغرق الأراضي المنخفضة ويغير من فعاليات الموانىء ويبدل من آلية الطقس من حولنا[10].

(١٠) Jones, P.D., and Warrick, R.A., 1988, "Greenhouse effect and the climate", Atom, NO. 381, (13-15).

الجدول (٥) بيان عام بالفضلات التي تطرحها منشأة
كهربائية ذات إمكانية ألف ميغاواط كهربائي

نوع الفضـلات	فحم حجري	نـووي
المردود الحراري (٪)	٣٩	٣٢
فضلات حرارية (ميغاواط)	١٥٧٠	٢١٢٠
فضلات صلبـة :		
رماد متطاير (طن/ عام)	٣٣٠٠٠٠	لا يوجد
فضلات انشطارية (وحدة/ عام)	لا يوجد	١٦٠
فضلات سائلة وغازية (طن/ عام) :		
جسيمات متطايرة	٢٠٠٠	لا يوجد
ثاني أكسيد الكبريت	٢٤٠٠٠	لا يوجد
ثاني أكسيد الفحم	٦٠٠٠٠٠٠	لا يوجد
أحادي أكسيد الفحم	٧٠٠	لا يوجد
أكاسيد الأزوت	٢٠٠٠٠	لا يوجد
زئبـق	٥	لا يوجد
زرنيـخ	٥	لا يوجد
رصـاص	٠,٢	لا يوجد
غازات وسوائل مشعة (جرعة لانسان مقيم في حدود المنشأة مقاسة بالسيفيرت/ عام)	٠,١٩ × ١٠-٦	٠,١٨ × ١٠-٦

المصدر

ـ احتسب من (ENERGY HANDBOOK) ، الدكتور لوفتنيس ، روبرت ، (١٩٧٨) .

ـ الدكتور دادار ستالت ، ج.ح ، NUCLEAR POWER: TECHNOLOGY ON TRAIL ، ١٩٨٣ .

ولتسهيل عملية تقويم مدى الأمان الاشعاعي لمنشآت الطاقة الكهرونووية على القارىء غير المختص ، يبدو من المفيد إسقاط أثر الفضلات الاشعاعية المنطلقة من هذه المنشآت على الخلفية الاشعاعية التي يتعرض لها الانسان بخاصة على سطح الأرض اليوم . فمع إجراءات سلام المنشأة النووية ، التي تضع الخطر في منأى عن الحياة المحيطة ، يبقى ثمة مجال لتسرب جزء ضئيل من نتائج الانشطار وذلك على النحو التالي :

ـ ثمة أحوال يمكن لنتاج الانشطار في القضبان الوقودية أن يتحرر فيها بشكل غاز مشع داخل السائل المبرد . وخلال دوران الأخير في دارة التبريد الأولية يمكن للغاز المشع أن يتسرب عبر مكونات الصمامات في هذه الدارة خارج إطار المفاعل (انظر الشكل ٤) .

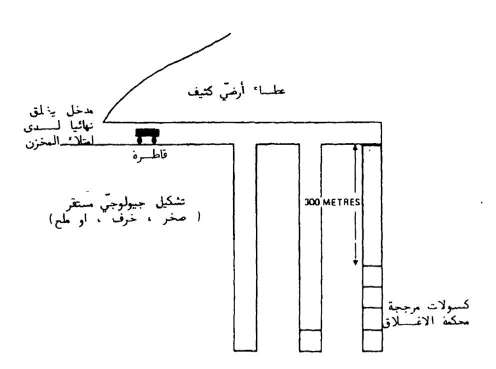
ـ في مفاعل الماء المغلي (BWR) ، يمكن أن يحمل نتاج المواد المشعة إلى عنفة توليد الكهرباء من خلال أجهزة الاغلاق الميكانيكية .

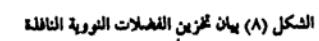
ـ ويمكن للشوائب المحتواة في السائل المبرد لقلب المفاعل أن تصبح مشعة نتيجة قذفها نترونيا ، وإن حدث أن تسربت وفق النهجين آنفي الذكر فسوف تسهم في كمية الفضلات المنطلقة عن المنشأة .

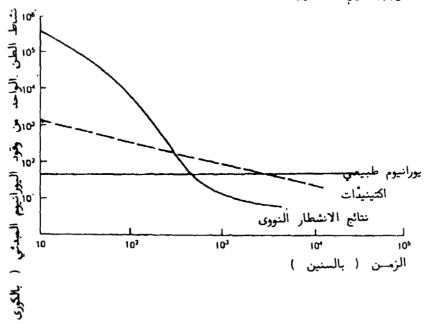
ـ ولا جدال في أن معظم فضلات الوقود النووي النافذة تبقى محفوظة في الأحوال العادية داخل القائم وقضبان الوقود . ولابد من استبدال هذه القضبان بأخريات جديدة لدى نفاذها . وخلال عمليات نقلها إلى منشآت إعادة التصنيع والتدوير ، وأثناء عمليات الاحتواء ونقل النفايات النافذة كليا إلى مكامن الخزن الخاصة (الشكل ٨) ، لابد من تحرر قدر من الاشعاع . وفي تلك المكامن يذوى الاشعاع على النحو المبين في الشكل (٩)

وبشكل عام ، يجري اصطياد مختلف العناصر الغازية والسائلة آنفة الذكر بواسطة مرشحات كفية ثم يجري ضغطها وحفظها في خزانات غير منفذة للاشعاع إلى أن يذوى نشاطها الاشعاعي . وبعد التأكد من هبوط الاشعاع دون المعايير السائدة ، تطرح هذه الفضلات بشكل فني إلى المحيط . ويشكل الكريبتون ـ ٨٥ ، واليود ـ ١٣١ ، والتريتيوم ، والفحم ـ ١٤ وثاني أكسيد الفحم محتوى هذه الفضلات . وتؤكد معايير أمان المنشأة على هذا العمل الأخير أنه يجب في أعلى الاحتمالات أن لا يؤدي إلى تجريع (٠,٠٥ ميلي سيفيرت/ عام) لكامل جسم الانسان الذي يقطن في محيط المنشأة أو (٠,١٥ ميلي سيفيرت/ عام) لغدته الدرقية . ومع ذلك ، وفي أسوأ الأحوال يجب أن لا يجرع الجسم البشري القاطن خارج المنشأة أكثر من (٠,٠١ ميلي سيفيرت) في العام . علماً بأن الجسم البشري قبل استغلال الطاقة النووية وحتى اليوم قد منحه الله جلت قدرته إمكانية تحمل جرعات إشعاعية قادمة إلى سطح الأرض من مصادر الإشعاع الطبيعية (أي الأشعة الكونية ، مصادر الاشعاع الأرضية الطبيعية ، الخ . .) والتي يطلق عليها (الجرعة الخلفية) . وتتراوح هذه الخلفية بين (٠,٨٠ ـ ١,٥٠ ميلي سيفيرت/ عام مع ترجح يتراوح بين ٠,٢٠ ـ ٠,٣٠ ميلي سيفيرت/ عام) (الشكل ٩) .

وفي حال خضوع الانسان لوسائل المعالجة الاشعاعية ، وهو أمر لابد منه اليوم لفلاح أية معالجة طبية ، فإنه يتجرع وسطيا ما يتراوح بين (٠,٦٠ و ٠,٨٠ ميلي سيفيرت/ عام) (انظر الشكل ١٠) . وعندها نتبين أن المنشأة النووية تبدو هامشية الضرر الجرعي إذا ما قورنت بما تجرعه الطبيعة من حولنا لنا وبما نتجرعه أثناء علاجاتنا الطبية .




الشكل (٨) بيان تخزين الفضلات النووية النافلة



الشكل (٩) رسم توضيحي لمناهج اضمحلال النشاط الاشعاعي لليورانيوم الطبيعي ، والاكتينيدات ، ونتائج الانشطار النووي المأخوذة من المفاعلات النووية .

المصـدر :

ـ الدكتور هانت ، س . ي .

"FISSION, FUSION AND THE ENERGY CRISIS"

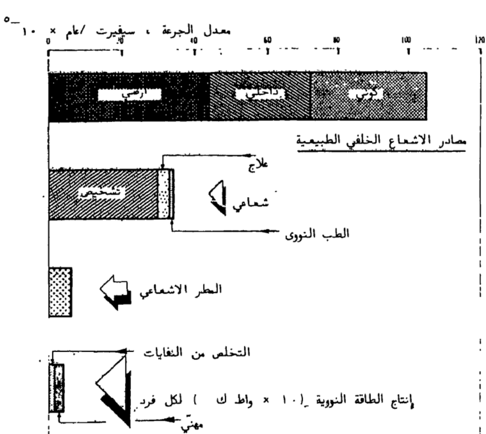
مطبعة بيرغامون ، اوكسفورد ، بريطانيا ، ١٩٨٠ .

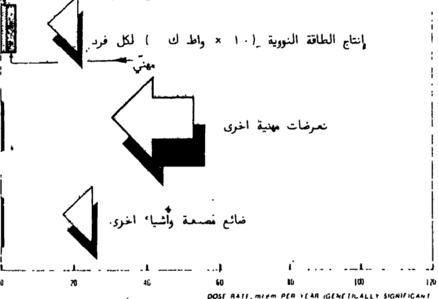
وتتوقع مصادر التطوير التقني النووي أن الاحتمال الأعلى لتجريع المنشأة النووية للإنسان من حولها في عام ٢٠٠٠ لن يزيد عن (٠,٠٥ مايكرو سيفيرت/ عام) وهو يكافىء حوالي (١/ ٣٠٠٠) من جرعة الخلفية التي نتلقاها اليوم . ومن كل ما سبق نتبين أن مدى الأمان الاشعاعي لمنشأة الطاقة الكهرونووية واسع جدا بحيث يمكننا اعتباره في حدود المطلق وذلك نتيجة طغيان تعرضنا لاشعاع الخلفية الطبيعي الذي نمونا على أساسه منذ أول الخليقة وحتى اليوم . ومع كل هذا الأمان ، فإن التقنية النووية تسعى إلى إيجاد وسائل تحديد ومراقبة تطور مجريات أموره وذلك على الصعد الوطنية والاقليمية والدولية . كما أن (الوكالة الدولية للطاقة الذرية IAEA) قد أرست (معايير وقائية عالمية SAFEGUARDS) يجري من خلالها اليوم ضبط أمان منشآت التوليد الكهرونووية في العالم أجمع . والمنطق الذي أرسيت عليه هذه المعايير ينطلق من أن التقدم التقني المطرد العطاء اليوم لابد من أن يخفض إصدارات المنشآت الكهرونووية إلى أدنى المستويات الممكنة ، علماً بأنه لو زادت تلك الإصدارات بقدر عشر أضعافها السائدة اليوم ، فلن يسبب ذلك أي ضرر يذكر ، فما بال الرأي المعارض لانتشار الطاقة النووية الشاقولي الخير إذا كان توجه التقنية النووية إلى خفضه عشر مرات قبيل انقضاء هذا العصر ؟ .

وكيلا « نخسف الميزان » ، بعدم إيضاحنا لمدى أمان منشأة تقليدية تعمل بالفحم الحجري مثلا ، لابد من القول بأن منشأة من هذا النمط تعمل بطاقة غايغاواط كهربائي تطرح مقادير كبيرة من نتاج الاحتراق مباشرة إلى الجو (انظر الجدول ٥) ، فهي تطرح ٣٣٠,٠٠٠ طن في العام من الفضلات الصلبة ، و ٢٤,٠٠٠ طن من ثاني أكسيد الكبريت الذي إذا لامس سطح الماء تحول إلى حمض كبريت قاتل للحياة على اليابسة وفي الماء . ويمكن أن تقوم الأكاسيد الآزوتية بتخريب النسج الرئوية لدى الانسان ، في حال أن المنشأة تطرح مالا يقل عن ٦,٠٠٠,٠٠٠ طن في العام من ثاني أكسيد الفحم التي تسهم اليوم في تطورات « أثر البيت الأخضر » الواعدة بالخطر في المستقبل القريب . ولسوء الحظ لم يتمكن العلماء والتقنيون من إيجاد استغلال مفيد بعد لرماد الفحم الحجري الذي يمكن في أحسن احوال التشغيل اليوم تكويمه في أجزاء من البلد ، الأمر الذي يسبب تشويهاً وتلويثاً دائمين لما يجاوره من بيئة وحياة . وفي المقابل ، لابد من الإشارة إلى أن التفريغ الحراري لمنشآت الطاقة بشقيها التقليدي والنووي تشكل إرهاصا مؤثرا في البيئة ، تتجلى نتائجه في حدوث تغيرات مناخية ضارة (ضباب ، تجمد ، أمطار . . .) ، كما يجب تجنب دارات التبريد المفتوحة على الأنهار ومستودعات المياه (بحيرات طبيعية وصنعية . . .) بغية الحد من مد أثر التلويث الحراري إلى العالم الذاتي للأحياء المائية والإضرار بها .

٥ ـ خواص الإشعاعات وأثرها الحيوي البيئي

تحت عنوان « العصر الذري » أصدرت مجلة التايم الدولية في ٢٩ حزيران من عام ١٩٨٥ عدداً خاصاً أرادت من خلاله تزويد القارىء بذكرى حية لمعالم الروع الذي أحدثه استخدام الولايات المتحدة الأمريكية للسلاح النووي في قصف مدينتي هيروشيما وناغازاكي اليابانيتين عام ١٩٤٥ . والأمر المثير في هذا العدد الخاص ليس عرض ذكريات أحد الأطفال اليابانيين الناجين من جحيم هيروشيما ، ولا انطباعات الشعور بالمسؤولية العلمية عن وضع التقنية النووية في إطار لعب





المصدر :

Source: Pochin, Edward E. Estimated Population Exposure from Nuclear Power Production and Other Radiation Sources, Nuclear Energy Agency, Organization for Economic Co-operation and Development, Paris, France, Jan., 1976.

الشكل (١٠) معدل الجرعة المميز حيوياً ، وسطي لكل العالم

صراع القوة الدولية ، ولا شعور الغضب المطرد الذي تبديه الجماهير العامة الأمريكية إزاء انتشار السلاح النووي وتطرفه في الحد من انتشار صناعة التوليد الكهرونووية رغم إدراكه العام لمعالم السلام والأمان التي تحملها تلك الصناعة (على النحو الذي أوضحناه في الجزء السابق من هذا العمل) ، وإنما المثير حقاً هو ما جاء على لسان الكابتن روبرت لويس ـ مساعد قائد الطائرة اينولا غيي ـ الذي ساهم في إسقاط القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي ـ إذ قال صائحاً : « ياالهي ماذا فعلنا ؟ . . . » (الشكل ١١) . وبغية استيعاب ما حدث من إرهاص على الحياة والبيئة ، غير التدمير الشامل ، نتيجة الاتصال المباشر بين الإشعاعات والمحيط ـ وهو أمر سبق أن أوضحنا عدم حدوثه في مجال صناعة التوليد الكهرونووية ـ إضافة إلى فهم إرهاصات التجرع الحيوي والانساني بخاصة للإشعاعات بشتى أشكالها ـ لابد لنا من تيسير ذلك عبر بيان المعالم الرئيسة للإشعاعات من جهة وأثرها على البنيان الحيوي من جهة أخرى .

تحتل ظواهر الاشعاع مكانة كبرى في مسيرة البحث العلمي التي تحاول جلاء مصادر الإشعاع ؛ ليس على سطح الأرض فحسب ؛ بل وفي الكون كله . وبما أن هذا الأمر لم يزل موضع تحرٍ واسع ، فإنه يمكننا تبسيط الأمر بالقول إن الإشعاع هو التكشف العام لصور تحرر الطاقة والمادة من ذرات المادة . وفي الوقت الذي لا تحمل به الأمواج الضوئية والحرارية والمايكروية طاقة كافية لإثارة الذرات حتى التشرد (أي تغيير اعتدال الذرات) ، فإن مصادر إشعاعية أخرى مثل أشعة غاما وأشعة ـ وجسيمات ألفا وبيتا ، التي تملك سويات طاقية مرتفعة كافية ، تكون قادرة على صنع هذا التشرد . فكيف تتولد الاشعاعات الأخيرة ، وماذا تقوم به من تشويه وتخريب للبيئة الحية ؟، وتيسيراً للإجابة عن هذا السؤال ، وبافتراض أن القارىء ملم بمكونات الذرة (أي النواة والألكترونات الدائرة حولها) وأنه يذكر بأن بنية النواة تنطوي على نوعين رئيسين من الجسيمات هما النترونات معتدلة الشحنة والبروتونات موجبة الشحنة (وتكافىء قدراً لشحنة الألكترونات) ، ونظراً لتكافؤ عدد البروتونات والألكترونات في الذرة تحظى باعتدالها الكهربائي . وفي حال حدوث تغيير في هذا التوازن الكهربائي ، يختل اعتدال الذرة وتصاب « بالتشرد أو التأيين » . وتملك عناصر مادية معينة أعدادا متغايرة من النترونات (في العنصر الواحد) لتشكل ما يعرف بنظائر العنصر مثل الفحم ـ ١٤ والفحم ـ ١٢ . وبافتراض أن القارىء يذكر أيضا بأن البروتونات تسعىَ إلى تنافرها نتيجة حملها شحناً متماثلة ولكن القوى النووية الشديدة والوجود النتروني يعملان على معاكسة ذلك ومنع تماسك وجود النواة ، وأنه يمكن لبعض الذرات احتواء عدد كبير أو صغير من النترونات إزاء صنع توازن النواة ، فعندها تصبح هذه الذرات نظائر مشعة ، وتسعى إلى حال استقرار لها عبر آلية (التفكك الاشعاعي) . وخلال هذه العملية تطلق النواة إشعاعات موجبة (مثل أشعة غاما) وجسيمية (مثل جسيمات ألفا وبيتا) . وبتذكر ما سبق يمكن لنا فيما يلي إبداء شرح مبسط لمعالم الإشعاعات الرئيسة هذه :

(١) ـ الجسيمات ألفا

يمكن أن تقوم النواة بقذف بروتونين ونترونين فيؤدي ذلك إلى خفض في كتلتها وتتحول إلى نواة عنصر جديد . وتعرف القذائف الإيجابية المنطلقة عن هذه النواة بالجسيمات ألفا . وتكون هذه الجسيمات عاجزة عن اختراق قصاصة ورق أو جلد الإنسان نتيجة بطء سرعتها . وتصبح خطرة إذا ما جرى ابتلاعها أو استنشاقها .



الشكل (١١) صورة مصغرة لغلاف مجلة التايم الدولية ، عدد ٢٩ حزيران عام ١٩٨٥ ، وهو يحمل صرخة الكابتن روبرت لويس عندما روع برؤية دمار هيروشيما وقتئذ .

(٢) - النترونات

وتنطلق عادة عبر التفاعل النووي المتسلسل الانشطاري أو بطرق أخرى ، حيث تصدر بأعداد كبيرة وبتوزعات سرعية مختلفة ، وتكون النترونات السريعة قادرة على اختراق البنى الحية لتفعل فيها كما تفعل القذائف (أساس القنبلة النترونية) .

(٣) - الجسيمات بيتا

إذا ما تمنى لنترون أن يصبح بروتوناً عبر إصداره الكتروناً فإن الالكترون المتحرر يسمى جسيم بيتا . كما يمكن للبروتون أن يتحول إلى نترون بإصدار بوزيترون (وهو جسيم موجب الشحنة يمكنه الانضمام إلى الكترون ليشكلا معاً أشعة غاما) . ويمكن للجسيم بيتا المنطلق بسرع قريبة من سرعة الضوء أن يخترق بضعة ملمترات من النسج النباتية والحيوانية . وتصبح هذه الجسيمات ضارة أكثر إذا ما تم ابتلاع مصادرها في الجسم .

(٤) - أشعة غاما

وتحدث على النحو المبين أعلاه فتملك طاقة عالية تمكنها من اختراق المادة الغليظة ، كالجدران البيتونية وسبائك الرصاص ، وبناء على ذلك فهي تقوم باختراق جسم الإنسان والنباتات والحيوانات وتدمير نسجها بكل سهولة .

(٥) - أشعة اكس

وهي إشعاع كهرطيسي يماثل إشعاع غاما ولكن يقل عنه مقدرة طاقية ، ولو أنهما يتماثلان في صنع أفعالهما ضمن عملية التشرد (التأين) وفي النسج الحية بخاصة .

والإشعاع بصورتيه الجسيمية (ألفا وبيتا) والموجية (غاما واكس) يملك نمطاً واحداً من التأثير في المادة الحية هو « التشرد » الذي يمكن تبسيطه أيضا على النحو التالي :

بافتراض قيام حزمة إشعاعية عالية الطاقة ، مثل أشعة ألفا مثلا ، باختراق خلية حية ، فإن ذلك يقود إلى تخريب مكوناتها (أي ذراتها وجزيئاتها) خلال مسار عبورها . فجزيء الماء ، وهو المكون الرئيس للخلية الحية ، حين يزوره جسيم ألفا (موجب الشحنة) يقوم الأخير بسلب الكترون (سالب الشحنة) منه مشكلاً شارداً موجباً سرعان ما يختل وضع اتزانه مع ما يجاوره . ويمكن أن يحدث نفس الشيء لجزيء الـ (DNA) أو للمورثات الحيوية ، إذ تتفكك أو تشوه ليعاد توالدها بصورة عجيبة في الأجيال اللاحقة . وتجدر الإشارة إلى أن جزيئات الـ (DNA) المتكسرة أو المشوهة بالإشعاع (الجسيمي أو الموجي) يمكن أن تبعثر المورثات (الكروموزومات) في صور شاذة . ومالم يقم الكائن الحي المصاب بالإشعاع ، بعزل وتجاوز نتائج مثل هذا التخريب خلال وقت سريع (وهو أمر يجب أن يحدث خلال ساعات قليلة) ، فإن جزيء الـ (DNA) يستمر في تكاثره هكذا متوالف مديدة ، فيولد خلايا سرطانية وأوراما قاتلة .

والسؤال الذي يثار هنا : إذا كانت الكائنات الحية والبيئة تسبح في بحر من الإشعاع الطبيعي والصنعي ، فما مدى احتمال حدوث (التشرد) آنف الذكر وما ينتج عنه من مظاهر مدمرة للحياة والبيئة الحيوية ؟ . ويجدر بنا ثانية

تذكير أنفسنا بأن الله سبحانه أراد للحياة على الأرض ، في الظروف العادية قبل الفلاح في تحقيق الانشطار النووي بخاصة ، أن تزدهر في خلفية إشعاعية طبيعية (أنظر الشكل ١٠) ، كما منحها من عظيم صنعه إمكانية (تحمل) وصمود إزاء هامش تجرع إشعاعي زائد قد ينجم عن تغيرات في الأرض ذاتها أو في السماء . ومع نشوء صناعة الطاقة الكهرونووية ورؤية المجتمع الانساني لويلات استخدام السلاح النووي في هيروشيما وناغازاكي ، لم يعد أمام العلماء والتقنيين المهتمين بالطاقة والحياة سوى القيام (بتحديد) معالم هامش التجرع الاشعاعي ومن ثم تبيان مدى الأمان الذي تحمله صناعة الطاقة الكهرونووية عموما والتقنيات المتعاملة مع الإشعاع والمواد المشعة خصوصا . ومن المؤسف القول بأن معظم ما هو متوفر لدينا من معلومات حول هذا التجرع الاشعاعي إنما جاء عن دراسات آثار القنبلة النووية التي ألقيت على اليابان عام ١٩٤٥ ، ومن معاناة عمال مناجم اليورانيوم والفحم الحجري ، ومن السجلات الطبية للعاملات في طلي واجهات الساعات بالراديوم خلال العشرينات الماضية من هذا العصر . هذا وقد تم تطوير تقويم (الجرعة) الاشعاعية منذئذ وحتى اليوم ليصبح مفهوم هذه الجرعة على النحو التالي :

ـ فقبل الاتفاق على اتخاذ الجملة الدولية لقياس الاشعاع (SI) جرى استخدام الوحدات التالية :

ـ الرونتغن

ويقيس التعرض للاشعاع ، وينطبق فقط على إشعاعات غاما واكس ، وقد بني على تقويم التشرد الناجم في الهواء من قبل الألكترونات التي تقوم الفوتونات بتحريرها . ويتحدد قدر الرونغن بالعلاقة :

$$1 \text{ Roentgen} = 2.58 \times 10^{-4} \text{ C kg}^{-1} \text{ (c = coulomb)}$$

ـ الراد

وهو تعبير مختصر (لجرعة الاشعاع الممتص) وهو مقدار الاشعاع الذي يقدم طاقة قدرها (١٠$^{-٥}$ جول لكل غرام) إلى الجسم المتجرع للاشعاع أو يحدد عمليا بالعلاقة :

$$1 \text{ rad} = 10^{-2} \text{ J kg}^{-1}$$

ومن ذلك يمكننا استقصاء الطاقة الممتصة والمكافئة لتعرض قدره رونغن واحد فنجد :

في الهواء $1 \text{ R} = 0.87 \text{ rad}$

وفي الماء $1 \text{ R} = 0.97 \text{ rad}$

ـ الرم

ويمثل اختصارا لتعبير (مكافىء جرعة رجل) ، ويماثل الراد ، إنما يسمح لنا تعريفه بأن نميز تباينات الأثر الإشعاعي في المواد المختلفة ، وبتحديد الإشعاع الفعلي الممتص . فبفرض أن الجسم المتعرض للإشعاع يملك تقبلا فيزيولوجيا لانتشار الطاقة يقاس بـ (QF) أو ما يسمى بالعامل النوعي ، وأن مواجهة الجسم الحيوية للاشعاع تقاس بـ (DF) أو ما يعرف بعامل التوزع ، فعندها يكون مكافىء الجرعة (DE) :

DE= الجرعة (rad) × QF × DF

حيث يعبر عن (DE) بالرم . ووفقا لهامش التجرع الأعظمي الذي أرساه المركز الدولي للإشعاع الكيميائي (لندن) (ICRP) يمكن بيان مختلف حدود التجرع العظمى في الجدول (٦) .

الجدول (٦) معايير المركز الدولي للاشعاع الكيميائي (ICRP)
للجرعات الاشعاعية المسموح بها للعمال في العام

العضو المصاب بالاشعاع	الجرعة بالرم
كامل الجسم ، لب العظام ، الغدد التناسلية	٥
الجلد والعظم والغدة الدرقية	٣٠
اليدين والذراعين ، القدمين والكواحل	٧٥
الغدد المفردة الأخرى	١٥

المصدر - تقرير فلاورز ، ١٩٧٦ ، منشورات مطبعة صاحبة الجلالة البريطانية ، لندن .

- ويتبنى معايير المركز الدولي للاشعاع الكيميائي (ICRP) لوحدات عيارية دولية جديدة أصبح من المتداول اليوم التعامل بالوحدات التالية :

- البيكريل

وهي وحدة النشاط الإشعاعي (يرمز لها بـ Bq) وتساوي تحولا نووياً واحداً في الثانية .

- الغريي

وهي وحدة الجرعة الممتصة (يرمز لها بـ Gy) وتقاس بالجول/ كغ ويكافىء الغريي ١٠٠ راد .

- السيفيرت

وهو قياس مكافىء الجرعة (ويرمز له بـ Sv) ويقاس بالجول/ كغ وهو يكافىء ١٠٠ رم .

- وحدة التعرض للاشعاع

ولم يحدد لها اسم بعد ، وتقاس بالكولون/ كغ وتكافىء ٣٨٧٦ رونغن .

وإتماماً لعرض خواص الاشعاعات ووحدات قياسها يبدو من المفيد بيان ما يلي :

(١) - ما هي الآثار القصوى التي يبديها الإشعاع على جسم الانسان ؟ ويكن بلورة ذلك في الجدول (٧) التالي :

الجدول (٧) آثار الجرعات الكبيرة في كامل جسم الانسان

الجرعة (بالسيفيرت × ١٠⁻٥)	الآثــار
١٠,٠٠٠,٠٠٠	موت محقق خلال ساعات بسبب تلف الجملة العصبية التام .
١,٢٠٠,٠٠٠	موت محقق خلال بضعة أيام بسبب تخريب الجملة الهضمية .
٦٠٠,٠٠٠	موت محقق خلال بضعة أسابيع نتيجة تلف الأعضاء المولدة للدم .
٤٥٠,٠٠٠	احتمال ٥٠٪ موت خلال ٣٠ يوم .
١٠٠,٠٠٠	شلل مؤقت محتمل ، وربما شفاء لاحق .

المصدر - الدكتور لوفنتيس ، و.ل. ، "ENERGY HANDBOOK" الناشر فان نوستراند ، نيويورك ، ١٩٧٨ .

(٢) - وما هي في المقابل مقادير التعرض الاشعاعي للحياة من حولنا ؟ ويمكن تلخيص الإجابة على ذلك أيضا في الجدول (٨) التالي :

الجدول (٨) : حساب التعرض الإشعاعي السنوي

	المصدر العام للاشــعاع	قدر تجرعك السنوي ١٠^-٥ سيفيرت/ عام
حيث تقيم	الموقع : الاشعاع الكوني لدى سطح البحر أضف ٣٠ سنتمتر لكل ٣٠ متر ارتفاع مكانك عن سطح البحر .	٤٠
	مواد بناء منزلك : الخشب ٣٥ البيتون ٥٠ القرميد ٧٥ الأحجار ٧٠	
	الأرض	٥٦
ما تأكله وتشربه وتستنشقه	الماء والطعام	٢٥
	الهواء	٥
كيف تعيش	الطيران (اضرب عدد الرحلات بـ ٤)	
	ساعة موشاة بالراديوم ، أضف ٢	
	مشاهدة التلفاز : أسود ، أبيض - اضرب عدد ساعات المشاهدة بـ ١ ملون - اضرب عدد ساعات المشاهدة بـ ٢	
	المعالجة والتشخيص بأشعة اكس : الأطراف - ٤٢٠ الصدر - ١٥٠ المعدة - ٣٥٠ الكولون - ٤٥٠ الرأس - ٥٠ العمود الفقري - ٢٥٠	

تـــــابـــــع الجدول (٨) : حساب التعرض الإشعاعي السنوي

	المصدر العام للاشـعاع	قدر تجرعك السنوي ١٠^-٥ سيفيرت/ عام
مدى قربك من منشأة كهـرونووية	المجاري الهضمية ـ ٢٠٠٠ الأسنان ـ ٢٠ عند حدود موقع المنشأة : ـ اضرب عدد الساعات في اليوم بـ ٢ على بعد ميل واحد منها : ـ اضرب عدد الساعات في اليوم بـ ٠,٠٢ على بعد خمسة أميال : ـ اضرب عدد الساعات في اليوم بـ ٠,٠٠٢	

المصدر ـ هيئة الطاقة الأمريكية ، ١٩٧٣ ، WASH - 1261, "THE ENVIRONMENTAL IMPACT OF ELEC-TRICAL POWER GENERATION: Nuclear and Fossil, WASH - 1261, U.S.A.

وفي جميع الأحوال ، ستجد أيها القارىء الكريم أن ما تحصل عليه من مجموع لن يصل البتة إلى الحد الأدنى الذي أوردناه لك في آخر الجدول (٥) آنف الذكر .

٦ ـ خاتمـة

« السلام الحار » الذي حل محل « الحرب الباردة » ، وساد الآفاق الدولية خلال تفاقمات صراع الخليج وحرب الناقلات فيه ، بدأ (بالتبرد) السريع في أعقاب تطبيق الخيار النووي صفر بين القوتين العظميين في العالم مؤخراً[١١]. ومن خلال هذه الظاهرة الطيبة بدأت الآمال تزدهر بكبح وتيرة الانتشار الأفقي الشرير للتقنية النووية ، وارتقاب فجر جديد حافل بالنماء والتطور في حياة صناعة التوليد الكهرونووية . وخلال السنـوات القليلة الماضيـة وحتى اليوم ، تكشفت معالم طيبة لهذا (الانفراج النووي) لعل أهمها :

(١) خمود مشاعر غضب الجماهير إزاء انتشار التقنية النووية عموما . ويمكن تلمس ذلك في وقفة (الإمعان) الطويلة التي تعيشها مراكز صنع القرار السياسي والتنموي في العديد من أقطار العـالم الصناعي الغـربية ، والمحـاورة (الداخلية) الوطنية التي تعيشها دوائر التنمية المواكبة حول ما اتخذ من قرارات متعسفة ضد انتشار صناعة التوليد الكهرونووية فيها نتيجة إرهاص مشاعر الغضب الجماهيرية التي تنامت خلال بلورة اتفاق نزع الأسلحة النووية المحقق مؤخرا بين القوتين المعظميين في العالم . وفي هذا الصدد يقول السيد لينارت فوغلستورم ، رئيس التجمع الذري السويدي ، « لقد جاءت الطاقة النووية عالميا لتبقى كبديل تنموي هام لإنتاج الطاقة ، وسيكون من المذهل حقا أن يستمر بلد متقدم مثل السويد بالابتعاد عن مسيرة التطور العالمية ، فذلك سيكّلف الاقتصاد السويدي ثمنا باهظا . . . »[١٢]. وقد جاء قول السيد فوغلستروم تعقيبا على ما قرره البرلمان السويدي سابقا باخراج إمكانية التوليد الكهرونووية السويدية من نظام الطاقة السويدي السائد ، علماً بأن السويد تملك اليوم ١٢ منشأة نووية بطاقة توليد كهرونووية إجمالية (٦ ، ٩ غايغاواط كهربائي) ، مع سجل تشغيل وسطي متقدم لا يقل عامله عن (٨٧,٦٪) في عام ١٩٨٨ .

ونتيجة لهذا الهدوء على جبهة الرأي العام النووية ، فقد خرجت (ندوة معهد اليورانيوم الدوليـة) عن مألوف أعمالها هذا العام ، فقررت (تجنب) مناقشة مجريات الأحداث على جبهة الرأي العام وما يدور في فلكها بعد أن انحدرت وتائر حدتها إلى الحدود غير الفاعلة ، وركزت جهد برنامجها في أيلول المقبل لينظر في الأمور الرئيسة التالية :

١ ـ تطور سوق وصناعة اليورانيوم الدولية .

٢ ـ بنية سوق التقنية الكهرونووية مع التركيز على الطرف الخلفي لدورة الوقود النووية .

٣ ـ منظور التعاون الدولي في مجال السلام والأمان النوويين ورؤيته من خلال تجربة (الاتحاد العالمي للتقنيين النوويين) .

---

(١١) مصطفى ، عدنان ، ١٩٨٨ ، « عقائد نووية » ، مجلة عالم الفكر ، العدد الأول ، المجلد التاسع عشر ، ١٩٨٨ ، (٢٧٣ ـ ٢٨٤) .

(١٢) Fogelstrom, Lennart, 1989, ''Nuclear Sweden: Still a Confused Situation'', SAFO,1/89.

٤ ـ تعزيز الاتصالات بين الاخصائي النووي والانسان العادي وذلك تمهيدا لرأب الصدع بين مفاهيمهما خلال بداية مرحلة عودة ازدهار صناعة الطاقة الكهرونووية الراهنة .

وتجدر الاشارة إلى أن « معهد اليورانيوم » الدولي هو منظمة دولية تقابل من حيث القدر والوظيفة تلك التي « لمنظمة الأقطار المصدرة للبترول ـ أوبيك » ، لهذا فإن تسميتي لهذا المعهد بـ (يوبيك) قد لاقى قبولا طيبا لدى العاملين في ميدان التنمية الطاقية الدولية . هذا ويلعب (يوبيك) دورا قياديا في ميادين نماء وتطور انتشار التقنية النووية في الاتجاه الشاقولي الخير منذ أن بدأ أعماله وحتى اليوم . ولعبت نقاشاته الموضوعية الهادئة خلال ندواته السنوية التي تنعقد في أوائل أيلول من كل عام ، دورا بارزا فعالا في تهدئة الصراع على جبهة الرأي العام في العالم الصناعي الغربي . علماً بأنه تسهم في عضوية (يوبيك) اثنتان وخمسون مؤسسة ومنظمة نووية تمثل خمسة عشر بلدا (استراليا ، بلجيكا ، البرازيل ، كندا ، المانيا الغربية ، فرنسا ، ايطاليا ، السويد ، سويسرا ، تايوان ، والمملكة المتحدة) إضافة إلى عضوية الجماعة الاوروبية . وبهذه العضوية الواسعة ، بات « معهد اليورانيوم » يحتل موقعا طيبا يمكنه من تمثيل وقيادة صناعة الوقود النووية الدولية . ولقد قاد تفاعل (يوبيك) مع الوكالة الدولية للطاقة الذرية الى تصعيد تبادل الخبرة العملية والتنموية مع الامكانية العلمية والتقنية العالمية في شتى مجالات تطور صناعة التوليد الكهرونووية وفي مجال سلام وأمان المنشآت الكهرونووية بشكل خاص .

(٢) تصعيد جهود التطوير التقني لمختلف جوانب صناعة التوليد الكهرونووي بغية إرساء وجود الأجيال الجديدة من المفاعلات الانشطارية التقليدية والمفاعلات الانشطارية سريعة التولد ، إضافة إلى إخراج الجيل الأول من المفاعلات الاندماجية . وليس ثمة أدنى ريب في أن بداية انقشاع السحب أمام عهد التطوير الكهرونووي هذه ستقود إلى تيسير أمر التمويل المنشود لتحقيق الجهود آنفة الذكر .

(٣) بعد حدث تشيرنوبيل ، بدت ثمة ضرورة إلى تجاوز الحوائل السياسية التي تقوم بين الشرق والغرب ، ومناقشة المسائل الرئيسة لسلام وأمان الصناعة الكهرونووية ، إذ أن حادث تشيرنوبيل لم يقتصر ضرره على الأرض السوفييتية فحسب ، بل امتد إلى حدود بعيدة داخل أقطار اوروبا الغربية . ولقد وفر هذا التوجه مهمة عملية كبرى للوكالة الدولية للطاقة الذرية ، وحفزها على العمل لاخراج معايير وقائية لسلام وأمان المنشآت الكهرونووية من جهة ووضع إمكاناتها العلمية المتقدمة في خدمة (رقابة) انتشار الطاقة النووية الأفقي ، وتنفيذ طموحها الكامن في تطبيق « اتفاق منع انتشار السلاح النووي » ، فهل ستفلح هذه الوكالة في حمل الأمانة ؟ .

(٤) وإذ تمكنت بعض الأقطار النامية في (الجنوب) من حيازة التقنية النووية ، وإرساء صناعات كهرونووية ، بات من المهم اليوم تحقيق تفاعل مباشر بين مختلف بنى إدارة هذه الصناعة في (الشمال) والجنوب . ولعل أبرز المسائل التي تقف في مقدمة عطاء هذا التفاعل هي :

١ ـ المبادرة الى إجراء (توحيد عياري) لتقنية المفاعلات النووية ، وذلك بهدف ابتكار نموذج عالمي موحد لمفاعل الماء الخفيف عموما ومعايير سلامه وأمانه خصوصا .

٢ ـ تصعيد التوجهات التجارية لصناعة الطاقة النووية وتيسير نشرها على نحو سالم وآمن .

٣ ـ تنهيج جهود استطلاع واستكشاف مصادر اليورانيوم في الأقطار النامية (أي أقطار الجنوب) ، وقيام أقطار الشمال بتمويل مثل هذه الجهود على النحو السائد اليوم في مجال النفط والغاز .

٤ ـ تطوير نظام عالمي جديد لسلام وأمان الصناعة النووية .

ومع اطراد تحقق فتوحات متقدمة في هذه الاتجاهات الأربعة ، آنفة الذكر ، سيتعزز أمر سلام وأمان الصناعة الكهرونووية من جهة ، ويطرد هدوء مشاعر الغضب الحقة أو المصطنعة سياسيا في وجه تقدم هذه الأداة الخيرة من جهة أخرى . كما لابد لنا هنا من التأكيد على تحقق مهام علمية وتقنية أخرى ، ربما لا تقل أهمية عن المهام الأربعة ، آنفة الذكر ، كالمبادرة إلى إرساء برامج صادقة وفعالة للتعاون العملي الجاد وتبادل الخبرة بين أقطار الشمال والجنوب السائرة في طريق التنمية النووية الشاقولية ، فذلك لن يوطد أركان مسيرة نماء وازدهار هذه التنمية فحسب ، بل وسيكبح من الإرهاصات والتفجرات الإقليمية والدولية التي يتوقع أن تنشأ من خلال ظروف الانتقال الطاقية التي تعايشنا اليوم ، وتيسر لأقطار الجنوب بخاصة إمكانية حيازة هذا المصدر الطاقي المؤمل قبيل انقضاء عصر النفط[١٣] .

ختاماً ، لابد لقارىء عربي أن يقف متسائلاً عند نهاية هذا العمل ليقول : « إذا كانت صناعة الطاقة الكهرونووية بهذا السلام والأمان وبهذه المقدرة التنموية الطاقية ، وتمكن العديد من أقطار العالم النامي (كالهند ، والباكستان ، والبرازيل ، والأرجنتين ، وكوريا الجنوبية . . .) بإمكاناتها الذاتية التي لا تنوف عما لدى أقطارنا العربية ، من إرساء صناعات كهرونووية متقدمة ، فلماذا لا يعمل العرب كذلك ، لماذا ؟ وإذ لا يسمح لنا إطار هذا البحث بالدخول في تفاصيل الإجابة عن هذا السؤال الوطني الكبير ، فإننا نتمنى على القارىء الكريم إلقاء نظرة على مقررات « مؤتمر الطاقة النووية العربي الأول » الذي انعقد في دمشق عام ١٩٨١ . ولسوف يتبين مباشرة مدى عزم وجاهزية العلماء والفنيين العرب لأداء هذا الواجب التاريخي العظيم ، ويعزز القناعة بمقولة الاستاذ الدكتور آلفين فينبرغ القائلة : « ان مستقبل الطاقة النووية هو بالنهاية مسألة سياسية واقتصادية ونحن التقنيين يمكننا الاسهام في حلها وليس حسمها . . . » .

***

(١٣) Abdus Salam, 1989, "Notes on Science, Technology, and Science Education in the Development of the South", Third World Academy of Sciences, Trieste, LTALY.

أبعاد التلوث الإشعاعي للبيئة الناتج عن استخدامات الطاقة النووية

محمد ناصف قمصان

أستاذ ورئيس قسم الطبيعه النووية.
هيئه الطاقة الذرية - القاهره

تزايد في الفترة الاخيرة استخدام الطاقة النووية في الفروع المختلفة للنشاط الإنسانى . من ذلك استخدام النظائر المشعة في الطب والصناعة والزراعة لأغراض البحث العلمى . وكذلك هناك الاستخدامات السلمية للطاقة النووية في إنتاج الكهرباء والاستخدامات العسكرية عموما . وارتبط ذلك بإنتاج وتداول المواد المشعه على المستويات الشخصية والمؤسساتية والحكومية والدولية مما نتج عنه تزايد الاخطار المرتبطة بهذه الأنشطة .

وتناقش المقالة مختلف مصادر التلوث الاشعاعى للبيئة الناتجة عن اختبارات الأسلحة النووية ، والتشغيل العادي لمفاعلات القدرة النووية ، ومنشآت إعادة معالجة الوقود النووى ، ونقل المواد المشعه ، وحوادث المفاعلات التى صاحبها تلوث إشعاعى للبيئة (وندسكيل ، جزيرة الاميال الثلاثة ، تشرنوبل) . وتعطى المقالة مقادير الإطلاقات الاشعاعية الى البيئة سواء الغازية أو السائلة أو الصلبة والمرتبطة بالمصادر المذكورة . كما تتطرق المقالة الى بعض الاستخدامات المحتمله للمواد النووية والنظائر المشعة التى قد تضيف قدراً محسوساً للتلوث البيئي مالم يتم التحكم في استخدامها بطريقة محكومة .

مقدمة

يرجع تدخل الإنسان في البيئة الاشعاعية لكوكب الأرض الى بدء الانتاج الواسع للنظائر المشعه بعد اكتشاف ظاهرة الانشطار النووى (١٩٣٨) وتطوير المفاعلات النووية (١٩٤٢) . وقد قدر النشاط الاشعاعى الكلى المستخدم عام ١٩٣٨ في البحوث والطب بما لا يزيد عن ٩٠٠ كورى وهو ما يعادل أقل من كيلو جرام واحد من الراديوم . والان وبعد التطور الكبير في تقنية وقدرات مفاعلات الانشطار النووى ، فان مفاعلا واحدا بقدرة جيجاواط واحد يحتوى على ٥٠٠٠ ميجاكورى كمحتوى إشعاعى (١٠) .

هذه المقارنة تعكس اتساع وضخامة التدخل البشرى في البيئة الاشعاعية للأرض . ومنذ بدأ التعامل على نطاق واسع مع المواد المشعه لثلاثين عاما خلت ، يتوالى إطلاق المواد المشعه الى البيئة من منشئات دورة الوقود النووى (خامات ، تركيز ، تصنيع ، حرق ، إعادة معالجة ، تخزين ، نقل) ومن العمليات التى تستخدم النظائر المشعه (صناعة ، زراعة ، بحوث ، طب) . كذلك هناك الاطلاقات الاشعاعية نتيجة الحوادث النووية الكبيرة واختبارات الاسلحة النووية . وتمثل هذه الاطلاقات ما أضافه البشر إلى المحتوى الاشعاعي لكوكب الارض .

مصادر وأبعاد التلوث الاشعاعى

١ ـ اختبارات الأسلحة النووية (٥، ١١-١٧)

وتمثل حاليا المصدر الاساسى الذى ينتج عنه فعليا تلوث اشعاعى للبيئه . وكان قد تم تطوير أجهزة إنشطار نووى لأغراض الاستخدامات العسكرية بأحجام مختلفه تتراوح بين ٠,٠٠١ الى ٥٠٠ كيلوطن مكافىء ت . ن . ت

وحتى عام ١٩٧٨ أجرت الدول النووية ما يزيد على ألف اختبار لهذه الاجهزة (انشطار واندماج) بلغت ذروتها عام ١٩٥٧ بالنسبه لقنابل الانشطار ، وخلال الفترة ١٩٦١ -١٩٦٣ بالنسبة لقنابل الاندماج .

ويقدر الناتج الكلى من التفجيرات النووية في الجو التى تمت في الفتره ١٩٤٥ ـ ١٩٧٨ بحوالى ٥٤٥ ميجاطن شاملة ٢١٧ ميجاطن من قنابل الانشطار . وتجدر الاشارة هنا الى أن قنابل الانشطار هى المسئولة أساسا عن تلوث المحيط الحيوى بنواتج الانشطار ، بينما قنابل الاندماج هى المسئولة أساسا عن التلوث بالتريتيوم . وفى قنابل الانشطار يستخدم ٥٧ جرام من المواد الانشطارية للحصول على تفجير شدته كيلوطن واحد مكافىء ت . ن . ت ، وتمثل هذه حوالى ٢٪ من كتلة المواد الانشطارية المستخدمة في الانفجار .

وينتج عن الانفجار كميات هائلة من الطاقة ومن المواد المشعة ذات الدمار البالغ للحياة . وتتوزع المواد الاشعاعيه الناتجة على التأثير المباشر أو عبر السحابة النووية أو بالحقن في الجو ، وتعتمد نسب التوزيع على نوع وقدرة السلاح النووى المستخدم وكذا على ارتفاع الانفجار عن سطح الارض وعلى الظروف المكانية والمناخية وقت الانفجار . ويعطى الجدول (١) ناتج التساقط من اختبارات الاسلحة النووية في الجو خلال الفتره ١٩٤٥ ـ ١٩٧٨ (١١) .

جدول (١)

توزيع ناتج التساقط من الاختبارات الجوية للاسلحة النووية

خلال الفترة (٤٥ - ١٩٧٨)

الفترة بالسنوات	الناتج الاجمالي (ميجاطن)	ناتج الانشطار (ميجاطن)	التساقط التفاضلي عن الانشطار (ميجاطن)		
			تساقط محلي	حقن في التربوسفير	حقن في الستراتوسفير
١٩٤٥ - ١٩٥١	٠,٧٥	٠,٧٥	٠,٢٨	٠,٤٦	٠,٠١
١٩٥٢ - ١٩٥٤	٦٠,٥٢	٣٧,٠٢	١٨,٢٠	٠,٨٦	١٧,٩٦
١٩٥٥ - ١٩٥٦	٣٠,٧٩	١٤,٠١	٤,١٩	١,٤٨	٨,٣٤
١٩٥٧ - ١٩٥٨	٨١,٣٩	٣٩,٨٣	٤,٧٨	٥,٤٨	٢٩,٥٧
١٩٦٠ - ١٩٦١	١٢٢,٤٣	٢٥,٥٢	٠,٠٦	٣,١٢	٢٢,٣٤
١٩٦٢	٢١٧,٤٠	٧٦,٥٠		٥,٨٩	٧٠,٦١
١٩٦٤ - ١٩٧٠	٢١,٢٣	١٥,١٣	٠,٠٢	٢,١٥	١٢,٩٦
١٩٧١ - ١٩٧٤	٦,٤٦	٥,٥٦		١,٥٤	٤,٠٢
١٩٧٦ - ١٩٧٨	٤,١٦	٢,٤١		٠,١٤	٢,٢٧
اجمالي	٥٤٥,١٣	٢١٦,٧٣	٢٧,٥٣	٢١,١٢	١٦٨,٠٨

ويعطى الجدول (٢) النشاط الإشعاعي لحظة الانفجار الناتج عن انفجار قنبلة انشطار نووى قوة ٢٠ كيلوطن وهى قنبلة انشطار تقليدية ، وذلك لبعض نواتج الانشطار طويلة وقصيرة العمر .

جدول (٢)

بعض المواد المشعه الناتجه عن انفجار قنبله انشطار نووى قوة ٢٠ كيلوطن

الماده المشعه	عمر النصف	نواتج الانشطار (٪)	كتلة الناتج (جم)	النشاط الاشعاعى الناتج (كيلوكورى)
أ ـ نواتج انشطار طويلة العمر		(سنوات)		
كريتون ـ ٨٥ 85Kr	١٠,٧٦	٠,٣	١,٢٤	٠,٤٨٣
سترونشيوم ٩٠ 90Sr	٢٨,٥٠	٥,٨	٢٥,٣٢	٣,٥٢٩
تكنسسيوم ٩٩ 99Tc	١٠,١٢	٦,١	٢٩,٢٨	٠,٠٠٠٥
روثنيوم ١٠٦ 106Ru	١,٠١	٠,٤	٢,٠٦	٦,٨٨٨
سيزيوم ١٣٤ 134Cs	٢,٠٨	ليس من نواتج الانشطار		
سيزيوم ١٣٧ 137Cs	٣٠, ١	٥,٩	٣٩,٢١	٣,٣٩٩
سيزيوم ١٤٤ 144Cs	٠,٧٨	٥,٧	٣٩,٨٢	١٢٦,٧٣٠
بروميثيوم ١٤٧ 147Pm	٢,٦٢	٢,٤	١٧,١٠	١٥,٨٨٥
ب ـ نواتج انشطار قصيرة العمر		(أيام)		
سترونشيوم ٨٩ 89Sr	٥٠, ٥	٤,٨	٢٠,٧٢	٦٠٢,٠٥٦
ايتريوم ٩١ 91Y	٥٨, ٥	٥,٨	٢٥,٦٠	٦٢٨,٠٠٠
زركونيوم ٩٥ 95Zr	٦٤, ٠	٦,٣	٢٩,٠٣	٦٢٣,٥١٧
موليبدنيوم ٩٩ 99Mo	٢,٧٥	٦,٢	٢٩,٧٨	١٤٢٨٠,٦٠٩
روثينيوم ١٠٣ 103Ru	٣٩,٣٥	٣,٠	١٤,٩٩	٤٨٢,٩٠٨
يود ١٣١ 131I	٨,٠٤	٢,٩	١٨,٤٣	٢٢٨٤,٧٠٣
تيلوريوم ١٣٢ 132Te	٣,٢٥	٤,٧	٣٠,١٠	٩١٦٠,١٤٢
رينون ١٣٣ 133Xe	٥,٢٩	٦,٥	٤١,٩٤	٧٧٨٢,٩٧١
باريوم ١٤٠ 140Ba	١٢,٧٩	٦,٤	٤٣,٤٦	٣١٦٩,٥٤٧
سيزيوم ١٤١ 141Cs	٣٢,٥١	٦,٠	٤١,٠٤	١١٦٩,٠٢٠
بروميثيوم ١٤٣ 143Pm	١٣,٥٧	٦,٠	٤١,٦٢	٢٨٠٠,٦٥١
نيودميوم ١٤٧ 147Nd	١٠,٩٨	٢,٤	١٧,١١	١٣٨٤,٥١٢

ويوضح الجدول (٢) ضخامة ما يتم حقنه الى البيئة من مواد مشعة حتى في حالة تفجير قنبلة صغيرة بالمقاييس النووية .

ما تبقى الآن من نشاط إشعاعى من هذه التفجيرات يرتبط بالتساقط من طبقة الاستراتوسفير بالجو (على ارتفاع ١٠ الى ٣٠ كيلو متراً) الى سطح الارض مرورا بطبقة التروبوسفير (صفر ـ ١٠ كم) وفي ذلك فان (٥) :

ـ الاغلبية الساحقة للمواد المشعه تتساقط في نصف الكرة الارضية حيث وقع الانفجار .

ـ تحدث اكثرية التساقط على المناطق معتدلة المناخ حيث يتركز السكان ، ويفوق تركيز الاشعاع المتساقط هنا المتوسط العالمى مرتين ونصف المرة .

ـ تنطلق أكثر الكميات المشعة خلال فصلى الشتاء المتأخر والربيع .

وكنتيجة للتساقط النووى لوحظ وجود السيزيوم ١٣٧ في جسم الانسان لاول مرة عام ١٩٥٥ بالولايات المتحدة الامريكية ، وقد احتوت جميع الاطعمة التى استخدمت بالولايات المتحدة منذئذ على كميات قابلة للقياس من السيزيوم ١٣٧ (١٢) .

وقد توقف حقن البيئة بالمواد المشعة على نطاق واسع عام ١٩٦٣ اثر توقيع معاهدة حظر التجارب النووية . وفي عام ١٩٦٤ كان تلوث البيئة بالمواد المشعة قد وصل الى أقصاه :

ففي الولايات المتحدة وصل التساقط السنوى للسيزيوم ١٣٧ الى ٢٠ مللى كـورى / كم٢ ، واقصى تحميل للجسم الى ١٤١ بيكوكورى / جرام بوتاسيوم (١٢) .

وفي الاتحاد السوفيتى وصل تركيـز السترونشيـوم ٩٠ في الغذاء الى أقصـاه ، فقد بلغ مـا تم ابتلاعـه منه ٦١ بيكوكورى / يوم في المتوسط للفرد (١٣) .

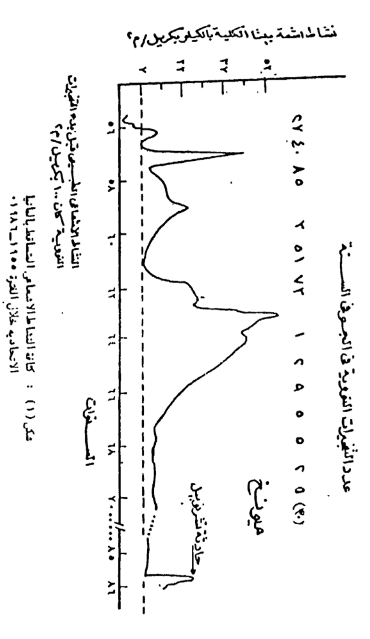
وفي المملكة المتحدة وصل التساقط السنوى للسترونشيوم ٩٠ الى ٢٠ مللى كورى / كم٢ ، ويلغ مستوى التركيز في اللبن ٣٠ بيكوكورى / جرام كالسيوم (١٤) .

وفي كندا وصل مستوى التساقط النووى للسترونشيوم ٩٠ الى٢٠ مللى كورى / كم٢ ، ويلغ مستوى التركيز في الدقيق واللبن ٦٠٠ و ٢٥ بيكوكورى / جرام كالسيوم على التوالى (١٥) .

وفي المانيا الاتحاديه كان أقصى تساقط للنشاط الاشعاعى الاجمالى قد وصل الى ١,٤ كورى /كم٢ وذلك في شهر يونيو ١٩٦٣ (١٦) .

ومازالت تجارب الاسلحة النووية تجرى حتى الان ، وان كانْ بمعدل أقل . وهو ما يعنى استمرار خطر التلوث الاشعاعى للبيئة من هذه التجارب . آخر اختبار نووى أجرته فرنسا في موقع تجاربها بجنوب المحيط الهادى كان يوم ١٢ مايو ١٩٨٩ بقوة ١٥ كيلوطن .

ويعطى الشكل (١) كثافة النشاط الاشعاعى الاجمالى الناتج عن التساقط كما سجل في المانيا الاتحادية خلال الفترة ١٩٥٥ ـ ١٩٨٦ (١٦) .



شكل (١) : كثافة النشاط الاشعاعي المتساقط بالمانيا الاتحادية خلال الفترة ١٩٥٥-١٩٨٦.

٢ ـ التشغيل العادى لمفاعلات القدرة النووية (١٨ ـ ٢٠)

يتزايد الاعتماد بصورة ملموسة على استخدام المفاعلات النووية لأغراض الانتاج التجارى للكهرباء . وقد بدأ انتاج الكهرباء نوويا لاول مرة عام ١٩٥٤ بقدرة ٥ ميجاواط فقط ، وصل في نهاية عام ١٩٨٨ الى ٣٠٩٠٠٠ ميجاواط من ٤٢٨ مفاعلا نوويا موزعة على ٢٦ دولة ، عندما وصل نصيب الكهرباء النووية في بعض الدول الى ٧٠٪ من إجمالى انتاج الكهرباء بها (١٨) .

وتنتج العملية الانشطارية التى تحدث في المفاعلات النووية كميات هائلة من المواد المشعة سواء كنواتج انشطار واكتينيدات أو نتيجة للتشعيع النيوترونى للمواد الانشائية القريبة من قلب المفاعل ، ولنواتج التآكل ، وللمبرد وإضافاته الكيميائية . وفي المفاعل المثالى يجرى احتواء كل نواتج الانشطار والاكتينيدات في عناصر الوقود . الا ان هناك ثلاث عمليات ينتج عنها خروج المواد المشعة من وعاء المفاعل ، ويتم هذا الخروج دائما من خلال المبرد :

- النشاط الاشعاعى المستحث في الوسط المبرد .
- نواتج التآكل التى تحتوى على نشاط إشعاعى مستحث للمواد الإنشائية .
- تسرب نواتج الانشطار والاكتينيدات من عناصر الوقود التالفة .

وفي جميع الحالات يقترب المفاعل عالى الحراوة المبرد بالغاز من المفاعل المثالى ، بينما تزيد التسربات كبيرة من مفاعلات الماء المغلى والمضغوط والتى تمثل ٧٥٪ من اجمالى المفاعلات الشغالة .

وفي ظروف التشغيل العادي للمفاعل الحقيقى تحتجز أغلب نواتج الانشطار والاكتينيدات داخل وقضبان الوقود ، ويتم نقلها مع الوقود المحترق عند تفريغه من المفاعل .

ما يتسرب الى المبرد من مواد مشعة يضاف الى نواتج التشعيع ويتوزع مع المبرد على الاجزاء المختلفة للمحطة . هذه المواد المشعة تعالج بواسطة نظم مختلفة للترشيح والاستبقاء . بذلك تظهر النفايات الغازية والسائلة والصلبة للمحطة النووية . وتخضع جميع النفايات الى عمليات معالجة بهدف احتواء المواد المشعة ومنع إطلاقها للبيئة ، أو إطلاقها تحت ظروف تحكم معينة . وتطلق النفايات الغازية المشعة الى الجو عادة بينما تجمع النفايات السائلة والصلبة ، ويتم ذلك في جميع الاحوال في إطار التنظيمات المقررة للأمن والسلامة .

المطلقات الغازية

يجرى لاعتبارات فنية واقتصادية إطلاق بعض النواتج المشعة في المفاعلات الى الجو المحيط على شكل مطلقات غازية . وهذه تشتمل على عناصر مشعة خفيفة مثل التريتيوم (T) ، الكربون ١٤ 14C ، النتروجين ١٣ 13N ، النتروجين ١٦ 16N ، الاوكسيجين ١٩ 19O ، الفلورين ١٨ 18F ، الارجون ٤١ 41A . وكذلك على الغازات المشعة نواتج الانشطار مثل الكريتون ٨٥ 85Kr ، اليود ١٣١ 131I ، الزينون ١٣٣ 133Xe ، الزينون ١٣٥ 135Xe ، كذلك تتواجد في الابخرة المطلقة بعض النظائر المشعة مثل الصوديوم ٢٤ 24Na ، نواتج التآكل ، نواتج الانشطار مثل السترونشيوم ٩٠ 90Sr ، التكنيسيوم ٩٩م 99m Tc ، السيزيوم ١٣٧ 137Cs على شكل ايروسولات بكميات صغيرة

وفي مفاعلات الماء المغلى يجرى قلتخلص من أكثر من ٩٩٪ من النفايات الغازية المشعة وذلك باطلاقها عبر مرشحات من المدخنة الى الجو مباشرة . وفي مفاعلات الماء المضغوط تخزن النفايات الغازية في خزانات تحت ضغط معين وتبرد لمدة شهرين قبل اطلاقها عبر المرشحات والمدخنة الى الجو (١٩) .

النفايات السائلة

وهذه تنتج عن عمليات الغسيل والمعالجة الكيميائية المختلفة سواء أثناء التشغيل أو خلال عمليات الصيانة واعادة الشحن بالوقود . وتحتوى النفايات السائله على النواتج المشعة للتآكل وأهمها الكروم Cr٥١ 51 ، المنجنيز Mn٥٤ 45 ، الحديد Fe٥٩ 59 ، الكوبالت Co٥٨ 58 ، الكوبالت Co٦٠ 60 ، الزنك Zn٦٥ 65 ، الانتيمون Sb١٢٤ 124 بالاضافة الى نواتج الانشطار وأهمها التريتيوم T ، اليود I١٣١ 131 ، السيزيوم Cs١٣٤ 134 ، السيزيوم Cs١٣٧ 137 بعض هذه النفايات يتم تبريدها وترشيحها وتخفيفها بالماء الى مستويات دنيا محكومة من الاشعاع قبل اطلاقها للبيئة .

و المادة الاكثر انتشارا من بين المطلقات السائلة هى التريتيوم الذى يطلق على شكل ماءHTO ، أو هو يتأكسد بسرعة الى هذا الشكل . ويمثل التريتيوم نصف الاطلاقات المشعة من المفاعلات الى البيئة .

النفايات الصلبة

ماتبقى من مخلفات سائلة تم الحصول عليها خلال المراحل المختلفة بالمحطة النووية تجمع وتركز ويجرى تثبيتها بالاسمنت في بلوكات خرسانية أو بالبيتومين في براميل من الصلب ذات حجم عيارى (١٠٠ ـ ١٥٠ لتر) . وينتج عن المفاعل النووى ذي قدرة جيجاواط واحد كهرباء حوالى ٢٥٠ برميل سنويا يتم تبريدها لمدة ٦ أشهر في موقع تخزين مؤقت بالمحطة قبل نقلها لمكان التخزين المستديم .

ويعطى الجدول (٣) قيماً نمطية للمعدل السنوى للاطلاقات المشعة الغازية والسائلة الى البيئة لانواع مختلفة من المفاعلات قدرة جيجاواط واحد كهرباء (١٩، ٢٠) .

جدول (٣)

المعدل السنوى للاطلاقات المشعة السائلة والغازية الى البيئة من مفاعلات مختلفة قدرة جيجاواط واحد كهرباء

كورى / سنه

نوع المفاعل	اطلاقات غازية		اطلاقات سائلة	
	غازات هامدة	تريتيوم	نواتج انشطار تآكل	تريتيوم
مفاعل ماء مضغوط	٦٠٠	٢٨٠٠	٢٠	٣٠٠٠
مفاعل ماء يغلى	٢٠٠٠٠٠		٣٠	٢٠
مفاعل تبريد غاز	٥٠	١٠٠٠٠	٥٠	٤٠
مفاعل ماء خفيف جرافيت	١٠٠٠٠٠			
مفاعل ماء ثقيل مضغوط	١٠٠٠٠٠	٨٠٠٠	٤٠	٣٠٠٠

٣ ـ منشآت إعادة المعالجة (٢١ ـ ٢٧)

مع استمرار تشغيل المفاعل تتراكم نواتج الانشطار في عناصر وقضبان الوقود . هذه النواتج لا تساهم في العملية الانشطارية وتحتوى على عناصر شرهة لا متصاص النيوترونات مما يؤثر على استمرار سريان الانشطار بالمعدل المطلوب ، بل قد يؤدى الى توقف عملية الانشطار التلقائى ذاتها فيما يعرف باسم تسمم المفاعل . ولتلافى ذلك ترفع أعمدة الوقود المحترق من المفاعل لفترة طويلة قبل حرق كامل الوقود بالعناصر . وقضبان الوقود المحترقه ذات نشاط اشعاعى بالغ العلو لدرجة تستوجب تخزينها في أحواض وأماكن تخزين خاصة بها داخل المحطة النووية لمدد قد تصل الى عدة سنوات . ويحتوى الوقود المحترق على وقود لم يشترك في الاحتراق وعلى مواد أخرى نافعة ذات قيمة تبرر إعادة المعالجة للحصول عليها . ويتم ذلك بارسالها الى منشآت إعادة المعالجة ، حيث يستخلص ما تبقى من مواد انشطارية نافعة لاعادة الاستخدام في دورة الوقود ، وكذا لاستخلاص بعض نواتج الانشطار لاستخدامها في الاغراض العملية والتطبيقية المختلفة .

ويعطى الجدول (٤) بيانات الوقود المحترق الناتج عن نوعين من مفاعلات الماء الخفيف قدرة جيجاواط واحد كهرباء (٢٢) ..

جدول (٤)

بيانات الوقود النووى المحترق لنوعين

من مفاعلات الماء الخفيف قدرة جيجاواط واحد كهرباء

	مفاعل ماء مضغوط	مفاعل ماء يغلى
عدد تجمعات الوقود	١٩٣	٦٥٠
عدد قضبان الوقود بالتجمع	٢٠٨	٦٤
كتله التجمع (كجم)	٧٨٠	٢٥٠
اكسيد اليورانيوم في التجمع (كجم)	٦٠٠	٢٢٠
التفريغ السنوى (تجمع)	٥٢	١٧٠
(طن يورانيوم)	٢٧	٣٣
(كجم بلوتونيوم)	٢٥٨	٢٦٠
(كجم نواتج انشطار)	٩١٠	١١٥٠
النشاط الاشعاعى (كيلو كورى / تجمع)		
بعد التفريغ بـ ١٥٠ يوما	٢٨٠٠	٨٤٠
سنة	١٤٠٠	٤٢٠
سنتين	٨٠٠	٣٧٠
٥ سنوات	٣٠٠	١٩٠
١٠ سنوات	١٩٠	٦٤

وترجع تقنيه إعادة معالجة الوقود النووى المحترق الى عام ١٩٤٣ ومشروع ما نهاتن لتصنيع القنبلة الذرية . ويعطى الجدول (٥) بياناً بعدد المنشآت الرئيسية لاعادة المعالجة على مستوى العالم ، بخلاف الدول الاشتراكية . وتعالج هذه حوالى ٣٠ ألف طن يورانيوم في السنه شاملة الاحتياجات العسكرية (٢٢ ، ٢٣) .

جدول (٥)

منشآت اعادة المعالجة الرئيسية في العالم

الدولة	المنشأة	التشغيل	الوقود	السعة (طن يورانيوم / سنة)	ملاحظــات
الولايات المتحدة الأمريكية :					
	هانفورد	(١٩٤٤ -)	فلزى	> ١٠٠٠٠	عسكرية
	ايداهو	(١٩٥٣ -)	مفاعلات بحرية		عسكرية
	سافانا ريفر	(١٩٥٤ -)	فلزى	>١٠٠٠٠	عسكرية
	وست فالى	(١٩٦٦ - ١٩٧١)	أوكسيد	١٠٠٠	أغلقت
	بارنويل	١٩٧٧	أوكسيد	١٥٠٠	توقف بارد
	أكسسون (أوك ريدج)	١٩٨٥	أوكسيد	١٥٠٠	
المملكه المتحده :					
	وندسكيل ١	(١٩٥٢ - ١٩٦٤)	فلزى		أغلقت
	وندسكيل ٢	(١٩٦٤ -)	فلزى + اكسيد	٢٥٠٠ + ٤٠٠	عسكرية + تجاريه
	ثورب (وندسكيل)	١٩٨٧	أكسيد	١٢٠٠	
فرنسا :					
	ماركول	(١٩٥٨ -)	فلزى	٩٠٠	عسكريه
	لاهوج	(١٩٦٦ -)	فلزى + أكسيد	٨٠٠ + ٨٠٠	
المانيا الاتحادية :					
	كارلسروا (ڤاك)	(١٩٧١ -)	أكسيد	٤٠	نصف صناعية
اليابان :					
	توكاى مورا	(١٩٧٨ -)	أكسيد	٢٠٠	
الهند :					
	ترومباى	(١٩٦٥ -)	فلزى + أكسيد	٧٥	عسكرية + تجاريه
	تاراپور	(١٩٧٧ -)	أكسيد	١٢٥	

وفي عام ١٩٨٠ بلغ الطلب العالمى على عمليات اعادة المعالجة (بخلاف دول الكتلة الشرقية) ٣٠٠٠ طن من اليورانيوم ، بينما كانت السعة المتاحة تجاريا حوالى ألف طن فقط .

وكما في حالة التشغيل العادى للمفاعلات النووية ينتج عن عملية اعادة معالجة الوقود النووى المحترق نفايات غازية وسائلة وصلبة بكميات مختلفة . ويعطى الجدول (٦) تقديرا للاحتياجات من منشآت اعادة المعالجة وللنفايات الصلبة عالية المستوى ونفايات ألفا الناتجة من هذه المنشآت (٢٤) .

جدول (٦)

تقديرات النفايات الصلبة عالية المستوى ونفايات ألفا

الناتجة عن منشآت إعادة المعالجة

		حتى نهاية عام	
	١٩٨٠	١٩٩٠	٢٠٠٠
القدرة النووية المقاومة (ميجاواط)	١٥٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠	٩٤٠٠٠٠
الوقود المعاد معالجته (طن / سنة)	٣٠٠٠	٩٠٠٠	١٩٠٠٠
النفايات الصلبة عالية المستوى :			
الحجم السنوي (ألف متر٣)	٠,٢٧٥	٠,٩٣٤	١,٦٤٢
الحجم المتراكم (ألف متر٣)	١,٢٤٦	٨,٢١٠	٢١,٨٠٠
النشاط الاشعاعي المتراكم (ميجاكورى)	١٩٠٠٠	١١٠٠٠٠	٢٧٠٠٠٠
نفايات ألفا :			
الحجم السنوي (الف متر٣)	١٠,١٩	٢٨,٣١	٧٠,٧٧
الحجم المتراكم (الف متر٣)	١٣٠,٢	٢٩٤,٥	٧٦٤,٥
النشاط الإشعاعي المتراكم (ميجاكورى)	٣١	١٥٠	٤٢٠

ويعطى الجدول (٧) بيانا بكميات النفايات المشعة التي تنتج عن محطة / نموذج لاعادة المعالجه سعة ١٥٠ طنا يورانيوم / سنه بعد تخزين لمدة ٣ أعوام (٢٢) .

جدول (٧)

كميات النفايات المشعه التي تنتج من محطة / نموذج لاعادة المعالجه سعة ١٥٠٠ طن يورانيوم / سنة

النفايات الغازية :			
تريتيوم	T	٠,٩	ميجاكوري
كربون ١٤	^{14}C	١٠٠٠	كوري
كربتون ٨٥	$^{85}K_r$	١٣	ميجاكوري
يود ١٢٩	^{129}I	٦٠	كورى
النفايات السائلة :			
عالية المستوى		٧٠٠	متر^3
متوسطة المستوى		٧٠٠٠	متر^3
منخفضة المستوى		١٥٠٠٠٠	متر^3
النفايات العضوية (سائلة عن كيماويات المعالجة)		٩٠٠	متر^3
النفايات الصلبة :			
عالية المستوى		٦٠٠	متر^3
متوسطة ومنخفضة المستوى (بيتا وجاما)		٣٠٠٠	متر^3
متوسطة ومنخفضة المستوى (الفا)		١٠٠	متر^3

وتطلق منشآت إعادة المعالجة جزءا كبيرا من نفاياتها الغازية والسائلة الى البيئة ، بينما تحتفظ بالباقي و بالنفايات الصلبة للتخزين طويل المدى .

أكبر تفريغ لمتدفقات سائلة الى البيئة هو من موقع هانفورد بالولايات المتحدة الامريكية الى نهر كولمبيا على بعد ٥٠ كيلومترا من المحيط الهادي ، ومن موقع وندسكيل بالمملكة المتحدة إلى البحر الايرلندي . ويستمر هذا التفريغ بتواصل منذ عام ١٩٤٥ لموقع هانفورد ومنذ ١٩٥٢ لموقع وندسكيل . وفي عام ١٩٧٦ أفرغ موقع وندسكيل في البحر حوالي ١٨٠ ألف كوري مشعات بيتا (~ ٦١٪ من المسموح به) و ١٦٠٠ كوري مشعات ألفا (~ ٢٧٪ من المسموح به) .

ويعتبر تفريغ المنشآت الساحلية للنفايات السائلة منخفضة المستوى (أقل من ١٠ مللي كوري / م^3) مباشرة الى البيئة المائية في حكم المعتاد . فتفرغ مفاعلات هانفورد في نهر كولومبيا حوالي ٩٠٠ كوري في اليوم أغلبها نويدات مشعة مستحثة بالنيوترونات ٨٠٪ منها كروم ٥١ (^{51}Cr) . كذلك يفرغ معمل أوك ريدج القومي بالولايات المتحدة في نهر كيلينيتش على بعد ٧٠٠ كم من المحيط الاطلنطي نويدات مشعة اغلبها نواتج انشطار بواقع ٢٠٠ كوري في السنة ٧٧٪ منها سيزيوم ١٣٧ (^{137}Cs) . وفي المملكة المتحدة تفرغ منشأة اعادة المعالجة في دورناي حوالي ٢٠٠٠ كوري / شهر

أغلبها نواتج انشطار الى بحر الشمال . ويعطي الجدول (٨) المعدل المتوسط لافراغ النويدات المشعة من معامل وندسكيل خلال الفترة ١٩٥٩ - ١٩٦٧ (٢٦) .

جدول (٨)
المتوسط الشهري لافراغ النويدات المشعة من
معامل وندسكيل الى البحر الايرلاندي (كوري / شهر)

النويدة		١٩٥٩ - ١٩٦٣	١٩٦٤ - ١٩٦٧
سترونشيوم ٨٩	^{89}Sr	٨٤	١٣
سترونشيوم ٩٠	^{90}Sr	٦٩	٩٢
زوركونيوم ٩٥	^{95}Zr	١٧٥	١٥٠٣
نيوبيوم ٩٥	^{95}Nb	٥٣١	٢١٥٧
روثينيوم ١٠٦	^{106}Ru	٢٦١٠	١٧٩٨
روثينيوم ١١٣	^{113}Ru	٥٨٦	١٦٠
سيزيوم ١٣٧	^{137}Cs	٩١	١١١٠
سيزيوم ١٤٤	^{144}Ce	٢٣١	٥٦٧

وتعالج النفايات السائلة متوسطة وعالية المستوى كمثيلاتها من محطات القدرة النووية . ويجرى تركيز النفايات عالية المستوى الى أحجام مختلفه وحفظها في خزانات من الصلب في موقع المنشأة لمدد طويلة قد تزيد على عشر سنوات . هذه الخزانات يتراوح حجمها بين ٥٠ و ٥٠٠ م^{3} وهي خزانات ثنائية الجدران محاطة بتدريع ثقيل من الخرسانة وبتجهيزات للتبريد ، للتخلص من غازات التحلل ، ومراقبة النشاط الاشعاعي ومستوى السائل بالخزان . ويتطلب تخزين هذه الخزانات ومراقبتها اهتماما خاصا حيث تدل التجربة أنه من بين ١٩٨ خزانا خزنت في منشآت ثلاث لاعادة المعالجة بالولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٤٣ - ١٩٧٣ حدث تسرب من ٢٠ خزانا (بواقع ١٠٪ من الخزانات) ويلغ ما تسرب الى الارض من نشاط إشعاعي ١٩٠ كيلو كورى من السيزيوم ١٣٧ (^{137}Cs) (٢٤) .

كذلك يتم تخزين النفايات السائلة متوسطة المستوى التي تحدث نتيجة العمليات الكيميائية المختلفة في خزانات من الصلب ، تخضع لمتطلبات أقل صرامة والنفايات السائلة منخفضة المستوى التي لا يتم تفريغها الى البيئة يجري تركيزها وتثبيتها في الاسمنت أو البيتومين وحفظها في أماكن تخزين خاصة .

أما النفايات الصلبة فيجري تخزين المستويات المنخفضة منها في خنادق على عمق ٥ - ٨ أمتار من سطح الارض . ويتم ذلك في مناطق جافة (صحراوية إن أمكن) منعزلة مراقبة من حيث المياه الجوفية . وتستخدم هذه الخنادق في الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة ، وفرنسا حيث يجري التخلص من عشرات الالاف من الامتار المكعبة من

النفايات سنويا (٢٢) وقد اكتشفت حالات تسرب للمواد المشعة الى المياه الجوفية وذلك في منشأة ماكسي فلاتس بالولايات المتحدة (٢٤) .

ويتم التخزين طويل الأمد للنفايات المشعة عالية المستوى بتثبيتها في مركبات عالية الاستقرار ثم تعبأ في أسطوانات من الصلب الذي لايصدأ محاطة بالرصاص ومغلفة بالتيتانيوم لمقاومة عوامل التعرية لمدد تصل الى مئات السنين ، وتخزن بعد تبريدها مدة كافية قد تصل إلى ٤٠ سنة ـ في باطن الارض في تركيبات جيولوجية ملائمة مثل الصخور النارية . الصخور الجرانيتية ، الطبقات الصمغية ، تركيبات الملح الصخري ، قاع المحيطات ... الخ .

ويعطي الجدول (٩) بيانا بما ينتج سنويا من نفايات عالية المستوى الاشعاعي طويلة العمر لكل مفاعل قدرة جيجاواط واحد كهرباء (٢٢) .

جدول (٩)

التفريغ الاشعاعي السنوي لمفاعل قدرة جيجاواط واحد كهرباء

النويده		عمر النصف (سنة)	التفريغ السنوي (كوري)
سترونشيوم ٩٠	^{90}Sr	٢٨,٥	$١,٨ \times ١٠^{٦}$
زركونيوم ٩٣	^{93}Zr	$١,٥ \times ١٠^{٦}$	٥٧
تكنيسيوم ٩٩	^{99}Tc	$٢,١٢ \times ١٠^{٥}$	٤٣٠
سيزيوم ١٣٧	^{137}Cs	٣٠,١	$٢,٥ \times ١٠^{٦}$
ساماريوم ١٥١	^{151}Sm	٩٣	$٣,٢ \times ١٠^{٤}$
بلوتونيوم ٢٣٩	^{239}Pu	$٢,٤ \times ١٠^{٤}$	٩٧٠
بلوتونيوم ٢٤٢	^{242}Pu	$٣,٩ \times ١٠^{٥}$	٤٠
أمريسيوم ٢٤١	^{241}Am	٤٣٣	٤٧٠٠
أمريسيوم ٢٤٣	^{243}Am	$٧,٤ \times ١٠^{٣}$	٥٢٠

ويعطى الجدول (١٠) تقدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية لكمية النفايات المشعة التي تراكمت عن برامج القدرة النووية خلال ثلاثين عاما حتى نهاية ١٩٨٧ (٢٧) .

جدول (١٠)

تقديرات النفايات المشعة عن برامج

القدرة النووية حتى نهاية ١٩٨٧م

تقدير النفايات المشعة عن التشغيل لمدة ٣٠ عاما

الدولة	عدد مفاعلات القدرة		نفايات منخفضة ومتوسطة المستوى (ألف متر٣)	وقود محترق ألف طن يورانيوم	نفايات إعادة المعالجة (ألف متر٣)		
	الشغالة	تحت الانشاء			عالية المستوى	ألفا	منخفضة/متوسطة المستوى
الاتحاد السوفيتي	٥٦	٢٨	٧١٥,٠٠	٥٥,٢٥٠	٥,٢٠٠	٩٧,٥	٦٥,٠
الارجنتين	٢	١	٢٢,٠٠	٨,٠٠٠	٠,١٦٠	٣,٠٠٠	٢٠,٠
أسبانيا	٩	١	٨٢,٥٠	٨,٢٥٠	—	—	—
المانيا الاتحادية	٢١	٤	٢٦٦,٧٥	١٦,٩٧٥	٥,٠٠٠	٩٣,٧٥	٦٢٥,٠٠٠
المانيا الديمقراطية	٥	٦	٦٠,٥٠	٣,٨٥٠	اعادة المعالجة بالاتحاد السوفيتي		
ايران	—	٢	—	—	—	—	—
ايطاليا	٢	٣	٣٥,٧٥	٣,١٧٥	٠,٢٦٠	٤,٨٧٥	٣٢,٥
باكستان	١	—	١,٦٥	٠,٦٠٠	٠,٠١٢	٠,٢٢٥	١,٥
البرازيل	١	١	٢٢,٠٠	١,٤٠٠	٠,١٦٠	٣,٠٠٠	٢٠,٠٠٠
بلجيكا	٧	—	٦٣,٥٠	٤,٠٢٥	٠,٤٦٠	٨,٦٢٥	٥٧,٥
بلغاريا	٥	٢	٤١,٢٥	٢,٦٢٥	اعادة المعالجة بالاتحاد السوفيتي		
بولندا	—	٢	١١,٠٠٠	٠,٧٠٠	—	—	—
تايوان	٦	—	٥٥,٠٠٠	٣,٥٠٠	—	—	—
تشيكوسلوفاكيا	٨	٨	٦٦,٠٠٠	٤,٢٠٠	اعادة المعالجة بالاتحاد السوفيتي		
جنوب افريقيا	٢	—	٢٢,٠٠٠	١,٤٠٠	—	—	—
رومانيا	—	٣	٢٤,٧٥	٦,٠٣٠	—	—	—
السويد	١٢	—	١١٠,٠٠٠	٧,٠٠٠	اعادة المعالجة بالخارج		
سويسرا	٥	—	٣٣,٠٠٠	٢,١٠٠	اعادة المعالجة بالخارج		
الصين	—	٢	٣,٣٠	٠,٢١٠	٠,٠٢٤	٠,٤٥٠	٣,٠
فرنسا	٥٣	١٠	٦٨٧,٥٠	٥٦,٧٥٠	٥,٠٠٠	٩٣,٧٥	٦٢٥,٠
فنلندا	٤	—	٢٧,٥٠	١,٧٥٠	اعادة المعالجة بالاتحاد السوفيتي		
كندا	١٨	٤	١٩٨,٠٠	٧٢,٠٠٠	—	—	—
كوبا	—	٢	٤,٩٥	٠,٣١٥	—	—	—
كوريا الجنوبية	٧	٢	٨٨,٠٠	٧,٧١٢	—	—	—
المجر	٤	—	١٩,٢٥	١,٢٢٥	اعادة المعالجة بالاتحاد السوفيتي		
المكسيك	—	٢	١٦,٥٠	١,٠٥٠	—	—	—
المملكة المتحدة	٣٨	٤	٩٦,٢٥	٣٩,٧٥٠	٠,٧٠٠	١٣,١٢٥	٨٧,٥
الهند	٦	٨	٢٧,٥٠	٨,٣٥٠	٠,٢٠٠	٣,٧٥٠	٢٥,٠
هولندا	٢	—	٥,٥٠	٠,٣٥٠	اعادة المعالجة بالخروج(فرنسا، المملكة المتحدة)		
الولايات المتحدة	١٠٦	١٣	١٢٠٠,٠٠	٧٨,٧٥٠	٩,٠٠٠	١٦٨,٧٥٠	١١٠٠,٠
اليابان	٣٦	١٢	٣٥٧,٥٠	٢٣,٧٥٠	٢,٦٠٠	٤,٨٧٥	٣٢٥,٠
يوغسلافيا	١	—	٥,٥٠	٠,٣٥٠	—	—	—
اجمالي	٤١٧	١٢٠	٤٣٦٩,٦٥	٤٢١,٣٩٢	٢٣,٧٧٦	٤٠١,٩٢٥	٢٣٦٢,٠

ويعطى الشكلان (٢ ، ٣) الاضافة الى البيئة من نظائر التريتيوم ، الكربتون ٨٥ والكربون ١٤ نتيجة للنشاط النووي المتزايد (١٧ ، ٢٥) .

٤ - نقل المواد المشعه (٨)

تزايد باطراد نقل المواد المشعة على مستوى العالم خلال الثلاثين عاما الماضية حتى تعدى ٨ ملايين شحنة كل عام دون أن يصاحب ذلك تلوث جدي للبيئة . وتتوزع هذه الشحنات كالاتي :

- ٩٨٪ مركبات كيماوية ومصادر مشعة للتطبيقات والبحوث .
- ٢٪ مواد نووية ودورة وقود تجارية .

وقد بلغ ماتم نقله من مواد مشعة عام ١٩٨٢ بالولايات المتحدة حوالي ٦٨ ميجاكوري موزعة على ٢,٤٣٥ مليون شحنة . كذلك بلغ مانقل في فرنسا من الوقود المحترق من المفاعلات النووية الى مراكز المعالجة ما مقدار ، ١٠٢٣٥ طنا خلال الفترة ١٩٦٦ - ١٩٨٤ .

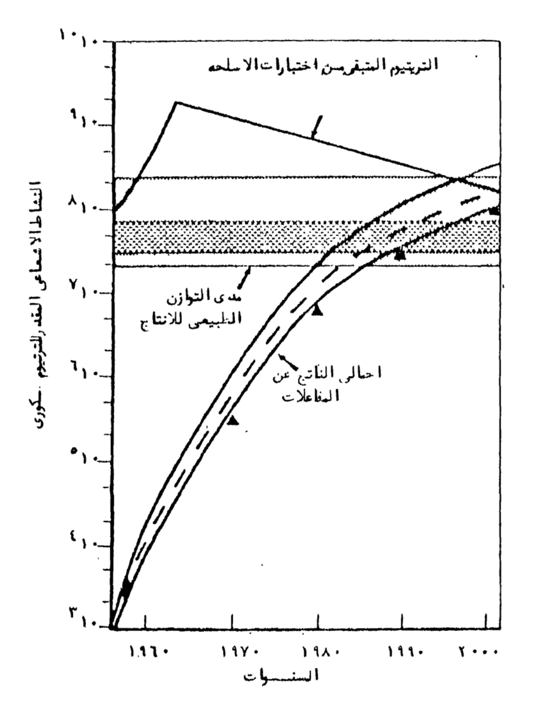
وترجع سلامة نقل المواد المشعة الى وجود نظام عالمي موحد من التنظيم والرقابة بالاضافة الى تطبيق وسائل أمان بالغة الصرامة .

ويعتبر نقل المواد المشعة مصدرا محتملا للتلوث الاشعاعي في القطاع الاهلي ، حيث تنقل المادة المشعة بواسطة وسائل النقل العامة وفي وسط الجمهور . ولم يحدث تلوث اشعاعي منتشر أو آثار صحية خطيرة للجمهور نتيجة لعمليات النقل ، الا أن عددا من الحوادث حدثت قد يكون من الملائم ذكرها .

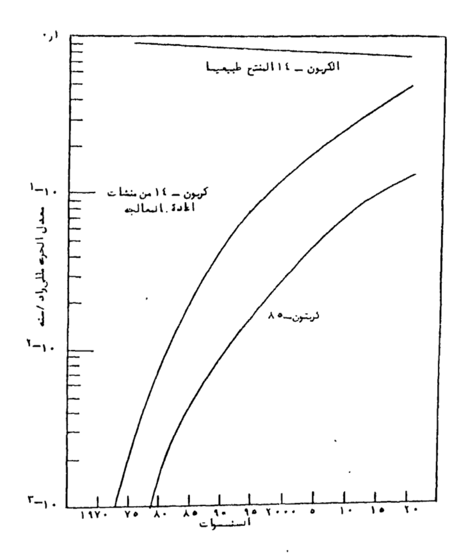
لقد أجرى مركز تقنية النقل بمعامل سانديا الوطنية بالولايات المتحدة تحليلا لجميع حوادث ومخالفات نقل البضائع الخطرة - ومن بينها الاشعاعية - بالولايات المتحدة خلال الفترة ١٩٧١ - ١٩٨٠ . ومن بين ٨٦٥٠٠ حالة سجلت لجميع المواد الخطرة ارتبطت ٦٦٠ حالة فقط بنقل المواد المشعة صاحب ٥ حالات منها فقط تسرب اشعاعي محدود .

وفي ديسمبر ١٩٧١ تلوثت طائرة ركاب نتيجة لتسرب اشعاعي من طرد يحتوي على الموليبدنيوم ٩٩ . وعند اكتشاف التلوث كان ٩١٧ راكبا قد سافروا على متن الطائرة . وسحبت الطائره من الخدمه وأزيل التلوث منها . وقد أظهرت نتائج فحص الركاب والمتاع أن أحدا من الركاب أو الطاقم لم يتعرض لضرر صحي شخصي . الا أن أصنافا عديدة من المتاع وجدت ملوثه بكميات بسيطة ، وتم ازالة تلوثها وأعيدت لأصحابها .

وفي أبريل ١٩٧٤ نقل مصدر جاما يحتوي على ايريديوم ١٩٢ بواسطة طائرة ركاب . وبعد وصول الطرد اكتشف أنه لم يكن بالتدريع المطلوب مما نتج عنه مستويات إشعاعية خارجية عالية . وقد أظهرت التقديرات الأسوأ أن مستوى الاشعاع ربما كان قد وصل الى ٤,٦ رونتجن في الساعة للفرد عند مستوى المقعد . الا أنه لم يصاحب الحادثه تلوث اشعاعي .



شكل (٢) : النشاط الاشعاعى للتريتيوم فى الجو من المصادر المختلفه .



شكل (٣) : النشاط الاشعاعي للكربون ١٤ والكربتون ٨٥ المتراكم في الجو .

وفي مارس ١٩٧٧ خرج قطار يحمل ٨,٥ طن من اليورانيوم عن مساره ، الا أنه لم يحدث تسرب او تلوث اشعاعي .

وفي سبتمبر ١٩٧٧ انقلب جرار نقل ثقيل محمل بـ ١٨ طنا من ركاز اليورانيوم الطبيعي (العجينه الصفراء U_3O_8) في منطقة زراعيه وتناثر ٣,٥ طن من الركاز . وقد تم ازالة بتلوث المنطقة المتأثره دون آثار صحية ضارة للجمهور أو القائمين بالتطهير .

وقبالة السواحل البلجيكية على بعد ٢٠ كم منها غرقت سفينة النقل مونت لويس عام ١٩٨٤ وعلى متنها ٣٥٠ طنا من سادس فلوريد اليورانيوم (UF_6) في ثلاثين حاوية . وتم انتشال جميع الحاويات دون آثار راديولوجيه او كيماويه .

٥ ـ حوادث المفاعلات (٢٨ ـ ٣٥)

أظهرت الصناعة النووية طوال فترة استخدامها سجلا جيدا لتشغيل مفاعلات القدرة ، وتحدث يوميا عدة آلاف من الحوادث الصغيرة أثناء التشغيل أو الصيانة ، يتم التغلب عليها في وقته دون ضرر لهيئة التشغيل أو الجمهور أو للبيئه . الا أنه قد حدثت بعض الحوادث أدت الى الاسوأ من بين الحوادث المقدرة ، ألا وهو حدوث انصهار بقلب المفاعل . من هذه الحوادث ثلاث صاحبها إطلاق غير محكوم للمواد المشعة الى البيئة المحيطة وهي : حادثة الحريق في مفاعل وندسكيل (المملكة المتحدة ، ١٩٥٧) حادثة مفاعل جزيرة الأميال الثلاثة (الولايات المتحدة الامريكية ، ١٩٧٩) والحريق في مفاعل تشرنوبيل (الاتحاد السوفيتي ، ١٩٨٦) ، وهي التي سنتوقف عليها ببعض التفصيل :

حادثة الحريق في المفاعل رقم ١ بموقع وندسكيل (المملكة المتحدة ، أكتوبر ١٩٥٧) (٢٨ ، ٢٩)

وهو مفاعل يتبع هيئة الطاقة الذرية بالمملكة المتحدة ويعمل منذ عام ١٩٥٠/١٩٥١ لاغراض إنتاج البلوتونيوم . والمفاعل أحد أثنين من نوع اليورانيوم الطبيعي الملطف بالجرافيت المبرد بالهواء . ويتم التخلص من المبرد عن طريق مدخنة بارتفاع ١٢٥ مترا تحتوي على مجمعات ترشيح .

وكان المفاعل قد أطفىء بغرض التخلص الروتيني من حرارة فيجنر بالقلب الجرافيتي . وقد اكتشفت الحادثة ظهر يوم الخميس ١٠ أكتوبر ١٩٥٧ عندما أظهرت محطات المراقبة الاشعاعية المحيطة بالموقع زيادة في النشاط الاشعاعي بلغت ١٠ أضعاف الخلفية الطبيعية . وأظهر الكشف العيني توهجا بتجمعات الوقود . ويبدو أن تسخينا فوق المعتاد للوقود قد تسبب في تلف المادة المغلفة لبعض الاعمدة ، بذلك تعرض اليورانيوم للتأكسد مؤديا الى رفع درجة الحرارة حتى حدث اشتعال بالجرافيت وانتشرت النيران متلفة حوالي ١٥٠ قناة . واعتبارا من الساعة التاسعة من صباح ١٠/١١ بديء بضخ المياه الى قلب المفاعل لاخماد النيران ، واستغرقت عملية الاطفاء حوالي ٣٠ ساعه حتى برد قلب المفاعل بعد ظهر السبت ١٢/١٠/١٩٥٧ .

وخلال فترة الحريق أفرغ النشاط الاشعاعي الى الجو من خلال المدخنة . وقدر النشاط الاشعاعي المطلق للجو بحوالي ٣٣ ألف كوري موزعة كالاتي :

يود ١٣١	تيلوريوم ١٣٢	سيزيوم ١٣٧	سترونشيوم ٨٩	سترونشيوم ٩٠
٢٠ ألف كورى	١٢ ألف كورى	٦٠٠ كورى	٨٠ كورى	٩ كورى

وأظهر قياس المستويات الاشعاعية في المزارع القريبة وجود تساقط ملموس للاشعاع إذ بلغ تركيز السيزيوم ١٣٧ في منطقة أقصى تساقط ~ ٢٥٠ نانوكوري/ متر٢ وتركيزه في الحليب في نفس المنطقة ~ ٢٥ نانوكوري/ لتر . وقد وصل مستوى النشاط الاشعاعي الجامي أسفل السحابة على ١,٦ كيلومتر من المدخنة الى ٤ مللي رونتجن/ ساعة وهو ما قدر بـ ٤٠٠ ضعف الخلفية الاشعاعية الطبيعية في المنطقة ، بينما كان النشاط الاشعاعي خارج مسار السحابة مباشرة من ٠,٢ مللي رونتجن/ ساعة ، وذلك حتى ٤,٨ كيلو متر من المفاعل .

وقد ازداد تركيز اليود ١٣١ في الحليب بسرعة حتى وصل الى ١,٤ ميكروكوري/ لتر بعد ثلاثة أيام من الحادثة . ومنع استخدام الحليب ذو التركيز > ٠,١ ميكروري/ لتر على امتداد منطقة مساحتها حوالي ٥٢٠ كيلو مترا مربعا . وقد أجرى الكشف على ٢٥٠ شخصا كان بينهم أطفال ، من حيث تشعيع الغدة الدرقية ، وبلغت أعلى جرعة ١٦ راد عند طفل . كذلك قيس مستوى النشاط الاشعاعي للسترونشيوم ٨٩ ، ٩٠ في العشب ، الدرنيات ، الحليب والمواد الغذائية الاخرى : الماء ، البيض ، الخضروات ، اللحم . كما أظهرت القياسات وجود نويدات مشعة أخرى مثل السيزيوم ١٣٧ ، الروثينيوم ١٠٣ ، ١٠٦ ، والزركونيوم ٦٥ في المنتجات الغذائية والعشب .

حادثة المفاعل رقم ٢ بجزيرة الاميال الثلاثه (الولايات المتحدة الامريكية ، مارس ١٩٧٩ (٣٠ ، ٣١)

وهو مفاعل من نوع الماء المضغوط قدره ٨٨٠ ميجاواط كهرباء يقع في جزيرة طينية طولها ٣ أميال بالقرب من مدينة ميدل تاون بولاية بنسلفانيا ، الولايات المتحدة الامريكية . وتتكون المحطة من وحدتين من إنتاج شركة بابوك وويلكوكس . وقد بدأ التشغيل التجاري للمفاعل رقم ١ منذ سبتمبر ١٩٧٤ وللمفاعل رقم ٢ في ٣٠ ديسمبر ١٩٧٨ .

وحتى الساعة الرابعة من صباح يوم الاربعاء ٢٨ مارس ١٩٧٩ كان المفاعل رقم ٢ يعمل بصورة تبدو طبيعية عند ~ ٩٧٪ من القدرة الحرارية المقدرة وهي ٢٧٧٢ ميجاواط . الا أن هذا العمل كان يخفي عيوبا في التصنيع والتشغيل أدى تجميعها الى سلسلة من الأحداث انتهت بانصهار جزئي لقلب المفاعل . من هذه العيوب أن تسربا للماء كان يحدث باستمرار من صمام أو أكثر في دائرة ضبط الضغط المتصل بمولدات البخار ، مما أدى الى ملء جزئي لخزان التصريف . كذلك كان صماما دائرة التغذية الطارئة بالماء المرتجع (من التوربين) مغلقين فعليا ، بينما توضح البيانات بغرفة التحكم أنهما مفتوحان . كذلك كان هناك انسداد في خط تنقية البخار المتكثف بعد خروجه من المولد التوربيني .

بدأت الحادثة الساعة الرابعة والدقيقة ٣٦ صباحا عندما أدى عدم سريان البخار المتكثف بالمعدل المقرر الى توقف المضخات الرئيسية للتغذية بالماء المرتجع ومن ثم الى توقف المولد التوربيني . وبدأت مضخات دائرة التغذية الطارئة في العمل تلقائيا ، الا أن الصمامين المغلقين أعاقا سحب الحرارة من دائرة التبريد الاولية ومن ثم التبريد الفعال لقلب المفاعل . الامر الذي أدى الى رفع درجة حرارة المبرد (الماء في دائرة التبريد الاولية) وبالتالي رفع الضغط في جهاز ضبط

الضغط . بذلك عمل تلقائيا الصمام المغناطيسي للتخلص من الضغط الزائد . وكانت ٨ ثوان من عدم التبريد كافية لتشغيل دائرة إطفاء المفاعل . وقد تنبه أحد المشتغلين بعد ٨ دقائق من بدء الحادثه الى أن صمامي دائرة تبريد الطوارىء مغلقان ففتحهما . وبدأ ضخ الماء الى مولدات البخار (المبادلات الحرارية) وانخفض الضغط في جهاز ضبط الضغط الى الحد الذي يسمح بغلق صمام التخلص من الضغط الزائد .

هنا حدث عطب ، فقد ظل صمام التخلص من الضغط الزائد مفتوحا بالرغم من انفراج المغناطيس الكهربي المشغل له وظهور اشارة بغرفة التحكم تبين أن الصمام قد أغلق . بذلك استمر ضخ سائل التبريد (الماء) بعيدا عن قلب المفاعل الى خزان التصريف ، الذي انفجر غطاؤه ساكبا سائل التبريد الى أرضية مبنى الاحتواء . بذلك بدأت حادثة فقد التبريد الخطيره . وقد استمر هذا الفقد متصلا لمدة ٢,٤ ساعة حتى استوعب المشغلون الموقف عند الدقيقة ١٤٢ من بدء الحادثة وأغلقوا صمام الحجب السابق للصمام المغناطيسي .

من ناحية أخرى ونتيجة لاعتبارات فنية تعلقت بضرورة تفادى ملء جهاز ضبط الضغط كاملا بالماء أوقف المشغلون مضخات الحقن عالي الضغط بالماء والبورن (الطوارىء) ، كما أوقفوا لاحقا مضخات تبريد المفاعل لاعتبارات تتعلق بازدياد الاهتزاز فيها نتيجة لبدء غليان سائل التبريد وتشبعه بالفقاعات . وقد زاد هذا من تعقيد الموقف ومنع سحب الحرارة المتبقية وبدأت ظواهر انصهار القلب اعتبارامن الدقيقة ٧٣ بعد بدء الحادثة .

وقد تم استعادة التبريد والسيطرة على الموقف بعد مرور ١٦ ساعة على بدء الحادثة . لقد أظهرت الحادثة عيوبا في العديد من أجهزة الامان الهندسية ، ومضخات تبريد المفاعل ، توزيع العدادات وأجهزة استخراج البيانات في غرفة التحكم ، ومستوى الكفاءة وبرامج التدريب للمشتغلين . . . الخ .

ونتج عن الحادثة تسرب كميات كبيرة من الماء الملوث بالمواد المشعة الى مبنى المفاعل وصل ارتفاعها الى مترين ، وبالرغم من أن جل المواد المشعة تم احتواؤ ها في مبنى الاحتواء ، الا أن مقادير كبيرة من الغازات المشعة أطلقت الى البيئه ، كما أفرغت كميات كبيرة من المياه الملوثة في النهر المجاور . وقد أعلنت حالة الطوارىء في المناطق المجاورة أثناء تصاعد الحادثة وبدىء باجلاء النساء والاطفال ، كما وضع السكان الآخرون في حالة استعداد للإجلاء .

وقد قدر المحتوى الاشعاعى لنواتج الانشطار في قلب المفاعل وقت الحادثة بعدة مئات من الميجاكوري لكل من الغازات الهامدة واليود . وقدر ما تم اطلاقه الى البيئة من غازات هامدة بحوالي ١٠ ميجاكوري أغلبها زينون ١٣٣ ، (غاز خامل) ومن اليود ١٣١ ـ بحوالي ٢٠ كوري . وكانت كمية المواد المشعة المحتجزة في مبنى الاحتواء كبيرة . وفي أبريل ١٩٧٩ كان هناك ٧,٥ ميجاكوري في دائرة التبريد الاولية ، و١٠,٦ ميجاكوري في الماء بالمبنى ، و ٣٦ كيلوكوري في جو مبنى الاحتواء . حتى ذلك الوقت كان أغلب اليود المشع قصير العمر قد انحل .

ولم يكن التعرض الاشعاعي خارج موقع المحطة يمثل الخطورة المتوقعة ، حيث قدرت الجرعة الاشعاعية المتوسطة بحوالي ٨٣ ميللي راد . الا أن الضرر الاقتصادي كان بالغا فقد توقفت المحطة كلية عن العمل الى ان بدىء في تشغيل

الوحدة الاولى في أكتوبر ١٩٨٥ ، ذلك بالاضافة الى التكاليف الباهظة المتوقع صرفها على إزالة التلوث الاشعاعي وتكهين الوحدة الثانية .

حادثة الوحدة الرابعة بمحطة تشرنوبيل الكهروذريه (الاتحاد السوفيتي ، أبريل ١٩٨٦ (٣٢ - ٣٥)

وهي الأخطر من بين الحوادث النووية طوال تاريخ الاستخدام التجاري للطاقة النووية . وتقع محطة تشرنوبيل الكهروذرية على بعد ١٢٠ كم شمال مدينة كييف بالاتحاد السوفيتي . وتشمل المحطة أربعة مفاعلات عاملة من النوع المهدأ بالجرافيت المبرد بالماء ذي القنوات قدرة كل منها ١٠٠٠ ميجاواط كهرباء والوحدات المساعدة لها ، بالاضافة الى مفاعلين آخرين تحت الانشاء(٣) .

كان المفاعل رقم ٤ - وهو الأحدث فقد بدأ تشغيله تجاريا في ديسمبر ١٩٨٤ - يعمل بصورة عادية عند القدرة المقدرة قبل الايقاف المخطط لاغراض الصيانة . وكان قد تقرر قبل الايقاف إعادة إجراء تجربة كهربية على أحد المولدين التوربينين للمفاعل . أثناء التخفيض العادي للقدرة وقبل بدء التجربة ، تدخل موزع الكهرباء بالمحطة طالبا عدم سحب الوحدة من الشبكة لحين إخطار آخر . بذلك ظل المفاعل يعمل عند قدرة منخفضة لمدة ٩ ساعات الامر الذي أدى الى تراكم تسميم المفاعل بنواتج الانشطار . عند السماح باستمرار الخفض أدى التدخل اليدوي لخفض القدرة في ظروف تسمم المفاعل الى انخفاض القدرة الى منطقة عدم الاستقرار . وقد أصر طاقم التشغيل على استكمال التجربة في ظروف غير مواتية بتنفيذ سلسلة فظة من الاخلال بقواعد التشغيل والأمان أدت الى جموح المفاعل وانفجاره في الساعة ١ : ٢٤ من صباح السبت ٢٦ أبريل ١٩٨٦ . وقد لوحظ حدوث انفجارين تبعهما انبعاث شظايا محترقه الى الهواء فوق مبنى المفاعل . وسقطت بعض هذه الشظايا على سقف غرفة التوربينات الملحقة بمبنى المفاعل وبدأ الحريق . وعزي الانفجار الأول إلى ضغط البخار ؟ بينما عزي الانفجار الثاني الى التفاعلات التقليدية للوقود النووي مع المبرد ، اذ يؤدي تفاعل البخار مع الزركونيوم المستخدم في مواد تغليف الوقود الى تولد غاز الهيدروجين القابل للانفجار . وزاد من خطورة الحالة وجود كميات كبيرة من الجرافيت احترقت عند درجات الحرارة العالية (٣٠٠٠° م) .

وقد بدأت إجراءات إطفاء الحريق في الساعة الواحدة والنصف أي بعد حدوث الانفجار بست دقائق حيث تم التغلب على النيران بصالة التوربينات الساعة الثانية وعشر دقائق وبسقف قطاع المفاعل الساعة الثانية والنصف ، بذلك تم إنقاذ الوحده رقم ٣ التي تشترك مع الوحدة المعطوبة في صالة التوربينات . وتم اخماد النيران كلية في تمام الساعة الخامسة من صباح نفس ٢٦ أبريل . وتم إطفاء المفاعلات الثلاثة بالمحطة يومي ٢٦ و ٢٧ أبريل إطفاءً بارداً .

ونتج عن الحادثة تدمير جزئي لقلب المفاعل وكلي لنظام التبريد . وأدى تدمير نظام التبريد الى صعوبة السيطرة على تولد الحرارة من منطقة قلب المفاعل طوال عشرة أيام لاحقة للحادثة . وخلال هذه الفترة كان هناك على الدوام خطر انصهار قلب المفاعل وحدوث تفاعل متسلسل (ظاهرة أوكلو) . ويوضح الشكل(٤) التسلسل الزمني لحادثة الوحدة الرابعة بمحطة تشرنوبيل .

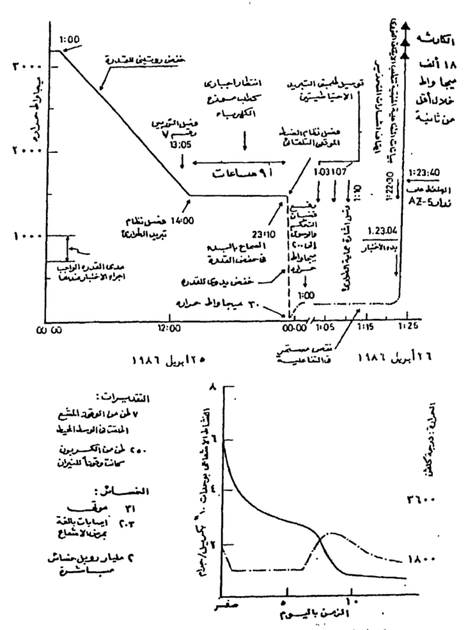
وقد قدر ما تم قذفه من وقود نووي خارج مبنى المفاعل أثناء الحادثه بحوالي ٣,٥٪ من كامل كتلة الوقود أي حوالي ٧ طن ، ومن الجرافيت بحوالي ١٠٠ طن . كما أن ٢٥٠ طنا من الجرافيت أصبحت وقودا للنيران . وقدرت الطاقة الميكانيكية التي تولدت أثناء الانفجار بما يكافيء بضع مئات من الكيلو جرامات من مادة ت . ن . ت .

وطبقا لتقديرات ٦ مايو ١٩٨٦ كان المحتوى الاشعاعي لقلب المفاعل وقت الحادثة حوالي ١٠٠٠ ميجاكوري . ويلغ الانطلاق الكلي الى البيئة من الغازات الهامدة المشعة حوالي ٥٠ ميجاكوري ومثلها من النويدات المشعة الاخرى . ومن حيث التقسيم النظيري للمواد المنطلقة نسبة للمحتوى الاشعاعي فقد انطلقت كل الغازات الهامدة ، ١٠ ـ ٢٠٪ من النويدات المتطايرة : اليود ، السيزيوم ، التيلوريوم ، ٢ ـ ٦٪ ومن النويدات الاخرى : الباريوم ، السترونشيوم ، نويدات ما بعد اليورانيوم ، السيريوم ، الروثينيوم ، الزركونيوم ، الموليبدنيوم . ومن حيث النشاط الاشعاعي للمواد المنطلقة الاكثر أهمية فقد بلغ ٤٦ ميجاكوري زينون ١٣٣ ، ٧ ميجاكوري يود ١٣١ ، ١/٢ ميجاكوري سيزيوم ١٣٤ ، ميجاكوري واحد سيزيوم ١٣٧ ، ٢,٢ ميجاكوري سترونشيوم ٨٩ ، ٠,٢٢ ميجاكوري سترونشيوم ٩٠ ، ٠,١٤ ميجاكوري بلوتونيوم ٢٣٨ ـ ٢٤١ . ويقدر أن ٥٠٪ من اجمالي النويدات المنطلقة قد ترسب في منطقة الـ ٣٠ كيلو متراً المحيطة بالمحطة ، بينما ترسب الباقي في الاتحاد السوفياتي أساسا وفي بعض الدول الاخرى تبعا لمسار السحابة المشعة .

وقد طوقت السحابة المشعة مدينة بريبيات (الخاصة بالعاملين بالمحطة والتي تقع على بعد ٣,٥ كم منها وذات ال ٤٥ ألف نسمة) ملوثة إياها بالتدريج ، حيث وصلت جرعة التعرض الى ٠,٧٢ ـ ١,٠ رونتجن/ساعة في منطقة شارع كورتشاتوف (الأقرب للمحطة) الساعة الخامسة صباح ٢٧ أبريل .

وكان قد تم إحاطة سكان المدينة مع أول ضوء صباح السبت ٢٦ أبريل بأبعاد الحادثة مع نصحهم بعدم مغادرة المنازل وعدم فتح الابواب أو النوافذ . ومر عليهم متطوعون لتوزيع أقراص اليود بهدف تحديد جرعة الدخول للغدة الدرقية . كما أغلقت المدارس ورياض وحضانات الاطفال . وأدت هذه التدابير الى خفض جرعة التعرض للجمهور الى ما أعتقد أنه ٢ ـ ٥ مرات أقل من المستويات خارج المنازل . بذلك قدرت الجرعة الأكثر احتمالا لأغلب السكان لتكون ١,٥ ـ ٥ راد جرعة جامية ، ١٠ ـ ٢٠ راد جرعة بائية للجلد ، مقارنة بـ ١٠ راد جرعة خارجية و ١٠٠ راد جرعة بائية للجلد كجرعة قصوى للمجموعات الحرجة من السكان في المناطق المفتوحة .

وقد اتخذ قرار إخلاء مدينة بريبيات (والمناطق المجاورة) عندما أظهر تقدير الحالة الاشعاعية بالمنطقة أن تعرض الجمهور قد يقترب من الحد الادنى للتدخل في ظروف الحوادث الاشعاعية وفقا للمعايير السوفيتيه ، وهو ٢٥ راد تعرض جامي خارجي لكامل الجسم ، إن لم يكن من حد الالزام بالتدخل ، وهو ٧٥ راد تعرض جامي خارجي لكامل الجسم . وطبقت نفس المعايير على القرى الاخرى المنكوبة الأكثر تلوثا بمسار السحابة ، حيث وصلت الجرعة الخارجية للجمهور الى ٣٠ ـ ٤٠ راد . وبلغ من ماتم ترحيلهم ١١٥ ألف فرد .



شكل (٤): التسلسل الزمني لحادثة الوحدة الرابعة بمحطة تشرنوبيل الكهروذرية.

وقد تحمل العاملون بموقع المحطة أثناء الحادثة وعددهم ٤٤٤ فردا ومن انضم اليهم من رجال الاطفاء الصلاحة الاولى للتعرض الاشعاعى . وبلغ اجمالى المصابين بالاعتلال الاشعاعى والحروق الجلدية بأشعة بيتا حوالى ٣٠٠ فرد توفى منهم ٢٩ فردا وتراوحت جرعة التعرض للفرد بين ٢٠٠ و ١٦٠٠ ريم .

ووصل تلوث الحليب باليود ١٣١ أقصاه بعد ٣ أيام من الحادثة حين تراوح التركيز بين ١ و ١٠ ميكروكورى/ لتر في المناطق المجاورة للحادثة ؛ أى عدة عشرات المرات فوق الحد العيارى المقرر في الاتحاد السوفيتى لمنع استخدام الحليب أثناء الحوادث النووية وهو١ ر - ميكروكورى / لتر . وخلال مايو ١٩٨٦ كان ٢٠ - ٣٠٪ من الحليب المجمع من عدة محافظات بجمهوريه روسيا البيضاء يحتوى على نسبة من اليود ١٣١ تزيد على الحد العياري المقرر .

أظهرت قياسات تحميل الغدة الدرقية بنظائر اليود في الافراد الذين هجروا بريبيات الى المراكز القريبه للايواء أن ٩٧٪ من الذين فحصوا قد تعرضوا لجرعات أقل من ٣٠ راد (الحد الادنى للتدخل من حيث تعرض الغدة الدرقية) . وفي ٢٪ من الحالات تراوحت الجرعة بين ٣٠، ١٠٠ راد . ولاقل من ١٪ من الذين فحصوا وصلت الجرعة الى ١١٠ - ١٣٠ راد .

وقدر متوسط تركيز السيزيوم ١٣٧ في الحليب المباع للجمهور طبقا للنظام المركزى ب ١٦ر١ نانوكورى / لتر (٤٣ بكريل / لتر) في روسيا البيضاء ، ٥٤ر٠ نانوكورى / لتر (٢٠ بكريل / لتر) في مناطق غرب أوكرانيا ، ٣٢ ر ٠ نانوكورى / لتر (٢١ بكريل / لتر) في الناطق المركزية للجزء الاوربى من روسيا الفيدرالية ، وفي اللحوم كان تركيز السيزيوم ١٣٧ في المناطق المذكورة ٢ - ٤ مرات أعلى منها في الحليب . ويتوقع أن يستمر التلوث بالسيزيوم ١٣٧ بعد الحادثة بعمر نصف انتقال المنتجات الزراعية مميز للاتحاد السوفيتى مقداره ٤ ر ٨ سنة .

ومن حيث التعرض الاشعاعى خلال السنة الاولى فان ٥٣٪ كان نتيجة للتعرض الخارجى من التساقط المشع المترسب على سطح الارض منها ٦ ر ٧٥٪ من اليود والنظائر المشعة الاخرى قصيرة العمر والباقى توزع بالتساوى تقريبا بين السيزيوم ١٣٤ (١ ر ١٣٪) والسيزيوم ١٣٧ (٢ ر ١١٪) .

ومن حيث الجرعة الملتزمة فان ٦٠٪ يرجع للتعرض الجامى الخارجي الناتج عن التساقط المترسب على سطح الارض و ٣٨٪ - للتعرض الداخلي نتيجة لتناول المنتجات الغذائيه الملوثه .

جرعة العمر تأتى أساسا من السيزيوم ١٣٧ - لطول عمر النصف له - الذى يكون ٧٠٪ من التعرض الخارجى للجمهور الناتج عن التساقط المترسب على سطح الارض من الحادثة .

ومن حيث الآثار الصحية اللاحقة بلغت الجرعة المجمعة الملتزمة لجمهور عموم الاتحاد السوفيتى ١٢ مليون رجل . ريم منها ٢٧٪ للسنة الاولى بعد الحادثة . ذلك يعطى لحالات السرطان الاضافيه المتوقعة حوالى ١٥٠٠ حالة ولحالات التشوهات الوراثية حوالى ٦٠٠ حالة .

وخلال العامين ٨٦ ، ٨٧ أجريت الفحوص الطبية الشاملة على أكثر من مليون شخص من مناطق التعرض . وشملت الفحوص الاختبارات المعملية والمتابعة الاشعاعية . وتم إنشاء نظام للتسجيل الصحي للمتابعة الطبية الحيوية لجميع المتعرضين للحادثة من العاملين والجمهور .

وتقدر الخسائر الاقتصادية للاتحاد السوفيتي الناجمة عن الحادثه شاملة التعطل الجزئي للوحدات ١ ، ٢ ، ٣ وإحاطة الوحدة الرابعة بتابوت خرساني ، وإيقاف العمل مؤقتا بالوحدتين ٥ ، ٦ تحت الانشاء بالمحطة ، وتكاليف تعديل التصميم للوحدات العاملة من هذا النوع من المفاعلات وعددها ١٤ وحدة ، وتكاليف ازالة التلوث للموقع والمنطقة . . . الخ بمامقداره ١٦ مليار روبل .

وقد كان لحادثة الوحدة الرابعة لمحطة تشرنوبيل الكهروذرية آثار اشعاعيه بالغة تعدت حدود الاتحاد السوفيتي ، حيث أدت الظروف الجوية أثناء وبعد الحادثة الى انتشار واسع للتلوث الاشعاعي شمل أغلب الدول الاوربية . وكانت أكثر الدول الاوروبية تعرضا : السويد ، بولندا ، سويسرا ، النمسا ، المانيا الاتحادية ، رومانيا ، بلغاريا ، المجر ، تركيا . وقد اهتمت هذه الدول وغيرها بقياس مستويات الاشعاع في الهواء والماء وعلى الارض ، كما وزعت أقراص اليود وحددت استخدام الحليب ومشتقاته والاغذية ووضعت نظاما صارما للرقابة على الاغذية المستوردة . ويعطى الشكل (٥) انتشار السحابة الاشعاعية الناجمة عن الحادثة على مستوى الكوكب[١٦] .

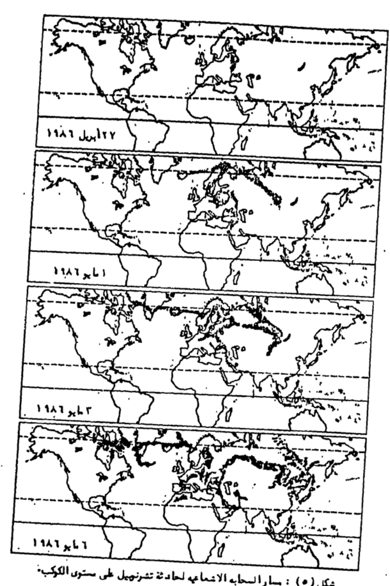
وكمثل حادثتي وندسكيل وجزيرة الاميال الثلاثه رفعت حادثه تشرنوبيل مستوى الاهتمام بـأمان المفـاعلات النووية ، ومعضلات الحمايه من الحريق ، وخطط الطوارىء الاشعاعيه ، وتحسين التصميم ، ورفع مستوى التدريب والانضباط ، والعلاقه بين الانسان والآلة ، . . . الخ .

٦ ـ التداول غير المرخص به للمواد المشعة (٩ ، ٢٩ ، ٣٦)

ويشمل هذا التداول : الفقد ، والسرقه ، والعبث بالمواد والمصادر المشعة واى تصرف آخر متعمد يستتبعه ضرر إشعاعي للمتداولين أو البيئة . وقد تزايد استخدام النظائر المشعة في البحوث ، والطب ، والصناعـة ، والزراعـة وخلافه بما لايتسع المجال لذكره . هذه النظائر أساسا من النـوع المغلق التي لايتوقـع منها ضـرر بيئي متى عوملت بحرص . كذلك فان منشآت عديدة تستخدم مصادر ثابتة تسهل السيطرة عليها .

الا أن بعض هذه المصادر بالغ الشدة (٥٠ كورى وأكثر) وهي لذلك خطرة ، وهناك امكانية فقدها في البيئة وحصول أفراد من الجمهور عليها ليس لديهم وعي بمدى الاخطار الكامنة فيها مما يمثل خطرا مميتة . وهناك حالات سجلت في المكسيك ، والمغرب ، والبرازيل أدت الى وفيات بين الجمهور نتيجه للتعرض الزائد للاشعاع .

- ففى عام ١٩٦٢ فقد في المكسيك مصدر مشع يستخدم في التصوير الصناعى بالاشعاع ونتج عن ذلك وفاة ٤ أفراد من الجمهور .



شكل (٥) : مسار السحابه الاشعاعيه لحادثة تشرنوبيل على مستوى الكوكب.

ـ وفي المكسيك نفسها في نهاية عام ١٩٨٣ تم تكهين وحدة كوبالت ٦٠ مشع تستخدم للعلاج في إحدى العيادات الطبيه . وبيعت هذه الوحدة كخردة . وأثناء النقل والتخزين تبعثرت آلاف من الكريات المعدنية الصغيرة المحتوية على مادة الكوبالت ٦٠ ، وتعرض الكثيرون وبخاصة الاطفال لجرعات إشعاعية عالية الا أن وفيات لم تحدث . وقد استخدم جزء من مادة الكوبالت هذه في تصنيع الصلب وأسياخ التسليح . واكتشفت الحادثة مصادفة عندما مرت إحدى السيارات التى تحمل الصلب الملوث أمام محطه للرقابه الاشعاعيه تابعة لمعامل لوس الاموس بالولايات المتحدة الامريكية وبدأ التقصى .

ـ وفي عام ١٩٨٤ بالمغرب فقد مصدرا يريد يوم ١٩٢ مشع للتصوير بالاشعاع في منشأه صناعية . وتبين أن أحد العمال كان قد التقطه واحتفظ به في منزله . وترتب على ذلك وفاة العامل وجميع أفراد اسرته (٨ أفراد) ، بالاضافه الى إصابة عدد من الجيران والمترددين باصابات اشعاعية خطيرة .

ـ وفي عام ١٩٨٧ حدثت أخطر حادثه تلوث إشعاعي بالمصادر المشعة بمدينة جويانيا بالبرازيل . وكانت عيادة خاصه للعلاج بالاشعاع بجويانيا بالبرازيل ـ ٩٥٠ كيلومتراً الى الشمال الغربي من ريودى جانيرو ـ قد انتقلت في نهاية عام ١٩٨٥ الى مقر جديد لها ، تاركة في مقرها مصدرا قويا للتشعيع بالسيزيوم ١٣٧ بالمخالفة لشروط الترخيص ودون إخطار الجهات المختصة . ونتيجة لهجر المكان سرق شخصان في ٣١ سبتمبر ١٩٨٧ وحدة العلاج المتروكه وأخذاها للمنزل . في ١٨ سبتمبر أخرجت من تدريعها رأس التشعيع وبيعت كخردة . وفي ٢١ سبتمبر أتلفت كبسولة المصدر وانتشر في البيئة المحيطة المصدر الاشعاعى الذى كان على شكل ملح كلوريد السيزيوم ذى القابلية العالية للذوبان والانتشار . وقد تناوب الاطلاع على مادة المصدر أشخاص عده استرعاهم الوميض الازرق في الظلام ، كما تبادل الكثيرون أجزاء منه ونتج عن ذلك تعرض إشعاعى بالغ خارجي وداخلي . وظهرت على المتعرضين أعراض المرض وربط أحدهم بين مرضه والمصدر الغامض للوميض .

بذلك اكتشفت السلطات الصحية المحلية الحادثة في ٢٨ سبتمبر ١٩٨٧ ، وفور الاحاطة بأبعاد الحادثة أعلنت السلطات البرازيلية حالة الطوارىء الاشعاعية بمدينة جويانيا ، وأخلت المناطق المتأثرة ، وأجرت فحوصا طبيه للمتضررين ، وشكلت غرفة عمليات خاصة ، وطلبت مساعدة الوكالة الدوليه للطاقة الذرية في إطار ما وقع أخيرا من اتفاقية للمساعدة في حالة الحوادث النووية أو الطوارىء الاشعاعية . وقد أرسلت الوكالة الدولية للطاقة الذرية فريقا اختصاصياً وأجهزة ، كما شاركت دول أخرى في المساعدة . وقد وجد أن ٢٠ متضررا يحتاجون للعلاج في المستشفيات ، كما وجد ٢٨ آخرون ملوثين داخليا بطريقة محسوسة .

وخلال الشهرين اللاحقين أجري الفحص الطبي الشامل لاكثر من ١١٢ ألف شخص وأزيل التلوث من ٢٤٩ متعرضا . وقد توفى ٤ أشخاص من بين الاكثر تعرضا (جرعة كامل الجسم ٤٥٠ ـ ٦٠٠ راد) بينما نجا اثنان ، وتلوثت بيئة المدينة . وأظهر المسح الاشعاعى لمنطقة من المدينة مساحتها ٦٧ كم ٢ وجود ٧ بؤر للتلوث و ٨٥ منزلا ملوثا تم

إزالة التلوث منها . واستمرت عمليات إزالة التلوث حتى مارس ١٩٨٨ . وتم استرجاع نفايات مشعة نشاطها الاشعاعى حوالى ١٢٠٠ كورى من أصل ١٣٧٥ كورى شدة المصدر وقت الحادثة .

واستمر لوقت لاحق قياس مستوى السيزيوم المشع في التربة ، ومياه وقاع النهر المار بالبلدة ، والمياه الجوفية ، ومياه الشرب ، والهواء ، والمنتجات الغذائية بهدف تقويم الآثار الاشعاعية اللاحقة للحادثة .

وتوضح الحوادث السابقة مدى الأخطار الكامنة في التعامل مع المصادر المشعة وضرورة وجود نظام صارم للمراقبة والتحكم للأسباب الآتيه : ـ

ـ رخص المصادر لايبرر استخدام إجراءات أمن مكلفة .
ـ الكثير من المصادر متنقل حيث إجراءات المراقبه والتحكم غير كافية .

ويعطى الجدول (١١) عدد الحوادث النووية الهامة التى سجلت خلال الفترة ١٩٤٥ ـ ١٩٨٧ ، كما يعطي الجدول (١٢) بيانا بالوفيات في هذه الحوادث .

جدول (١١)

عدد الحوادث النووية الهامة المسجلة (١٩٤٥ ـ ١٩٨٧)

نوع المنشأة	عدد الحوادث	تعرض زائد	وفيات
منشآت نووية	٢٨ (٣٤,٦٪)	٢٧٢ (٦٣,٦٪)	٣٨ (٦١,٣٪)
منشآت غير نووية :			
منشآت صناعية	٤٢ (٥١,٨٪)	٨٤ (١٩,٦٪)	٢٠ (٣٢,٢٪)
منشآت بحثية	٧ (٨,٦٪)	١٠ (٢,٣٪)	—
منشآت طبية	٤ (٤,٩٪)	٦٢ (١٤,٥٪)	٤ (٦,٥٪)
اجمالى	٨١ (١٠٠٪)	٤٢٨ (١٠٠٪)	٦٢ (١٠٠٪)

جدول (١٢)

الوفيات في الحوادث النووية الهامة المسجلة

السنه	المكان	مصدر الاشعاع	عدد الوفيات	
			عمال	جمهور
١٩٤٥	لوس الاموس ـ الولايات المتحدة	تجمع حرج	١	—
١٩٤٦	لوس الاموس ـ الولايات المتحدة	تجمع حرج	١	—
١٩٥٨	فينكا ـ يوغسلافيا	مفاعل تجريبى	١	—
١٩٥٨	لوس الاموس ـ الولايات المتحدة	تجمع حرج	١	—
١٩٦١	ايداهو ـ الولايات المتحدة	مفاعل عسكرى تجريبى	٣	—
١٩٦١	سويسرا	طلاء به تريتيم	١	—
١٩٦٢	مدينة المكسيك ـ المكسيك	فقد مصدر تصوير بالاشعاع	—	٤
١٩٦٣	الصين	مشعع بذور	—	٢
١٩٦٤	المانيا الاتحادية	طلاء به تريتيوم	١	—
١٩٦٤	رود ايلاند ـ الولايات المتحده	منشأة استرجاع يورانيوم	١	—
١٩٧٥	بريسكيا ـ ايطاليا	مشعع أغذيه	١	—
١٩٧٨	الجزائر	فقد مصدر تصوير بالاشعاع	—	١
١٩٨١	أوكلاهوما ـ الولايات المتحدة	تصوير بالاشعه للصناعه	١	—
١٩٨٢	النرويج	جهاز تعقيم .	١	—
١٩٨٣	الارجنتين	مفاعل بحوث	١	—
١٩٨٤	المغرب	فقد مصدر تصوير بالاشعاع	—	٨
١٩٨٦	تشرنوبيل ـ الاتحاد السوفيتى	محطه قدرة نووية	٢٩	—
١٩٨٧	جويانيا ـ البرازيل	سرقة مصدر علاج بالاشعه	-	٤
اجمالى	٧١ حادث نتج عنها ٦٢ وفيات		٤٣	١٩

مصادر أخرى محتملة للتلوث الاشعاعى (٣٧ ، ٣٨)

بعض الاستخدامات المحتملة للمواد النووية والنظائر المشعة قد تضيف محسوسا للتلوث البيئى الاشعاعى مالم يتم التحكم في استخدامها بطريقة سليمة .

فهناك امكانية الاستخدام السلمى للتفجيرات النووية المحدودة في أعمال الهندسة المدنية مثل حفر القنوات أو المستودعات أو المناجم ، وانشاء الموانىء ، وإطلاق الغاز من مكامنه . ويمكن للمستوى التقنى الحالي إجراء تفجيرات متحكم فيها حتى حجم الميجاطن باستخدام مالا يزيد على بضعة كيلوآ طنان من الانشطار . وتساهم التقنيات المتطورة واستخدام وسائل التدريع المطعمة بمواد ماصة للنيوترونات في خفض النشاط الاشعاعى المستحث في المواد المجاورة بما يؤدى الى خفض كبير في النياط الاشعاعى المطلق الى البيئة . ويمكن النظر الى تفجير من هذا النوع على أنه مكافىء لقنبلة انشطار شدتها ٢٠ كيلوطن ت ن ت والباقى من عملية الاندماج . ويؤدى هذا التفجير الى إطلاق ٢٠ كيلو كورى من التريتيوم لكل كيلوطن . ويعتمد إطلاق نواتج التشعيع على نوع التدريع المستخدم والمواد المحيطة . ويتوقع أن تبلغ نواتج التشعيع في السحابة المشعة والتساقط اللاحق حوالى ٢ كيلو كورى ١٠٠ كيلوطن نصفها من الرصاص ٢٠٣ (203 Pb) والباقى أغلبه منجنيز ٥٦ 56 Mn ، وتنجستن ١٨٧ 187 W وصوديوم ٢٤ 24 Na .

هناك أيضا الاتجاه المتنامىٰ لاستخدام المصادر المشعة المغلقة كمصادر للقدرة الكهربية اللازمة لعمل أجهزة المركبات الفضائية ، وكذا الاستخدامات المنزلية في المناطق النائية . وهنا تستخدم عادة مصادر مغلقة من السترونشيوم ٩٠ بنشاط اشعاعى يصل إلى عدة آلاف أو عدة عشرات الآلاف من الكورى . وقد لايؤدى هذا الاستخدام الى تلوث بيئى في غير ظروف الحوادث ، كما أن التلوث قد يكون مجدياً في ظروف الحوادث . الا أن وجه الخطوره يتمثل في احتمال التوسع المستقبل في هذه التقنيات .

وهناك في النهاية ماستتركه لنا الصناعة النووية من مفاعلات ميتة انتهى عمرها الافتراضى (٣٠ ـ ٤٠ سنة عمل) . وفي عام ١٩٧٨ توقف عن العمل ١٧ مفاعلا نوويا على مستوى العالم . وحتى نهاية نفس العام وصل عدد المفاعلات بالولايات المتحدة التى انتهى عمرها الافتراضى ٦٥ مفاعلا ، ويتوقع أن يصل العدد الى ٣٠٠ مفاعل حتى نهاية ٢٠٠٠ . وفي المملكة المتحدة يتوقع توقف ٢٦ مفاعلا عن العمل بنهاية القرن [٣٨] . وينطبق هذا على الدول الاخرى المستخدمة للمفاعلات النووية وفي مقدمتها الاتحاد السوفيتى ، وفرنسا ، واليابان ، والمانيا الاتحادية ، وكندا . وفي أسوأ الحالات يمكن النظر الى المفاعلات المتوقفه على أنها مقابر مخلفات مشعة موضوعة تحت إشراف طاقم المفاعلات الجديدة في نفس الموقع . وليس بمستبعد في أفضل الحالات أن يتم تفكيك هذه المفاعلات ونقل المخلفات منها رغم التكاليف الكبيرة لهذه العملية والتى تقدر بحوالى ٢٥٠ مليون دولار للمفاعل تبريد الماء قدرة جيجاواط واحد كهرباء . وهنا يجب ألا تغطى الأعباء الاقتصادية على معضلات المخاطر الصحية والتى يجب أن تؤسس على اعتبارات متوازنه .

الخلاصة

تتعدد مصادر التلوث الاشعاعى للبيئة وهنا ينبغى توخى الحذر عند تقييم التأثيرات الصحية أو المخاطر المرتبطة بالتعامل مع المواد المشعة أو اطلاقها الى البيئة . وتميل التقييمات الحالية الى إعطاء وزن مهمل لهذه التأثيرات مقارنة بالانشطة البشرية الاخرى ، سواء من حيث الجرعة الكلية للجمهور أو احتمال حدوث المخاطر . ويرتبط ذلك بالتركيز على الاطلاقات الاشعاعية في ظروف التشغيل العادى للمنشأة النووية .

وقد أعطى تقرير راسموثين عن المخاطر من محطات القدرة النووية احتمالا لحادثة نووية كبيرة مرة كل ٨٠٠٠ مفاعل / سنة تشغيل . وفي الواقع حدثت ٣ حوادث كبيرة خلال حوالى ٤٠٠٠ مفاعل / سنة تشغيل ، أى بمعدل حادثة كبيره لكل ١٣٠٠ مفاعل / سنه تشغيل . ويرى بعض النقاد النوويين أن احتمال المخاطر في تقرير راسموثين قد يكون من الافضل زيادته الى ١٠٠ ضعف .

وفي تقديرى أن التشغيل العادى للمنشأة النووية مسئول عن جزء صغير فقط من المخاطر ، بينما ترتبط مخاطر كبيرة بالحوادث الكوارثية في : المفاعلات ، ومنشآت إعادة المعالجة ، ومنشآت تصنيع الوقود النووى ، ومنشآت تخزين النفايات الأشعاعية عالية المستوى ، وقطاع النقل ، و عمليات التداول غير المرخص به للمواد المشعة . وتنتج هذه المخاطر عن أخطار في التشغيل او التصميم أو عن الاعمال المتعمدة ، او عن كل ذلك .

ويعتقد ان أهمية كبرى يجب أن تعطى لتقدير المخاطر عن الحوادث ضئيلة الاحتمال عالية المخاطر ، وأن جهدا يجب أن يبذل لإشاعة استخدام المفاعلات النووية ذاتية الأمان ، ولتعميق ثقافة الأمان النووي بين العاملين في المنشآت النووية عن طريق برامج مناسبة للتدريب وإعادة التدريب . كما أن اعتبارات يجب أن تعطى لعمليات مراقبة البيئة الاشعاعية ولتوعية الجمهور بالمخاطر الكامنة اثناء التعامل مع المواد المشعة ولتعميق الالتزام بقواعد وإجراءات الوقاية من الاشعاعات المؤينة .

***

المراجع

(أ) باللغة العربية :

(١) د . حافظ قبيسى (اشراف) : الطاقة والذرة ، معهد الانماء العربي ، بيروت ١٩٧٨ .

(٢) د . خضر عبدالعباس حمزه ، د . غسان هاشم الخطيب : الطاقة الذرية واستخداماتها ، منشورات منظمة الطاقة الذرية العراقيه ١٩٨٤ .

(٣) د . محمد ناصف حسين قمصان : كنت في محطة تشرنوبيل الذرية ، جريدة الجمهورية القاهره ، مايو ١٩٨٦ .

(٤) د . ابراهيم فتحى حموده : القوى النووية والبيئة ، مجلة التنميه والبيئة (العدد الثانى) ، القاهره يوليه ١٩٨٦ .

(٥) سعود رعد : الاشعاع النووي ـ قصة تشرنوبيل ومستقبل البشرية ، جروس برس ، طرابلس ـ لبنان ١٩٨٦ .

(٦) د . محمد ناصف حسن قمصان : الحوادث النووية الاخيرة ـ الابعاد والانعكاسات ، انشاص ١٩٨٦ .

(٧) د . فوزى سسين حماد (اشراف) : تقرير جهاز التنظيم والامان النووي (هيئة الطاقة الذرية) عن حادث تشرنوبيل النووى ، القاهره ١٩٨٧ .

(٨) د . محمد ناصف حسين قمصان : النقل الآمن للمواد المشعة ، جمعية المهندسين المصريين ، القاهره ١٩٨٨ .

(٩) د . جابر محمد حسيب : كارثة البرازيل الاشعاعية ـ هل تتكرر في مصر ؟ جريدة الوفد ، القاهره ٢٨ أكتوبر ١٩٨٨ .

(ب) باللغة الانجليزية

(10) Martin, A., Harbison, .SA. : **An Introduction to Radiation Protection;** Chapman and Hall Ltd., London **1979.**

(11) Chazov, Y.I., Ilyin, L.A., Guskova, A.K. **Nuclear War** : Novosti Press, Moscow, **1984.**

(12) Gustafson, P.P. : 137 Cs in the U.S. Diet 1961-1968, in **Environmental Contamination by Radioactive Materials — Proceedings of a Seminar; IAEA,** Vienna, 1969.

(13) Borisov, B.K., Knijnikov, B.A., Petukhova, A.B. : Basic Pattern of ^{90} Sr uptaKe with Food, in **Environmental Behaviour of Radionuclides Released in the Nuclear Industry —** Proceedings of a Symposium; IAEA, Vienna, 1973.

(14) Scott Russell, R., Bruce, R.S. : Environmental Contamination with Fall-Out from Nuclear Weapons, in **Environmental Contamination by Radioactive Materials** — Proceedings of a Seminar; IAEA, Vienna, 1969.

(15) Booth, A.H., Samuels, E.R. : Fall-Out Sr-90 Levels in Canada, in **Environmental Contamination by Radioactive Materials** — Proceedings of a Seminar; IAEA, Vienna 1969.

(16) Heinrich, M., Schmidt, A. : **Der Atom Atlas-Nach Tschernobyl;** Wilhelm Heyne Verlag GmbH, Munchen, 1986.

(17) Peterson, Jr., H.T., Martin, J.E., Weaver, C.L. Harward, E.D. : Environ,ental Tritium Contaminatton, in **Environmental Contamination by Radioactive Materials** — Proceedings of a Seminar; IAEA, Vienna, 1969.

(18) **Information from IAEA,** Vienna, March, 1989.

(19) **Nuclear Power and the Environment** : IAEA, Vienna, 1973.

(20) Sterman, L.C., Tevlin, C.A., Sharkov, A.T. : **Thermal and Nuclear Power Plants,** Energoizdat, Moscow 1982 (in Russian).
(21) **Nuclear Power, the Environment and Man;** IAEA, Vienna, 1982.
(22) Choppin, G.R., Rydberg, J. : **Nuclear Chemistry Theory and Applications;** Pergamon Press, 1980.
(23) Knief, R.A. : **Nuclear Energy Technology;** McGraw Hill, 1981.
(24) Eichholz, G.G. : **Environmental Aspects of Nuclear Power;** Ann Arbor Science, 1980.
(25) Kahn, B. : Environmental Radiation Exposures and Associated Risks from Fuel Reprocessing Plants, in Energy and the Environment Cost-Benefit Analysis — Proceedings of a Conference; Pergamon Press, 1976.
(26) Preston, A., Jefferies, D.F.; Aquatic Aspects in Chronic and Acute Contamination Situations, in Environmental Contamination by Radioactive Materials — Proceedings of a Seminar, IAEA, Vienna, 1969.
(27) World Overview : Radioactive Waste Management **IAEA News Features No. 2;** IAEA, Vienna, 1988.
(28) Dunster, H.J., Howells, H., Templeton, W.L. : District Surveys following the Windiscale Incident October 1957; **2nd Unied Nation International Conference on the Peaceful uses of Atomic Energy** — Proceedings of the Conference V. 18; U.N. Geneva, 1958.
(29) Howells, H. : A Review of Some Past Emergencies, in **Environmental Contaminaiton by Radioactive Materials** — Proceedings of a Seminar, IAEA, Vienna, 1969.
(30) Murray, R.L. : **Nuclear Energy;** Pergamon Press, 1980.
(31) Kato, W.Y. : TMI-2 and Reactor Safety, in **Operation Physics of Power Reactors** — Proceedings of a Course, ICTP, Trieste, 1982.
(32) USSR State Committeee on the Utilization of Atomic Energy, The Accident at the Chrenobyl Nuclear Power Plant and its Consequences (information compiled for the IAEA Experts Meeting, Vienna, 25-29 August 1986) Parts I and II.
(33) Summary Report on the Post-Accident Meeting on the Chernobyl Accident, **Safety Series No. 75-INSAG-1;** Vienna, 1986.
(34) Ilyin, L.A., and Pavlovskiy : Radiological Consequences of the Chernobyl Accident in the **Soviet Union,** IAEA Bulletin V. 29-4, 1987.
(35) Hennies, H.H. : Radiation Measurements in Germany Resulting from the Chernobyl Accident, **Nuclear Europe 7.8,** 1986.
(36)Radiation Sources : Lessons from Goiania, **IAEA Bulletin V. 30-4,** 1988.
(37) Kenny, A.W. : Radioactive Contamination Arising from Peaceful Uses of Atomic Energy, in **Environmental Contamination by Radioactive Materials** — Proceedings of a Seminar, IAEA, Viennam 1969.
(38) **Radiation Safety and Protection of NPP, 9th ed, p. 38** Energoizdat, Moscow, 1984 (in Russian).

***

مطالعات

استراتيجية الكتابة النسائية

رشيدة بنمسعود

احتلت قضية انعتاق المرأة العربية واجهة الصراع الايديولوجي حتى أصبحت في صلب البرنامج المطلبي للنهضويين العرب ، كما أثارت عدة نقاشات ، وأفرزت مواقف متضاربة ، وآراء مختلفة . وقد لعب الأدب دور المنفعل الإيجابي بالتغيرات الاجتماعية والسياسية التي عرفها المجتمع العربي إبان النهضة ، إذ عمل على تعميق روح التمرد والثورة ضد ظلم المستعمر واستبداد الرجل . ولقد أتيحت للمرأة العربية بدخولها ميدان التعليم فرصة المساهمة والحضور الفعلي في مختلف الميادين بما فيها الميدان الادبي .

ومع مطلع الخمسينات ، تعالت صيحات نسوية مشحونة بالاحتجاج والثورة والرفض متمثلة في روايات ليلى بعلبكي ، وكوليت خوري ، وغادة السمان ، وليلى عسيران وغيرهن . وكان من نتيجة صدور هذه الانتاجات الأدبية أن اتجهت أنظار النقاد لا لقيمتها الفنية فحسب ، بل كتكريم واحتفال بمشاركة الجنس الآخر الذي أخذ الكلمة بدخوله الى ميدان اقتصر تاريخيا على الرجل . وابتداء من هذه الفترة سنلاحظ انتشار مصطلح جديد هو « أدب المرأة » .

لقد صاحب صدور مصطلح « أدب المرأة » أو « الكتابة النسائية » جدل حول مضمون هذه التسمية ، الظاهرة التي تتضمن إشكالية تصنيف الأدب على أساس الاختلاف الجنسي . ومن أجل أن يكتسب هذا المصطلح مشروعيته النظرية علينا أن نطرح بعض التساؤلات ، كما أننا سنحاول أن نتلمس جوابا لها عند أنصار هذا المصطلح ومعارضيه ، وذلك عن طريق تقديم أهم الآراء التي ناقشت هذا المصطلح : هل يوجد فعلا أدب نسائي ؟ هل تكتب المرأة بطريقة مختلفة عن تلك التي يكتب بها الرجل ؟ هل يوجد وعي عند المرأة الكاتبة بأنها تستعمل لغة مختلفة ؟

إن الناقدة يمنى العيد ترى أن المرأة بمساهمتها في هذا الميدان قدمت أدبا للأدب ؛ ومساهمتها هذه تتضمن عدة

دلالات ، تتعلق بخصوصية أدب المرأة ، هذه الخصوصية التي وقفت منها عدة دراسات موقف الرفض أو القبول . والكاتبة بمساهمتها الأدبية تهدف إلى تغيير موقعها في المجتمع الذي يتحدد تاريخيا خارج عملية الإنتاج الأدبي الذي يعتبر من الوسائل القوية الداعمة لسيطرة الرجل على المرأة . ومع أن أدب المرأة يتميز بخصوصية ما حسب رأي يمنى العيد ، فإنها تعتبر أن هذه الخصوصية ليست « خصوصية طبيعية ثابتة ، بل هي ظاهرة تجد أساسها في الواقع الاجتماعي التاريخي الذي عاشته المرأة » [1] ، بمعنى آخر ، ترى الناقدة أن خصوصية أدب المرأة ليست خصوصية فنية ، بل هي خصوصية صادرة عن وعي محدد لدى الكاتبة التي تنتمي إلى فئة اجتماعية ، تعيش ظروفا تاريخية خاصة . من أجل هذا لا تقر يمنى العيد بوجود خصوصية ثابتة لأدب المرأة ، ما دامت هذه الخصوصية تتحدد بعالم المرأة الصغير الذي هو عالم الهموم الذاتية التي تعتبر الصدامية بين المرأة والرجل وجها من وجوه العجز عن « استيعاب التجربة الاجتماعية الإنسانية استيعابا شموليا عميقا[2] » .

استنادا إلى هذا التصور ، ترى الناقدة يمنى العيد أن أدب المرأة يتصف برؤية محدودة لأنه يتمركز حول عالم الذات عن طريق التعبير عن همومها بلهجة استسلامية من أجل البحث عن الحرية ، ورفض السلطة الذكورية دون التساؤل عن الجذور الاجتماعية لهذه الوضعية ، مما يؤدي إلى السقوط في الاستيلاب حسب رأي جورج طرابيشي ، لأن المرأة المهووسة بالبحث عن الحرية والرغبة في تقويض السلطة الذكورية ، بعد فشلها في مغامرتها ، تعود إلى البحث عن رجل « لا لتتعايش معه من موقع التكافؤ ، بل من موقع المستسلم للواقع أو المضطر لأن يقبل بالرجل كبديل لهذا العالم [3] » .

ترى الناقدة يمنى العيد كذلك أن مساهمة المرأة في الإنتاج الأدبي تعتبر وسيلة من وسائل التحرر ، ومحاولة للتخلص من الوضع الفئوي . إنه « عملية تحرير لقدراتها الفكرية ومجال لممارسة مداركها ومشاعرها ولإنضاج رؤاها ، كما أنه سبيل لإغناء وعيها وتعميق لتجربتها بالحياة . إنه إمكانيتها الوحيدة لإقامة علاقة جمالية مع الواقع تعطيها فرصة الاستمتاع بفرح الإبداع[4] » .

غير أن يمنى العيد تحذر من الوقوف عند الخروج من الفئوية التي تجعل إنتاج المرأة الأدبي يتمحور حول فكرة إثبات الذات و « إقامة البرهان على قدرة المرأة في أن تكون أديبة [5] » ، ليتسنى لها العبور إلى المعسكر الآخر ، مما يؤدي إلى طبع مساهمة المرأة الأدبية بسمات التحدي ، ويجعل المشكلة - في رأي الناقدة يمنى العيد - تنحرف عن صعيدها الاجتماعي لتستوي على صعيد الجنس ، فتصبح المساواة بالرجل هي الغاية التي تهدف

---

(١) يمنى العيد « مساهمة المرأة في الإنتاج الأدبي » مجلة « الطريق » العدد ٤ - نيسان/ ١٩٧٥م ، ص : ٦٦ .
(٢) نفس المرجع ص : ٦٩ .
(٣) المرجع السابق ، ص : ٦٧ .
(٤) نفس المرجع ص : ١٤٣ .
(٥) نفس المرجع ص : ١٤٣ .

إليها المرأة ؛ بينما المسار السليم لنضالها ـ حسب رأي يمنى العيد ـ يتحدد باحتلال موقع في المجتمع ، وفتح علاقة مباشرة معه .

بناء على هذا التصور ، سيأتي نتاج المرأة الأدبي « كمساهمة فنية راقية في طرح قضايا المجتمع ومعالجتها ، وهو إذ يعالج قضايا المرأة ، لا يعالجها كقضايا ذاتية سجينة في أنثويتها ، بل يعالجها كقضايا اجتماعية تتحدد في إطار العلاقات والمفاهيم الاجتماعية ، ويظهر ما فيها من خصوصية ، على أساس هذه العلاقات والمفاهيم وبسبب منها ، لا على أساس طبيعة في المرأة أو بسبب منها »[٦] .

وتختم الناقدة حديثها في المقال المذكور أعلاه برفض مقولة التمييز بين الأدب كمفهوم عام ، والأدب النسائي كمفهوم خاص ؛ ولا تعترف إلا بوجود « نتاج ثوري يلغي مقولة التمييز بين الأدب النسائي والأدب ، كما يلغي مقولة الخصوصية النسائية كطبيعة تعيق مساهمتها في ميادين الإنتاج الاجتماعي والتي منها الأدب[٧] »

إن تصور يمنى العيد في معالجتها لإشكالية « أدب المرأة » ـ كما رأينا ـ يمكن تلخيصه في تأكيدها على دور الواقع الاجتماعي في تفسير الممارسة الأدبية عند المرأة ، وهي رؤية تقوم على خلفية معرفية ذات توجه ماركسي تقول بتوحيد الطاقات ـ المرأة والرجل ـ من أجل تحقيق التحرر الاجتماعي الوطني للشعوب المناضلة .

إن هذا الطرح الماركسي الذي يقوم على نظرة ميكانيكية دوغماتية ، يتعامل مع الأدب كانعكاس مباشر للواقع المادي ، لا يستطيع أن يقدم تعبيرا مقنعا لظاهرة « أدب المرأة » ، لأنه ينكر دور الذات المبدعة التي يمر عبرها الإبداع الأدبي « المرأة كخصوصية » كما أن التجارب الاشتراكية في البلدان التي قطعت أشواطا كبيرة في تبني الاختيار الاشتراكي تؤكد عدم صحة مثل هذه الطروحات .

فلو كان واقع « أدب المرأة » بهذه البساطة التي تقدمها الناقدة يمنى العيد ـ التي ترى في زوال أشكال القهر المادي ، وتغيير الشرط الاجتماعي سببا في زوال خصوصية ظاهرة « أدب المرأة » ـ لما وجدنا استمرارا لنفس الظاهرة في البلدان الاشتراكية . وهذا ما عبر عنه الدكتور عبدالكبير الخطيبي الذي يرى أن التحرر الاقتصادي وحده لا يؤدي حتما إلى تحرير المرأة على المستوى الثقافي والأدبي « فلا بد من انتظار طويل قبل أن تخاض المعركة ، لا على مستوى البنية التحتية ووسائل الإنتاج الثقافي فحسب ، بل وعلى مستوى العمل الفني نفسه ، أي فيما يتصل بتوجيه الفكر والحساسية[٨] »

وبالرغم من اتفاقنا مع الناقدة يمنى العيد على دور العامل الاجتماعي ليس كمرجع وحيد في تفسير خصوصية الكتابة النسائية ، فانه يجب قراءة هذا الأدب من منظور بيولوجي لا كمؤشر للدونية والضعف واحتقار قدرات المرأة الفكرية ، بل كمنطلق لرد الاعتبار إلى الذات الأنثى .

هذا الاتجاه العام في مناقشة مصطلح « أدب المرأة » ـ كما هو الشأن عند يمنى العيد ـ يمكن أن نصفه عموما

---

(٦) المرجع السابق ، ص : ١٤٤ .

(٧) نفس المرجع ، ص : ١٤٤ .

(٨) د . عبدالكبير الخطيبي « الرواية المغربية » ترجمة محمد برادة . منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ـ الرباط/ ١٩٧١ ، ص ٥٨ .

بالقراءة الخارجية لهذا الأدب . بمعنى أنه يبحث عن الشرط الاجتماعي والسياسي لتفسير ظهور هذا المصطلح دون القيام بتفكيك داخلي لمشروع هذه التسمية .

سنجد أيضا أن دارسا مثل الدكتور حسام الخطيب ، رغم تأرجحه وتردده في قبول هذا المصطلح ، فإنه ينتهي إلى نفس القراءة الإيديولوجية لأدب المرأة . ففي دراسته « حول الرواية النسائية في سورية » يرى أن مصطلح الأدب النسائي يتحدد من خلال التصنيف الجنسي ، وليس من خلال المضمون وطريقة المعالجة . وحسب رأيه ، فإن هذا المصطلح لن يكتسب مشروعيته النقدية إلا إذا كان يعكس المشكلات الخاصة بالمرأة « تثير المصطلحات الدارجة - كما يقول حسام الخطيب - مثل (الأدب النسائي) و (أدب المرأة) كثيرا من التساؤلات حول مضمونها وحدودها . وفي الأغلب تتجه الأذهان ، لدى سماع مثل هذه المصطلحات ، إلى حصر حدود هذا المصطلح بالأدب الذي تكتبه المرأة ، أي بتحديده من خلال التصنيف الجنسي لكاتبه لا من خلال المضمون وطريقة المعالجة . ويترتب على ذلك أن تكون الأهمية النقدية لمثل هذا المصطلح ضئيلة جدا اللهم إلا إذا انطوى مفهومه على اعتقاد بأن الإنتاج الأدبي للمرأة يعكس بالضرورة مشكلاتها الخاصة ، وهذا هو المسوغ الوحيد الذي يمكن أن يكسب مصطلح (الأدب النسائي) مشروعيته النقدية[9] » .

إن تصور الدكتور حسام الخطيب لمفهوم الأدب النسائي يتأرجح بين موقفين : الأول هو الاعتراف المشروط بهذا المصطلح ، والثاني هو أن الكتابة على الطريقة النسائية ، التي تتمحور حول مشكلات المرأة ، ليست حكرا على النساء وحدهن ، بل « . . هناك أدباء كثيرون - ولا سيما من بين كتاب القصص النفسية والغرامية - أولوا القضايا الخاصة بالمرأة اهتماما مركزيا كإحسان عبدالقدوس مثلا[10] » .

أما الاعتراف بشرعية مصطلح « الأدب النسائي » المشروط الذي جاء في مقدمة دراسة الدكتور حسام الخطيب ، فقد اتخذ تدرجا سلبيا في اتجاه رفض هذه التسمية . فبعد أن أشرك الرجل في خصوصية الكتابة النسائية ، نجده يفضي إلى القول بأن هذه الخصوصية تتضاءل كلما تقدم الوعي الاجتماعي ، لأن حل مشكل المرأة سيتم مع حل المشكلات العامة للمجتمع ، بمعنى أنه « كلما تقدم المجتمع أو ازداد الوعي الاجتماعي تضاءلت الأهمية الذاتية لخصوصية (الأدب النسائي) ، لأن مشكلات المرأة الخاصة عند ذاك تصب في بحر المشكلات العامة وتستقي جذورها من مشاكل الطبقة أو الشريحة الاجتماعية التي تنتمي إليها المرأة وتجد حلها في الحل الاجتماعي العام بحيث تصبح معاناة المرأة - ونضالها كذلك - جزءا طبيعيا من معاناة ونضال الطبقة أو المجتمع أو الوطن[11] » .

وهكذا ، نجد أن هذا الدارس ، رغم ملاحظته المتقدمة حول وجود خصوصية في الأدب النسائي تحضر حتى عند الرجل ، لا يحاول البحث الداخلي عن مكونات هذه الخصوصية ، مما قد يفسر تسمية أدب كاتب مثل إحسان عبدالقدوس بكاتب على الطريقة

---

(٩) د . حسام الخطيب « حول الرواية النسائية في سورية » مجلة « المعرفة » العدد ١٦٦ - كانون الأول/ ١٩٧٥م ، ص ٧٩ .

(١٠) نفس المرجع ص : ٨٠ .

(١١) نفس المرجع ص : ٨٠ .

النسائية ، وإنما يعلل هذه الظاهرة بالنزعة الذاتية في الكتابة النسائية التي سوف تنتهي بارتفاع الوعي الاجتماعي عند المرأة الكاتبة .

أما غادة السمان ، بصفتها كاتبة ممارسة للإبداع ، فقد حاولت أن تقدم تفسيرا مختلفا لمصطلح « الأدب النسائي » ، يصل هو الآخر في نهاية الأمر إلى نفس النتيجة . إنه عبارة عن نظرة من الخارج ، وموقف مسبق يصادر على القضية دون مقاربتها موضوعيا عن طريق محاولة تفكيك خصائص الكتابة النسائية . تقول غادة السمان ردا على سؤال وجه إليها يتعلق بموقفها من « أدب المرأة » : « ـ هذا السؤال حقل ألغام إذ أن مجرد الإجابة عليه تتضمن قبولا ضمنيا بما ورد فيه ، الأمر الذي لا أرضاه . . . . فلنبدأ بغربلة السؤال ، وإعادة النظر فيها يمكن أن تعنيه بعض تعابيرك (إحدى الأقلام النسائية الشابة) ، (مفهوم القصة النسائية القصيرة) ، (أدب الأديبات) . . . واضح من تعابيرك هذه أنك تميز بين صنفين من الأدب : أدب نسائي وأدب رجالي . وتلك قضية طال الأخذ والرد فيها بلا مبرر في عالم أدبنا العربي المغرم بأي حوار عقيم[12] » . من هنا جاء رفض غادة السمان لكل تصنيف جنسي للأدب إذ « من حيث المبدأ ليس هنالك تصنيف لأدبين ، نسائي ورجالي[13] . . »

لكننا سنجدها في نهاية حديثها تعترف ببعض خصوصيات « الأدب النسائي » المتمثلة في وجود بطلة ترفض ، وتحتج وتطالب . تقول الكاتبة في هذا الصدد : « لدينا في نتاجهن دوما بطلة . دوما متوترة . دوما تطالب بحقوقها . . دوما تكتب عن تجاربها[14] » . وتذهب غادة السمان في تفسيرها لجذور مصطلح « الأدب النسائي » إلى القول بأن هذه التسمية « نابعة إما من أسلوبنا الشرقي في التفكير ؛ وقياسا على المبدأ القائل : (الرجال قوامون على النساء) خرج نقادنا بقاعدة ـ على طريقة المنطق الصوري ـ تقول : « الأدب الرجالي قوام على الأدب النسائي »[15] » . وإما أن تكون تسمية الأدب النسائي انعكاسا لواقع يتجسد في كون أن « أكثر نتاج الأديبات قبل أعوام كان لا يدور إلا حول موضوع المرأة وحريتها وتمردها وقلقها و . . .[16] » .

وإذا لم يكن مصطلح « أدب المرأة » ناتجا عن الأسلوب الشرقي في التفكير حسب رأي غادة السمان ، أو منحدرا من طغيان الضغط الاجتماعي الذي بدأ مع وعي المرأة بذاتها ودورها في الحياة العامة ، يبقى احتمال أخير حسب غادة السمان ، ففي حالة عدم اتفاقنا مع رأيها الأول ، ترى أن تسمية مساهمة المرأة الأدبية « بالأدب النسائي » تعود إلى فصيلة ذوات « تاء

(١٢) هذا الحوار أجراه مع الكاتبة غادة السمان مراسل ملحق الأنوار الأدبي وهو مذكور من طرف الدكتور حسام الخطيب ضمن دراسته « حول الرواية النسائية في سورية » مجلة « المعرفة » العدد ١٦٦ كانون الأول/ ١٩٧٥ ، ص ، ٨٠ ـ ٨١ .

(١٣) نفس المرجع ص : ٨١ .

(١٤) انظر : د حسام الخطيب « حول الرواية النسائية في سورية » مجلة « المعرفة » العدد ١٦٦ ـ كانون الأول/ ١٩٧٥م ، ص ، ٨١ .

(١٥) نفس المرجع ص ، ٨١ .

(١٦) نفس المرجع ص ، ٨١ .

التأنيث » . في هذه الحالة يبقى المصطلح فارغا من أي محتوى لأنه « لا قيمة لهذه التسمية في إلقاء أي ضوء (تقييمي) على نوعية هذا الأدب أو مستواه . . ربما على (موضوعه) فقط[17]

إذا كان لنا من توضيح لهذا الرأي الذي تتحدى به غادة السمان الذين يتبنون مصطلح « الأدب النسائي » ، فإن ذلك مرجعه في رأينا إلى قصور الخطاب النقدي العربي في التنظير لهذه الظاهرة الشيء الذي لا يعني نفيا لوجودها ، وإنما هو تأكيد على وجود واقع لم يصل النقد العربي بعد إلى إدراكه . والدليل على ذلك هو أن الجميع بمن فيهم غادة السمان يلامسون جانبا من الظاهرة عندما يشيرون إلى بعض الخصوصيات الحاضرة في الكتابة النسائية . وبالرغم من أن غادة السمان لا تفرق داخل الأدب بين ما تكتبه المرأة وبين ما يكتبه الرجل ، لأن الأدب قيمة إبداعية ، ولا تعير اهتماما لجنسية المبدع ، فإنها تدرك الفرق دون أن تقدم له تفسيرا .

أما القصاصة إملي نصر الله ، فإنها تقاسم غادة السمان نفس الرأي . فبالرغم من أنها ترى أنه لا فرق بين أدب تكتبه المرأة وآخر يكتبه الرجل ، تعتقد أن « للأدب الذي تكتبه المرأة نكهة أخرى . وهو في بعض الحالات يعكس تجارب شخصية ، وأحاسيس ، عاشتها ، دون الرجل وبخاصة حين كان جدار العزلة يرتفع بين الجنسين . كذلك هناك أمور قد تلفت انتباه المرأة وحسها ، بينما لا تحرك حسا لدى الرجل . إنما هذه كلها خارجة عن القيمة ، ويمكن أن نردها إلى موقع الكاتبة من المجتمع[18] » .

أما بالنسبة للمبدعات المغربيات ، فإننا نلاحظ أن قضية الكتابة النسائية لم تثر سجالا عندهن ، ولم تطرح كقضية إبداعية ، كما أنها ليست تعبيرا عن معاناة بوجود إشكالية ما تستحق الدراسة . ولهذا جاءت آراؤهن عبارة عن أجوبة على أسئلة صحفية تعاملت معهن كنساء مبدعات فقط . وهكذا نجد أن القصاصة خناثة بنونة ـ في جوابها على سؤال طرحه عليها بول شاوول حول إمكانية وجود أدب نسائي في المغرب تقول : « أعتبر هذا التصنيف « رجاليا » ، من أجل الإبقاء على تلك الحواجز الحريمية الموجودة في عالمنا العربي ، وترسيخها وتدعيمها حتى في مجال الإبداع . في ما يتعلق بالمغرب ، هناك بدايات ومواصلة لا بأس بها في الإنتاج الأدبي ، ولو بشكل قليل في عالم المرأة ، مع العلم أني أرفض بشكل مسبق هذا التصنيف على أساس أن الإنتاج يعطي نفسه ويملك الحكم عليه في ما يقدمه دون اعتبار للقلم سواء أكان رجاليا أم نسائيا[19] » . وفي جوابها على سؤال آخر يتعلق بمبررات وجود مصطلح « الأدب النسائي » في الوضع الراهن تقول خناثة بنونة : « إذا أخذنا وجهة النظر هذه يكون التصنيف مبررا . لكن عند الجيل الجديد الذي يحمل أفكارا متطورة ويقوم الوضع ضمن متطورات واقعية وحديثة ، يصبح إبقاؤها على هذه التصنيفات نوعا من الظلم

---

(١٧) نفس المرجع ص ، ٨١ .

(١٨) من حوار مع القصاصة إملي نصر الله أجرته : ماجدة صبرا تحت عنوان « قراءة تمزق جدار الشرنقة » مجلة « الشراع » العدد ١٠٤/ الاثنين ١٢ آذار سنة ١٩٨٤م ، ص ، ٦٠ .

(١٩) بول شاوول « علامات من الثقافة المغربية الحديثة » المؤسسة العربية للدراسات والنشر . الطبعة ١ ـ آب (أغسطس)/ ١٩٧٩م ، ص : ٥٣ .

للمرأة وإدانة لها . كما تمثل تناقضا بين القناعات النظرية والتطبيقات الواقعية . لكنني أعتبر أن كل هذه التصنيفات عابرة إذا كانت المرأة تمتلك الجدارة الفكرية والاجتماعية . أعتبر أنها حتما ستبطل هذه التصنيفات بشكل سلمي أو غير سلمي[٢٠] » .

وفي نفس الموضوع ، نجد أيضا أن رأي الشاعرة مليكة العاصمي يلتقي مع نفس الرأي الذي عبرت عنه خناثة بنونة مع أن الفرق بينهما يكمن في أن الشاعرة مليكة العاصمي تعترف بوجود سمات خاصة تميز هذا النوع من الأدب بصفته أدب فئة من المجتمع . ورغم ذلك ، فإنها لا تريد ان يقسم الأدب إلى أدبين تقول الشاعرة : « من الأكيد أن أدب المرأة يحمل سمات خاصة ، كما أن أدب كل المجتمع وكل فئة وكل طبقة يحمل سمات خاصة ، لكنني لا أميل إلى تقسيم الأدب كما يقسم العالم ذلك التقسيم النخبوي السائد ، الذي يجعل أدب الغرب أرقى أنواع الأدب ، وسيجعل أدب المرأة بالتالي في آخر السلم التراتبي النخبوي » .

وفي رأيي أن الغموض الذي ينسحب على وجهات النظر المقدمة لمفهوم مصطلح « الأدب النسائي » ، آت من عدم تحديد وتعريف كلمة « نسائي » التي تحمل دلالات مشحونة بالمفهوم الحريمي الاحتقاري ، وهذا ما يدفع المبدعات إلى النفور منه على حساب هويتهن ، فيسقطن بسبب ذلك في استيلاب الفهم الذكوري وهذا ما عبرت عنه كارمن بستاني بقولها : « إن حضور المرأة الموضوع ، في النص ، يقتضي حضور جسدها ، مما يجعل كتابتها تبدو جديدة وثورية بقدر ما تكون كتابة عن جسد الأنثى . وفي حين لم تشعر المرأة في السابق بجسدها ، أو أنها كانت تنظر إليه كما ينظر إليه الرجل ، إذ بها تعبر ، في كتابتها عن جسدها ، وتبوح من الداخل ، كيانا واحدا ، مقابل تلك النظرة إليه مجزأ ، في أدب « الرجل » . يمكن القول ، إذن ، إن كتابة المرأة هي كتابة من الداخل : داخل الجسد ، وداخل المنزل[٢٢] .

إن التفسير الوحيد لرفض الكتابة النسائية يمكن إرجاعه إلى شرطين أساسيين تؤكدهما جل المرافعات النظرية التي صاحبت ظاهرة « الأدب النسائي » . فلقد سبق أن أشرنا إلى غياب التصور النقدي الذي لم يصل إلى مستوى دراسة هذه الظاهرة وتفكيكها داخليا ، ولم يبحث عن أسباب وجود خصائصها المميزة . ومن هنا نتساءل : لماذا لا يتم التعامل مع الأدب النسائي بنفس الطريقة والمرتبة اللتين نتعامل بهما عند حديثنا عن كل أدب مهمش له خصوصيته ؟ إننا اليوم نسلم بوجود أدب للأقليات الثقافية ، ونقول بالرواية السوداء في امريكا وأدب الشطار ، فلماذا لا نقول بالادب النسائي ؟ .

كما أن تبرير هذا التبرم والرفض لمصطلح « أدب المرأة » وبالخصوص من طرف كاتباتنا رغم تأكيدهن على حضور نكهة أو خصوصية معينة لا يمكن إرجاعه الا الى الخوف من إلصاق تهمة الدونية بهن والرغبة في انتحال موقع الرجل .

نعتقد أن السبب في غياب قضية الخصوصية في الكتابة النسائية يعود إلى عوائق معرفية وتاريخية وسياسية

---

(٢٠) نفس المرجع ص ، ٥٣ .
(٢١) من حوار مع الشاعرة مليكة العاصمي أجراه معها عبدالإله التهاني الظفر « العلم الثقافي »/ السبت ١٧ ربيع الأول ١٤٠٦هـ ٣٠ نوفمبر ١٩٨٥م .
(٢٢) كارمن بستاني « الرواية النسوية الفرنسية »/ روليه ليري بطلة « التائهة » الفكر العربي المعاصر - العدد ٣٤/ ربيع ١٩٨٥م ، ص ، ١٢٣ .

يمكن تلخيصها في ضعف الخطاب النقدي الذي في غالبيته يمارس من طرف الرجال ، والذى تحت ضغط إيديولوجية ذكورية مركزية حاول أن يناقش الكتابة النسائية من منظور معايير المساواة على حساب الخصوصية . ويرتبط هذا العنصر العام بعامل فرعي يمكن إرجاعه الى أن الممارسة النقدية لم تتعاطها النساء باستثناء قلة أمثال (خالدة سعيد ويمنى العيد) ، إذ لم تحاول النساء الكاتبات أيضا إيجاد تصور نقدي يحدد خصوصية الكتابة النسائية ، ويقدم بالتالي الأسس النظرية التي ستقوم عليها كتابة نسائية تطالب بحقها في المساواة والاختلاف كحق طبيعي .

إن تعميم التصور الذي يلغي الاختلاف الجنسي عند كاتبات متقدمات ، رغم ترددهن في التأكيد على وجود نكهة وسمات خاصة في الكتابة النسائية ، أو وجود مواضيع نسائية ، يعود في رأينا إلى طبيعة التعامل مع الجسد في الثقافة العربية ، التي تقوم باقصائه تحت ثنائية القداسة/النجاسة . أما بالنسبة للعائق السياسي فان الخطاب السياسي في العالم العربي « مهما كانت طبيعة نباته يبقى مسكونا باعتبارات ذكورية قوية »[٢٣] .

قد نجد بعض الاشارات المتفرقة هنا وهناك ، والتي أكدت علاقة الكتابة بالجسد . فالدكتور عبدالكبير الخطيبي عند دراسته للوشم كشكل من أشكال الكتابة يرى أن هذا النوع من الكتابة على الجسد يختلف باختلاف الجنس الذكوري والأنثوي . فالمرأة « يمكنها أن تشم مقدمة جسدها ، بينما يكتفي الرجل بوشم يده ، أي الذراع والعضد ، بمعنى أن يد الرجل لا تغادر مجال الكتابة (تكتب وتكتب) ونحن بالإضافة إلى ذلك ، نشم مثلما نكتب ، أي أننا نعطي للجانب الأيمن امتيازا ، مما لا يحطم تناظر الجسم ، فالجسم مقسم إلى قسمين متناظرين بعلامة توازيه (حركة اليد الواشمة) من الجبهة ، إلى الذقن ، إلى ما بين النهدين . إنه خط تتفرع عنه الشهوة ، لا مركز له ، باستثناء مكان قراءته الخاصة ، وضلاله الخاص »[٢٤] .

إن التعامل مع جسد المرأة في إطار الوشم يختلف عن التعامل مع جسد الرجل ، وقد ينسحب هذا الاختلاف في التعامل مع الجنسين (رجل ـ امرأة) بالنسبة لكل أنواع الكتابات الأخرى . هذا يفيد أن الأنثى مختلفة عن الذكر ، بل المرأة هي تناقض الرجل ـ حسب تعبير نور الدين أناية .

من هنا يجوز لنا القول في إطار علاقة المرأة بالكتابة ، إن المرأة « تصوغ كتابتها بشكل مختلف تماما عن أشكال كتابة الرجل سواء أتعلق الأمر بالكتابة المخطوطة ، ام بأشكال الكتابات التي لا تتوقف المرأة عن ممارستها في علاقتها بجسدها ، فالمرأة باعتبارها كائنا مختلفا في تكوينه وجسده عن الرجل ، وباعتبار وجودها في مجتمع ذكوري ، تعمل على الدوام ، على إظهار جسدها بشكل مغاير »[٢٥] .

والسبب في ذلك أنه « . . . ليس لنا نحن والرجل ، الماضي نفسه ، ولا الثقافة نفسها ولا التجربة نفسها ،

---

(٢٣) ـ محمد نور الدين افاية « المرأة والكتابة » مجلة الوحدة السنة ١ العدد ٩ حزيران (يونيو) ١٩٨٥ رمضان شوال ١٤٠٥هـ ، ص٦٧ .

(٢٤) عبدالكبير الخطيبي : « الاسم العربي الجريح » ـ دار العودة بيروت ـ الطبعة ١/١ ـ ٩ ، ١٩٨٠ ، ص ٩٠ ـ ٥٩

(٢٥) نور الدين أفاية : « المرأة والكتابة » . « الوحدة » ص٦٩ .

فكيف يكون لنا ، والحالة هذه ، التفكير نفسه والأسلوب نفسه ؟ ذلك أن المرأة تكتب بشكل متميز عن الرجل ، لا سيما بعد أن تطورت العادات والتقاليد بفضل النضالات النسوية ، حيث لم يعد ينظر إلى هذه الخصوصية في أسلوب الكتابة على أنها تعبير عن دونية ومحدودية ، بل جرى التعامل معها كحق من حقوق المرأة في التمايز »[٢٦] .

في الندوة التي أقامها اتحاد كتاب المغرب بمكناس حول « القصة العربية » ، أثير سؤال حول وجود لغة نسائية في القصة ، كموضوع للمناقشة ، غير أن بعض المتدخلين بقي سجين التصور الذكوري الذي يرفع شعار التحرر النضالي مثل بحراوي[٢٧] الذي يقول :

« أنا لا أنكر أن هناك اضطهادا خاصا بالمرأة لكن هذه الضغوط خاصة بالكاتب ليس بالكتابة ، الخصوصية عند المرأة الكاتبة لا يمكن أن تدرس في مجال النقد » .

بينما يرى ادوارد الخراط[٢٨] أن الكتابة النسائية لها أسس ومبررات منها الفيزيقي والسيكولوجي . غير أن الاستثناء الوحيد في مداخلات هذه الندوة يبقى هو رأي الأستاذ محمد برادة الذي يرى أن « اللغة النسائية كمستوى من بين عدة مستويات ، هذا الطرح يجب أن نربطه بالنص الأدبي . والنص بطبيعته متعدد المكونات ، رغم الوسط هناك تعدد . المقصود باللغات داخل اللغة النسق لا القاموس . هناك كلام مرتبط بالتلفظ ، بالذات المتلفظة ، وليس المقصود أن ندرس نصوصا قصصية وروائية كتبتها نساء . ان الشرط الفيزيقي المادي للمرأة كجسد . هذا الوضع هو الذى يبرر أن نفترض وجود لغة داخل نصوص تكتبها المرأة .

يلتقي الرجل الكاتب والمرأة الكاتبة في اللغة التعبيرية واللغة الايديولوجية لكن هناك اللغة المرتبطة بالذات (ببعدها الميتولوجي) من هذه الناحية يحق لي أن أفتقد لغة نسائية ، فأنا من هذه الزاوية لا أستطيع أن أكتب بدل المرأة . لا أستطيع أن أكتب عن أشياء لا أعيشها . التمايز موجود على مستوى التمييز الوجودى . أنا لا استطيع أن اكتب بدل الرجل الأسود المضطهد[٢٩] .

إن محمد برادة يؤكد هنا حضور خصوصية في لغة الكتابة عند المرأة بالرغم من اشتراكها مع الرجل في اللغة التعبيرية واللغة الإيديولوجية . ونظرا لان مداخلة الأستاذ برادة كانت مرتجلة ولم تسعفه الطبيعة الشفوية لكي يشرح بتفصيل رأيه في شموليته ، فاننا سوف نعمل على وضع الخطوط العريضة من أجل قيام كتابة نسائية تدافع دون عقدة نقص عن حقها في الاختلاف .

بعد تحديدنا للعوائق المعرفية التي تقف أمام قيام نقد عربي يؤسس الأرضية العلمية للكتابة النسائية ، سوف نعتمد في تحديد خصوصية هذه الكتابة انطلاقا من تعريف النص الأدبي كما أتت به النظرية الحديثة متمثلة عند الشكلانيين الروس وخاصة رومان جاكبسون في تحديده لوظائف اللغة .

---

(٢٦) كارمن بستاني : « الرواية النسوية الفرنسية » ـ الفكر العربي المعاصر العدد ٣٤ ربيع ١٩٨٥ ـ ص : ١٢٢ .

(٢٧) بحراوي : « هل هناك لغة نسائية في القصة ؟ » مجلة « آفاق » العدد : ١٢ ـ أكتوبر ١٩٨٣ ، ص : ١٣٥ .

(٢٨) ادوارد الخراط : نفس المرجع ص : ١٣٥ .

(٢٩) محمد برادة : نفس المرجع السابق ، ص : ١٣٥ .

لقد انطلق هذا الألسني من تحديد مفهوم الخطاب حسب نظرية الإبلاغ Information ، وهكذا حدده في ستة عناصر أساسية وهي المرسل والمرسل إليه والرسالة وهي محتوى الإرسال ، وهي تستند إلى سياق وتقوم على سنن Code يشترك فيه طرف الجهاز ، وتربط المرسل بالمرسل إليه قناة هي أداة الاتصال أو الصلة Contact .

ولخصها في الرسم التالي :

السياق

المرسل   الرسالة   المرسل إليه[٣٠]

الصلة أو الاتصال

السنن

ويرى جاكبسون أن كل عنصر من هذه العناصر الستة تتولد عنه وظيفة لغوية مختلفة وهي :

و ـ المرجعية

الوظيفة التعبيرية   و ـ الشعرية   و ـ الإفهامية[٣١]

و ـ اللغوية أو الانتباهية

و ـ المعجمية

ان دافعنا لتقديم هذه الترسيمة لوظائف الخطاب عند جاكبسون هو أهميتها بالنسبة إلينا في تفسير خصوصية الكتابة النسائية ، وخاصة تعريف جاكبسون وأتباعه من الشكلانيين الروس لمفهوم « المهيمنة » La dominante « التي تجعل البحث في النص الأدبي بحثاً في الأدبية « La litterrarite » لأن « موضوع العلم الأدبي ليس هو الأدب لكن هو الأدبية » La litteraturnost « ، أي ما يجعل من الأدب أدبا ، وهكذا يصير النص الأدبي فضاء يحيل إلى ذاته Autoreferent ، ويقع فيه التركيز على الإرسالية التي تقوم بالوظيفة الجمالية وهي وظيفة أساسية . لا يعني هذا غياب الوظائف الأخرى ، بل انه يفيد حضورا مرتفعا للوظيفة الجمالية بالنسبة للوظائف الأخرى وهو ما عبر عنه جاكبسون بقوله : « إن تحديد الوظيفة الجمالية كمهيمنة على الأثر الإنشائي يسمح بتحديد سلمية مختلف الوظائف اللسانية داخل ذلك الأثر »[٣٣] .

ما يفيدنا من هذا التعريف لمفهوم الأدبية وللوظيفة الجمالية هو علاقتها بالكتابة النسائية، وحديث بعض النقاد الذين حاولوا أن يزيلوا خصوصية هذه الكتابة عن طريق الحديث عن واقع خارجي مرجعي أيديولوجي مشترك بين الرجل والمرأة .

الإضافة الثانية التي يقدمها لنا جاكبسون عند تعريفه لعناصر الخطاب ووظائفه تتمثل في ما يسميه بالوظيفة التعبيرية أو الانفعالية التي تمكن المتكلم (أي المرسل) « من إعطاء انطباع عن حالته سواء أكانت واقعية أم متخيلة »[٣٤] . بالنسبة لهذه الوظيفة التعبيرية يقع التأكيد على دور المرسل ، وهذا ما يجعلنا نصل إلى خلاصة ، وهي أن الكتابة النسائية ـ وهذا رأي عام ـ تتميز بحضور مرتفع نسبيا لدور المرسل ؛ وهذا يعني أن الوظيفة التعبيرية حاضرة كشكل ذي دلالة كبرى . من

---

(٣٠) Roman Jakobson : "Essais de linguistique generale" — les editions .. de Minuit — p : 214.

(٣١) المرجع السابق ص ، ٢٢٠ .

(٣٢) Tzvetan Toderov.: "Theorie de la litterature" seuilm 1956 p : 37.

(٣٣) نظرية المنهج الشكلي ـ ترجمة ابراهيم الخطيب ـ ش ـ م للناشرين المتحدين مؤسسة الأبحاث العربية ـ ط ، ١٩٨٢/١ ، ص : ٨٤

(٣٤) Elmar Holenstein — "Jakobsonm ou le structuralisme phenomenologique Seghersm 1974 8 p : 181."

هنا يمكننا فهم كثير من الأحكام النقدية التي صدرت عن عديد من دارسي الأدب النسائي مثل الدكتور سيد حامد النساج الذي يؤكد حضور هذه الذاتية في الكتابة النسائية عندما يتحدث عن قصص خناثة بنونة قائلا : إنها « . . حريصة على أن تكون « الراوي » و « الشخصية المحورية » وربما « الشخصية الوحيدة » .

وهي لا ترضى بالحياد ، ولا يخفت صوتها الهادي ، المرشد ، الناصح »[٣٥] .

نجد أيضا أن الوظيفة التعبيرية تتمثل في الكتابة النسائية عن طريق استخدام ضمير « أنا » ، وهذا ما عبر عنه عفيف فراج عند دراسته لقصص الكاتبات الشرقيات قائلا « إن صلة الرحم لا تنقطع بين الكاتبات وبطلاتهن ، وعنصر السيرة الذاتية سافر الحضور ، والغناء الوجداني الرومانتكي دائم الدفق ، وبقعة الضوء مركزة على شخصية الكاتبة ـ البطلة »[٣٦] .

إن خاصية التمحور على الذات لا تقتصر على النساء وحدهن لأنها تعتبر من خاصيات النزعة الرومانسية في الأدب ، لكن ، بالرغم من ذلك تبقى خاصية مهيمنة أساسا على الكتابة النسائية ، وهي التي تفسر لنا السبب الذي جعل البعض ينعت كتابات رجالية كالتي صدرت عن بروست ونزار قباني وإحسان عبدالقدوس بأنها كتابات نسائية .

فهذه كارمن بستاني في مقالها حول « الرواية النسوية الفرنسية » تفسر حضور الوظيفة التعبيرية عند الكاتبات تفسيرا إيديولوجيا تاريخيا إذ تقول : « لقد كانت المرأة خلال عصور طويلة ولا تزال تعاني من القلق على هويتها . ويوم أقدمت كوليت على توقيع مؤلفاتها باسمها الحقيقي أحرزت بذلك تقدما ملموسا في إطار معركتها من أجل الكتابة . بالتأكيد ، بدا الربط بين الكتابة والهوية أمرا ضروريا بالنسبة إلى المرأة ، وهذا ما يفسر كثرة « الأنا » في الكتابة النسوية كردة فعل على التشكيك الدائم الذي كان يحيط بوجودها »[٣٧] .

يمكننا أيضا أن نضيف خاصية أخرى من خاصيات الكتابة النسائية ، اعتمادا على وظائف جاكبسون تتمثل في حضور الوظيفة اللغوية Fonction phatique التي يقع فيها التركيز على القناة كوسيلة للتواصل في حد ذاته ، تمكن من المحافظة على الروابط والعلاقات الاجتماعية ، هذه الوظيفة « تظهر حسب رأي جاكبسون ـ الذي أخذ هذا المصطلح من مالينوسكي Malinowski ـ عندما تكون الإرسالية اللغوية لها هدف التمتين ، والتمديد والمراقبة من أجل الإبقاء أو توقف التواصل ، ان الأمر يتعلق بالوظيفة الأولى التي يكتسبها الطفل والتي يستعملها بنجاح »[٣٨] .

هذه الوظيفة اللغوية F. phatique تظهر في كثير من التعابير غير الدقيقة التي تصف المرأة بالثرثرة ، وتتمثل على مستوى الكتابة في الإطناب والتكرار الممل ، ذلك لأن الغاية من هذه الوظيفة حسب جاكبسون هي « تمتين التواصل » . ويمكننا أن نفسر حضور هذه الوظيفة في القصص النسائية برغبة الكاتبة في الخروج من العزلة

---

(٣٥) د . سيد حامد النساج : « الأدب العربي المعاصر في المغرب الأقصى » ـ (١٩٦٣ ـ ١٩٧٥) » ـ دار التراث العربي للطباعة يناير ٧٧ ـ ط . ١ ، ص : ٣٤٩ .

(٣٦) عفيف فراج : « صورة البطلة في أدب المرأة ، جدلية الجسد الطبيعي والعقل الاجتماعي » ـ الفكر العربي المعاصر ـ العدد ٣٤ ربيع ١٩٨٥ ، ص : ١٤٧ .

(٣٧) كارمن بستاني : « الرواية النسوية الفرنسية » ـ روليه تيري بطلة « التائهة » ـ ت : محمد علي مقلد ـ الفكر العربي المعاصر . ع ٣٤ ـ ربيع ١٩٨٥ ، ص ، ١٢٣ .

(٣٨) Elmar Holenstein - (Jakobson) - Seghers - P : 183.

وفتح الحوار مع الآخر ، لكن في إطار الحدود التي يسمح بها حجم اللغة المتاح لها استخدامه فحسب إيلين شوولتر « ليست المشكلة أن اللغة لا تكفي للتعبير عن الوعي النسائي ، ولكنها في كون النساء حرمن من استعمال كامل المصادر اللغوية ، وأرغمن على الصمت أو على الإطناب في التعبير »(٣٩) .

في هذا السياق نفهم الأحكام النقدية التي يطلقها النقاد على الكتابة النسائية ، بحيث يصفونها بالخطابة والتقريرية ، الشيء الذي تتحول معه قصص الكاتبات إلى مرافعات منبرية منفعلة كما هو الشأن عند ادريس الناقوري الذي يلتقط نفس الملاحظة حول كتابة خناثة بنونة بحيث يرى أنها أقرب إلى « . . خواطر ذاتية أو اعترافات »(٤٠) . نجيب العوفي بدوره يرى أن أسلوب خناثة يتميز « . . بتمويج التعبير وتهويمه على مستويات متوترة ومتراجعة »(٤١) .

إن هذه الملاحظات العامة ، ليست الغاية منها التعميم وإطلاق الأحكام على جميع الكتابات النسائية ، بل نرى فيها فقط صورة عامة لخصائص هذه الكتابة . كما أن اقتصارنا على الوظائف التعبيرية واللغوية لا يعني غياب الوظائف الأخرى بقدر ما يفيد حضورها المرتفع في الكتابة النسائية بصفة عامة

* * *

(٣٩) إيلين شوولتر : « النقد النسائي في عالم الضياع » مجلة « الثقافة العالمية » العدد ٧ ، السنة ٢ ـ المجلد ٢/ المحرم ١٤٠٣هـ نوفمبر ١٩٨٢ (تشرين الثاني) ص : ١٠١ .

(٤٠) ادريس الناقوري : « المصطلح المشترك ، دراسات في الأدب المغربي المعاصر » دار النشر المغربية/ ١٩٧٧ ، ص : ٢١٢ .

(٤١) نجيب العوفي : « درجة الوعي في الكتابة » ـ دار النشر المغربية/ ١٩٨٠ ، ص : ٢٢٧ .

محاور ايلي ويزل الروائية

شاكر محمود مصطفى

أستاذ مساعد ـ كلية التربية

جامعة الموصل

نعرض في هذا البحث لواحد من أخطر الروائيين الصهاينة في أمريكا في الوقت الحاضر وهو ايلي ويزل Elie Wiesel [1] . ومكمن خطورته هو تركيزه المفرط على مسألة اضطهاد النازيين لليهود إبان الحرب الثانية. لقد سمي هذا الاضطهاد بـ (الهولوكوست Holocaust المحرقة)، ونجدها ترد باستمرار في اللغة الانكليزية عند الحديث عن هذه المسألة.

لقد تدفقت على أسواق الثقافة في الأربعين سنة الأخيرة الأطنان من المصنفات تحت هذه التسمية من قصص ومسرحيات وأشعار ومذكرات و« وثائق » ونقد، ناهيك عن حشد هائل من الأفلام والمسلسلات التلفزيونية والإذاعية. لقد أدهش هذا السيل من المصنفات الكتاب اليهود أنفسهم فنراهم يعبرون عن غثيانهم في أكثر من مكان. يقول أحدهم وهو روبرت أولتر Robert Alter إن الهدف هو الاتجار بالهولوكوست لأغراض سياسية منها الإيحاء بأن العرب في عدائهم للصهيونية يحاولون ما حاوله النازيون، ولكن أولتر يلاحظ أيضا أن في هذا الإيحاء « إسقاط لصور جلادي الماضي على العرب »، ويقول آخر إن الهدف هو جمع المزيد من التبرعات لاسرائيل[2]. الغريب حقا هو تسرب موضوع الهولوكوست الى الجامعات الأمريكية والكندية بكثافة ملموسة اذ بلغ عدد المقررات المخصصة لها ٩٣ مقررا في عام ١٩٨١، فضلا عن ثلاث كراسي أستاذية* في دراساتها.

(١) يكتب ويزل بالفرنسية، رغم أنه مواطن أمريكي، ورغم إجادته اللغة الانكليزية التي يدرّس بها ويحاضر في جامعات أمريكية عديدة، ولكن تترجم كتبه الى الانكليزية فور صدورها بالفرنسية، وغالبا ما تقوم زوجه بترجمتها.

(٢) انظر مقالة اولتر بعنوان Deformations of the Holocaust في مجلة Commentary (شباط ١٩٨١) ص ٤٨ ـ ٥٤، والردود المؤيدة له الغاضبة عليه التي نشرت في نفس المجلة (حزيران ١٩٨١) ص ٢ ـ ١٠.

حتى ويزل نفسه يعترف: ولقد استغلت المذابح النازية لجمع التبرعات ولقد أصبحت موضوعا مبتذلا وتجاريا في سيل من الكتب والمقالات والأحاديث». انظر حوار M.A. Reichek معه في مجلة Present Tense (ربيع ١٩٧٦) ص ٤٤.

لا يخفى أن الصراع العربي الصهيوني كان ولا يزال المحرك البارز لأدب كهذا، لذا بدأت الموجة قبيل تأسيس الكيان الصهيوني واشتدت بعد حربي حزيران ١٩٦٧ وتشرين ١٩٧٣، واكتسبت الصبغة الرسمية بضغوط اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة لتأسيس مجالس خاصة للهولوكوست منها (اللجنة الرئاسية للهولوكوست) التي ظهرت في خريف عام ١٩٧٨، و(المجلس الأمريكي التذكاري للهولوكوست) ويرأس الاثنين ايلي ويزل نفسه .

لاشك أن الصهاينة يدركون ضرورة نبش الماضي النازي بين الحين والاخر وبخاصة الوجه المناسب من هذا الماضي وضرورة إذكاء جذوة (عقدة الذنب) عند الأوربيين كلما احتاج الكيان الصهيوني الى دعم استثنائي خدمة لمشاريعه ومغامراته التي لا تنتهي. يقول ويزل « لو لم تكن المذابح النازية، لما كانت اسرائيل »[٣] ، وهو يدرك حتما ان التذكير المستمر بهذه المذابح لابد أن يخدم استمرار وجودها. فحسب أن هذا هو هدفه الرئيس من كتاباته الكثيرة في هذا الموضوع على الرغم من إعلانه الدائم أن كتاباته هذه مجرد شهادة يجد نفسه مجبراً على الادلاء بها كونه أحد الناجين من معسكرات التعذيب النازية. ودرس الهولوكوست، كما يؤكد كاتب يهودي، هو درس سياسي لا لبس فيه ، فالعالم يريد تدمير اليهود، والرد المعقول الوحيد هو الصهيونية المحاربة المتحفزة بأشد الصور[٤].

يمكن عد ويزل، دون قسر، من الكتاب الصهاينة، فقد أعلن نفسه صهيونياً بعيد قرار الجمعية العمومية للأمم المتحدة في إدانة الصهيونية بوصفها حركة عنصرية، لقد كتب مقالا تحت عنوان (الصهيونية والعنصرية) سمى فيه القرار « مؤامرة واضحة » ضد اليهود، كما قرر ان «الذي يهاجم اسرائيل إنما يهاجم الشعب اليهودي برمته» وقال أيضا « لا خيار لي سوى أن أعد نفسي صهيونيا . . وأتمنى على أصدقائنا من غير اليهود أن يفعلوا الشيء نفسه وأن يعدوا الصهيونية شارة شرف »[٥]

سنتناول الآن سبعا من روايات ويزل بشيء من التفصيل لنرى كيف صور موضوعه الهولوكوست، وكيف وجد على الدوام الإطار المناسب لها ليحقق الهدف الدعائي الموسوم بدقة[٦] .

---

(٣) انظر حواره مع Reichek الذي أشرنا اليه، ص ٤٦.

(٤) انظر كتاب Edward Alexander الموسوم بـ The Resonance of Dust: Essays on Holocaust Literature and Jewish Fate الذي صدر عن مطبعة جامعة ولاية اوهايو، عام ١٩٧٩. ص١١٤ ـ ١١٦

(٥) أعاد ويزل نشر المقالة في كتابه A Jew Today الذي صدر عن دار Random House في نيويورك عام ١٩٧٨، ص٣٣ ـ ٣٥

(٦) يكتب ويزل، كما أشرنا بالفرنسية ولفائدة القارىء نبين سنوات نشر الروايات التي سنناقشها:

أ ـ (الليل) ـ نشرت بالفرنسية عام ١٩٥٨ وبالانكليزية عام ١٩٦٠.

ب ـ (الفجر) ـ نشرت بالفرنسية عام ١٩٦٠ وبالانكليزية عام ١٩٦١.

ج ـ (النهار) ـ نشرت بالفرنسية عام ١٩٦١ وبالانكليزية بعنوان (الحادث) عام ١٩٦٢.

ثلاثية (الليل ، الفجر ، النهار)

يصور ويزل في هذه الثلاثية مراحل حياة شخصية تبدو واحدة في الروايات الثلاث وإن أخذت اسما أو وصفا يختلف أحيانا، وحياة هذه الشخصية شديدة الشبه بحياة المؤلف ذاته ، ويبدو أيضا أن المؤلف يحاول الإيحاء بأن الأحداث التي تصورها هذه الروايات أحداث شهدها بنفسه، وانه عندما يطلعنا عليها في قالب روائي إنما يقوم بدور (الشاهد) الذي يجب عليه أداء أمانة ثقيلة.

في رواية (الليل) Night (١٩٦٠) يقدم ويزل وصفا تفصيليا مباشرا للهولوكوست من خلال قصة بطله ايلايزر Eliezer (٧). يروي ايلايزر بضمير المتكلم حكاية المعتقلات النازية منذ البداية عندما أقام النازيون جيتوات لليهود - حتى نهاية الحرب وتحرير من بقي منهم، وما بين هذين الطرفين هناك محارق وغرف غاز لا حصر لها. يبدأ ايلايزر بالحديث عن قريته سيكت Sighet بهنغاريا (وهي أيضا القرية التي ولد فيها ويزل وعاش طفولته) التي اجتاحها الالمان، وكيف لم يصدق اليهود فيها في البداية ما سمعوه عن نوايا هتلر تجاههم . ولكن سرعان ما يجدون أنفسهم عرضة لتشريعات قاسية منها عزلهم في جيتوات تمهيدا لترحيلهم. ويشعر ايلايزر في الجيتو الكبير الذي وضعت فيه عائلته بأنه يعيش في « جمهورية يهودية صغيرة » (ص ٢١) لها حكومتها الكاملة ويملؤه هذا الشعور بالفخر والحبور فهو يقول :

> لقد أعجب الجميع بها. فلن تطالعنا بعد الآن تلك الوجوه الحاقدة، ولا تلك النظرات المليئة بغضا،
> لقد انتهت مخاوفنا وعذاباتنا. فنحن نحيا بين اليهود، بين إخوتنا (ص٢١) .

أليس من الغريب أن يشعر صبي مثل ايلايزر بهذا الشعور ؟ أليس من طبع البشر أن يرفضوا، لا أن يرحبوا، بالعزل؟ لاشك أن ويزل يريد، اذن، أن يهيىء قارئه لقبول فكرة الدولة اليهودية وبخاصة بعد الإشارة الى فلسطين

→

د- (المدينة الواقعة خلف السور)- نشرت بالفرنسية عام ١٩٦٢ والانكليزية عام ١٩٦٤.

هـ- (شحاذ في القدس)- نشرت بالفرنسية عام ١٩٦٨ وبالانكليزية عام ١٩٧٠.

و- (العهد)- نشرت بالفرنسية عام ١٩٨٠ وبالانكليزية عام ١٩٨١.

ز- (الابن الخامس)- نشرت بالفرنسية عام ١٩٨٤ وبالانكليزية عام ١٩٨٥.

أما الطبعات الانكليزية التي اعتمدنا عليها في هذا البحث فهي:

1- **Night, Dawn, The Accident.** London: Robson Books, 1974.

2- **The Town Beyond the Wall.** New york: Holt, 1967.

3- **A Beggar in Jerusalem.** London: Sphere Books, 1971.

4- **The Testament.** Penguin Books, 1982.

5- **The Fifth Son.** New york: Summit Books, 1985.

(٧) لاحظ الشبه بين اسم المؤلف واسم بطله، فاسمه في الواقع تصغير لاسم بطله.

وطلب ايلايزر من أبيه تصفية أعماله والهجرة اليها (ص ١٨) . على أية حال، يرسل ايلايزر وأبواه وأخته الصغيرة تزيبورا Tzipora (وهو نفس اسم أخت ويزل) وآلاف من بني جلدته في عربات مقفلة الى بيركينا Birkenauوهي محطة الاستقبال للمعتقل الشهير أوشفتز Auschwitz . يشاهدون هناك ألسنة اللهب ويشمون رائحة الأجساد المحروقة، وهناك أيضا تفترق العائلة الى الابد، إذ يتم حرق الأم والابنة ويرسل الأب والابن الى أوشفتز. قبل الانتقال الى هناك، يطلع الروائي القراء على بعض الفظائع النازية منها حرق الأطفال (ص ٢١) وإجبار بعض اليهود على وضع آبائهم أو أمهاتهم في الأفران (ص ٤٤). وبعد إقامة قصيرة في أوشفتز ينقل ايلايزر وأبوه الى معسكر بونا Buna . يجعل هذا المعسكر من ايلايزر ولداً متحجر القلب إذ يرى والده يُهان دون أن يفعل شيئا لمساعدته، بل إنه يبعد نفسه عنه كي لا يتورط معه. في هذا المعسكر نرى مشاهد كثيرة للموت منها هذا المشهد. شنق ثلاثة يهود أحدهم طفل لأنهم كانوا يخبئون أسلحة. يبقى الطفل الذي له «وجه ملاك حزين» متأرجحا بين الموت والحياة لأكثر من نصف ساعة قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة (ص ٧٠). وبعد فترة في هذا المعسكر يتم ترحيل اليهود سيرا على الأقدام الى ألمانيا، والى معتقل بوخنفالد Buchenwald بالتحديد. خلال المسيرة يهلك عدد كبير منهم لان العاجزين عن مواصلة المشي تسحقهم أقدام الآخرين، أو يسقطون برصاص الحرس الألماني، وهنا أيضا يجد ويزل الفرصة ليقدم لنا مشهدا مأساويا آخر هو موت طفل فنان، إذ تسحق الأقدام الطفل يوليك وكمانه الصغير، ولكنه يعزف قبل أن يموت شيئا من كونسرتو لبتهوفن (ص ٩٩ ـ ١٠١). هكذا يتسامى اليهودي وإن كان طفلا، ورغم معسكرات الموت ورغم الآلام، هذا ما يريد ويزل الإيحاء به فالموت والعذاب قد يمهدان الطريق للتعاطف ولكن لابد من دفع التعاطف خطوة الى الأمام كي تحظى الضحية بالإجلال.

لا عجب إذن، أن هؤلاء الضحايا بعد تحرير جيوش الحلفاء لهم بالانتقام من معذبيهم، « لم يكن بيننا أحد يفكر في الانتقام » (ص ١١٩)، لأن ويزل رفعهم مرتبة فوق البشر، فلم يعودوا يشعرون بشعورهم ولا يتحركون بدوافعهم، لهذا تخفق رواية (الليل) كعمل فني لأن كاتبه يخفق في تقديم شخصيات حية مقنعة ولأنه لا يستغور رعب الاضطهاد ليكشف عن مدلولاته الأخلاقية، وليقدم لنا رؤية إنسانية له في النهاية. لهذا نجد تصوير الاضطهاد والرعب كأنه هدف لذاته، ولاشك أن لمثل هذا التصوير مردودا دعائيا لا نحسب أن الكاتب لا يرمي اليه.

أما رواية (الفجر) Dawn ١٩٦١ فتقدم لنا، وعلى أرض فلسطين عقب الحرب الثانية، نمطا جديدا من اليهود. انهم يهود الإرهاب والقتل الذي يراه المؤلف مسوغاً وضرورياً يتوقع القارىء ان تضم محاور الصراع في هذه الرواية العرب أو الفلسطينيين في الأقل، ولكن المؤلف يلغي دورهم، بل وجودهم، تماما عندما يجعل الصراع بين الإرهابيين الصهاينة وسلطات الانتداب الانكليزية، وهو صراع خيالي إذ يعلم الجميع بأن سلطات الانتداب سهلت للعصابات الصهيونية مهمة السيطرة على المراكز الحساسة في فلسطين قبل انسحابها[٨] . بطل الرواية هو ايليشا Elisha وهو عضو في منظمة إرهابية لا يسميها المؤلف يُكَلَّف بإعدام ضابط انكليزي برتبة نقيب. يأتي إعدام النقيب

(٨) يؤكد الفلم المأخوذ عن هذه الرواية، وأخرجه الهنغاري ميكلوش ياتشو وشارك به في مهرجان برلين السينمائي عام ١٩٨٦، هذه المغالطة فلا يظهر فيه أي عربي. انظر مقال فوزي سليمان (الصهيونية والسينما العالمية) في (آفاق عربية) العدد ٥ (أيار ١٩٨٦) ص١٤٢.

داوسن ردا على اعدام السلطات البريطانية في فلسطين أحد إرهابيي المنظمة . يخبرنا ايليشا في واحدة من إرتجاعاته الكثيرة انه نجا من معتقل بوخنفالد وأنه ذهب الى باريس بعد الحرب ليدرس الفلسفة[9]. كان يظن أنه يستطيع ان يفهم من خلال دراسة الفلسفة مغزى الهولوكوست. ولكن أحد الإرهابيين الصهاينة واسمه گاد Gad ، يلتقيه في باريس ويقنعه بالانضمام للمنظمة، وهو الذي يخبره بظهور النمط الجديد من اليهود :

> لقد أرسلت الحكومة البريطانية مئة ألف جندي لحفظ النظام، كما يقولون. أما نحن أعضاء المنظمة فلا نزيد على مئة من الأشداء، ولكننا ندخل الرعب الى قلوبهم. هل تفهمُ الذي أقوله ؟ نحن نجعل الانكليزي ـ نعم ، الانكليز ـ يرتجفون. أشعل الوقد في عينيه السوداوين الخوف في مئة ألف من الرجال في لباس العسكر . (ص ١٣٥)

لابد أن القاريء يشعر بأن في هذا الكلام حماسة متبجحة قد لا تسهل قبول هذه الصورة تماما، لهذا يعمد المؤلف الى تهيئة أذهان قرائه بتقديم الصورة التقليدية لليهودي كخائف وجبان وذلك في حوار بين أم النقيب ووزير شؤون المستعمرات البريطاني قبل إعدام ابنها. يقول الوزير مطمئنا : « لا تخافي، فلن يفعلها اليهود بتاتا . لابد أنك تعرفينهم، فهم يصرخون ويصخبون في جعجعة عظيمة، ولكنهم في النهاية يرتعبون من معاني كلماتهم، لا تخافي، فلن يموت ابنك »(ص ١٢٩). الصورة التقليدية لليهودي هذه، هي صورة استفزازية ، لا تحسب حسابا لتجربة الهولوكوست التي دفعت اليهودي اليائس الى نفض كفن الموت والنهوض من جديد في بعث عنيف مقاتل. هذا ما يريد ويزل من قارئه أن يستنتجه تمهيدا لتقديم الصورة النقيضة التي تقلب كل التوقعات.

ويمضي ويزل في روايته هذه خطوة أبعد من مجرد تقديم اليهودي المقاتل عندما يسوغ الإرهاب والعنف بحجة أن اليهودي المسالم كان ضحية الاضطهاد لعشرين قرنا:

> إذا توجب علينا ان نصبح أكثر ظلما وقسوة من الذين ظلمونا وقسوا علينا فلابد من ذلك. نحن لا نحب أن نكون قتلة، ولهذا كنا الضحايا على الدوام ولم نكن الجلادين . . ولكن دورنا هذا انتهى الان ، لابد ان نكون مثل الآخرين، لن يكون القتل مهنتنا، بل واجبنا (ص ١٤٣ ـ ١٤٤) .

الغريب حقا هو ان ويزل يدعو الفلسطينيين في رسالة مفتوحة بعنوان (الى شاب فلسطيني عربي) الى نبذ العنف رغم معاناتهم ورغم الظلم الفاضح الذي لحق بهم، بل ورغم تأكيده بأنه « يشعر بالمسؤولية تجاه ما حل بهم ». إنه يقول للشاب الفلسطيني الذي يخاطبه على الورق : « العذاب ليس عدلا، ولكنه لا يبرر القتل إطلاقا »[10] . هذا هو واحد من المواقف الدوغمائية الكثيرة لهذا الكاتب الخطير، وسنشير لاحقا الى موقف آخر اكثر إفصاحا وأكثر خطورة ونفاقا.

---

(٩) جدير بالذكر أن ويزل نفسه ذهب الى فرنسا بعد الحرب ودرس دراسة فلسفية في جامعة السوربون

(١٠) انظر كتاب ويزل A Jew Today ص١٠٥ و ١٠٦

ونلتقي ايلايزر أيضا في رواية (النهار) التي ترجمت الى الانكليزية بعنوان (الحادث) The Accident (١٩٦٢)، ولكن في نيويورك هذه المرة. إنه يتعرض لحادث سيارة خطير ويبقى بين الموت والحياة لخمسة أيام[11]. في هذه الأيام نكتشف أن ايلايزر الناجي من مذابح النازية لا يرغب في الحياة مطلقا، وأنه يريد أن ينضم لقافلة الضحايا لأن الحياة بعدهم نوع من أنواع الخيانة، ونكتشف أيضا أن الحادث لم يكن حادثا إلا بأضيق معاني الكلمة، فقد رأى ايلايزر السيارة وكان بإمكانه تجنبها ولكنه لم يفعل. وتتدفق على القارىء ذكريات المذابح النازية وأثرها على تفكير ايلايزر وعلى سلوكه خلال هذه الأيام حتى ليعجب القارىء كيف يتمكن شخص رأى كل الذي يرويه ايلايزر من الحياة بين البشر الأسوياء. يقول ويزل إنه طرح في هذه الرواية سؤاله الكبير: كيف يستطيع الناجي من المذابح أن يحيا دون أن ينتحر؟[12] ولكن للقارىء أيضا سؤاله الذي قد لا يكون كبيراً كبر سؤال الكاتب، لماذا تنحصر ذكريات (أوهلوسات) مصاب فاقد الوعي بجانب واحد فقط من حياته وتجاربه، وهو المذابح النازية؟ لماذا هذا التعلق المرضي بماضٍ لا نقول يجب أن ينسى، بل أن يأخذ فسحته الطبيعية المحدودة في حياة المرء؟

وفي رواية (المدينة الواقعة خلف السور) The Town Beyond the Wall (١٩٦٤) يضع ويزل ذكريات الاضطهاد في سياق آخر، ويرويها بأسلوب جديد أكثر تعقيدا من الثلاثية. يجعل الكاتب هذه الرواية في أربعة فصول لها عناوين هي، (الصلاة الأولى)، (الصلاة الثانية)، (الصلاة الثالثة)، (الصلاة الأخيرة)، ويسميها بالصلوات تهكما للتلميح للصلاة اليهودية عند حائط المبكى، لأن بطله المعتقل يجبر على الوقوف لساعات طويلة أمام الحائط ليشي بأحد أصدقائه. ونراه يعمد إلى خلط السرد الروائي بذكريات هي صور وحوادث من حياة بطله السابقة، وبحوارات متخيلة مطبوعة بحرف مختلف تفصل بشكل واضح عن باقي أجزاء الرواية، ويتغير فيها ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم. ولكن الهدف الدعائي لايزال يرمي بثقله على الرواية فلا يعود تطوير الأداة الروائية سوى ألعوبة للاستمرار في تمثيلية استدرار العطف لأننا سرعان ما نجد الروائي يقحم العربي، بصورته التقليدية في الرواية الصهيونية عموما، على أحداث الرواية تأكيدا للهدف المقصود.

تفتتح الرواية بمشهد تعذيب مايكل لانه دخل هنغاريا بطريقة غير مشروعة ليزور قريته. لا نعرف في البداية هدفه من الزيارة لأنه هو نفسه لا يعرف، ونفهم أن مايكل يصمد للتعذيب من أجل صديقه بدرو Pedro الذي ساعده على دخول هنغاريا والرواية كلها وليس المشهد الأول فقط تصور فترة إعتقال مايكل، وفي هذه الفترة تندلق علينا ذكرياته عن حياته في القرية قبل الحرب وعن الاضطهاد النازي ليهود القرية.

نجد مايكل يتذكر أولا مجانين قريته ويحاورهم، ثم ينتقل لحوار خيالي مع بدرو عن المجانين أيضا ليخلص إلى (الحكمة) الآتية: «ليس بوسع الأخيار هذه الأيام سوى أن يصبحوا مجانين» (ص ١٦). ثم يتذكر الحاخام فارادي Varady، ويصوره الروائي شخصا أسطوريا و(خالدا) لأنه يعتقد أن «الإنسان أكثر أهمية من الله» (ص ٢٠).

(١١) تعرض ويزل نفسه إلى حادث سيارة مماثل للذي يصفه في هذه الرواية وفي نيويورك أيضا بعد فترة وجيزة من وصوله الولايات المتحدة عام ١٩٥٦

(١٢) انظر مجلة Newsweek عدد ١٢ حزيران ١٩٦١ ص٦٦.

وتبدأ هنا لعبة التوتر الذي يتقنه ويزل، إذ يبدأ الاستفسار عن سر زيارة مايكل للقرية. يسأله بدرو في حوار متخيل آخر : أمن أجل فارادي تريد العودة إلى القرية، لترى إن كان حقا خالدا أم لا ؟ (ص ٣٧)، والجواب لا . وينتقل بطلنا من الجنون إلى ذكريات الحرب. فهو يذكر الحاخام الجليل المجنون كالمان وتلاميذه الذين أخذوا الجنون عنه والذين سيقوا إلى معتقل أو شفتز فكان محطتهم الأخيرة (ص٤٠)، وكيف تحدى بطلنا أهله ومعارفه كي يتتلمذ على يديه ليجرب الجنون الذي كان يغويه، ولكنه أنقذ من الجنون، أنقذه الالمان الذين فتكوا بكالمان وبغيره (ص ٤٧) . وهنا نجد حوارا متخيلا آخر مع بدرو، وسببا آخر لشد التوتر . يسأله بدرو، ألهذا السبب تريد العودة لترى ان كان كالمان قد خلف وراءه جنونه ؟ والجواب (لا) ثانية (ص ٤٨) . يأخذ موضوع الجنون مساحة كبيرة نسبيا من الرواية ونجد شيئا قريبا من التأمل الفلسفي لطبيعته، خاصة عندما يرتبط بثورة اليهودي ضد الرب. في أحد الحوارات الكثيرة يسأل بدرو مايكل لماذا لم يختر الجنون وقد كان على حافته (عندما بدأ الالمان ذبح اليهود في القرية) فيكون جواب مايكل :

> إن اختيار الجنون عمل من أعمال الشجاعة، ولا تتاح الفرصة لهذا الاختيار إلا مرة واحدة فقط. وهو أيضا هدف بحد ذاته، إنه فعل الإرادة الحرة التي تدمر الحرية. أعطيت الحرية للإنسان وحده. الله ليس حرا (ص ٩٤) .

ولكن القارىء يلاحظ الهدف المباشر والدعائي من فلسفة الجنون هذه، وهي الاستنتاج ان الجريمة النازية بحق اليهود عمل لا يمكن تصديقه والاحتفاظ بالعقل معا، كما لا يمكن فهم لا مبالاة الرب تجاه هذه الجريمة. لهذا نجده في الفصل المكرس لذكريات معسكرات الاعتقال (الصلاة الثانية) يعمد إلى اختيار مشاهد تقوي عند القارىء الإحساس بعدمية النازيين التي تتجاوز حدود العقل . في نفس اليوم الذي يبدأ فيه ترحيل اليهود عن القرية يطلق جندي ألماني النار على يهودي من الخلف في الرقبة « بلا سبب وبلا غضب ودون أن يرف له جفن » (ص ٥٦) ، في الوقت الذي يصبح فيه ابن القتيل صبي المعتقل المدلل يأمر وينهي ويتصرف بحياة اليهود فينقذ من يشاء ويهلك من يشاء .

في الفصل الذي يقدم فيه ويزل شخصياته العربية (الصلاة الثالثة) نجد ، كما أشرنا الصورة الكريهة للعرب في الرواية الصهيونية . يفتتح الفصل بوصف تفصيلي (صفحة ونصف) لعربي « سعيد » في طنجة يغط في النوم لا يعرف الألم ولا المعاناة (ص ١٠٤ ـ ١٠٥) وذلك بعد أسطر من وصف الروائي لبطله بأنه يبقى آلامه لنفسه ولا يبوح بها لأنها «تعطيه الهوية» (ص ١٠٢) . لاعجب إذن أن يهرب صاحبنا المثقل بالآمه من مرأى العرب الفاغرين أفواههم وهم يستمعون للحكواتي (١٠٤ ـ ١٠٥) . كما نجد وصفا تفصيليا لعربي آخر هو عمر الذي لا يكف عن ضرب زوجته الرقيقة المتعلمة (ص ١١٦ ـ ١١٧)، وليوسف (المخنث) (ص ١٠٦) . ولكن أخطر ما يقدمه ويزل في هذه الرواية هو حديث بدرو عن حبيبته التي حاربت كاللبوة في الحرب الأهلية الإسبانية إلى جانب الجمهوريين ، ولكنها جرحت فنال منها (مغاربة فارنكو) فاغتصبوها ٣٧مرة . « كانت قد ماتت ولكنهم لم يكفوا عن اغتصابها » (ص ١١٧) .

ونجد صورة أخرى للعربي حرية بالدرس والتعليق عندما يجمع ويزل أناسا من مختلف القوميات حول مائدة في مقهى. يروي أحد اليهود، «الوحيد وحدة الله» (ص ١٠٩) قصة من قصص البطولة في الحرب الثانية هي قصة الطفل اليهودي مندل. يدعو أحد القرويين المنغاريين أرملة صديقه اليهودي وطفلها مندل للذهاب معه بعيدا عن الالمان. يختبيء الثلاثة تحت كومة قش في عربة يقودها قروي آخر لتجتاز بهم الحواجز الألمانية والهنغارية. ولكن عند إحدى نقاط التفتيش يشك اثنان من الهنغاريين بالعربة فيوقفانها ويبدآن بطعن القش بالحراب وبعد قليل يسمعان أنينا مكتوما فيفرغان حمولة العربة. كانت أم مندل قد طلبت من طفلها أن يسكت مهما حصل، لهذا يبادر الطفل المحتضر أمه القتيلة بالكلام بعد إزالة القش «لست أنا يا أمي ... لست أنا» ويلفظ أنفاسه الأخيرة. ونفهم أن القروي المسيحي هو الذي أصدر الصوت (ص ١٠٩ - ١١٣). ثم يصف مايكل ردود أفعال المستمعين. يفتح العربي فمه مشدودها، ولكن الاسباني يبكي، والروماني يكاد يحطم الكأس الفارغة التي يمسك بها، واليهودي بدرو يلطم المنضدة بقبضته (ص ١١٣). لقد حشر ويزل العربي وسط عالمية زائفة من صنعه لبيان دونية العرب في الوقت الذي يصور فيه ظلم النازيين حين حسبوا اليهود أدنى مرتبة من سائر البشر، واضطهدوهم على هذا الأساس. أليس من سخرية الأقدار أن نرى انتقال الصهيوني إلى الموقع العنصري البغيض الذي كان يحتله النازي من قبل؟

في الفصل الأخير من الرواية نصل إلى مراد الكاتب حيث يوضح هدف مايكل من الزيارة. يتجول مايكل في قريته ويذهب إلى حيث كان بيته ومتجر أبيه الملاصق للبيت، وقد احتلها الآن أغراب. يروي ويزل كل هذا بأسلوب عاطفي ميلودرامي حتى نكاد نظن أن هذا هو هدف زيارة مايكل للقرية، ولكن لا .. ليس هذا هو الهدف[١٣]. بعد حوارات خيالية مع بدرو وشد أكثر لتوتر القارىء لمعرفة الهدف فيجرجرنا الروائي مع بطله وهو يتجول في القرية حتى تشق ذكرى معينة طريقها إلى السطح بعنف لتصيب مايكل نفسه بالذهول: وجه ينظر من نافذة عبر الشارع إلى فواجع ترحيل اليهود بلا مبالاة (ص ١٤٨ - ١٤٩).

ويلتقي مايكل صاحب الوجه ليخبره أنه رسول الموتى جاء ليفهم كيف استطاع أن يكون لا مباليا تجاه اليهود ... وأنه لا يكرهه، فهو لا يستحق الكره بل الاحتقار (ص ١٥٤ - ١٦٤)، ثم يلقي علينا موعظته العظمى: «الشر إنساني، والضعف إنساني أيضا، أما اللامبالاة فلا» (ص ١٧٧). ونكتشف لا إنسانية اللامبالاة مرة أخرى حين نعلم أن الرجل الذي قابله مايكل هو الذي وشى به للشرطة فاعتقلته. الضحية تبقى ضحية، هذا ما يريد الكاتب إقناعنا به، أما شاهد الأمس فقد أصبح جلادا. هكذا يفشل ويزل مرة أخرى في النفاذ إلى جوهر المشكلة وبيان أبعادها الإنسانية والأخلاقية لأنه قرر سلفا كما يبدو أن (الآخر) لاصلاح له ولا تغيير. إنه يجد في فكرة المواجهة بين ضحية الأمس وأحد الشهود ليس مناسبة لنبش الماضي المأساوي فحسب، بل تأكيد واحدة من أفكاره وهي عداء الإنسانية الأبدي لليهود أجمعين.

(١٣) زار ويزل قريته سيكت مرتين بعد الحرب الأولى زيارة قصيرة عام ١٩٦٥ (أي بعد ثلاث سنوات على نشر روايته) وثانية عام ١٩٧٠ بصحبة زوجته وبعثة تلفزيون امريكية، ويروي بالأسلوب العاطفي إياه مشاعره وهو يزور بيته القديم. انظر كتابه A Jew Today ص ٥٦ - ٦١. للمقارنة بين موقف ويزل هنا وموقف روائي عربي من نفس القضية انظر رواية غسان كنفاني (عائد الى حيفا) (١٩٦٩)، حيث نبذ كنفاني كل الوسائل الرخيصة لاستدرار العطف ليثير مسألة إنسانية أعمق وأشمل

في روايته عن حرب حزيران ١٩٦٧ - (شحاذ في القدس) A Beggar in Jerusalem (١٩٧٠) نجد ويزل يوظف ذكريات بطله عن الفظائع النازية بشكل مباشر تماما لخدمة الكيان الصهيوني . تستجلب الذكريات هنا للمقارنة مع النصر الإسرائيلي . تبدأ الرواية بحوار يدور بين شحاذين عن الحرب، ثم يعقب هذا الحوار ذكريات الحرب العالمية الثانية وما حل باليهود بسببها :

> الفترة الأخرى ، تلك التي تلت الحرب في أوروبا، كانت مختلفة. لقد كنا من الناجين أيضا، ولكن دون نصر، في كل مكان كان الخوف من ورائنا، وكان أمامنا . الخوف من الكلام ، الخوف من السكوت، الخوف من فتح عيوننا، والخوف من إغماضها . . . . لم نكن أحياء تماما، ولم نكن أمواتا تماما . لم يعرف الناس كيف يعاملوننا، لقا رفضنا الصدقات ، وازدرينا العطف . كنا شحاذين مرفوضين في كل مكان ، محكوم عليهم بالنفي . كنا نذكّر الغرباء في كل مكان بما فعلوه بنا وبأنفسهم (ص ٢١) .

وفي هذه الرواية أيضا يقحم الروائي ذكريات الفظائع النازية على الأحداث ، إذ يجعل من أي حدث مناسبة لجلب ذكرى من الماضي . لهذا نجد بطل الرواية وهو يحتفل بغزو الصهاينة للقدس يتذكر تدمير النازيين لقريته في شرق أوربا، التي يسميها (لا نعرف كيف أو لماذا) بالقدس أيضا (ص ٦٥) . ثم يتدفق سيل من تفاصيل إجلاء اليهود ومن ثم تدميرهم بشكل لا يختلف عما يراه القارىء في الثلاثية أو (المدينة الواقعة خلف السور) . ونراه أيضا وهو ينظر في عيني ملكا Malka يتذكر عيني اليانا Ileana ، ثم يسرد علينا في ثلاث عشرة صفحة كيف فدته اليانا بحياتها لتنقذه من الألمان ومن الرعاع المعادين لليهود (ص ١٣٣ - ١٤٥) .

ونرى ويزل يربط في هذه الرواية الماضي بالحاضر وضحايا النازية بجيش الكيان الصهيوني مباشرة حين يحاول تفسير الانتصار الإسرائيلي : « لقد انتصرت إسرائيل لأن جيشها وشعبها استطاعا أن ينشرا في الحرب ستة ملايين إلى جانبهما » (ص ١٨٠)[14] .

ولكسب المزيد من عطف القراء يصور ويزل، كغيره من الكتاب الصهاينة، اليهود المسالمين عرضة لفتك العرب وسط لامبالاة العالم أجمع :

> دعا الخطباء في العواصم العربية اليهوديات أن يتزيَّنَّ للترحيب بالفاتحين ، وكان لدى الفاتحين، أوامر واضحة بسيطة : أَحْرِقوا المدن وامحوا الكيبوتسات واذبحوا كل المحاربين وأغرقوا شعب الأمل في محيط من الدم والنار . هل هذه كلمات ؟ نعم كلمات . كلمات تبعث على الضحك والخوف . كلمات لا زالت ترن في مقابر أوروبا .

---

(١٤) أعاد ويزل ربط الاثنين أيضا بعد حرب تشرين ١٩٧٣ في خطاب أراد به رفع معنويات الصهاينة حين أكد أن اليهودي الذي مر بمذابح النازية هو أقوى مخلوق في الارض ولا شيء يمكن أن يسحقه . وقد وزعت مؤسسة صهيونية هي The United Jewish Appeal هذا الخطاب في كراس من ١٥ صفحة فور إلقائه في كانون الاول من العام نفسه.

« وهل سيقف العالم مكتوف اليدين ويدع ذلك يحدث ؟ » « ولم لا ؟ لن تكون المرة الأولى » . « وماذا بشأن الأمم المتحدة ؟ » « ستلقي الوفود الخطب ـ كالعادة » . « وأصدقاؤنا ؟ » « سيلقون الخطب أيضا ، ولكنهم سيبكون على قبورنا »[١٥](ص ١٠١) .

ونجده يعيد على مسامعنا على لسان إحدى شخصياته واحدة من المقولات الصهيونية حين يقرر بطله ديفيد (حقيقة) يعرفها الإسرائيليون جميعا وهي ضرورة الانتصار الصهيوني : « بامكان العدو أن يخسر مرة ، أو ثلاثا ، أو عشر مرات ، بالنسبة لنا لا يمكن لأي نصر أن يكون نهائيا ، ولكن أية هزيمة ستكون الأخيرة » (ص ١٠٠) . لاشك أن القارىء يرى في هذا التقرير دعوة واضحة لدعم الكيان الصهيوني كي يكون منتصرا على الدوام والى الأبد . لا عجب إذن ، أن نرى ويزل الذي يدعو الفلسطينيين لنبذ العنف ، يرى في العنف الخلاص الوحيد لليهود، وإن ألحق هذا العنف الدمار بالعالم كله . لنقرأ هذا الحوار بين شخصيتين في الرواية :

« أعتقد ان كل الكلام المنمق عن ضمير الإنسانية وروحها اخترعه اليهود المضطهدون كدرع أو ملجأ لهم كي لا يقاتلوا » .

« لا تقل هذا الكلام » .

« بلى ياشيمون ، سأقوله . لقد تقبل اليهود المضطهدون الذبح كالقديسين ربما ، ولكن ليس كالرجال » .

« إنك تهين الضحايا ـ بل الشهداء » .

« إذا توجب عليّ اهانتهم كي أحيا ، فأنا فاعل . كان عليهم أن يهبوا غاضبين ، وكان عليهم أن يثوروا ، حتى لو عنى ذلك إشعال النار في أوروبا برمتها ، بل في الكون كله » . (ص ١٠٢) .

يورد ويزل هذا الحوار وأمثاله دون أن يورّط نفسه بالتزام طرف معين فيه ، فهو يقدم للصهاينة ما يريدون في الوقت الذي يؤمن فيه لنفسه قناع الراوي المحايد الذي يمكّنه من مواصلة دوره الثنائي الخطير بمهارة فائقة . لهذا تجده لا يتحرج ، مثلا ، من الاعتراف بعدالة القضية الفلسطينية عندما يتطلب الموقف ذلك . كتب الروائي المغربي الشهير الطاهر بن جلون يصف موقف ويزل في إحدى ندوات شهر فلسطين في باريس عام ١٩٨٦ : « بعد أن تحدث عن منافي الشعب اليهودي ، وعن مجازر هتلر » ، يقول بن جلون ، أضاف ويزل : « أنا شخصيا ، أعرف مرارة الألم والوحدة والمنفى ، وبوصفي يهوديا أعرف ، في جسدي ودمي ، ما هو معنى العنصرية والكراهية والظلم ، ولهذا

---

(١٥) لقد ندم ويزل على إعلانه في اذار ١٩٦٧ «بأنه لا يعتقد بإمكانية حدوث الهولوكوست ثانية، وإذا حدثت فلن تكون لليهود.» وقال بعد حرب حزيران انه مثل أبطال قصصه الذين لا يصدقون بوجود خطر أكيد يحدق بهم. انظر كتاب ادوارد الكسندر الذي أشرنا اليه، ص ٢١ - ٢٢.

السبب أنا أفهم معاناة الشعب الفلسطيني المحروم من وطنه ، وأطالب له بدولة يعيش فيها بسلام مع الشعب اليهودي »[١٦] .

أما رواية (العهد) The Testament (١٩٨١) فهي عن شاعر يهودي روسي مغمور أعدم في عهد ستالين، في هذه الرواية يضيف ويزل إلى موضوعاته الهجوم على الاتحاد السوفيتي وعلى تقييد هجرة اليهود السوفييت، كما يجد فيها إطارا جديدا لصور عذاب اليهود وجرائم العرب.

تبدأ الرواية بمقدمة (توثيقية) لويزل يصف فيها حبه لمطار اللد بفلسطين المحتلة «ساعة وصول اليهود الروس» ويصف هجرتهم على أنها «أكبر تجمع للمنفيين يثير الدهشة في العصر الحديث» (ص ٩). ثم يوضح كيف التقى كريشا Grisha ابن الشاعر القتيل كوسوفر Kossover في هذا المطار عام ١٩٧٢ . وننتقل الى الرواية فاذا هي محاولة ويزل كتابة سيرة ذاتية لهذا الشاعر تقدم على أنها أجزاء من (عهد) أو شهادة الشاعر نفسه. تتوزع هذه الاجزاء على الرواية من البداية حتى النهاية، ونجد أحيانا بين جزء وآخر منها بضعة فصول تصف لنا انفعالات كريشا في إسرائيل وتعلقه بأبيه، ونجد أيضا قصائد للشاعر منثورة هنا وهناك. ونفهم أن وظيفة فصول الرواية هذه لا تزيد في الواقع عن تقديم ما يشبه الخلفية لفهم (عهد) كوسوفر وهنا أيضا لا يكون تعقيد الشكل الروائي سوى حيلة أخرى لقص الحكاية القديمة ذاتها، وبصورة مشابهة لما يراه القارىء في رواية (المدينة)، و (شحاذ في القدس).

يتحدث ويزل بلسان كوسوفر في أحد أجزاء (العهد) فيقول إنه كان حزبياً مخلصا وأنه كتب أواخر عام ١٩٣٥ ومطالع عام ١٩٣٦ في باريس مقالة يبيّن فيها معارضته للصهيونية (لاحظ الصيغة الوثائقية بإعطاء تاريخ دقيق والنفس الموضوعي الظاهري في الاعتراف بعداء كوسوفر للصهيونية في شبابه)، وأنه التقى في فلسطين بعض الصهاينة الشبان الذين كانوا مصممين على قتال العرب والبريطانيين، فيعبر عن دهشته من اندفاعهم إذ أن عددهم جد قليل والعدو يفوقهم عدداً وعدة، فيأتيه الجواب: «في هذه الحالة التاريخ أهم من الإحصاءات، (ص ١٦٢). ولكن مهلاً . . أي تاريخ؟ ولكن للأسف لا يسأل كوسوفر مثل هذا السؤال وهو الحزبي البارز الذي نفترض أنه درس التاريخ ووعاه، ودرس حركته ووعاها أيضا ـ بل يكتفي بالتعبير عن إعجابه بجنون هؤلاء الشباب. هكذا ينتقل المعادي للصهيونية تحت سحر كلمة (التاريخ) الغامض الى صف العداء للتاريخ نفسه.

وفي فلسطين أيضا يقابل رفيقته ليسلمها مالا من الحزب ويسألها إن كانت تتوقع إراقة دماء يهودية بسبب الصراع على فلسطين فتقول بتفاؤل: «لن يراق دم : لا دم يهودي، ولا دم عربي ـ بالنسبة لي الدم العربي والدم اليهودي سيان» (ص ١٦٦). في مقابل هذا الحرص اليهودي على دم العرب، هناك القتلة في الجانب الآخر الذين لم يكونوا يدافعون عن وطنهم، بل كانوا لصوصا منتهكي أعراض ! يقول كوسوفر في (عهده) «الموثوق» عن هذه الرفيقة المتفائلة :

---

(١٦) انظر مجلة (اليوم السابع) عدد ٩١ (شباط ١٩٨٦)، الصفحة الاخيرة. الطريف أن ويزل تلقى، كما يقول بن جلون، بعد حديثه هذا برقية من الرئيس ريغان يبدي فيها هذا الأخير دهشته من موقف ويزل غير المتوقع.

لم يكن بإمكان أحد أن يتنبأ بأنها نفسها ستهاجم وتغتصب وتقتل من قبل عصبة من اللصوص العرب الذين لم يكونوا يعلمون شيئا عن المثل العليا الشائعة في أخوة البشر، وذلك بعد عشرة أسابيع فقط خلال الاضطرابات الدموية في الخليل (ص ١٦٦).

وفي جزء آخر من أجزاء (العهد) يخبرنا كوسوفر بمخاوفه على أهله في قرية ليانوف التي سقطت تحت الاحتلال الالماني، وعندما يذهب إليها وهو جندي مع الجيش الأحمر لا يجد أحدا من أهله بل يجد عجوزين يفهم منهما أنهما تسلما هذا المنزل بعد أن أخذ النازيون اليهود الى معسكرات الاعتقال، وكما لاحظنا في رواية (المدينة) لا يفوت ويزل أن يجعل كوسوفر أيضا يتسامى كغيره من الشخصيات اليهودية فيؤكد أنه «لم يشعر بالغضب ولا بالكراهية ولا بالظمأ للدماء ولا بالرغبة في الانتقام ـ بل شعر بالحزن وحده» (ص ٢٢٨ ـ ٢٤٩). ثم تتوالى علينا صفحات عن عذاب اليهود بسبب النازية، لنصل إلى الموعظة التي لا بد منها : يشعر كوسوفر بالندم لأنه ابتعد عن أهله بسبب متطلبات النضال الحزبي، والآن يدرك معنى ما قاله له أبوه يوما : «إن مكان اليهودي مع شعبه سواءاً أكان ميتا أم حيا» (ص ٢٥١). لقد جعل ويزل من كوسوفر شبيها له تماما في العديد من القضايا فلم نعد نميز صوت الشاعر القتيل، في الجزء الأخير من (عهد) كوسوفر نتعرف على تفاصيل إعدام الشاعر اليهودي بلا محاكمة عقب نداء هاتفي من موسكو ذات ليلة، ونعلم أيضا أن أوامر مشابهة قد صدرت باعدام العديد من الكتاب اليهود في المدن السوفيتية الكبرى (ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠).

وفي رواية (الابن الخامس) The Fifth Son (١٩٨٥) يتناول ويزل موضوعا ظهر بكثرة في السينما، وتمده الاستخبارات الصهيونية بالديمومة كلما خبا ألَقُه، وهو موضوع الانتقام من القتلة النازيين[١٧].

تبدأ الرّوايه بوصول رسول إلى مدينة رشْتادت في فرانكفورت، والرسول هو الراوي الذي حمل (رسالة) لشخص يجهل الرسالة والرسول معا. ولا نفهم نحن الرسالة إلا قبل نهاية الرواية بصفحات، ولكننا نشم رائحة الدماء والمحارق من طياتها منذ الصفحة الاولى.

لماذا جئت أطلب هذه المدينة الكئيبة الكريهة؟ لماذا أجدد الوصل بماضٍ غارق بالدماء؟ الأنهي مشروعا كان مقدرا له أن يفشل منذ البداية؟ هل تصورت نفسي قادرا حقا على بسط سيطرتي على رجل ثان، وقادرا على سحقه ومحوه من الوجود؟ (ص ١٤ ـ ١٥).

ونفهم من الراوي أن والديه اللذين يعيشان في نيويورك الآن من الناجين من معسكرات الاعتقال، وأن أمه قد جنت بسبب ما قاست في الحرب، ولا بد من جمع شتات بقية الحكاية من فصول الكتاب الأخرى ومن الرسائل الكثيرة المتناثرة بين الفصول ومن الرواة الذين يظهرون لا ندري من أين ـ وخلاصتها أن روفن (أبا الراوي) وصديقا

(١٧) من الأفلام التي ظهرت عن هذه الموضوعة (ملف اوديسا) ١٩٧٤ و (رجل الماراثون) ١٩٧٦ و (الأولاد القادمون من البرازيل) ١٩٧٨.

له اسمه سمحا يقرران الانتقام من ضابط نازي هو ريجارد لاندر المسمى بالملاك، وكان حاكما قاسيا لجيتو داماروفسك ببولونيا، ويكادان يحققان ذلك بعد الحرب ولكن النازي يفلت من العقاب. بعد سنوات طوال ينجح الابن في اقتفاء أثر النازي بغية تصفية الحساب القديم.

يحشد ويزل في هذه الرواية كل ما تفيض به ذاكرة شخوصه من مآسي الجيتوات ومعسكرات الاعتقال، وهي ذاكرة خصبة تثير الإعجاب حقا! يسأل الراوي أباه يوماً:

«أكثر زملائي في المدرسة لهم أجدادهم وجداتهم، أما أنا فلا - أين هم؟»
«لقد ماتوا جميعا» أجاب أبي.
«لماذا؟».
«لأنهم كانوا يهودا.»
«لا أفهم علاقة هذا بموتهم.»
«ولا أنا أفهم» قال أبي. (ص ٦١)

ونفهم من بقية الحوار بين الأب وابنه أن جد الراوي وجدته لأمه كانا من أنصار الاندماج ولم يكونا فرحين لكونهم يهودا، وعلى العكس من ذلك كان جده وجدته لأبيه. ولكن النازيين لم يعيروا اهتماما لاختلاف كهذا فساووا بينهم جميعا بالموت: «كان لي أجداد يريدون أن يكونوا يهودا، وأجداد لم يريدوا ذلك، ولكنهم قتلوا جميعا» (ص ٦٣).

وتتوالى علينا ذكريات وحكايات لا نعرف مصدرها حتى تظهر وسط فوضى التجريب الذي يقدمه ويزل في كتابه هذا شخصية بونتشك Bontchek لا ندري من أين، ولكننا نستطيع أن ننسب بعض الذكريات والحكايات لاسم في الأقل. يقص بونتشك على الراوي حكاية الجيتو وريجارد لاندر من البداية، بأسلوب ميلودرامي فاجع ليظهر سادية النازي الذي صور نفسه لليهود ملاكا حارسا (ومن هنا جاءت تسميته)، ولكن الملاك سرعان ما يبدأ بسلب كل ثمين لليهود: الفراء وصناديق الفضة والدولارات والذهب (ص ٧٧)، ويجعل من عبور اليهودي للشارع دون أن يقتل معجزة، أو حديثه مع ضابط ألماني دون أن يقتل معجزة أيضا. ولكن بفضل زعامة روفن ليهود الجيتو يستطيع اليهود تجاوز المحن وأن يصبحوا أكثر إحساساً بتاريخهم.

لقد أصبحنا بفضل زعامة أبيك مدركين لالتزاماتنا التاريخية. هل تفهم ما أقول؟ فانا بونتشك سليل الباعة المتجولين من يهود بولونيا، لم أنظر مطلقا الى حياتي أو عملي أو نشاطاتي الصهيونية بمنظار تاريخي. فأنا لم أكن أفهم معنى أشياء مثل الاعتبارات التاريخية، كنا نناقش في تنظيمنا السياسة والريادة والزراعة والهجرة السرية الى فلسطين. اما التاريخ بوصفه بوتقة حية للبشرية فلم يكن ليصبح ملموساً لنا إلاّ بفضل أبيك (ص ٩١).

لا يمكن معرفة أي تاريخ يتحدث عنه بونتشك وأية التزامات واعتبارات تاريخية يقصد. ما هو التاريخ ليهودي بولوني؟ لماذا تصبح فلسطين، بقنطرة الاضطهاد النازي، هي أرضه وتاريخه؟ ذلك سهل عند ويزل سهولة تصوير الفلسطيني الذي يدافع عن أرضه لصا ومغتصبا.

ونأتي عبر سيل الذكريات الدافق إلى ذكرى ذات مغزى، تبدو غريبة ولا علاقة لها بسياق الأحداث ولكننا ندرك وظيفتها ودورها فيما بعد. يحدثنا الراوي عن مقال اقتطعه أبوه من صحيفة يومية تصدر في الكيان الصهيوني يصف فيها (شاهد عيان) استجواب ضابط استخبارات اسرائيلي لفدائي فلسطيني اسمه طلال. يتم القبض عليه في الجليل وهو بكامل سلاحه إذ يسارع إلى الاستسلام للجنود الاسرائيليين بمجرد أن يلاحظ أنهم أكثر عددا. يحاول الضابط جعل الفدائي يتكلم بشتى الوسائل، فيخفق ـ ويهدده بالتعذيب ويخفق أيضا ـ ثم يكتشف السر:

إنه يريد أن يتعذب، لقد هيأ نفسه للتعذيب، وربما للموت. والسبب؟ ربما ليصبح قدوة، أو ليضيف اسما جديدا لقائمة الشهداء الفلسطينيين، وكي يغذي الدعاية المعادية لاسرائيل . . . . (ص١٤٣)

ثم ينقل لنا الراوي النقاش الحاد بين أبيه وصديقه سمحا الذي يدوم حتى الفجر والذي يرفض فيه روفن العنف والتعذيب ولا يرى مبررا لهما، في الوقت الذي يؤكد فيه صاحبه أن الضابط الاسرائيلي محق في استعمال كل وسائل التعذيب، والتعذيب حتى الموت لحماية الاخرين لأن «طلال وهو حي يمثل خطرا كبيرا» (ص ١٤٣ ـ ١٤٤). إن خلافا كهذا لا يمكن أن يكون مخادعاً فهو يعطي المسوغات الكافية للعنف والإرهاب في الوقت الذي يعطي فيه الشعور بضرورة نبذ العنف والإرهاب والبحث عن بديل مناسب لهما. لا عجب أن يبرر ويزل في مؤتمر حملة جائزة نوبل العالمي الأول عام ١٩٨٨ بباريس «لجوء الجيش الاسرائيلي الى السلاح في مواجهة الأطفال الفلسطينيين في الأرض المحتلة.» [١٨]

ويأتي دور سمحا في قص حكايات العذاب في الجيتو اليهودي. والمناسبة ظروف اقتراف سمحا وروفن لعمل فظيع. العمل الفظيع كما نفهم من الفصل التالي هو محاولة قتل لاندر٢ بسبب أفعاله. لقد أصبص (الملاك) يمارس دور الله في الجيتو ويطلب من اليهود الصلاة له وعدم الزواج من سمحا لأنها تقول له إنه ليس الله (ص ١٥٢ ـ ١٥٤). يقسم الاثنان على الانتقام وتأتي الفرصة عام ١٩٤٦ ويذهبان بمساعدة فصيل يهودي خاص بتتبع النازيين، الى فرنكفورت، والى مدينة روشـ..ـدات، ويلقيان قنبلة على (الملاك) ويهربان. ولا تنتهي القصة بهذه البساطة بالطبع، بل لابد من تتبع الرحلة الطويلة للراوي وصديقته في ارشيفات الصحف ومكتبة الكونجرس الامريكي وارشيفات محاكمات النازيين ومجهودهما الخارق لاكتشاف الحقيقة ـ وهي أن (الملاك) لم يمت بل جرح فقط، وهو من رجال الصناعة البارزين الآن. وتبدأ رحلة الراوي في إتمام الانتقام، ونعود الى حيث وجدناه في الفصل الأول من

(١٨) انظر مجلة (كل العرب) العدد ٢٨٤ شباط ١٩٨٨ ص٥٠.

الرواية ـ الى روشستدات ويذهب أخيرا الى مكتب لاندر ويواجهه بوصفه صحفيا امريكيا. وبعد ساعتين من الأسئلة عن الضحايا وعن قدرة (الملاك) على القتل وعلى النسيان يشعر الراوي بتلاشي الدافع للانتقام:

> لم يعد الملاك يثير فيّ الكره والظمأ للانتقام، لقد أربكت نظام وجوده وشحذت ذاكرته، وأفسدت متعه الآتية، وفي هذا ما يكفيني. لم تعد له القدرة على ان يعمل ويعيش ويضحك وكأنه لم يجعل من جيتو دافاروفسك مسرحاً له وعالماً. (ص ٢١٤)

ليس هذا الموقف بالجديد فقد رأينا من قبل ضحايا الاضطهاد ينزّهون أنفسهم عن العواطف الإنسانية الطبيعية، ولكن الجديد هو أن يبادرنا الراوي بالشكوى من تبديد حياته في السعي للانتقام، وفي الانتقال من مدينة إلى أخرى ليخلص إلى الاعتراف الآتي: «رغم أنني يهودي أعيش في الشتات (المنفى) لكنني مرتبط باسرائيل بكل نسيج في كياني، والقدس هي المكان الوحيد الذي أحسه موطني» (ص ٢١٨).

وفي هذا الاعتراف وفي هذا المكان بالذات ينتقل ويزل الى موقع جديد إذ يشعر بضرورة حشر إسرائيل المباشر في الصورة، وضرورة حشر الفلسطيني أيضا لتشويه نضاله بتصويره كحالة مرضية مازوكية لا سبيل لإشباعها الّا بالتصدي العاجز لاسرائيل. لم يعد العطف على ضحايا النازية من اليهود كافيا، ولابد من حشد هذا العطف لخدمة الكيان الصهيوني عملياً في مرحلة عصيبة من مراحل وجوده اذ بدأت تتوضح طبيعته العنصرية والإرهابية في الوقت الذي بدأ فيه الفلسطينيون يخطّون وجودهم الصلب على خارطة العالم وعلى ضميره.

لقد استطاع الجهاز الإعلامي الصهيوني بدأبه ونفوذه لفت الأنظار لويزل عالمياً بشتى الطرق رغم تهافت فنه وموضوعاته. فأنت تراه في الصحف والمجلات والتلفزيون والقاعات كاتبا ومحاضرا ينوح على الضحايا اليهود، واليهود فقط. ونرى هذه الصحف والمجلات تنشر الرسائل كل عام منذ مطلع السبعينات يرشح كاتبوها ويزل لجائزة نوبل في الآداب. وقد فاز بنواحه وبمساعدة الصهيونية العالمية بجوائز أدبية فرنسية. يقول الناقد البريطاني المعروف دي جي انرايت D. J. Enright في عرض نقدي لرواية (شحاذ في القدس) ان الرواية تافهة، ويرجع منحها جائزة Prix Medicis في فرنسا «لمشاعر الذنب والعطف وليس لأية اعتبارات أدبية.»[19] ونجد ناقداً يهودياً يعلن صراحة أن صيت ويزل الذائع لا علاقة له بأي إنجاز أدبي بارز، ويقول ايضا. «رغم جهده الدؤوب لتحقيق الشكل، تبقى موهبة ويزل قاصرة. لقد استجاب النقاد في أغلب الاحيان للمحن التي مر بها ويزل شخصياً، وليس للطريقة التي يجسد بها تلك المحن.»[20]

---

(١٩) انظر مراجعته في مجلة London Magazine العدد ١٠ (تشرين اول ١٩٧٠) ص٨٨.

(٢٠) انظر مقال فردريك كاربر Fredrick Garber الموسوم بـ The Art of Elie Wiesel في مجلة Judaism (صيف ١٩٧٣) ص٣٠٨.

مصادر البحث

أ- المصادر العربية :

١ - بن خلدون، الطاهر. «اسبوع فلسطين». مجلة اليوم السابع العدد ٩١ (شباط/ ١٩٨٦). الصفحة الاخيرة.

٢ - سليمان، فوزي. «الصهيونية والسينما العالمية». مجلة آفاق عربية العدد ٥ (ايار/ ١٩٨٦)، ص ١٤١ - ١٤٣.

٣ - مجلة كل العرب . العدد ٢٨٤ (شباط/ ١٩٨٨).

ب - المصادر الانكليزية :

1– Alexander, Edward. **The Resonance of Dust: Essays on Holocaust Literature and Jewish Fate**— Columbus: Ohio State University Press, 1979.

2– Alter, Robert. «Deformation of the Holocaust.» **Commentary** 71 (Feb. 1981): 49– 54.

3–Enright, D.J. «A Beggar in Jerusalem.» **London Magazine** (Oct. 1970): 88.

4– Garber, F. «The Art of Elie Wiesel.» **Judaism** 22 (Summer 1973): 301– 308.

5– **Newsweek.** 12 June 1961.

6– Reichek. Morton A. «Elie Wiesel: Out of the night» **Present Tense 3,3.** (Spring 1976): 41–47.

7– Wiesel, Elie. **A Jew Today**— New York: Random House, 1978.

فضلاً عن ٧ روايات للكاتب ويزل وقد أدرجنا عنها المعلومات البيليوغرافية في أحد الهوامش.

ملحق :

ايلي ويزل :

- ولد ايلي ويزل عام ١٩٢٨ في قرية سيكت في ترانسلفانيا (كانت تابعة لرومانيا، ثم اصبحت عام ١٩٤٠ تابعة لهنغاريا وعادت لرومانيا عام ١٩٤٥)..

ارسل مع عائلته عام ١٩٤٤ الى معتقل اوشفتز في بولونيا والى معتقل بوخنفالد في المانيا عام ١٩٤٥.

- حاول الذهاب الى فلسطين عند انتهاء الحرب، ولم يستطع بسبب تقييد الهجرة، كما يقول.
- استقر في فرنسا بعد الحرب ودرس الفلسفة في السوربون عام ١٩٤٨ الى عام ١٩٥١ وغادر الجامعة دون ان يحصل على شهادة.
- تطوع للقتال في فلسطين الى جانب العصابات الصهيونية عام ١٩٤٨ ورفض تطوعه لأسباب صحية.
- اشتغل مراسلا لصحيفة صهيونية تصدر في الارض المحتلة (يدعوت احرونوت) حتى عام ١٩٥٧ . حين انتقل للعمل في صحيفة يهودية في نيويورك.
- استقر في الولايات المتحدة وأصبح مواطنا أمريكيا عام ١٩٦٣.
- نشر أول رواية له (الليل) عام ١٩٥٨، وأتبعها بعدد كبير نسبيا من الروايات والمقالات والحكايات.
- نال جوائز أدبية فرنسية عن بعض رواياته، ومنها (شحاذ في القدس) و (العهد) و (الابن الخامس).
- يشتغل بتدريس ادب الهولوكوست في بعض الكليات والجامعات الامريكية. منذ مطالع السبعينات، وهو الآن أستاذ بجامعة بوسطن.
- حصل على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٨٦.

أسطورتان رائدتان في الحضارة الأوروبية: فاوست ودون جوان

مجدي وهبه

عضو مجمع اللغة العربية بمصر

« فاوست » الأسطورة

إنه من الصعب تحديد أهمية الأساطير أو الخرافات في تاريخ تطور الفكر أو الأدب لقوم ما أو لحضارة ما . فالإجماع تقريبا عند مؤرخي الحضارات والمجتمعات هو أن الكتاب المقدس بعهديه وأساطير الإغريق والرومان هما منبعان رئيسيان لأساليب الفكر والرؤية الأدبية في حضارة أوربا منذ العصور الوسطى وحتى قبلها . والواضح في هذا التأصيل للخيال الأوربي أن المنبعين لهما أعماق دينية واجتماعية بعيدة كل البعد عن واقع الحياة الأوربية منذ أن أصبحت أوربا (وخاصة أوربا الغربية) مركزا مهما (وإن لم يكن وحيدا) لتحريك عجلة البشرية في العالم . ومع ذلك فإن المفارقة الدالة جلية واضحة على أن أغلب الصور والصيغ الأخلاقية والخيالية للحضارة الأوربية نابعة من تجارب جماعية مختلفة تماما عن تلك التي تتصل بالصراع بين السلطة الزمنية والسلطة الكنسية ، وبالصراع بين السلطة الملكية والمركزية ، وعنفوان ثورة الإقطاع ، والحركة الصليبية ، ونهضة الطبقة الرأسمالية ، والثورة الفرنسية ، والثورة الصناعية ، والتوسع الاستعماري ، وما إلى ذلك من معالم تاريخ الحضارة الغربية .

هذا صحيح إلى حد بعيد ، ولكن أوربا نفسها في عصورها المختلفة أفرزت عددا من الأساطير الدالة المنفصلة عن المنهلين المذكورين ، والمتصلة اتصالا وثيقا بحياتها الفكرية والاجتماعية . أذكر من بين هذه الأساطير الجديدة نسبيا أسطورة « فاوست » الألمانية ، وأسطورة « دون خوان » الإسبانية ، وأسطورة « هاملت » الدانماركية البريطانية ، وكثيرا غيرها من الأساطير التي بدأت في شكل قصصي شعبي أو أدبي

مدون ، ثم صارت بمثابة رمز دلالي ارتبطت به أحلام جماعة ما ، وتأويلها لألغاز الحياة و الموت على الأرض .

ولا يخالجني شك في أن دراسة العقلية الأوربية لاتكتمل بمجرد النظر إلى معتقداتها ومسلماتها وتعصباتها ، وإنما مالابد منه هو الفحص لتلك القصص والشخصيات الخرافية أو التاريخية التي أصبحت موضوعا ذا جوانب شتى ، نما وترعرع في الخيال الأوربي نتيجة لحالات نفسية أصيلة وغير مستعارة ، ثم تبدلت وتشكلت جيلا بعد جيل في تأويلات ومعالجات متجددة حتى أصبحت جزءا من التراث الحضاري الأوربي ، مثلها في ذلك مثل الكتاب المقدس وآداب الإغريق والرومان .

ومن هذه الأساطير الأصيلة الدالة أزف إليكم أسطورة « فاوست » التي ظهرت في ألمانيا في منتصف القرن السادس عشر الميلادي ، وكُتبت لها حياة طويلة في آداب العالم الأوربي من مغاربة إلى مشارقه حتى يومنا هذا .

ولد شخص حقيقي بهذا الاسم في العقد التاسع من القرن الخامس عشر بقرية صغيرة في مقاطعة فورتمبرج الألمانية ، ومات سنة ١٥٤٠ تقريبا بعد حياة حافلة بالمغامرات العلمية والإجرامية والعاطفية . كان منجما حينا ، وساحرا حينا ، وطالبا لعلوم السيمياء حينا ، ولكن السمة الغالبة لحياته هي الشعوذة والتأدب والتحايل من أجل الكسب غير المشروع والغش والتدليس بين البسطاء والسذج من الفلاحين الوافدين إلى أسواق المدن والقرى . هذا هو الشخص الذي عاش في زمن قلق للغاية معاصر تقريبا لحياة مارتن لوثر مؤسس الطائفة البروتستنتية التي ثارت ضد تحكم الكنيسة وجمود قواعدها حينذاك . ولكن تصادف أن الشخص الحقيقي دخل عالم الأساطير في مجموعة من القصص الشعبية ظهرت مطبوعة في سنة ١٥٨٧باسم « كتاب الشعب » (Volksbuch) وتعددت طبعاته سنة بعد سنة حتى منتصف القرن الثامن عشر . وهنا بدأت معالم الأسطورة الدالة تظهر من خلال حكاية لها عبرة بالنسبة لقلق العصر الذي شهد تقلبات الوعي الأوربي أمام تحديات العلوم الطبية وأمام ضيق الأفق الديني الغالب . فَقُدِّم فاوست إلى قراء « كتاب الشعب » على أنه ابن أسرة تقية من الفلاحين الفقراء ضحوا بما لديهم لكي يتعلم في المدارس ثم الجامعة المشهورةفي فيتنبرج (حيث كان مارتن لوثر أستاذا لعلوم الدين) . وفي الجامعة درس الدين والفلسفة ، ولكنه سرعان ما هجرهما لينغمس في حياة المجون ودراسة العلوم الممنوعة من سحر وتنجيم . وهذا هو ما جعله يستحضر أحد العفاريت التابعين للشيطان ، وكان يدعى « ميفيستوفليس » . وبعد ذلك يوقع فاوست على ميثاق اتفاق مع العفريت واهبا روحه إلى سلطان إبليس في مقابل السلطات السحرية والقدرة الخارقة التي يمكن أن يهبها إياه الشيطان . وكم يحاول « ميفيستوفليس » أن يبعده عن قصده هذا ذاكرا له أن الشيطان وأتباعه تعساء للغاية بعيدون عن رحمة الله وغفرانه ، ولكن فاوست يلح والعفريت يوقع معه الميثاق المذكور . ثم يقضي فاوست أربعة وعشرين عاماً من المتع والثروة والمغامرات والمقابلات مع كبار الدنيا والولائم . ولكن الميثاق كان ينص على انتهاء كل ذلك بعد أربعة وعشرين عاماً ، وفي النهاية لا مفر من احترام شروط الميثاق وفي اليوم الأخير يدعو فاوست أصدقاءه ومريديه ويقص عليهم ماتفق

عليه ، مما يفسر سر نجاحه ويعبر كذلك عن توبته وندمه اللذين لا يسعفانه أمام المصير المحتوم . ويموت تعيسا ، وتنتقل روحه إلى جهنم حيث يلقى عذابا إلى أبد الآبدين .

هذه هي الحكاية الأخلاقية التي انتشرت في كل أنحاء أوربا مؤكدة أن الإثم في العصيان ، وأن سبيل المؤمن هو الطاعة لله ولنظام الكون ، وقبول ما يمليه الدين من عدم الطموح نحو سلطان دنيوي مصدره ضيق الصدر بنواميس الحياة وبرحمة الخالق .

وفي سنة ١٥٨٩ استعان الكاتب المسرحي الإنجليزي كرستوفر مارلو بحبكة هذه الحكاية ووضعها في صيغة مسرحية . ولاشك أن الحبكة المسرحية لم تنحرف عن القصة الشعبية إلا أن مارلو استطاع أن يضمن مسرحيته عنصرا جديدا هو عنصر المأساة الناتجة عن صراع النفس مع طموحها ، وعن المصير المهلك المتناقض بين ماتصبو إليه أحلام فاوستوس وآماله وحقيقة الأمر المرة الطاغية في ظروف الحياة الدنيا . فلاشك أن مارلو لم يكره بطل مسرحيته مثلما كان مؤلفو « الكتاب الشعبي » يكرهون « لا بطل » قصتهم . فالمأساة عند مارلو هي مأساة فشل الإنسان في تطلعاته نحو المعرفة ونحو إدراك الحقيقة وراء غموض الحياة ، وليست مأساة مجرد الجزاء الواقع على نفس ثارت ضد خالقها وارتكبت إثما لايغتفر . إن البعد الإنساني للبطل المهزوم هو البعد الذي أحب مارلو أن يبرزه في مسرحيته . وهذا البعد هو الذي كان يتفق مع روح عصر النهضة الأوربية التي كانت بمثابة مساءلة لكل المسلمات الموروثة ، ولتلك العقلية القديمة التي كانت تصور حياة الإنسان على أنها تخبط في ظلمات الطاعة لمصير غير مفهوم .

والواقع أن تطور شخصية فاوست في تاريخ الخيال الأوربي لم يأخذ حظه من الحرية والانطلاق إلا مع الحركة الرومانسية في ألمانيا بصفة خاصة . فكانت التطلعات الفاوستية ذات صدى واضح في نفوس الشعراء والمفكرين الرومانسيين اللذين كانوا منجرفين في تيار من الرفض لكل نواميس الماضي ، والذين كانوا مؤمنين بأن عصر التنوير الذي سبق جيلهم هو السبيل الصحيح نحو انتفاضة الثورة الفرنسية ، وإطلاق النفس البشرية من أغلال الطاعة العمياء ، وقبول الأوضاع على ما هي عليه من غير تساؤ ل ولا تشكك . إن تيار الرومانسية مع اطلاقه للتعبير الحر عن العواطف والمشاعر كان يعطي ، إلى جانب ذلك ، ، أهمية كبرى للأمل في اكتشافات العلوم الطبيعية ، وفي انتصار التفكير العقلاني . وفي الرومانسية الألمانية بصفة خاصة هذا المزيج الغريب من التطرف في الشك والتعقل والتعصب للإيمان ببطولة الذات الفردية والروح الجماعية والحنين إلى المجهول في آن واحد .

أما العملاق الذي ظهر شامخا يعلو بعبقريته الرومانسية والكلاسيكية معا فهو « جوته » صاحب مسرحية « فاوست » بجزأيها . ظهر أولهما سنة ١٨٠٨ ، وثانيهما على مراحل بين سنتي ١٨٢٧ و ١٨٣٢ . ويجدر بنا أن نشير هنا إلى الترجمة العربية الرائعة التي قام بها المرحوم الأستاذ الدكتور عوض محمد عوض للجزء الأول .

وفي هذه المسرحية توجد نفس العناصر الأساسية التي كانت قد تبلورت في « الكتاب الشعبي » ، إلا أن الجديد والمهم في نص جوته هو الرؤية البطولية إلى شخصية فاوست ، أي اعتباره رمزا للإنسان في صراعه نحو المعرفة ونحو رقي الإنسان . يضيق فاوست ذرعا

بحدود الحياة ، ويتشكك في وجود الشيطان ، إلا أنه يروج لفكرة توقيع الاتفاق معه بعد التردد ، وإيمانا منه بأن أية وثبة في الظلام نحو احتمالات المعرفة خير من البقاء في الظلام خائفا مستسلما .

والجديد أيضا هنا هو ظهور شخصية « مارجريت » التي يحبها فاوست حبا عميقا ، ولا سلطان للشيطان عليها . إن مارجريت هذه بمثابة شعاع الأمل والطهارة في حياة فاوست . ولكن الشيطان يدفع فاوست إلى أن يهتك عرض مارجريت التي تصبح بعد ذلك أمّا لولده ، ولكن ظلام المأساة ينقض على الأم التعيسة فتجن وتقتل وليدها ، ويحكم عليها بالإعدام . وكم يحاول فاوست أن ينقذها عن طريق سحره الشيطاني ، ولكنها ترفض واهبة نفسها قربانا للحب وللإثم معا . وتنتهي المسرحية بيأس فاوست وحزنه ، بالرغم من أنه يسمع صوتا من السماء يهمس له أن مارجريت قد نالت الغفران الإلهي .

أما الجزء الثاني فيتميز بالمزيد من المحاورات الفلسفية مع الإمبراطور رمز السلطان الدنيوي من ناحية ، ومع الشخصيات الخرافية الرمزية من ناحية أخرى . يستمر فاوست ساحرا مؤثرا في الأحداث ومثيرا لإعجاب الإنس والجن ، ولكنه يحلم بالمدينة الفاضلة التي تتطلع إليها الإنسانية ، ويعقد حديثا طويلا في هذه الأمور مع جني قزم يدعى الإنسان المصغر (Homunculus) . ثم يقع في غرام شبح يستحضره هو شبح هيلانه الطروادية ، ويضاجعها فتضع ولدا جميلا عجيبا لا يعرف المستحيل ، ويرمز للإنسان الكامل المثالي كاشف الحياة وحدودها . ولكنه يختفي مع أمه عائدا إلى العالم السفلي .

وفي ختام المسرحية يجد فاوست خلاصا في الموت بعد تأمله في السبل المؤدية إلى إقامة العدالة والرخاء ، ومدينة فاضلة تصبو إليها تطلعات البشر . ويجد الغفران الإلهي في آخر المطاف مدركا الجنة حيث تشفع له روح مارجريت . هناك تنصت إلى جوقة من المنشدين يمجدون روح الأنثى الخالدة التي ترفع الإنسان دائما إلى الأعالي .

هذا هو الأثر الأدبي الذي تغلب على غيره من النصوص الفاوستية ، وصار نموذجا لأغلب التأويلات الجديدة التي ظهرت في أوربا حتى يومنا هذا .

ويجدر بنا بعد ذلك أن نلقي نظرة على الدلالات المختلفة التي أطلقتها مسرحية جوته في التاريخ الفكري والأدبي للأوربيين منذ القرن التاسع عشر .

دلالة الأسطورة

يجدر بنا أولا أن نحدد ما نعنيه بكلمة « أسطورة » التي كتب لها أن تتنافس عند فقهاء الفلسفة العرب الحديثين مع كلمة « خرافة » ترجمة لكلمة (Mythos) اليونانية الأصل والمنتشرة في كل لغات أوربا . وإني آثرت أن أستعمل « الأسطورة » لا إيمانا بدقتها وإنما لأنها بعيدة عن المعاني المستهجنة التي تتضمنها كلمة « خرافة » .

والمقصود بالأسطورة هنا قصة لها قيمة المثل بالنسبة لجماعة من البشر ـ أي قصة تترجم في أحداثها معنى وجه من وجوه الوجود . وذلك إما بالتبرير لوضع من الأوضاع (كصورة الموت مثلا) أو سمة من سمات الحياة البشرية (كفرص المصير أو تقلبات الحياة

الوجدانية) وإما بالتقديم الواضح لما يجب أن يكون من نظم أو أفعال فردية أو حركات جماعية ، وذلك من خلال شخصية تاريخية أو خرافية صارت مثلا يحتذى أو نذيرا يجتنب .

وقد راقني تعريف للأسطورة أتى به فقهاء الجمعية الفلسفية الفرنسية في معجمهم ، وهو تعريف يتميز بما قل ودل هي : « صورة لمستقبل خيالي (قلما يمكن تحقيقه) تعبر عن مشاعر جماعة ما وتخدم وظيفة الدفع نحو اتخاذ موقف أو الإتيان بفعل ما » . هذا تعريف يصور الأسطورة بوصفها مخططا للمستقبل (مثل الأوتوبيات المختلفة وبعض الملاحم القومية) ولكنها قد تكون أيضا ـ وهذا هو الغالب ـ تفسيرا لأحداث مضت أو للغز نواميس الطبيعة والحياة .

ومع ذلك فإن الأسطورة قد تلعب دورا ثالثا هو كشف الستار عن أعماق النفس وتطلعاتها ، وهذه هي الدلالة الواضحة لتلك الأساطير الأوربية الأصيلة ، شفوية شعبية كانت أو أدبية مدونة مثل قصة دون خوان ، أو دون كيشوت ، أو تريستان ، أو هملت ، أو فاوست . ونلاحظ أن كل هذه الأساطير تدور أحداثها حول شخصية تتصارع في نفسها مشاعر متناقضة ترفعها إلى قمة البطولة حينا ، وإلى أعماق العبث حينا آخر .

أما أسطورة فاوست فقد شغلت بال الكتاب والمفكرين الأوربيين لعدة أسباب ، منها قابليتها للتأويل بطرق مختلفة حسب ميول المؤول أو روح العصر . فهل هي قصة ثورة ضد النظام العام والشرعية القدسية التي تتطلب طاعة الإنسان طاعة مطلقة مثلما كان مفروضا على آدم قبل عصيانه ؟ أو هل هي دراسة متأملة في العلاقة بين المعرفة وحدودها حيث يأتي الالتجاء إلى السحر ، أو إلى التعاقد مع الشيطان رمزا لطموح الإنسان الجارف وتوقعه إلى السلطان ؟ هل هي قصة تمزق النفس بين قبول نظام الكون وبين المغامرة الكبرى في عالم المجهول ، أو ارتماء الإنسان في أحضان الظلام بحثا عن تنوير ما ؟ هل هي قصة العلاقة المتوترة بين النظرية والتطبيق التي لخصها جوردانو برونو مفكر عصر النهضة في ايطاليا في تعريفه للساحر « إن الساحر هو حكيم ذو قدرة على تطبيق حكمته » ؟

وإذا عدنا إلى قوالب القصص الشعبي المألوفة ، أيمكن تفسير قصة فاوست في ضوء حكايات « ألف ليلة وليلة » وبخاصة تلك التي تبرز علاقة التبعية بين الجن والإنس كما هي الحال في حكاية علاء الدين ؟ كل هذه تساؤلات وصيغ فكرية وقصصية شغلت بال الأدباء بصفة واضحة بعد ظهور مسرحية جوته بجزأيها . ذلك لأن هذه المسرحية كانت بمثابة انطلاق خارج قوالب القصة القديمة . فالأسطورة في شكلها الأعلى كانت قصة أخلاقية ذات مغزى ديني تبرز العقد الحرام بين الإنسان والشيطان والعقاب الذي ينتج عن العصيان . أما مسرحية جوته فقد ذهبت إلى أبعد من ذلك مبرزة عنصر التحدي في هذا التعاقد . فإن المتع والشعوذة المبهرة ، والشعور بالسلطة التي يقدمها له التعاقد الشيطاني ما هي إلا محاولة لإعطاء معنى للحياة التي يعيشها فاوست . فإذا وجد بعد ذلك أن ما يقدمه له الشيطان لا يروي ظمأه النفسي قبل أن يهلك وأن يذهب إلى جهنم أسيرا لعقده المبرم مع الشيطان ، فإن العفريت الذي يخدمه ويبرم معه العقد ما هو إلا الجانب السلبي في قصة المصير الإنساني أو وسيلة من الوسائل التي تبرهن على عبث الحياة . أما فاوست فهو البطل أو « اللابطل » الذي يجرب كل شيء ، حتى تحري العبث ، في سبيل

الانطلاق نحو إدراك أعمق لحقيقة ذاته وحقيقة الحياة . لاشك أن هذه المخاطرة التي يقبلها بمحض إرادته ما هي إلا اختيار واضح لموقف الاغتراب المطلق في سبيل المعرفة . فهو منبوذ بحكم تعاقده ، ولكن حياة المنفى هذه قد تفتح باب المعرفة ، وخاصة معرفة الذات . وبالفعل إن الخلاص الذي يحصل عليه في آخر الجزء الثاني هو عودة من المغامرة النفسية الكبرى بشيء جديد في جعبته ، ألا وهو إدراك الذات وقبول الموت ، بعد التوحد الرهيب الذي يدعه متأملا في نفسه وفي من حوله بغية تعميق الفهم . وهذا التعميق للفهم هو ذلك الذي قد ربحه من الاغتراب ومن التعاقد الشيطاني ومن حياة الزيف الذي منحه إياه شيطانه . . . إلى حين .

إن الموضوعات الدالة المختلفة التي أنتجتها مسرحية فاوست في أذهان الأوربيين هي تلك التي ورثها أدباء العصور اللاحقة على عصر جوته . ويمكن القول إن الصيغة الموسيقية أو الأوبرالية لأسطورة « الفاوست الجوتي » هي التي أكسبتها جمهورا واسعا في كل أنحاء العالم . فالكثير لم يقرأ مسرحية جوته ولم يشهدها وإنما أوبرا « فاوست » لجونو التي ظهرت سنة ١٨٥٩ هي بلاشك الأثر الفني (المستوحى من الجزء الأول لفاوست جوته) الذي لقي رواجا فنيا وفكريا في الجمهور الأوربي . وإذا سمح لنا أن نترك جانبا الأكثر من ٥٠٠ معالجة فنية أو أدبية لموضوع فاوست التي غمرت أوربا بعد مسرحية جوته ، والثلاثين معالجة سينمائية لها من أول فيلم صامت في هذا الموضوع سنة ١٨٩٦ ، وجدنا أن هذه الأسطورة الدالة لقيت صدى واضحا في علم النفس وفلسفة التاريخ والفكر السياسي في القرن العشرين .

إن كارل جوستاف يونج عالم النفس السويسري في قرننا هذا اعتبر فاوست نموذجا للإنسان المنبسط الشخصية الذي يواجه تحديات العالم الخارجي ، بل يخاطر في حياته في سبيل ذلك حتى يدرك معرفة ماقد يفسر له معنى الحياة . واعتبر يونج شخصية فاوست أحد العناصر التي يتألف منها اللاوعي الجمعي للإنسان الأوربي .

أما المؤرخ الألماني أوزفلد شبنجلر فقد أعطى الأسطورة الفاوستية معنى جديدا في كتابه الشهير الذي ظهر بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة تحت عنوان « اضمحلال الغرب » . وكانت فلسفة شبنجلر لتاريخ الغرب تدور حول محور افتراضي واحد هو أن التاريخ ليس تطورا أو تعاقبا للأحداث في نظام خطي ، تتلو فيه المسببات الأسباب ، وإنما هو تزاحم للحضارات المختلفة المستقلة تماما بعضها عن بعض . فللحضارة الواحدة دورة حياة لها بداية ونهاية ، مثل النبات الذي ينمو تبعا لقانون نمو كامن فيه وخاضع لتلاحق الأطوار المتمشي مع تتابع فصول السنة - أما الحضارة الأوربية فكان شبنجلر يرى أنها أدركت شتاءها ، وأن القوى الدافعة الوحيدة التي بقيت في جسمها الهرم هي القوى الفاوستية المتمثلة في روح ألمانيا بعد هزيمتها في الحرب . وذلك بدليل إرادتها في النهضة والانطلاق القومي .

وليس غريبا أن مثل هذا التفكير قد لقي صدى في نفوس النازيين فيما بعد . أما الإرادة والقوة الفاوستية على حد تعبيره فهي متمثلة فيما يخالج نفس الإنسان الأسطوري « الفاوستي » من حنين إلى المجهول ، وإلى

الانطلاق نحو إدراك الحقيقة وراء المجهول . فالإنسان الفاوستي هو إنسان فردي النزعة يعطي الأولوية في كل تصرفاته للإرادة وحب الاستطلاع وروح المخاطرة . وقد اعتمد شبنجلر في تفسيره هذا على تفرقة كان نيتشه قد قام بها في كتابه « مولد المأساة » حيث ميز بين عنصرين : العنصر العقلاني المتأثر بأسطورة أبوللو من ناحية ، والعنصر الغريزي الإرادي المتأثر بأسطورة ديونيسوس من ناحية أخرى . أما العنصر الفعال في رأيه بالنسبة للحضارة الأوربية الحديثة فهو العنصر الفاوستي ، الذي يجمع بين العنصرين المذكورين ، ويفسح المجال لكل التطلعات والاستكشافات والمغامرات حتى سبر أعماق الفضاء .

وقد كُتب لشبنجلر أن يلقي كتابه رواجا في أوساط المفكرين المتعصبين للقوميات الناشئه ، وبخاصة تلك التي افرزتها الحرب العالمية الأولى . وإنما الغلو في الافتراضات المبهمة والتعميمات غير المستندة إلى أسس من الواقع قد وضعت حدا لهذا الرواج ، وبخاصة بعد ظهور مدارس التاريخ الحديثة المتأثرة بالتفسيرات الاقتصادية والسوسيولوجية لتطور أحداث البشر عبر العصور .

لم يقتصر التأويل والتحوير لشخصية فاوست على ما جاء في كتب علم النفس والفلسفة فحسب ، وإنما امتدا إلى غير ذلك من ميادين المعرفة واتجاهات الفكر . فقد استولى عليها المفكر الديني المتصوف رودلف شتاينر في النمسا إبان الحرب العالمية الأولى ، واعتبرها رمزا دالا على قدرة الإمكانات الروحية الكامنة في النفس البشرية ، وعلى النزوع التلقائي نحو المعرفة الكاملة التي لاتكون إلا معرفة روحية . وعلى النقيض من ذلك فإن المفكر الماركسي لونا تشارسكي (أول وزير للثقافة السوفيتية بعد ثورة سنة ١٩١٧) جاء بتأويل ماركسي لأسطورة فاوست . فكتب مسرحية سياسية اسمها « فاوست والمدينة » أكد فيها عبقرية فاوست العلمانية العلمية ، وتطبيقها على إصلاح المجتمع بالتحالف السريع بينه وبين جماهير الشعب . فالفاوست المذكور هنا هو فاوست الجزء الثاني من مسرحية جوته ، وهو رئيس دولة بحكم السحر يريد خيرا وتقدما لشعبه ولا يستطيع أن يحققها إلا عندما يتحول إلى زعيم يستمد قوته وحكمته وفهمه للأمور من تحالفه مع جماهير الشعب مصدر السلطات وموضوع الحكم .

وقد لايتسع المجال لإعطاء أمثلة أخرى للمعالجات المختلفة لأسطورة فاوست ، إلا اننا لا نستطيع أن نتجاهل اثنتين : تلك التي جاءت في رواية نثرية طويلة للكاتب الألماني توماس مان ، الذي كان مناهضا للنازية ، وتلك التي جاءت في مسرحية لم تكتمل بعد للكاتب الفرنسي الراحل بول فاليري . أذكر هاتين المعالجتين على سبيل المثال لحيوية الأسطورة طوال القرن العشرين ، والمهم في ذلك أن الأسطورة التي نبعت من ألمانيا في القرن السادس عشر كتب لها حياة طويلة ، مثلما حدث في حالة الأساطير الدالة الموروثة عن العالم القديم . والسبب في ذلك هو أن أساليب الحياة العصرية لازالت تبحث عن صيغة للبقاء الأمثل في بيئة نفسية طغى عليها اليأس والخوف ، والبحث عن الذات والتطلع إلى مستقبل مبهم المعالم . من السأم والقحط تنطلق النفس الطموحة : تنطلق إلى أين ؟ من يدري ؟ المهم أن تجند كل عبقريات العصر لتجد المعرفة ، وبخاصة معرفة الذات مثلما فعل فاوست وهو على مشارف الهلاك .

دون خوان
الأسطورة

إذا كانت أسطورة « فاوست » تجسد انطلاق حب الاستطلاع عبر حدود المباح في الحياة الدنيا ، فإن أسطورة « دون خوان » تعالج تحديا من نوع مماثل وإن لم يكن مطابقا له . فالتحدي هنا هو تحدي الإنسان الذى يحاول أن يشبع شهواته ورغباته الحسية فى مواجهة متطلبات الطاعة لشريعة قدسية بل فى مواجهة الموت بعينه . إن أصالة أسطورة « دون خوان » فى الآداب الأوربية تأتى من كونها غير منبثقة من تراث شعبي قديم ، بل إنها وليدة خيال مبدع واحد له تاريخ معين وصيغة معينة ، فهى موضوع مسرحية كتبها راهب إسبانى كان يدعى جبريل تيليث (Gabriel Tellez) فى سنة ١٦٣٠ م تحت عنوان« مخادع اشبيليا والضيف الحجرى » وقد اشتهر هذا الراهب باسم مستعار هو « تيرسو دى مولينا » (Tirso de Molina) الذى يعتبر مع لوبى دى فيجا وكالدرون أحد عمالقة المسرح الإسبانى الثلاثة . وخلاصة الحبكة التى تدور حولها المسرحية تجرى على النحو التالى :

فى ليلة من الليالى جاء دون خوان تينوريو ، وهو من أشراف إسبانيا ، إلى قصر الدوقة إيزابلا فى مدينة نابولى متقمصا شخصية عشيقها ، وحاول هتك عرضها ؛ ولكن خدعته كشفت ، فاضطر إلى أن يتخذ سبيل الهروب فى أشد المواقف حرجا ، وأبحر فى سفينة متجهة نحو إسبانيا . ولكن الأقدار شاءت أن تعطب السفينة قرب شواطىء تاراجونا ، فألقته الأمواج على الساحل حيث آوته بنت صياد ، ورد معروفها بأن أغواها واعداً أن يتزوجها ، ثم هجرها دون زواج وذهب إلى إشبيليا . وفى إشبيليا عثر بعد قليل على خطاب أرسلته السيدة أنا دى أولوا (Anna de Ulloa) إلى خطيبها المركيس دى لاموتا . فتقمص دون خوان شخصية المركيس ودخل حجرتها ليلا محاولا ان يجبرها على أن تخضع لشهوته العارمة . ولكن سرعان ما ارتفع صراخها فزعا ، فدخل والدها القائد دون جونزالو عليها وحاول أن يقبض على الجاني ، ولكن دون خوان استطاع أن يقضى عليه بسيفه ، وولى هاربا قبل أن يتعرف عليه أحد . غير أن المركيس هو الذى شبه للحاكم أنه القاتل فاعتُقل رهن المحاكمة .

وشاءت الظروف بعد ذلك أن يحضر دون خوان حفلة زفاف ريفية فى إحدى القرى بالقرب من إشبيليا ، وسرعان ما حاول أن يغرى « أبنْتا ». العروس ، باهرا إياها بثرائه فخضعت لإغوائه ، واستطاع أن يشبع شبقه معها ثم هجرها بدورها . ولكن القصاص كان فى انتظاره بكنيسة إشبيلية ، حيث شهد تمثالا للقائد الذى كان قد قتله شامخا من فوق مقبرته . ولم يخجل دون خوان من أن يسخر من التمثال ، وأن يوجه له السب والازدراء داعيا إياه الى وليمة عشاء فى تهكم وعدم مبالاة . وكم دهش دون خوان عندما طأطأ التمثال رأسه قابلا الدعوة ، فمد التمثال يده الى دون خوان الذى أمسك بها تأكيدا للعهد . ولكن سرعان ما هشمت القبضة الحجرية يد الإنسان الذى شعر عندئذ بأن نار جهنم كانت تدب فى عروقه . وصاح مستنجدا وتوسل إلى التمثال أن يمنحه فرصة للتوبة ، ولكن التمثال لم يستجب له ، وانشقت الأرض تحت قدميه ، وسقط الخاطىء التعيس إلى أعماق جهنم .

هذه هى الأسطورة كما بدأت فى صياغتها الأدبية المسرحية : شرير مخادع هاتك أعراض النساء ، وقاتل مغتال يلقى عقابا فى النهاية من قوة غيبية لم يكن يحسب لها حسابا ـ هذه قصة أخلاقية يعاقب فيها من لا يحترم

نواميس الدين ولا عرف الدنيا . ويلاحظ أن الحبكة المذكورة هى أساس البناء الثلاثى للأسطورة ، حيث تتكرر طوال تطوراتها وتحولاتها المختلفة عناصر ثلاثة ، هى البطل أو اللابطل الشبق والموت (فى شكل التمثال المنتقم) والنساء العاشقات التى تربط إحداهن (بوصفها بنت القتيل) بين الموت والحياة ممثلة فى دون خوان . واستمرت هذه البنية الثلاثية للأسطورة متكررة فى المعالجات المختلفة التى طرأت عليها فى المسرحيات الخفيفة الإيمائية ، التى كانت منتشرة فى إيطاليا عامة وفى البندقية خاصة باسم « الكوميديا ديلارق » أو الملهاة الفنية . ومعنى ذلك أن الجوهر الأخلاقى بقي محتفظا به على وجه منطقي بسيطا . أما المعالجة الجديدة التى أدخلت عناصر جديدة أكثر تعقيدا في الحبكة ، فقد ظهرت فى فرنسا وليدة عبقرية موليير سنة ١٦٦٥ تحت عنوان « دون جوان أو الوليمة الحجرية » . فى هذه المسرحية اتجه موليير نحو تعميق شخصية اللابطل ، بحيث يظهر بمظهر المخادع الذى لا يفلت من تأنيب الضمير ، والرجل الذى ينتمى إلى طبقة من علية القوم وهو يعي تماما حقيقة الأخلاق التى تتصف بها هذه الطبقة من كبرياء وشجاعة وكرم وعزة نفس . كما أنه يتأرجح بين الرغبة فى إشباع الشبق الذى يملأ كل وجدانه والمعرفة بأنه لن يستطيع إشباعه تماما على الوجه الذى يصبو إليه . ثم إن موليير قد ابتكر خادما له ، وهو شخص يتميز بكل الصفات المغايرة لتلك التى يتميز بها دون جوان ـ فهو رعديد فزع من كل احتمالات الثأر الآتى من غير شك ، كما أنه على جانب كبير من الحساسية الأخلاقية يقوم من حيث لايدري بدور الضمير المؤنب لسيده ، والناصح الذى لا يؤخذ بنصيحته . فهو بمثابة تعميق لشخصية « ليبورلو » الذى كان خادم خوان فى مسرحية تيرسو دى مولينا .

والجديد أيضا فى مسرحية موليير أنه لم يُبْقِ شخصية « أنا » بنت القائد ، بل أعطى دون جوان زوجة شرعية هى « إلفيرا » التى كان قد اختطفها من دير راهبات قبل التزوج بها . ومع ذلك فسرعان ما تغلبت فطرته الشهوانية على التزاماته الزوجية فهجرها فى سبيل سلسلة من المغامرات الغرامية المتصفة بالرياء والمخادعة من جانبه فى آخر الأمر . واستطاع كذلك أن يفلت من ثأر أخَوَيْ زوجته بالخدعة والمداهنة ، إلا أنه وجد نفسه ذات يوم بمحض المصادفة أمام مقبرة شخص كان قد قتله فى مبارزة هو القائد (الذى نقله موليير من مسرحية تيرسو دى مولينا إلى مسرحيته مستقلا عن شخصية بنته السيدة أنا) وفى كبرياء وازدراء أمر دون جوان خادمه « اشجاناريل » أن يدعو القائد إلى وليمة عشاء فى بيته . وبعد تردد وخوف شديد وجه الخادم دعوة سيده إلى تمثال القائد فوق مقبرته . وكم فزع دون جوان وخادمه لما رأيا التمثال ينحني مجيبا وقابلًا الدعوة . فأتى بعد ذلك التمثال كما وعد لتناول العشاء ، ثم وجه بدوره الدعوة إلى دون جوان الذى قبل رغم شعوره بالخطر . والواقع أن الغرور والكبرياء تغلبا على الشعور بالذنب والخوف ، فذهب دون جوان إلى وليمة تمثال القائد . وعندما صافحه التمثال شعر دون جوان بأن قبضة التمثال كادت تقضي عليه ، فصاح خوفا واستنجادا ولكن القدر قد آنَ أوانه ، وانشقت الأرض تحت قدميه وابتلعته فى أعماق الجحيم .

أما الإشعاع العالمى لأسطورة « دون جوان » فقد بدأ بالمعالجة الأوبرالية لها على يد موتزارت (Mozart) فى أوبرا « دون جوفانى » التى كان قد كتب نصها بالإيطالية

لورنزو دابونتى . وقد عرضت هذه الأوبرا لأول مرة فى مدينة براج سنة ١٧٨٧ . والمهم هنا أن الأوبرا تجنبت التعميق السيكولوجى لشخصية دون جوان على نحو ماكان موليير قد أتى به ، وعادت مباشرة إلى الحبكة التى كان قد وضعها تيرسو دى مولينا ؛ فهناك عودة لشخصية « دونا أنا » والخادم ليبورلو . كما أننا نلاحظ العودة إلى المعالجة الأخلاقية حيث نجد عرضا لتحدي « دون جوقان » أمام مقدسات الأسرة والعفة وكبريائه التى أدت إلى القصاص على يد تمثال القائد أداة العدالة الإلهية . ولا شك أن عالمية المعالجة الموسيقية الأوبرالية ، وجمال الألحان الفائق قد كتبا للأسطورة حياة ممتدة عبر حدود اللغة ، والذوق القومي ، والقيم الأخلاقية .

إنه لمن العسير تحديد معالم انتشار أسطورة دون خوان بعد أوبرا موتزارت ، فقد استطاع بعض الدارسين للأدب المقارن المحدثين أن يحصروا ما يقرب من أربعمائة معالجة مختلفة فى آداب أوربا لأسطورة دون خوان . ومع ذلك فلابد أن ننوه إلى أن هذه المعالجات لم تكن كلها مسرحية ، إذ استطاع الكاتب الألمانى إرنست هوفمان أن يدخل الأسطورة فى رواية نثرية قصيرة تحت عنوان « دون جوان » سنة ١٨١٣ ، وفيها يسمع نزيل فى فندق ألحان أوبرا موتزارت تتسلسل إلى أذنيه من دار مجاورة . وسرعان ما اكتشف أن هذه هى دار أوبرا تقدم فيها أوبرا « دون جوقانى » وعندئذ أدرك من حيث لايدري أن « دونا أنا » فريسة العاشق الضاري تقف بجواره بينما هى واقفة على خشبة المسرح تغنى أدوارها فيها ، فيجلس إلى مكتبه ويكتب خطابا مطولا لأحد أصدقائه شارحا له دلالة « أوبرا دون جوقانى » كما تبدو له ، وكأنه يكتب بإلهام من دونا أنا . وفى ساعة متأخرة من الليل يحس بتوتر غريب ، ويكتشف فى اليوم التالى أن المغنية التى كانت تغنى دور دونا أنا قد ماتت فجأة فى نفس الساعة . وكانت هذه الرواية القصيرة الغريبة بمثابة أول انطلاق أدبى فى أوربا للتأمل فى معانى الأسطورة وللمعالجات المختلفة التى طرأت عليها . ومن هذه المعالجات تلك القصيدة الشهيرة للورد بايرون ، التى كانت بمثابة ملحمة ساخرة (وغير مكتملة) لروح المغامرة الرومانسية التى تجسدت فى شخصية دون جوان ، الذى أبحر فى شبابه نحو شواطىء اليونان فتحطمت السفينة التى كان فيها وأُلقي به على الساحل ، حيث أحبته فتاة جميلة هي بنت أحد القراصنة . فغضب أبوها وأسر دون جوان ، وأخذه إلى أسواق الرقيق فى الآستانة حيث باعه لأميرة من بيت السلطان ، فأحبته ، ثم أثار غيرتها فحاولت قتله ، فهرب إلى صفوف الجيش الروسى . فرأته الإمبراطورة إكاترينا وهامت به حبا فعهدت إليه برسالة سياسية سافر بها إلى بريطانيا حيث أطلق زمام خياله الساخر ليصف الأحوال الاجتماعية فى تلك البلاد . ثم مات لورد بايرون قبل أن يختم قصيدته الطويلة . وهنا يلاحظ أن البطل أو اللابطل لا يهتك عرضا ولا يغري فريسة حب بل يصبح دائما هو هدف عشق النساء .

هذا القلب للأوضاع بالنسبة لطرفي المطاردة بين الجنسين هو الذى قدمه برنارد شو فى مسرحيته الشهيرة « الإنسان والإنسان الأعلى » سنة ١٩٠٥ ، التى تضمنت مشهدا شبه مشتعل فى الفصل الثالث تحت عنوان « دون جوان فى الجحيم » . وقدم شو هذا المشهد فى شكل حلم لبطل المسرحية « جون تانر » متقمصا شخصية دون جوان . ويدير حوارا ذكيا ساخرا مع الفتاة « آن » التى هو أحد وصييها ومع « رامزون » (وصيها الآخر) الذى يظهر فى شكل تمثال القائد . والحديث كله يدور حول طبيعة التقدم ، وقوى التطور ، وما كان

يسميه شو « قوة الحياة » . أما الشيطان الذى يدير المناقشة فهو من أنصار القول إن الإنسان ضار هدام بالفطرة ؛ إلاأن دون جوان (أو تانر نفسه ، لسان حال برنارد شو) يدافع عن قدرة الفكر والعقلانية على إصلاح المجتمع والبشر ، كما يدافع عن فكرة كون الفيلسوف بمثابة مرشد للطبيعة . هذا ويختم شو مسرحيته بأن تدرك « آن » هدفها بعد ذلك وهو الزواج من تانر بالرغم من مقاومته على أساس أنها هى التى تمثل « قوة الحياة » أو الطرف المطارد الحق فى الموقف « الدون جوانى » بين الفريسة والمطارد .

ويبدو واضحا من هذه الخلاصة السريعة لمعالجة شو أنها لم تكن تطويرا ولا استمراراً لأسطورة « دون خوان » ، بل إنها مجرد صيغة شكلية ليعبر بها الأديب الفيلسوف عن أفكاره . أما التقليد الحق لتطوير الأسطورة فكان منبثقا فى الواقع من المعالجات المختلفة التى توالت فى الآداب الأوربية طوال القرن التاسع عشر ، وكلها معالجات تهتم ، أولا وقبل كل شيء ، بتحليل شخصية دون جوان نفسه ، وبتأويل دوافعه فى ضوء الرومانسية السائدة فى ذلك القرن . فكأن الاهتمام انتقل حينئذ من الموقف أو الحبكة أو العلاقة بين دون خوان والنساء والموت إلى رحلة كشف فى أعماق نفس البطل الذى يتأرجح بين الخضوع لقضاء صارم وبين الثورة اليائسة ، أو التحول من عزلة الكبرياء إلى سلوان المحبة والغفران .

بعض دلالات الأسطورة

هناك أمران لابد من تذكرهما عندما نمعن النظر فى أسطورة « دون جوان » : أولهما أن الأسطورة بشكلها المعروف وليدة المسرح ، وثانيهما أن العناصر التى تبقى وتتكرر فى كل التأويلات والمعالجات المختلفة للأسطورة هى ثلاثة : دون جوان نفسه المخادع الشبق ، والنساء المخدوعات ، والموت المنتقم .

أما كون الأسطورة وليدة المسرح فهذا ما ألبسها شكلا خاصا قد يمكن تشخيصه على النحو التالى : أولا أن القصة تبدو كأنها دائما تحدث فى الوقت الحالى ، فأحداثها لا يمكن سردها أو الإشارة إليها على أنها أحداث مضت . فضرورات المسرح تقتضى أن الحبكة تمثّل أمام النظارة أثناء وجودهم في دار العرض ، الأمر الذى أضفى على أسطورة دون جوان جوا من العجلة والارتجال فى مشاهدها المختلفة . فالمطاردة الغرامية تقدم لنا أثناء حدوثها بإيقاع عاجل لا مفر منه لكون المسرحية ذات بداية ونهاية فى زمن محدود على خشبة المسرح . وهذا التعجيل لإيقاع الإغواء والمخادعة يؤدى بدوره إلى تشكيل شخصية دون جوان نفسه تشكيلا خاصا . فهو صياد القلوب الذى يعتمد على حيله البلاغية وفطنته الذكية لكى يدرك هدفه فى أسرع وقت ممكن ، ولا يكاد يدع لنفسه فرصة التمتع بما استطاع أن يدركه من نصر غرامي حتى يأخذ فى الالتفات إلى هدف آخر وإلى مطاردة جديدة . فهو يمل الانتظار ويضيق به صدره إذا وجد ما يعرقل تقدمه . ونتيجة هذا القلق المستمر أنه يلجأ باستمرار لحيل اللباقة وحسن التخلص الذكي ، فكأن العقل يأخذ فى السيطرة على عواطفه ، إنه ليس العقل الحكيم الوازن للأمور وما يترتب عليها من عواقب ، وإنما سرعة البديهة التى لا تتورع عن استخدام الكذب والخداع لإدراك هدفها من إغواء أو هجر سريع . وهذا ما يبدو واضحا فى شخصية دون جوان التى رسمها موليير في مسرحيته ، فهو عاشق عقلانى إلى أقصى الحدود عقلانية ، يعتبر أن سنة الحياة هى صيد الفريسة ثم تركها والهروب بعيدا عنها .

ومواقف الصيد هذه عبارة عن مواقف أو مسائل محتاجة الى حل ، وكلما صعب الحل كان سعيدا بمهارته وحذقه فى التخلص . لـذلك لايبتغى النيـل لحد ذاتـه ، ولا التمتـع بمنالـه ، لأنـه يشعـر بـأن لـذة النيـل تنتهى بتحققها ، وأن الحياة كلها حركة ، وأن أية وقفة فى السير بمثابة موت للعاطفة وللرغبة فى البقـاء . ويترتب عـلى ذلك الشعور أيضا أن لذة الحيـاة فى الكلام (الكـلام الذى يتطاير وإن كان يوقع فى فخ الاغواء) وأن الكلام لاوزن له ، لأنه مجرد حيلة فى سبيل الوصول إلى غرض مؤقت . فلا يقيم للكلام وزن الحقيقة ، ويدهش إذا رأى غيره يقيم له وزنا ، فلا مكان فى عالمه الذهني لما يسمى بالضمير ، لأن العهد ليس عهدا فى منطقه بـل مجرد كلام ، وهذا التقدم الطائش فى أدغال من الأباطيل الكلامية لا يعرقله أمر سوى اللقاء الأخير بالموت فى شكل تمثال . فالوعود التى كانت تمهل ساعة الحساب مع فرائسه ، لاتشفع له مع القضاء المحتوم . فإن الموت هو تمثال قتيل يديه وهو إذن يجمع بين الثأر وساعة الحساب فهذا اللقاء مع مالا يمكن الهروب منه ، وهو بمثابة ساعة الحقيقة التى كان يتجنبها أو يؤجلها طوال مغامراته فى الحياة ، وهذه الساعة هى تلك التى تـربط بينه وبـين الواقع بعد مسيرة الأوهام . وهكذا ينتهى السباق بين الواقع (الذى هو استيقاظ الضمير ولقـاء الموت فى آنٍ واحـد) والوهم الـذى هو التملص الكـلامى وعـدم الخضوع لناموس ثابت فى تقلبات الحياة) .

وإذا كان دون جوان هو المخادع المتعجل فكيف نفسر خنوع النساء المخدوعات فى هذه المطاردة الكـلامية ؟ « أنـا » بنت القتيـل هى الحلقـة المهمـة فى سلسـة الأحداث ، فهى بمثابة فرصة اللابطل للعودة إلى اليقين والحقيقة . إن مطاردة « أنا » قد تبدو عملا عفويا فى حد ذاتها لأن دون جوان لا يقيم لها وزنا أكثر من غيرها إلا أن « أنا » هى العنصر الدافع لعملية كشف الحقيقة أو لقاء الموت فى أغلب المعالجات المختلفـة للأسـطورة . فنجد مثلا فى أوبرا موتزارت أنها تحب خطيبهـا « دون أوتاقيو » ، كما تحب أباها القائد القتيل فيتضـح عنصر الثأر لأبيها ، والوسيلة التى تحقق لها هذا الثأر وتعد بحياة سعيدة بعد تحققه .

أما الرواية القصيرة التى كتبها هوفمان بالألمـانية فى أوائل القرن التاسع عشـر ، فتنعدم فيهـا الوسيلة لأن قلب « أنا » هنا ممزق بين حبهـا لأبيها وعشقهـا لدون جوان قاتـل أبيها . وهنـاك احتمال آخـر فى مـطاردة عكسية ، هى مطاردة أنا لدون جوان وإدراكها الهدف المنشـود بالـرغم من العراقيـل التى تجـدهـا فى نفسيـة البطل ، وأيضا فى جمهور النساء الفريسات الأخريات ، كما ظهرت الحبكة على هذا النحو عند برنارد شو ، وعند الكاتب الفرنسى مـونترلان فى قـرننا هـذا . والعنصر النسائي مهم فى كل صيغ الأسطورة لتحديد نوع القلق الذى يصيب دون جوان . فإن الدافع عنده لا ينحصر فى حب عارم للاستطلاع ، كما هى الحال عند فاوست ذلك الظمآن للمعرفة ، كما لا ينحصـر فى مجرد المتعـة الحسية أو مجرد إدراك ما قد يبـدو عسير المنـال . وإنما القلق الدون جوانى هو نتيجة لطبيعة رؤيته للدنيا كحلبة للسباق مع الواقع ، وإغواء المرأة من غير هدف ولا حب ما هو إلا صورة من صور عدم مصداقيـة الحقيقة التى يعيش فيها . وقد علق على ذلك الفيلسوف الدانمركى كيركجارد قائلا إن العالم الذهنى لدون جوان هو شبيه بالمشهد الذى يحتسي فيه البطل كؤوس الشمبانيا وهو غير مكترث بالنساء الفريسات ولا بمعايير الشرف التى ورثها عن الطبقة النبيلة التى ينتمى إليها ولا بأى شيء سوى لذة الساعة . وهـو يحس بأن الأفكـار والمشاعـر ليست سوى فقاقيع الهواء التى تصعـد الى أعلى كـأس

النبيذ . وإن الأنانية المطلقة التى تميز دون جوان هى بدورها باب مفتوح على العدم المطلق الذى يميز مشاعره وأفكاره وطموحه فى الحياة . فكأن الأنانية المطلقة والنزوع نحو إرضاء الحس يؤديان فى النهاية إلى فقدان الحس نفسه وفقدان الشعور بالواقع .

ويتمثل هذا الواقع فى تمثال القائد الذى يقوم بدورين مميزين ، فهو تمثال لشخص قتله دون جوان ، ولذلك فهو بمثابة تذكرة للماضي أى الماضي الذى تم قبل برهة تمثيله على خشبة المسرح . كما أنه رمز للثأر الذى سيصيب دون جوان والموت الذى ينتظره ـ فهو إذن رمز للماضي وللمستقبل المحتوم فى آن واحد ، وبذلك يعطي دلالة واضحة لفكرة أن الحقيقة لا تستقيم بمجرد حركة الحاضر ، فهى حلقة فى سلسلة تمتد من الماضي إلى المستقبل . وإن سلسلة الأسباب والمسببات هى التى تجعل من الإنسان إنسانا ذا ضمير حي مسئولا أمام نفسه وأمام الغير . والرباط الذى يشد دون جوان إلى وتد الواقع يتمثل فى الوليمة التى يشترك فيها مع الميت مرة أو مرتين بحسب المعالجات المختلفة للأسطورة . فالأكل فى الوليمة جزء لايتجزأ من واقعية الحياة ، وهو حركة مادية بعيدة عن عالم الكلام والوهم الذى تتميز به تحركات دون جوان فى المطاردة والهروب والقلق الذى لا ينقطع . فهذه المناولة للطعام الحقيقى مع تمثال الميت هى آخر حدث فى حياته قبل ابتلاعه فى لهب جهنم . وعند هذه البرهة يلتقي الماضي والموت والأكل ، سند الحياة ، بعد أن يكون قد فات الأوان .

والواقع أن الشخصية التى أثارت التأمل والتأويل حتى عصرنا هذا هى شخصية دون جوان نفسه ، فقد نتساءل لماذا استطاعت هذه الشخصية التى تمثل العجز التام عن أية صورة من صور الولاء أن تستأثر بالخيال الأوربي ؟ لقد رأى البعض أن هناك مأساة نفسية فى تحول دون جوان إلى زير نساء على اعتبار أنه يبدو منتميا وغير منتمٍ فى آن واحد . فكل الرويات تذكر له أبا وطبقة من الأشراف ، ولكن الأم غائبة عن كل المعالجات المسرحية والقصصية . فكأن مطاردة النساء هى عبارة عن البحث عن الأم المفقودة ، وإحلال تلك الفرائس الغرامية محل الأم التى هى قاعدة الثبات والانتماء فى حياة الإنسان . وهناك تأويل آخر يرى فى دون جوان رمزا لضعف الذكر لا لقوته ، رمز الذكر يبحث عن دليل على رجولته فى جو من التشكك بل الإلحاح إلى أن المطاردة التى لا تأتى بلذة الحيازة هى شبه اعتراف بأن ميول البطل غير متجهة نحو الجنس الآخر . وهناك تأويل آخر يرى أن شبق دون جوان ما هو إلا صورة من صور حب الاستطلاع الذى ميز فاوست وبروميثيوس قبله وخطيئة آدم قبلهما . فإن الكاتب المسرحى الألمانى كريستيان جرابى قد أتى بنفس هذا التأويل في مسرحيته « دون جوان وفاست » التى قُدمت سنة ١٨٢٢ . وهنا جعل جرابى بطليه يحبان نفس المرأة هى « دونا أنا » وكأنهما يبحثان عن المرأة الخالدة التى تكمل قدرتها على فهم أسرار الكون . كما أنه يوجد إلى جوار هذه التأويلات تأويل مختلف تماما يجعل من دون جوان مجرد خاطىء ، وضحية شبقه وإنسانا راغب فى التوبة والخلاص اللذين يدركانه فى آخر الأمر بشفاعة دونا أنا التى تحبه حبا مخلصا بالرغم من كل خطاياه . فيصبح بذلك مجرد ثائر تهدأ ثورته بعد حين ، أو مستهتر يدرك معنى الحب والتوبة والاستقرار والعودة إلى الحق بعد مدة من التمرد .

هـذا والتأويـلات التى ذكرنـاها (بعضهـا مسرحي وبعضهـا روائي أو شعـري) لا تفســر لنـا جــاذبيـة الأسطورة . فالقصص الأخلاقية التى تصور العودة إلى الحق أو القصص الرومانسية التى تصور التحدى اليائس أو القصص الفلسفية التى تصور الصـراع بين الـوهم والواقع كثيرة ومنتشرة فى كل آداب العالم ، ومع ذلك فإنها لا تكون أسطورة دالة ومعدة لآلاف التأويلات مثل أسطورة دون جوان . فالواقع أن دون جوان لا يمثل مجرد بطل أو إنسان وإنما يمثل حالة نفسية أو فكرية ، حالة الفرد الذى يجد نفسه فى العالم ويحاول أن يصنع رباطا بينه وبين الطبيعة حتى لا يشعر بأنه عدم فى إطـار من العدم ، فيتحرك ويمثل أدوارا (ومنها دور زير النساء) بحثا عن دلالة للحياة - فيقتل من حيث لا يدرى ، ثم يغري النساء على غير وعي منه ، ويعيش فى حلم مستمر طارقا أبواب حلمه ليجد منفذا إلى العالم الخارجي . غير أنه لا يجد الباب المنشود إلا عن طريق العقاب الذى هو الموت .

هذه هى المادة الهلامية التى حاول مئات من الأدباء أن يشكلوا منهـا صورا قصصيـة مختلفة لأزمـة من أزمات النفس أمام لغز الحياة .

* * *

إعادة اكتشاف الثقافة اليونانية في الوعي المصري

عزت قرني

أولا : تحديد الموضوع وأهميته وأطره وبعض العموميات

كان غرضي الأصلي أن أتحدث عن الخطوات الفعلية التي اطّرح فيها الوعيُ المصريُ نسيانه للظاهرة اليونانية، ثم أخذ ينشغل بها شيئا فشيئا وعلى نحو وآخر، بادئا مما كان قد تبقى في الذاكرة الإسلامية على مشارف العصر الحديث، إن خيرا وإن سوءا، عن اليونان القدماء، ثم ناظرا في الحملة الفرنسية وما أتت به، ثم منتقلا الى رفاعة الطهطاوي فيما ألف وفيما ترجم على السواء، ثم الى مدرسته الكبرى في الترجمة، ثم الى ازدهار ما أسميه بعصر الصحوة المصرية ما بين ١٨٧٨ و١٨٨٢م، ورجالها العظام ثم الى الشيخ محمد عبده ومدرسته لأقف، هكذا كان القصد والمشروع، عند أحمد لطفي السيد وعصره حين يبدأ عصر الجامعة المصرية بعد الجامعة الأهلية، وليشرف على الموقف سلطان رجل عظيم هو طه حسين . وأما ان هناك مادة مناسبة ، فهو أمر لاشك فيه ، وأما أن هناك أهمية ومناسبة للأمر ، فهو مما تدعو اليه الحاجة في إطار الدراسات التأسيسية لتطور الفكر المصري الحديث ولمستقبل الثقافة العربية ككل . ولكن مثل هذا البحث كان يقتضي متابعة دقيقة لنصوص كثيرة في مكتبات شتى ، ولم يسعف الوقت ، ولا مكنت الشواغل ، أن أفيّ الموضوع حقه على النحو الذي أريد ، ولذلك تحولت من العرض التاريخي إلى مقال الرأي والاقتراح المنهجي ، فالموضوع نعالجه كل حين وآخر ونتفكر فيه كل يوم على التقريب ، وهكذا خرج هذا البحث ثمرة تفكير قديم متجدد.

وأحب أن أنبه منذ البداية الى أن أهمية الموضوع تتعدى بكثير الاهتمامات التاريخية، وتتعدى الاهتمام بالحضارة اليونانية ذاتها ، فهو عندنا ليس أقل من مجال تحضيري لتحديد نهائي لطبيعة علاقتنا مع الحضارة .

الغربية ، وهذا ذاته جزء من مسألة أخطر وأخطر ، منطوقها : كيف نريد لمستقبلنا أن يكون ؟

والأطر التي يتحرك في داخلها موضوعنا عديدة ، متنوعة ، ومتداخلة . ولعل أهمّها هو هذا الإطار الذي أشارت اليه الكلمات السابقة على التو : ماذا نريد لمستقبلنا أن يكون ؟ ذلك أن تحديد موقف إزاء الحضارة اليونانية ومنجزاتها يتضمن بالضرورة تحديداً للوجهة التي نريد أن يتجه إليها مستقبلنا : فإما أن نعتبرها ، أي تلك الحضارة ، ضرورة وتراثا ونموذجا وهاديا ، على نحو ما تفعل الحضارة الغربية ، أو تظن أنها تفعل ، وإما أن نسقطه تماما من حسابنا ، كما أرادت التيارات المتأخرة في الحضارة الإسلامية وانتصرت إرادتها ، وإما أن نهتم به على نحو معين سنحدده في نهاية هذه الدراسة ، لكي تنفتح أمامنا أبواب الإبداع الحقة .

والبديل الأول من هذه البدائل الثلاثة ، والذي هو في الواقع نتيجة لتعلق بعضهم بركب الحضارة الأوروبية واعتبارها النموذج واعتبار وقتها هو عصرنا كما هو عصر أبنائها ، نقول هذا البديل الأول ، والذي يعني تقليد الغرب في كل شيء ، يثير عدداً من المفاهيم هي بالفعل موضع اهتمام عندنا منذ مائة عام أو تزيد ، ومن أهمها التجديد والتقدم والمعاصرة على ما يقولون . وليس من قبيل المصادفات أن من يدعون إلى الاحتفاء بالحضارة اليونانية واتباع سننها هم في الوقت نفسه من السائرين وراء هذه الأعلام على النحو الذي رفعت عليه عندنا . وهكذا فان مناقشة مكان الثقافة اليونانية على خريطة الوعي المصري الحديث هو في الوقت نفسه تناول لبعض جوانب هذه المفاهيم والمواقف .

ولكن الحق أن وراء هذا كله ما هو أهم وأهم . ذلك أن الداعين الى الخط المذكور في الفقرة السابقة والسائرين عليه إنما ينطلقون ، بغير وعي واضح في معظم الأحيان ، من افتراضات ذات خطر عظيم ، وينبغي على الفكر التأصيلي (الفلسفي) أن يتناولها وأن يقف عندها وأن يرتفع منها إلى مبادئها وأن ينزل إلى نتائجها ، تلك هي الافتراض بأن الانسانية واحدة ، وأن هناك شيئا يسمونه العالمية ، وأن العقل الانساني واحد وممتد المسيرة. وما صلة هذا كله بموضوعنا؟ الاجابة واضحة كل الوضوح، وتبدأ حيث انتهت كلمات الجملة السابقة. فاذا كان العقل واحدا، لأن الانسانية واحدة تعيش في عالمية العصر الواحد، فان مسيرة العقل الممتدة تلك إنما بدأت عند اليونان، هكذا يقول الغرب وهكذا يردد المقلدون تقليدا، وهكذا يبدأ مستقبلنا باليونان وبما أنتج اليونان، على ما يتوهمون.

ونعود من آفاق المستقبل والاختيارات الحيوية الى مستوى أكثر دعوة الى هدوء الخواطر، حيث يتصل موضوع هذا البحث بمسألة هي في القلب من الدراسات العلمية التي تتناول الإنسان موضوعا لها، وهي مسألة العلاقة بين الثقافات وبين الحضارات: فهل تلك العلاقة ممكنة؟ وهل هي مشروعة؟ وعلى أي مستوى؟ وبأي ثمن؟ والى أي حد؟ وذلك كله في إطار الحاضر، في صلة ثقافة حالية بأخرى حالية أو بثالثة مندثرة، أو في اطار الماضي، في صلات الحضارات السابقة بعضها ببعض : المصرية باليونانية، واليونانية بالرومانية، والفارسية بالهندية، والإسلامية بالمسيحية، ثم بالأوروبية، الى غير ذلك. ومن المهم أن نحتفظ بهذه الاسئلة الجوهرية قائمة في الذهن أثناء عبور مسار هذه الخواطر الحالية.

كذلك يثير بحثنا هذا ـ ولو من بعيد ـ من جديد، مشكلة قديمة، هي مشكلة ما سمي باسم المعجزة الإغريقية، فلو كان هناك معجزة إذن فاليونان أفضل البشر، بل هم البشر، ولابد من الانضواء تحت رايتهم. ولا يتضمن هذا موقفا بازاء طريق المستقبل وحسب، بل ينطوي على تحقير لماضينا نحن القديم

وماضي الحضارات الشرقية التي نرتبط بها ومع أهلها الى اليوم وغدا بأشد الروابط : أليس كل ما قبل اليونان أعمال عبيد تحت سيطرة الخرافات من أجل منافع لا تعلو على مستوى الحياة اليومية؟ هكذا يقول الآخذون بفكرة المعجزة الإغريقية في آخر الأمر. ومرة أخرى يتضمن تحديدنا لموقفنا عن الحضارة اليونانية موقفا من المعجزة الإغريقية ومن أنفسنا في ماضينا: فهل نأخذ بذلك الافتراض؟ إن من يقولون بالأخذ عن اليونان تراثا إنسانيا ونموذجا خالدا مضطرون الى الأخذ به، والأخذ به يعني على الفور تحقير الذات في هيئتها العتيقة وطعنا في قدرتها في الحاضر وتلويثا لجوهرها في المستقبل.

ويلمح القارىء من بين كل السطور السابقة ان الأفق الفعلي للبحث إنما هو موقفنا من الحضارة الغربية التي تريد أن تعتبر أن اليونان هم سلفها الأعظم المباشر. والواقع أن تساؤلنا : ماذا نريد لأنفسنا في المستقبل إنما هو الوجه، وظهره هو التساؤل عن موقفنا من الغرب بما يتضمنه من تحديد موقف من الثقافة اليونانية.

هذه هي الأطر الخمسة أو الستة التي يتحرك بالاضافة اليها موضوع هذا البحث، وهو مكان الثقافة اليونانية القديمة في الوعي المصري الحديث.

ونتوقف قليلا، قبل عرض المواقف، عند بعض التحديدات وعند بعض الاشارات المنهجية. ذلك أننا سوف نستخدم كثيرا اصطلاحات من مثل «الفكر» و«الثقافة» و«الحضارة» فضلا عن «اليونان» و«نحن». أما الفكر فاننا نقصد به : «مجموعة التصورات المتسقة التي تقدمها حضارة، أو فرد ما، عن العالم والانسان والمجتمع والاتجاهات المصاحبة لتلك التصورات، ومن المفهوم أن الفكر، كنتاج، هو بناء فوقي تنتجه حضارة ما، وهو النشاط النظري للإنسان بازاء العالم والآخرين من بين أنشطة ثلاثية: المجابهة والمعرفة والعمل، وهو ما يؤدي الى موقف منظم للإنسان بازاء الطبيعة والآخرين. ونقصد بالثقافة: «مجموعة النظم والقيم والأفكار والمعتقدات والفنون التي ينتجها مجتمع ما». وأحيانا ما نستخدم الحضارة مكان «الثقافة»، والأولى أعم، وتضم الى جانب عناصر الثقافة المذكورة تلك العناصر المادية التي تكون البنية التحتية التي تقوم عليها الثقافة. ونقصد باليونان تلك الأمة المعروفة في وقت ازدهار حضارتها القديمة؛ أي ما بين القرن السادس والقرن الثالث ق. م. على الأخص. أما «نحن»، فاننا نقصد بها، أولا، الكيان المباشر الذي ننتمي اليه، وهو كيان مصر، ذات الوجود الحي المتجدد منذ قديم، ولكنها أيضا مصر متعددة الانتماءات، ولذلك فاننا نقصد بها، ثانيا، ذاتا هي بسبيل التكون، أي ذات الثقافة العربية الجديدة التي تنطلق ابتداء من الاشتراك في اللغة وفي الإرادة وفي المصالح المشتركة، من فوق أرضية تاريخ مشترك، والتي تتوجه نحو مستقبل مشترك موحد.

من جهة أخرى، فإن بعض الاتجاهات المنهجية هي التي تسند هذا الضرب من البحث الذي سنقوم به من خلال هذه الصفحات، ونظن أنها لازمة أيضا لحسن تفهمه عند القارىء الكريم. ونؤكد اتجاهات ثلاثة على الأخص: الجسارة، رفض الوضوح الزائف، روح النقد الدائم. ذلك أننا نرفض لنا وللآخرين روح التقليد والسكون، ونرفض أن يكون هناك في عالم الفكر وعالم السياسة وعالم التوجهات القومية على السواء صنم أو أصنام يُروِّض الخاضعون على عدم المساس بها ولو على سبيل الأحلام والتهيؤات، ونؤكد في المقابل روح الجسارة التي تدفع الى اقتحام كل الميادين وتقلب كل الفروض ولا ترضى الا بالاقتناع العقلاني الذاتي المبني على اختيار حر، بما في ذلك الاقتناع والاقتناع المضاد. ولعل من أسس روح الجسارة اتجاهاً نفتقر اليه كثيرا ويفتقر إليه الكثيرون هو

ذلك الاتجاه الجديد بالروح الفلسفية الأصولية على الحقيقة، والمتمثل في رفض الوضوح الزائف، أي رفض قبول القائم لا لشيء إلا لأنه قائم وحسب، بدون جسّه واختباره والتأكد انه يقوم على أساس صلد وليس على أوهام نشرتها سلطة هذا أو ذاك، وأنه ابْتُني على علم وتدبر وتيقن وليس على جهل وتسرع مذنبين. أخيرا فاننا نقصد بروح النقد الدائم الاحتفاظ بحرية إعادة النظر في المواقف والاختيارات بلا هوادة ولا سكون، سواء مواقف الذات واختياراتها أم مواقف الآخرين واختياراتهم، وذلك سلبا وإيجابا على السواء، أي بما يؤدي الى نبذ ما أُخذ به أو الأخذ بما لم يؤخذ به من قبل.

ثانيا : مداخل الوعي المصري الحديث الى الثقافة اليونانية (جهات النظر ومدخلان ومرحلتان)

لا يزال دخول عناصر من الثقافة اليونانية العتيقة الى العالم الاسلامي القديم موضوعا يحتاج الى عشرات المشاركات، وهو لا يزال في بداياته الأولى، واهتمام الغربيين به هو الظاهر، واهتمامنا، نحن خَلَفَ الحضارة الإسلامية القديمة، به لا يكون إلا عارضا وفي تسرع، وربما كان السبب ضرورة المعرفة الجيدة بأمور الحضارتين وهو غير متوفر إلا عند أقل الأقلية، وربما كان السبب هو ضعف الحس بأهمية دراسة التفاعلات بين الثقافات، أو غير هذا السبب وذاك. ونكتفي في هذا المقام بإشارة عامة، تقوم على أننا يمكن أن نقول إن العقل الإسلامي لم يستطع أن يدرك كنه الثقافة اليونانية، وما كان بمستطيع على كل حال، وإن سوء فهمه وقصور هذا الفهم بارزان حتى في الميدان الذي اقترب فيه أكثر من غيره من اجتلاء حقيقة مواقف اليونانيين، ألا وهو ميدان الفلسفة. وعلى كل حال فإن هناك مدخلين كبيرين دخلت منهما العقول الاسلامية الى أبواب الثقافة اليونانية، وهما على التوالي زمنيا: مدخل المنفعة، مع الاهتمام بالطبّيات والطبيعيات اليونانية، ثم مدخل «الحقيقة الواحدة»، أي ظن أن الحق واحد عبّر عنه الوحي وعبر عنه العقل، فهو واحد وان اختلفا فيما بينهما في طرائق التعبير. وفي هذا المدخل ما فيه من اخلاص في المعتقد الفلسفي، ولكن فيه ما فيه ايضا من إرادة بعض من غلبهم الاسلام وأرادوا مع ذلك أن يتغلبوا عليه، إرادتهم في «الالتفاف» حوله بوسيلة تلك المعرفة الغريبة. وما أردنا أن نثير هنا هذا الموضوع بقصد استيفائه، ولكن لنضع جدارا خلفيا نقابل عليه المدخل الحديث للوعي المصري الى الثقافة اليونانية التي ستبدو دائما، وفي الوقت نفسه، وكأنها «شيء عرفناه» و«شيء عرفناه ولم نعرفه».

ونبدأ هنا أيضا باشارة تجميعية الى ما نسميه «جهات النظر» الى الثقافة اليونانية، ونكتفي بالوضع السريع، ولابد للدراسة التفصيلية التاريخية للموضوع من أن تتوقف طويلا لاستجلاء المضامين والارتباطات والمغازي. ذلك أننا يمكن أن نقول إن العقل المصري الحديث أخذ في التعرف، أو في إعادة التعرف، على تراث الحضارة اليونانية من خلال «جهات النظر» التالية :

أ ـ إدراك الآخر غير المسلم، وهذه الجهة تبدأ منذ الحملة الفرنسية، ومنذ أن رأى القاهريون نساء الفرنسيين حاسرات الوجوه «لابسات الفستانات»، ورأوا أيضا آلاتهم العلمية، بعد أن سمعوا ضربات مدافعهم، وخبروا بعض تنظيماتهم، وتمتد الى اليوم وغدا، لأن الغرب لا يتركنا لشأننا، ونحن مضطرون للأخذ بأدواته لرد عدوانه، وملزمون بمعرفته، على مستوى القادة منا، لتحضير مستقبلنا ومستقبل الإنسانية الجديدة (بالمعنى الحق لأول مرة). وفي إطار هذه الجهة للنظر يدخل اكتشاف الغرب واكتشاف، أو إعادة اكتشاف، اليونان والتعرف على حضارات آسيا والدراسة العلمية لقارتنا افريقيا في نصفها غير المسلم الى غير ذلك.

ب ـ نبش الماضي غير الإسلامي لمصر الشاملة ومتعلقاته، ويدخل في هذه الجهة معرفة مصر القديمة بأسرها ومصر القبطية، ومن الطبيعي أن يتصل بهذا كذلك مصر اليونانية والرومانية. والانتقال ابتداء من هذا الى معرفة بالحضارة اليونانية في ذاتها أمر منطقي.

ج ـ العودة الى ممارسة الفلسفة، بعد الهجوم الساحق الماحق عليها منذ عصر أبي حامد الغزالي، وكانت الفلسفة عند الإسلاميين هي فلسفة اليونان، والفلسفة الغربية، التي يراد إقناعنا منذ ستين عاما أو تزيد أنها «الفلسفة» بألف لام التعريف، التي ترجع، بقول أهلها أنفسهم، الى الثقافة اليونانية.

وهكذا يمكن أن نقول إن تعرف الوعي المصري الحديث على حضارة اليونان وثقافتهم يندرج بقدر أو بآخر تحت جهة أو أخرى من جهات النظر تلك، والأدق أن نقول إنه يندرج تحتها جميعا بنسب متفاوتة.

على أننا نريد أن نبرز أمرا ذا أهمية، وهو أن هناك اختلافا جذريا بين مدخل الفكر المصري الحديث الى اليونان ومدخل أسلافنا الاسلاميين القدماء اليهم: فقد رغب هؤلاء، أو بعض منهم على الأدق، في معرفة اليونان لذواتهم، أي أنهم اتجهوا الى اليونان مباشرة (وإن كان ذلك عن طريق وسيط أو وسطاء هم السريان وغيرهم)، أما الفكر المصري الحديث فانه اتجه الى اكتشاف اليونان لا لذواتهم، بل لأنهم كانوا، فيما يظن الجميع، على صواب أو خطأ، أساس الحضارة الغربية وأساس عصر النهضة الأوروبية، والحضارة الغربية هي الشغل الشاغل للفكر المصري الحديث، إن سلبا، رغبة عنها، وإن إيجابا، رغبة فيها. وهذا هو ما نسميه «المدخل الغربي» الى الاهتمام بالثقافة اليونانية.

وليس عجبا، على هذا الأساس، أن نجد أن أول كتاب بالعربية، على ما نعلم، مخصص جميعه للحديث عن أشياء يونانية، وان كانت سبيلا لعرض أفكار غربية حديثة، يدخل الى عالم اليونان من خلال عالم الفكر الغربي الحديث. ذلك هو كتاب رفاعة الطهطاوي «مواقع الأفلاك في وقائع تليماك»، المنشور في المطبعة السورية ببيروت عام ١٨٦٧م. وهو ترجمة عن الفرنسية لرواية فنلون (Fenelon) الشهيرة «مغامرات تليماك»، وقام بها أستاذنا اللوذعي أثناء منفاه بالسودان، في عهد عباس وبأمر منه، والذي استمر عامين، وأراد بها رفاعة أن يشغل نفسه وأن يعزيها بهذه الترجمة التي خرجت في حوالي ثمانمائة صفحة، ومن المفهوم أن أفكار الكتاب إنما هي أفكار صاحبه فنلون (١٦٥١ ـ ١٧١٥م) وان وضعها في إطار يوناني هو مغامرات تليماك، ابن أوديسيوس بطل حرب طروادة. ويثبت ما نسميه «المدخل الغربي» الى الاهتمام باليونان ما جاء في مقدمة «رفاعة» لترجمته إذ يقول: «ولما جاء الافرنج يحذون في آدابهم حذو اليونان، اتخذوا الخرافات اليونانية قدوة في ذلك وأسوة، وألفوا فيها تآليف تسمى الميثولوجيا، ووقائع تليماك مشحونة بهذه الأشياء، وما فيه من الآداب مبني على الآداب اليونانية»[١]. وما ترجمة رفاعة الا لمضمونه الغربي الذي يريد تعريف قراء العربية به، فهو «مشتمل على الحكايات النفائس، وفي ممالك أوروبا وغيرها عليه مدار التعليم في المكاتب والمدارس»[٢]. وهذا الموقف نفسه نجده وراء ترجمات أحمد لطفي السيد لبعض كتب أرسطو، فيقول في الدافع الى ما فعل: «لما كنت مديرا لدار الكتب المصرية تحدثت مع بعض أصدقائي في وجوب تأسيس نهضتنا العلمية على الترجمة قبل التأليف كما حدث في النهضة الأوروبية، فقد عمد رجال

---

(١) «مواقع الافلاك في وقائع تليماك»، المطبعة السورية ببيروت، ١٨٦٧م، ص٢٧.
(٢) نفسه، ص٢٤.

هذه النهضة الى درس فلسفة أرسطو على نصوصها الأصلية، فكانت مفتاحا للتفكير العصري الذي أخرج كثيرا من المذاهب الفلسفية الحديثة»[3]. وهكذا، فان «أستاذ الجيل»، على ما سُمّي أحمد لطفي السيد، والذي صرح تصريحا بأن الأوربيين هم «أساتذتنا»، يجد أن النهضة الأوربية والمذاهب الفلسفية الغربية تقوم على أكتاف أرسطو واليونان، فلنتجه اليهم كما اتجه أساتذتنا، لكي نفهم المفتاح الذي أخرج فلسفات الغرب التي سوف يأخذ ببعضها «فيلسوف الجيل». (ولا نناقش صحة ما يقوله أحمد لطفي السيد، فكلامه في الواقع لا يتطابق والتاريخ). أما المدخل الثاني الى الاهتمام بالثقافة اليونانية فهو مدخل طريف لا يكاد يخطر على البال للوهلة الأولى، ولكنه يشترك مع المدخل الغربي في أنه هو الآخر غير مباشر، ذلكم هو ما نسميه المدخل الاسلامي، وهو على مستويين : مستوى النموذج ومستوى الأهمية التاريخية. أما مستوى النموذج فنقصد به قولا واتجاها راج منذ العشرينات من القرن الميلادي الحالي، ومفاده أن أحد أسباب ازدهار الثقافة الإسلامية هو أخذها عن اليونان ونقلها لعلومهم وفلسفتهم، ومهما يكن من مصادر هذا الاتجاه عند المفكرين المصريين وعند المستشرقين الغربيين، ومهما يكن من صحته وخطئه، فانه سكن في العقول أن ثقافة اليونان جديرة بأن «تحدث» نهضتنا الجديدة كما «سببت» نهضتنا الاسلامية التليدة، وأضافوا، توكيدا وايقانا، بأنها كانت أيضا السبب في النهضة الأوربية المعروفة، وهكذا تظهر الثقافة اليونانية عنصرا خالدا دائم الحقيقة يخرج ثمراته في كل الأجواء وفي كل حين. ويظهر هذا كله في نص نكتفي به في هذه العجالة، وهو يلي مباشرة ما أثبتناه من حديث أحمد لطفي السيد الذي يأخذ بالقضية التي تجعل من الرجوع الى نصوص اليونان علة للنهضة في أوربا، وها هو يكمل فيشير الى القضية الأخرى : «ولما كانت الفلسفة العربية قد قامت على فلسفة أرسطو، فلا جرم أن آراءه ومذاهبه أشد المذاهب اتفاقا مع مألوفاتنا الحالية، والطريق الأقرب الى نقل العلم في بلادنا وتأقلمه فيها، رجاء أن ينتج في النهضة الشرقية مثل ما أنتج في النهضة الغربية»[4]. ويرى القارىء أن هذه السطور تجمع ما بين القضيتين معا. (ومرة أخرى لا نناقش صحة ما يأخذ به أستاذ ذلك الجيل). وهكذا كانت حالة الثقافة الإسلامية نموذجا لضرورة مزعومة تتمثل في الرجوع الى اليونان أول كل شيء من أجل إحداث نهضة شاملة علمية.

أما المستوى الآخر، مستوى الأهمية التاريخية، فان العقول المصرية التفتت اليه في الوقت نفسه المشار اليه، وتحت تأثير مباشر هذه المرة من دراسات المستشرقين، حيث دخلت حثيثا فكرة دراسة «الحضارة» ككل كمدخل عام لدراسة كل شيء، وبدأ الانتباه الى مشكلة الصلة بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، وعلى الأخص حضارة الفرس وحضارة اليونان، ولكن هذه الأخيرة فازت باهتمام أعظم من قرينتها الفارسية (وتفسير هذا أمر جدير بالدراسة لذاته)، وتوجهت الأنظار الى دراستها من وجهة الأهمية التاريخية هذه المرة، أي من حيث أنها كانت رافدا للحضارة الاسلامية، فوجب معرفتها على نحو دقيق، وذلك مساهمة في دراسة الحضارة الاسلامية ذاتها. وتحتل مجموعة كتب الاستاذ أحمد أمين، وعلى الأخص «فجر الاسلام» الذي صدر في عام ١٩٢٩م، ثم «ضحى الاسلام» بأجزائه الثلاثة، مكانا مرموقا في هذا الاطار فيقول طه حسين في مقدمة الكتاب الأول عن القضية الأولى : «كل ما يصلح موضوعا للدرس

---

(٣) أحمد لطفي السيد، «قصة حياتي»، كتاب الهلال، فبراير ١٩٦٢، ص١٦٨.
(٤) نفس المكان.

في هذا الكون . . . لا ينبغي أن ينظر اليه على أنه منقطع الصلة عما حوله، وإنما هو جزء من كل، وليس الى معرفة الجزء سبيل إذا لم يعرف الكل، أو إذا لم يعرف ما يحيط به من الأجزاء الأخرى على أقل تقدير»[٥] ، ولهذا فانه يؤكد أهمية ما صنعه أحمد أمين حين وصل بين الثقافة الأدبية والثقافة الدينية والفلسفية وصلا متينا[٦]، وذلك في إطار دراسة عناصر الحضارة الإسلامية ذاتها. ومن جهة أخرى يؤكد أحمد أمين نفسه ظاهرة الاتصال بين الحضارات، فيقول : «الثقافة اليونانية، كالثقافة الفارسية، كانت مبثوثة في البلدان المختلفة، وكان منالها منهم [أي المسلمين] قريبا»[٧]، ويضيف : «اذن، فمن الخطأ البين الفكرة الشائعة أن العرب والمسلمين جميعا كانوا بمعزل عما حولهم من الثقافات والأديان الى العصر العباسي، وأن آراءهم وآدابهم وعلومهم نبتت وحدها من عقول عربية، من غير أن تتغذى بغيرها»[٨]، بل ويتحدث عن اللقاح والتوليد بين الثقافات في «ضحى الاسلام»[٩]. ويقول في أول الفصل الثالث من الجزء الأول من هذا الكتاب الأخير نفسه، وبعد الحديث في فصلين عن الثقافتين الفارسية والهندية: «إذا نحن وصلنا الى اليونان، فقد وضعنا أيدينا على كنز لا يفنى، وثروة لا تقدر، وغنى عظيم في كل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق »[١٠]، ويلخص : « كان لهذه الثقافة اليونانية أثر كبير في المسلمين، ومما زاد في أثرها أن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية، فتسربت الثقافة اليونانية اليها، وصبغتها صبغة خاصة، كان لها تأثير كبير في الشكل وفي الموضوع»[١١].

ونعقب على هذا كله بشيئين : الأول، أن دراسة الحضارة على هذا النحو ابتدأ في مصر، على ما نعلم، في هذا الوقت، وليس قبله، بل إن هذا النوع من الدراسة حديث في الغرب ذاته، ولا يتقدم على أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ، ولعله افتتح بكتاب بوركارت (J.Burckhardt) الشهير عن « الحضارة في إيطاليا في وقت عصر النهضة »، وبالتالي فان كتب أحمد أمين تمثل نقطة تحول في مجرى الدراسات الإسلامية الحديثة منذ مبدئها. الأمر الثاني، أن نتيجة هذا التحول في منظور الدرس أدى الى زيادة الاهتمام بمعرفة الحضارة اليونانية في ذاتها وككل، وتطبيقا لمبدأ معرفة الجزء من خلال الكل الذي أشار اليه طه حسين .

هذان إذن هما المدخلان الى الاهتمام بإعادة اكتشاف الثقافة اليونانية، ويمكن أن نظن، غير مكذّبين، وفي انتظار دراسة وثائقية دقيقة شاملة، أن العلامة الكبرى في هذا التطور هو أحمد لطفي السيد وفي منتصف العشرينات على الأخص، وتبعته في هذا مدرسته، التي أهم أعضائها طه حسين نفسه. وهكذا يمكن أن نقول إن هناك حتى الآن مرحلتين في حركة انتباه الوعي المصري الحديث إلى الثقافة اليونانية: الأولى تمتد من الحملة الفرنسية إلى ما قبل ظهور أحمد لطفي السيد على مسرح الفكر المصري (في عام ١٩٠٧، سنة ظهور جريدة «الجريدة»)، والثانية تبدأ مع أحمد لطفي السيد وتمتد الى اليوم. ونتمنى أن نشهد بداية مرحلة ثالثة يتعدل فيها منظور الرؤية على النحو الذي سوف نقترحه في القسم الأخير من هذه الدراسة .

---

(٥) أحمد أمين، «فجر الاسلام» صرح من المقدمة.
(٦) نفسه، ص ي.
(٧) نفسه، ص١٣٣.
(٨) نفسه، ص١٣٤.
(٩) أحمد أمين، «ضحى الاسلام»، الجزء الاول، ص١٦٣.
(١٠) المرجع السابق، ص٢٥٣.
(١١) نفسه، ص٢٧٤.

ثالثا : هيئة الثقافة اليونانية في مرآة الوعي المصري الحديث

كان الغرب، الى ما قبل دقات مدافع بونابرت في معركة أنبابه، هو الآخر المطلق، هو الخصيم الذي لايستحق الاهتمام، هو «الكافر المعاند»، على ما استمر يقول رفاعة ثلاثين عاما من بعد ذلك، وتغيرت أمور، وجاء الاحتلال البريطاني ليتوج انتصار الحضارة الغربية الأقصى، ولترتفع في الوقت نفسه على التقريب صيحة الاحتقار المقابل: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» عند شاعر التفوق الانجلو سكسوني كبلنج. فماذا كان رد الفعل عندنا؟ قد توافق أو لا توافق، قد تحزن أو قد لا تتعجب، فان الاجابة كانت طلب الاعتراف من ذلك الآخر القوي، والذي أصبح النموذج والقدوة. ويمكن أن نضعها، تلك الإجابة، في عبارة فيها بعض المبالغة لكنها لا تبتعد الا قليلا عن الواقع النفسي والعقلي (المستمر الى اليوم ولكن على نحو مقزز وحتى في صميم تفاصيل الحياة اليومية)، وتقول: «بل نحن منكم»، وقد سبق لنا إثبات قول أحمد لطفي السيد حول تلمذتنا على الغرب، وفي نفس هذا الاتجاه سيستمر طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» على وجه الخصوص. وحيث إن الغرب هو استمرار لليونان، فان علينا أن نأخذ بانتاج الثقافة اليونانية الخالدة لنجعله جزءا من تراثنا، وعمادا لثقافتنا. وفي هذا الاطار يُوضع اهتمام طه حسين الشديد بتأسيس الدراسات اليونانية واللاتينية (المسماة أحيانا بتسمية تحتاج الى تعليق طويل، وهي «الكلاسيكية») في الجامعة المصرية.

ويهمنا الآن أن نمضي مباشرة الى هذا السؤال: كيف نظر المصريون في العشرينات وما تلاها الى الثقافة اليونانية والى اليونان؟ والاجابة هي أنهم أخذوا عن الغرب تصوره «الكلاسيكي» عن الحضارة اليونانية، كما حدده «جوته» ومعظم كتاب القرن التاسع عشر الميلادي، أي التصور التمجيدي لليونان، الذي يجعلهم أمة العقل والحرية والفردية، لكن نقتصر على أبرز القيم وأهمها، وما عداها نتيجة لها. وقد كان من الطبيعي أن يكون هذا هو الحال، لأن الصورة الأخرى عن اليونان، والتي كان الغرب قد بدأ في تركيبها عن اليونان منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ونتيجة لأبحاث نيتشه الألماني وفريزر (Frazer) الإنجليزي وغيرهما من الكتاب الباحثين وعلماء الانثروبولوجيا. هذه الصورة الأخرى، التي تظهر الجانب اللاعقلي والمظلم في الروح اليونانية، وهو الذي أنتج الديانات السرية والكوميديا، لم تكن قد وصلت بعدُ أصداؤها الى المفكرين المصريين، وما كان لهم أن يعبأوا بها وهي لم تزل بعد صرخة في واد، بل تستطيع أن تقول إن التصور التمجيدي للحضارة اليونانية لا يزال هو السائد والمسيطر بإحكام على دراسة تلك الحضارة وتدريسها في المعاهد العلمية على اختلاف درجاتها، في مصر، الى اليوم.

فما هي عناصر تلك النظرة إلى الثقافة اليونانية وإلى الإنسان اليوناني، كما وضعها زارعوها في مصر الحديثة، وكما استمر عليها المفكرون والكتاب والأساتذة الأكاديميون؟

فيما يخص النظرة الى الثقافة اليونانية، فإنه يمكن تجميع عناصرها فيما يلي:

- فهي، أي ثقافة اليونان، بداية الإنسانية الحقة
- وهي ثقافة العقل والوضوح
- وهي ثقافة خالدة تتعدى مكانها وزمانها المخصوصين
- وهي لهذا أساس العالمية في الفن والفكر والعلم
- وهي لهذا كله منبع مستمر ونموذج دائم واجب الاحتذاء.

وأما عناصر النظرة إلى الإنسان اليوناني، التي نشرتها مدرسة أحمد لطفي السيد، فيمكن أن تصاغ على النحو التالي: ـ

- اليوناني يمثل الانسانية الكاملة
- وهو نموذج الإنسان الخلاق
- وفيه تتجسد قيمة الحرية
- وتتجسد فيه كذلك قيمة الفردية
- وهو الإنسان العقل إن أمكن استخدام هذا التعبير.

ولن نفصّل في هذا المقام في هذه العناصر أو تلك، لأن التفصيل فيها يحتاج الى أضعاف هذه الدراسة الحالية، ولعلنا نعود إلى ذلك في موضع آخر.

وقد سبق أن أشرنا الى بداية النظرة التمجيدية لليونان عند أحمد لطفي السيد، وهي نظرة انتشرت، واعتُبرت وكأنها مبدأ مقرر عند كل من ساهم في الثقافة المصرية الحديثة على الطريقة الجديدة. ولعلها بلغت أوجها عند دارسي الفلسفة على الأخص. فانظر الى الدكتور عبدالرحمن بدوي في تصديره شبه الشاعري لكتابه «ربيع الفكر اليوناني»: ها هنا معبد الروح، فطوبى للداخلين، وها هنا ميلاد العقل، فهلموا نحتفل به يا من بالعقل تؤمنون، هلموا، فهنا، في لحظة قدسية عالية، اهتزت الروح الانسانية لأول مرة هزة الخلق، فانتفض عنها جنين العقل، وبالعقل كان الانسان الأعلى ......، هنا أنبياء العقل الأزلي الخالد، أرسلهم في ساعة السرور المقدس، كي ينفخوا في الانسان روح الحرية والنبل والقداسة، روح الحق والخير والجمال». ثم يقول عن السفسطائيين: «هنا أزمة، أزمة الانسان وقد اكتشف لأول مرة نفسه ... فالآن، لتخرج الروح اليونانية، بل الروح الانسانية بأسرها، من ربيع نموها، كي ترتفع الى صيفها وتمام نضجها ... فقد هداها السفسطائيون الى الانسان، قائلين: من هنا الطريق» (يسجل المؤلف تاريخ ديسمبر سنة ١٩٤٢ وقتاً لكتابة تصديره، والتخطيط تحت الكلمات من فعلنا نحن).

وهذه النغمة نفسها نجدها في مقدمة لكتاب آخر يقول فيها مؤلفه: «نحن نؤرخ في هذا الكتاب لنشأة الفكر الفلسفي في اليونان، كيف عالج العقل الانساني، لأول مرة في تاريخ البشرية، ومتمثلا في أمة اليونان، مشاكل الوجود ....». ثم يقول: «على يد هؤلاء الأوائل من فلاسفة اليونان، انعكس العقل الانساني على ذاته، ورأى أن يتلمس الحقيقة في ذاته»، ليخلص الى القول: «فهؤلاء المعلمون الأول ... مشيخة الفلسفة القدامى، ورواد العلم الطبيعي والميتافيزيقي والرياضي، وسدنة العقل ومشيخة الفكر» (علي سامي النشار، «نشأة الفكر الفلسفي عند اليونان»، الطبعة الأولى ١٩٦٤م الإسكندرية، مقدمة الكتاب بغير ترقيم).

ونتساءل الأن: فيم يجسد، هذا الاهتمام بالثقافة اليونانية؟ ولن نعرض هنا بالتفصيل للشكل التنفيذي لترجمة ذلك الاهتمام بالوقائع، ونكتفي بالإشارة الى رؤوس الموضوعات: فعلى رأس قائمة الاجراءات التنفيذية تقف حركة إنشاء قسم للدراسات اليونانية اللاتينية بالجامعة المصرية، وبعده تقف حركة ترجمة النصوص التي بدأها، على نحو أو آخر، أحمد لطفي السيد وطه حسين نفساهما. وبعدها نجد حركة نشر الكتب في موضوعات الحضارة اليونانية، ثم نشر المقالات في المجلات والصحف السيارة.

وانما نجيب هنا عن ذلك السؤال السابق مفهوما على أنه يتناول« مواطن» الاهتمام الأقوى والأضعف: وهنا يمكن أن نحدد ميادين الاهتمام كما تجلت عند جمهور المثقفين على النحو التالي بادئين بما احتل درجة أعلى فنزولاً حسب الدرجات:

- الفلسفة
- الأدب
- التاريخ والسياسة
- الفن
- الدين

ولن نستطيع تفصيل القول في ذلك هنا، لأن

الموضوع لا يستلزم أقل من عرض لكل إنتاج الدراسات اليونانية في مصر في الستين سنة الأخيرة على الأقل.

ولم نُشر في هذه القائمة إلى دراسة اللغة اليونانية، لأنها موضوع أكاديمي، ولا تهمنا هنا الدراسات الأكاديمية بذاتها، إلا إذا خرجت إلى خارج أسوار الجامعة وشاركت في صنع الوعي العام. ونقول بصفة عامة إن الدراسات الأكاديمية للحضارة اليونانية وتلك الرومانية لم تقم بواجبها الذي كان مرجوا منها، لا في إطارها التخصصي ولا على مستوى الوعي العام، حيث لم تتبع خطة كانت تفرض نفسها، وتقوم في ترجمة النصوص عن أصولها اليونانية واللاتينية على نحو شامل، وفي مساندتها بدراسات تاريخية متتالية حول شتى جوانب الحضارة اليونانية وتلك الرومانية، ولولا جهد طه حسين نفسه وإنتاج بعض تلامذته في هذين الاتجاهين، لبقي الميدان محصورا في عدد من الترجمات عن اللغات الأوربية، قام بها بعض المتخصصين وبعض الهواة، واستمر الحال كذلك حتى منتصف السبعينات، حين بدأت حركة جديدة من تلامذة الجيل السابق، الذي تتلمذ هو نفسه على طه حسين، تعلن عن نفسها، ولكن على نحو يميل الى الفردية ويفتقر الى الخطة طويلة النفس (ويدخل في هذا الإطار جهدنا المتواضع في ترجمة أفلاطون عن اليونانية مباشرة، وقد ترجمنا له ست محاورات بالفعل).

ونختم هذا القسم الثالث بفكرتين هامتين. الأولى أن بعث الاهتمام بالثقافة اليونانية وإعادة اكتشافها ونشر مأثورها يعد ضمنا، أو هو وسيلة للتعبير غير المباشر، عن اتجاه يريد أن يؤكد أهمية الفكر، وذلك في إطار خلفية كانت لاتُعنى إلا بالدين والسياسة والشعر، وواقع لا يهتم إلا بتسيير أمور الحياة اليومية ولا يتطلع إلى ما هو أعلى.

الفكرة الثانية ترتبط بالأولى وتشير الى اتجاه أعم، وهو يتلخص في أن بعث عناصر الثقافة اليونانية كان إجراء «تكتيكيا» كما يقال في لغة السياسة والحرب، وذلك كجبهة ينشر من خلالها أصحاب هذا الاتجاه أفكارهم التي تتعدى محض الاهتمام بالثقافة اليونانية إلى ما هو أخطر وأهم وأعم، ألا وهو وضع أسس لعصر التنوير العقلي، وذلك بقصد التحرر من أسر التقليد بأنواعه، مستعينين في هذا بأمر سيصعب على أصحاب التقليد أن يعارضوه، لأنه سبق أن وجد في الحضارة الإسلامية التقليدية، ألا وهو الأخذ ببعض عناصر الثقافة اليونانية (على نحو ماظن هؤلاء وأولئك). ومما هو جدير بالانتباه أن الموجة الأولى، والأكبر، للدعوة الى الأخذ بالروح اليونانية تتخاصر مع عصر التوجه اللبرالي والتنويري في المجتمع المصري الحديث (١٩٢٣ - ١٩٥٢م).

رابعا : نقد التوجهات السائدة والاشارة الى موقف جديد

نود أولا أن نضع في اقتضاب شديد الإطار العام للموقف الذي نقترحه بازاء الثقافة اليونانية القديمة. فنحن نرفض فكرة «الإنسانية» الواحدة، لأن القائم بالفعل إنما هو وحدات أهمها الأمة، والأمم تصنع حضارات، ولا يوجد «إنسان» واحد مزعوم، لأن الإنسان القائم بالفعل يتكون من عنصرين متكاملين لا ينفصلان: تكوين طبيعي وإضافة ثقافية تختلف من حضارة الى أخرى. ولا شك أن التكوين الطبيعي مشترك بين البشر جميعا، ولكنهم لا يتشابهون كلهم ثقافيا، ونرى أن النقلة من مجموع البشر، أو من التشابه في التكوين الطبيعي وحده، إلى مفهوم مزعوم عن «الإنسان» العام أو «الإنسانية» هي نقلة غير مشروعة، وإن كان هناك مكان لإنسانية واحدة في المستقبل حين تسود حضارة واحدة وثقافة واحدة على ظهر الأرض ككل. ولكن هذا المستقبل لا يزال بعيدا بعيدا.

كذلك فاننا نرفض فكرة «العقل» الواحد، لأن العقل الطبيعي، وهو أحد عناصر التكوين الطبيعي المشترك بين بني البشر، ليس كل شيء ولا هو حتى أهم شيء، لأن الأهم والحاسم إنما هو التكوين الثقافي لذلك العقل الطبيعي الذي هو أقرب ما يكون إلى الإمكان الخالص أو المادة «الخام». وهكذا فان مرجع العقل، وما ينتجه من علم وفكر، إنما هو الثقافة. وهناك «عقل» بعدد الثقافات، وبالتالي فما ينتجه عقل ثقافة أمة بالضرورة يختلف عن عقل ثقافة أخرى، ولا يمكن أن يكون لهذه عقل الاخرى ولا العكس.

ويظهر مما سبق أن الفكر لا ينبغي أن يفهم إلا في إطار الثقافة، والثقافة هي دائما ثقافة أمة بعينها، فلا يمكن لفكر ثقافة أن يكون لثقافة أمة أخرى، وحتى إذا ظهر أن هذا «واقع» هنا أو هناك، مثل أخذ الإسلاميين بفلسفة اليونان، أو أخذ المصريين الحاليين بمحتويات عقل الغرب، فان هذا لا يدل على كبير شيء، لأنه بمنتهى البساطة «غير مشروع». وهو واقع في طريق مسدود، ومصيره الفشل المحتوم، كما حدث لمصير الفلسفة اليونانية في العقل الإسلامي الذي لفظها، وكما سيحدث بالضرورة لمصير المستورد الغربي في العقل المصري حين يصل الى عصر الاستقلال والكرامة. ونحن نفرق هنا تفرقة أساسية بين «ما يخصنا» و «ما يهمنا»، وسنعود الى هذه التفرقة بعد حين.

وينتج من الاعتبارات السابقة أننا نعتبر الأخذ بالثقافة اليونانية وكأنها تراث عالمي لنا وللجميع، وأنها ينبغي أن تكون موضوعا لدراسة كل من يريد أن يكون ممن يعلمون، ونعتبر ذلك أمرا غير مشروع، وحتى وإن ظنه آلاف وآلاف، وجرت في إطاره ملايين الصفحات، وذلك اعتمادا على ما أشرنا اليه من رفض «الإنسانية» الواحد و «العقل» الواحد المزعومين.

ونضيف أن ذلك غير ممكن أيضا، بعد كونه غير مشروع. فتلك ثقافة ماتت وشبعت موتا، وتحجرت وأصبحت في متحف التاريخ، وكان آخر أيامها تلك السنة، ٥٢٩ ميلادية، حين أغلق الامبراطور يوستنيان آخر المدارس الفلسفية الوثنية في القسطنطينية. وكل محاولة موهومة «لاحياء» تلك الثقافة هو أمر لا يدل الا على الجهل العميق بأساسيات الثقافة البشرية. ومن جهة أخرى، فان ثقافة أمة ما ليست إلا جزءاً جوهريا من حضارتها، كما أن الفكر جزء جوهري من الثقافة، والحضارة دائما هي حضارة أمة معينة، وهكذا فلن تأخذ فكرا بغير أخذك لثقافته وحضارته، ولن تستطيع الأخذ بشيء من ذلك جميعا إلا الأمة المعينة صاحبة الحضارة. وعلى هذا الضوء نفهم مصير الفشل الضروري لأخذ بعض الإسلاميين، وهم في النهاية آحاد أو عشرات، بأفكار من ثقافة حضارة الأمة اليونانية. ونستطرد لنقول إن الموقف هو هو حتى لو كانت الثقافتان حيتين في نفس الوقت أو الآن، ولا نقول ما يقول بعض غير المتنبهين: «في نفس العصر»، وهو حال ثقافتنا الوليدة الحالية والثقافة الغربية التي تهدف إلى السلطان الكلي والهيمنة الشاملة، بل ونذهب إلى حد القول إن العلم الطبيعي الغربي نفسه ليس، ولا يمكن أن يكون، علما كليا عالميا، لأنه علم ثقافة بعينها هي الثقافة الغربية، نقول هذا حتى وان كان يُدرَّس صباح مساء في مئات المعاهد عندنا وعلى ملايين التلاميذ والطلاب، فالظاهرة فاسدة وغير مشروعة وإن قبل بها الملايين، أوَ لم يكن هذا حال كروية الارض وانبساطها وحركتها وسكونها وموقعها من الشمس في وقت ما؟

فالأخذ بالثقافة اليونانية نموذجا وتراثا «يخصنا» أمر غير مشروع وغير ممكن. وهو كذلك امر خَطِر يُخاف منه التهلكة، وهذا للاعتبارات التالية التي نسردها بايجاز سريع:

١ - فهو أولا مخالف للحقيقة، وكل مخالفة للحقيقة تبعث على الخطر.

٢ ـ وهو حين ينكر اختلاف الثقافات وتمايزها يعتدي على مبدأ الحرية والمساواة بين الأمم ويقيم سلطان السيادة والسيطرة والغلبة تحت أسماء ما لها من سلطان..

٣ ـ ولأنه يؤدي في النهاية الى وأد ينابيع الإبداع لحضارتنا الجديدة الوليدة، والتي يمكن أن يُؤمَّل لها أن تكون داعية إلى إنقاذ البشرية (أي مجموع البشر لا أكثر) من جنون محتم أو عبودية لازمة إن استمر ظاهر السيطرة الغربية عليها.

وقد سبق لنا أن أثبتنا سريعا الخصائص المزعومة للثقافة اليونانية وللإنسان اليوناني القديم، ونحن لا نوافق على صحتها فيها عدا قضية أو قضيتين (الحرية والفردية).

وإذا كان لنا أن نضيف فشيئا إلى ما سبق، فهو القول بأن زعم عالمية الثقافة اليونانية وخلودها وقيادتها الدائمة للإنسانية إنما هو حصان طروادة الجديد للسيطرة الغربية.

والآن: ما معنى كل ما سبق وماذا يمكن أن يؤدي اليه من نتائج في النظر وفي العمل على السواء؟ هل هي دعوة جديدة الى غلق الأبواب والنوافذ؟ هل نغلق أقسام الدراسات اليونانية واللاتينية بجامعاتنا ونحرم تدريس الفلسفة والأدب والفن بأنواعه عند اليونان؟ هل نحظر ترجمة نصوصهم وأي شيء عنهم؟

كلا بالطبع، لأن العقل المصري، ممثلا وطليعة للثقافة العربية الجديدة الوليدة، هو عقل انفتاح دائما حين يكون مالكا لنفسه أو حين يجتهد لأن يكون كذلك، وهو حالنا هذه الأيام. إنما الذي نطلبه وندعو اليه هو تحويل المسار وتغيير النظرة وإعادة التقييم. ولن نكرر ما ذكرنا من اعتبارات نظرية، وإنما نضع الامر وضعا جديدا حين نفرق بين «ما يخصنا» و «ما يهمنا». فالذي يخصنا هو الذي ينتمي إلى أمتنا، والذي يهمنا أو قد يهمنا هو ما ينتمي الى أمم أخرى وثقافاتها. ونسارع فنقول إننا نضع أمور الحضارتين الغربية الحديثة واليونانية القديمة في مقدمة «ما يهمنا»، وذلك لأسباب مختلفة فيما يخص الحضارتين، فالحضارة الغربية مما يهمنا، وإلى أقصى حد، لأنها مصدر عدوان دائم علينا، والحضارة اليونانية مما يهمنا، والى أبعد حد، لأننا، في مصر القديمة، قد أثرنا عليها أعظم تأثير حين كانت بسبيل التكون، كما أن اليونان غزونا وحكموا مصر لعشرات السنين وأثروا في بعض جوانب حياتها وثقافتها، بالإضافة الى التأثير العظيم للعلم والفلسفة اليونانية في الحضارة الإسلامية. وهكذا فاننا ينبغي أن نهتم بالدراسات اليونانية، ترجمةً للنصوص وتعريفاً بها وتأريخاً لجوانب الحضارة الاغريقية، على سبيل دراسة الآخر المهم، وليس على سبيل نقلٍ لنموذج أو لتراث عالمي مزعوم. هذا هو الموقف المتوازن الذي ندعو اليه، وهو يحترم رغبتنا القوية في معرفة كل شيء على الاطلاق من جوانب الكون، طبيعة وبشرا في الماضي والحاضر، ويحترم في الوقت نفسه استقلالنا وكرامتنا ويوفر الدواعي لقيام إبداع مصري، ثم عربي، جديد، ربما أمكن أن نقول إنه لم يكد يبدأ حتى الآن إلا على هيئة المشيئة، لأنه، وتلك قصة أخرى، سقط من خلال الأعوام المائة الاخيرة في شباك عالمية مزعومة هي في الواقع الأداة الفكرية للسيطرة الغربية..

***

السلامة في المفاعلات النووية

عرض وتحليل: سعود عياش

المقدمة

يحظى موضوع السلامة في المفاعلات النووية باهتمام واسع نظرا للمخاطر الكبيرة التي تشكلها على البشر والبيئة . وقد رسخت الحوادث التي حصلت في بعض المفاعلات مثل حادث ثري مايل ايلاند في الولايات المتحدة عام ١٩٧٩ وحادث تشيرنوبل في الاتحاد السوفيتي عام ١٩٨٦ ، القناعة في أذهان قطاع واسع من الناس بأن استخدام الطاقة النووية ، حتى في الاغراض السلمية ، تحفه مخاطر جسيمة . وإن احتاج الأمر حصول حوادث أثارت فزعا كبيرا وسببت خسائر في الأرواح والممتلكات كي يثار موضوع السلامة في المفاعلات النووية على النطاق العام فقد بادرت بعض قطاعات الجماعة العلمية منذ فترة ليست بالقصيرة الى قرع ناقوس الخطر وكشفت الكثير من الحقائق المدعمة بالأدلة العلمية حول عدم كفاية إجراءات السلامة في المفاعلات النووية والأخطار الجسمية التي يمكن أن تنشأ عن استمرار الاوضاع على ما هي عليه .

ارتبطت الطاقة النووية بالاستخدامات العسكرية منذ الحرب العالمية الثانية حين ضربت مدينتا هيروشيما وناجازاكي اليابانيتان بالقنابل الذرية . ومازالت صور الدمار الشامل وآلاف القتلى الذين سقطوا في المدينتين مطبوعة في الذاكرة الإنسانية . ولم يختف الجانب العسكري في استخدامات الطاقة النووية منذ ذلك الحين بل إنه تعمق وازداد حدة . ففي ظل الحرب الباردة بين المعسكرين عملت الدول النووية ، وبخاصة الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ، على زيادة مخزونها من الأسلحة النووية وقامت بتطوير قنابل ذات قدرات تدميرية أكبر وأكبر . وأصبح المخزون النووي لدى القوتين العظميين كافيا ليس فقط لتدميرهما بل وتدمير كافة أشكال الحياة على الارض .

وحين تطورت تقانة الاندماج النووي كان استخدامها الناجح للآن يتمثل في القنبلة الهيدروجينية الأشد دمارا من القنابل الذرية . وإذا كانت الجهود العلمية قد تمكنت من استخدام الطاقة النووية ـ بشقها الانشطاري ـ في توليد الطاقة الكهربائية فان الجهود العلمية على مدى الأربعين سنة الماضية لم تفلح في إخضاع طاقة الاندماج النووي للاستعمالات السلمية .

وفي السنوات الأخيرة اكتسب الرعب النووي بعدا جديدا حين دلت الدراسات العلمية على أن حربا في النطاق الجغرافي للقوى العظمى المتصارعة ستفرز آثارا بيئية شديدة الخطورة تتمثل بظاهرة الشتاء النووي . فالحرائق الناجمة عن صدام نووي ستكون واسعة النطاق بصورة كبيرة وسينتج عنها ملايين الاطنان من الدخان الذي سيصعد الى طبقات الجو العليا ويغطي مساحات واسعة من سطح الارض . وستحجب هذه الغمامة أشعة الشمس عن مساحة واسعة من الأرض مما يؤدي الى انخفاض درجة الحرارة على الأرض بصورة ملحوظة . وسيؤدي هذا بدوره الى إلحاق أضرار كبيرة بالإنتاج الزراعي في معظم المناطق المأهولة في العالم . وهكذا ، فمن لا يمت حرقا في الحرب النووية فسيموت بردا أو جوعا .

يمكن النظر الى الاستخدامات السلمية للطاقة النووية كمحاولة لتحسين صورتها السلبية المنطبعة في الذهن البشري . لكن حتى في هذا المجال لم يخل استخدام الطاقة النووية من حوادث خطيرة كادت تتفاقم في بعض الأحوال لتتحول إلى كوارث كبيرة . وعلى الرغم من المخاطر الكبيرة المرتبطة باستخدام الطاقة النووية حتى في الأغراض السلمية فلا يبدو أن هذه المخاطر أخذت على محمل الجد أو أن إجراءات كافية تم تطبيقها في المحطات النووية لضمان سلامة تشغيلها . وإذا أمكن القول بأن اعتبارات المصالح لدى الشركات الخاصة ورغبتها في تقليل كلفة بناء وتشغيل المحطات تقف وراء فقدان الكثير من المحطات لشروط السلامة في دول الاقتصاد الحر فليس ممكنا طرح نفس وجهة النظر هذه في حالة دول الاقتصاد المخطط حيث يفترض ـ نظريا على الأقل ـ ألا تلعب هذه الاعتبارات دورا شديد الأهمية . وهذا ما يدفعنا للقول إنه مازال هناك الكثير من التحديات التقنية في مجال استخدام الطاقة النووية في الاغراض السلمية التي يجب معالجتها بعقل مفتوح ودونما اعتبارات اقتصادية ضيقة . لقد أثبتت التجارب المريرة أن تكلفة حادث نووي على شاكلة ثري مايل ايلاند او تشيرنوبل أكبر من حجم الاستثمارات المطلوبة لتطوير متطلبات السلامة في المفاعلات النووية .

وحول موضوع السلامة في المفاعلات النووية في الولايات المتحدة نستعرض كتابا صدر عام ١٩٨٧ عن « اتحاد العلماء المعنيين » Union of Concerned Scientists بعنوان « السلامة ثانيا » . أسهم في تأليف الكتاب ميشيل اداتو (المؤلف الرئيسي) وجيمس مكنزي وروبرت بولارد وايلين وايس .

يتناول الكتاب موضوع السلامة في المفاعلات النووية في الولايات المتحدة من خلال مناقشة دور وأداء « وكالة التنظيم النووي » Nuclear Regulatory Commission خلال العقد الأول من حياتها . يتكون الكتاب من ستة فصول وتوطئة تقع في ١٩٤ صفحة ، استغرقت منها المراجع والفهارس ٣١ صفحة . ينتقد الكتاب دور الوكالة في انها :

ـ تحاشت معالجة مسائل السلامة الأكثر إلحاحا .

- اتخذت موقفا سلبيا من مشاركة الجمهور في اتخاذ القرارات وترخيص محطات الطاقة النووية .

- فشلت في تطبيق مقاييس السلامة وإجراء تحقيقات وافية .

- احتفظت بعلاقة « أخوية » مع الصناعة التي يفترض أنها نشأت لضبطها ، وقامت بدور المحامي عن الصناعة وليس الخصم .

اتحاد العلماء المعنيين

تأسس الاتحاد عام ١٩٦٩ من أعضاء الهيئة التدريسية في معهد ماساشوستس للتقانة ، ويشارك في عضويته حوالي مائة الف عضو في عموم الولايات المتحدة . وقد تدخل الاتحاد في مسألة السلامة لأول مرة عام ١٩٧١ حين تحدى الأسس التقنية لمعايير الأداء التي وضعتها وكالة الطاقة الذرية (سلف وكالة التنظيم النووي) لنظام تبريد قلب المفاعل النووي في حالة الطوارىء .

نشر الاتحاد عدة دراسات أهمها دورة الوقود النووي (١٩٧٤) ومخاطر مفاعلات الطاقة النووية (١٩٧٧) والنفايات المشعة : السياسة والتقانة والمخاطر (١٩٨٠) . كما أسهم الاتحاد في تقديم آراء خبيرة لوكالة التنظيم النووي وعلق على كفاية القواعد المقترحة وضرورتها ، وقدم اعتراضات للوكالة لتحسين شروط السلامة . وأدلى موظفو الاتحاد بشهادات أمام لجان الكونغرس بصورة دورية وساعدوا وقدموا المشورة لهيئات حكومية أميركية وأجنبية .

الإطار المؤسساتي للطاقة النووية في الولايات المتحدة الامريكية

أنشئت وكالة التنظيم النووي عام ١٩٧٥ بقرار من الكونغرس لغرض « ضبط صناعة الطاقة النووية للحفاظ على الصحة والسلامة العامتين » . وجاء إنشاء الوكالة عقب إصدار قانون إعادة تنظيم الطاقة عام ١٩٧٤ الذي ألغيت بموجبه وكالة الطاقة الذرية التي كانت تتولى ، من ضمن مهامها ، مهام وكالة التنظيم النووي . واعترف التشريع بان وكالة الطاقة النووية كان لها مهمتان متناقضتان وهما ترويج وتنظيم الطاقة النووية التجارية . وساد شعور في الكونغرس بضرورة تشكيل هيئة مستقلة لضمان الصحة والسلامة العامتين . وأما نشاطات الدعم والترويج فقد أسندت الى وكالة جديدة أصبحت فيما بعد وزارة الطاقة .

تعود جذور الإطار المؤسساتي للطاقة النووية في الولايات المتحدة الى نهاية الحرب العالمية الثانية حين قام الكونغرس بنقل مسؤولية التحكم بالطاقة النووية من العسكريين الى المدنيين . وأقر الكونغرس عام ١٩٤٦ قانون الطاقة الذرية الذي تحددت أغراضه بالاحتفاظ بالتفوق النووي للولايات المتحدة وحماية أمنها القومي . وانشأ القانون لجنة لمراقبة وتطوير كافة جوانب التقانة النووية للاستعمالات العسكرية والسلمية . وقد ركزت اللجنة جهودها على الجوانب العسكرية لبناء مخزون من الأسلحة النووية وأولت الاستخدامات السلمية المتمثلة بتوليد الكهرباء أهمية ضئيلة .

في ديسمبر ١٩٥٣ أعلن الرئيس ايزنهاور في خطابه الى الامم المتحدة خطته « الذرة من أجل السلام » . وفي عام ١٩٥٤ عدّل الكونغرس قانون الطاقة الذرية وسمح للقطاع الخاص ببناء وتشغيل المحطات النووية . غير ان مسائل السلامة لم تعر الاهتمام الكافي واعتبر الامر تحصيل حاصل . وقد أثمرت سياسة دعم البحوث النووية في المؤسسات الحكومية والخاصة عن بناء محطة كهرباء نووية ربطت بالشبكة العامة ، وبدء تشغيل المحطة ، وهي بقدرة ٦٠ ميغاواط ، عام ١٩٦٠ .

بغية تشجيع الشركات الخاصة على التوسع في بناء محطات الطاقة النووية أقر الكونغرس قانونا عرف باسم قانون برايس ـ اندرسون للحد من مسؤولية الشركات في حالة حصول حوادث في المفاعلات . وأسهم القانون في تشجيع الاستثمار التجاري للطاقة النووية . وقدرت وكالة الطاقة النووية في أواخر الستينات انه بحلول عام ٢٠٠٠ سيكون في الولايات المتحدة ألف محطة تعمل بالطاقة النووية . وكان عدد المحطات المرخصة عام ١٩٦٩ قد بلغ ١٦ محطة وكانت هناك ٥٤ محطة قيد الإنشاء و٣٥ محطة في مرحلة دراسة الطلبات . وفي عام ١٩٧٤ ارتفع عدد المحطات المرخصة الى ٤٣ محطة وتلك قيد الإنشاء الى ٥٤ محطة وكانت هناك ٥٣ محطة تحت الطلب .

في السبعينات أثار اتحاد العلماء المعنيين مسألة السلامة في المحطات النووية خاصة فيما يتعلق بنظام تبريد قلب المفاعل في حالة الطوارىء ، وأشار الى أن افتراضات الوكالة لايمكن تأكيدها ولا ضمانها . وسلط هذا الامر الضوء على الدور المزدوج للوكالة باعتبارها مروجا للطاقة النووية ومسؤولا عن ضمان السلامة العامة في ذات الوقت . ثم صدر قانون إعادة تنظيم الطاقة الذي أنشئت بموجبه وكالة التنظيم النووي التي يتناول الكتاب أداءها خلال العقد الأول من عمرها . وجاء في تقرير مجلس الشيوخ حول قانون إعادة التنظيم « ان أحد الاهداف الأساسية لهذا القانون هو فصل وظيفة التنظيم التي تقوم بها وكالة الطاقة الذرية عن مهام التطوير والترويج » .

أعطى القانون الوكالة مسؤولية ضبط الاستخدامات الطبية للمواد المشعة ونقل النفايات النووية والتخلص منها واشتراطات السلامة ضد اعمال التخريب وانتشار الاسلحة واستيراد وتصدير المواد والمعدات النووية . غير أن مسؤولية الوكالة الأساسية هي حماية الصحة والسلامة العامتين من الأخطار التي يمكن أن تنشأ عن تشغيل محطات الطاقة النووية .

يقول المؤلفون إن العقد الاول من حياة وكالة التنظيم النووي مليء بحوادث السلامة في المحطات النووية وعلى رأسها حادث ثري مايل ايلاند عام ١٩٧٩ . وذكرت لجنة كيميني التي شكلها الرئيس كارتر لإجراء تحقيق حول الحادث انه « لمنع حوادث بمستوى خطورة ثري مايل ايلاند سيكون من الضروري إجراء تغييرات أساسية في تنظيم وإجراءات وممارسات و ـ فوق كل ذلك ـ في مواقف وكالة التنظيم النووي والصناعة النووية » .

يناقش الكتاب في الفصول الأربعة ، من الفصل الثاني حتى الفصل الخامس ، أداء الوكالة من خلال الإجابة عن الاسئلة التالية :

ـ هل عالجت الوكالة أهم مسائل السلامة ؟

ـ هل تأخذ الوكالة بمشاركة الجمهور في اتخاذ قراراتها ؟

ـ هل طبقت الوكالة قوانينها بحذافيرها ؟

ـ هل احتفظت الوكالة بنفسها على مسافة من الصناعة التي يفترض بها ضبطها ؟

وقبل الدخول في تفاصيل الإجابة عن الاسئلة يقول المؤلفون إن هناك شواهد كثيرة للإجابة بالنفي عن الأسئلة السالفة . وفي رأي اتحاد العلماء المعنيين أنه ليس هناك « عوائق تقنية أمام حل مشاكل السلامة في المفاعلات ، لكن هناك سؤال خطير حول ما اذا كانت هناك الرغبة السياسية في اتخاذ الإجراءات الضرورية لحل هذه المشاكل » .

مشاكل السلامة النوعية المعلقة

درجت وكالة التنظيم النووي على ترخيص محطات الطاقة النووية مع علمها بوجود مشاكل سلامة فيها . واستخدمت الوكالة صفة « النوعية » Generic لتبرير ترخيص المحطات . وتقول الوكالة انه ليس ضروريا حل المشاكل النوعية قبل ترخيص المفاعلات ويجب ألا تتدخل في استمرار تشغيلها . ويرى المؤلفون ان هذا تبرير لعدم توفر الرغبة لدى الوكالة لحل هذه المشاكل .

يوضح المؤلفون في الفصل الثاني من الكتاب جذور شعار النوعية وكيف تلاعبت به الوكالة لاعاقة تحقيق الحلول السريعة لمشاكل السلامة الهامة . وقد اعتادت اللجان المعنيةفي الوكالة ترخيص المحطات رغم علمها بالمشاكل على أمل أن تحل مستقبلا . وذكر أحد الرؤساء السابقين للوكالة ان مراجعة تراخيص تشغيل محطة يأتي « بعد ان تبنى محطة بكلفة بليون دولار . وعلى ذلك تكون المخاطر كبيرة جدا . . . . وتنحو لأن تؤثر في آراء المشاركين إن لم يكن في النتائج ذاتها » . وذكرت لجنة كيميني ان مسألة النوعية هي وسيلة استخدمتها الوكالة « لضمان منح ترخيص تشغيل لمحطة انتهى إنشاؤها » وذكر التقرير ايضا « ان الشواهد تدل على ان وصف مشكلة بأنها نوعية يوفر طريقة سهلة لتأجيل اتخاذ القرار حول مسألة صعبة » .

يبحث الفصل في أداء الوكالة فيما يتعلق بمشاكل السلامة النوعية ويبين المماطلة الطويلة التي اتبعتها الوكالة في التعامل مع هذه المشاكل . ويستقصي المؤلفون أربعة مجالات ذات صلة باداء الوكالة .

يتمثل أحد محاور سياسة الوكالة في ممارسة لعبة الأرقام لتجاوز مشاكل السلامة النوعية . ففي أكتوبر ١٩٧٦ طلبت الوكالة من موظفيها إعداد خطة لحل المشاكل النوعية . وقدم الموظفون تقريرا احتوى على ٣٥٥ مشكلة ذات اهمية كبيرة . وفي عام ١٩٧٧ طلب الكونغرس من الوكالة إعداد خطة لتوصيف وتحليل مشاكل السلامة وتقديم تقرير سنوي حول الموضوع . وجاء في تقرير الوكالة للكونغرس عام ١٩٧٨ ان عدد المشاكل يبلغ ١٣٣ مشكلة . وانخفض العدد في عام ١٩٧٩ الى ١٧ مشكلة فقط . ولم يكن انخفاض العدد نتيجة حل المشاكل بقدر ما كان تلاعبا في الأرقام إذ تم جمع بعض المشاكل معاً وأعيد تصنيف قسم آخر وجرى تجاهل البعض الآخر ، كما أنه تم حل بعض المشاكل بالمفهوم الإداري . وعقب حادث ثري مايل ايلاند ظهرت مشاكل سلامة جديدة بادرت الوكالة الى معالجتها وورد في تقريرها لعام ١٩٨٠ انه تم حل ٩٧ مشكلة . وفي السنوات الثلاث اللاحقة تم حل ثلاثين مشكلة تقريبا في كل سنة . وكان هذا يعني أنه لايوجد هناك نظام معلومات للتأكد من أن الحلول قد تم تطبيقها من قبل المحطات .

يرى المؤلفون أن الوكالة بطيئة جدا في معالجة مشاكل السلامة الأساسية إذ يستغرق الأمر سنوات مابين تشخيص مشكلة وتحديد الحل وتطبيقه . ففي أعقاب حادث ثري مايل ايلاند استغرق الامر سنتين لوصف بعض مشاكل على أنها مشاكل معلقة ولم تصدر خطط لاتخاذ الإجراءات اللازمة إلا بعد مايقارب سنة ونصف السنة من ذلك . وحتى حين تم تقديم الحلول المطلوبة في ابريل ١٩٨٦ لم يرافق ذلك تحديد جدول لتطبيق الحلول .

يتناول المؤلفون أربع مشاكل سلامة لم يتم حلها للآن . ففي مجال الوقاية من الحريق كشف حادث حريق في محطة براونزفيري عام ١٩٧٥ عن جوانب القصور في إجراءات الوقاية المعمول بها في محطات الطاقة النووية . ومع ان الوكالة أصدرت قواعد جديدة للوقاية من الحريق عام ١٩٧٨ فقد تبين أن بها نواقص كثيرة وأنها بنيت على فرضيات لا يمكن تأكيدها . وفي مجال تأهيل معدات السلامة واعتمادها لضمان انه يمكنها العمل في الظروف الناجمة عن حصول حادث - بخار ، وحرارة وضغط مرتفعين ، وإشعاع ، تبين أن مواصفات الوكالة غير كافية . وفي عام ١٩٨٠ اعتمدت الوكالة مواصفات جديدة للتحقق من صلاحية معدات السلامة لكن تبين فيها بعد ان حوالي ٧٥٪ من المعدات الكهربائية في المحطات النووية العاملة إما أنها بحاجة الى تغيير او تعديل أو مزيد من الحماية او انه لاتتوفر عنها معلومات كافية للحكم على مدى صلاحيتها .

أما بالنسبة لمشكلة تشقق الأنابيب في مفاعلات الماء المغلي فقد سمحت الوكالة للمفاعلات بالعمل إذا كانت التشققات دون حجم معين شرط استمرار التفتيش والإصلاحات . وافترضت الوكالة أن الاشعاع النووي سيتسرب عبر الانابيب قبل أن تنكسر ، لكن الاختبارات بينت أنه يمكن للانابيب ان تنكسر دون سابق إنذار مسببة فقدان ماء التبريد وربما في نهاية المطاف انصهار قلب المفاعل . وفيما يتعلق بإنزال القضبان لوقف المفاعل في حالة الطوارىء أصدرت الوكالة عام ١٩٨٤ توصيات بشأن الاجراءات المطلوبة لحل مشكلة السلامة هذه وكان من المتوقع ان يستغرق تطبيقها عدة سنوات .

يرى المؤلفون ان اهتمام الوكالة في السنوات الاخيرة انتقل من التأكيد على حل مشاكل السلامة نحو خلق عوائق إدارية للحد من إصدار متطلبات جديدة لتعديل أوضاع المحطات النووية بعد منح تراخيص التشغيل . ويرى المؤلفون ان أفعال الوكالة هدفت الى خلق نظام يمكن من خلاله لأصحاب التراخيص تجنب او تأخير تطبيق التعديلات والإصلاحات المطلوبة . وتتمثل إحدى ممارسات الوكالة في إجراء تحليل كلفة للتعديلات المطلوبة . واذا تبين ان كلفة التعديلات أقل من كلفة الأخطار التي يمكن تجنبها بتطبيق التعديلات اعتبرت هذه ذات مردود وجرى تطبيقها . لكن المشكلة ان عملية الحساب تعتمد على سلسلة طويلة من الفرضيات التي يشك في صحتها مما يجعل كلفة الكثير من التعديلات كبيرة وغير مجدية .

يختتم المؤلفون الفصل الثاني من الكتاب بالتأكيد أن الوكالة لم يخطر ببالها ان الحوادث الكبيرة محتملة الوقوع وان سياستها كانت تقوم على أساس أن المحطات النووية تتمتع بشروط سلامة كافية .

الجمهور خصما

يتناول المؤلفون في الفصل الثالث مواقف الوكالة من المشاركة العامة في مداولات لجان التحقيق وفي مرافعات ترخيص المفاعلات النووية ، ويرون ان هذه المواقف غير ودية وان الوكالة عملت على تعديل إجراءات عملية الترخيص لتقييد المشاركة العامة . ويشير المؤلفون الى أن نتائج هذه المواقف جاءت معاكسة لما هدفت الوكالة اليه ذلك ان عدم الاهتمام الكافي بمشاكل السلامة أدى الى تأخر ترخيص الكثير من المفاعلات ، وان الوكالة فشلت في طرح نفسها كهيئة محايدة .

كان قانون الطاقة الذرية قد طرح حلا وسطا لعملية ترخيص المفاعلات . فالصناعة النووية أعفيت من الالتزام بالقوانين المحلية (قوانين الولايات المختلفة) واستعيض عن ذلك بطلب ضمانات سلامة لكل مفاعل على حدة . وفي مقابل الحد من مسؤولية الصناعة أقر الكونغرس المشاركة العامة المفتوحة للتأكد من جوانب السلامة قبل منح التراخيص . وحدد القانون ضرورة عقد مرافعات الترخيص قبل ان تتمكن الوكالة من إصدار أمر ترخيص ببناء المفاعل بغض النظر عما اذا اختار الجمهور المشاركة في المرافعات ام لا . واما حين يبدأ إنشاء المفاعل وقبل منحه رخصة تشغيل فلا تعقد المرافعات بصورة تلقائية بل يتوجب عند ذاك تقديم طلب لعقد مرافعات على ان تنطبق على مقدمي الطلبات شروط القبول كوسطاء أو معترضين Intervenors . وجاء في تقرير إحدى لجان التحقيق أنه « بقدر ما يفترض أن توفر عملية الترخيص منتدى مفتوحا للمشاركة العامة لحل كافة مشاكل السلامة المرتبطة ببناء وتشغيل المحطات النووية فالعملية خدعة » .

هناك في الواقع العديد من العقبات أمام المشاركة الجماهيرية الفعالة في مرافعات عملية الترخيص . فالمشاركة الفعالة تكلف حوالي ٥٠ الف دولار مما يضع الشركات والوكالة في مركز أفضل لطرح آرائهم . ولا تتوفر في العادة معلومات كافية للجمهور قبل البدء بالمرافعات مما يضع الجمهور موضع الاتهام بالتعمد في تأخير الأمور . وتلجأ الوكالة الى تفسير القوانين بصورة ضيقة للحد من مشاركة الجمهور . وتعمل الوكالة أيضا على تأخير زمن إجراء المرافعات الى حين اقتراب موعد إصدار ترخيص التشغيل حين يكون الوقت متأخرا لاتخاذ القرارات المناسبة نظرا لحجم الاستثمارات الضخمة التي يكون قد اشتمل عليها بناء المفاعلات .

يورد المؤلفون عدة أمثلة حول تدخل الوكالة في أعمال لجان الترخيص التابعة لها لوقف المرافعات والتحقيق في مشاكل السلامة . وعلى سبيل المثال عند مناقشة مسألة تأثير الهزات الارضية على إجراءات الطوارىء ، أثناء مرافعات ترخيص مفاعل سان اونوفر ، أمرت الوكالة بعدم مناقشة الموضوع ووعدت أن تعالجه على أنه مشكلة نوعية . وقد علق أحد مفوضي الوكالة على السلوك بقوله « يبدو أن الوكالة مستعدة ان تذهب الى أبعد مدى لتجنب معالجة هيئة الترخيص لمسألة أثارتها الهيئة نفسها » . وفي حالة المفاعل النووي في زمير أمرت الوكالة هيئة الترخيص بوقف المرافعات . وعلى الرغم من إقرارها بخطورة المشاكل القائمة فقد ادعت أن موظفيها بصدد استقصائها . وقد علق أحد مفوضي الوكالة بقوله « لسنوات سمعنا عن الاتهام بأن الاجراءات التنظيمية للوكالة تحرم أفراد الجمهور فرصة إثارة وحل مشاكل سلامة هامة أثناء مرافعات الترخيص التي تعقدها الوكالة . ان أحد النتائج المؤسفة لقرار الاغلبية (قرار اغلبية مفوضي الوكالة بوقف المرافعات) هو انه يعطي بعض المصداقية لهذا الاتهام » .

إن اهمال الوكالة لمشاركة الجمهور في مرافعات الترخيص أدى الى نتائج عكسية فسرعة منح تراخيص إنشاء المحطات النووية والكشف الموقعي على اقل من ١٪ من حجم البناء يعني ان مشاكل السلامة ومشاكل ضمان النوعية تظهر الى السطح خلال فترة قصيرة من بدء تشغيل المحطات . ويستعرض المؤلفون خمس

حالات دراسية أدى إهمال رأي المشاركين فيها الى إيقاف عـدد من المحـطات قبـل تشغيلهـا وخسـارة بـلايـين الدولارات . وفي حالة مفاعـل جرانـد غالف حيث لم يتدخل الجمهور في مرافعات الترخيص اكتشف موظفو الشركة المعنية وموظفو الوكـالة أن الشـروط الواردة في ترخيص المفاعل احتوت على أكثر من ١٠٠٠ خطأ .

وسعيا من الوكالة للحـد من المشاركـة العامـة فقد طلبت من الكونغرس منحها سلطات لاصدار تصاريح تشغيـل مؤقته للمحـطات لتجاوز عقبـات التـرخيص واستجابة لضغوط الشركات بان إجـراءات الترخيص التي تستغرق وقتا تكلف بلايين الـدولارات . وقامت الوكالة بعد ذلك بتغييرات إجرائية وإداريـة للحد من المشاركة العامة . وقـد تكشفت مواقف الـوكالـة نحو مشاركة الجمهور في مرافعاتها في عدم التزامها بقانـون حكومي صدر أوائل عام ١٩٧٧ يعـرف بقانـون صن شاين . يطلب القانون من الوكالات الحكومية القيـام بأعمالها بصورة علنية وان تكون جميع اجتماعاتها مفتوحة للجمهور مالم يكن مـوضوع البحث ذا صفـة خاصـة تستثنى مشاركة الجمهور . وتبين عند تقييم ردود أفعال الوكالات على القرار الحكومي بأن وكالة التنظيم النووي أكثر الوكالات سلبية تجاه القرار .

التطبيق العشوائي للقوانين

في الفصل الرابع من الكتاب يناقش المؤلفون قيام الوكالة بتطبيق القوانين بصورة عشوائية . فالوكالة ترى أولـوياتهـا في منح التـراخيص للمفـاعـلات وضمـان استمرار عملها وتقليل الكلفة المالية على الشركـات . وحين تتعارض قوانين الوكالـة مع الإجـراءات تختفي القوانين . فقد لجأت الوكالة الى إهمال قـوانينها حين وقفت امام سرعة منح التراخيص . وفي حالات أخرى حين كانت خطط إقامة المفاعلات لا تفي بشروط الوكالة كانت القوانين تتغير لتتفق مع وضع المحطات . ووصل الأمر بالوكالة الى القول بأن المحطات النـووية سليمـة رغم انها تخرق قواعد الوكالة نفسها .

يبحث الفصل الرابع في تلاعب الوكالة بالقوانين في مجالات خطط الطوارىء لإخلاء السكـان وقوة أوعيـة المفاعلات ومقاومتها للتشقق ومؤهلات عمال تشغيـل المفاعلات ونظم الطاقة الاحتياطية في حالـة الطوارىء وطرق إجراء المرافعات وعملية تعديل التراخيص .

يطرح المؤلفون من خلال حالات دراسيـة تلاعب الوكالة والتفافها على قوانينها . فقـد سمحت الوكـالة بتشغيل أحد المفاعلات النووية دون توفر خطط طوارىء مقبولة من جـانبها لاخـلاء السكان في حـالة حصـول حوادث كبيرة .

وفي مجال مقاومـة أوعية المفـاعلات للتشقق قـامت الـوكالـة بتعديـل شروطهـا الفنية للسمـاح لعـدد من المفاعلات بالاستمرار بـالعمل . فـاستمرار اصـطدام النيوترونات بجدار المفاعل يؤدي إلى فقدان مادة الوعاء لخصائصها الأساسية وتصبح قصفة . وينجم عن ذلك أن درجة الحرارة التي يتقصف عندها جدار الوعاء تأخذ بالارتفاع من ٤٠ درجة فهرنهايتية حين يكون جديدا الى أعلى من ذلك بكثير حين يتقـادم المفاعـل . وحددت الوكالة درجة الحرارة الحرجة على ان لاتزيد على ٢٠٠ درجة فهرنهايتية . وفي عام ١٩٨١ تبين ان ١٥ مفاعلا تجاوزت أوعيتها حاجز الدرجة الحرجة مما يعرضها لخطر التشقق في حال اجتماع الضغط المرتفع داخل المفاعل والتبريد المفاجىء نتيجة تسـرب مياه التبـريد الى قلب المفاعل . ولضمان استمرار المفاعلات في العمل قامت

الوكالة بتعديل درجة الحرارة الحرجة وأخذت قوانينها تسمح بدرجة جديدة مابين ٢٧٠ و ٣٠٠ درجة فهرنهايتية .

اما بالنسبة لتأهيل عمال تشغيل المفاعلات النووية فلا تسمح قوانين الوكالة بمنح رخصة للمشغل إلا إذا كان قد حصل على خبرة تشغيل فعلية كبيرة في مفاعل مماثل . ولجأت الوكالة الى تغيير هذا الشرط لتسهيل منح تراخيص تشغيل لثلاثة مفاعلات . واستعاضت عن الخبرة العملية بخبرة تشغيل مفاعل باستخدام المحاكي . وكانت النتيجة ان اخذت المفاعلات توضع في الخدمة باشراف عمال تشغيل دون اية خبرة سابقة .

وفي مجال نظم الطاقة الكهربائية الاحتياطية في المحطات اتخذت الوكالة قرارات عبرت عن عدم احترامها لقوانينها . ففي عام ١٩٨٣ أثناء إجراء فحوص على مولدات الديزل الاحتياطية في محطة شورهام فشلت المولدات في الاختبار وتبين وجود عشرات الأعطال فيها . ورفضت الوكالة في بداية الأمر منح الشركة المعنية ترخيصا لتشغيل المحطة بقدرة منخفضة الى أن تحل مشكلة المولدات . لكن في مارس ١٩٨٤ وافقت الوكالة على ترخيص المحطة لتعمل بطاقة قليلة حتى قبل حل مشكلة المولدات الاحتياطية .

وكانت الوكالة قد حصلت على قرار يسمح لها بتعديل ترخيص تشغيل المفاعلات في الحالات التي لا ينطوي فيها التعديل على أخطار هامة . وتحسبا لأي سوء استخدام للتعديل طلب الكونغرس من الوكالة وضع قواعد ترسم تمييزا واضحا بين التعديلات التي تمثل خطرا هاما وتلك التي لا تمثل . غير ان الوكالة أساءت استخدام التعديل في أكثر من مناسبة وسمحت للشركات بإجراء تعديلات في أوضاع المفاعلات دون ترخيص ولا مرافعات عامة . وحتى في حالة توسيع مخزون الوقود المستهلك التي استثناها الكونغرس من إمكانية التعديل دون الاستماع الى مرافعة عامة قامت الوكالة بالالتفاف على الموضوع وسمحت به دون العودة الى الكونغرس لأخذ موافقته .

يرى المؤلفون أن الوكالة لم تبد رغبة أكيدة في التعاون مع الكونغرس بل إنها كثيرا ما تماطل وتتأخر في إجابة طلبات اللجان المختلفة . وفي إحدى الحالات تأخرت الوكالة سبعة اشهر في الرد على طلب إحدى لجان الكونغرس كانت الوكالة خلالها قد قامت بالتعديلات حسب رغبتها .

الأخوة النووية

يتناول المؤلفون في الفصل الخامس من الكتاب العلاقة الوثيقة والحميمة بين الوكالة والصناعة النووية . ويبدو من خلال ممارسات الوكالة أنها ترى نفسها حليفا للصناعة النووية إذ أنها ترفض الأمور التي تضع الاثنين في أدوار متعارضة . وأبدت الوكالة مرارا استعدادها لتخفيف نقدها للصناعة الى درجة أن نقدها يفتقر للتأثير . ففي ظل الاوضاع القائمة في أوساط الصناعة النووية الاميركية تعتبر الصناعة نفسها مسؤولة عن جزء كبير من التنظيم الذاتي وتقوم الوكالة بمراجعة مستقلة لتصاميم وإنشاءات الصناعة النووية يمتد الى أدائها في مرافعات الترخيص . وتجعل الوكالة موظفيها طرفا في المرافعات وعادة ما يوصي الموظفون بمنح التراخيص .

ان العلاقة الحميمة بين الوكالة والصناعة وصلت الى درجة أنها سرّبت مسودات تقارير التحقيقات والتفتيش والتقييم . وفشلت الوكالة باستمرار في اتخاذ إجراءات تأديبية بحق المسؤولين عن تسريب التقارير . وتتمثل الاخوة النووية بين الوكالة والصناعة في عدة مجالات وعدد كبير من الممارسات . ففي مجال مراجعة تراخيص المفاعلات النووية تقوم الوكالة بمراجعة حوالي ٤٠٪ من التصميم النمطي للمفاعل وتراجع تصاميم المفاعلات الشبيهة أقل من ذلك . وكما وردت الاشارة سابقا تقوم الوكالة بالتفتيش على اقل من ١٪ من إنشاءات المفاعل وتعتمد بدل التفتيش الكامل على تأكيدات الصناعة بالالتزام بشروط الوكالة .

وفي مرافعات الترخيص عادة ما يقوم موظفو الوكالة بدور المدافعين عن الشركات بدل أن يتخذوا دور الخصم اوعلى الأقل دورا حياديا . وقد عبر أحد رؤساء هيئة الترخيص عن إحباطه من فقدان موظفي الوكالة الاستقلالية بقوله « في السجلات امامنا يصعب التمييز بين مرافعة موظفي (الوكالة) والمرافعة النمطية لمتقاضٍ خاص يتوقع أن يقدم مستشاره فقط الأدلة الداعمة لموقفه ويحذر شهوده من تقديم معلومات او آراء غير مواتية » . ويستعرض الفصل عددا من الحالات التي أخفق فيها موظفو الوكالة في القيام بالمهام المناطة بهم لتطبيق القوانين .

وفي مجال إجراء التحقيقات كشفت لجان الكونغرس ومنظمات عامة عن نواقص خطيرة في طرق إجراء التحقيقات من جانب الوكالة . فقد تقاسمت الوكالة تقارير التحقيق والتفتيش مع الصناعة كما حصل حين أجرت الوكالة تحقيقا حول أسباب ونتائج حادث ثري مايل ايلاند وسلمت نسخة من التقرير الى الشركة المسؤولة عن المفاعل . وتبين اثناء مداولات قضية رفعتها الشركة المسؤولة على الشركة التي صنعت المفاعل أن موظفي الوكالة حذفوا من التقرير النهائي معلومات عن مشاكل السلامة في المحطة بناء على طلب من الشركة المسؤولة . وكانت المعلومات المحذوفة قد وردت في مسودة التقرير الأولي . وقامت الوكالة ايضا بخرق مبادىء السرية وعرضت من تطوعوا بتقديم معلومات سرية لها للمساءلة ففي مناسبات عديدة تقدم العاملون في المحطات النووية بمعلومات سرية عن مشاكل السلامة في المفاعلات والمخالفات القائمة ، لكن الوكالة بدل أن تبدي حرصا على حماية مصادر المعلومات وإبقاء هوياتهم سرية قامت في مناسبات بالكشف عن أسمائهم مما هدد مستقبلهم الوظيفي .

يرى المؤلفون ان الوكالة كثيرا ماتقوم بتحقيقات غير وافية . ويستعرض الفصل عددا من الحالات فشلت فيها الوكالة باجراء تحقيق واف . ومن بين هذه الحالات التحقيق الذي قامت به الوكالة حول التزوير في نتائج اختبارات معدلات تسرب الاشعاع في مفاعل ثري مايل ايلاند . فقبل حصول حادث المفاعل المذكور كانت اختبارات التسرب تشير الى ارتفاع مستوياته فوق المستويات المسموح بها حسب الترخيص الممنوح . وقام العاملون في المفاعل ومسؤولو الشركة بالتلاعب في البيانات لتبيان أن معدلات التسرب تقع ضمن الحدود المقبولة . واستنادا الى معدلات التسرب الفعلية كان يفترض ان يوقف المفاعل عن العمل لو اتبعت الإجراءات الصحيحة ، لكن المفاعل استمر في العمل وحصل ما حصل . دخل التحقيق في هذا الموضوع في

متاهات معقدة مابين الوكالة ووزارة العدل والمحاكم . وذكر أحد القضاة الذين شاركوا في مرافعات القضية « ان الوكالة لم تقم باي تحقيق ذي معنى وانها حتى اليوم استخدمت كذريعة حقيقة ان هيئة المحلفين تقوم بتحقيق لتجنب تحمل مسؤولياتها » . ويستعرض الفصل حالات أخرى تبين عدم جدية الوكالة في إجراء التحقيقات او إدانة الشركات وتطبيق العقوبات عليها .

الاستنتاجات والتوصيات

يرى المؤلفون - وهم يطرحون رأي اتحاد العلماء المعنيين - انه باستثناءات قليلة يعتبر اداء الوكالة خلال العقد الاول من عمرها بعيدا عن أن يكون مثاليا ، وأن الوكالة لم تتطور لتصبح مؤسسة قوية والحامي المستقل للصحة والسلامة العامتين التي توخاها واضعو قانون إعادة تنظيم الطاقة . ويرى الاتحاد أن واضعو القانون الذي غير الوضع المؤسساتي لتنظيم الطاقة النووية للأغراض المدنية بفصل وكالة الطاقة الذرية الى مؤسستين لم يعط النتائج المرجوة . ويعتقد الاتحاد أن سجل العقد الاول من حياة الوكالة يبين ان ولاءها الأولي والغريزي مازال للصناعة النووية التي يفترض ان تقوم بتنظيمها . ويرى الاتحاد ان جذور هذا الولاء تعود الى النشأة الاصلية للوكالة حين كانت المهمة الأساسية لوكالة الطاقة الذرية تكوين برنامج سلمي للطاقة النووية بتبيان أن تقنية خلقت لأغراض الدمار يمكن أن تستخدم في الاستعمالات السلمية .

استنادا الى ماورد في فصول الكتاب يخلص المؤلفون الى جملة من التوصيات الهادفة الى تحسين اداء الوكالة . ويتطلب ذلك اتباع منهج باتجاهين : ان تحمل الوكالة مشاكل السلامة على محمل الجد وان تعمل على حلها عمليا وليس نظريا او اتفاقيا ، وان تتخذ موقفا أكثر حزما من مقاييس الأداء والسلوك التي تتوقعها من أصحاب التراخيص .

يوصي الكتاب ان يقوم الكونغرس بتحديد مواعيد واضحة لحل مشاكل السلامة المعلقة ، وان تطلب الوكالة سرعة إنجاز التحسينات والتعديلات المطلوبة كي تستوفي المحطات والمفاعلات الشروط الدنيا للسلامة ، وان يتم تعديل الاسلوب الحالي في منح تراخيص إنشاء المفاعلات بحيث يسمح بإصدار ترخيص واحد للإنشاء والتشغيل بعد مراجعة وتمحيص التصاميم من قبل الوكالة ، وان يتم تعديل مراجعة منح تراخيص التشغيل بحيث تعقد مرافعة للتأكد من ان المحطة تم بناؤها حسب التصميم وان صاحب الطلب قادر على تشغيل المحطة وإدارتها .

ويوصي الكتاب بأن ينشىء الكونغرس في الوكالة مكتب المفتش العام على ان يعينه الرئيس ويوافق عليه مجلس الشيوخ ، وان يقدم المفتش تقارير الى الكونغرس وان يحظى بسلطات إجراء تحقيق في الادعاءات والوثائق ومع الافراد وتحويل الحالات الجنائية الى وزارة العدل . كما يوصي بان ينشىء الكونغرس مجلسا مستقلا يعينه الرئيس باسم مجلس السلامة النووية على شاكلة المجلس القومي لسلامة النقل للتحقيق في أسباب الحوادث والحوادث الوشيكة ، وأن توفر الوكالة دعما ماليا لمشاركة الجمهور في المرافعات والتحقيقات .

من الواضح ان الكتاب يقدم نقدا شديدا لأداء وكالة

التنظيم النووي في الولايات المتحدة على قصورها عن تعاملها الجدي مع مسائل السلامة الأساسية التي تتعلق بمصائر ملايين البشر . ويحق للقارىء أن يتساءل كيف أن كل الشواهد والأدلة المتوفرة والحوادث النووية الخطرة مثل حادث ثري مايل ايلاند لم تنجح في إحداث انقلاب جذري في تركيبة وتفكير وممارسات الوكالة . ان العلاقة الحميمة بين الوكالة والصناعة النووية التي قدمت غطاء لتجاوزات الصناعة لم تسفر في الواقع الا عن تحميل الصناعة تكاليف باهظة تمثلت في عدد كبير من محطات الطاقة النووية التي تركت قبل ان يكتمل بناؤها وأوقف العمل فيها كليا . إن سلسلة الأخطاء والإخفاقات والتجاوزات التي وصمت الطاقة النووية التجارية تفاقمت بمرور الوقت بحيث أصبح حلها مشكلة كبيرة وأحيانا مستعصية . ويبدو أن أعداء الطاقة النووية الفعليين هم أصحابها والمدافعون عنها الذين يفترض أن يكونوا أفضل أصدقائها . ان صناعة بمثل هؤلاء الاصدقاء ليست بحاجة في الواقع إلى أعداء ، فهكذا أصدقاء كفيلون بهزيمة حتى الطاقة النووية ، رمز القوة والجبروت والتقدم التقني في عصرنا

لسنا هنا في معرض اتخاذ موقف المؤيد أو المعارض لاستخدام الطاقة النووية سلميا . فالحقيقة الماثلة امامنا ان هناك مئات المفاعلات النووية في العالم . لكن الامر الهام هو ضرورة ألا يتحول كل مفاعل من هذه الى قنبلة موقوتة والى مصدر رعب محتمل . وربما كانت هناك بارقة أمل في أن تتجه الامور نحو الأحسن . ففي ظل الانفتاح الذي تشهده العلاقات الدولية خاصة بين المعسكرين الرئيسيين يطمح المعنيون بأن تتجسد بعض جوانب هذا الانفتاح في تعاون دولي هادف يؤدي الى تبادل الخبرات ومقارنة النتائج لدى علماء الفريقين سعيا نحو تحسين شروط السلامة في محطات الطاقة النووية .

***

الحرب النووية القادمة

تأليف : جمال الدين محمد موسى
عرض وتحليل : كارم السيد غنيم

يقع كتاب (الحرب النووية القادمة) في ١٢٧ صفحة من القطع الكبير ، قام بتأليفه الدكتور جمال الدين محمد موسى أستاذ ورئيس قسم الكيمياء بكلية العلوم في جامعة عين شمس ، ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب في طبعته الأولى عام ١٩٨٦ م . يخلو الكتاب تماماً من الصور الفوتوغرافية والأشكال التوضيحية ، لكنه مكتوب بشكل رصين ، ويتميز بالسلاسة والعرض الشيّق المثير للاهتمام ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن الكتاب الذي نقدمه اليوم من الأهمية بمكانٍ عظيم ، لأنه يوقظ الغافل ويشحذ همة اليقظان في إدراك الخطر التدميري والإبادة الشاملة الناجمة عن الأسلحة النووية في العالم .

احتوى الكتاب على مقدمة (أو تمهيد) وعشرة فصول ثم خاتمة ، هذا على الرغم من أن صاحبه لم يبوّبْهُ هكذا ، بل أطلق عناوين للجزئيات وهي التي وجدناها لا تقل عن كونها فصولاً . شغلت المقدمة (أو التمهيد) ثماني صفحات بينما قلّت عنها الخاتمة بعض الشيء . أما الفصول فقد تباينت أحجامها ما بين قصير (الفصل الرابع - ٥ ¼ صفحة) وبين طويل (الفصل الثامن - ١٨ صفحة) .

في مقدمة الكتاب (الحياة مع الأسلحة النووية) يوضح المؤلف بداية المأساة الذرية والرعب النووي الذي يجتاح العالم اليوم ، حيث كان أول اختبار عملي لسلاح مميت غير تقليدي في ١٦/٧/١٩٤٥ م والذي نجحت في إجرائه الولايات المتحدة الامريكية ، وهو التاريخ الذي أُلقيت بعده بأقل من شهر قنبلة ذرية على هيروشيما باليابان ، تلك المدينة الحزينة التعسة التي لم تكن حتى ذلك التاريخ مسّتْها الحرب ، فكأنما أراد

الانسان أن يدرس على الطبيعة التأثير المدمّر لهذا السلاح الجديد الذي اخترعه ، مستخدماً المخلوقات البشرية كحيوانات تجارب له ومستخدماً بيئة عذراء لم يمسّها الصراع لكي يحصل على صورة كاملة لأثر القنبلة الجديدة غير التقليدية التي أنتجها في معامله .

بعد ذلك ، أعطى المؤلف ـ على عَجَل ـ فكرةً عن السِّباق النووي التدميري بين القوتين العظميين ، الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية ، والذي أدى الى وجود ٥٠,٠٠٠ من الرؤوس النووية في العالم الآن ، لها قوة تفجيرية تعادل القوة التفجيرية لكمية من الـ ت . ن . ت بعشرين بليون طن . هكذا كان مدخل المؤلف ليصل بالقارىء الى تحديد الهدف من وراء تأليف هذا الكتاب : إنّه محاولة لتعريف القارىء العربي بالموقف النووي العالمي والخطر الداهم الذي يجابه البشرية في عالم تهدده القوى العظمى بترساناتها النووية . . . إن علينا أن نفهم ونعي وندرك ونحس ، لأن الفهم والوعي والادراك والإحساس يفتح الطريق للتفاعل المثمر واتخاذ الموقف الملائم تجاه الأحداث والتطورات المصيرية التي يعايشها البشر .

ولقد طرح المؤلف سَيْلاً من الأسئلة في مقدمة الكتاب ، كان آخرها وأخطرها هو السؤال المصيري : ما الذي يمكن أن يحدث فوق هذا الكوكب حين يفلت الزمام ، وتضغط الأصابع النافرة على الأزرار ، وتنطلق الصواريخ النووية الى كل مكان ومن كل مكان ؟؟؟

ولم ينْس مؤلفنا الجليل أن يعرض للقارىء الضوابط التي سوف يتّبعها أثناء مناقشة قضية الحرب النووية ، يقول : ان اعتمادنا في وصف المذبحة البشرية سيكون مبنيّاً على دراسات علمية دقيقة وبحوث واقعية أُجريت على مسرح الجريمة الذرية الأولى للعالم في هيروشيما ونجازاكي ، أجرى بعضها علماء أمريكيون متخصصون ، وقامت ببعضها الآخر مجموعات من العلماء اليابانيين ، وتناولت جوانب عديدة جديرة بالتسجيل .

كما أورد المؤلف عدداً من المراجع ـ وهو لايزال في مقدمة الكتاب ـ منها : تقرير مكتب التكنولوجيا بالكونجرس الامريكي عن آثار الحرب النووية ، كتاب « آثار الأسلحة الذرية » لصامويل جلاستون وفيليب دولان ، كتاب « هيروشيما ونجازاكي » لنخبة من علماء اليابان نُشر سنة ١٩٨١م .

جاء الفصل الأول بعنوان « الخلفية العلمية للسيناريو النووي » ، ليشغل أكثر من ثماني صفحات بقليل ، وليضع فيه صاحبه أساسيات في علوم الذرة والمعارف النووية . وكان المدخل الى هذا الفصل يطرح صورة لشبح الحرب النووية ، وانعكاسات البشر وأحوالهم النفسية تجاهه ، ثم انتقل المؤلف الى عرض الفكرة العلمية الأساسية للسلاح النووي والخلفية البحثية التي أدّت إليه ، بدأها بقانون الطاقة في القرن التاسع عشر حين كان نيوتن متربعاً على عرش العلماء ، ثم تَطوُّر هذه التصورات العلمية في القرن العشرين وتقديم أينشتاين للنظرية النسبية ومعادلة تحويل الكتلة الى طاقة (أنَّ الطاقة تعادل الكتلة مضروبةً في مربع سرعة الضوء) . حدَّد المؤلف الفرق بين فيزيقا نيوتن (القرن التاسع عشر) وبين فيزيقا أينشتاين (القرن العشرين) ، بأن الأولى كانت على النطاق الأرضي ،

أما الثانية فهي كونية مفيدة في كل الخصائص والحالات فوق الأرض وبعيداً عنها في الفضاء . قام أينشتاين نفسه بضرب مثال تشبيهي للكتلة والطاقة ، ثم ألتمس العذر لعلماء القرن التاسع عشر في إخفاقهم في الوصول الى ما أسماه هو « الطاقة الهائلة الكامنة في الكتلة » ، والتي يصوّرها بمثال واحد هو الطاقة المتحررة من قنبلة هيروشيما ، حيث لم تتعدّ الكتلة التي تحررت منها هذه الطاقة جراماًواحدا فقط (وانْ كانت القنبلة ذاتها قد احتوت على تراكيب معقدة تزن أربعة أطنان) .

راح مؤلفنا يشرح بالتفصيل غير المُمِل ، نوعين من التفاعلات النووية ، أولهما : تفاعـل الفلق أو الانشطار ، وثانيهما : تفاعل الدمج أو الاندماج . وبعد طرح عدد من التساؤلات الهامة وتقديم الإجابات المناسبة لها ، خَلُصَ الى ما يلي : . . . إن تفاعل الفلق يعتمد على فلق نوايا ذرات العناصر الثقيلة مثل اليورانيوم ، لكن تفاعل الدمج يعتمد على دمج لنوايا العناصر الخفيفـة مثل الهيـدروجين (ونظائره) لإنتاج نوايا جديدة . وفي كلتا الحالتين تنطلق طاقة لو استغلت بالطريقة الصحيحة لأمكن أن تعطينا قنبلة ذرية في حالة تفاعل الفلق ، واضافةً اليها نحصل على قنبلة هيدروجينية في حالة تفاعل الدمج . ثم انتهى الفصل الأول بتعديد مراحل تكوين القنبلة الهيدروجينية : تفجير تقليدي ـ تفاعل فلق (قنبلة ذرية) ـ تفاعل نووي حراري يؤدّي الى تفاعل دمْج ـ تفاعل فلق جديد .

عُرِضَتْ قصة اكتشاف القنبلة الذرية في صورة عمل مسرحي درامي يتكون من فصلين ، يضم أولهما أربعة مشاهد أمَّا الثاني فيحتوي على مشهدَيْن فقط . ناقش الفصل الأول ـ من هذا العمل المسرحي ـ التجارب والبحوث المعملية للعلماء الكبار ، وكان فصلاً لادخْل للسياسة فيه . كانت عناصر أول مشاهد الفصل الأول هي كما يلي : الزمن : بداية القرن العشرين في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى ـ **المكان** : ألمانيا ، في جامعة برلين ـ **البطل** : ألبرت أينشتاين مدرِّس الرياضيات ـ **الكومبارس** : طلبة الجامعة الذين يستمعون لمحاضرة أينشتاين . وانتقلت احداث المشهد الثاني من ألمانيا الى الدانمرك ، وتسلَّمَ دور البطولة فيه عالم شهير هناك هو نيلز بوهر . أما المشهد الثالث فكان موقع الاحداث فيه انجلترا ، وزمنها هو ١٩٣٢ م وبطلها أحد مكوّنات نواة الذرة واسمه « النيوترون » ، ومخرج هذه الأحداث هو عالم بريطاني شهير اسمه شادويك ، حيث قام بدور جديد في هذا العمل المسرحي الذري . عاد موقع الأحداث الى برلين مرة أخرى ـ في المشهد الأخير من هذا الفصل المسرحي ـ في أحد المعامل العلمية خلال خريف ١٩٣٨ م ، وكان البطل كما هو نفسه « النيوترون » ، أما المُخْرِجَان فكانا العالمان أوتو هان ، فرانز ستراسمان . وانتهى الفصل بعملٍ جاسوسيٍّ رديء قامت به عالمة شابة هي فتاة نمساوية يهودية اسمها ليز ميتز ، وأدى ذلك الى إفشاء أسرار التجربة العلمية الرائدة ، ووضعها بين أيدي الأمريكان الذين بدأوا يواصلون الأبحاث للكشف عن « الكتلة الحرجة » من المادة القابلة للفلق . وبهذا تكون البذرة الأولى للقنبلة الذرية قد وُضعت في ألمانيا ، ثم أثمرت في الولايات المتحدة الامريكية التي جنت المحصول .

سيطر على الفصل الثاني من هذا العمل المسرحي الذري جوٌّ سياسي ، فقد أضحت الأغراض السياسية

تهيمن على البحث العلمي والتكنولوجيا . ولعب دور البطولة في المشهد الأول هنا نفس بطل المشهد الأول هناك ، لكن موقع الأحداث كان هناك في أمريكا ، حيث نزح إليها ألبرت أينشتاين ذاته ، وقام بمقابلة شخص يُدْعَى ليوزيلارد ، وكان عالماً زميلاً مهاجراً هو الآخر . يعبِّر المؤلف عن الجو العام لهذا الفصل المسرحي بقوله : إنه فصل اختفى فيه العلماء وراء الكواليس وظهر فيه السياسيون وأصبحوا هم المُخْرِجين وهم الذين يحرِّكون الخيوط ويديرون المواقف وأصبح المال والسياسة هما المتسلِّطان ، وضاع العلم للعلم ، وضاعت الإنسانية في الزحام . . .

بعد سرْد جملة أحداث يوضح المؤلف أن روزفلت رئيس الولايات المتحدة الامريكية أعطى تعليماته الفورية بتأليف لجنة من العلماء المتخصصين لبحث فكرة أينشتاين . . . وجاء رأى اللجنة بأنه يمكن إجراء تفاعل متسلسل في اليورانيوم ويمكن إنتاج قنبلة نووية . . . ورُصِدَتْ الميزانيات اللازمة ، وسارت التجارب بنجاح وجاء ربيع ١٩٤١ م لتقدِّمَ اللجنة المتابعة تقريرا بأن تفاعلا متسلسلا يمكن إجراؤه بصورة علمية في غضون ١٨ شهرا ، كما أنه في غضون ٤ سنوات يمكن إنتاج قنبلة ذرية . . . وتوالت الأحداث . . . وكانت الحرب العالمية الثانية تدور رحاها بشدة وعنف ولكن أمريكا لم تكن قد أَدْلَتْ بَعْد بدلوها فيها . . ثم ما حدث ما غيَّر الموقف ، لقد ضُرِبَت بيرل هاربور . . وكان لهذه العملية أثر بعيد في الحرب إذ قررت الولايات المتحدة الامريكية أنْ تشارك مشاركة فعلية في الحرب ، وهكذا دخلت أمريكا الحرب العالمية الثانية في ديسمبر ١٩٤١ م ، وهو ما أدّى الى رصْد ميزانيات ضخمة للبحوث لإنتاج القنبلة الذرية ولإنتاج الكمية الكافية من المادة الضرورية لإتمام عملية الفلق . وفي خلال أسبوع تحول البرنامج من بحوث الى إنتاج حيث تم تشكيل مشروع مانهاتان في يونيو ١٩٤٢ م وأحيط بسريَّةٍ تامة .

المشهد الثاني من هذا الفصل الدرامي كان موقع الأحداث فيه هو برلين بألمانيا ، هكذا عاد مسرح الأحداث الى برلين مرة أخرى ، بعد تَتَبُّع عدد من الأحداث انتهى المؤلف الى بيان فشل الألمان في إنتاج القنبلة الذرية فما هو السبب ؟ إنه قصة علمية هامة حاول فيها الألمان استبدال اليورانيوم بالماء الثقيل ، وهو الأمر الذي جرَّ عليهم المشكلات .

جاء الفصل الثالث من الكتاب - محل العرض والتحليل - ليروي أول قصة حرب نووية في تاريخ البشرية ، حيث يستكمل المؤلف حديثه الذي ترسَّل فيه سابقاً ، فقد مات روزفلت ولم يَرَ ثمرة المشروع النووي في أمريكا ، وخَلَفَهُ ترومان في البيت الأبيض ، وكانت هناك مقابلة على أعلى مستوى حيث قابل هنري ستمسون وزير الحرب الامريكي آنذاك رئيس الولايات المتحدة الامريكية ترومان ، وتمَّت المقابلة في أحد المعامل في نيوميكسيكو بسريَّةٍ تامة . . . وسارت الأحداث في هذه السرية التامة حتى أنه لم يتعدَّ عدد الذين علموا بها آنذاك من المسئولين في البيت الأبيض أكثر من أصابع اليد الواحدة ، وكانت الميزانية السنوية المخصصة لهذا المشروع غاية في الضخامة ، فقد وصل معدلها بليون دولار ، وهو مبلغ خيالي في تلك الأيام . وهكذا توالت الأحداث ، الى أن طرح مؤلفنا عددا من الأسئلة أخذ يجيب عن كُلٍّ منها بالشرح والتفصيل الشيق المثير ، هل تُستخدم القنبلة الذرية التي أنتجها

الأمريكان للتعجيل بنهاية الحرب أم لا تُستخدم ؟ هل يُكْتَفَى بالأسلحة التقليدية المتوفرة لدى الجانبين (دول المحور ودول الحلفاء) ؟ هل كان الإنجليز يعلمون بالقنبلة الذرية في أمريكا ؟ هل كان الروس على علْم بهذا السرّ ؟ كيف واجه رئيس وزراء اليابان الاميرال سوزوكي الإنذار الثلاثي من دول الحلفاء في ١٩٤٥/٧/٢٦ . . . ثم جاء اليوم المشؤوم ، جاء يوم إلقاء القنبلة في ١٩٤٥/٨/٢٦ م، حيث أسقطت بالمظلة فوق هيروشيما ، وفي غضون ثلاثة أيام فقط انتهت أقصر حرب في التاريخ وأشدها ضراوة . فما هي العبرة المستخلصة منها ؟ إنه الانذار بتدمير شامل للعالم إذا قامت حرب نووية جديدة .

انتقل الحديث في الفصل اللاحق ـ الذي بُسِطَ في أكثر من خمس صفحات بقليل ـ الى انهيار التحالف بين الأيديولوجيات المتصارعة : انتهت الحرب العالمية الثانية ، وهُزمت ألمانيا النازية ، واستسلمت اليابان وانتصر الحلفاء . فماذا بعد ؟؟ (١) سَرَّحَتْ أمريكا والاتحاد السوفيتي عدداً من قواتها المحاربة . (٢) ازداد التوتّر بين الحلفاء ، ووصل إلى العداوة والخصومة شيئا فشيئا حتى انتهى بالصراع والتطاحن وأخذ شكل سباق في التسلّح النووي .

أخذ المؤلف يتكلم عن الحرب الباردة بين روسيا وأمريكا ، والتقدّم السريع في القوة النووية لدى روسيا حتى فُجّرت في ١٩٤٩ م أول قنابلها الذرية . فماذا كان الصّدى في نفوس الأمريكان ؟ وصل الروس في تقدُّمهم الرهيب الى امتلاك ما يقرب من (٤٠٠) قنبلة في بداية عام ١٩٥٤ م، مما جعل دول أوربا معرّضة للهجوم السوفيتي ، الآ أنه في منتصف العام تقريبا انتهى السوفييت من إنتاج قاذفة عابرة للقارات وأسموها « بيزون» وأتبعوها في ١٩٥٥ م بنوع مماثل أسموه « الدب ». فأصبحت أمريكا نفسها عرضة للهجوم السوفيتي . والاكثر من هذا وذلك وصول السوفييت الى صنع أول مركبة فضاء في تاريخ البشرية عام ١٩٥٧ م وحملت اسم « سبوتنيك ». فماذا كان أثر ذلك على السياسة الامريكية ؟ ماذا فعل كنيدي حين دخل البيت الأبيض سنة ١٩٦٠ م؟ وكيف واجه التقدُّم الروسي الباهر ؟ وإنتهاءً نسوق قول المؤلف الآتي : يقدّر الخبراء أنَّ الاتحاد السوفيتي يملك اليوم من الصواريخ الموجهة العابرة للقارات ذات الرؤوس النووية ما يصل الى ١٣٥٠ صاروخاً ، بينما تملك الولايات المتحدة الامريكية ١٠٥٤ صاروخاً ، هذا بالإضافة الى أن قدرة الصواريخ الروسية على الحمل تزيد على قدرة الصواريخ الأمريكية ، وهناك أنواع أخرى من الصواريخ تتفوق فيها أمريكا . وبعد ، فهل هناك من مبادرات للحدّ من الأسلحة النووية ؟ حدث هذا في العالم بين الأطراف المتصارعة ، ولكن في نطاق ضيق جدا ، حيث تتعثر المباحثات كلما بدأت ، وهذه هي الحقيقة المرّة التي ختم بها المؤلف الفصل الرابع .

القاذفات والصواريخ ذوات الرؤوس النووية كانت موضوع الفصل الخامس ، التي شغل الكلام فيها مساحة عريضة نسبياً ، وحاول فيه المؤلف عرْض خطوات التطور في قاذفات القنابل ، حيث تمثلت الخطوة الأولى في المقاتلة ب ـ ٣٦، وكانت الخطوة الثانية هي إنتاج القاذفة ب ـ ٤٧ ثم القاذفات العابرة للقارات من طراز ب ـ ٥٢، . . . ثم القاذفة سوبر سونيك ب ـ ١ ، التي يمكنها حمل الصواريخ العابرة ذات المدى البعيد ، وتصل سرعتها الى ١٥٠٠ ميل / ساعة وهو ما يعادل ضعف سرعة الصوت . .وأخيرا فالبحوث جارية ومستمرة لانتاج قاذفة قنابل أكثر تطورا

وتقدُّماً تُسَمَّى قاذفة « ستيلث »، أي (قاذفة التلصُّص) أو (قاذفة الخفاء) وهي التي يمكنها أنْ تخدع أجهزة الرادار . هذا بالنسبة لمجهودات الولايات المتحدة الامريكية في المجال ، فما هي مجهودات السوفييت ؟ إنها وصلت الى إنتاج (٣٠٠) طائرة من نوع « باكفير» وهي قاذفات جديدة من نوع سوبر سونيك . كما يعتقد المراقبون العسكريون في الغرب أن روسيا بسبيل إنتاج قاذفة جديدة عابرة للقارات باسم « توبوليف ـ ١٦٠ ».

بعد ذلك حاول المؤلف سرْد قصة الصواريخ الموجهة ، ومعالم البرنامج الأمريكي (صاروخ مينوتمان ـ ١ ، صاروخ مينوتمان ـ ٢ ، صاروخ مينوتمان ـ ٣) ، ثم معالم البرنامج السوفييتي (صاروخ موجه عابر إسْ ـ إسْ ـ ١٧ ، صاروخ موجه عابر إس ـ إس ـ ١٨ ، صاروخ موجه عابر إس ـ إس ـ ١٩) .

سلاح الغواصات سلاح هام له دوره الكبير في الحروب ، وهو سلاح قديم شارك في الحرب العالمية الثانية وكانت له مهامّه التي تُوكَلُ له وانتصاراته التي حققها ... فما هو المقصود بالغواصات ذوات الصواريخ الموجهة ؟ وما مدى تقدّم كل من القوتين العظميين في هذا المجال ؟ وما هي مميزات الغواصات الذرية التي يملكها كل من الأسطول الامريكي والأسطول السوفييتي ؟

انتهى المؤلف بعد هذا التطواف المرعب والأرقام الخيالية والأنباء المذهلة الى قوله : ... ويقدر المختصون أنه في نهاية ١٩٨١ م بلغت القوة التدميرية للأسلحة النووية لجميع الشعوب مقدارا يبلغ من ضخامته أنه إذا قُسِّمَ على جميع سكان العالم لنال كل فرد منهم ، سواء أكان رجلا أم امرأة ، كهْلاً أم شابا أم طفلاً ، كمية من المتفجرات تصل الى عشرة أطنان من مادة الـ ت . ن . ت . !!! فلْيفكّر الانسان في هذا ولْيتدبره ، المهم ألاّ يفقد وَعْيَهُ !!

انتقل المؤلف من فصله السابق الى مناقشة احتدام الموقف بين القوتين العظميين في الستينات من هذا القرن وذلك إثْر حادث خليج الخنازير ، ودخول الاتحاد السوفييتي كوبا . كان ذلك في عهد الرئيس الأمريكي الخامس والثلاثين جون كنيدي حين بدأت الزوبعة في أبريل ١٩٦١ م هناك في خليج الخنازير حيث زجَّت أمريكا بألفٍ من المأجورين لتنفيذ عملية غزوٍ لكوبا ، وقامت المخابرات الأمريكية (سي ـ آى ـ ايه) بالإشراف على هذه العملية ، الاَّ أنَّ الكوبيين لعلمهم بطرقَ المخابرات الأمريكية ويقظتهم لها استطاعوا قتل وأسْر هؤلاء المأجورين وإجْهاض العملية الأمريكية السرية وفشلها الذريع . وبطبيعة الحال ، أدّى هذا الموقف الى تدعيم الاتحاد السوفييتي لوجوده في نصف الكرة الغربي عن طريق تدعيم كوبا بالسلاح والعتاد ، وكان ذلك على أشدّه في صيف ١٩٦٢ م . وتنقل المؤلف في الفصل الحالي بين التحركات السوفييتية وبين شك الأمريكيين وإنذاراتهم للسوفييت وقيام الطائرات الأمريكية بطلعات استكشافية مستمرة في سماء كوبا ، واكتشاف أنواع الصواريخ النووية التي جهّزتها روسيا في كوبا (ساعد في التوصل الى هذه المعلومات كُلٌّ من الطّلْعات الاستكشافية الأمريكية وكذلك العمليات الجاسوسية التي نفّذتها أمريكا) . . وتوالت الأحداث حتى انتهت بوصول رسالة من خروشوف تحمل طابع السلام والتصالح مع الولايات المتحدة في ١٩٦٢/١٠/٢٦ م حيث توقّفت السفن

الروسية الحاملة للصواريخ وغيّرت اتجاهها وأخذت طريق العودة الى روسيا بدلاً من اتجاهها الى كوبا . . وبدأت المفاوضات وتمّ التوصّل الى اتّفاق وَوَعَدَ السوفييت بأن يزيلوا كل صواريخهم من كوبا كما طلب الرئيس كنيدى ، وتمّ ذلك . . وبعده بمدة قصيرة أزالت أمريكا هي الأخرى صواريخها الموجهة الموجودة في تركيا .

جاء الفصل السابع في هذا الكتاب ليحدّد ملامح « صورة المذبحة النووية الشاملة » . وقبل عرض هذه الملامح رجع المؤلف الى بداية العشرينات من هذا القرن ـ الى عام ١٩١٣م ـ حيث كان الناس في كل مكان يعلمون أن القوى الكبرى في العالم حينذاك على أهبة الحرب ، ولكن أحدا لم يكن في إمكانه أن يتنبأ بسلسلة الحوادث الجنونية التي أدت في النهاية الى إشعال نار الحرب . إن العالم اليوم كما كان بالأمس تسيطر عليه القوى العظمى الغارقة حتى آذانها في طوفان الأسلحة والتي تتململ في أماكنها وتتأرجح بين ضبط النفس تارة والعداوة السافرة تارة أخرى ، ولا يمكن أن نستبعد أن يدفعها الى الطريق المنزلق الذي يوصل للهاوية . . . هكذا أوضح المؤلف أن الحرب حينما تقوم فإنها تمرّ بمراحل وترتيبات تجرى في غيبة من علم الناس منها ، وتحدث في بداية الحرب مالم يتوقعه الناس أبدا ، لكن إذا كانت الحروب السابقة حروبا محدودة حتى وإن استعمل فيها السلاح الذري ـ حيث ألقيت قنبلتا هيروشيما وناجازاكي في أغسطس ١٩٤٥م ـ فإن الحرب اللامحدودة هي الحرب القادمة ، وهي التي يعرض مؤلفنا لآثارها التدميرية كما يلي :

أولا : التأثيرات الأولية المحلية :

(١) **الإشعاع النووي الأوّليّ :** في لحظة الانفجار عندما تصل درجة حرارة مادة السلاح النووي التي تتحول للمادة الغازية فجأة الى المستوى الحراري الهائل الارتفاع والموجود داخل النجوم الكونية ، فإن الضغط يصل الى ما يعادل ملايين مرات الضغط الجوي العادي ، وفي التوّ ينطلق تيار من الاشعاع الى المجال المحيط يتكون أساساً من أشعة جاما ، وهي صورة من صور الإشعاعات الكهرومغناطيسية ذات الطاقة الفائقة الارتفاع .

(٢) **النبض الكهرومغناطيسي :** هذا النبض يمكنه أن يوقف الأجهزة الكهربائية عن العمل ويغطي تأثيره هذا مساحة شاسعة ، وذلك لما يسبّبه من موجة عالية من الجهد في الموصّلات المختلفة مثل هوائيات اللاسلكي وخطوط القوى العالية والمواسير والقضبان والأسوار الحديدية .

(٣) **النبض الحراري :** هو عبارة عن موجة من الضوء المبهر الذي يصيب بالعمى .

(٤) **الموجة الإعصارية الجهنمية :** وبتمدد الكرة النارية فإنها ترسل أيضا موجة إعصارية جهنمية كأنها جدران من الهواء المضغوط اللافح الشديد الحرارة في جميع الاتجاهات ، وهذا هو التأثير المدمر الرابع للتفجير النووي .

(٥) **الرماد الاشعاعي المتساقط :** وذلك نتيجة حدوث فجوة أرضية عميقة ، تلتحم إثرها أطنان التراب وأنقاض الحطام مع نواتج الفلق ذوات الاشعاع الكثيف .

ثانيا : التأثيرات الثانوية : لم يفصّل المؤلف فيها ما فصّله في التأثيرات السابقة !!!

ثالثا : التأثيرات الكوكبية : وهي التي تظهر على مستوى العالم كله أو على مستوى الكوكب الأرضي كله . وهي آثار لا تأخذ صفة التميّز إلاّ إذا تمّ تفجير آلاف القنابل النووية في عموم أنحاء الكرة الأرضية . وكما كان للتأثيرات المحلية الاولية آثار ثانوية ، فان للتأثيرات الكوكبية الأولية آثاراً ثانوية عديدة في الجهاز البيئي للكرة الأرضية ككل . . !!

ولقد تمّ اكتشاف ثلاثة آثار عالمية مباشرة حتى اليوم على مستوى الكوكب الارضي كله :

(أ) الرماد الاشعاعي المتساقط على كافة أنحاء الأرض .

(ب) الانخفاض العام في درجة حرارة الارض .

(جـ) التحطيم الجزئي لطبقة الأوزون الحامية لسكّان الأرض من أضرار الأشعة الكونية الساقطة على كوكب الأرض .

وعموماً ، فإن المذبحة النووية المتوقعة في الأيام القادمة سوف تُغيِّرُ على الحياة البشرية في ثلاثة مستويات : على مستوى الحياة الفردية ، ثم على مستوى المجتمع الإنساني ، ثم على مستوى البيئة الطبيعية بما فيها بيئة الأرض ككل . لكن كيف يمكن أن تبدأ الحرب النووية القادمة ؟؟ هذا ما خصّص له مؤلفنا الفصل التالي .

الفصل الثامن هو الذي عرض فيه المؤلف كيفية بدء حرب نووية قادمة ، وجعل عَرْضَهُ هذا في شكل سيناريوهات ثلاثة . وعن هذه الطريقة في العرض يقول المؤلف : ستكون طريقة العرض التي نتّبعها مع كل سيناريو أن نبدأ بعرض للخلفية التي تبدأ إثرها وبسببها سلسلة الحوادث المثيرة التي يتناولها السيناريو .

كان السيناريو الاول بعنوان (الصواريخ الروسية في كوبا مرة ثانية ـ البحر الكاريبي) . استغرقت الأحداث في هذا السيناريو ثلاثين يوما انتهت بالضحايا البشرية الآتية : ١٤٠ مليون أمريكي ، ١٢٠ مليون روسي ، ١٢٠ مليون أوربي ، ١٠٠ مليون صيني ، أيْ ٤٨٠ مليونا من البشر عموماً . أما السيناريو الثاني (أوروبا ـ قصة بلدين ألمانيين) فقد امتدت فيه الأحداث على مدى ثلاثة أشهر وكانت الضحايا فيه : ثلث مليون من القوات الأمريكية في أوربا ، مليونان من الأوروبيين ، نصف مليون من القوات المسلحة والمدنيين السوفييت . وآخر السيناريوهات (طهران ـ ماذا بعد اغتيال الخميني) ، استمر زمنه شهرين فقط ، وكانت ضحايا الهجوم السوفييتي فيه عشرة ملايين أمريكي .

يفتتح المؤلف فصله التاسع بهذه العبارة الرائعة : لو أن مجلسا عالميا فَوَّضَهُ سكّان الأرض في اتّخاذ ما يراه ضرورياً لإنقاذ البشرية من الفناء بالأسلحة النووية ، فربما قرر أن أول خطوة مفيدة في هذا السبيل هي الأمر بتدمير كافة الأسلحة النووية في العالم . ثم شرح المؤلف فشل هذه الخطوة الذي قَدْ تُمْنَى به ؛ وعندها يمكن لهذا المجلس أن يتخذ الخطوة الثانية وهي تدمير المصانع التي تقوم بإنتاج السلاح النووي ، فإذا لم يسيطر بهذا على الموقف فليتخذ الخطوة الثالثة وهي تدمير المنشآت التي تبني المصانع المنتجة للسلاح . واذا كان المجلس عنيداً ، فربما اتّخذ الخطوة الرابعة وهي إعادة العالم الى حالة ما قبل العهد النووي ، وذلك

بالتخلّص من كل الوثائق والكتب والمجلدات والنشرات والمستندات العلمية ورسوم الاختراعات ، وحرقها في النار . ثم يناقش المؤلف احتمال فشل هذه الخطوة أيضا ، ليصل الى إبراز الوجه القبيح للتقدم العلمي حيث يقول ما نصُّه : إنَّ النقطة الأساسية التي يجب أنْ نعيها وندركها ونتفهّمها هي أن المأزق النووي الذي نعايشه تقع جذوره وأصوله في المعرفة العلمية التي أصبحنا نمتلكها ونتحصّن بها ، وليس في الأحوال الاجتماعية للمجتمع الذي نعيش فيه . وبعد ذلك ، قدَّم لنا الفرق بين الثورات العلمية وبين الثورات الاجتماعية ، ثم بيان مكمن الخطورة في الأسلحة النووية ، والبحث عن المسئول عن المأزق النووي الذي نعيشه الآن ، أهُمُ العلماء أمْ غيرهم ؟ وعَرَضَ فكرة هروب الانسان من هذا المأزق بركوبه المركبات الفضائية التي صنعها ليخرج فيها بعيدا عن الكرة الأرضية ، ثم ناقش فشل الانسان في هذا الحل أيضا !!! وأنْهى الفصل بإلقاء المسئولية المصيرية على عاتق كل البشر ، فسكّان الدول العظمى نوويا عليهم مسئولية إيجابية ، بينما هناك مسؤولية سلبية على بقية سكان العالم غير النووي .

آخر فصول هذا الكتاب المثير كان سؤالاً عنيفا هو : طريق الحياة أمْ طريق الموت . . ؟! وحتى يجيب المؤلف عن هذا السؤال ، جال وصال في أكثر من عشر صفحات بين بيان لمذهب الردع النووي والأيديولوجيات السياسية ، وبين آثار اتّباع هذا المذهب ، ثم مناقشة غزو السوفييت لأفغانستان ، ورد فعل الولايات المتحدة ، وتطوُّر هذا الرد ، وينتهي بالعبارة التالية : ان أمامنا طريقين : طريق يؤدّي الى الموت والآخر يؤدّي الى الحياة ، فلو اخترنا الطريق الأول ، اذا رفضنا في تثاقل أن نعترف بقرب النهاية وأن نستمر في زيادة استعداداتنا من أجل الاقتراب منها ، فنحن في حقيقة الأمر سوف نصبح حلفاء مع الموت وسيضعف ارتباطنا بالحياة شيئا فشيئا ، وتعمى عيوننا عن الهاوية التي نوشك أن نقع فيها ، وستخوننا شجاعتنا وإرادتنا وكأنما نستعد لتوديع الحياة واستقبال الموت . . . أما اذا اخترنا طريق الحياة ، اذا نبذنا الهلاك النووي وجمعنا قوانا من أجل البقاء وقُمْنا قَوْمَة رجل واحد ، وتحملنا المسئولية من أجل الخلاص متحالفين مع الحياة ، فلسوف ينقشع الضباب المخدّر من أمام عيوننا وتنجلي أبصارنا ونجد الأرض الصلبة التي نبني عليها الأسس الحقيقية لبقاء الجنس البشري .

يختم المؤلف كتابه بنداءٍ يوجّهه الى أجيال المستقبل ، أو أحياء الغيب - كما يسمّيهم ، في محاولة درامية كي يشاركونا المأساة أو الملهاة التي نعيشها على الكوكب الأرضي الآن ، ولنترك المؤلف يودّع أرض الله ، ملاذ آدم وحوّاء ، نتركه وهو يرى الجنس البشري ينتحر انتحاراً جماعيًا ، نتركه وهو يدعو هذه الأجيال المستقبلية بالتشاؤم وعدم الاستبشار ، ونأتي نحن الى كلمة ختامية في تحليلنا ، فنقول - كما قلنا في بداية المقال - إنّ الكتاب الذي بين أيدينا كتاب مثير يناقش موضوعاً خطيراً ، واجب على كل إنسان ذي عقل وإدْراك أن يحيط بما جاء فيه ، وأن يكون على مستوى المسئولية التي ناقشها صاحبه . وإن هذا لا يدعنا نغفل أخطاءً مطبعية ولغوية واضطراب بعض العبارات ، ونسيان كثير جدا من علامات الوقف والضبط والتمييز داخل نسيج العبارات ، ولا يخفي على أحد ما لهذه العلامات من دور كبير في ضبط الأسلوب وتحديد معاني الكلمات والعبارات (أنظر على سبيل المثال المواقع : س١٥ ص١٧ ، س١٧

ص٢٠ ، س١٠ ص٣٥ ، س٢٣ ص٧٠ ، س١ ص١١٠ ، ...). أما الأخطاء المطبعية فمنها : كجزء (س١٤ ص٨) وتصحيحها : جزء، إسار (س١ ص١٥) وتصحيحها : مسار، الطبيعية (س٤ ص٢٠) وتصحيحها : الطبيعة، استخدام (س١٣ ص٥٢) وتصحيحها : استخدم. ومن الاخطاء اللغوية : خمسون (س٢٣ ص٧) وتصحيحها : خمسين، صرفت على (س٣ ص٣٥) وتصحيحها : صرفت الى أو أنفقت على، فالعمل جاري (س١١ ص٦١) وتصحيحها : فالعمل جارٍ (انظر كذلك المواقع التالية : س٢٢ ص٧، س١٤ ص٨ ... س١ ص٨٩، س٦ ص٩١ ... س١٩ ص١٢٣، س٦ ص١٢٤ ....). وهناك بعض العبارات المضطربة ، وذلك كما في المواقع التالية : س٦ ص٨، س١٠ ص١٢، س٢٥ ص٣٦، س٨ ص١٠٢. وربما كانت كثرة الترجمات في الكتاب ـ إنْ لَمْ يكن الكتاب كله ـ ثم عدم الضبط اللغوي والمراجعة الدقيقة ، قد أدت الى ما وجدناه وضربنا عليه الأمثلة السابقة . إلاَّ أنَّنا نحمد لمؤلِّفنا الجليل هذا المجهود الضخم ، وندعو الله له أنْ يُثيبه حُسْناً جزاء ما تجشَّم من مصاعب في سبيل جمع مادة هذا الكتاب وتقديمه للقارىء العربي في سياق سلس ومثير في آنٍ واحد .

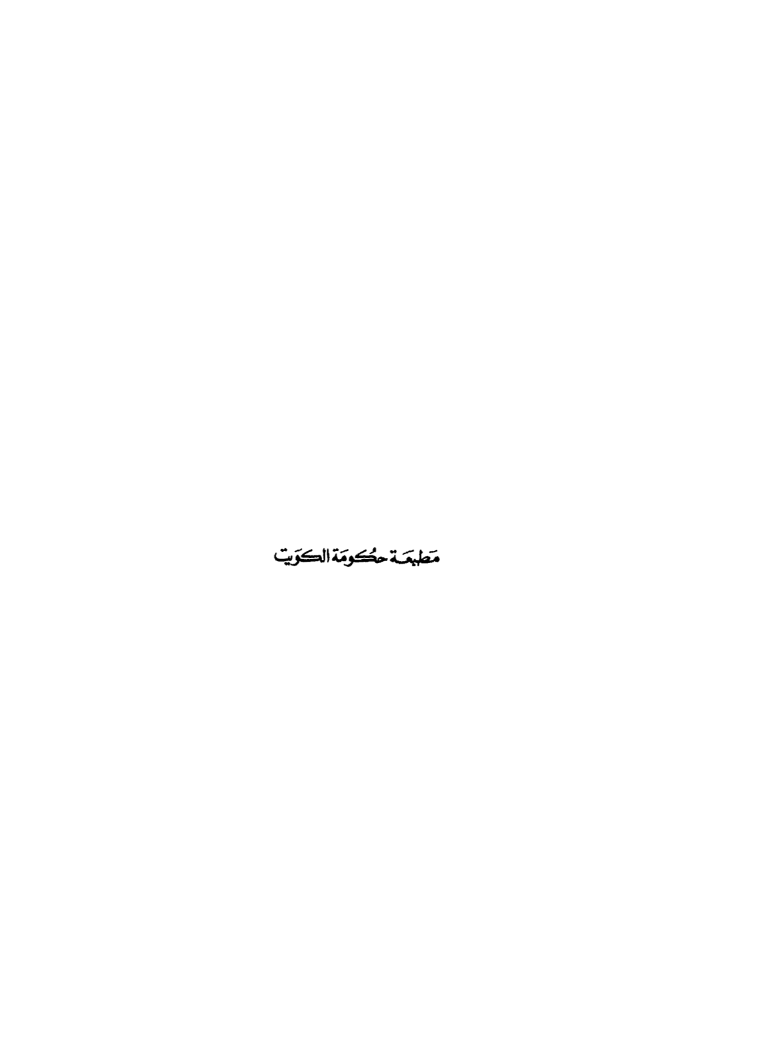
***

العدد التالي من المجلة

العدد الثاني - المجلد الحادي والعشرون

أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر

«الآداب والفنون»



مَطبعَة حكومَة الكويت

ترحب المجلة باسهام المتخصصين فى الموضوعات التالية :

(أ) الاعلام المعاصر .

(ب) الفكر العربي المعاصر .

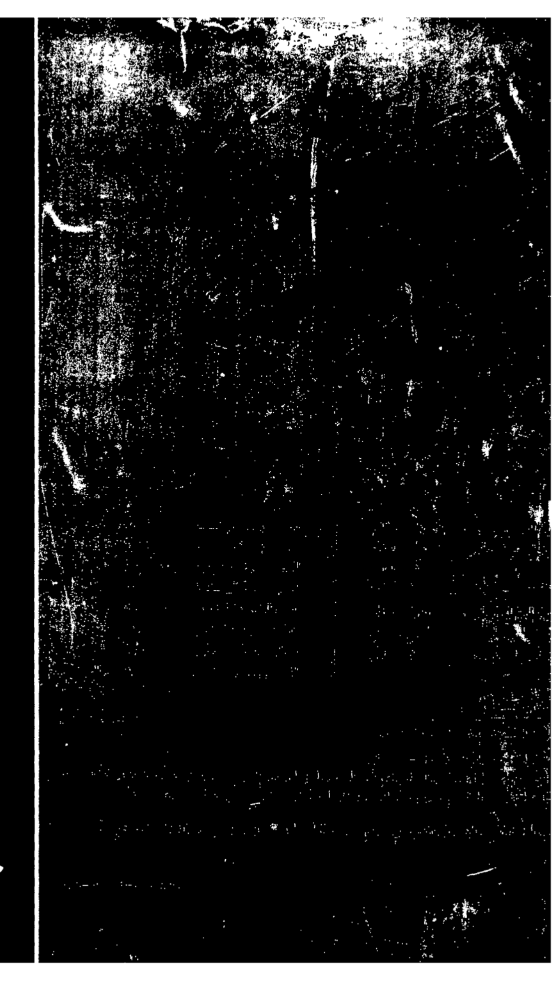
(ج) مدارس النقد الأدبي .

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لاتمثل فصل الخطاب أو جماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثريّ ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ كلمة ، حول ماينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتّاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتّابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

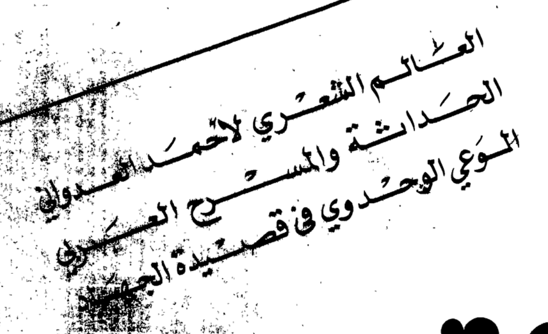
مجلس الادارة



الثمـ
٤٠٠ فلـ

عالم الفكر

المجلد الحادي والعشرون - العدد الثاني - اكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٩١م





"مجلة عالم الفكر"

قواعد النشر بالمجلة

(١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .

(٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات ـ والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :ـ

(أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره .

(ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع الحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزود بده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .

(جـ) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين . . . ١٢, ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .

(د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .

(هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .

(و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .

(٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

ـ وكيل وزارة الإعلام

وزارة الاعلام ــ الكويت ــ ص . ب ١٩٣

الرمز البريدي **13002**



رئيس التحرير : حمد يوسف الرومي
مستشارة التحرير : دكتورة نورية صالح الرومي

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام فى دولة الكويت • المراسلات باسم : وكيل وزارة الاعلام • الكويت :
ص . ب : ١٩٣ • الرمز البريدى 13002 • تليفون : ٢٤٢٨٠٢١ ـــ ٢٤٢٦٥٧ • فاكس : ٢٤٣١٧٤٨

المحتويات

تقديم

عهد الأوفياء

بسم الله الرحمن الرحيم « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل ، وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

صدق الله العظيم

بهذه الآيات الكريمة نستودع من لا تخيب عنده الودائع شهداءنا الأبرار ، الذين سقطوا فى ساحة الشرف ، دفاعا عن الأرض والعرض ، وحماية لكل ما حضت الأديان والأعراف على حمايته من نفس وأهل وولد ، وضنا بتراب الوطن العزيز أن يذل لجبار ، أو يرضخ لعدوان ، أو ينتهك حرماته معتد أثيم .

ان دماء هؤلاء الشهداء لم تذهب — بالقطع — هدرا ، فبالاضافة الى وقفتهم المقدسة ضد جحافل الغدر تحقيقا لوصف الله سبحانه للمؤمنين : « .. من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا .. » ، فإنهم ألقوا على الجميع درسا بليغا ، خلاصته أن لا نأمن لغادر ، وأن لا نركن لخائن ، وأن نميز الخبيث من الطيب ، و« جزى الله الشدائد كل خير ... » !!

وإذا كنا نتوجه باحدى اليدين إلى شهدائنا ترحما واستغفارا ، فإننا نتجه بالأخرى نجدة ووفاء إلى المحتجزين من أسرانا ، الرازحين تحت نير العدوان داخل سجون العراق ، حيث تعرضوا — وما يزالون — لأبشع ألوان القسوة والقهر ، على الرغم من صيحات العالم المتحضر المتكررة ،

وصرخات الضمير الإنسانى فى وجوه زبانية العراق ، أن أطلقوا سراح الأسرى ، فكوا قيود المحتجزين .... ولكن هل يسمع الصم الدعاء ؟!

إننا ـــ عهدا ووعدا ـــ لن ننسى أسرانا ، فهم الغائب الحاضر ، وهم ملء القلب والبصيرة ، وهم معقد جهودنا حتى يتحقق بعودتهم الأمل ، وستبرهن الأيام أننا من إذا قالوا فعلوا ، ومن إذا وعدوا وفوا ، ومن إذا عاهدوا صدقوا ...

وبقى أن يتحرك معنا الضمير الإنسانى فى العالم أجمع ، وبكل صدقه ونبله وأصالته ، لكى يؤكد مصداقية دعوته إلى الافراج عن جموع الأسرى والمحتجزين ، ولكى يثبت أن صرخته فى وجوه الطغاة المندحرين لم تكن صرخة فى واد ، « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

(أسرة تحرير عالم الفكر)

كلمة التحرير

يصلك — عزيزى القارىء — هذا العدد من مجلة « عالم الفكر » فى ظروف أفضل بكثير من تلك التى صدر فيها سابقه ، فقد خرج الى النور العدد الأول من مجلة « ما بعد التحرير » والدخان الكثيف المنبعث من فوهات آبار البترول التى أشعلها المعتدى لم ينحسر بكل طبقاته بعد ، وكان « مخاض التعمير » ومعاناة « الميلاد الجديد للوطن » يدفعان كل يد وكل عقل الى تلمس كل ما عسى أن يسد ثغرة فى البناء الوشيك ، ورحنا نتلفت حولنا باحثين عما يسعفنا فى اعادة اصدار مجلتك الأثيرة « عالم الفكر » فكان أن قدمنا اليك وجبة ثقافية كانت قد أوشكت على تمام « التجهيز » من قبل ، وهكذا صدر العدد الأول الذى انصب بكامله على قضية الطاقة النووية بكل تداعياتها ، وبكل ثقلها فى توجيه عالم المستقبل .

ومنذ صدور العدد الأول من مجلة « ما بعد التحرير » جرت فى النهر — كما يقولون — مياه كثيرة ، وأشرقت شمس الكويت بعد أن انقشعت غيوم الاحتراق المتراكمة ، وعادت وتائر العمل فى شتى القطاعات إلى مثل ما كانت عليه أو أشد قوة ، وهكذا كان علينا أن ندفع « بعالم الفكر » ليتصدر عوالم « إعادة البناء » ، وأن نجعل من مجلتك الحبيبة — كما كانت دائما — طليعة القافلة الساعية إلى تأصيل الثقافة الوطنية ، وترسيخ كل ماهو شريف ونبيل من قيم مجتمعنا ، ومن ثم كان هذا العدد الثانى الذى اخترنا له شعار « آداب وفنون » ، حيث يتجاور فيه الحديث عن الشعر والحديث عن المسرح ، وحيث يتواكب فيه طرح اشكاليات الترجمة مع عرض لمصادر دراسة المأثورات الشعبية ، الأمر الذى حدا بنا إلى ايثار هذا العنوان الذى يوحى بتعدد الآفاق من خلال تشابه المنطلقات ، ويومىء — باختصار — إلى الوحدة من خلال التنوع .

ستطالع — عزيزى القارىء — بعد هذا التقديم دراسة الدكتورة نورية الرومى عن « العالم الشعرى لأحمد العدوانى » تصحبك فيها الى المناطق البكر فى ابداع الشاعر الكويتي الراحل ، بدءا من المكونات الثقافية التى شكلت أصوله الأولى ووصلت منازعه بمنازع الحركة الرومانسية فى الشعر العربى فى فترة الحرب العالمية الثانية وما تلاها ، ومرورا بحقبة ابداعه الممتدة من منتصف الأربعينيات الى منتصف الثمانينيات ، وهى حقبة شهدت تحولاته الفنية من البناء التقليدى القريب من الصياغة الاحيائية إلى البناء الرومانسى الوجدانى ، ثم إلى الصياغة الشعرية الحرة ، وإذا كانت هذه التحولات المرحلية قد جعلت من شعر العدوانى بوتقة تنصهر فيها شتى الأبعاد والصياغات فإنها تشى . فى ذات الوقت — بالتحولات الداخلية التى تواشجت بها هذه المراحل .

وإذا كانت د . نورية الرومى قد رصدت من خلال أقانيم المدنية والتصوف والاغتراب والتمرد والموت عالما شعريا كثيف الرموز والايحاءات الفنية ، فإن الدكتور عبد العزيز حمودة يمضى بنا عبر عالم آخر من عوالم التخلق الفنى ، هو عالم المسرح ، وبالذات « الحداثة والمسرح العربى » ، ذلك أن مصطلح « الحداثة »

أو « الحساسية الأدبية الجديدة » يطرح نفسه على الساحة النقدية الحديثة باعتباره واحدا من أكثر المصطلحات تعقيدا وصعوبة ، ويزيد من تعقيده ما نلحظه من تناقض واضح بين من ينضوون تحت لوائه من النقاد والمبدعين ، ويكفى فى هذه الحالة أن نرصده بأبرز أضلاعه وضوحا ، وهو الحساسية الأدبية والفنية نتيجة لتغير العلاقات الانسانية ، بل ربما كفانا — فى هذه الحالة — أن نستقطر هذه الحساسية فى عبارة واحدة بالغة التركيز ، لنقول ان الحداثة هى « فن التحديث » بكل ما يحتويه هذا الاطلاق من عمومية وتناقض ، ولكن ما الضير فى هذا وتطبيقات المصطلح منذ بداياته فى الربع الأخير من القرن الماضى لم تخل هى الأخرى من تناقض ؟ حتى « الحكيم » الذى راد « فن التحديث » فى مسرحنا العربى لم ينج — هو الآخر — من مغبة هذا التناقض ، فبينما كان رواد الحداثة الأوروبية يتقلبون على جمر « الكارثة » و« حافة الهاوية » و« الانهيار الحضارى » ، كان اتجاهه — وله الحق فى ذلك — يطرح من مفردات الحداثة شعارات كا« لحرية » و« الاستقلال » وما اليهما ، ولم يتم الانحياز إلى الحداثة بمعناها الأوروبى الحقيقى إلا على اقلام الجيل الثانى من كتاب المسرح العربى الذين كان تركيزهم على قضية علاقة الحاكم بالمحكومين ، والذين وفروا لنتاجهم الشرط الثانى للحداثة وهو العودة للمضمون التاريخى والأسطورى ، بالاضافة إلى المادة دائمة الاغراء ، وهى قصص « ألف ليلة وليلة » .

ومن المسرح الحديث إلى تراثنا الشعرى مرة أخرى ، حيث تصحبنا الدكتورة « طيبة بودى » إلى فحص « الموقف النقدى من الشعر الإسلامى فى عصر المخضرمين » ، وهو موقف كان — وما يزال — مثيرا للتأمل والمراجعة ، فهل تصدى الإسلام حقا للشعر ومنعه ؟ وما تفسيرنا — اذن — للشعر الذى قيل فى صدر الدعوة ؟ ولذا لم يكن الأمر كذلك فلماذا كان شعر صدر الإسلام أضعف نسبيا من ذلك الذى قيل فى العصر الجاهلى ؟ وما بواعث ذلك الضعف إن صح التسليم به ؟ كل تلك التساؤلات القديمة الجديدة تطرحها الدكتورة « طيبة بودى » لتصل — من ثمة — إلى ما يؤكد أن الإسلام — كدين — لم يحظر الشعر كفن ، وإنما هو قد تحفظ تجاه تلك الطائفة « الغاوية » من الشعراء الذين ناصبوا الدعوة الجديدة العداء ، أما الشعر الذى ينافح عن مبادىء الإسلام وقيمه فقد شجع عليه الرسول (ﷺ) وسمعه وأثاب عليه ، وصحيح أن هذا الفن قد تعرض مع تباشير الإسلام لحالة من الزهو سببها اختلاف المعايير وتغير البيئة وتطور المقاييس النقدية ، ولكن ذلك لا يقلل من حجم التأثير الإيجابى للاسلام فى الشعر ، حيث أصبح الشاعر الإسلامى يتعامل مع أساليب جديدة ، ومع طرق فنية جديدة ، وهو فى كل هذا كان متأثرا أشد التأثر بالإسلام .

ومن القصيدة فى صدر الإسلام إلى « الوعى الوحدوى فى قصيدة الجهاد المغاربية حيث يستعرض الدكتور حسن الوراكلى « ملامح التوحد المغاربى » من خلال مجموعة قصائد الجهاد التى نظمت فى التصدى للاحتلال وجحافله ، وصحيح أن العقيدة الاسلامية واللغة العربية فضلا عن الموقع والتاريخ المشتركين ، كل هذا كان — ومازال — يمثل الوشائج المتينة التى ربطت بين أقطار المغرب العربى وعمقت بين أهليه الوعى الوحدوى الذى تجلى فى وحدة النزعة الثقافية والصبغة الاجتماعية والمذهبية ، غير أن ابداعات الشعراء بخاصة كانت من أقوى الدلائل على هوية الإنسان المغاربى واستكشاف ما فى شخصيته من ثوابت تلحم وجدانه بوجدان أمته ، وقد برهن الباحث على صدق هذه الحقيقة فى ضوء أحداث الجهاد التى خاضها زعماء المغرب العربى ، والتى انعكست معطياتها

فى ذلك الوعى الوحدوى الذى أفصح عنه الشاعر المغربى ، سواء حين رصد فى شعره حدث الجهاد بكل أشكاله وايقاعاته ، أو حين استوحى زعامة الجهاد واستلهم بعض رموزها التاريخية مثل ابن باديس وعبد الكريم الخطابى .

ومن شعر الجهاد المغاربى إلى ما يسميه الدكتور عبده عبود « بهجرة النص » وهو ما يعنى به الترجمة المقابلة ، أو الترجمة من العربية إلى اللغات الاجنبية فى ضوء ما هو ذائع من ترجمة ما هو أجنبى إلى اللغة العربية . وأهمية هذا اللون الماثل من الترجمة تكمن فى أنه يكون ما يعرف فى علم الأدب المقارن « بصورة الأمة » ، ويقصد به تشكل فكرة معينة عن خصائص الأمة وذاتها الحضارية من خلال ما يترجم من نتاجها الثقافى والأدبى . وترصد هذه الدراسة — على وجه الخصوص — ذلك الخلل الفادح بين ما نترجمه نحن من مصاد الآخرين ، وما يترجمه الآخرون من حصادنا ، منتهية إلى فساد المقولة الزاعمة أن الترجمة تخدم بطريقة مباشرة من يترجمون ، داعية — فى الوقت ذاته — إلى تضافر الجهود من أجل تنشيط حركة الترجمة من العربية إلى اللغات الأجنبية الحية ، بغية تكوين صورة حضارية راقية عن شخصية أمتنا وهويتها الإنسانية .

تتواكب مع هذه القطوف المتنوعة المجتمعة ما ألفه جمهور « عالم الفكر » من أبواب ثابتة تصله بساحة الثقافة العالمية على اتساعها ، فمن « الشرق والغرب » يحدثنا الدكتور « سمير رضوان » عما دعاه بدكتاتورية العلم أو « فضيحة ليسنكو » ، وفى الشخصيات والآراء ، يطبق د . حلمى القاعود مقياس « الاستدعاء التاريخى » على رواية « رحلة ابن فطومة » لصاحب « نوبل » ، قطب الرواية العربية نجيب محفوظ ، هذا على حين يصطحبنا الدكتور محمد رجب النجار — فى باب المطالعات — إلى جولة متأنية فى « مصادر دراسة المأثورات الشعبية فى التراث العربى » متوقفا خلال هذه الجولة عند التراث اللغوى العام ممثلا فى كتب المعاجم والأمالى ، والتراث الشعرى ممثلا فى شعر الحداء والرجز ، وشعر الأوابد ، وأشعار اللصوص والشطار ، والتراث الموسوعى ، وكتب المعارف العامة ، ثم التراث القصصى وكتب الأمثال والألغاز ، والتراثات التاريخية والجغرافية والعلمية ، وسواها من الأنهار التراثية التى تشكل مذخور الأمة ، ومحصولها الثقافى ، والتى يعدها الباحث نواة لمشروع ضخم يهدف إلى جمع العناصر الفولكلورية فى التراث العربى .

وبعد ، عزيزى القارىء ، فما تطالعه فى هذا العدد لا يجلو صورة المثال الذى نريده ونطمح إليه ، نقول ذلك لا بدافع التواضع فحسب ، ولا إقراراً من جانبنا بالقصور أو التقصير ، مع أن كليهما ليس تهمة حتى ننكرها ، فالطاقة الانسانية كانت — وما تزال — دون حد الكمال ، وإنما نقوله — أولا — لأنك من القرب منا بحيث تشعر ، وتقدر ، وتعذر ، ونقوله — ثانيا — لأن الظروف التى مر بها الوطن كانت من الفداحة بحيث تنوء بحملها الشم الرواسى ، وكانت من الوضوح بحيث تساوى فى الاحساس بها القاصى والدانى ، ومن ثم فلسنا معك بحاجة إلى التماس الأعذار ، كل ما نود تقريره أننا لم نرد أن نتخلف عن موعدنا معك ، ونظرنا فيما بين أيدينا مما خلفته آلة الدمار الرهيبة ، وقليل هو الذى خلفته سليما ، فجمعنا لك أفضل ما فيه ، وقدمناه إليك فى هذا العدد قطوفا من ثمار الفكر مجتمعة ، وألوانا من حدائق الأدب فى باقة ... مع وعد بمحاولة الأفضل .

« أسـرة التحريـر »

العالم الشعري لأحمد العدواني
دراسة نصية

الدكتورة نورية الرومي
جامعة الكويت

١ ــ المدخــل :

يعتبر أحمد مشارى العدوانى من رواد الحركة الفكرية والأدبية فى الكويت ، هذه الحركة التى بدأت تتطور وتثبت ذاتها ، وتعبر عن وجودها فى نهاية فترة الأربعينيات .

وقد أعانه على تبوىء هذه المكانة ، عقل متفتح ، وفكر مستنير ، وانفتاح على الثقافة العربية ومواكبة لظواهرها الأدبية فى كل من مصر ولبنان والعراق .

ولعل انتقاله إلى مصر للدراسة فى جامعة الأزهر قد أتاح له فرصة تأمل هذه الظواهر الفكرية والالتقاء بأعلامها مثل العقاد ، وطه حسين ، وتوفيق الحكيم ، وغيرهم .

ولا شك أنه قد تأثر بكتابة هؤلاء جميعا ، وبكتابات غيرهم ، واستطاع أن يستوعب فكرهم ، ويضيفه إلى منهجه الإبداعى التأملى .

وحفظ العدوانى للقرآن الكريم فى طفولته ، واستكمال دراسته فى الأزهر الشريف ونشأته الدينية ، كل ذلك زرع فى داخل نفسه قيما أخلاقية ، وحبا للإنسانية ، ومكنه من الفقه والفهم لعلوم الدين واللغة والمعارف الحديثة .

وحبه للاطلاع جعله يقرأ فى « شعر الأقدمين من أمثال : ابن الرومى والشريف الرضى ، والمتنبى ، وأبى تمام ، وابن الفارض وابن العربى » ويتأثر بفكر هؤلاء ، وتبدو فى شعره وحياته ملامح الصوفية .

كما قرأ لشعراء النهضة الشعرية وزعماء مدرسة الاحياء من « البارودى الى شوقى ومطران ، وشعراء المهجر ، ومدرسة أبوللو حتى حركة الشعر الحر التى يعتبر أحد روادها »[1]

---

(١) على عبد الفتاح الرأى العام ــ العدد ٩٥٣٠ ــ التاريخ ١٩٩٠/٦/٢١
وصدقى حطاب : رجل لكل المواقف : الوطن : ع : ٥٥١٢ ، ١٩٩٠/٦/٢٠
والأنباء الكويتية : ع ٥٢٠١ ، ١٩٩٠/٦/١٩ . ومقدمة الديوان : أجنحة العاصفة : ٣ ــ ٧

هذه الثقافة العميقة ، والفكر الشامل هى التى هيأت للعدوانى أن يتبوأ مكان الريادة للنهضة الفكرية والثقافية داخل وطنه الكويت .

لقد ولد العدوانى عام ١٩٢٣ ، أى فى العام نفسه الذى ولدت فيه نازك الملائكة فى العراق ، وقبل ثلاث سنوات من مولد كل من بدر شاكر السياب وعبد الوهاب البياتى وبلند الحيدرى الذين ولدوا عام ١٩٢٦ ، وذلك يعنى أن العدوانى ولد فى الأعوام الدالة التى شهدت ولادة رواد الشعر الحر فى الوطن العربى كله ، وإذا كان قد تلقى تعليمه الأولى فى الكويت حتى عام ١٩٣٩ ، حين تركها إلى مصر ليكمل تعليمه فى الأزهر بالقاهرة ، فإنه قد ترك الكويت وارتحل إلى القاهرة ليفتح أفقه على روافد الحركة الرومانسية العربية وتياراتها التى كانت مزدهرة فى شعر جماعة الديوان (عبد الرحمن شكرى والمازنى والعقاد) وفى شعر جماعة أبوللو التى مثلها أحمد زكى أبو شادى وابراهيم ناجى وعلى محمود طه وأبو القاسم الشابى ، وأخيرا المدرسة المهجرية التى كان يمثلها شعر جبران ونسيب عريضة وايليا أبو ماضى وميخائيل نعيمة وغيرهم .

ومن المؤكد أن وجود العدوانى فى القاهرة فى الفترة من ١٩٣٩ الى ١٩٤٩ — وهى سنة تخرجه من الأزهر — كانت فترة تأثر واضح بتيارات الشعر القديمة والحديثة ، وفترة انجذاب الى التيارات الرومانسية الغالبة بوجه عام . يشهد على ذلك الشعر الذى كتبه العدوانى فى سنوات القاهرة وبدأ نشره عام ١٩٤٦ قبل أن يعود إلى الكويت بثلاث سنوات ، أى عام ١٩٤٩ .

ولا شك أن تكوينه الثقافى الذى يظهر شعره فى البدايات كان هو المسؤول عن توجهه الشعرى اللاحق وتشكيل عالمه الشعرى ، ذلك العالم الذى تجلى فى ديوانه « أجنحة العاصفة » .

وديوانه « أجنحة العاصفة » ، يشتمل على ثمان وستين قصيدة ، تتناول المدينة والاغتراب والموت ، والرمز ، وبعض الأغراض الشعرية الأخرى كالرثاء والسياسة والاجتماع والقومية والتصوف .

واذا تجاوزنا هذا التعداد الآلى لأغراض الديوان وموضوعاته إلى ما يمكن أن يكون بمثابة خصائص لشعر أحمد العدوانى ، فإننا يمكن أن نلاحظ أن شعره يقوم على مجموعة من الخصائص البارزة . أولى هذه الخصائص هى أن شعر العدوانى ينبسط على فترة زمنية تمتد من منتصف الأربعينيات إلى منتصف الثمانينيات ، أى أنه شعر يواكب رحلة أربعين سنة من الابداع من الناحية الذاتية لمبدعه ، وأربعين سنة من التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية من الناحية القومية للأمة التى عاش فيها العدوانى ، هذا الأمر جعل شعر العدوانى يتسم بدرجة عالية من التعبير عن انتقالية المراحل التى عايشها هذا الشعر وجسدها معا . فهناك التحولات الفنية من البناء التقليدى القريب من الصياغة الاحيائية التى نلمحها فى شعر البارودى وشوقى إلى الصياغة الرومانسية الوجدانية التى نلمحها فى شعر إيليا أبى ماضى وعلى محمود طه إلى الصياغة الحرة التى نجدها فى شعر نازك الملائكة والسياب والبياتى[1] .

---

(١) أ . د . احسان عباس : اتجاهات الشعر العربى المعاصر : عالم المعرفة : ع : ٢ : فبراير ١٩٧٨م : ١٩٩٠ وما بعدها .

بعبارة أخرى ، نستطيع أن تقول إن شعر العدوانى يحمل ملامح ثلاث مراحل شعرية متعاقبة ، وان شعره علامة على التحولات الداخلية التى تواشجت بها هذه المراحل ، ولذلك نستطيع أن نصف شعر العدوانى بأنه سبيكة متعددة الصياغات ، متنوعة الأبعاد ، من الناحية الفنية الخالصة .

والخاصية الثانية لشعر العدوانى تنبثق عن الخاصية الأولى وتؤكدها ، ذلك لأنه اذا كان التنوع نتيجة الإمتداد التاريخى لشعر العدوانى فان هذا التنوع لا يعدو خاصية فنية ، تجعل الشاعر يضرب صوب كل اتجاه ، ويجرب كل ما يستطيع أن يقوم بتجربته ، فهو شاعر سياسى يلتزم بقضايا وطنه وأمته ، وهو شاعر متصوف يضرب بشعره فى آفاق الروحانية الصوفية ، وهو شاعر رمزى يحاول استكشاف العالم من خلال الرموز ، ومن الناحية الفنية هو شاعر متعدد الملامح .

ولكن مع هذا التعدد والتنوع تبقى خاصية بارزة وثابتة فى مضمون شعر العدوانى فهو شاعر قومى من ناحية ، وشاعر متمرد من ناحية ثانية ، ولا شك أن قوميته مرتبطة بحقيقة أنه كتب شعره متأثرا بالمد القومى المتصاعد فى عصره ، وبأنه ظل وفيا لفكرة الوحدة العربية ، مؤمنا بها ، مدركا للدور الذى يمكن أن يقوم به العرب عند اتحادهم ولذلك كان تمرده الدائم على مجتمعه . هذا التمرد الذى كان مبعثه رغبته فى أن يظل هذا المجتمع محافظا على هويته القومية ، بكل ما تحمله هذه الهوية من أفكار الحرية والوحدة والعدالة ، إن هذا التمرد هو الذى جعل من شعر الشاعر « اجنحة العاصفة » التى تهب على المجتمع لتهزه من ثباته وتنقله من الغفلة إلى اليقظة ، ومن واقع الثبات إلى الحركة ، ومن عالم الظلم الى العدل .

ومن السهل أن نلحظ أن الاتجاهات التى يتضمنها شعر العدوانى تختلط معا على نحو واضح ، أنها تدور حول ضيقه بالحياة الحديثة الزائفة لمجتمعه الذى يتباعد عن تحقيق أحلامه ، وحول احساسه بالغربة فى هذا المجتمع ، وهو ضيق واحساس يحملان على الرغبة فى الرحيل من العالم الواقعى والبحث عن عالم مثالى ، وهو عالم يتمثل فى شيئين :

« الثورة على الحاضر وايثار الماضى عليه ، ثم البحث عن عالم مثالى آخر منقطع الصلة بواقع الحياة المعاصرة »[1] .

والصلة بين هذه الثورة والتصوف فى شعر العدوانى صلة قوية ، وذلك لأن التصوف ثورة روحية تكون مواكبة للثورة الاجتماعية فى حالات منها حالة أحمد مشارى العدوانى الشاعر .

ان التمرد والاغتراب هو الوجه الاجتماعى المادى من الصلة التى تصل شعر العدوانى بمجتمعه ، والتصوف هو الوجه الروحى الذى لا ينفصل عن الوجه الاجتماعى ، واذا كانا كلاهما يؤديان الى استخدام الرمز على نحو

---

(١) راجع نورية صالح الرومى : الحركة الشعرية فى الخليج العربى بين التقليد والتطور ص ٢٧٧ — ٢٧٨ .

بارز فى شعر العدوانى فان كليهما يقترن بالمعنى الذى تتخذه المدينة من حيث هى مفتاح للعالم الشعرى عند الشاعر الكبير ، ومن حيث هى المقدمة التى تترتب عليها صفات الاغتراب فى شعره .

٢ ـ المدينـــة :

رؤية الشاعر للمدينة موضوع قديم جديد ، نشأ أصلا من الوعى المتزايد بالمكان[1] يستوى فى ذلك شاعر المدينة وشاعر الصحراء ، وقد ظهر أثر ذلك وسرى فى نتاجهما على مر العصور .

وقد أثرت هذه الرؤية نتاج مجالات شعرية بعينها هى مجال الوصف ، ومجال الغزل والرمز وأبرزت قوة ومكانة الانتماء .

والشعر الذى يتصل بالمدينة كان يشير فى كثير من الحالات إلى نقيض المدينة وهى الصحراء ، فالمدينة فى تراثنا الشعرى هى صورة العالم المعقد الذى يخلو من البراءة ، والذى يتباعد عن الجو المثالى الذى تبرزه الصحراء ، وفى تراثنا القديم ، نجد هذا التقابل واضحا ، فان المدينة كانت تشير الى البادية ، والبادية كانت عند ابنائها هى العالم المثالى الجميل[2] ، من ذلك ما روى عن الشاعرة ميسون بنت بحدل الكلبية زوج معاوية بن أبى سفيان وأم ابنه يزيد ، من قولها :

للـبس عبـاءة وتقـر عينـى	أحب الى من لـبس الشفـوف
وبـيت تخفـق الأريـاح فيـه	أحب الى مـن قصر منيـف
وبكـر يتبـع الأظعـان صعب	أحب الى مـن بغـل زفـوف
وكـلب ينبـح الأضيـاف دونى	أحب الى مـن هـز الدفـوف[3]

إنها لم تجد فى المدينة ــ رغم سكناها قصر الخلافة فى دمشق ــ ما يعوضها ما تحس به من شوق وحنين نحو الصحراء ، انها مسقط رأسها ووطنها ، وقد سمعها معاوية فالحقها بأهلها .

وترتبط المدينة بمجال آخر هو مجال الرثاء الذى امتد وتطور ، فرثى الشعراء الانسان ورثوا المدن والممالك ، نقرأ ذلك فى الأدب الأندلسى حال تداعى الدولة الإسلامية فى تلك البلاد ، يقول (ابن عبدون) فى رثاء دولة (بنى الأفطس) :

(١) محمود الربيعى : الشاعر والمدينة : عالم الفكر : المجلد التاسع عشر ، العدد الثالث ــ أكتوبر ــ نوفمبر ــ ديسمبر وكذلك : وفيق خشبة : جدل الحداثة فى الشعر ، ط (١) : ١٦٢ ــ ١٦٣ .

(٢) خيرى منصور : أبواب ومرايا ، مقالات فى حداثة الشعر : ٥٨ ــ ٦٤ .

(٣) عمر رضا كحالة : أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ص ١٣٦ .

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور
فلا تغرنك من دنياك نومتها ... فما صناعة عينيها سوى السهر
ما لليالى ـــ أقال الله عثرتنا ... من الليالى ـــ وخانتها يد الغير
تسر بالشيء لكن كى تغر به ... كالأيم ثار الى الجانى من الزهر
كم دولة وليت بالنصر خدمتها ... لم تبق منها وسل ذكراك من خبر
بنى المظفر والأيام ما برحت ... مراحلا ، والورى منها على أثر
سحقا ليومكم يوما ، ولا حملت ... بمثله ليلة فى غابر العمر(١)

وظل التواصل مستمرا ، وبقيت رؤية الشعراء للمدينة والبادية على حالها تثرى وتعطى عبر العصور ، وحفل بها الشعر فى العصر الحديث واهتم بها . نورد من ذلك مشهدا من مسرحية « مجنون ليلى » الشعرية الذى تنعقد فيه مناظرة بين ليلى واحدى صويحباتها يظهر فيها ما بين المدينة والبادية من أوجه الاختلاف ، ومنزلة كل عند المتناظرين :

تتحدث ليلى عن البادية فتقول لابن ذريح :(٢)

« أكنت من الدور أم فى القصور ... ترى هذه القبة الصافية »
« كأن النجوم على صدرها ... قلائد ماس على غانية »

ثم تستأنف حديثها فتقول :

« لها قبلة الشمس عند البزوغ ... وللحضر القبلة الثانية »

وتتحدث هند عن هذه البادية نفسها فتقول :

« كفى يابنة الخال هذا الحرير ... كثير على الرمة البالية »
« تأمل ترى البيد يابن ذريح ... كمقبرة وحشة خاوية »
« سئمنا من البيد يابن ذريح ... ومن هذه العيشة الجافية »
« ومن موقد النار فى موضع ... ومن حالب الشاة فى ناحية »
« وراعية من وراء الخيام ... تجيب من الكلأ الثاغية »
« مغنيكم معبد والغريض ... وقينتنا الضبع العاوية
« وأنتم بيثرب أو بالعراق ... أو الشام فى الغرف العالية »
« وقد تأكلون فنون الطهاة ... ونأكل ما طهت الماشية »

(١) كتاب المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، طبعة ١٩١٣ ص ٤٢ .
(٢) أحمد شوق : مسرحية « مجنون ليلى » ٢٩ .

وللشاعرة سعاد عبد الله المبارك من شاعرات الخليج موقف يشبه موقف ميسون بنت بحدل ، وموقف ليلى العامرية السابقين : تقول الشاعرة سعاد : فى قصيدة « جنتى » .

جنتى كوخ ، وصحراء ، وورد	وحبيب ، هو لى رب وعبد
وصباح شاعرى حالم	أتغنى فيه بالحب وأشدو
وأرد القيد عن حريتى	كاذب من قال ان الحب قيد
وأرى الصحراء ملكى وأنا	وحبيبى بالأمانى نستبد
بالعينيه وبالى منهما	فيهما دفء ، واشراق وسعد
وأرى الرمل قصورا ، وأنا	بدارها فى خلال الملك أبدو
وأرى الصبار أحلى زينتى	فهو لى تاج ، وخلخال ، وعقد
وأرش الحنظل المر منى	فاذا الحنظل فى كفى شهد
وأرى القفر رياضا غضة	أنا فيها ظبية ، تلهو وتشدو[1]

ولقد ازداد وعى الشاعر المعاصر بالمدينة ، وظهر أثر ذلك فى شعر كثير منهم ودخل موضوع (شعر المدينة) حيز الدراسات النقدية فى العقود الأخيرة من هذا القرن ، ولكنه — من حيث هو موضوع شعرى يشغل بال الشعراء المبدعين — قديم قدم المدينة ذاتها[2] ، فعلى سبيل المثال أشعار « نزار قبانى — وقد وجدت لها طبيعة سياحية ، أحيانا ، خطابية أحيانا أخرى ، وأشعار أبو سنة ، وقد وجدت لها طبيعة « يوتوبية » ، ومنها أشعار أدونيس التى تجعل من المدينة رمزا فلسفيا »[3] .

ولا شك أن الشاعر العدوانى قد اطلع على شعر شعراء المدينة القدامى والمحدثين وتبلور مفهوم المدينة عنده ، وازداد وعيه بها ، ففاضت قريحته « وتغيرت رؤيته لموضوعه ، ولم يقنع من مدينته ببقائه متفرجا خارجها ، مبهورا بصفاتها المثالية ، أو ناقما غاضبا على صفاتها القبيحة »[4] .

لقد تناول شعره المدينة من داخلها ، من خلال المعايشة والمعاناة ، تناولها كرمز للقيد ، يكبح انطلاقة الفكرة الطموحة ، تناولها كبؤرة عفنة أحيانا من كثرة ما ينبعث منها من فساد ، تناولها كرمز على الاستلاب تضيق الخناق على كل ما فيها حتى ضاق بها ، وعبرت قصائده عن هذا الضيق وبينت أسبابه .

(١) سعاد عبد الله المبارك : ديوان (أمنية) .. ١٠٣ .
(٢) د. محمود الربيعى : الشاعر والمدينة : عالم الفكر : المجلد التاسع عشر : العدد الثالث (أكتوبر — نوفمبر — ديسمبر) ١٩٨٨ ص ١٣٠ .
(٣) المرجع السابق : بهامش ص ١٣١ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣٦ .

ولقصيدة « صفحة من مذكرات بدوى » أهمية خاصة فى هذا المجال ، فالقصيدة تسير فى التقاليد التى ابتدأتها مقطوعة ميسون بنت بحدل القديمة ، حيث التقابل القوى بين البادية والحاضرة ، بين الصحراء والمدينة .

هذا التقابل ليس تقابلا جغرافيا فقط ، تظهر معه أماكن الصحراء والبادية أفضل من أماكن الحاضرة والمدينة ، إنه تقابل زمنى أيضا بين عالم الماضى بقيمه وعالم الحاضر بقيمه المخالفة ، ان الصحراء والبادية هى التى تلخص عالم المثالية والصفاء والشهامة والأخوة والبساطة والشاعرية ، أما المدينة فهى التى تلخص عالم الموت والتعقد[1] .

ولذلك تنقسم قصيدة « صفحة من مذكرات بدوى » الى قسمين ، أولهما يرتبط بالماضى وبالبادية وبالصحراء ، حيث الرابية مخضرة والقمر يضحك وملاعب الربيع تموج بالأعشاب والزهر والصبايا ينطلقن مثل الفراشات والمجالس عامرة بأقاصيص الجدود الأولين من مَعدٍ أو مُضرٍ :

وكيف رام عنتر عبلة فانتصر
وكيف ساد حاتم وسيبه غمر
مناقب فيها لنا الحكمة والعبر

هذه المناقب تتلخص كلها فى بيت الشعر الذى يرمز الى البادية والى الماضى المجيد بحكمته وعبره ، ولذلك تبدأ القصيدة بهذا المقطع .[2]

كنت هنا .. وكان لى بيت من الشعر
نسجته ، صنع يدى .. بالصوف والوبر
قام على رابية .. مخضرة الطرر
تؤمه الضيفان ، بين مرتقى ومنحدر
والشمس تفتر له ، ويضحك القمر
كنت هنا .. وكان لى على الحمى مقر
ملاعب الربيع بالأعشاب والزهر
تمرح فى أرجائها الأغنام فى بطر
قد سرحت فاجتزأت أطايب الثمر

(١) د . أحسان عباس : اتجاهات الشعر العربى المعاصر : ٨٣ .
ومحيى منصور : أبواب ومرايا ، مقالات فى حداثة الشعر : ٩٢ — ٩٣ .
(٢) الديوان : صفحة من مذكرات بدوى : ١٦٢ — ١٦٥ .

وعبرت بنزق عن عيشها النضر
.. تباركت تلك الشياه ، مائمى خبر
زاد حياتى كلها .. من جودها انهمر

وتأتى المدينة لتقضى على هذا كله ، ويتحول الحاضر الى شىء كئيب ، لقد زحفت المدينة ، واعتدت فى زحفها على الانسان والحيوان والمكان ، وأحالت كل شىء جميل من الماضى وحولته من النقيض الى النقيض مما يبعث فى نفس الشاعر الأسى والحسرة فيقول :

ياليت شعرى .. ما أرى ؟ ما فعل القدر ؟
ملاعب الربيع قد حلت بها الغير
عفى على آثارها ، ناس من الحضر
شادوا عليها لهم القصور من حجر
كأنها مقابر .. معكوسة الصور
× × × ×
كنت هنا .. وكان لى بيت من الشعر
وذكريات نفحت من زهرة العمر
الحب فيها والمنى — والظل والشجر
واليوم مالى هاهنا .. بيت ولا أثر

ان المدينة هنا رمز التعقيد والزيف ، تعقيد الحضارة وزيفها ، وما يغلب عليها من تصنع وتكلف ، وشوقه الى الماضى البدوى ، .. « رمز على العالم المثالى الذى يسعى الى تحقيقه ضيقا بالواقع الذى يعيش فيه .... »[1] ورمزه هذا إدانة ليد الإنسان التى امتدت باسم المدينة تخرب وتشوه وتدمر مظاهر الجمال وتئد الطهر والعفاف والصدق والأصالة .

والتشابه بين هجوم العدوانى فى شعره على المدينة والهجوم الذى نلمحه فى شعر الشعراء المعاصرين تشابه مهم ، وفى الفصل القيم الذى عقده احسان عباس للموقف من المدينة ، فى كتابه « اتجاهات الشعر العربى المعاصر » ، مجموعة من النصوص الشعرية لعبد الوهاب البياتى وصلاح عبد الصبور وأدونيس يذكرنا بها موقف العدوانى من المدينة ، خصوصا نصوصهم الشعرية التى تنطلق من العداء الرومانسى للمدينة ومن تصور أن المدينة

---

(١) نورية صالح الرومى : الحركة الشعرية فى الخليج العربى بين التقليد والتطور ، طبعة ٢ — الكويت ١٩٨٩ ، ص ٣٧٩ .
(٢) د . احسان عباس : اتجاهات الشعر العربى المعاصر : ١١١ ومابعدها .

هى العالم المناقض للبراءة ، فهى « مدينة بلا قلب » كما وصفها أحمد حجازى ، وهى التى يفر منها الشاعر إلى قريته جيكور كما فعل السياب ، ومن المؤكد أنها نفس المدينة التى يفر منها العدوانى إلى البادية .

وللعدوانى قصيدة بعنوان « مدينة » يقول فيها[1]

مدينـــــة فى فـــــلك مهجــــــور
سماؤهــــــا نجومهـــــــا ، قصور
سكــــــانها رعــــــاع الـــــدود
تـــــــــــــدب فى ديجور
طعامهـــــا شرابها دم الـــــدود
ونضح جـــــث الـــــدود
قـد ألـفت حياتها معيشة القبـور
مدينة قد عششت فيها عناكب الخراب

تشبه قصيدة الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى « مدينة بلا قلب » التى يقول فيها[2]

وذات مساء .
وعمر وداعنا عامان .
طرقت نوادى الأصحاب ، لم أعثر على أصحاب .
وعدت تدعنى الأبواب ، والبواب والحاجب .
يدحرجنى امتداد طريق .
طريق مقفر شاحب .
لآخر مقفر شاحب .
تقوم على يديه قصور .
وكأنها الحائط العملاق يسحقنى ويخنقنى .

ان مدينة العدوانى المهجورة ، تفوح منها رائحة العفن وتدب فيها مظاهر الهجر والخراب ، وليل الظلام يلفها من كل جانب أما مدينة أحمد عبد المعطى حجازى فهى « رمز لعبور تجربة الشاعر من بيئة ساكنة الى بيئة متحركة ، ومن بيئة اعتيادية الى بيئة استقلالية ومن بيئة مؤنسة الى بيئة موحشة »[3] .

---

(١) الديوان : مدينة ٦٨ .
(٢) أحمد عبد المعطى حجازى : مدينة بلا قلب : ٤٣ .
(٣) محمود الربيعى : الشاعر والمدينة : عالم الفكر ، المجلد التاسع عشر ، العدد الثالث ـ أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٨ ، ص ١٣٨/١٣٧ .

ولكن مدينة العدوانى تتميز بعد ذلك بخصائص واضحة ، انها المدينة التى انبثقت فى قلب الصحراء ، والتى تحاول أن تنتمى الى عالم جديد ، هذه المدينة يحاول العدوانى أن يصور جوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، وهو يحاول أن يبرز الفساد السياسى لهذه المدينة من خلال الرموز الساخرة ، أو الهجاء السياسى الواضح ، خصوصا حين يشير الى الأفراخ المدجنة التى :

تلقط حب الذل والقهر بمسكنه
حتى ترى خلاصها ، اخلاصها
للذبـــح بالسكـــاكين

وهو يحاول أن يبرز غياب العدل الاجتماعى ، ويبرز كذلك فساد بعض رجال الدين فى هذه المدينة التى هى دولة للأوثان ، وذلك فى صور رمزية ساخرة من مثل :

ابلـــيس فى معتـــرك الزعامـــة
اشهـــــر اسلامـــــه
ولـــبس الجبـــة والعمامـــة
وراح يدعـــى الامامـــة[1]

هذه المدينة التى يرتحل عنها العدوانى ، ويهجرها إلى عالم اخر ، هذا العالم هو عالم التصوف ، حيث « تلك السماء » التى يتحدث عنها قائلا لسكان المدينة التى يهجرها :

لا . لا . إليكم عنى
تلك السماء ليس لى عنها غنى
وكيف أستغنى .. ؟
عن نبع أشواق
عن صلوات ملء أعماق
قدسية اللحن[2]

٣ ــ التصـــوف :

لم يعشق العدوانى فى حياته شيئا عشقه للوحدة والعزلة ، والاستغراق فى التأمل العميق للنفس وللواقع .

---

(١) العدوانى : أجنحة العاصفة : (٢٥) سمادير .

(٢) أحمد العدوانى : أجنحة العاصفة : ١١٦ ــ ١١٩ تلك السماء .

من حوله ، وقد أسلمه هذا العشق إلى الاتصال بمن سبقوه من الشعراء من أمثال الشريف الرضى وابن الفارض وابن عربى ومعايشتهم عن طريق الاطلاع والتأسى بسيرتهم ونتاجهم ، والتأثر بهم فى حياته وشعره .

وقد اشتمل ديوانه « أجنحة العاصفة » على العديد من القصائد التى تبدو عليها مسحة صوفية ، وهى صورة للناسك العابد الذى يخلو بنفسه ، ويقضى وقته فى مناجاة ربه ، والتقرب اليه بتلاوة القرآن ، بعيدا عن مشاغل الحياة وزيفها ، وما يشيع فيها من فساد .

يقول الشاعر فى قصيدته « الناسك وشكوى الشيطان »[1]

على جدار غرفة وضيعة
مغارة لناسك عاش مع الطبيعة
جليس الوحدة
أعزل ماله غير تلاوة القرآن عدة
قد أسكرته خمرة التجلى
وغاب فى سكرته يصلى
فلا يرى من حوله إلا السماء
تمطر بالضياء
وكل لقطة تنبت وردة
تغمره بفرح يثير وجده

إن التصوف فى مفهوم العدوانى : يتمثل فى « السمو الروحى ، والصعود إلى مستوى من الوجد والايمان ، والطهر والنقاء ، والسبيل إلى ذلك الخلوة والعزلة عن عالم المادة ومناجاة المعبود ، والتقرب إليه بكثرة الصلاة وتلاوة القرآن ، والتطلع الدائم إلى الخلاص .. فى قصيدته « الخـــلاص » .

إن الشاعر كثيراً ما سأل روحه[2]

سألت روحى : أى الدار تطـلبها ... قالت سوى الأرض ، فيها غاية الطلب
سعادة الروح غير الأرض مـوطنها ... وحلية الروح غير الدر والـذهب
فقلت : جسمى بظل الأرض مرتبط ... وماله مذهب عن كونه التـرب
قـالت إليك فحطمـه بـلا مهـل ... وادفع بأشلائه فى مارج اللـهب
وانفذ بذاتك من عيش شقيت به ... ولم تزل من عواديــه على رقب

---

(١) الديوان : الناسك وشكوى الشيطان : ٥٢ — ٦٠ .

(٢) أحمد العدوانى : أجنحة العاصفة : الخلاص ، ٢٢٨ — ٢٢٩ .

ومن أناس قد اسودت ضمائرهم وفى خلائقهم ما شئت من ثلب
لا يصدقون وفى مقدورهم كذب إلا إذا ماتزيا الموت بالكذب
ولا يكفون عن جهل ومنقصة إلا إذا لم يكن للجهل من سبب
سلنى بهم أننى جربت معظمهم فلم أصب فيهم شيئا سوى الحرب
فقلت : أتخشى الردى ، قالت : مؤكدة انى أنا الروح لا خوف من السحب

إن روحه ترى أن خلاصه هو رحيله من الأرض ، ولكنه يرى أنه ابن الأرض ، وهذا هو ما أشار إليه الأستاذ خالد سعود الزيد ود . سليمان الشطى بقولهما : « ما كان منفصلا وإن كان عازفاً ، خلق مطبوعا على محاربة السطوح الملساء الظاهرة مغرما بالأعماق » . هكذا هو العدوانى يتوارى حتى تخاله بعيداً بينا هو الأقرب إلى قلب المعاناة[1] .

إن التصوف من خلال هذه الرؤية يشكل هروبا ، ولكنه هروب إلى أعلى . وهو فى الوقت نفسه احتجاج على مدينة القبور التى تحرم على أبنائها الحياة العادلة المتطورة . ولقصيدة « رؤيا حلم » أهمية خاصة فى هذا البعد ، ففى هذه القصيدة يختلط البعد الصوفى بالاحتجاج السياسى ، وذلك خلال هذه الحورية التى تسبح فى غمامة من نور والتى تتنزل على الشاعر وتهبط اليه من محلها الأرفع ، فى يقظات الروح وفى ذلك السرى ، وتنطقه فى ساعة التجلى ، عندما تسأله عن سر صمته فى مدينة القبور ، فيقول لها :

صمتـــــى قضيـــــة
كنوزهـــا الخفيـــة
مـا عـرفت خزانـة قـبلى
ولـو كشفت عـن أشيائها السريـة
قتلنـــى أهـــلك أو أهلى
أيتها الحوريـــــة
مـــاذا أقـــول لك
مدائـــن الهوى النوريـــة
قد أسر الشيطان فى سمائها الملك

هذه القصيدة تؤكد أن صوفية العدوانى لا تدخل فى باب الصوفية الهروبية وإنما هى صوفية اجتماعية ، أو صوفية احتجاج على المدينة التى يرفضها الشاعر ، وهذا النوع من الصوفية يقوم على التوازن بين الروحى والعقلى أو بين الاجتماعى والذاتى .

---

(١) مقدمة ديوان « أجنحة العاصفة » : ط ١ ـ الكويت ١٩٨٠ ، ص ٥ .

وقد ظل الشاعر يحاول ذلك حتى يوجد توازنا بين مطالب الروح ومطالب الجسد كما واصل سعيه فى التبشير بالمجتمع الفاضل ، والدعوة إلى البساطة ، والتحذير من طغيان المادة ، ولكن إخلاصه وحده لن يحقق له ما يريد ، لأنه وحيد فى زمن لا يرضى بالقناعة — ومن هنا كان الاغتراب .

٤ — الاغتـــراب :

« الغرب والغربة والاغتراب ، كلها فى اللغة بمعنى واحد هو : الذهاب والتنحى عن الناس ، وكذلك فى المعنى الاصطلاحى »[1] وقد ارتضيت هذا المفهوم ، لأنه قريب من طبيعة الموضوع ومن مفهوم الشاعر عن الاغتراب ، ولأنه بالرغم مما كتب عن الاغتراب ، فإنى أرى من الصعب تحديد مفهومه فى هذه العجالة الصغيرة ، إذ من الصعب تعريف المفاهيم الأساسية تعريفاً دقيقاً . وكل المحاولات التى بذلت حتى الآن تدور حول أمور تشير إلى الاغتراب مثل : الانسلاخ عن المجتمع والعزلة والانعزال ، والعجز عن التلاؤم ، والإخفاق فى التكيف مع الأوضاع السائدة فى المجتمع ، وعدم المبالاة ، وفقدان الشعور بالحياة وبالانتماء . وقد تناولت موضوع الاغتراب سبع قصائد فى ديوان الشاعر هى على التوالى قصيدة : « إلى رفيقة العمر » ، « حكاية » ، « وقفة على طلل » ، « بقايا رؤى » ، « سأم » .

ففى قصيدته « إلى رفيقة العمر » يتحدث عن الوحدة ، وغربة الزمان وغربة الذات فيقول :[2]

عطـــــرك يـــــــاوردتى
أسكـــــــر أنفـــــــاسى
ففـــــــرقت وحـــــــدتى
فى نشوة الكـــــــــاس
× × × ×
أنــــا غـــــريب زمـــــانى   وأنت غريبــــــــــــة ذاتى
تشكـــــو جراحـــــات صدرى   والصمت يطـــــوى سكـــــاتى

وهو فى غربته لا يعرف الأنس إلا مع الغرباء ممن أفرزتهم المعاناة ، وأنضجتهم التجربة ، وأصبحت حياتهم سياحة فى الأرض يبحثون عن الفكرة المضيئة ، والحب والعطاء ، يبحثون عن الطامحين الذين يرفضون الرتابة والتوقف . يقول فى ذلك :[3]

---

(١) فتح الله خليف : « ندوة حول مشكلة الاغتراب » عالم الفكر : المجلد العاشر ، العدد الأول (ابريل — مايو — يونيه) ١٩٧٩ ص ١١٤ .
(٢) الى رفيقة ، مناجاة : ٨ — ١١ .
(٣) الديوان : جواب : ٢٣ .

تسائلنى الغريبة عن ديارى
وما علمت ديارى أرض غربة
فقلت لها ديارى حيث ألقى
غريب هوى يبادلنى المحبة
دیاری فكرة كالنور تسرى
وما احتسبت على علم وتربة
تركت سواكن الأوطان خلفى
لمن ألف الحياة المستتبة
وسابقت الرياح بكل أفق
فلى والريح ميثاق وصحبة

وعن سبب الغربة تشير قصيدة « حكاية » التى تحكى قصته فيقول :

كانت بقايا قصة
كتبتها بدمى المسفوك
فوق الطين
أنا غريب العالمين
زرعت فى الدنيا شكوكى
وعشت فى يقين

إن قصته لم تثمر إلا شكوكا ، وعذابات ، وجراح قلب .. إنه لم يعف نفسه من المسئولية فيلقيها على غيره أو على المقادير كما يحلو لكثير أن يفعلوا .

وقد أسلمته شكوكه إلى الأحزان ، وجعلته يقف على الأطلال يناجيها ، ويبثها الشكوى ، ويطلب عندها السلوان ، إن امتزاج الشاعر بالطبيعة وتشخيصها أثر من آثار المدرسة الرومانسية التى تتخذ من النبات والجماد شخوصا يفر إليها الشاعر ، ويسقط عليها ذاته كلما أحس بعزلة أو ضيق : إنه لا يصفها وصفا خارجيا أو يتحدث عنها كمعلم يشير إلى ذكرى من الذكريات[1] . يقول الشاعر فى قصيدة « وقفة على طلل »[2]

أتيت إليك ذاكى المِهَمْ
أطلب عندك السلوان

(١) د. محمد مندور : الأدب ومذاهبه : ٧٤ — ٧٥ .

(٢) الديوان : وقفة على طلل : ٧٩ — ٨٥ .

لقـــــد ضقت بأحـــــــزانى
كما ضاقت بى الأحـــــــزان

وللشاعر خليل مطران قصيدة تشبه هذه القصيدة بعنوان « المساء » يقول فيها[1] :

شاك إلى البحر اضطراب خواطرى   فيجيبنـــى برياحـــه الهوجـــاء
ثاو على صخر أصم وليت لى   قلبا كهـذى الصخـرة الصمـاء

إن الشاعر بتوحده مع عناصر الوجود يجد الملجأ والملاذ عندما تضيق به سبل الحياة ، ويضل وتضيع من قدمه الطريق ، إن حملة المشاعل أعداء بالطبع لخفافيش الظلام لأن ما بأيديهم نور والنور يكشف ..

.. زرعت النور فى حقل الظلام فثارت الظلمة
وقالت ، قد أردت فضيحتى ..
وهتكت أستارى ــ
ولم تشفق بأسرارى ..
فصدق كل من خاف التعرى ــ هذه التهمة

لقد حاول ، وتصدت له الظلمة ، وتيارات التخلف ، وعيون الماضى البغيض فلم يجد أمامه إلا الشكوى :

لمن أشكـــى ؟ لمن أبكـــى ؟
لقـــــد ضاقت بى الحيــــــل
أنــــــا المكسور والمنصور
والمأسور والآمــــــــــــــر
أنــــا المهجــــور والهاجــــر
فــــلست بــــلائم أحــــدا
على عمرى الذى ضيعتـه أوضاع
أنــا المسئـــول عـــن نـــفسى
ومــا لا قــيت مــن أوجـــاع

إن ما لا قاه من هجر يشبه تماما ما لا قاه هذا الطلل ، فجوف كل منهما خواء ... ومواقعهما فى عزلة ... والقصد إليهما غير وارد :

ألا يـــا أيها الطلـــل المهجـــور
أنـــا مثـــلك بـــل أنت

(١) خليل مطران : الديوان : المساء : ١١٩ ــ ١٢٤ .

.. كما شاهدت لى مثل
أنا طلل من الأشواق فى الآفاق ينتقل
أتيتك ابتغى عندك لى مأوى —
لكى أجمع أنفاسى
وأستأنف ترحالى فى الدنيا

وكان الرحيل ، ولكن فى هذه المرة إلى أنين ؟ والى من ؟ أنه يرحل إلى(١)

أولئك الذين رشدوا قبلى
وآثروا التطواف بالآفاق
على حياة الظل
فى موضع أيسر ما يقال عنه :
انه مهمل .

وإذا شئنا أن نصف أنواع الغربة فى شعر العدوانى فهنالك الغربة الاجتماعية والسياسية ، والغربة الروحية ، والغربة الفكرية . أما الغربة الاجتماعية السياسية فهى أبرز أشكال الغربة فى شعر العدوانى ، وهى مرتبطة بالواقع السياسى الاجتماعى الذى كان يتمرد عليه ، وكان يشير إليه فى أبيات من مثل :(٢)

تموت بالمجان على أحذية السلاطين
ويرفل الخصيان بحلة النياشين

وهى أبيات تكشف عن غربة المفكر الملتزم فى الواقع العربى الذى يموج بالنفاق ، وهو واقع يفقد الفكر هويته وقيمته ، ويفقد المفكرين تأثيرهم ، على نحو ما يشير هذا المقطع :

وجوهنا ليس لها ظل
على موائد القصور
أسماؤنا ليس لها محل
إلا على شواهد القبور

(١) الديوان .
(٢) الديوان : تأملات ذاتية : ١٢ — ١٤ .

تهملنـــا روزنامــــة الزمـــن
ونحن فــــرسان الوطـــن[1]

هذه الغربة الاجتماعية السياسية التى تجعل من المبدعين وجوها بلا ظل ، وفرسانا تموت بالمجان ، وأسماء لا محل لها إلا على شواهد القبور ، هذه الغربة الاجتماعية السياسية طاغية فى شعر العدوانى ، وهى تتكرر فى قصائده لتصنع دافعا قويا لتحول هذا الشعر إلى « أجنحة العاصفة التى تحاول أن تعصف بأسباب الغربة » .

وهناك الغربة الروحية والفكرية فى سفر العدوانى ، وهى غربة ليست سياسية أو اجتماعية بالمعنى المباشر ، لأنها غربة المفكر الذى يشعر بعجزه عن أن يعرف كل شىء ، وغربة الانسان القلق الباحث عن المعنى والذى يشعر بقصوره فى الاجابة على كل أسئلة . إنها الغربة التى عبر عنها تعبيرا غير مباشر إيليا أبو ماضى فى قصيدته المشهورة « الطلاسم » عندما وصف نفسه قائلا[2] :

جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت كيف أبصرت طريقى
لســـــــت أدرى .

هذه « اللا أدرية الفكرية هى ما نراه فى شعر العدوانى . وهى تكون رافدا صغيرا يوجد فى قصائده خصوصا حين يقول[3] :

أنـــا ؟ ومـــن أنـــا ؟
سجين الأجـــــل المحدد
ظهـــرت فى دفاتـــر الأمـــوات
قبـــــل مولـــــدى

إنه يتحدث عن الكائن الانسانى الذى يريد أن يعرف أسرار الوجود ولكنه يعجز فيظل يضرب فى مجاهل الزمان والمكان ، كما يصف نفسه فى قصيدة « الناسك وشكوى الشيطان » .

ولكن هذا الكائن الذى يعجز عن معرفة كل أسرار الوجود يظل عالما بالقياس الى سكان مدينة القبور ، إنه ليس مثلهم ، فهو — كما يصف نفسه :[4]

---

(١) الديوان : سمادير : ٢٤ — ٢٨ .
(٢) إيليا أبو ماضى : الجداول : الطلاسم : ٢٤ — ٤٨ .
(٣) الديوان : إشارات : ٢٩ — ٣٣ .
(٤) الديوان : دعوة : ٤٣ — ٤٤ .

رفض السجـــن فى التـــراب وصبـــا للسنـــا هـــــواه
وجـــرت خلفـــه السحـــاب تتسامـــــى إلى مــــــداه

٥ ــ التمـــرد :

إن صورة هذا الشاعر الذى يرفض الحياة فى التراب ويتطلع إلى السماء والذى يأتى « بأجنحة العاصفة » التى تهب على مدينته هى صورة الشاعر المتمرد . وهى صورة تجسدها بشكل متميز قصيدة « هم » حيث تجسد القصيدة العلاقة بين الشاعر والآخرين ــ « هم » ، أولئك الذين لا يشاركونه أحلامه ، والذين يرضون بحياة التراب ، والذين يعكفون على صنم ويقولون هاهنا سر الحياة ، ولو استفاقوا من ضلالهم رأوا جنح الظلام مهيمنا على عالمهم . إن هؤلاء الغارقين فى الظلام هم الذين يتمرد عليهم العدوانى الشاعر ، وهم الذين يقول مشيرًا إليهم فى هذه القصيدة :(١)

وغدا إذا كشف الغطاء ، وأقبلت زهـر الكـواكب باهـرات بالسنـــا
سيرى ويعلم كل من عشق الهدى مـن فـاز بالأقمـار ، أنتم أم أنـــا

ولكن العلاقة بين الشاعر وبين هؤلاء الآخرين ليست علامة العداء التام ، إنهم أهله وعشيرته فى النهاية ، وهو لا يمكن أن يتخلى عنهم فلا وجود له دونهم ، لقد وجد الشاعر أنه فى موقف لا يحسد عليه ، إن طريق الآخرين غير طريقه ، وقضيتهم ليست كقضيته ، فكان عليه أن يحدد موقفه منهم ، وقد فعل ، ووجه إليهم هذا النداء :(٢)

أحبـــائى لئـــن خالفتمـــونى
ورمتم وجـــــه درب غير دربى
لقـــد آثرتكـــم بهواى صرفـــا
ولم أشفـــق على أسرار قلبـــى
رمـــزت لكـــم بحبى فاعـــذرونى
إذا لم تشعـــروا برمـــوز حبـــى
وعـــيت قضيـــة وجهلتموهـــا
فحسبـــى لعنـــة التـــاريخ حسبـــى

(الديوان ص ٢٢)

(١) الديوان ص ٤٥ .
(٢) الديوان : دعوة : ٢٢ .

لقد بدأ تمرده باتخاذ موقف من أهله وأحبائه يخالف موقفهم ، لأنه وعى قضيته وهم لم يعوها ، أى أنه موقف مسبب ، بعد ذلك أخذ يتمرد على الوضع المهين وما يسببه للانسان من معاناة وبخاصة الانسان الحر ، وقد أخذ تمرده وضعا مخالفا عند التعبير ، إنه لم يكتف باتخاذ الموقف كما فعل من قبل ، بل أعلن رفضه واحتجاجه على هذا الوضع وطالب بكسر القيود الضيقة التى يكبل بها المجتمع أبناءه .

وقد ضمن قصيدة « سمادير » كثيرا من الصور التى تبرز هذه المعاناة الانسانية ، ويوجه رجاءه إلى الزمان قائلا :[1]

تنبـــه يازمـــان فلـــيس أقسى
على الأحـرار مـن نـوم الزمـان
تخطـى الـنصر خـواض المنايـا
وصال السيـف فى كـف الجبـان
وقـام على تـراث الفخـر نغـل
ونـام على فـراش الطهـر زان
وأصبـحت المنابـر والكـراسى
مطابـــا للأسافـــل والأدانى
تنبـــه يازمـــان فلـــيس أقسى
على الأحـرار مـن نـوم الزمـان

فى ظروف كهذه لابد للحر أن يتمرد ويثور حتى يسود العدل ، ويستقيم الميزان ، إنه زمن تحكمه المظاهر ، ويغيب فيه الوعى ، ويعلو صوت الباطل .

وفى هذا الزمن ــ أيضا ــ انتهكت الحرمات ، وامتهنت كرامة الانسان ، وضيعت حقوقه وأصبحت :

وجوهنـــا لـــيس لها ظـــل
على موائـــــد الـــــقصور

ولكن تمرده لم يجده ولم يجد غيره ، فقد بح صوته من كثرة ما نادى ، وجف مداد قلمه من كثرة ما كتب ، والناس من حوله هم الناس ، عبيد فى ثبات أحرار ، تخيفهم الحرية ، ويثقل كاهلهم تحمل المسئولية ، ويفضلون حياة العبودية لأنها حياة لا تكلفهم القيام بواجب ، يقول قائلهم :

(١) الديوان : سمادير : ٢٤ ــ ٢٨ .

أنـا أكـره أن أعـيش حـرا
وأحب حيــاة العبوديــة
الحريـــة ترعبنـــى
تقذفنـــى فى فـــراغ

× × ×

قولـــوا لدعـــاة الحريـــة
فليبتعـــدوا عنـــى
أنـــا مخلـــوق للـــرق
أنـــا مخلـــوق للـــرق

× × ×

مهمـا لاقـيت مـن السيـد
سأظـــل لـــه عبـــدا
يهتك عـــرضى
يسلـــخ جلـــدى
يطعننـــى بالخنجـــر
يصنـــع منـــى سيفـــا
أو كرباجـــا
يضرب عبـــدا يتحـــرر

وهنا يقرر الشاعر الرحيل ، رحيل النفس قبل رحيل الجسد ، ويغترب بروحه وفكره ، ويتصوف محتجا على الوضع الذى لا يستطيع تحمله . ولكن المرارة التى يعانيها تدفع به إلى أبواب الشعور بالموت .

٦ ـ المـــوت :

« الموت حالة من التواصل السرى ، تصل فيه الذات إلى عالمها وحريتها الحقيقية ، هذا العالم الذى نعيشه ونحسه داخلنا لكن بشكل التذكر ، والحنين ، والألم ، والنزف ، لأننا لا يمكن أن نهرب من داخلنا ، من وجودنا الحقيقى الظاهر ، لا يمكن أن نحقق هذا الاختيار بمحض إرادتنا إلا حين يقدر علينا ذلك ، لذا يظل وجودنا هو القشرة الهشة لهذا المجهول الهائل »[1]

ان ظاهرة الموت شغلت مساحة كبيرة فى رقعة ديوان الشاعر العدوانى إلى درجة تثير التساؤل .
فهل كان العدوانى يطلب الموت حقا ؟

---

(١) جمال القصاص : كائنات مملكة الليل : البيان : العدد ٢١٦ ـــ مارس ١٩٨٤ ص ١٢٥ .

وهل الموت فى قصائده يريد به موت الانسان ــ أو موت المكان ؟ هل هو ــ أى الموت ــ رمز للمعوقات والتخلف والجمود التى وقفت فى وجه الشاعر وجعلته يتمنى الموت حقا ؟

فلنقرأ هذه الأبيات قبل أن نسارع إلى الإجابة :

دعينـــــى أكتم الحزنـــــا
وأطـــوى الليـــل والوطنـــا
سئـــمت العـــيش والدنيـــا
وعـــفت الأهـــل والوطنـــا
وراق لى الـــــردى كـــأسا
وجـــوف الـــقبر لى سكنـــا
دعينـــــى تحت أوقـــــارى
جـــريحا يحمـــل الكفنـــا

إن الشاعر هنا يروق له الموت ويفضله على الحياة ، تروق له سكنى القبور ويفضلها على سكنى القصور ، يروق له الهرب من دنيا الناس ، لأنه سئم ومل من كثرة المواجهة ومقاومة تيارات النفاق والفسق والكذب والخيانة ، سئم من عبادة المادة ، والتعلق بأهداب المدنية الزائفة . سئم المواجهات السياسية التى عمقت من مأساته ، وفجرت الآلام مراراً داخله .

ولكن قد تستدعيه الحال التى تجعله يطارد الموت الذى يطلبه ، ويحاول أن ينازله ويحرز نصرا عليه بأن يزيله ويمحوه من النفوس والعقول والقلوب والمنازل ، وفى هذه الحالة نقرر أن مفهوم الموت عنده هو رمز للتخلف والجمود . إن الشاعر حين يلجأ إلى الرمز هنا ، إلى اللامباشرة ، لا بد له من هدف . إن هدفه أن يشرك معه القارىء أو السامع ، لأن القضية هنا ليست قضية فرد ، إنها قضية أمة ترزح تحت معاول التخلف والجمود والقيود التى كبلت بها نفسها ، وكبلتها بها السيطرة الأجنبية .

هذه الأبعاد يجسدها المقطع الأول من قصيدة « تأملات ذاتية » حيث يقول العدوانى :[1]

أيامنـــــــــــــا تموت
كالحشرات فى خيـــوط العنكبـــوت
أيامنـــــــــــــا تموت
تنحـــــل فى بالوعـــة الزمـــــن
أيامنـــــــــــــا تموت

(١) الديوان : تأملات ذاتية : ١٢ .

كالحشرات في خيوط العنكبوت
أيامنا للدود قوت

هذا الموت الذي ينتشر في كل شيء ، والذي هو رمز واضح لكل ما يثور عليه الشاعر . هو الذي يعطي لشعر العدواني مذاقا خاصا ، وهو أيضا بعد آخر من أبعاد تمرده على مدينته ، إنه يريد الثورة على هذه المدينة التي لا تعيش ، والتي ترقد ميتة في فلك مهجور ، والتي قصور سكانها رعاع الدود ، والتي :

طعامها شرابها دم الدود
ونضح جثث الدود
قد ألفت حياتها معيشة القبور
مدينة قد عشش فيها عناكب الخراب
وحكم الموت بها الأرباب

هذه المدينة التي يثور عليها الشاعر هي التي تجعل منه « حفار القبور » الذي لا يؤمن بالمدينة فقط بل يحفر قبرها ، لعله بذلك يقضي على جمودها وسباتها .

ولكن العدواني يعرف أنه لا يمكن القضاء على جمود مدينته إلا بالثورة الجماعية وبالمواجهة الجماعية لكل من هو مثله : ويؤكد أهمية المواجهة للموت أن العدو في هذه المدينة غير واحد ، إنه الفقر والجهل والمرض والتخلف والجمود ، وقد رمز الشاعر لكل ذلك بالموت الذي أحاط المدينة بأسوار العزلة ، فقد سدت جميع النوافذ والأبوابّ ، ومات في هذه المدينة المكان والزمان ومن قبل مات الانسان ، وظل الشاعر يعزف هذا النغم الحزين علّه يجد من يواسيه ويؤازره ويقف إلى جانبه في مواجهته مع التخلف والجمود والضياع محذراً منذراً ، وقد جعله الاحساس بعمق المأساة يكرر العزف مرة بعد مرة على هذا الوتر الحزين : « أيامنا تموت .... أيامنا تموت » حتى يثير دوافع السخط والاستنكار ، ويطلق طاقات الرفض الكامنة .... حتى لا تبقى المدينة مهجورة ، خربة ، تأكلها العناكب ، ويحكمها الموت .

إن الوعي واليقظة وعشق الحرية من أفضل الأسلحة التي تكسر أسوار العزلة وتجعل المدينة تنطلق نحو النور . وهاهو الشاعر يضرب المثل ، فيقف أمام مدينة الأموات ويعلن الحرب على الموتى : انها حرب من أجل البقاء لا الفناء ، إن التصادم بين الأضداد يستولد اللحظة المضيئة .

إن دافع الصراع هنا هو الخوف ، الخوف الذي يبدده الأمن . الأمن الذي سوف يأتي به أهل المدينة عندما يستيقظون[1]

---

(١) الديوان : مدينة : ٦٨ .

أنـــــا هنــــا أمــــام أمريـــــن
لـــيس لنـــا فكـــاك منهمـــا :
أن نقلـــع الحيـــاة مـــن كياننـــا
ونختفـــــى فى غيهب القيــــود
أو أن نثـــــــــــــــور
ونعلـــــن الحرب على الأمــــوات
وتــــنتهى الثـــورة بانهزامنـــــا
فـــإنما الـــكثرة تغـــلب الشجاعـــة
وفى كـــــــــــــــلا الحالين
يختطـــــف الأمــــوات زائريـــــن
مـــــن بنـــــى الحيـــــاة

إن الشاعر هناك يخشى الموت ، إنه يخشى النتيجة ، نتيجة صراعه مع الموت إنه يخشى أن يموت دون أن يحقق شيئا من الأشياء التى ثار من أجلها .

إن منطق الموت عند العدوانى قائم على منطق الشهيد الذى يعطى روحه ليهزم الموت فى نفوس الآخرين ، منطق الذى يزرع السنبلة ويرويها بروحه وجسده ويتلاشى فى الجذور لتتفرع السنابل وتطل على الجميع . وهذا ما جعله يقبل على الموت شجاعا مختارا .

لا تهابى ان طوانى البحر يوما فى العباب
وبكى أهلى وعم الحزن والرزء صحابى
وغدت ذكراى تترى بين مدح وسباب
واسترابت نفسكِ الولهى بمعيار الصواب
× × × ×
لن يذيب البحر منى غير ألفاف التراب
لن يصيب الموت منى غير شكى وارتيابى
سوف ارتد من اللج وإن طال غيابى
شعلة تقتحم الآفاق فى ضوء عجاب
وبها تعتصم الأكوان من يأس الخراب

إنه لا يهاب الموت ، فهو يموت ليحيا ، ويذهب ليعود شعلة تضىء درب السائرين فى طريق الكفاح والنضال من أجل أن ترتفع راية الحرية .. راية الحق والعدل .. والعلم والنور .

وسوف يحمل هذه الشعلة أبناؤه من بعده ، وهم كل من وعى رسالته ، وأقسم على العمل على استمرارها واستثمارها . إن فى الموت حياة للشاعر حين تتحول قصائده إلى فعل , وهذا معناه أن الموت فى مفهوم الشاعر ليس هروباً وفراراً من المعركة إنما هو استمرار وخلود ، فالحياة أطول من عمر الانسان ولكنها أقصر بكثير إذا قيست بالفكر الحى الخالد لأن الفكرة سوف تلد فكرة .

إن موت الشاعر هنا سوف يثمر حياة ، ويطرح أفكاراً تغير الواقع ، وتنتشل النفوس من مهاوى الردى . إنه يقبل التضحية من أجلنا بشرط أن نعى درس التضحية .

ياأخى : إن مت لا تسكب على قبرى دمعة
بل خذ الشمعة من كفى وكن فى الليل شمعة
إننى منك قريب كلما ضوأت بقعة
وتركت الليل يهوى قطعة فى أثر قطعة

ويطلب من أخيه الانسان فى أبيات أخرى أن يموت استشهاداً وأن يكون لموته قيمة ، يطلب منه أن يضحى حين تحسن التضحية ، فيناديه بعبارات بسيطة مباشرة ولكنها صادقة قوية التأثير ، لأنه فى مثل هذه الحال لا مجال للخطابة ، أو تدبيج العبارات .

ياأخى سر ولتكن كبش فداء أو ضحية
طالما روت ضحايا المجد أرض العبقرية
فأتت بالنبت ثأرا تتحاماه المنية
جارف التيار كالسيل وكالبركان وقعه

هذا هو الموت الذى جسده الشاعر فى قصائده ، وأراد به الموت الذى يفجر الحياة ينبوعا يرتوى منه الآخرون . إنه موت الفارس فى صمت من أجل معركة الحياة .

وإذا كان الموت فى هذا كله له وجود فى العالم الشعرى للعلبوانى فإن هذا الوجود له وظيفة مهمة تقودنا إلى الرمز وأهميته فى هذا العالم من حيث بناء القصيدة وتركيبها الفنى .

٧ ـ الرمز والبناء الفنى :

يمكن أن نقول مع القائل إن « المدينة الشعرية ليست هى بعينها المدينة الواقعية بطبيعة الحال ، فكل شاعر يصنع مدينته ، ومدينته تعيش داخله ... ووصف المدينة فى الشعر إنما هو محاولة من جانب الشاعر لبناء مدينته من جديد ، وبذلك تكون الصفات التى يخلعها عليها صفات خاصة ـ وأن تشابهت لدى أكثر من شاعر فى ظاهر الأمر »[١] :

هذه الصفات الخاصة هى التى تصل بين الشعراء فى الأبعاد الرمزية لمعنى المدينة فى الشعر المعاصر . وهى الأبعاد التى تصل بين قصيدة العدوانى « مدينة »[٢] ـ على سبيل المثال ـ وقصيدة على السبتى « مدينة ناسها بشر »[٣] وكذلك قصيدة الشاعر صالح الشرنوبى « على ضفاف الجحيم » التى نورد منها هذه الأبيات :

إنى هنـــــا أيتها المدينــــــــة   الحرة الفاجـــــرة المجنونـــــــة
أحبس فى نفسى الرؤى السجينة   والأدمـــع الســـوالهة السخينـــــة
إنى هنـــا أغربـــل السكينـــــة   وأزرع الخواطـــــر الحزينــــــــة
مــلء ضفـاف الوحـدة المسكينـــة   وفى يــــدى فجــــر ستعبدينــــه

يوم تزول الوحدة الملعونة

× × × ×   × × × ×

وساكـــنيها عابـــدى الفجـــور   النائــــمين فى حمى الحريـــــر
الغافـــلين عـــن أسى الفـــقير   ولوعـــــة المشرد المدحـــــور
الوالـــغين فى الـــدم المهجـــور   ممـــن عصب الكـــادح والأجير[٤]

فرغم ما بين القصائد الثلاث من تشابه واحد فى المفهوم والموضوع إلا أنه عند التحليل النصى المستقصى للنص الشعرى سنجد لكل نص شعرى من هذه النصوص خصائصه الفنية التى تجمعه بغيره . من هذه الخصائص : النبرة الساخطة الغاضبة للخطاب فى القصائد وما يترتب على هذه النبرة من صفات مميزة فى : البناء ، والصورة الشعرية ، والمعجم ، والأوزان .

أما البناء فإنه يقوم ـ غالبا فى قصيدة العدوانى ـ على سلب المدينة كل صفة حسنة تدل على أن بالمدينة تقدما ، أو مظهراً واحداً يشير إلى أن بالمدينة حياة ، وذلك من خلال حال سكانها الذين اجتمع فيهم الضد والضد ، فهم أحياء وأموات .

---

(٢) عصود الربيعى : الشاعر والمدينة : عالم الفكر : المجلد التاسع عشر : العدد الثالث : أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٨ ، ص ١٤٢ .

(٢) أنظر ص : ١٦٨

(٣) سبق عرض وتحليل هذه القصيدة فى كتابى « الحركة الشعرية فى الخليج العربى بين التقليد والتطور » راجع ص ٤٥٠/٤٥٢ .

(٤) صالح الشرنوبى: ديوان صالح الشرنوبى : تحقيق عبد الحى دياب ـ دار الكاتب العربى ـ القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٩٧ وما بعدها .

أما البناء فى قصيدة السبتى فإنه يقوم على المفارقة العجيبة فى سكان المدينة وناسها فهم بشر ولا بشر ، وكذلك مدينة الشرنوبى وسكانها التى اختل فيها ميزان العدالة بسبب فساد أهلها .

ويستغل الشاعر ـــ فى هذا البناء ـــ الإشارة إلى العلل الكامنة والأسباب المؤدية إلى كل هذا ، بغية إثارة الوجدان الجمعى والعمل على بناء مدينة جديدة ، من خلال رموز التخلف والجمود : « عششت فيها عناكب الخراب » ، « حكم الموت بها الأرباب » ، « وأغلقت من دون أهلها الأبواب » .

ونلاحظ أن الرمز فى القصيدة لم يكن موجها إلى الكلمات والصور الجزئية فحسب بل كان منصرفا ـــ فى الغالب ـــ « إلى بناء القصيدة بناء رمزيا مركبا تتآزر فيه الصور على الايحاء بفكرة أو شعور » أى أن غاية جهده لم تنحصر « فى إبداع صور جزئية تفيض بالحركة نتيجة الاعتماد على تراسل معطيات الحواس ، وتبادل مجالى الإدراك بين الماديات والمعنويات بإضفاء صفة أحدهما على الآخر »[1] فالعدوانى يقول :[2]

مدينـــــة فى فــــلك مهجـــور
سماؤهــــــا نجومهـــــــا ، قصور
سكـــــانها رعـــــاع الــــــدود
تـــــــــــدب فى ديجور
طعامهــــا شرابها دم الــــــدود
ونضح جـــــــث الــــــدود
قـد ألفت حياتها معيشة القبــور
مدينة قد عششت فيها عناكب الخراب
وحكـــــم الموت بها الأربــــــاب
وأغلقت من دون أهلها الأبواب .

ومن الواضح أن الرمز فى هذه القصيدة ليس فى كلمة أو فى « صورة جزئية وإنما هو فى مجموعة من الصور المركبة تركيبا متحركا ناميا » .

فالشاعر يرمز بالمدينة فى فلك مهجور ، سماؤها نجومها ، قصور ، إلى الخواء الفكرى ، والنظرة المحدودة التى لا تتجاوز أعلى مما فوق رأس أصحابها ، أما أصحابها فإنهم يدبون يبحثون عما تلوكه ألسنتهم ، ويروى تعطشهم إلى العفن الكريه ، والدبيب يوحى بالبطء ، والتلصص وربما كان فى كلمة « ديجور » ما يرشح هذا

---

(١) د . محمد فتوح أحمد : الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر . دار المعارف ـــ القاهرة ط ٢ ـــ ١٩٧٨ ص ٢٠٤/٢٠٥ .
(٢) الديوان : ٦٨ .

الفهم . إن حركة أهلها رتيبة ، ثابتة ، لأن التخلف والجهل والجمود المرموز لها بالموت هو الذى يحكم هذه الحركة ، ولذا أوصلها إلى هذه النتيجة وهى العزلة « وأغلقت من دون أهلها الأبواب » .

أما المعجم فإنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالفكرة والشعور ، ومرتبط كذلك بمعجم العادات اليومية ، ويشير إشارة شبه مباشرة إلى ظاهرة التخلف والجمود ، فالمدينة « فى فلك مهجور » ، تظللها وتغطيها المظاهر المادية الصماء « قصور » ، وأهلها يدبون دبيب الحيوانات التى تتخبط « وتدب فى ديجور » . أما معجم العادات اليومية الغربية فإن « عناكب الخراب » دليل الهجر والهجرة ، والعزلة واضحة لكل من « أغلقت من دون أهلها الأبواب » .

وكما هو واضح فى القصيدة نجد أن الشاعر قد استخدم أسلوباً معيناً ، قد يعيننا على دراسة استكشاف العلاقة بين التراكيب النحوية الشائعة فى أسلوب معين « وبين الأغراض التى يستخدمها فيها الشاعر ، بمعنى أن شاعراً ما قد يستخدم تراكيب معينة فى التعبير عن مشاعر أو انفعالات معينة »[1] لقد لجأ العدوانى إلى استخدام الجمل الاسمية المنكرة .

مدينـــــة فى فـــــلك مهجـــــور
سماؤها ....
سكانها ....
× ×
طعامها ....

ليؤكد أولا حقيقة حال هذه المدينة التى أخذت سمة الثبات ، وليؤكد ثانية نبذ التخلف والجمود فى أى مدينة ، أى أنه لا يقصد مدينة بعينها ، إنه يرفض الظاهرة أيا كانت وعندما عرض الانسان المتخلف استخدم الفعل الذى يدل على استمرار الحال (تدب فى ديجور) وهكذا جاءت التراكيب مناسبة للفكرة التى يريد إثارة الوجدان الجمعى ضدها .

واختار الشاعر لقصيدته هذه الشكل التفعيلى المناسب للدفقة الشعورية الساخطة الغاضبة ، وأكثر من استخدام الحروف الصاخبة كحرف (الراء) كما أكثر من استخدام الحروف الممدودة لتناسب الحركة البطيئة ، ودبيب أهل المدينة ، وتسكينه القافية فى جميع الأبيات يناسب كذلك حالة السكون التى قرت واستقرت واطمأنت فى كل مكان .

والرمز الصوفى من أنماط الرموز ثنائية الدلالة ؛ إذ « فيه تتجلى قيم روحية وفنية تصله بالرمز المعاصر من جهة ، وتبعده عنه من جهات »[2] يقول الشاعر العدوانى فى قصيدته « انتظار »[3]

(١) د . على عزت : اللغة والدلالة فى الشعر .
(٢) د . محمد فتوح أحمد : الرمز والرمزية فى الشعرية المعاصر : دار المعارف ــ القاهرة الطبعة الثانية ١٩٧٨ ، ص ١٦١ .
(٣) الديوان : انتظار : ٦٩ .

تمور فى كيانى شهوتان
حماسة للوحة فينانة الشجر
ساحرة الثمر
وفزع مروع يرعد كالبركان
يعصف بالحياة والبشر
.. وهكذا أجلس فوق فلك مضطرب الأهواء
أنتظر السماء
لعلها تكشف عن نفسى غمرة عمياء
فيشرق الطريق بالضياء
فهل تحقق السماء لى الرجاء
وهل يطول بى انتظارى .. ؟؟
أم أقطع العمر سجين دارى .. ؟؟

ويقوم البناء فى هذه القصيدة على المفارقة التى تقوم على التضاد بين حاجتين تتنازعان عاطفة الشاعر ، وتشكلان حالة الاضطراب النفسى التى يعانى منها ، هما حاجته إلى الأمن والاستقرار وخلاصه مما يواجهه من خوف وفزع . هذا التناقض هو الذى يبنى عليه الشاعر القصيدة ، ويجعلها تسير فى مسارها الصحيح حتى النهاية . فالشهوتان الموارتان اسلمتاه إلى الاضطراب ولذا لجأ إلى السماء طلبا للخلاص[1] :

فصبى الكأس بعد الكأس حتى	أفوز بنشوة السروح الطليقة
وأصبح موجة وأخوض بحرا	نجاتى فى سفائنه الغريقة
عشقت فروع حسنك فى البرايا	فلى فى كل بستان حديقة

والخمرة ـــ العشق ـــ الكأس ـــ الحسن ، كلها ألفاظ يتوسل بها الشاعر إلى تقرير هذه القيم الروحية من حيث الفناء فى المعبود ، والانصراف عن شهوة الحس ، والتمسك بطوق النجاة ، والاتحاد مع عناصر الوجود ، لأنها جميعا تسبح للذات العلية .

وقد جاء الإيقاع فى هذه القصيدة رتيبا عاديا لأنه قد وصل إلى درجة الاستقرار النفسى بمعرفته السر ، بخلاف الايقاع فى قصيدته « انتظار » فانه قد تلون بلون حالته النفسية بثورة نفسه ، وما يمور فيها من شهوات موارة تثور كالبركان فيناسبها الايقاع الصاخب العنيف . وعندما يرفع يديه إلى السماء خاشعا متوسلا يلجأ إلى استخدام الايقاع الهادىء الرخيم الممتد إلى أعلى ولذا جاءت القافية الهمزة المتطرفة الساكنة المسبوقة بمد .

(١) الديوان : إليها : ٧٠ ـــ ٧٢ .

ان هذا التنوع الايقاعى فى شعر الشاعر راجع إلى تنوع الحالات النفسية وتقلب المواقف الفكرية ، ولا شك أن هذا التنوع يزداد وضوحا عندما نقارن بين نبرتى القصيدتين السابقتين والنبرة الحالمة التى تكشف عن الأمل فى « الغد الأخضر » الذى يخاطبه الشاعر على النحو التالى :[1]

يا غدنـــــــــا الأخضر
أزهـــاره عـــوالم مـــن نـــور
تغـــــازل البـــــدور
يا غدنـــــــا الأخضر
نحن هنـــا نشعلهـــا ثـــورة
فى أفـــق مـــغبر ..
وكل سيـــف مـــدرك دوره
فى اللـــــــهب الأحمر
نحن هنـــا نـــغير الثيـــاب والجلـــود
ونـــــغسل الجماجـــــم
ونرفـــــع البنـــــود
نجدد المعـــــــالم
ياغدنـــــا الأخضر

ولقد اختار الشاعر لبناء قصيدته شكل الشعر الحديث ذى الوزن القصير والايقاع الذى يشع حيوية وحركة ، هذا الايقاع النشوان يناسب إحساس التفاؤل السائد فى جو القصيدة . وهتاف الأبطال فى الطريق إلى صنع حياة أفضل يهز النفوس ، ويحرك الضمائر والهمم ، ونداء الغد وإضافته إلى ضمير المتكلمين يوحى أن الغد لنا وملكنا ، وهو غد أخضر مشرق بالنور ، وأن تحقيقه مرهون بإرادتنا الثورية .

وإذا عدنا إلى البعد الرمزى من قصائد العدوانى فإننا يمكن أن نلاحظ أن درجة الرمزية تعلو فى القصائد الصوفية الطابع ، وأن الرمز فى هذه القصائد يكتسى طابعا يتواءم مع مضمونها الذى يستدعى الرمز ويفرض طبيعته الخاصة . ويمكن أن نعيد ــ فى هذا المجال ــ تأكيد ما سبق إليه بعض دارسى الرمزية ، خاصة حين يقال : « الصوفى ــ كالرمزى ــ يعانى حالات وجدانية على درجة من التجريد والغموض ، وينعتق من سيطرة الحس ليتحد بالجمال الالهى الخالد ، وهو يختار لرموزه ألفاظا يجرى بعضها مجرى الاصطلاح ، وكثير منها يمكن اعتباره رموزا صوفية تتحدد معانيها بالقرينة » :[2]

---

(١) الديوان : ياغدنا الأخضر : ١٥١ ــ ١٥٣ .

(٢) د . محمد فتوح أحمد : الرمز والرمزية فى الشعر المعاصر ص ١٦١/١٦٢ .

ولذا يستعير الصوفي ألفاظه من قاموس الغزل والخمريات ، على نحو ما نجد عند العدواني في قصيدته « إليها » ومطلعها :[1]

رووا عنك الحديث فما أصابوا ... وجاروا في الشريعة والطريقة

....

مرادي أنت ما غامرت إلا ... لأحيا في مغانيك الوريقة

وأترك خمرة السمار خلفي ... لأعصر كرمة الأنس العتيقة

ففي أوراقها اشتبكت عروق ... وغذتني منابتها العريقة

وكنت لها الوثيقة في شهودي ... وكانت لي على غيبي وثيقة

(الديوان ٧٠ — ٧١)

ولعل أول ما يذكر بالتقاليد الصوفية في هذه القصيدة هو الاشارة المؤنثة في عنوانها « إليها » حيث يشير ضمير التأنيث إلى الرمزية الصوفية التي تقرن المحبوبة بالحقيقة المطلقة ، أو المعنى الكلي للحقيقة ، حيث تفارق المرأة معناها المادي وتصبح رمزاً للسعي الكلي الذي يبذله الشاعر في اكتشاف معنى الكون .

ومن الممكن أن نفسر « إليها » في هذه القصيدة باعتبارها « الحقيقة الكلية » ، تلك الحقيقة التي أشار إليها الشاعر في البيت الثاني من القصيدة ، حين قال :

ولو عدلوا لما وضعوا رسوما ... مقدرة على شمس الحقيقة

فشمس الحقيقة هي هذا الضمير المؤنث في هذه القصيدة ، وهي نفس الضمير الذي يتكرر عندما يقول الشاعر :[2]

يا أنت يامن لا أسميها
تقاصرت قلايد الأسماء كلها
دون معانيها

وفي قوله :[3]

ياليتها كانت معي
تملأ من خمرتها كأسي
تغمر في نشوتها أنسي

---

(١) الديوان : إليها : ٧٠ — ٧٢ .

(٢) الديوان : ص ٣٠ .

(٣) الديوان : ص ٣٧ .

إن الكيان الأنثوى فى كل هذه المقتبسات وفى ما يماثلها من شعر العدوانى متصل أوثق الاتصال بمعنى الحقيقة المطلقة . وما يرتبط بهذا الكيان من إشارة إلى « الشمس » أو « الخمر » أو « الحديقة » فإنما هو إشارة إلى بقية المعانى الصوفية ، حيث تقترن الشمس بسطوع الحقيقة فى لحظات النشوة التى تقترن بالغيبة والشهود ، وكذلك بنشوة الروح الطليقة ، إن الحقيقة عندما تظهر لنفس الصوفى تشرق كالشمس حين تشرق من « أصداف صفيقة » ، وتبدو أشبه بمرساة النجاة وسط تلاطم الموج الذى تتخبط فيه السفائن الغريقة . وإذا كان الكيان الأنثوى هو رمز هذه الحقيقة ، فإن هذا الكيان بطبيعته الكلية يتجلى فى كل شىء على نحو يشير إليه العدوانى ، عندما يقول فى قصيدة إليها :

عشقت فـروع حسنك فى البرايـا   فلى فى كل بستـــان حديقـــة

مجسداً معنى تجلى هذه الحقيقة فى كل الأكوان ، وموضحا بحثه عنها فى كل مجال ، أما عندما يقول العدوانى فى نفس القصيدة :

وهـل أذنـبت حين قـبست نـاراً   لهتك فى مجاهلهـا السحيقـــة

فإنه يؤكد المعنى الصوفى الذى يرتبط باقتباس النار واستخدامها عند الصوفية على نحو ما أوضح دارسو الرمز عند الصوفية ، خاصة عندما يتعرضون لأبيات من مثل :

الخمر والشعلة والجمال كلها للحق مجال
لأنـه الظاهـر فى جميـع الصور

. وإذا كان أحد دارسى الرمزية الصوفية يذهبون إلى أن الشعر الصوفى فى مجمله شعر ميتافيزيقى يحيل على موضوعات تند عن أى وضعية فزيائية[1] ، فإن الرموز التى يستخدمها العدوانى فى هذا المجال هى رموز حسية أو فزيائية تكشف عن أبعاد غير حسية أو ميتافزيقية ، فالمرأة والخمرة والشمس وغيرها من الرموز إشارات حسية إلى هذه الأبعاد غير الحسية أو الميتافيزقية .

هذه الأبعاد الصوفية تضفى على شعر العدوانى سمات جمالية تميزه عن غيره ، كما أنها تؤكد الجانب الانسانى لهذا الشعر . هذا الجانب الذى يجعل من عالم شعر العدوانى ، عالما محليا وإنسانيا معا . وفى ذلك تتمثل أهمية هذا العالم من حيث ما فيه من نزعة إنسانية .

(١) راجع الدكتور / عاطف جودة نصر ، الرمز الشعرى عند الصوفية ، دار الأندلس بيروت ، ص ٣٧٩ .

٨ ــ خاتمـــــة :

وما نشير إليه بالنزعة الانسانية فى العالم الشعرى عند العدوانى لا يتباعد عن ملمحه الصوفى . ولكن يتضح معنى هذه النزعة عندما نؤكد معنى الانسانية ــ من خلال عالم الشاعر ــ بوصفها « قوة معنوية وروحية تتصل اتصالا مباشرا بالفعل الصادر عن الذات الخيرة الصافية التى لا هدف لها الا خير الانسانية وصلاحها ، وسعيها وراء الكمالات » هى بذلك « قوة روحية عظمى تخاطب عقل الانسان وضميره وجوهره »[(١)] .

إننا نرى ذلك عندما نقرأ شعر العدوانى ، ونشعر بأن الوجدان الذى يجسده عالمه الشعري هو وجدان إنسانى عام ، هذا الوجدان الانسانى العام يبرز على نحو خاص عندما يقيم الشاعر علاقة بين الانسان وعالم الأشياء والكائنات ، فيجسد شعريا أن الاعتداء على المكان اعتداء على الانسان ، لأن بين المكان والانسان علاقة عضوية لا فكاك منها . إن الشاعر حين يأسى ويتأثر ويتحسر على ما حل بالصحراء إنما هو فى الواقع يأسى لنفسه ، ولذا يعتبر دفاعه عن الصحراء دفاعا عن النفس أولا ، ودفاعا عن كل مظهر من مظاهر الحياة . وعندما يؤكد عالم العدوانى تعاطفه الشعرى مع الأشياء فإنه يؤكد إنسانيته ، ويؤكد حرصه على القيم الإنسانية التى تخلع نفسها على الطبيعة ، والتى تدعم وجودها عند الإنسان ، عندما تدافع عن حريته ، فانتصار الشاعر لقضية الحرية إنما هو انتصار للانسان ، انتصار للحياة ، فحاجة الإنسان إلى الحرية ليست بأقل من حاجة مختلف عناصر الكون لها . إن الرياح لا بد أن تهب ، والشعاع لا بد أن ينفذ ، والشمس لا بد أن تشرق ، والنهر لا بد أن يجرى والإنسان لا بد أن يعيش حراً ، إلا أن يكون هذا الصنف الذى عناه الشاعر حين يقول على لسانه :[(٢)]

يـــــاسادتى أيـــــا أربـــــابى
أنـــا أكـــره أن أحيـــا حـــراً
وأحب حيـــــــاة العبـــــــد
الحريـــــــة ترعبنـــــــــى
تقذفنـــــى فى جـــو فـــراغ
يغتـــــــال كيـــــــانى
ويطـــــوح بى فى مهــــــواه
فيــــــدور بــــــرأسى
بـــــــــا ويلى
حين أقابـــــل وحـــــــدى

---

(١) د . عبده بدوى : دور الشعر وخدمته لعملية التنمية الثقافية فى الحاضر والمستقبل عالم الفكر المجلد السادس عشر : العدد الرابع ــ يناير ــ فبراير مارس ١٩٨٦ ــ ص ص ٥٢ .

(٢) : الديوان :

وجــــــــــه مصورى
أحس بثقـــــــل الحريـــــــة

إن هذا الصنف من البشر الذى يرفض العيش فى ظل الحرية ويراها ثقيلة ، ويفضل دائما أن يعيش نباتا متسلقا يتكىء على قامة العمالقة . هذا الصنف لم يخلق للحرية ولن يقدر على تحمل تبعاتها ولذا يرفضها .

هذه النزعة الإنسانية قديمة جدا فى شعر العدوانى ، ظهرت مع بداياته الأولى ويمكن أن نلمحها فى قصيدته « أمجاد الورى » التى نشرت فى مجلة البعثة عام ١٩٤٨ ! ، وتحمل بصمات إيليا أبى ماضى ، خصوصا حين يقول العدوانى :(١)

قالت : هو البطل الشحيح ولن ترى   شبها لـه بين الـورى أو منكـبرا
خضعت لامرتـه صناديـد الوغـى   وصغت لعزتـه المدائـن والقـرى
فأجـبتها : أيكـون أرلى صولـة   فى حومة الأهوال من ليث الثرى
إن كنت أكبرت الشجاعة وحدهـا   فالليـث أولى أن يكـون المكبرا

قـالت : كـريم لا يبـارى رفـده   جـم المرؤة والنـدى سمح القـرى
فأجـبتها : أيكـون أنـدى نائـلا   وأعـم مـن غـيث تصوب ممطـرا

قالت : جليل القدر لو شاهدتـه   شاهـدت تمثـال الجلالـة نيرا
مـلأ القلـوب سنـاؤه وبهاؤه   وعـنت لهيبتـه الوجـوه تحدرا
فأجـبتها : أيكـون أهـيب طلعـة   وأجل من طود تناطحه الـذرى
إن كـنت أكبرت الجلالة وحدهـا   فالطـود أولى أن يكـون المكبرا

فللشاعر إيليا أبى ماضى قصيدة تشبه فكرة الشاعر عن وحدة الوجود ، وأن الإنسان عنصر من عناصر الوجود يشكل حلقة فى دائرة الخلق ، يقول فيها :(٢)

قد سألت البحر يوما هل أنا يابحر منكا ؟
هل صحيح مارواه بعضهم عنى وعنكا ؟
أم ترى مارعموا زورا وبهتانا وإفكا ؟

---

(١) الديوان : أمجاد الورى : ٢٢٢ ـــ ٢٢٣ .
(٢) أيليا أبو ماضى ، قصيدة طلاسم ، ديوان الجداول . راجع أيضا فى هذه الفكرة : د . مصطفى السعدنى : البنيات الأسلوبية فى لغة الشعر الحديث

ضحكت أمواجه منى وقالت :
لست أدرى

ترسل السحب فتسقى أرضنا والشجرا
قد أكلناك وقلنا قد أكلنا الثمرا
وشربناك وقلنا قد شربنا المطرا
أصواب مازعمنا أم ضلال ؟
لست أدرى

هذا التشابه بين العدوانى وأستاذه إيليا أبو ماضى تشابه يؤكد قدم النزعة الإنسانية فى شعر العدوانى ، وقدم ما بدأت به من تأكيد قيمة الإنسان ذلك الكائن الذى يمكن أن يكون أعظم ما فى الكون وأصغر ما فى الكون . إن صغره يرتبط بانزلاقه إلى عالم الجماد والشهوات ، حيث الظلم والتدنى ، أما عظمته فإنها تظهر عندما يستنير ضميره وتصفو روحه ، ويعلم أنه صغير بذاته كبير بغيره ، وأنه ضئيل بالقياس إلى الكون وأنه انسان بانتمائه الى الإنسانية كلها ، على نحو ما قال العدوانى (فى قصيدته « اصبرى يانفس » التى نشرها عام ١٩٤٧) .

فى إنسانية كرمت فهى عندى أوكد النسب
(الديوان ص ٢٣١)

المصـــادر والمراجــــع

أولا ــ الدواوين والمسرحيات الشعرية :

١ ــ أحمد شوقى : مسرحية (مجنون ليلى) الأعمال المسرحية الكاملة : دار العودة بيروت ١٩٨٨ م .

٢ ــ أحمد عبد المعطى حجازى : (مدينة بلا قلب) : دار العودة ــ بيروت .

٣ ــ أحمد العدوانى : (أجنحة العاصفة) ط ١ ــ الكويت ١٩٨٠ .

٤ ــ إيليا أبو ماضى : الجداول الطبعة الخامسة ــ دار العلم للملايين ــ بيروت : ١٩٦٥ م .

٥ ــ خليل مطران : ديوان الخليل ــ القاهرة ــ ١٩٤٩ م .

٦ ــ سعاد عبد الله المبارك : (أمنية) الأولى : دار المعارف ــ مصر ١٩٧١ م .

٧ ــ صالح الشرنوبى : ديوان : دار الكتاب العربى ــ القاهرة ١٩٦٦ م .

٨ ــ على السبتى : بيت من نجوم ــ الطبعة الأولى ــ بيروت ــ ١٩٧٥ م .

٩ ــ فاروق شوشة : أحلى عشرين قصيدة فى الحب الالهي ــ مكتبة مدبولى ــ ظ ١٩٨٣ ــ القاهرة .

ثانيا ــ المراجــــع :

١٠ ــ إحسان عباس : اتجاهات الشعر العربى المعاصر . : عالم المعرفة ١٩٧٨ . الكويت

١١ ــ جان كوهن : بنية اللغة الشعرية : ترجمة محمد الولى ومحمد العمرى ــ الأولى : ١٩٨٦ ــ المعرفة الأدبية ــ دار توبقال للنشر ــ المغرب .

١٢ ــ خيرى منصور : أبواب ومرايا ــ مقالات فى حداثة الشعر : الأولى : ١٩٨٧ م ــ دار الشئون الثقافية العامة ــ بغداد .

١٣ ــ عاطف جودة نصر : الرمز الشعرى عند الصوفية : الأولى : دار الأندلس ــ بيروت .

١٤ ــ عبد الملك مرتاض : بنية الخطاب الشعرى : الأولى : دار الحداثة ــ ١٩٨٦ م ــ بيروت .

١٥ ــ عبده بدوى : دور الشعر وخدمته لعملية التنمية الثقافية فى الحاضر والمستقبل ــ عالم الفكر المجلد السادس العدد الرابع ــ يناير ــ فبراير ــ مارس ١٩٨٦ ــ ص ٥٢ .

١٦ ــ على عزت : اللغة والدلالة فى الشعر ، دراسة نقدية فى شعر السياب . وصلاح عبد الصبور ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط ١ ــ ١٩٧٦ م .

١٧ ــ عمر رضا كحالة : أعلام النساء فى عالمى العرب والاسلام ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت .

١٨ ــ غالي شكري : شعرنا الحديث إلى أين : الثانية : دار الآفاق الجية : ١٩٧٨ م ــ بيروت .
١٩ ــ فتح الله خليف : ندوة حول مشكلة الاغتراب : عالم الفكر ــ المجلد العاشر ــ العدد الأول ــ ابريل ــ مايو ــ يونيه ــ ١٩٧٩ م .
٢٠ ــ محمد فتوح أحمد : الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ــ دار المعارف ــ القاهرة ــ ط ٢ : ١٩٧٨ م .
٢١ ــ محمد مندور : الأدب ومذاهبه : دار النهضة المصرية .
٢٢ ــ محمود الربيعي : الشاعر والمدينة ــ عالم الفكر ــ المجلد التاسع عشر ــ العدد الثالث ــ أكتوبر ــ نوفمبر ديسمبر ١٩٨٨ م .
٢٣ ــ مصطفى السعدني : البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ؟ منشأة المعارف ــ الاسكندرية ١٩٨٧ م .
٢٤ ــ نازك الملائكة : قضايا الشعر المعاصر : دار العلم للملايين ــ بيروت ــ ط ٣ ــ ١٩٧٤ م .
٢٥ ــ نورية صالح الرومي : الحركة الشعرية في الخليج العربي بين التقليد والتطور ط ٢ ــ ١٩٨٩ م ــ الكويت .
٢٦ ــ رفيق خنسة : جدل الحداثة في الشعر : الأولى ــ دار الحقائق للطباعة والنشر والتوزيع الأولى ــ ١٩٨٥ م ــ بيروت .

ثالثا ــ الدوريـــات :

٢٧ ــ الأنباء : ع : ٥٢٠١ : ١٩٩٠/٦/١٩ م ــ الكويت .
٢٨ ــ البيان : ع : ٢١٦ ، مارس ١٩٨٤ م ــ رابطة الأدباء ــ الكويت .
٢٩ ــ الرأي العام : ع : ٩٥٣٠ : ١٩٩٠/٦/٢١ م ــ الكويت .

الحداثة ...
والمسرح العربي

د . عبد العزيز حمودة
أستاذ الدراسات بقسم اللغة الانجليزية
جامعة القاهرة

لا أظن أن لفظة أثارت من الجدل فى العصر الحديث مثلما أثارته لفظة « حداثة » لأكثر من نصف قرن على الأقل فى العالم الغربى ، ولأكثر من عشر سنوات فى عالمنا العربى . صحيح أن جدلنا هنا فى العالم العربى وصل متأخرا إلى حد كبير ، فى الفترة التى يرى الكثيرون فيها أن معركة الحداثة فى الغرب قد خبت ، وأن الجدل هناك لم يعد قائما ، بل إن البحث قد بدأ بالفعل عن مدارس أو مسميات جديدة . المهم أن معركة الحداثة مازالت قائمة بيننا تؤججها التباينات الواضحة بين دلالات الحداثة فى اللغة ومفردات النقد ، وهى نفس التباينات التى شغلت منظري الحداثة وفلاسفتها لما يقرب من قرن الآن ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن الجدل عندنا يكتسب حدة خاصة حينما نربط فى عالمنا العربى ، كعادتنا ، بين الأدب والسياسة بتياراتهما المتباينة !

يرى الناقد والمفكر الانجليزى ليونيل تريللنج Lionel Trilling أن فكرة « الحديث » تتعرض لتغيرات دلالية أسرع مما تتعرض ألفاظ أخرى ذات وظائف مماثلة مثل « رومانسى » أو « نيوكلاسيكى » بل إنها تكمل فى دلالتها دورة كاملة حتى تصل إلى معنى مضاد لمعناها عند نقطة البداية[١] .

وما يؤكده تريللنج ، هنا يجيء مصداقا للتجربة النقدية فى النصف الأخير من القرن وهى تجربة تؤكد انسحاب لفظة « حداثة » على الشيء ونقيضه فى الوقت نفسه . وهى حقيقة لابد أن نسلم بها قبل الخوض فى الحديث عن الحداثة فى المسرح العربى حتى

---

(١) Lionel Trilling, "On the Modern Element in Modern Literature", in Beyond Culture: Essays in Literature and Learning, London, 1966.

لا نتوه فى تناقضات التعاريف والتيارات المضادة التى ارتبطت بالمسرح العربى باعتباره أبرز الفنون الأدائية وأكثرها إثارة للجدل فى العشرين عاما الأخيرة .

وإذا كان الجدل حادا حول تعريف « الحداثة » وتحديد ماهيتها فى مجالات الشعر والرواية والقصة القصيرة فانه أكثر حدة فى مجال المسرح . « فالحديث عن ابسن وبيكيت باعتبارهما طرفي الحداثة .. هو الصعوبة ذاتها ، على حد قول جون فليتشر وجيمس ماكفرلين[1] . وجه الصعوبة هنا لا يحتاج إلى كثير إيضاح ، فابسن ارتبط اسمه فى عالم المسرح بالواقعية وبيكيت ارتبط اسمه بمسرح العبث ، وكلاهما يمثل مدرسة فنية تختلف فى رؤيتها للحياة وفى حرفية الكتابة المسرحية اختلافا جذريا ، ومع هذا فهما ينتميان تاريخيا إلى مدرسة واحدة أوسع وأشمل وهى مدرسة « الحداثة » . ويزيد من تعقيد الحديث عن الحداثة فى المسرح أن ذلك التناقض البيِّن بين من ينضوون تحت مظلة الحداثة لا يقتصر على كتاب يفصلهم أحيانا نصف قرن أو أكثر ، كما هو الحال مع ابسن وبيكيت ، بل إننا قد نراه بين كتاب ينتمون إلى نفس الجيل الواحد وأحيانا إلى نفس العقد ، مثل ابسن وسترندبرج ، والمسافة الفنية بين مسرحية ابسن هيداجابلر (١٨٩٠) ومسرحية سترندبرج فى الطريق إلى دمشق (١٨٩٨) أطول بكثير من مجرد هذه السنوات الثمانى التى تفصل بينهما . ولست بحاجة هنا إلى إضافة نماذج للاختلاف بين أعمال الكاتب الواحد، مثل ابسن وسترندبرج مرة أخرى ، وهى أعمال تندرج جميعها تحت مظلة الحداثة !!

هذا التناقض ، كما قلت ، هو جزء من التناقض الأساسي بين الدلالات المختلفة لكلمة « حداثة » . وحينما يكتب تريللنج عن « عنصر الحداثة فى الأدب الحديث » The Modern Element in Modern Literature فى معارضة واضحة لمقال آرنولد المعروف قبل ذلك بقرن عن « عنصر الحداثة فى الأدب » فإنه يدرك تماما أن مفهوم الحداثة قد مر بدورة كاملة حتى أصبح يعني بالنسبة لنا عكس ما كان يعنيه للناقد الانجليزى المعروف الذى ارتبط اسمه بالقرن التاسع عشر .

« لقد كانت معاني الحداثة تختلف (عند آرنولد) عن معانينا اليوم . كانت معاني كلاسيكية أساسا كان العنصر الحديث هو التمهل والروية ، الثقة والتسامح ، حرية العقل فى حركته لاكتساب أفكار جديدة فى ظروف الرخاء المادى ، كانت تعني الاستعداد لتحكيم العقل والبحث عن قوانين الأشياء . وإذا كان آرنولد قد شعر ، ولابد أنه شعر ، بقوة اللاعقلانية والفوضى والاكتئاب الذاتي العميق والقوى الاجتماعية ، الا أنه لم ينظر إلى هذه العناصر باعتبارها العناصر الأساسية للحداثة . ورغم ذلك فإن العنصر الحديث بالنسبة لنا هو عكس مايراه آرنولد — إنه العدمية ، خط المعاداة المرة للحضارة ، بل رفض الثقافة . فعند نقطة ما فى التسلسل .. حدث تعديل جوهرى قدم لنا الأطر الذهنية للفجيعة والغربة والعدم . إن فكرة الحديث ترتبط بإدراك الفوضى واليأس[2] .

(١) John Fletcher and James McFarlane, "Modernist Drama: Origins and Patterns", in **Modernism: 1890 - 1930** eds. Malcolm Bradbury and James Mcfarlane (Penguin Books : 1976), p.507.

(٢) Malcolm Bradbury and James McFarlane, "The Name and Nature of Modernism", n Modernism: 1890-1930, ibid, pp. 40-41.

وسط هذه المتناقضات لابد من الوصول إلى تعريف ولو تقريبي للحداثة ، وهو تعريف لابد أن نسلم بداية أنه لن يكون مانعا أو جامعا من ناحية ، وأنه تعريف لابد أن يأخذ فى اعتباره المتناقضات المختلفة حتى يمكن الرجوع اليه أو استخدامه كخلفية ثابتة بعض الشيء عند حديثنا عن المسرح العربى من ناحية أخرى ، تعريف تعتمد وحدته على تنوعه ، ويتدرج فى المحاولة من البسيط إلى المركب .

أول ما يرد إلى أذهاننا عند سماع لفظة حديث هو الأخذ بالجديد ورفض القديم . لكن مشكلة هذا التعريف التلقائىُ أنه غير دقيق أو علمى ، فهو يؤكد جانبا واحدا فقط من الحداثة ، وهو الأخذ بالجديد والمعاصر ، مما سيؤدى إلى تضييق مظلة الحديث بحيث لا تغطي الا جزءاً بسيطا من التراث الإبداعى فى القرن العشرين . والمشكلة الثانية أنه يمثل خلطا حتميا بين الحداثة والمعاصرة ، بين ما هو حديث وما هو معاصر ، وهذه نقطة لابد من تبين خطئها مبكرا حتى لا يتكرر الخلط فى أية مرحلة لاحقة .

يرى مونرو سبيرز مثلا أن الحداثة لا تعنى المعاصرة وأن المعاصرة لا تعنى الحداثة أيضا ، فقد نرى عملا معاصرا كتبه فنان معاصر ولكنه ليس حديثا أى لا ينتمي لما يمكن أن نسميه حديثا ، وقد نرى أن مسرحية كتبها ابسن فى نهاية القرن الماضى مثلا مسرحية حديثة رغم أنها ليست معاصرة[1] . « إن المعاصرة ترتبط بالزمن أما الحداثة فترتبط بحساسية معينة وأسلوب معين »[2] ، والفارق بينهما هو الفارق بين الانتماء إلى الزمان والمكان وإلى قيم فنية وأدبية .

ونقطة الضعف الثانية والخطيرة فى هذا التعريف التلقائىُ البسيط أنه يخلط بشكل حتمي بين الجدة والحداثة ، فبدلا من محاولة تجديد الأطر التى تحدد أو تحكم تيارا فنيا وأدبيا ضخما يضم روافد كثيرة ومتنوعة نراه يعرف الحداثة بأنها الأخذ بالجديد . وفى ضوء هذا التعريف فإن انتاج كل جيل أدبى أو فنى كان يمثل حداثة ، فالمسرح الرومانى كان حديثا بالمقارنة بالمسرح الإغريقى بل إن المحاولات شبه البدائية لإقامة مسرح كنسى فى مرحلة ما من العصور الوسطى كان يمثل مسرحا حديثا بالنسبة للمسرحين الرومانى والإغريقى ، وهكذا ، مع ما فى هذا من مغالطة علمية واضحة . وفى هذا يقول هربرت ريد ، الناقد الفني المعروف ، إن تاريخ الفن يمثل ثورات أو فورات متتالية ، « فكل جيل وكل عقد أحيانا ، وكل قرن يقدم لنا ثورة جديدة تمثل تغيرا فى الحساسية .. لكننى متأكد أننا ندرك الاختلاف النوعى فى الثورة المعاصرة : إنها حتى ليست ثورة بمعنى الانقلاب أو الردة ، ولكنها انفصال بل حتى تحلل » .

(١) Monroe K. Spears, Dionysus and the City: Modernism in Twentieth - Century Poetry (New York : Oxford University Press, 1970), pp. 4 - 5.

(٢) Irving Howe, "The Idea of the Modern", in The Idea of the Modern in literature and the Arts, ed. Irving Howe, (New York: Horizon Press, 1967), p. 12.

هذا التعريف العلقاني الساذج قد يؤدى فى نهاية المطاف إلى مقولة أكثر سذاجة وهى أن حديث الأمس هو تراث اليوم وحديث اليوم هو تقاليد الغد . بينما الحداثة كمرحلة فنية أدبية أكثر تعقيدا وتشابكا .

وفى هذه المرحلة المبكرة من محاولة تعريف الحداثة لابد أن نؤكد أنها لا تعني الأخذ بالجديد ورفض القديم فقط ، وهى فى ذلك تختلف عن المقولة الأساسية للمستقبليين الايطاليين فى مطلع هذا القرن والذين اعتقدوا أن تحقيق الغد والوصول إلى مرحلته يعني ببساطة رفض القديم بل تحطيمه ، بلا مواربة أو غموض :

> أيها الرفاق ، إن التقدم المنتصر للعلم يجعل التغيرات فى البشرية حتمية ، تغيرات تخلق هوة بين عبيد التقاليد الخانعين ونحن المحدثين الأحرار ، الواثقين فى مستقبلنا الزاهر ... التقطوا فؤوسكم ومعاولكم وحطموا ... حطموا المدن المبجلة بلا شفقة ، هيا أشعلوا النيران فى أرفف المكتبات ، حولوا مياه القنوات لتغرق المتاحف ، دعوهم يشعلون الحرائق بأصابعهم المكتوية بالنار(١) .

ولسنا هنا بحاجة لتأكيد ضحالة هذه المفاهيم المستقبلية وما تمثله من دعوة صريحة للجهل والفوضى ، وإذا كانت الحداثة تعني إلغاء الماضي فان معنى ذلك حرمانها من عمق أساسى وهام وهو عمق التراث . بل إن الحداثة عند الكثيرين تمثل دعوة مضادة تماما لدعوة المستقبليين الضيقة ، فهى تعني مثلا رفض الجديد والعودة فى حنين واضح للماضي ، وتتدرج قوة الدعوة لربط الحديث بالقديم فى الواقع من الدعوة الهادئة القائلة بأن الحداثة فى جوهرها استمرار للرومانسية وعودة واضحة لها إلى القول بلا مواربة بأن الانفصال التام عن القديم — من نوع الانفصال الذى ينادى به المستقبليون — يعني فقدان الجذور والضياع الكامل

يرى هاو مثلا أن « الحداثة فى مرحلتها المبكرة ، حينما لم تكن تكترث لإخفاء اعتمادها على الشعراء الرومانسيين أعلنت صراحة أنها تضخيم للذات »(٢) بينما يرى آخرون فى الحداثة استمرارية الاهتمامات الرومانسية الأساسية بالوعى بالعلاقات بين الذات والموضوع وبالتجربة المركزة(٣) .

يقابل هذا الرأى الهادىء بالاستمرارية بين الحديث والقديم ممثلا فى الرومانسية أحيانا وفى الطبيعة أحيانا أخرى آراء أكثر حدة فى تأكيدها أن الحداثة فى الواقع لاتعني الأخذ بالحاضر ، بل هى رفض صريح وقاطع له ، وردة إلى الماضي . يرى مونرو سبيرز مثلا أن الانفصال عن الماضى الذى تتصف به الحداثة أحيانا يمكن النظر

---

(١) Umberto Boccioni et al, "Manifesto of the Futurist Painters" translated by Robert Brain, in Futurist Manifestos (Viking, 1973), p. 25.

(٢) مرجع سابق ، ص ٤٥

(٣) أورد فى كتاب J. Hillis Miller, Poets of Reality (Cambridge, Mass, 1965) Modernism مرجع سابق ، ص. ٤٧ .

اليه من زاويتين : « باعتباره تحرراً ، تحرراً سعيداً من قبضة التقاليد الميتة والقيود والمعتقدات البالية ، أو باعتباره حرماناً من التراث ، وفقداناً للتقاليد والعقيدة والمعنى ... وقد يظهر الاحساسان عن الكاتب الواحد بالتناوب »[1] .

ما يهمنا فى هذه الازدواجية أن الانفصال عن الماضى عند بعض الكتاب لا يكون رفضا له أو إدانة ، لكنه انفصال يؤدى إلى نتائج سلبية بل مأسوية بالنسبة لإنسان العصر الحديث . فالحداثة بهذا المعنى تؤكد عزلة الانسان وسط عالم فقد معناه . ويعد هذا الانفصال عن الجذور وخواء الواقع الحديث التفسير الطبيعى لسيطرة صورة المدنية الحديثة على الشعر الغربى وبعض الشعر العربى الحديث باعتبارها تجمعا لا قلب له ، وأرضا خرابا اختفت منها القيم التقليدية وحلت محلها قيم مادية جديدة تؤكد عزلة إنسان العصر الحديث سواء تأقلم معها أو فشل فى ذلك . والحداثة بهذا المعنى أيضا كانت السبب فى ظهور تيار مسرحي كامل ، وهو تيار العبث الذى سنتحدث عنه ببعض التفصيل حينما ننتقل إلى الحديث عن المسرح . وما يهمنا هنا هو أن نؤكد أن مسرح العبث الأورلى كان نتاجا مباشرا لهذا الضياع الذى ينظر اليه الكاتب العبثي باعتباره كارثة أو سقوطا جديدا حوّل العالم الحديث إلى أرض خراب بعد أن تغيرت الطبيعة البشرية .

بل يذهب بعض المنادين بهذا الرأى إلى أن الحرب العالمية الأولى حينما وقعت جاءت تجسيدا لفاجعة كان رجل الفكر قد كشف عنها قبل ذلك بالفعل ، أى أن عصر النهضة الذى كان قد بدأ قبل ذلك بقرون كان على حافة الهاوية قبل أن تقرع طبول الحرب عام ١٩١٤ ، وهى هاوية كشف أبعادها أناس مثل نيتشه وفرويد وفريزر ، الذين أكدت أفكارهم بطرق متفاوته .

> أن « الانسان ليس حيوانا قادرا على فهم عالمه والتحكم فيه ، لكنه كائن غامض له لحظات سمو ولحظات سقوط غير مفهومة ، خاضع لقوى من داخله وقوى من خارجه ، وهى قوى هو غير قادر على فهمها إلا جزئيا . وهكذا كان من الطبيعى أن يميل خيال الفنان الحديث الرائد إلى تصوير النهاية ، تصوير نهاية عصر ثقافى ونهاية كل شىء[2] .

أمام هذا الإحساس القوي بالفاجعة المتمثلة فى وصول الحضارة الغربية إلى نهاية المطاف وإطلالها على الهاوية ، وهروبا من خواء العالم الحديث وتفريغه من القيم التقليدية كان لابد أن ينظر الكثيرون إلى الماضى فى حنين ليعيدوا إلى الحاضر بعض مافقده من قوانين ونماذج . وكان أبرز هؤلاء جميعا فى بداية هذا القرن سير جون فريزر الذى أكد أهمية دور الإيقاعات النمطية للحياة ، وخاصة إيقاع ميلاد الآلهة وبعثها ودور الأسطورة كوسيلة لإعادة العلاقات بين العصر الحديث والمصادر الأولية للتجربة الإنسانية فى عصر تبلد بالمادية ، وهذا يفسر الدور الرائد والمستمر لكتابه المعروف « **الغصن الذهبى** » ويفسر أيضا الدور الذى تلعبه الأسطورة فى الآداب والفنون الحديثة

---

(١) مرجع سابق ، ص ٧

(٢) ديونيسيوس والمدينة ، ص ٤٢

فى الشرق والغرب على السواء « بسبب ادراك الأديب » ، على حد قوله ، « للتوازى المستمر بين الحديث والقديم » .

وهكذا يتضح أن جزءا كبيرا من تيار الحداثة لا يعنى ما قد يتبادر إلى الذهن غير المدرب أو العامي من الأخذ بالجديد ورفض القديم ، بل هو عكس ذلك تماما ، فهو أخذ بالقديم ورفض للجديد تأكيدا لمقولة تريللنج بأن الحداثة « هى العداء الكامل للحضارة » .

إن الرفض الكامل للحضارة يقربنا فى الواقع إلى محاولة تعريف مقبول للحداثة بعد أن ابتعدنا بما فيه الكفاية عن المفهوم التلقائي لها .

وهنا لابد من التأكيد على العلاقة الأساسية ، علاقة السببية الواضحة بين التحديث والحداثة . وهى علاقة فريدة ، إذ أننا لا يمكن أن نفكر فى حداثة لا يسبقها تحديث ، وفى نفس الوقت فإن كل تحديث لا تستتبعه حداثه بالضرورة . وهنا لابد من وقفة أخرى لمناقشة التحديث كعلة حتى نفهم طبيعة الحداثة كمعلول وندرك كنهها .

التحديث ببساطة شديدة هو التغيرات المادية التى تحدث لحياتنا العادية كما نعرفها من جيل إلى جيل . والتغير ، كما يعلمنا أساتذة علم الاجتماع فى درسهم الأول ، هو سنة الحياة ، بل هو الحياة . وفى اللحظة التى تتوقف عملية التغير تتوقف الحياة عن أن تكون . لكن التغيرات التى اجتاحت عالم القرن التاسع عشر ، بعد أن آتت الثورة الصناعية ثمارها ، كانت تغيرات جذرية غيرت فى الكيانات الموجودة فى أوربا ، وفى طبيعة العلاقات القائمة بين هذه الكيانات . هذه التغيرات ، انطلاقا من المقولة المعروفة « بأن كل ما هو جامد يتحول إلى هواء » هى أحد مصادر التحديث الأساسية فى أوربا القرن التاسع عشر والقرن العشرين . وتتضح عمليات التحديث تلك فى :

الاكتشافات الضخمة فى مجالات العلوم الطبيعية ، تغير صورة الكون ومكاننا فيه ، تصنيع الإنتاج ، أى تحويل المعرفة العلمية إلى تكنولوجيا وما ترتب على ذلك من خلق بيئات جديدة واختفاء بيئات قديمة والإسراع من إيقاع الحياة ، والتغيرات الديموغرافية الضخمة التى أدت إلى عزل الملايين من البشر عن بيئاتهم المتوارثة ونقلهم إلى الجانب الآخر من العالم ليواجهوا أشكالا حياتية جديدة ، النمو الحضرى السريع والجذرى ، أجهزة الاعلام والاتصال التى أدت إلى الربط بين أكثر الشعوب تباينا واختلافا ، ظهور الدول القوية القائمة على مبادىء القومية ... التحولات الاجتماعية الضخمة للشعوب وهى تحاول أن تسيطر على زمام مقدراتها اقتصاديا وسياسيا(٢) .

(١) Sir J. G. Frazer, **The Golden Bough**, London, 1923.

(٢) Marshall Berman, **All That Is Solid Into Air : The Experience of Modernity** (New York : Simon and Schuster, 1982), p.16.

لكن الحداثة لا تعنى قيام الأديب ببساطة بتسجيل هذه التغيرات الصناعية المادية أو حتى التحولات الديموغرافية التى تؤدى إلى تغيرات مقابلة فى الأطر الأساسية للتجمعات السكانية . إن الأدب والفن يتعاملان أولا وأخيرا مع الإنسان ، وأهمية التغيرات المادية أو التحديث تتمثل فى تأثيرها على العلاقات الإنسانية وأنماطها ثم الاهتمامات والمشاكل الجديدة التى تترتب على هذه التغيرات فى العلاقات الإنسانية . وقد وضعت واحدة من أشهر مؤلفات ومؤلفى الرواية فى القرن العشرين ، وهى فرجينيا وولف ، يدها على هذه الحقيقة حينما حددت بداية الحداثة فى أوربا وفى انجلترا على وجه الدقة بعام ١٩١٠ ، أى بعد وفاة الملك ادوارد وبداية عصر جديد وروح جديدة . ففى هذا العام ، كما تقول فرجينيا وولف :

> تغيرت جميع العلاقات الإنسانية — بين السادة والخدم ، بين الأزواج والزوجات ، بين الآباء والأبناء . وحينما تتغير العلاقات الإنسانية يحدث فى نفس الوقت تغير فى الدين والسلوك والأدب[١] .

وهو رأى يعبر عنه ستيفن سبندر بصورة أكثر تحديدا حينما يقول بأن الظروف التى نعيش فى ظلها ، وهى الظروف التى تغيرها الطبيعة باستمرار ، قد تغيرت بصورة جوهرية إلى درجة يشعر معها الناس أن الطبيعة البشرية قد تغيرت .

ويكتمل الضلع الثالث للمثلث بالطبع بتغيير مماثل فى الحساسية الأدبية والفنية نتيجة لتغير العلاقات الإنسانية . وهكذا تصبح « الأنا » الجديدة للفنان ، والتى تمثل بمعنى ما تأكيدا لعلاقة التواصل بين الحداثة والرومانسية فى تضخيمها للذات ، تصبح هذه الأنا فى الوقت نفسه نقطة الاختلاف بين الحداثة والرومانسية ، كما يرى الشاعر ستيفن سبندر . فالتجارب الإنسانية المترتبة على عملية التحديث تختلف عن التجربة الإنسانية التى وجدها الشاعر الرومانسى أمامه . كانت تجربة الشاعر الرومانسى قائمة على التوحد بين الذات والطبيعة ، بينما العلاقة فى الأدب الحديث علاقة تنافر بين الذات والواقع الجديد . المهم أن هذه التغيرات فى العلاقات الإنسانية كان لابد وأن تؤدى إلى ظهور أدب وفن جديدين . ويرى سبندر « أن المحدثين يعتقدون أنه بالسماح للتجربة الحديثة بالتأثير على حساسيتهم فإنهم سوف ينتجون مفردات وأشكال فن جديد ناتج عن عمليات غير واعية من ناحية وعن ممارسة وعي نقدي من ناحية أخرى »[٢] .

بعد هذه المحاولات لتحديد معالم الحداثة ومعطياتها ، وهى محاولات مختصرة إلى حد كبير وسط الكم الهائل من المناقشات والمناقشات المضادة حول الحداثة فلنحاول معا الوصول إلى تعريف مقبول لها . أقول تعريفا

(١) Virginia Woolf, "Mr. Bennet and Mrs. Brown" (1924), reprinted in **Collected Essays**, volume 1 (London 1966), p. 321.

(٢) ورد فى كتاب فكرة الحداثة ، ص ١٦

مقبولا ، ولا أقول تعريفا جامعا مانعا ، لأن أى تعريف سنحاول الوصول اليه لابد وأن يعبر عن هذه التناقضات التى تحدثنا عنها حتى الآن . وكلما ضاقت دائرة التعريف تحريا للدقة العلمية ظهرت عيوبه متمثلة فى عدم قدرته على التعبير عن دلالات الحداثة كاملة . إذ كيف نستطيع الوصول إلى تعريف محدد لمدرسة أدبية وفنية تجمع تحت مظلتها تيارات هى ذروة التناقض فى الدلالات ؟ كيف نصل إلى تعريف مذهب تندرج تحته تيارات مثل الانطباعية ، ما بعد الانطباعية ، التعبيرية ، التكعيبية ، الرمزية ، السريالية ، الملحمية ، العبثية ، بالاضافة إلى الرومانسية ، والطبيعية أحيانا ؟ إنها مدارس يمثل بعضها ثورة على البعض الآخر . ولهذا أيضا يكتفى كل من حاولوا تعريف الحداثة بالعموميات .

وليس هناك تعريف أكثر عمومية وأمانا فى الوقت نفسه ، من تعريف الحداثة بأنها « فن التحديث »[1] باعتبارها الفن الذى يعبر عن « سيناريو الفوضى فى عالمنا ... عن عدم اليقين ، عن تدمير المدنية والعقل فى الحرب العالمية الأولى ، عن العالم وقد تغير وأعيد تفسيره على أيدى أناس مثل فرويد ودارون ، عن التقدم الصناعى ، عن العبث واللامعنى الوجودي . إنها أدب التكنولوجيا »[2] . وفى الوقت نفسه هناك بعض التعريفات التى حاولت تضييق دائرة التعريف فوقعت فى التناقض الأصلي الناجم عن قصور التعريف عن تغطية جميع المتناقضات ، ونسوق مثالا لذلك :

ان الكلمة تحتفظ بقوتها بسبب ارتباطها بشعور معاصر مميز ، وهو شعور المؤرخ بأننا نعيش عصرا جديدا تماما وأن التاريخ المعاصر هو مصدر أهميتنا ، وأننا نأخذ لا من الماضي ولكن من البيئة أو السيناريو الذى يحيط بنا وأن الحداثة وعي جديد ، حالة جديدة للعقل البشري ، حالة استكشفها الفن الحديث وسبر أغوارها بل ثار عليها أحيانا[3] .

وهناك من التعريفات ما ينسحب على أكثر من عصر وأكثر من حداثة ، كقول ارفنج بابيت فى كتابه عن روسو والرومانسية (١٩١٩) بأن روح الحداثة « هى الروح الايجابية الناقدة ، الروح التى ترفض تقبل الأشياء على علاتها » . وهذا تعريف فضفاض ينسحب على عصر النهضة فى أوربا مثلا أكثر مما ينسحب على القرن العشرين . فجميع أعمال كرستوفر مارلو ، على سبيل المثال لا الحصر ، نتاج تلك الروح الجديدة التى وصلت إلى ذروتها فى القرن السادس عشر ، الروح الناقدة المتطلعة للمعرفة والتى ترفض تقبل الأشياء على علاتها .

أمام صعوبة الاتفاق على تعريف دقيق ، وعدم دقة التعريفات العامة يبقى أمامنا التعريف البسيط الذى

---

(١) الحداثة ، ص ٢٧
(٢) نفس المرجع
(٣) نفس المرجع ، ص ٢٢

يربط بين التحديث والحداثة ، التحديث بما يعنيه من تغيرات مادية وحضارية أدت إلى تغيرات فى العلاقات الإنسانية أدت بدورها إلى التأثير فى حساسية الأديب فأنتج أدبا حديثا أو أنتج حداثة . أى أن الحداثة « فى التحديث » .

ليس معنى ذلك كله أن الحداثة فى المتناقضات ، فهناك بعض الثوابت المتفق عليها فى مناقشة الحداثة ، وهى ثوابت تمثل عناصر أساسية فى مناقشة الحداثة فى المسرح عامة وفى المسرح العربى خاصة ومن أبرز هذه الثوابت ما يلى :

أولا : نسبية الحداثة . فلكي نحدد مكاننا فوق خريطة الحداثة ، وهى خريطة عالمية كما سنرى فيما بعد ، لابد أن نسلم بنسبية الحداثة ، وهى نسبية تحددها عناصر الزمان والمكان فما هو حديث بالنسبة لانجلترا القرن التاسع عشر ليس حديثا بالنسبة لانجلترا القرن العشرين . وماهو حديث بالنسبة لفرنسا قد لا يكون حديثا بالنسبة لبلد عربى .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن كلمة حداثة بالنسبة للناقد والشاعر الانجليزى ماثيو آرنولد حول منتصف القرن التاسع عشر كانت تعنى عناصر كلاسيكية صرفة كالتوازن والثقة والتسامح وحرية العقل فى حركته لاكتساب أفكار جديدة فى ظروف الرخاء المادي والاستعداد لتحكيم العقل والبحث عن قوانين الأشياء . بل إنه وصل إلى تحديد البديل الحتمي لغيبة الثقافة بأنه الفوضى ، فإما الثقافة أو الفوضى . بينما تعني كلمة حداثة الآن بالنسبة للمبدع الانجليزى الرفض الكامل للثقافة ، بل الفوضى والعدمية .

أما نسبية الحداثة واختلاف دلالتها من مكان إلى مكان فهذه حقيقة تؤكدها نظرة بسيطة إلى خريطة العالم وعلاقة جزئياته بمركز التغيير الذى اجتاح أوربا مع الثورة الصناعية . ولسنا بحاجة هنا إلى تأكيد ازدياد التأثر بالثورة الصناعية كلما اقتربنا من نقطة المركز لهذه الثورة فى أوربا وضعف التأثر أيضا كلما ابتعدنا عن نقطة المركز تلك . وقد لا يكون من قبيل المبالغة القول إن هذه قاعدة عامة لم تشذ عنها دولة من دول العالم بما فى ذلك الولايات المتحدة غربا واليابان شرقا ، فقد كان لبعدهما مكانيا عن بؤرة التأثير نتائج سلبية استطاعت الدولتان فى فترة لاحقة تعويضها . المهم أنهما ظلتا بعيدتين عن مركز التأثير لفترة طويلة .

وفى حالات أخرى كثيرة تدخلت عناصر سياسية واقتصادية فى تأخير وصول الثورة الصناعية إلى بعض بلدان العالم وخاصة ما نسمية الآن تأدبا دول العالم الثالث ، وأقصد هنا سيطرة بعض القوى العالمية الاستعمارية على مقدرات الدول الأصغر ، إما بجيوشها أو بسيطرتها الاقتصادية . وفى حالات أخرى تدخلت عناصر مكانية غير مشتركة كالثقافة والدين والعادات والتقاليد والتراث فى مقاومة التأثير من ناحية أو فى محاولة تغييره من ناحية أخرى .

إن أهمية هذه التغيرات أو ما سميناه بعملية التحديث المادي وما يتبعها من تغيرات فى العلاقات الإنسانية ثم فى الحساسية الإبداعية تكمن فى أن هذه المتغيرات هى التى تؤدى إلى الحداثة .

ولنأخذ مثالا واضحا على ذلك وهو ما يسمى أزمة الإنسان فى العصر الحديث ، لنرى كيف تختلف هذه الأزمة باختلاف المكان ثم كيف تؤدى بدورها إلى ناتج إبداعى لابد أن يكون مختلفا بالضرورة .

كان الإنسان فى السنوات الأولى من القرن العشرين قد وصل إلى منعطف خطير ، وقبل بداية الحرب العالمية الأولى كان لدى المثقفين الغربيين إحساس عام بأن عملية التحديث قد وصلت بالإنسان الأوربى إلى حافة الهاوية . ثم تكفلت حربان عالميتان طاحنتان بتأكيد الكارثة وأصبح إنسان أوربا فى أزمة حقيقية أو فى ورطة حضارية وثقافية . وقد تمثلت هذه الورطة فى التغيرات الجذرية التى حدثت فى العلاقات الانسانية من ناحية وفى القيم المعرفية من ناحية ثانية . ولست هنا فى مجال الحديث عن الورطة الأوربية بعد الحرب الثانية ، ولكن ما يهمنى فى هذا المجال أن هذه الورطة الحديثة ، وما ترتب عليها من تقليد إسقاط التقاليد[1] ، على حد قول هارولد روزنبرج ، أدت إلى ظهور مسرح العبث فى منتصف الخمسينات و لم يكن قد مضى على نهاية الحرب عشر سنوات بعد . كان تسلسل الأحداث منذ البداية إلى ظهور بيكيت ويونسكو وأداموف وديرغات وغيرهم منطقيا تماما ومتفقا مع ظروف المكان . وحينما حاول كاتب آخر كتوفيق الحكيم نقل تجربة مسرح العبث فشلت محاولاته فى مد جذورها فى التربة الجديدة لأن الرجل لم يدرك ساعتها على الأقل أن أزمة الانسان الغربى التى أدت إلى ظهور مسرح العبث غير أزمة الانسان المصري الثقافية . لم يأخذ توفيق الحكيم عامل المكان فى الاعتبار وهكذا ظلت « **ياطالع الشجرة** » رغم طرافتها تجربة وحيدة شبه لقيطة ، لأن مشاكل قصور اللغة عن التعبير وعزلة الإنسان الحديث وغربته ، وتمزقه الدائم بين الوهم والحقيقة ، وهى مفاتيح « **ياطالع الشجرة** » من ناحية القيمة والتكنيك كانت كلها مفاتيح مستعارة من تربة غير التربة وتعبر عن أزمة إنسان غير الإنسان المصري . ان ميتافيزيقيات مسرح العبث التى نقلها الحكيم من تربتها الأوربية تمثل بالنسبة للإنسان العربى ترفا لا يقدر عليه وسط مشاكل أكثر إلحاحا وأهمية ، فماذا يهمه من قصور اللغة عن التعبير عن القيم المعرفية المتغيرة بينما هو منهمك فى مشاكل حرية التعبير ؟ وماذا يهمه من ميتافيزيقية العلاقة بين الخالق والمخلوق إذا كان مشغولا بمناقشة العلاقة بين الحكام والمحكومين ؟ وماذا يهمه من غربة الإنسان فى العصر الحديث إذا كان مهموما بالنتائج المترتبة على الاستقلال السياسي والاقتصادي !

وهناك مثال آخر له دلالته فى تأكيد أهمية المكان فى علاقته بالحداثة ، ونقصد به سيطرة المدينة بصورتها الجديدة على الشعر والرواية الأوربية فى القرن العشرين . فقد أصبحت المدينة التجسيد الحي لكل المتغيرات التى ترتبت على عملية التحديث ، وهى تغيرات سيطرت على إنتاج الطبيعيين واستمرت معنا بصورة أو بأخرى بل وحتى العبثيين فى المسرح . لكن صورة المدنية الحديثة لم تكن حتى الآن صورة مسيطرة فى الشعر أو الرواية

(١) Harold Rosenberg, The Tradition of the New, New York: (Horizon, 1959), p. 81.

العربية . صحيح أنها تظهر فى أعمال بعض الشعراء المحدثين ولكنها لا تحتل مكان الصدارة الذى تحتله فى الشعر والرواية الغربية .

وتفسير ذلك قد يرجع إلى واحد من اثنين : إما أننا لم نصل فى مرحلة التحديث بمعناه المادي إلى نفس المرحلة التى أدت إلى ظهور المدينة بقيمها الجديدة فى أماكن أخرى من العالم أو أننا ، وبعد أن وصل الينا التحديث متأخرا ، تخطينا هذه المرحلة التى تمثل فيها المدينة الصورة الغالبة . ولست هنا فى مجال التباكي على غيبة صورة المدينة ، فإن تأخر وصولها نعمة ، وتخطيها أيضا بركة ، ولكننى أثير هذه النقطة لتأكيد نسبية الحداثة من مكان إلى مكان من ناحية ، ولألفت النظر إلى أننا يجب الا نسارع بالتباكي على غيبة الحداثة أو بإدانتها فى الأدب العربى حينما تختلف عنها فى الغرب . فغيابها كما قلت نعمة ، واختلافها عن المفهوم الغربى يؤكد أننا مازلنا نحتفظ بهوية قومية ثقافية خاصة بنا .

وفى المقابل فإن مكانا آخر كالولايات المتحدة الأمريكية لم يستغرق طويلا لكى ينبت مسرحا عبثيا خاصا به ، بدأ فى نفس الوقت تقريبا وانتهى أيضا فى الوقت الذى انتهى فيه تيار العبث فى أوربا . ومسرحيات ادوارد آلبى الذى بدأ الكتابة فى النصف الثاني من الخمسينات وسيطر على الحركة المسرحية طوال الستينات خير شاهد على ذلك . أى أن ظروف المكان هى التى تحدد العلاقة بين التحديث والحداثة .

ثانيا : أن الحداثة لها صفة الدولية ، فنحن حينما نتحدث عن روح العصر لانقصد مكانا محددا ضيقا يمثل روح العصر دون غيره ، وإنما ننظر إلى سكان العالم الذى نعرفه كوحدة واحدة ، فيها تنوع وتباين ، هذا صحيح ، لكنها وحدة رغم ذلك . ورغم ما قد يبدو من تعارض أو تناقض بين نسبية الحداثة ودوليتها الا أن هذا التعارض سطحي كما أن الفوارق بين بقعة وأخرى فى هذا العالم هى الفوارق التى تسمح بها معطيات المكان فقط والتى أشرنا اليها فى الحديث عن النسبية . ثم إن الحداثة بصفة عامة هى التعبير بأشكال أدبية وفنية جديدة عن التغيرات فى العلاقات الإنسانية التى تتبع التغيرات المادية أو التحديث . وأظن أنه لا اختلاف على أنه لا توجد حداثة دون تحديث وإن كان العكس ممكنا بالطبع . والتحديث الذى نتكلم عنه جميعا هو التغيرات العديدة التى طرأت على هذا العالم حضاريا بعد الثورة الصناعية . وإذا تصادف وجود بقعة ما معزولة ومجهولة على وجه الأرض لم تعرف التحديث الذى* جاء مع الثورة الصناعية والعلمية فإنها أيضا لا تعرف الحداثة بمعناها أو معانيها التى ذكرناها .

ثالثا : أن الحداثة قد تعنى التعبير عن التغيرات الجديدة بأشكال فنية جديدة أو بمضامين إنسانية جديدة أو بالاثنين معا . ينطبق هذا على كاتب واقعي مثل ابسن بنفس القدر الذى ينطبق به على كاتب عبثى مثل بيكيت .

---

* لا يستطيع الانسان أن ينكر أن هناك معالجات سيطرت فيها صورة المدنية الحديثة عند كتاب كالطيب صالح ويوسف أدريس وصلاح عبد الصبور ، ولكن المدنية الحديثة بمفهومها الأوربى ليست صورة مسيطرة فى أشكال التعبير العربية .

فإذا كانت الحداثة فى المسرح الأوربى بل العالمي الحديث ترتبط بابسن فإن مسرحه يجيء نموذجا مبكرا ومتكاملا للحداثة شكلا ومضمونا فى الربع الأخير من القرن الماضي ، وهذه حقيقة يؤكدها مؤرخو المسرح فيما يشبه الإجماع .

يقول جون فليتشر وجيمس ماكفرلين :

ترجع أصول الحداثة إلى عاملين متزامنين ، عامل خاص بالمادة والتيمة وآخر خاص بالشكل واللغة . فيم يختص بالمادة فقد اتجه المسرح فى الثمانينيات والتسعينيات إلى المشاكل المعاصرة ، واتجه فى الشكل إلى استكشاف إمكانات النثر كلغة للمسرح[1] .

وهو ترديد حرفى لمقولة سابقة لناقد انجليزى هو كينيث موير الذى يعتقد أن « أهم حدث فى تاريخ الدراما الحديثة هو تخلي ابسن عن الشعر بعد مسرحية بيرجنت (الشعرية) لكي يكتب مسرحيات نثرية عن المشاكل المعاصرة »[2] .

والواقع أن هذه الحقيقة تفسر إلى حد كبير ظاهرة الحداثة الشكلية التى طرأت على الأشكال الفنية فى بعض البلدان العربية دون أن تسبقها تغيرات فى العلاقات أو الأطر الإنسانية ، اجتماعية كانت أم اقتصادية . فإذا كانت نتائج التحديث لم تصل بكل سلبياتها حتى الآن إلى مناطق كثيرة فى العالم العربي فإننا ومنذ بداية القرن العشرين على الأقل لم نعد قادرين على الانفصال عن المتغيرات الثقافية فى أوربا . فقد تكفلت أدوات الاتصال الحديثة المذهلة بتعريف المثقف العربي بالتجديدات الشكلية التى طرأت على ألوان الإبداع الغربى فى الرواية والشعر والمسرح فتبناها وحاكاها ، وفى أحيان كثيرة نجح فى تطويعها لمعطيات عربية فى المضمون ظلت حتى الآن بعيدة عن تأثير التحديث الغربى .

اما الاتجاه الثالث للحداثة فهو الاتجاه الذى يرحب بكل نتائج التحديث ويؤمن بضرورة أن نفتح أعيننا على الحياة التى نعيشها ، وأن نعبر الخطوط الفاصلة لنغلق الثغرات بين التغيرات الإنسانية الجديدة والأشكال الابداعية ، مما يترتب عليه كسر الحواجز التقليدية بين الفن والأنشطة الانسانية الأخرى بما فى ذلك التكنولوجيا الصناعية والسياسية والموضة[3] . وهذا الاتجاه كان وراء ظهور الواقعية الاشتراكية فى النقد والأدب والملحمية فى المسرح .

فاذا انتقلنا إلى الحداثة فى المسرح العالمى وجدنا أن دلالات اللفظة أكثر تشابكا وأكثر تعقيدا منها فى مجالي الشعر والرواية ، فالحداثة داخل لون واحد من ألوان التعبير الأدائى وهو المسرح تغطي ، كما سبق أن أشرنا ، تيارات تبدأ بواقعية ابسن وتنتهى بعبثية بيكيت ويونسكو وأداموف وغيرهم ومابين النقيضين من تعبيرية ورمزية

(١) John Fletcher and James McFarlane, "Modernist Drama : Origins and Patterns", in Modernism.

(٢) Kenneth Muir, "Verse and Prose", in Contemporary Theatre, Stratford upon Avon Stuies, No. 4 (London 1962), p.97.

(٣) أنظر ص ٣٠ All That is Solid Melts Into Air,

وملحمية . وقد بينا فى موضع سابق أن سبب ذلك ونتيجته فى نفس الوقت أن الحداثة بمعنى فن التحديث شملت أمور الشكل والمضمون ولم تقتصر أبدا على أحداهما . من هنا يتميز وصف برخت للحداثة فى المسرح بأنها « إضفاء الشكل المسرحى على مشاكل العصر » بأنه تعريف فضفاض ودقيق فى نفس الوقت يسمح بدخول جميع التناقضات تحت مظلته .

وتحت هذه المظلة الواسعة للحداثة فى المسرح نستطيع التعرف على بعض الخصائص المشتركة التى تقرب المتناقضات وتضيق الثغرات .

أول هذه العناصر المشتركة هو دخول الكاتب المسرحي دائرة المشاكل المعاصرة . وقد سبق أن أشرنا إلى أن ابسن بدأ عصر الحداثة حينما تحول إلى مشاكل العصر ليعبر عنها بلغة نثرية فى المسرح . ورغم تغير ظروف الزمان والمكان فما زالت بعض المشاكل المعاصرة آنذاك معاصرة أيضا الآن ، مثل دور المرأة فى المجتمع كما فى رائعته **بيت الدمية** والصدام بين الأجيال وكما فى **البناء العظيم** وسيطرة القيم المادية وأخطار التلوث فى **عدو الشعب**. وقد ساعد ابسن فى تناوله لمشاكل عصره معايشته الكاملة لمشاكل ذلك العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أثناء فترة نفي اختياري جاب فيها أوربا لما يقرب من ثلاثين عاما وعايش مشاكلها عن كثب .

ويؤكد سترندبرج نفس المقولة حينما يؤكد العلاقة بين شخصياته والواقع فى مقدمة مسرحيته المعروفة **الآنسة جوليا** : « لما كانت هذه الشخصيات تعيش فى عصر انتقال ، عصر أكثر هستيرية على أية حال من العصر الذى سبقه ، فقد صورتها شخصيات متأرجحة تعانى من الانفصام ... خليطا من الماضي والحاضر ... قصاصات من الكتب والصحف اليومية » . وحتى حينما يتحرك كتاب الواقعية والطبيعية فى المسرح إلى التعبيرية ، كما فعل سترندبرج بصورة قاطعة وكما فعل ابسن إلى حد ما ، فإن هذا التحول كان انتقالا من المشاكل الواقعية على المستوى المادي الصرف إلى الواقع النفسي الداخلي للشخصيات تحت تأثير الاهتمامات الجديدة آنذاك بعلم النفس ، وربما كان هذا هو الفارق الأساسى بين الواقعية و التعبيرية .

عنصر الاشتراك الثانى عند كتاب المسرح الذين جمعهم تعريف برخت تحت مظلته حينما عرف الحداثة بأنها « إضفاء الشكل المسرحى على مشاكل العصر » هو رفضهم لهذا الواقع وتمردهم على الورطة التى أوصلتهم اليها المدنية الحديثة قبل وبين وبعد الحربين العالميتين . وفى تمرد كاتب المسرح الحديث على الواقع ارتد إلى أردية الماضي يجربها واحدا بعد الآخر ، وهو عنصر يشترك فيه الكتاب فى أكثر مناطق العالم ، المتقدم منه وغير المتقدم ، فى الدول الكبرى والصغرى على السواء وان كانت الأسباب متباينة ومختلفة كما سيوضح فيما بعد فى حديثنا عن المسرح العربى . وقد كان نيتشه المفكر الألمانى أول من أكد هذه الحيقة فى بداية مايسمى تاريخيا بعصر الحداثة .

فقد كتب فى عام ١٨٨٢ قائلا بأن الفنان الحديث يلقي بنفسه فى أحضان الماضي « لأنه يحتاج التاريخ باعتباره المخزن الذى تحفظ فيه كل الأزياء . ويلاحظ الفنان أنه لا يوجد زي يناسبه ... فيستمر فى تجربة زي آخر وآخر[٢٣] » وحينما يدرك أنه لا يوجد الزي المناسب يتقبل كل الأزياء فى سعادة .

فإذا انتقلنا إلى المسرح العربي والحداثة فى محاولة لإلقاء الضوء على العلاقة بينهما فلا بد أن نضع فى اعتبارنا الظروف التى عاشها المجتمع العربى بصفة عامة فى القرن العشرين ومدى عمق التغيرات التى يمكن أن تكون قد ترتبت على التحديث الحضارى إن وجد ، أى لابد من محاولة لتحديد معطيات الواقع الذى عاشه الفنان ، وفى الوقت نفسه لابد من النظرة إلى ظاهرة العودة إلى التاريخ التى تتكرر عند الكثيرين من كتاب المسرح العربي الحديث ببعض الموضوعية ، دون أن نثب إلى نتائج متسرعة تنادى بحداثة المؤلف العربى . أما العنصر الأخير ، الذى لا يقل أهمية عن العنصرين السابقين ، فهو قصر عمر المسرح العربى أصلا ، وهو عنصر لابد أن نأخذه فى الاعتبار قبل الجري وراء شعارات الحداثة .

إن الحداثة الغربية تقع عادة بين ١٨٨٠ و ١٩٣٠ على وجه التقريب ، ولا يهم بالطبع ان زادت التواريخ أو نقصت بضع سنوات لكن المهم أن المسرح العربى فى هذه الفترة لم يكن موجودا بعد . أنا لا أتحدث هنا عن المحاولات المبكرة لتقديم المسرح فى مصر منذ منتصف القرن التاسع عشر ، فهى لم تتعد محاولات لتقديم المسرح كفن فرجة غربي فى رداء عربي شفاف ، ولكننا نتحدث عن المسرح حينما تصبح هناك حركة مسرحية عربية خالصة تقدم الكاتب العربى والفنان العربي . وفى عام ١٩٣٠ كان الحكيم مازال فى خطواته الأولى نحو تقديم نص عربى خالص ، وليس مجرد تعريب أو اقتباس أو نحت لنصوص أوربية ، أي أن المسرح حينما ظهر فى مصر كانت الحداثة قد بدأت وانتهت بالفعل . ليس معنى ذلك بالطبع أننا لم نأخذ بالحداثة لأننا بدأنا متأخرين ، لكن الحقيقة أن الحكيم وغيره فى هذه المرحلة المبكرة انشغلوا بمحاولات إيجاد التربة المناسبة للفن الجديد الوافد وانهمكوا فى غرس جذوره فى التربة الجديدة العربية . وكان من المنطقي إلى حد كبير أن تكون الحداثة باعتبارها فن التحديث آخر ما يفكر فيه هؤلاء الرواد الأوائل ، وليس من المنطقى أن نتحدث عن تجريب فى الشكل كالتعبيرية أو السيريالية أو الملحمية أو العبثية فى وقت كان هؤلاء الرواد منهمكين فى تعريف المتفرج العربي بأبسط أشكال الواقعية .

ولنعد بعد هذا إلى الواقع العربي ومدى التحديث الذى طرأ عليه حتى يمكن تحديد العلاقة بين فن المسرح وعملية التحديث إن سلبا أو إيجابا . وقد أشرنا منذ البداية إلى أن التحديث الذى نقصده هو الثورة الصناعية التى غيرت فى العلاقات الانسانية بعد أن تغيرت أنماط تقليدية كثيرة فى حياة الشعوب . أما العالم العربي فقد كان كله تقريبا فى بداية القرن العشرين يرزح تحت حكم الاستعمار الأجنبي المباشر ، وهكذا كانت الثورة الصناعية بعيدة عن قاموس حياتنا الاقتصادية والاجتماعية ، بعد أن كانت القوى الاستعمارية الكبرى قد نجحت فى مرحلة مبكرة فى خنق حركة التصنيع فى مصر قبل منتصف القرن التاسع عشر حينما أصبحت قوة محمد على تمثل تهديدا مباشرا لمطامعها فى العالم العربي . وهكذا كانت قضايانا الأساسية فى هذه المنطقة من العالم تصب فى القضية

الأساسية وهى تحقيق الاستقلال السياسي ، وحينما تحقق الاستقلال السياسي انشغلنا بعد ذلك بقضايا حرية التعبير . وهكذا كانت مفردات الحداثة الغربية المألوفة كحافة الهاوية وأزمة الحضارة ، والكارثة ، وورطة الانسان المعاصر والرفض الكامل للحضارة وما أوصلتنا اليه ، كانت كلها مفردات غربية حلت محلها مفردات الاستقلال التام أو الموت الزؤام وحرية التعبير والديمقراطية . ولهذا فشل الحكيم فى أن يغرس مسرح العبث فى التربة العربية لأن العبث كان نتاج حساسية مختلفة وواقع مختلف .

وفى رأيي أن توفيق الحكيم فاتتة فرصة مبكرة فى الربط بين المسرح والواقع العربى ، إذ أن بعض معرفي الحداثة يقولون بأنها إضفاء الشكل الفني على مشاكل العصر ، وضمن المشاكل المترتبة على التحديث المادي ظهور دول كبرى قامت على مبادىء القومية ، وهى دول تحولت بطريقة حتمية إلى دول استعمارية . وكان لابد للدول الصغيرة وشعوبها من الكفاح للسيطرة على مقدراتها السياسية والاقتصادية ، وتحقيق الاستقلال والحرية والديمقراطية . هذا جزء من الواقع العربي الذى وجده توفيق الحكيم أمامه فى أوائل العشرينيات . بل إنه فعلا استجاب لإغراء ذلك الواقع وكتب مسرحيتين ظل حتى وفاته يخجل منهما ، وهما « **الضيف الثقيل** » (١٩١٩) عن المستعمر الأجنبى « **والمرأة الجديدة** » (١٩٢٣) التى أخفاها حتى الآن . ثم حدث بعد هذه البداية المبكرة أن سافر إلى فرنسا للدراسة ليعود إلى مصر وقد تحولت دائرة اهتماماته الفنية وزاوية تعامله مع الواقع تحولا جذريا . وتلك فى الواقع علامة الاستفهام الكبرى فى فن الحكيم المسرحي ، فقد عاد الرجل وقد آلى على نفسه أن يبتعد عن السياسة والتحولات الجادة حتى ولو كانت مجرد تحولات اجتماعية ، هذا إذا استثنينا رائعته السياسية « **السلطان الحائر** » ، وان كانت السياسة فيها قد تهم سكان المريخ بقدر ما تهم سكان العالم العربي . صحيح أن عملية التنوير ضرورة ، وصحيح أن التحولات الاجتماعية كانت حادة فى فترة نشاط الحكيم منذ الثلاثينات حتى أوائل الستينات ، ولكنها كلها كانت تأتى فى مرتبة ثانية بعد الاهتمامات السياسية ومشاكل الحرية والديمقراطية قبل الاستقلال وبعده ، وجميعها مشاكل واهتمامات اختار الحكيم أن يتجاهلها إلا فى القليل النادر ، وحينما كان يدخل دائرة السياسة كان يدخلها فى خوف واستحياء شديدين . وما على القارىء الا أن يقرأ أشهر أعماله **كأوديب** ، **وأيزيس** ، **وبيجماليون ولعبة الموت ورحلة الغد** ، **والطعام لكل فم وياطالع الشجرة** ليدرك أن الحكيم قد اختار عالم الفكر والجدل دائرة لحركته . وهو اختيار أعتقد أنه أبعد الحكيم عن واقعه العربي الأكثر الحاحا طوال حياته الحافلة وجعله يبدو وكأنه يعيش وسط فراغ لا علاقة له بالواقع من حوله .

ومع التأكيد على الدور الرائد الذى قام به توفيق الحكيم فى تعريف المتفرج العربى بالشكل المسرحى الجاد ، الا أن الرجل بدأ وانتهى بعيدا عن التجريب فى الشكل الدرامي ، لقد استعار الشكل الفرنسي أو توصل فى الواقع إلى تركيبة فرنسية تجمع بين بعض خصائص مسرح جان أنوى وبعض نقائص مسرح الكلاسيكيين الجدد مثل كورنى وراسين من الميل إلى السرد والجملة الحوارية الطويلة التى لا تصل كثيراً إلى الموقف الدرامى ، بل إن لغة المسرح التى استخدمها أو ما سماه باللغة الثالثة جاءت هى الأخرى غريبة على الفصحى والعامية على السواء . وهو بهذا أدان الفصحى باعتبارها لغة غير درامية وفشل فى إيجاد بديل مقنع .

لكن كتاب المسرح أو الجيل الثانى* منهم على الأقل اختاروا إقامة الجسور القوية مع الواقع ، وهو واقع قلنا إن الاهتمامات السياسية كانت تمثل أكثر مشاكله إلحاحا ، ولهذا جاء كتاب الجيل الثانى أكثر حداثة من الحكيم فى تركيزهم على علاقة الحاكم بالمحكومين . يتفق فى هذا كتاب المسرحين الشعري والنثري على السواء مثل عبد الرحمن الشرقاوى وصلاح عبد الصبور فى المسرح الشعري ، ورشاد رشدى فى بعض أعماله وسعد الدين وهبه والفريد فرج ومحمود دياب ونجيب سرور ، بل حتى نعمان عاشور الذى انشغل منذ البداية فى التركيز على تأثير التغيرات السياسية الجذرية على العلاقات الاجتماعية سواء فى مرحلة التنبؤ بالثورة أو فى مرحلة الحماس لها أو فى المرحلة الأخيرة ، مرحلة الإحباط وضياع الحلم .

وعلى يد هذا الجيل تحقق الشرط الثاني للحداثة وهو العودة للمادة التاريخية والأسطورية ، مثل أساطير أوديب وأوزوريس وسير الهلالية والسيد البدوى ، والتاريخ العربي والمصري فى أكثر من مرحلة ، بالاضافة إلى المادة دائمة الإغراء وهى قصص ألف ليلة وليلة . لكن الهروب إلى التاريخ ليس هروب الكاتب الحديث فى رفضه لعالم يقترب من الهاوية وهروبا من قدر إنسان فى ورطة لا مخرج منها . إن العودة إلى الماضى لا تعني البحث عن الأنماط أو القوانين المنظمة للسلوك فى عالم سادته الفوضى الثقافية والاخلاقية ، ولكنها فى المسرح العربي دون بقية الأشكال الأدبية والفنية هروب من سلطة الرقابة السياسية التى تلجىء الفنان إلى أبعاد مقولته السياسية فى الزمان والمكان ليقدم مادة تاريخية موازية لرؤياه الحديثة ، أى أنه فى الواقع لايعود للماضى بحثا عن نمط أقل فوضى من عالمه الحديث كما يرى منظرو الحداثة وفلاسفتها ، بل بحثا عن عالم مشابه لعالمه أو أكثر منه فوضى . وفى تصويره لهذا العالم التاريخي أو الأسطوري يقدم نقده للواقع السياسي المعاصر فى ذكاء .

لكن إشكالية المسرح السياسى العربى ، سواء أكان مسرحا سياسيا مباشرا أو مسرح إسقاط سياسي تتمثل فى مفارقة مقلقة وهى أنه كلما اقترب الكاتب المسرحي من واقعه السياسى ابتعد عن مقتضيات الدراما ، وكلما زادت جرأته السياسية ضحى بنصيب أكبر من الفن ، لأن الكاتب يجد نفسه فى مواجهة متفرج غير مبال أو مكترث ، متفرج غليظ الحس أحيانا ، فيلجأ إلى التصريح لا التلميح ، وهنا يقع فى فخ المباشرة والخطابية اللتين تتنافيان مع طبيعة المسرح .

نحن لا نندب غياب الحداثة بمعناها الأوربى فى الفن المسرحى ، فربما كان ذلك نعمة تؤكد أن مجتمعاتنا لم تدخل دائرة التغيرات المادية المدمرة بعد ، لكننا فى الوقت نفسه ننادي بارتباط أكثر للفن المسرحي بالواقع العربي ، وإذا كنا قد استعرنا الشكل المسرحي بسبب ضرورة تاريخية جعلتنا نبدأ مسرحنا بعد أن كان القالب المسرحي العالمي قد وصل إلى درجة الكمال بعد خمسة وعشرين قرنا من التجريب ، فليس معنى ذلك استعارة المضامين أيضا ، لابد أن تكون الحساسية المسرحية عربية ناتجة عن تجربة عربية كاملة .

---

* قررت التوقف عند كتاب الجيل الثانى إذ أن كتاب الجيل الثالث ينتشرون منذ أواخر الستينيات حتى الآن فى طول العالم العربى وعرضه : فى المغرب العربى فى شمال أفريقيا وفى سوريا والعراق وبعض دول الخليج ، وهم كتاب مسرح سياسي فى المقام الأول ويؤكدون المقولة الأساسية هنا ، وهى أن المسرح السياسي أكثر أشكال الكتابة المسرحية اقترابا من الحداثة بمفهومها الغربى ، ثم أن هذا الجيل ، بسبب ما يمثله إنتاجه من أهمية وحساسية بالغة ، يحتاج لدراسة مستقلة .

الموقف النقدي من الشعر الإسلامي في عصر المخضرمين

د. طيبة البودي

قسم اللغة العربية – جامعة الكويت

الإسلام والشعر :

الشعر هو علم العرب المسجل لأيامهم ووقائعهم وأنسابهم وأحسابهم وقيمهم والمجدد لآمالهم وأفكارهم . وهو ما سجله ابن سلام منذ وقت مبكر حين قال :

« وكان الشعر فى الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حكمهم به يأخذون وإليه يصيرون »[1] .

والشعر مقوم من مقومات « الرجل المثالى عند العرب فالرجل الكامل فى نظرهم هو « الذى يكتب ويحسن الرمى ويحسن العلوم ويقول الشعر »[2] .

وكانت أسمى أوسمة الشرف التى يخفيها المجتمع الجاهلى على أحد أفراده أن ينعته بأنه شاعر فارس[3] ومن هنا كانت أهمية الشاعر فى المجتمع الجاهلى فقد « كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس ويتباشر الرجال والولدان »[4] .

وكان الشعر يرفع من مكانة صاحبه ويخلده : يقول دعبل الخزاعى :

يموت ردىء الشعر من قبل أهله
وجيده يبقى وإن مات قائله

---

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ / ٢٤ وانظر أيضاً الحيوان ١ / ٧١ وكتاب الصناعتين ١٠٤ وتأويل مشكل القرآن ١٤ .

(٢) عيون الأخبار ٢ / ١٦٨ .

(٣) يوسف خليف ، دراسات فى الشعر الجاهلى ١٧٤ .

(٤) العمدة ١ / ٦٥ .

ولذلك فقد نهوا عن التعرض للشعراء بسوء خشية ألسنتهم . قالوا : « لا ينبغى لعاقل أن يتعرض لشاعر فربما كلمة جرت على لسانه فصارت مثلا آخر الأبد »[1] .

وهناك أخبار كثيرة تدل على أن العرب كانوا يقدسون الشعر . ويعتقدون أن هذا التقديس مستمد من أصله الدينى ولذا كانوا ينشدونه على موتاهم[2] .

وفى رأى بروكلمان أن موضوعات الشعر الجاهلى تطورت من أدعية وتعويذات وابتهالات للآلهة إلى موضوعات مستقلة[3] .

وفى المصادر الأدبية الكثير من الأخبار التى تبين ما كان يحظى به الشعراء من مكانة رفيعة فى هذا المجتمع[4] .

بعد هذا العرض الموجز لأهمية الشعر والشاعر فى المجتمع العربى القديم لابد لنا من وقفة عند قضية من القضايا الأدبية الكبرى التى شغلت الباحثين ، وكثر حديثهم عنها قديما وحديثا وهى قضية :

الإســلام والشعــر :

فمما لاشك فيه أن الإسلام الذى بعث به الرسول الكريم ما هو إلا هدى ورحمة للناس أجمعين فقد أخرجهم من ظلمات الجاهلية وضلالتها وجعل أشعته النيرة تتسرب إلى العقول والقلوب ، فغير كثيرا مما ألفه الجاهليون واعتادوا عليه فعلا وسلوكا ، وجاء بمثل وقيم ومبادىء جديدة ، وجعل للحياة ضوابط ومقاييس جديدة . وكان الشعر من جوانب الحياة التى تأثرت بالإسلام تأثرا واضحا بارزا من حيث الشكل والمعنى ومن حيث اتجاهاته وموضوعاته »[5] .

وترجع بداية هذه القضية إلى :

موقف القرآن الكريم من الشعر :

وقد ورد الحديث عن الشعر والشعراء فى القرآن الكريم فى ستة مواضع . ووردت كلمة « شعر » مرة واحدة فى موضع واحد فى سورة يس فى قوله تعالى : ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغى له ، إن هو إلا ذكر وقرآن

---

(١) الممتع فى علم الشعر وعمله ٢٧٩ .

(٢) ينظر الفهرست ١٣٨ .

(٣) تاريخ الأدب العربى ١ / ٤٤ وما بعدها وانظر العصر الجاهلى للدكتور شوقى ضيف ١٩٦ وما بعدها .

(٤) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٠ ومصادر الشعر الجاهلى للدكتور ناصر الدين الأسد ص ١١٣ .

(٥) سحيى الجبورى - شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ٣٩ .

مبين ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ﴾[1] . وليس فى الآية الكريمة ما يقلل من قيمة الشعر من حيث هو فن من فنون القول عرف به العرب ، واشتهروا به وإنما هى تأكيد من الله سبحانه وتعالى بأن القرآن الكريم وحى من الله نزل على قلب الرسول الكريم وتنزيه له صلوات الله عليه من أن يكون شاعرا .

ووردت كلمة « شاعر » فى أربعة مواضع من الكتاب الكريم ، وردت فى سورة « الصافات » فى قوله تعالى ﴿ ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون ﴾[2] .

ووردت فى سورة الأنبياء حيث يقول سبحانه :

﴿ بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه ، بل هو شاعر ﴾[3] .

ووردت فى قوله تعالى فى سورة الطور ﴿ أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون ﴾[4] .

ووردت فى سورة الحاقة ﴿ وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ﴾[5] .

ويرى بعض المفسرين المحدثين أن وصف الرسول الكريم بالشعر إنما كان طرفا من حرب الدعاية التى شنها المشركون على الدين الجديد وصاحبه فى بداية الدعوة الإسلامية « معتمدين فيها على جمال النسق القرآنى المؤثر الذى قد يجعل الجماهير تخلط بينه وبين الشعر إذا وجهت هذا التوجيه »[6] .

ووردت كلمة « الشعراء » فى موضع واحد فى سورة « الشعراء » . يقول تبارك وتعالى :

﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴾[7] .

وقيل إنه بعد أن نزلت هذه الآيات الكريمة توجه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم يبكون وقالوا له : قد علم الله حين أنزل هذه الآية إنا شعراء ، فتلا النبى ﷺ قوله تعالى بعدها : ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ . قال أنتم ﴿ وذكروا الله كثيرا ﴾ . قال أنتم ﴿ وانتصروا من بعد ما ظلموا ﴾ قال أنتم »[8] .

---

(١) سورة يس آية ٦٩ - ٧٠ .
(٢) سورة الصافات آية ٣٦ .
(٣) سورة الأنبياء آية ٥ .
(٤) سورة الطور آية ٣٠ .
(٥) سورة الحاقة آية ٤١ .
(٦) سيد قطب - فى ظلال القرآن ٢٣ - ٢٤
(٧) الشعراء آية ٢٢٤ - ٢٢٦ .
(٨) تفسير ابن كثير ٦ / ١٨٦ .

وواضح من هذه الآيات أن القرآن الكريم إنما يهاجم شعراء المشركين الذين كانوا يهجون الرسول الكريم ويهاجمون الإسلام . فهى ليست حكما عاما على الشعراء جميعا بدليل ذلك الاستثناء الذى تختم به والذى يستثنى فيه القرآن الشعراء المؤمنين حيث يقول جل شأنه ﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾[1] .

فموقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء واضح كل الوضوح فى هذه الآيات فقد حارب كل من استغل شعره فى التطاول على الدين الحنيف وجعل غايته النيل منه ومن رسوله الكريم ، أما من شرح الله قلبه للإيمان ، وسخر موهبته للدفاع والذود عن هذا الدين ورسوله الأمين فقد أيده الله وباركه رسوله .

والأمر الذى يتفق عليه المفسرون أن هذه الآيات مرتبطة بالمعركة الهجائية التى كانت تدور بين شعراء المسلمين وشعراء مكة المشركين ومن التف حولهم من شعراء القبائل ولذلك « لا يصح أن تفهم على إطلاقها وإنما يجب أن تفسر فى ضوء أسباب نزولها »[2] .

فالمسألة إذن ترجع إلى ما يتناوله الشعراء من المعانى والأفكار وليست فى الشعر الذى هو مفخرة العرب على مر الأيام والعصور .

« ومعنى هذا أن الإسلام برىء من تلك التهمة التى وجهت إليه ، فهو لم يقلم أظفار الشعراء ولم يقف فى طريق الشعر الذى كان مفخرة من مفاخر العرب ، وإنما قلم أظفار الشر فى المجتمع العربى ومعها أظفار الشعر الذى يدور حول الشر ويتصل به »[3] .

وترجع القضية من ناحية أخرى إلى موقف الرسول ﷺ من الشعر .

ولد الرسول الكريم ونشأ بين قوم عرفوا بالفصاحة والبيان واشتهروا بالشعر الذى هو علمهم الوحيد الذى به يفخرون ، فلا عجب إذن أن ينشأ ﷺ ذواقا لهذا الفن بما وهبه الله من روح شفافة سامية تنشد الحق والخير والجمال فى القول والعمل ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ ﴾[4] .

ونحن نعرف أنه كان له تقييم بالنسبة لشعرائه الذين وقفوا يجاهدون بألسنتهم من أجل نصرة الدين الجديد فمن أقواله :

---

(١) الشعراء آية ٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٢) يوسف خليف – تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى ١٤ – ١٥ .

(٣) السابق ١٥ .

(٤) سورة الكهف آية ١١٠ .

« أمرت عبد الله بن رواحة بهجاء قريش فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى »[1] .

ومعنى هذا أنه كان قادرا على تقييم الشعر والشعراء ويدخل فى هذا أنه لم يطلب من على بن أبى طالب أن يدخل مع المشركين فى معركة الهجاء وذلك لأنه كان يعرف قدراته الفنية .

وكان عليه السلام يحسن الإصغاء إلى الخنساء ويقول لها : إيه يا خنساء ، ويروى أنه عليه السلام استنشد قصيدة قيس بن الخطيم فلما وصل المنشد إلى قول الشاعر :

أجالدهم يوم الحديقة حاسرا كأن يدى بالسيف مخراق لاعب

قال : هل كان كما ذكر ؟ فلما قيل له : نعم ، شهد له[2] .

ومعنى هذا أن الرسول كان يتعامل مع عامل الصدق فى الشعر كميزان مقدم من موازين الشعر ، وقريب من هنا ما يروى من أن حسان بن ثابت وصف نفسه بالشجاعة فما كان من الرسول عليه الصلاة والسلام إلا أن ضحك ؛ لأنه كان يعرف أنه غير محارب[3] .

ومن المعروف أنه أحسن الاستماع كأروع ما يكون الاستماع لكعب بن زهير وهو ينشد قصيدته المشهورة :

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول متيم إثرها لم يُفد مكبول

مع أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أهدر دمه من قبل ، وقد روى عنه ﷺ أنه ذم الشعر وحمل على الشعراء وهون من أقدارهم فى أحاديث اتخذها بعض النقاد دليلا على أن النبى كان يعادى الشعر والشعراء . فقد روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يراه خير من أن يمتلىء شعرا[4] .

وقوله : « من قال فى الإسلام هجاء مقذعا فلسانه هدر »[5] .

وقوله : « اللهم من هجانى فالعنه مكان كل هجاء هجانيه لعنة »[6] .

وقوله عن امرىء القيس :

---

(١) الأغانى ٤ / ١٤٢ .

(٢) الأغانى ٨ / ٣٠٧ .

(٣) السابق ٤ / ١٦٦ .

(٤) العمدة ١ / ٣١ - ٣٢ .

(٥) السابق ٢ / ١٧٠ .

(٦) الأغانى ط دار الكتب ٢ / ١٨٥ .

« ذاك رجل مذكور فى الدنيا ، منسى فى الآخرة ، شريف فى الدنيا ، خامل فى الآخرة يجىء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار »[1] .

فهو ﷺ فى هذه الأحاديث يتوعد الشعراء الهجائيين الذين ينهشون أعراض الناس بالباطل وينهجون النهج الجاهلى فى المدح والهجاء .

أما حديثه ﷺ عن الشعر فقد استشهد به هؤلاء ناقصا ، وهناك رواية أخرى لهذا الحديث الشريف تضيف إليه ما يوجهه توجيها آخر وهى قوله ﷺ :

« لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحا حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعرا هجيت به »[2] .

وهى رواية تحدد الموقف تحديدا آخر فالرسول الكريم يهاجم ويذم الشعر الذى هجى به شخصيا لأنه نبى الأمة الإسلامية ورسولها الأمين الذى يحمل رسالة ربه إليها ، والذى كان حريصا على أن تؤمن بها ، وقد وصفه الله تعالى بذلك حيث قال سبحانه ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[3] .

ويفسر « ابن رشيق » الحديث الشريف بأن المقصود به « هو غلب الشعر على قلبه وملك نفسه حتى شغله عن دينه ، وإقامة فروضه ومنعه عن ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن »[4] . وهذه الأحاديث قليلة إذا قيست بأحاديثه التى فيها تنويه بالشعر والشعراء . فقد كان صلوات الله عليه يقدر الشعر الجيد ويثنى عليه نظرا لأثره الكبير فى نفوس العرب وأفئدتهم . قال ﷺ « لا تدع العرب الشعر حتى تدع الإبل الحنين »[5] .

كما روى عنه ﷺ أنه قال : « إنما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيث وطيب »[6] .

وكان ﷺ يوجه الشعراء إلى الحسن من الكلام فيقول : « إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه »[7] .

وقد وصلت إلينا أحاديث كثيرة عن سماعه ﷺ للشعر وإعجابه به وإثابة قائله . وقد علق على أبيات العلاء بن الحضرمى التى يقول فيها :

---

(١) العقد الفريد ٣ / ٩٣ .
(٢) العمدة ١ / ٣١ - ٣٢ .
(٣) سورة التوبة الآية ١٢٨ .
(٤) العمدة ١ / ٣٢ .
(٥) السابق ١ / ٣٠ .
(٦) العمدة ١ / ٢٧ .
(٧) العمدة ١ / ٢٧ .

وحى ذوى الأضغاان تسب قلوبهم　　تحيتك القربى فقد ترقع النعل
وإن دحسوا بالكره فاعف تكرما　　وإن خنسوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذى يؤذيك منه سماعه　　وإن الذى قالوا وراءك لم يقل[1]

بقوله : « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكما أو حكمة »[2] .

لقد أباح ﷺ نظم الشعر وجالس الشعراء واستمع إلى ما ينشدون من شعر أو ما يروون من أشعار الجاهليين ، وكان يبدى إعجابه بالشعر الذى يحث على الفضيلة وعلى مكارم الأخلاق ، فقد أعجب صلوات الله عليه بقول عنترة المشهور :

ولقد أبيت على الطوى وأظله　　حتى أنال به كريم المأكل

فقال صلوات الله عليه « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة »[3] .

يقول صاحب الجمهرة « ولم يزل النبى ﷺ يعجبه الشعر ويمدح به فيثيب عليه ويقول هو ديوان العرب »[4] .

ويقول الخليل بن أحمد الفراهيدى :

« كان الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام »[5] .

ولعل موقفه من شعراء المدينة الذين انتدبهم للرد على شعراء مكة المشركين أكبر دليل على تشجيعه للشعر وإكرامه للشعراء . يروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « ان النبى ﷺ بنى لحسان بن ثابت فى المسجد مبرا ينشد عليه الشعر »[6] وزوجه من « سيرين » أخت « مارية » زوجته الكريمة تعظيما لفضله.وتقديرا لدوره فى دفاعه عن الدين الحنيف وهجاء المشركين ولهذا كان النبى ﷺ « يقسم له فى الغنائم بعد عودته من الغزوات كأى محارب شارك فيها بسيفه »[7] .

ولعل موقف الرسول الكريم من كعب بن زهير عندما جاء معتذرا عما بدر منه من هجاء له بقصيدته الرائعة :

---

(١) عيون الأخبار ٢ / ١٨ .
(٢) العمدة ١ / ٢٧ وجمهرة أشعار العرب ٢٩ .
(٣) الأغانى ٨ / ٢٤٣ طبعة الدار
(٤) جمهرة أشعار العرب ٢٩ .
(٥) تفسير القرطبى ١٥ / ٥٢ .
(٦) العمدة ١ / ٢٧ .
(٧) شوقى ضيف – العصر الإسلامى ص ٧٨ وانظر تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى للدكتور يوسف خلف ٣٧ .

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم إثرها لم يُفد مكبول[1]

صورة أخرى من هذا التقدير للشعر والشعراء فقد كساه ﷺ بردته الشريفة ولقبت القصيدة من أجلها بالبردة ، ونال بها كعب شرفا ومجدا لا يبلى على مر الأيام والعصور .

بعد هذا العرض الموجز لموقف الرسول الكريم من الشعر يتضح لنا أن الشعر عنده هو الذى يوافق الحق وينشد الخير ويتمثل المفاهيم الإسلامية التى جاء بها الدين الحنيف والتى تسمو بالمسلمين إلى مستوى هذا الدين الذى رفعهم إليه وتبعدهم عن ضلالات الجاهلية وعصبياتها البغيضة . فقد كان صلوات الله عليه « يوجه الشعراء هذه الوجهة ويدفعهم إليها دفعا ويحذرهم من اتباع الهوى القديم »[2] .

وهذا موقف يتفق تمام الاتفاق مع الرسالة التى جاء بها نورا ورحمة والتى وصفها عليه السلام بقوله « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ومن هذا الموقف نعرف أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن ضد هذا الفن العريق ولكن كان معه ما دام يستظل بظلال الدعوة الإسلامية ولا يقف منها موقفا مخالفا لتعاليمها الكريمة ومثاليتها الرفيعة .

وتقودنا هذه القضية إلى قضية أخرى وهى :

ضعف الشعر بسبب الإسلام

وهى من القضايا الأدبية الكبرى التى دارت حولها ــ وما زالت كثير من الدراسات[3] .

بل إن هناك من الباحثين من يتخطى مرحلة صدر الإسلام ويعتبرها مرحلة جمود للشعر وصمت للشعراء على نحو ما فعل الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى حين انتقل من العصر الجاهلى إلى العصر الأموى متجاهلا عصر صدر الإسلام معللا لذلك بالإسلام وتعاليمه[4] .

وقد تعددت مواقف النقاد القدماء تجاه هذه القضية ، فابن سلام يقرر أنه : « جاء الاسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ولهت عن الشعر وروايته[5] .

---

(١) انظر شرح قصيدة بانت سعاد تحقيق ف كرنكو – ط بيروت ص ١١ وديوان كعب ط دار الكتب ص ٦ وما بعدها .

(٢) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه ص ٤٣ .

(٣) حول هذه القضية انظر العصر الإسلامى للدكتور شوقى ضيف ص ٤٢ – ٤٦ ، وتاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى د . يوسف خليف ص ١١ – ١٩ ، والإسلام والشعر للدكتور سامى العانى ١٨ – ٢٧ ، وشعر المخضرمين للدكتور يحيى الجبورى ٤٥ – ٤٧ .

(٤) الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام ص ١٠ ،

(٥) طبقات فحول الشعراء ١ / ٢٥ .

ويقول ابن خلدون « أعلم ان الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم . وكان رؤساء العرب منافسين فيه . وكانوا يقفون بسوق عكاظ لإنشاده أو لسماعه ، ثم انصرف العرب عن ذلك أول الإسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه فأخرسوا عن ذلك وسكتوا عن الخوض فى النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحى فى تحريم الشعر وحظره وسمعه النبى ﷺ وأثاب عليه ؛ فرجعوا حينئذ إلى دينهم منه[1] .

ويرى الأصمعى فى هذه القضية رأيا آخر حيث يقول « طريق الشعر هو طريق الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة من صفات للديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء ، ووصفه الخمر والخيل والحروب والافتخار فإذا أدخلته فى باب الخير لان[2] ويقول أيضاً :

« الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل فى الخير ضعف هذا حسان بن ثابت فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره »[3] .

فالأصمعى يرى أن شعر حسان بعد الإسلام أضعف فى مستواه الفنى من شعره الجاهلى وقد علل حسان نفسه هذه الظاهرة فردها إلى أن الإسلام يدعو إلى الحق والخير وهى دعوة لا تتفق والشعر فى نظره ، فقد سئل : لم ضعف شعرك بعد الإسلام يا أبا حسام فقال : « إن الإسلام يحجز عن الكذب وأن الشعر يزينه الكذب »[4] .

وقد حاول الدارسون تعليل هذه الظاهرة وتعددت آراؤهم فيها ، فالدكتور شوقى ضيف يرى أن شعر حسان الإسلامى كثر الوضع فيه .

وهذا هو السبب فيما يشيع من بعض الأشعار المنسوبة إليه من ركاكة وهلهلة لا لأن شعره ولان وضعف فى الإسلام كما زعم الأصمعى ولكن لأنه دخله كثير من الوضع والانتحال[5] .

ومن المحقق أنه كان شاعرا كبيرا ، وقد اتفق الرواة والنقاد على أنه كان « شاعر الأنصار فى الجاهلية وشاعر النبى ﷺ فى النبوة وشاعر اليمن كلها فى الإسلام »[6] .

ومما لاشك فيه أن شعر حسان الإسلامى كثر الوضع فيه ، ويؤكد الأصمعى نفسه فى حديثه إلى أبى حاتم

---

(١) ابن خلدون – المقدمة ٣٦٠ – ط بيروت .

(٢) الموشح ٨٥ .

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٣٠٥ .

(٤) الاستيعاب ١ / ٣٤٦ .

(٥) العصر الإسلامى ص ٨١ .

(٦) الأغانى جـ ٤ ص ٣ ط الساسى وجـ ٤ ص ١٣٦ ط الدار .

إذ يقول : « حسان بن ثابت أحد فحول الشعراء ، فقال له أبو حاتم : تأتى له أشعار لينة . فقال الأصمعى : تنسب إليه أشياء لا تصح عنه »[1] .

ويقول ابن سلام « قد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، ولما تعاضهت قريش واستتب وضعوا عليه أشعار كثيرة »[2] .

أما الدكتور يوسف خليف فيرد المسألة إلى كثرة الارتجال فى شعر حسان وإلى أنه كان يعبر عن موضوعات ومعانى جديدة لا عهد له ولا للشعراء بها من قبل . فحسان فى شعره الإسلامى كان يرتاد أرضا عذراء جديدة لم يرتدها أحد من الشعراء قبله ، فمن الطبيعى أن تتعثر قدماه وهو يرتاد هذه الأرض العذراء لأول مرة »[3] .

ويرى الدكتور عبد الحليم حفنى أن شاعرية حسان لم تضعف فى الإسلام وإنما ضعفت الدوافع الشخصية لديه[4] . فشعر حسان الإسلامى فى رأيه لا غضاضة فيه . وليس هناك شاعر آخر معاصر له أحمله أو تفوق عليه وإنما جاءته الغضاضة من أن لحسان فى الجاهلية شعرا أجزل من هذا الشعر لأن الدوافع فى الجاهلية كانت شخصية تخصه هو ، أما دوافع الإسلام فكانت عامة له ولغيره[5] .

ويؤكد الدكتور نجيب البهبيتي هذه القضية بقوله :

وساعد على إضعاف الشعر أيضا أن أعداء الإسلام كانوا يحاربونه بالشعر فلما عم الإسلام كانت كراهة هذا الشعر قوية فى نفوسهم[6] .

أما الدكتور عبد القادر القط فيعلل الموقف تعليلا آخر فيقول : « أن الضعف الذى يبدو عليه الشعر الإسلامى إنما كان بدأ فى الحقيقة قبيل الإسلام لا بعده ، كان قد انقضى عصر الفحول و لم يبق إلا الأعشى الذى مات كما تقول الرواية وهو فى طريقه إلى النبى ﷺ ليمدحه ويعلن إسلامه ، ولبيد الذى كان قد بلغ الستين وأوشك أن يكف عن قول الشعر ، و لم يبق عند ظهور الإسلام إلا شعراء مقلون بعضهم مجيد فى قصائد مفردة ولكن لا يبلغون شأو هؤلاء الفحول »[7] .

وقد توصل الدكتور عبد الحليم حفنى إلى نتيجة وهى « أن الشعر والدين لا يتفقان كل الاتفاق »[8] .

---

(1) الاستيعاب ١ / ٣٤٦ .

(2) طبقات الشعراء ١ / ٢١٥ .

(3) تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى ٤٦ .

(4) الشعراء المخضرمون ٢٣٧ .

(5) الشعراء المخضرمون ٢٥٣ .

(6) انظر تاريخ الشعر العربى ١١١ - ١١٦

(7) فى الشعر الإسلامى والأموى ١٣ .

(8) الشعراء المخضرمون ٣١ .

ومن المؤكد أن شعر أية أمة لا يضعف أو يتوقف بتوقف بعض أفراده . فموت بعض فحول الشعراء وتوقف شاعر كبير كلبيد إن صحت هذه الرواية[1] لا يبرر ضعف الشعر فى تلك الفترة فهناك العشرات من الشعراء الأفذاذ الذين شرح الله قلوبهم للإيمان كحسان بن ثابت وكعب بن زهير والحطيئة والنابغة الجعدى نظموا وأبدعوا متخذين من الدين الحنيف ومبادئه السامية وقيمه الروحية دافعا للقول ، تركوا لنا هذا التراث الخالد الذى نعتز به جميعا .

وهناك فريق آخر من النقاد يرفض القول بضعف الشعر الإسلامى وانصراف الشعراء عنه مؤكدين نهضته واستمراره بما هيأ له الدين الحنيف من أسباب التقدم والنهوض ، منهم الدكتور شوقى ضيف الذى يرى أن « الشعر لم يتوقف ولم يتخلف فى هذا العصر وهذا طبيعى لأن من عاشوا فيه كانوا يعيشون من قبله فى الجاهلية ، وكانوا قد انحلت عقدة لسانهم وعبروا بالشعر عن عواطفهم ومشاعرهم فلما أتم الله عليهم نعمة الإسلام ظلوا يصطنعونه وينظمونه[2] .

ويقول أيضا : « ومن الظلم للإسلام أن يقال إنه كف العرب عن الشعر وأوقف نشاطه ، فقد كان ينشر على كل لسان ، وساعدت الأحداث على ازدهاره لا على خموله ، سواء فى معركة الإسلام مع الوثنيين والمرتدين أو فى الفتوح أو فى معاركه مع خصومه فى العراق ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا : إن الإسلام أذكى جذوته وأشعلها إشعالا ، فإن أحداثه حلت من عقدة الألسنة وأنطقت بالشعر كثيرين لم يكونوا ينطقونه »[3] .

المقاييس الإسلامية للشعر

جاء الإسلام فأحدث ثورة على المفاهيم السائدة التى ألفها العرب وتغنوا بها ، فغير الكثير من تلك المفاهيم وأقام مكانها عقيدة وسلوكا ، ونظاما جديدا ينير الطريق أمام أبناء الأمة الإسلامية ويجمعهم على طريق الخير والمحبة والمساواة . وكان أبرز ما نهى الإسلام عنه من أغراض الشعر الغزل المتهتك والخمريات والهجاء المقذع والمغالاة فى الفخر بالأحساب والأنساب والعصبيات القبلية .

أما ما عدا ذلك من الأغراض فلم يكن للإسلام موقف منها وإنما تركها للشعراء يدورون فى مجالاتها كيف يشاؤون ، وأخذ الشعر سبيلاً على ألسنة الشعراء فلم يبق أحد من أصحاب رسول الله إلا قال الشعر أو تمثل به[1] . وكان الشعر أبرز جوانب الحياة الجديدة التى تأثرت بالإسلام .

---

(١) الأغانى ١٤ / ٩٤ ، وخزانة الأدب ٢ / ٢١٥ ، والجمهرة ص ٣١ .

(٢) العصر الإسلامى ٤٢ .

(٣) العصر الإسلامى ٤٦ .

(١) جمهرة أشعار العرب ١٩ .

وكان الرسول ﷺ حريصا على أن يتجه الشعر نحو تمثل القيم الإسلامية والحث عليها كما ذكرنا من قبل ، وكذلك الخلفاء رضى الله عنهم جميعا . فهذا خليفة المسلمين عمر بن الخطاب يقول : « ارووا من الشعر أعفه ، ومن الحديث أحسنه ، ومن النسب ما تواصلون عليه وتعرفون به ، فرب رحم مجهولة قد عرفت فوصلت ، ومحاسن الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتنهى عن مساويها »[1] .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى يقول : « مر من قبلك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالى الأخلاق وصواب الرأى ومعرفة الأنساب »[2] .

من هذه الأقوال المأثورة نرى كيف حرص الإسلام على أن يصدر الشعر من منطلق تمثل القيم الإسلامية وتلتزم الصدق .

يقول حسان :

وإن أشعر بيت أنت قائله ... بيت يقال إذا أنشدته صدقا
وإنما الشعر لب المرء يعرضه ... على المجالس إن كيسا وإن حمقا[3]

ومن أقدم النصوص النقدية التى تمثل هذا الاتجاه قول الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصف شعر زهير بن أبى سلمى :

لا يعاظل فى القول ولا يتبع وحشى الكلام ولا يمدح الرجل إلا بما فيه[4]

فالصدق فى القول أصبح من المقاييس الإسلامية الأساسية التى اعتمد عليها الخليفة عمر بن الخطاب فى تفضيل زهير على غيره من الشعراء .

وواضح أن المقاييس الإسلامية الجديدة تحرص على الصدق والخير ومكارم الأخلاق . وقد كان الخليفة عمر بن الخطاب أشهر المتمسكين بالمقاييس الإسلامية فى نقده للشعراء ، فقد استعداه تميم بن مقبل على النجاشى ، فقال يا أمير المؤمنين هجانى فأعْدِنى عليه . قال : يا نجاشى ما قلت ؟ قال : يا أمير المؤمنين قلت ما لا أرى عليه فيه إثما ، وأنشد :

إذا الله جازى أهل قوم بذمة ... فجازى بنى العجلان رهط ابن مقبل
قبيلة لا يغدرون بذمة ... ولا يظلمون الناس حبة خردل

فقال عمر : ليتنى من هؤلاء . فقال :

---

(١) جمهرة أشعار العرب ١٥ .

(٢) العمدة ١ / ٢٨ .

(٣) شرح ديوان حسان بن ثابت ١٧٤ (دار الكتب العلمية - بيروت) وديوان حسان بن ثابت - تحقيق الدكتور سيد حنفى ص ٢٧٧ .

(٤) جمهرة أشعار العرب ٢٥ .

ولا يـــــــردون الماء إلا عشيـــــــة إذا صدر الـوارد عـــن كل منهل

فقال عمر : ما على هؤلاء متى وردوا . فقال :

ومـــا سمى العجـــلان إلا لقولـــه خذ المعقب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر : خير القوم أنفعهم لأهله . فقال تميم :

فسله عن قوله :

أولـئك أولاد الهجين وأسرة الــــ ـلـئيم ورهــط العاجـــز المتذلـــل

فقال عمر : أما هذا فلا أعذرك عليه فحبسه وضربه »[٢] .

فقد حرص الخليفة عمر بن الخطاب على أن ينهج الشعراء نهجا إسلاميا مهتدين بهدي الإسلام سلوكا وشعرا . وعلى هذا الأساس فقد « نشأت مقاييس جديدة للشعر إلى جانب معايير فنية أخرى ، فما اتفقت فيه روح الشعر مع الدين فهو من الشعر فى الذروة وما خالفه فهو كلام الغواة الذى يكون شرا على صاحبه وعلى الجميع »[٣] .

ولاشك أن الخلفاء ساروا على نهج رسول الله الذى يؤكد على أن الشعر يجب أن يكون فى داخل الدائرة الإسلامية . وإن كان من الملاحظ أن عمر بن الخطاب قد تشدد مع أكثر من شاعر . فقد حبس الحطيئة وأقام الحد على البعض ، ونفى البعض كأبى محجن الثقفى ، وكان هذا النفى أسلوبا قاسيا على الشعراء لأنهم لم يعاملوا به من قبل .

فقد جاء الإسلام بمفاهيمه الجديدة وتعاليمه الرشيدة فأخرج الناس من ظلمات الجاهلية إلى طريق الخير والنور ، وأخذ الشعراء الذين تمكن الإيمان من قلوبهم فى الدعوة إلى الدين الجديد والدفاع عنه وكان الشعر الذى هو صناعتهم من أمضى الأسلحة آنذاك ، وقد حرص الإسلام على أن يكون لهذا الفن الذى هو مفخرة العرب رسالة يؤديها الشاعر لمجتمعه الإسلامى الجديد .

لقد حرص الرسول الكريم والخلفاء من بعده على أن يصدر هذا الشعر عن القيم الإسلامية التى حث عليها الدين الحنيف ففرضوا العقوبات على من يخرج عن هذه القيم ويترك لشيطانه العنان ، فيقول فيما نهى الإسلام عنه .

وموقف الإسلام من الهجاء المقذع والغزل الفاحش وشعر الخمر والمجون واضح كل الوضوح . وفى رواية

---

(٢) الإصابة ١ / ١٨٩ والوحشيات ٢١٥ - ٢١٦ .

(٣) بدوى طبانة - دراسات فى نقد الأدب ٨٣ .

القرطبى أن رسول الله ﷺ قال : « من أحدث هجاء فى الإسلام فاقطعوا لسانه »[1] وكذلك فعل الخليفة عمر ابن الخطاب فقد حبس الحطيئة عندما قال معرضا بالزبرقان بن بدر :

دع المكـــارم لا ترحـــل لبغـــيتها واقعد فإنك أنت الطاعـم الكـاسى[2]

وأخذ الحطيئة يستعطفه بأبياته المشهورة التى يقول فيها :

مـاذا تقـول لأفـراخ بـذى مـرخ زغب الحواصل لا مـاء ولا شجـــر
ألقـيت كاسبهم فى قعـر مظلمـــة فاغفـر علـيك سلام الله يا عمـــر

فرق له عمر وخلى سبيله ، وأخذ عليه عهداً ألا يهجو أحداً من المسلمين[3] .

ويقال إنه اشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم[4] .

وقال الحطيئة فى ذلك :

وأخذت أطراف الكلام فلـم تـدع شتما يضر ولا مـــديحا ينفـــع
ومنعتنـى شتم البخيـل فلـم يخف شتمـى وأصبـح آمنـا لا ينـزع

ويقول الأصمعى عن شعر الحطيئة :

« أفسد مثل هذا الشعر الحسن بهجاء الناس وكثرة الطمع »[1] .

وهو قول نستطيع أن نستشف منه مدى إعجاب الأصمعى بشعر الحطيئة من الناحية الفنية ، لكنه يراه قد فسد من الناحية الموضوعية لتناوله أعراض الناس وخروجه على القيم الخلقية التى أرساها الإسلام .

وعلى الرغم من أن الإسلام قد أباح للمسلمين هجاء الكفار بمعانى الكفر والضلال فإنه فى الوقت نفسه قد حد من حريتهم بوضعه حدودا لهذا الفن دعاهم للالتزام بها ومراعاتها حرصا على كرامة الناس وصونا لأعراضهم والتزاما بما نهى عنه القرآن الكريم من التعرض للناس باللمز والتنابز بالألقاب فى قوله تعالى ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ﴾[2] .

(١) تفسير القرطبى – سورة الشعراء آية ٢٢٤ .
(٢) الشعر والشعراء ١ / ٣٢٨ .
(٣) السابق ١ / ٣٢٨ .
(٤) الأغانى ٢ / ١٧٩ .
(١) ديوان المعانى ١٧٤ .
(٢) سورة الحجرات الآية ٤٩ .

وكان للإسلام أيضا موقف من شعراء الغزل فقد رفض النقاد – فى ضوء التوجيه الإسلامى – ما فيه من خروج على القيم الخلقية وما يخالف قيم الإسلام وتعاليمه . فالأخلاق من الأسس التى قام عليها الإسلام – يقول تعالى عن رسوله المصطفى : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾[٣] .

وقال ﷺ : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »[٤] .

وقال : « ما من شيء أثقل فى الميزان من خلق حسن »[٥] .

وقد وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها فقال :

« كان خلقه القرآن »[٦] .

وقال عنه أبو ذر رضى الله عنه « رأيته يأمر بمكارم الأخلاق » . وقال عبد الله بن عمرو عنه ﷺ « لم يكن رسول الله ﷺ فاحشا ولا متفحشا وإنه كان يقول خياركم أحاسنكم أخلاقا »[٧] .

فلم يكن الإسلام عقيدة دينية فحسب بل هو أيضا سلوك أخلاق يدعو إلى التحرر من الفواحش والرذائل ويدعو إلى التمسك بالقيم الإنسانية النبيلة .

وقد رفض النقاد الشعر الذى رأوا فيه خروجا على هذه القيم ، وفرضوا العقوبات على المجاهرين بفاحش القول ، كما فرضوها على المجاهرين بأقذع الهجاء ، فالخليفة عمر بن الخطاب يقيم الحد على رجل بسبب بيت من الشعر ، فقد مر ذلك الشاعر بباب رجل كان يتهم بامرأته فقال :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم ؟

فاستعدى رب البيت عليه عمر ، فسأله عمر عما أراد بقوله . فقال : وما علىّ فى أن أنشدت شعرا ؟

فقال عمر : قد كان له موضع غير هذا ثم أمر به فجلد[١] . وقد جلد عمر أبا محجن الثقفى ونفاه من المدينة لقوله فى الخمر حين أعلن توبته :

أتـــوب إلى الله الـــرحيم فإنــــه	غفـور لـــذنب المرء مـــا لم يعـــاود
ولست إلى الهجــاء يومـــا بعائـــد	ولا تابــع قـــول السفيـــه المعانـــد[٢]

---

(١) سورة القلم آية ٤ .
(٢) مسند أحمد ٢ / ٣٨١ .
(٣) السابق ٢ / ٢٥ .
(٤) مسند أحمد ٢ / ٣٨١ .
(٥) السابق ٨ / ١٦ .
(٦) طبقات فحول الشعراء ١ / ١٤ .
(٧) ديوانه ص ١٢ .

وكذلك كان موقفه مع سحيم عبد بنى الحسحاسى فقد سمعه ينشد :

ولقد تحدر من كريمة بعضهم　　عرض على جنب الفراش وطيب

فقال : إنك مقتول[٣] .

ولم تقتصر نظرة النقاد على الشعر الفاحش الذى قيل قبل الإسلام بل تعدته إلى الشعر الجاهلى فقد رفضوا ما ورد من فحش فى شعر امرىء القيس على الرغم من إعجابهم بشعره فى أغراض الشعر الأخرى ، يقول ابن قتيبة : « كان امرىء القيس ممن يتعهر فى شعره »[٤] مشيرا إلى قوله :

ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع　　فألهيتها عن ذى تمائم محول

وقوله :

دخلت وقد القت لنوم ثيابها　　لدى الستر إلا لبسة المتفضل

وقوله :

سموت إليها بعد ما نام أهلها　　سمو حباب الماء حالا على حال

وكذلك يذهب ابن سلام والمرزبانى والباقلانى[١] .

وكذلك هاجموا الفرزدق من هذا الجانب وأخذوا عليه قوله :

هما دلتانى من ثمانين قامة　　كما انقض باز أقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض نادتا　　أحى يرجى أم قتيلا نحاذره
فقلت ارفعوا الأسباب لا يشعروا بنا　　ووليت فى إعجاز ليل أبادره
فأصبحت فى القوم الجلوس وأصبحت　　مغلقة دونى عليها دساكره[٢]

فنهى الإسلام عن الغزل الفاحش ، والتشبيب الذى يسىء إلى أعراض الناس وكرامة النساء ، مما جعل بعض الشعراء يتحايلون على هذا اللون من الشعر ويتجهون إلى الرمز — يقول حميد بن ثور الهلالى :

أبى الله إلا سرحة ابنة مالك　　على كل أفنان العضاء تروق
فياطيب رياها وبرد ظلها　　إذا حان من حامى النهار وديف[٣]

---

(٣) الشعر والشعراء ١ / ٤٠٩ وطبقات فحول الشعراء ١ / ١٨٨ .

(٤) الشعر والشعراء ١ / ١١٠ .

(١) طبقات فحول الشعراء ١ / ٤١ — ٤٢ ، والموشح ٣٤ ، وإعجاز القرآن ١٣٦ .

(٢) ديوانه طبعة بيروت ١ / ٢١٢ .

(٣) الديوان ٤٠ — ٤١ وديوان سحيم ١٦ .

وكذلك فعل سحيم عبد بنى الحسحاس فلم يتجاسر على ذكر محبوبته فورى عنها فى قصيدته التى يقول فيها :

عــميرة ودع أن تجهـزت غازيــا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا[٤]

ونحن نعرف أنه جاء وهو طفل صغير أو ولد فى جزيرة العرب فى زمن لا يوغل فى الجاهلية وأنه اتصل ببنى أسد لا ببنى الحسحاس وحدهم ، وقد تمثل النبى بشعره حين قال :

عــميرة ودع أن تجهـزت غازيــا كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا

فما كان من أبى بكر رضى الله عنه إلا أن ذكر له البيت على الوجه الصحيح ، وقال أشهد إنك رسول الله[٥] .

ويروى أن عمر بن الخطاب سأل يوما فى مجلس عن الشاعر الذى يقول :

عــميرة ودع تجهــزت غازيــا كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

فلما قيل له : إنه عبد بنى الحسحاس قال : لو قدم الإسلام على الشيب لفرضت له[٦] .

وقيل : إن عمر استنشده من شعره ، فبدأ إنشاده لهذه القصيدة . فقال له عمر بعد أن استمع إلى مطلعها : لو قلت شعرك مثل هذا أعطيتك عليه فلما وصل إلى قوله :

وبتنــا وسادانــا إلى علجانـــه وحقــف تهاداه الريــاح تهاديــا
تــوسدنى كفــا وتثنــى بمعصم على وتحوى رجلهـا مـن ورائيــا
وهــبت لنـا ريح الشمـال بقــرة ولا ثــوب إلا بردهــا وردائيــا
فمـا زال بردى طيبـا مـن ثيـابها إلى الحول حتــى أنهج البرداليــا[١]

فقال عمر : ويلك إنك مقتول[٢] .

ومن المعروف أن له موقفا يتصل بقضية شرائه مع عثمان بن عفان ، فيقال : أن أمر شرائه عرض عليه ، فقال بعض من حضر مجلس عثمان : إنه شاعر يرغب فى مثله ، فقال عثمان رضى الله عنه : لا حاجة لنا فيه ، لأنه إن شبع شبب بنساء أهله وإن جاع هجاهم . وخاتمة الرواية تقول : إن رجلا من العرب اشتراه فلما رحل أنشد يقول :

---

(٤) الأغانى ٢٠ / ٢٥ وديوان سحيم ١٦ .
(٥) الأغانى : ٢٠ / ٢٠ ونزهة الجليس ١ / ٣٢٥ وديوان سحيم – تحقيق عبد العزيز الميمنى ١٦ .
(٦) الأغانى ٢٠ / ٢٣ والأشباه والنظائر ٢ / ٢٠ – ٢١ .
(١) انظر ديوان سحيم ١٩ – ٢٠ .
(٢) الأغانى ٢٠ / ٣ .

أشوقـا ولما تمض لى غير ليلـة　　فكيف إذا سار المطى بنا عشرا
أخـوكم ومـولى خيركم وحليفكـم　　ومن قد ثوى فيكم وعاشركم دهرا
وما خـفت سلاما على أن يبيعنـى　　بشىء ولو أمست أناملـه صفـرا[3]

وهكذا يبدو الموقف فى عصر صدر الإسلام ، وكيف كانت صلة الشعراء المخضرمين بالرسول ﷺ وبالخلفاء الراشدين ، وهو موقف يحدد لنا أن الذى كان يتحكم فيه أن يكون ما يقال فى خدمة الإسلام أو على الأقل لا يكون مناوئا للإسلام ولا خارجا عن تعاليمه .

تلك هى الصورة العامة للشاعر حين يرى نفسه مقسما بين عالمين ، ففى العالم الأول كان مطلق الصراح يقول ما يشاء ، ويغنى كما يحب ، أما فى العالم الثانى فهو إذا غنى غنى بحساب ، وإذا قال شيئا فإن هذا الشىء يراعى فيه أن يكون محكوما بنظام جديد جاءت به نظرية جديدة .

صحيح أنه فى الحالة الأولى سيكون مستمتعا بالحرية ، ضاربا فى شعابها ، وأنه لا يحس قيدا من القيود مما يوفر له طلاقة فى رقم الصورة وطلاقة فى التعامل مع الموسيقى ، بالإضافة إلى طلاقة فى التناول ، فليس هناك رقيب على فكره - ولكن متى كانت الحياة كالغابة التى لا يحكمها قانون ؟ ومتى كان الفن بلا حدود ؟ ومتى كانت حرية الشاعر مطلقة حتى ولو تصادمت هذه الحرية المطلقة مع حرية الآخرين ؟ لقد كان لابد من تهذيب الإنسان ، ولابد من إدخاله عالم الحضارة .

وفى هذا العالم يجب عليه كى يحافظ على حريته أن يحافظ على حرية الآخرين وعليه إذا هجا ألا يفحش فى الهجاء ولا يقول زورا على الآخرين ، وإذا أحب لا يكون حبه هتكا للعرض ، أو دعوة سافرة للفحشاء ، وإذا مدح يجب أن يكون مدحه محكوما بالصدق ، ونحن لا نقصد هنا الصدق الحياتى .. ولكن نقصد « الصدق الفنى » . فمن خلال ظاهرة « الصدق الفنى » يستطيع الشاعر أن يبدع كأروع ما يكون الإبداع ، وذلك لأن الشعر ليس تسجيلا حيا ومباشرا لما يقع فى الحياة ولكنه فى الحقيقة تسجيل لما تحس به النفس فى الحياة ولما يشعر به الشاعر من إيقاع بالوجود من حوله ، ورحم الله حسان بن ثابت القائل :

وإن أشعـر بـيت أنت قائلـه　　بـيت يقـال إذا أنشدتـه صدقـا

وفى ضوء هذا يمكن القول بأن الشعر الجاهلى كانت فيه « فنية » لا خلاف عليها ، وهذه الظاهرة موجودة فى كل ما قيل من شعر اليهودية والمسيحية والإسلام ، ولكن بعد الإسلام تغيرت هذه الفنية المباشرة الصريحة فى استقبال الحياة ، إلى فنية من نوع آخر ، هذه الفنية هى ما سميناه فنية « الصدق الفنى » ، ثم إن الشاعر الإسلامى تعامل مع أساليب جديدة ، ومع طرق جديدة ومع موسيقى جديدة ، وهو فى كل هذا كان متأثرا أشد التأثر

---

(٣) يقال ابن الذى باعه مالك بن الحسحاس وان الذى اشتراه رجل من نجد وحين قال سحيم هذه الأبيات رق له واشتراه مرة ثانية انظر فوات الوفيات ١ / ٣٣٩ والخزانة ٢ / ٨٧ .

بالإسلام ، فالإسلام رقق مشاعره ، ونظر إلى الحياة باحترام ، وأعطى المرأة حقوقها بل أعطى كل ذى حق حقه ، وكل هذا يعطى الحياة معنى جديدا . وكان من الطبيعى أن يعبر الشعر عن هذا المعنى الجديد ، وتلك معجزة الإسلام فيما يتصل بالشعر بعد أن جاء . فالإسلام ــ بحق ــ قد أضاء الشعر ، وبعبارة موجزة قد « أسلمه » وفى ضوء هذه « الأسلمة » ظهر الشعر فى ثوب جديد ، وفى نقاء جديد ، وفى بهاء جديد .

المصــادر والمراجــع :

– الاستيعاب فى معرفة الأصحاب – يوسف بن عبد البر – تحقيق محمد على البجاوى – القاهرة .
– الإسلام والشعر – د . سامى العاني – الكويت ١٩٨٣ .
– الأشباه والنظائر – زين العابدين بن إبراهيم – تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل – القاهرة ١٩٦٨ .
– الإصابة فى تمييز الصحابة – ابن حجر العسقلانى – القاهرة ١٩٦٩ .
– إعجاز القرآن – الباقلانى – تحقيق السيد صفر – القاهرة ١٩٦٣ .
– الأغانى – أبو الفرج الأصفهانى – طبعة ساس بالقاهرة وطبعة دار الكتب .
– تاريخ الأدب العربى – بروكلمان – ترجمة عبد الحليم النجار ويعقوب بكر ، ورمضان عبد التواب ، القاهرة ، ١٩٧٧ .
– تاريخ الشعر العربى حتى آخر القرن الثالث الهجرى – د . نجيب البهبيتى – دار الكتب .
– تاريخ الشعر العربى فى العصر الإسلامى – د . يوسف خليف – ١٩٨٥ .
– تأويل مشكل القرآن – ابن قتيبة – تحقيق سيد صفر – القاهرة .
– تفسير القرآن – ابن كثير القرنى – القاهرة .
– تفسير القرطبى – دار الكتب المصرية – القاهرة .
– الجمهرة – محمد بن دريد – ١٩٨٥ .
– جمهرة أشعار العرب – أبو زيد القرشى – بيروت – ١٩٦٣ .
– الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام – د . محمد عبد المنعم خفاجى – دار الكتاب اللبنانى – بيروت .
– حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة – د . يوسف خليف – دار الكتاب العربى – القاهرة – ١٩٦٨ .
– الحيوان – الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون – القاهرة .
– خزانة الأدب – البغدادى – القاهرة .
– دراسات فى الشعر الجاهلى – د . يوسف خليف – القاهرة .
– دراسات فى نقد الأدب – د . بدوى طبانة – القاهرة – ١٩٦٥ .
– ديوان حميد بن ثور الهلالى – تحقيق الميمنى – دار الكتب المصرية – القاهرة .
– ديوان سحيم – تحقيق عبد العزيز الميمنى – القاهرة – ١٩٥٠ .
– ديوان الفرزدق – طبعة بيروت ١٩٦٦ .
– ديوان كعب بن مالك الأنصارى – طبعة دار الكتب – القاهرة .
– ديوان المعانى – أبو هلال العسكرى – القاهرة – ١٣٥٢ هـ .
– ديوان حسان بن ثابت – تحقيق سيد حنفى حنين – القاهرة – ١٩٧٤ .
– شرح ديوان حسان بن ثابت – دار الكتب العلمية – بيروت .
– شرح قصيدة بانت سعاد – تحقيق ف كرنكو – طبعة بيروت .

- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه - د . يحيى الجبورى - بيروت ١٩٨١ .
- الشعر والشعراء - ابن قتيبة - تحقيق محمود محمد شاكر - القاهرة - ١٩٦٦ .
- الشعراء المخضرمون - د . عبد الحليم حفنى - القاهرة - ١٩٨٣ .
- الصناعتين - أبو هلال العسكرى - الاستانة - ١٣٢٠ هـ .
- طبقات فحول الشعراء - ابن سلام الجمحى - تحقيق محمود محمد شاكر - القاهرة - ١٩٧٤ .
- العصر الإسلامى - د . شوقى ضيف - القاهرة - ١٩٦٣ .
- العصر الجاهلى - د . شوقى ضيف - القاهرة .
- العقد الفريد - أحمد بن عبد ربه الأندلسى - القاهرة - ١٩٥٦ .
- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده - ابن رشيق القيروانى - تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد - بيروت - ١٩٧٢ .
- عيون الأخبار - عبد الله بن مسلم بن قتيبة - طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٥ .
- الفهرست - ابن النديم - القاهرة .
- فوات الوفيات - الكتبى - القاهرة - ١٩٥١ .
- فى الشعر الإسلامى والأموى - د . عبد القادر القط - بيروت - ١٩٧٦ .
- فى ظلال القرآن - سيد قطب - بيروت .
- مسند أحمد - الإمام أحمد بن حنبل - القاهرة ١٣٢٣ هـ .
- مصادر الشعر الجاهلى وقيمتها التاريخية - د . ناصر الدين الأسد - ١٩٨٢ .
- مقدمة ابن خلدون - عبد الرحمن بن خلدون .
- الممتع فى علم الشعر وعمله - عبد الكريم النهشلى - تحقيق د . المنجى الكعبى - الدار العربية للكتاب - تونس .
- الموشح . المرزبانى - القاهرة - ١٣٤٣ هـ .
- الوحشيات - أبو حبيب بن أوس الطائى - تحقيق عبد العزيز الميمنى - القاهرة - ١٩٧٠ .

الوعي الوحدوي في قصيدة الجهاد المغاربية

د. حسن الوراكلي (*)

إن العقيدة الإسلامية واللغة العربية ، فضلا عن الموقع والتاريخ المشتركين ، كل أولئك كان ولا يزال ، يمثل الوشائج المتينة التي ربطت بين أقطار المغرب العربي وأخت بين أهليها وعمقت لديهم ، على تعاقب الآماد ، الوعي الوحدوي الذي كان من مظاهره إختيارات موحدة ، في الأغلب الأعم ، في مجال المذهبية ، والنزعة الثقافية ، والصبغة الاجتماعية مما تألفت به هذه الأقطار هوية متميزة عكست صورتها مدونات المؤرخين مثلما عكستها كتابات المبدعين وخاصة الشعراء لما لفنهم ، أي الشعر ، من قوة في الدلالة ، كالتاريخ ، على هوية الإنسان واستكشاف ما فيها من ثوابت تلحم وجدانه بوجدان أمته .

إن هذا الوعي بدأ ينشأ وينمو مع الفتح الإسلامي للشمال الافريقي في القرن الأول للهجرة وما تلا ذلك من جهود ومساع متواصلة في سبيل تثبيت دعامة التوحيد وترسيخ روح العروبة ، مما ستصبح ، بفضله ، هذه المنطقة من افريقيا ، وفي ظرف زمني غير طويل ، دار الإسلام وموطن العربية . وتنبغي الإشارة ، هنا ، إلى الدور الفعال الذي نهضت به مؤسستان علميتان عتيدتان ، هما (جامع الزيتونة) بتونس و (جامع القرويين) بالمغرب في نشر مُثُل الإسلام وتراث العربية بين أبناء المغرب العربي ، جيلا بعد جيل ، مما تبلور في مواقف جليلة لعلماء الجامعتين في الدفاع عن هوية الأمة العقدية ، واللغوية ، والحضارية ، من أمثال عبد العزيز الثعالبي ، وعبد الحميد بن باديس ، وعلال الفاسي في العصر الحديث

(*) أستاذ التعليم العالي ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ـــ جامعة سيدي محمد بن عبد الله (تطوان ـــ المغرب) .

ضربوا أروع الأمثلة على وعيهم الوحدوي ، الذي هو ثمرة الثقافة البانية ، الهادية التي تلقوها في (الزيتونة) و(القرويين) ، فيما نذروا له حياتهم من مقاومة الاستعمار ، والاستبداد ، والتجزئة ، وانطماس الشخصية مما غذى روح التآخي ، ومتن عرى الاتحاد بين أبناء المغرب العربي كافة .

- ب -

لم تكن الهجمة الغربية ، في العصر الحديث ، على بلدان العالم الإسلامي ، ومن ضمنها أقطار المغرب العربي ، إلا حلقة جديدة من حلقات الحروب الصليبية التي انطلقت أولى حملاتها ، قبل أن تستشري بالمشرق ، في الأندلس ، سنة ثمان وسبعين وأربعمائة للهجرة[1] ، لاجتثات الوجود الإسلامي من هذا الصقع النائي من أصقاع الإسلام ، وما زالت توالي حملاتها تلك ، الواحدة تلو الأخرى ، مدى قرون متوالية ، حتى انقضت عليه انقضاضها الأخير في نهاية القرن التاسع للهجرة ، وبذلك بات الخطر الصليبي يتهدد بلدان المغرب العربي في وجودها العقدي والحضاري ، وهو ما تنبه إليه الشاعر الأندلسي أبو العباس أحمد الدقون (ت ٩٢١هـ) حين قال من قصيدة يندب بها غرناطة ، وينصح أهل العدوة بوجوب الحذر من الكيد الصليبي الذي يهم بنفث سمه عليهم :

هذا النذير جهارا جاء ينذرنا
والأذن في صمم عن قيل أو قال
ونحن في غفلة عما يراد بنا
نمشي على مهلة من طول إمهال
يا أهل فاس أما في الغير موعظة
إن السعيد لموعوظ بأمثال
كيف الحياة إذا الحيات قد نفحت
على السواحل أوهمت بإرسال[2]

وقد كان الأمر على نحو ما توقع هذا الشاعر ، فلم تكد تمضي بضع سنوات على سقوط غرناطة في يد الصليبيين الأسبان حتى شنوا حملاتهم الشرسة على السواحل المغربية يحتلونها ويبسطون عليها نفوذهم العسكري والديني ، وكان الصليبيون البرتغاليون ، من قبلهم ، قد سبقوا إلى شن غارات ماحقة على تلك السواحل في القرن التاسع حتى سيطروا على أغلبية الثغور بالشواطىء المغربية[3] .

---

(١) يقول ابن الأثير (كان ابتداء ظهور دولة الفرنج واشتداد أمرهم ، وخروجهم إلى بلاد الاسلام واستيلائهم على بعضها سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فملكوا مدينة طليطلة وغيرها من بلاد الأندلس ... ثم قصدوا سنة أربع وثمانين وأربعمائة جزيرة صقلية وملكوها ... وتطرقوا إلى أطراف افريقية فملكوا منها شيئا وأخذ منهم ... فلما كان سنة تسعين وأربعمائة خرجوا إلى بلاد الشام) .

انظر ، الكامل ، ١ : ٢٧٢ .

(٢) انظر أزهار الرياض ، ١ : ١٠٧ .

(٣) انظر ، الاستقصا ، ٢ : ١٥٦ ، وانظر ، الحروب الصليبية في المغرب والمشرق : ٢٦٦ .

كان الغرب ، وهو يرمي المسلمين ، ضمن مخططه الصليبي ، في المشرق والمغرب عن قوس واحدة ، يدرك متانة الوشائج والأسباب العقدية والثقافية التي تشد المسلمين بعضهم إلى بعض ، ولذلك وجدنا الاستعمار الفرنسي لا يدخر وسعا في توهين تلك الوشائج وتمزيق تلك الأسباب بين أقطار المغرب العربي لانجاح مشروع الاستيطاني وضمان النفوذ والسيادة لوجوده العقدي والثقافي فضلا عن الهيمنة العسكرية والسياسية ، وقد توسل في تحقيق ذلك بـ :

١ ــ فتنة المسلمين عن دينهم ومقاتلتهم للارتداد عنه ، وهذا (هو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الجماعة الإسلامية في كل أرض وفي كل جيل ... وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواته ، ولكن الهدف يظل ثابتا : أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا ، وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاحا غيره ، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا غيرها)[1] ، ذلك أنّ تحقيق هذا الهدف معناه ، فصم عرى التحالف والتضامن بين أبناء الأمة وتقويض المرتكز الرئيسى ، وهو العقيدة ، لشخصيتهم الوطنية مما يترتب عنه تخاذلهم واستسلامهم ، وفي تصريحات بعض رجال الكنيسة وقادة الهجمة الفرنسية على الجزائر عام ١٢٤٦هـ (١٨٣٠م) ما يكشف عن مقصدها الصليبي السافر . يقول الكردينال (لافيجوري) : (علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه ، وعلينا أن نعنى على الأقل بالأطفال لتنشئتهم على مبادىء غير التي شب عليها أجدادهم فإن واجب فرنسا تعليمهم الانجليل أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر)[2] ، ويقول آخر : (آخر أيام الإسلام قد دنت ، وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح[3] ...) ، وقد أكدت سياسة الاستعمار ، فيما بعد ، صدق هذه الأقوال حين عمد إلى تحويل المساجد إلى كنائس وأقدم على التفرقة بين عناصر الأمة في مجال التشريع بإصدار الظهير البربري كمرحلة تمهيدية للقضاء على الاسلام بين البربر وإدماجهم في المسيحية مما كان من شأنه ، كما يقول « روجيرى دولاسال » أن (يسهل بغير شك تفكيك عرى الكتلة العربية وبالتالي القضاء على الاسلام في أفريقيا الشمالية لفائدة حضارتنا وجنسنا)[4] .

وإذا كان مجال هذه الفقرة لا يتسع للاستكثار من الشواهد على المقصد الصليبي من احتلال المغرب العربي فإننا نحب ألا تفوتنا الاشارة ، هنا ، للتأكيد على أهمية هذا المقصد وأولويته في المشروع الامبريالى الغربي ، إلى أن الاستعمار ، وهو يدرى دور العقيدة في تفجير حركة الجهاد ضد وجوده ، كان يرى في القضاء على قادة الجهاد ليس فقط إخمادا لحركة المقاومة ولكنه كان يرى في ذلك ما يحقق مقصده الرئيس ، وهو القضاء على الإسلام . وقد كتب بعضهم بعد استسلام الأمير عبد الكريم الخطابي : (... إن الحادثة لمن الأهمية بمكان . إنها تتعدى حدود شمال افريقيا . إنها طعنة نجلاء طعنت الإسلام في الصميم . وفي وسعنا الآن أن نفتك بهذا الدين الفتك الذريع ونقضي عليه القضاء المبرم)[5] .

---

(١) انظر ، في ظلال القرآن ، ١ : ٢٢٧ .

(٢) انظر ، د . صالح حرفي ، الشعر الجزائري ص ١١ هامش ١ .

(٣) نفسه ، ص ١١ هامش ١ .

(٤) انظر ، علال الفاسي ، السياسة البربرية في مراكش ص .

(٥) انظر ، فرحات عباس ، ليل الاستعمار ، ص ١٢٧ .

٢ ـــ محاربة اللغة العربية لأنها لغة كتاب الإسلام ، وثقافة الإسلام ، وتراث الإسلام ، فلم يترك الاستعمار وسيلة إلا واستخدمها في القضاء على هذه اللغة ، فمن إهمال لها وتهميش في برامج التعليم إلى استئجار أقلام مشبوهة عميلة تشن عليها حملات الانتقاص والاتهام بالقصور والعجز ، هذا في الوقت الذي كان يعمل على فرض لغته والتمكين لها في مجال التعليم ، والثقافة ، والادارة[١] . ولم تكن محاربة الاستعمار للغة العربية إلا لكونها على حد تعبير الكومندان مارين (تعلم القرآن ، ومصلحتنا تأمرنا بأن نمدن البربر خارج دائرة الاسلام)[٢] وإذن ، فالقصد لم يكن محاربة العربية في حد ذاتها ولكن محاربة ما تحمله العربية من عقيدة ، وتراث ، وفكر ، وثقافة سعيا لطمس الشخصية الوطنية ومحوها .

ـ ج ـ

من ثم كانت مقاومة الاستعمار في المغرب العربي تستمد فاعليتها ومضاءها من شعور المجاهدين :

١ ـــ بأنهم يواجهون حملات صليبية تمتُّ بأوثق الأسباب وأقواها إلى الحملات القديمة التي شنها الغرب على ديار المسلمين في المغرب والمشرق على حد سواء .

٢ ـــ وبأن توثيق عرى التضامن والتآلف والاتحاد فيما بين شعوب المنطقة كفيل بأن يقوى الشوكة ، ويضاعف القوة ، ويرهب العدو فينقلب خاسرا على عقبيه .

وقد تبلور هذا الشعور في غير ما موقف من مواقف القادة والزعماء ، وللتمثيل على ذلك نشير إلى مبادرة الأمير عبد القادر ، وقد استشعر الخطر الصليبي الداهم ليس على الجزائر وحدها ولكن على مجموع بلدان المغرب العربي ، بالكتابة إلى سلطان المغرب المولى عبد الرحمن ابن هشام وباي تونس أحمد باشا يدعوهما إلى الجهاد لحماية الدين والوطن[٣] . وقد شد السلطان المغربي عضد المجاهدين فجعل يمدهم (بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة)[٤] مما يدل على أنه وضع (القضية الجزائرية بموضع العمل المشترك والجهد المنسق بين حركة المقاومة وسلطنة المغرب الأقصى)[٥] . وسيعرف تاريخ الجهاد في المغرب الأقصى ، خلال العقد الخامس من القرن الرابع الهجري مبادرة ذات دلالة على رسوخ الوعي الوحدوي لدى زعماء المغرب العربي ، وهي تلك التي جسمها قدوم الأمير عبد الملك بن الأمير عبد القادر من المشرق حيث كانت استقرت أسرته إلى المغرب حيث شارك المجاهدين في مواجهة جحافل الشر الأسبانية والفرنسية إلى أن استشهد في سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٤م)[٦] .

---

(١) انظر كتابنا (الاسلام والغرب) ص ٣٦ .

(٢) انظر ، علال الفاسي ، الحركات الاستقلالية ص ١٤٢ .

(٣) انظر ، يحيى بوعزيز ، موقف بايات تونس من ثورة الأمير عبد القادر مجلة الأصالة ع ٢ ص ٢٦ (١٩٨٥) .

(٤) انظر الاستقصا ، ٢ : ١٩٣ .

(٥) انظر ، ابن عاشور محمد الفاضل ، وثائق من وحدة المغرب العربي عبر الكفاح ، مجلة الفكر س ٥ ع ١ (١٩٥٩) .

(٦) انظر ، محمد الميلي (ابن باديس وعروبة الجزائر) ص ٨٨ .

كما تبلور الشعور بالمحتوى الصليبي للهجمة الاستعمارية وبضرورة التضامن والتآزر لمواجهتها في كتابات المفكرين والعلماء السلفيين مثل ابن باديس الذي أكد غيرما مرة أن (هذا الشمال — ويعني به الشمال الافريقي — لا ينهض إلا بتضامنه مع بعضه بعضا) نظرا لأنه ليس (إلا وطن واحد ذو لغة وعقيدة وآداب وأخلاق وتاريخ ومصلحة مشتركة) ومثل علال الفاسي الذي ما فتىء يؤكد بدوره على أن (المغاربة — ويعني المفهوم الواسع للكلمة — أمة واحدة من أقدم العصور ... ولغتنا القومية والدولية هي اللغة العربية بها نعبد الله في مساجدنا ومعابدنا ... وديننا هو الاسلام آمنا به وأخلصنا له وقاتلنا في سبيله مئات السنين ، وروابطنا التاريخية تجعلنا نعتز بماض واحد مجيد وبفخر مشترك إلى حد أنه لا يمكن لفرد ما أن يكتب تاريخ تونس دون أن يتحدث عن الجزائر ، ولا تاريخ مراكش دون أن يتحدث عن الاثنين ، والآلام التي أنزلها المستعمر بنا جعلتنا نستجد كل عواطفنا ونشعر أكثر مما سلف بإحساس القرب من بعضنا والآمال التي تعمر نفوسنا كلها واحدة وهي الحرية والاستقلال والوحدة ، فكيف يمكننا أن نفكر في مصير قطر من الأقطار الثلاثة دون الآخر ، لذلك يجب أن نعمل منذ الآن لتكون الوحدة المغربية حقيقة واقعة[1] ...) .

ومن الجدير بالاشارة في ختام هذه الفقرة أن هذا الوعي الوحدوي في مواقف القادة وكتابات المفكرين المغاربة لم يكن نابعا من قناعة (قومية) كما يذهب بعض الدارسين[2] ، ولكنه ، كما يدل على ذلك ما اجتزأنا للتمثيل به من مواقف وكتابات ، كان نابعا من قناعة عقدية رسختها ثقافة القرآن والسنة بما ألحت عليه من وجوب نبذ الفرقة والخلاف بين الجماعة المؤمنة وتقويتها بالوحدة والتضامن ، وهو ما عبر عنه أحد هؤلاء المفكرين حين قال[3] : (وقد بين القرآن أثر الاختلاف على المتنازعين فقال « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » . فبقدر ما يؤدي الاتحاد إلى القوة والتكاثف والقدرة على التكافل والوصول — من ثم — إلى الفوز يؤدي الاختلاف إلى الضعف والانحلال فالفشل وفقدان الاتجاه حيث تضيع الأمة ريحها الذي يسوقها وتبقى في مهب الأرياح والنزاعات المتناقضة تهوي بها حيث تشاء . وقد وصف النبي ﷺ الفرقة بأنها حالقة للدين تمسح عمن أصيبوا بها كل عقيدة وفكرة ، وتجعلهم غير ذوي خلق أو صفة يعرفون بها ...) .

— د —

وإلى هذا التمهيد ، وقبل أن نمضي في استكشاف جوانب من الوعي الوحدوي في (قصيدة الجهاد) عند شعراء المغرب العربي نضيف كلمة حول هذه القصيدة نجلو بها مفهومها .

وإذا كان مدلول الجهاد يكمن في مقاصده السامية ، وهي التي تتحقق بالسعي والحركة الدائبين ، بما يلازمها من عطاء وبذل ، في سبيل الله لإقرار حاكميته في الأرض وتحرير الإنسان من الشرك والطاغوت حتى يتبين الرشد

(١) انظر ، علال الفاسي ، (المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى) ص ٢٢٣ .

(٢) انظر ، مثلا ، كتاب (الفكر القومي العربي في المغرب العربي) له مؤلفته خيرية عبد الصاحب وادي . منشورات وزارة الثقافة والاعلام العراقية (١٩٨٢) .

(٣) هو الأستاذ علال الفاسي ، انظر كتابه (نداء القاهرة) ص ٢٠٢ .

من الغي ويحقق الإنسان إرادة الله تعالى في الاستخلاف ، فإن أول ما ينبغي أن يميز (قصيدة الجهاد) كونها قصيدة قضية وموقف . أما القضية فهي قضية التحرر من الاستعباد الذي يشل الطاقات ويكسح القدرات في الإنسان ـــ الخليفة . وأما الموقف فهو موقف الشاعر المؤمن الواعي برسالة الفن في التغيير والبناء من تحديات القوى المضادة لعقيدة التوحيد التي تنبثق عنها كافة التصورات ذات المضامين البناءة في الحق ، والعدل ، والخير ، والجمال والتي تلزم المبدع في مثل هذه الحال بالتحام ذاته الشاعرة بالذات الجماعية . وهذا هو ما جعلها ، أي قصيدة الجهاد ، الصورة ـــ الأنموذج لالتزام الشاعر الذي آمن وعمل صالحا ، وهو في دائرة الإبداع ، الجهاد بالكلمة الموحية ، الملهمة ، الهادية التي قد ينتهي الشاعر فيها ، حين تستوى فنا يتوهج بصدق الشعور وينبض بزخم العاطفة ، إلى أن يكون بموقع ضمير الأمة يعاني ويدرك ويضيء النفوس والسبل مسترفدا روح القدس . أو لم يقل رسول الله ﷺ لحسان شاعر (قصيدة الجهاد) الأول : « إن روح القدس لايزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله »[18] .

من هنا ارتبطت (قصيدة الجهاد) بالتاريخ ، أو إذا شئت قلت : إنها تفاعلت مع التاريخ فكانت تسهم في صياغة أحداثه ووقائعه قدر ما كانت توثقه ، بل وتخلده في صورة ذوات قسمات وملامح تختلج بالحياة والحركة مما لا نقع على نظير له في كتب المؤرخين ومدوناتهم .

ولأن هذه القصيدة تستمد رؤيتها من تعاليم الإسلام وقيمه ، وهي التي يتألف من مجموعها تصور متميز ، لا شرقي ولا غربي ، للكون ، والوجود ، والإنسان ، والمجتمع ، والتاريخ ، فقد كانت بذلك مجسمة لهوية الأمة في بعدها العقدي ، والثقافي ، والحضاري مما يتسع معه ، من نحو ، مدلول الجهاد في هذه القصيدة ليستوعب مختلف مجالات الحياة ، ويكسبها ، وأي قصيدة الجهاد ، إلى جانب حفاظها على مقومات هوية الأمة ومرتكزاتها ، فاعلية وتأثيرا في تعميق الوعي بها لدى المتلقين لايزالان بهم حتى قد ينقلب إلى مواقف وممارسات تترجم الإيمان بالهوية في أبعادها المشار إليها مقرونا بالتضحية في سبيل حمايتها مما قد يتهددها من أخطار ويحدق بها من مؤامرات . وتلك هي الأمانة التي حملتها (قصيدة الجهاد) في تاريخ الشعر العربي سواء في المشرق أو في المغرب وبخاصة فى أثناء فترات الصراع بين قوى الحق والباطل والاستواء والإكباب . وهي الأمانة نفسها التى حملتها (قصيدة الجهاد) المغربية في العصر الحديث .

ـ هـ ـ

إن ثقافة القرآن والسنة ، النابعة من (التوحيد) وهو قطب الدين وجوهره ، والداعية بالتزامها قيم الإسلام ومثله ، إلى الوحدة والتضامن ، والتعاون والتآلف بين المسلمين كافة ، هي التي كانت تحدد عندهم مفهوم الوطن بكونه (دار الإسلام) حيث يجد المسلمون متبوأ لهم في الأرض والإيمان ، ذلك أن (المتدين بالدين الإسلامي

---

(١) انظر ، صحيح الجامع الصغير ، ٢ : ٢٠٩ و ٣٣٩ .

متى رسخ اعتقاده يلهو عن جنسه وشعبه ويلتفت عن الرابطة الخاصة إلى العلاقة العامة وهي علاقة المعتقد)[1] . وفي ضوء هذا المفهوم ، وهو قرآني الأصل والمحتد ، يتضح أن العقيدة هي وطن المسلمين (تعيش فيه قلوبهم ، وتسكن إليه أرواحهم ، ويثوبون إليه ويطمئنون له)[2] . وهذا هو ما عناه الشاعر علال الفاسي حين قال :

تبوأ الدار والإيمان موطننا
وما لنا وطن في الأرض إلا هو[3]

وعناه أيضا الشاعر محمد العيد خليفة بقوله :

بورك المغرب من دار لنا
بوأتنا من مغانيها كنانا
نحن فيها أسرة واحدة
إخوة دينا وجنسا ولسانا[4]

وبوحي من هذا المفهوم العقدي للوطن أحب الشاعر المغربي وطنه الإسلامي المترامي الأطراف ، ومن ضمنه المغرب العربي ، وجعل من شعره مرآة لجهاد بنيه ضد الدخيل الصليبي ، بل كان هذا الشاعر لا يكتفي بالمشاركة في وقائع الجهاد وأحداث المعركة من موقعه كمبدع ملتزم بقضايا أمته وإنما كان ينزل إلى الميدان ليساهم بصفة فعلية في المواجهة ، حربية حينا ، وسياسية حينا آخر ، من مثل أحمد الهيبة (ت ١٣٥٦هـ — ١٩٣٧م) ومحمد القرى (ت ١٣٥٦هـ — ١٩٣٧م) وعلال الفاسي (ت ١٣٩٤هـ — ١٩٧٤م) ومحمد العيد (ت ١٣٩٩هـ — ١٩٧٩م) ومفدي زكرياء (ت ١٣٩٧هـ — ١٩٧٧م) ومحمد الشاذلي خزندار (ت ١٣٧٤ — ١٩٥٤م) ومصطفى خريف (ت ١٣٩٦هـ — ١٩٧٦م) وقد بلغ حب بعضهم لهذا الوطن وتعلقهم به درجة من الهيام قصر معها ، أوكاد ، إبداعه الشعري على تصوير معاناة الوطن ومكابدته محن الغزو والاستعباد الصليبيين مؤرثا نوازع الإرادة والطموح الشرعيين في نفوس بنيه لاسترداد حريتهم وامتلاك أمرهم ، وهو في ذلك كله كان يعكس معايشته اليومية لمعركة وطنه بالاندماج فيها والتفاعل معها . نذكر ، للتمثيل لهذا ، الشاعر ، علال الفاسي ، ومحمد العيد ، ومفدي زكرياء ، ومصطفى خريف ، وقد ظفر بعضهم بألقاب ذات دلالة قوية على وعيهم الوحدوي الراسخ من مثل (شاعر الشمال الأفريقي) لمحمد العيد خليفة ، (شاعر المغرب العربي) لمفدي زكرياء .

— و —

إن الفترة التي هيمنت فيها الأمبريالية الصليبية على بلدان المغرب العربي في الحديث تنيف على قرن من الزمن ، وهي فترة غير قصيرة انتظم أثناءها الجهاد عددا غير قليل من الشعراء ليس من الميسور في مثل هذه

(١) انظر ، العروة الوثقى ع ٢ (جمادى الآخرة ١٣٠١هـ) ، وكتابنا (المضمون الاسلامي في شعر علال الفاسي) ص ٣٩ — ٤٢ — ١٢٦ .

(٢) انظر ، (في ظلال القرآن) ٤ : ٤٠ .

(٣) انظر ، قصيدة (ذكرى الهجرة) العالم الثقافي ع ١٨٢ ص ١٠ (١١ فبراير ١٩٧٣) .

(٤) انظر ، ديوان محمد العيد ص ٤٨١ .

العجالة أن نعرض لأعمالهم جميعا ، غير أننا سنحاول في الفقرات التالية أن نجلو صورا من الوعي الوحدوي عند بعض شعراء هذه الفترة من خلال ما كتبوا من قصائد في :

١ ـــ وقائع الجهاد في المغرب العربي .

لم تكد الجحافل الجرارة من الصليبيين الفرنسيين تداهم القطر الجزائري عام ١٢٤٦هـ (١٩٣٠م) حتى وجدنا الشاعر المغربي محمد بن إدريس العمراوي الزموري (ت ١٢٦٨هـ) يرفع صوتة داعياً قومه للجهاد في سبيل الله ومحذرا إياهم من كيد الصليبيين ومكرهم سيما وقد باتوا على مقربة منهم :

يا أهل مغربنا حق النفير لكم
إلى الجهاد فما فى الحق من غلط
فالشرك من جنبات الشرق جاوركم
من بعد ما سام أهل الدين بالشطط
فلا يغرنكم من لين جانبه
ما عاد قبل على الإسلام بالسخط
فعنده من ضروب المكر ما عجزت
عن دركه فكرة الشبان والشمط
فواتح المكر تبدو من خواتمه
فعنده المكر والمكروه في نمط
وأنتم القصد لا تبقُنَّ في دعة
إن الركون إلى الاعدا من السقط
(من جاور الشر لا يعدم بوائقه
كيف الحياة مع الحيات في سفط)
قد يغبط الحي في عز يخلده
وليس حي على ذل بمغتبة[1]

وحين تسقط (تلمسان) في يد الجحافل الصليبية يبادر الشاعر لاستنفار المغاربة وحثهم على جهاد المشركين :

يا ساكني الغرب الجهاد الجهاد
فالكفر قد شارككم في البلاد

(١) النظر ، الديوان : ٤٠٢ ، والاستقصا ، ٩ : ٥٠ .

والشرك قـد نصب أشراكـه
مستعبـدا بكيـده للعبـاد
ويـا حماة الديـن مـا صبركم
والمشاركـون يطالبـون البـداد
ما هـذه الغفلـة عـن ضدكم
وأنتم في الحرب أسد الجلاد
إن بنـي الأصفـر أعـداؤكم
أطمعهـم نومكـم في السواد
ويا أبـاة العـتيم هـل نهضة
تسربل الكفـر ثيـاب الحداد
أين بنو العرب الذيـن لهم
أقدام صدق في جهاد الأعاد
وأين أهـل البر مـن بربـر
ومن لهم في الدين بيض الأياد(١)

ثم يمضي الشاعر ، مستنهضا الهمم ، مستثيرا العزائم بما يصوره من سيطرة الاحتلال على حواضر الجزائر وما سامه من ألوان الهوان لأهلها مؤكدا على وجوب التضامن والاتحاد لمواجهة العدو :

واسطة العرب قـد حازهـا
والأمر جد والبلا في ازدياد
حـوى الجزائـر ووهـرانها
وراع حـاضرا بـذاك وبـاد
مصائب صبت على مـعشر
يبكي من الإشفاق منها الجماد
إخوانكـم دينـا وجيرانكـم
أضحوا رعايا الشرك بين الأعاد
ساموهـم هونـا وأزروا بهم
في الدين حتى ركنوا لارتداد
وطمعوا فيكـم فكونـوا يـدا
فـإن تثاقـلتهم فـأنتم مـراد

(١) انظر ، الديوان : ١٧٩ .

قد ملكوا الأحرار من غدرهم
وذللوا بالكره صعب القياد[1]

وهو بعد أن يتفجع على ما أصاب الإسلام والمسلمين من شرور الصليبيين ينهي قصيدته مؤكدا على الجهاد كما بدأها :

يا أيها الناس اتقوا ربكم
وجاهدوا في الله حق الجهاد[1]

ومثل الشاعر العمراوي وجدنا معاصره محمد غريط المكناسي (ت ١٢٨٠هـ — ١٨٦٣م) يحث قومه على الجهاد مناصرة لإخوانهم في الدين وإنقاذا لهم من العدو :

مالي أرى جفن أهل المغرب وسنانا
من بعد ما أخذ الرومي (تلمسانا)
أين الكماة الحماة ما لهم رقدوا
والكفر في أخذهم مازال يقظانا
يا معشر المسلمين استيقظوا وخذوا
من العدا حذركم سرا وإعلانا
إن لم يفاجئه من تلقائكم مدد
يمد نحوكم للكيد أشطانا
فجددوا عزمكم على قتالهم
واستخلصوا منهم قرى وبلدانا
تلك الجهات بها الإسلام يندبكم
لتهدموا بيعا فيها وأوثانا
وتنقذوا أهلها من العدو فقد
أراهم من شنيع المكر ألوانا
والدين أوجب أن نسعى لنصرتهم
بالنفس والمال أشياخا وشبانا

---

(١) نفسه : ١٧٩ .

(٢) نفسه : ١٨٠ .

لا موت أفضل من موت الجهاد لمن
يرجو من الله رحمات ورضوانا
كونوا صلابا على أهل الصليب فلا
دين لمن لعدو دينه لانا
بيعوا نفوسكم واغزوا عدوكم
كفى بصفقة من لم يغز خسرانا
وشمروا وانهضوا وسارعوا وعلى
جلاده إخوة كونوا وأعوانا[1]

وكذلك ظل شعراء المغرب يرصدون حركة الجهاد ويستنفرون لها حتى تمت عام ١٢٤٨هـ مبايعة المجاهدين عبد القادر بن الشيخ محيي الدين أميرا عليهم ، وقد كان على نبوغ علمي وأدبي[2] ، فاستبشر بالحدث خيرا المسلمون قاطبة (ولا سيما في القطرين الشقيقين : تونس والمغرب الأقصى ... فكانت المراكز الأدبية والعلمية بالقطرين أشد الجهات تأثيرا ، وأوسعها أملا ، وأكملها مناصرة ، فأعان ذلك على شيوع البشرى ، ورسوخ الأمل)[3] ، ولم يتوان السلطان المولى عبد الرحمن بن هشام عن نصرة الأمير عبد القادر حين اضطلع بأمر الجهاد ، فقد (رأى أنه قام بنصرة الإسلام على حين لاناصر له فصار يمده بالخيل والسلاح والمال المرة بعد المرة)[4] فكانت بلاد المغرب الأقصى (تنال حظا زائدا من البهجة والانشراح للمعارك المظفرة ، وحظا مثله من الحرقة والاكتئاب للمعارك المنكسرة)[5] .

ومثلما أثار استيلاء العدو على (تلمسان) مشاعر التضامن والتآزر في نفوس الشعراء فرفعوا أصواتهم يحرضون قومهم على مقاتلة العدو ونصرة إخوانهم في الدين على نحو ما رأينا في أشعار العمراوي وغريط ، أثار جلاء جيش العدو عنها مشاعر البهجة والسرور في نفوس المغاربة ، عبر عنها شاعرهم في هذه الأبيات :

بشرى بفتح كسا الإسلام إحسانا
وصار منه لعين الدين إنسانا
صنع جميل سمت فضلا صنائعه
لوحشة الدهر والأيام أنسانا

---

(١) انظر ، محمد المنوني ، مظاهر يقظة المغرب الحديث ج ١ ص ٢٢ ــ ٢٤ .
(٢) انظر ، في أخباره كتاب ولده الأمير محمد (تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر ط . الاسكندرية (١٣٢٠) .
(٣) انظر ، ابن عاشور محمد الفاضل ، ومضات فكر ، ٢ : ٣١١ .
(٤) انظر ، الاستقصا ، ٢ : ١٩٣ .
(٥) انظر ، ومضات فكر ، ٢ : ٣١٢ .

فأصبحت ووجوه السعد مشرقة
بها جهارا كأن الكفر ما كانا
لله فتح غدا للذكر فاتحة
وصار كالحظ فوق الكتب عنوانا
قد شاد أركان دين الله فاتحة
ومد من جنبات الكفر أركانا
وخط ي صحف التوفيق كاتبه
خطا أقام على الإسعاد برهانا
أضاء في أفق هذا الغرب مشرقة
وبشر القوم إنسانا فإنسانا
وكيف لا وبه إزداد العلا وسما
وطهر الله مولانا تلمسانا
وقد غدت ملة الإسلام عالية
ونكست بحمى الاشراك صلبانا
فتح تفتح أبواب السماء لـه
إذا تلاه لسان الدهر أحيانا
وَهشٌ بالبشر سكان السماء له
مذ سر من مؤمنى الغبراء سكانا
لازال يستخلص الأقطار منتصرا
ثغرا فثغرا وأوطانا فأوطانا[1]

وفي أبيات أخرى يجريها الشاعر على لسان سلطانه المولى عبد الرحمن وقد دعي من طرف الأمير عبد القادر بعد الفتح (لزيارة أقطار تلمسان ومشاهدة معاهدها وانتشار الإسلام في مشاهدها)[2] ما يكشف بجلاء ووضوح عن الوعي الوحدوي الذي بفضله كان بعد الشقة يتهاوى فيما بين الأخوة بأقطار المغرب العربي فتتجاوب المشاعر وتتمازج :

قل لإخواننا الذين دعونا
عندما حضر السرور وغبنا

(١) هذه الأبيات وردت ضمن رسالة مؤرخة في ٢٦ ربيع الآخر ١٢٥٥هـ ، كان وجهها السلطان المولى عبد الرحمن للأمير عبد القادر في التهنئة بفتح تلمسان ، والراجح أنها ، ومثلها الأبيات المشار إليها ، من إنشاء الوزير ابن ادريس العمراوي ، انظر ، وثائق من وحدة المغرب عبر الكفاح ، مجلة الفكر س ٥ ع ١ (١٩٥٩).

(٢) نفسه ص ٤٥ .

نحن أنتم في غيبـــة وحضور
لا نرى بيننا مع البين بينـا
إن حضرتم كأننا قد حضرنا
أو سررتم كأننـا قـد سررنــا[1]

إن الجهاد بما يعنيه من وحدة الصف ، ووحدة الهدف ، ووحدة المصير ، وبما يعنيه من رفع الضيم ، والاستعباد ، والذل ، وبما يعنيه من البذل والتضحية دون استباحة الوطن ــ دار الإسلام ، وبما يعنيه من انصهار المشاعر في وجدان جماعي يملي المواقف الموحدة في مواجهة العدو والتصدي له ... إن الجهاد بكل هذه المعاني البانية ، السامية هو النغم الذي انتظم هذه القصائد فوحد وقعها ، ووحد رؤيتها ، ووحد صبغتها حتى حين تباين باعث القول من غزو محزن إلى فتح مفرح .

٢ ــ زعماء الجهاد في المغرب العربي .

قيض الله تعالى لمجاهدة الصليبية في أقطار المغرب العربي في العصر الحديث رجالا صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، وتصدوا ، شأن المجاهدين الأول من أبناء الأمة الإسلامية ، لهجمة الباطل على ديارهم ، يخوضون المعارك بعد أن يعدوا لها من القوة ورباط الخيل ما أمروا بإعداده ، تخفق قلوبهم بشهادة التوحيد وترطب ألسنتهم بذكر الله ، فوهبت لبعضهم الشهادة في ميادين القتال ، أو أعواد المشانق ، مثلما وهب لبعضهم النفي والتشريد ، حياة تجاوزوا بها ذواتهم إلى ذوات الآخرين لتشعل جوانحهم وأطواءهم بالثورة على الظلم ، والقهر ، والاستعباد[2] .

وقد أدى الشعر المغربي حق هؤلاء الزعماء المجاهدين من خلال تصويره لبطولاتهم ، وإشادته بتضحياتهم على حد ما نقرأ في قصيدة للشاعر الجزائري عبد الكريم العقون يحيى فيها أمير المجاهدين عبد الكريم الخطابي :

أيا بطـلا خـاض المعامـــع وانبرى
لإجلاء أعداء البلاد عـن الوكـر
عهدناك لا تلهـو عـن المجد دائبـا
تشيد له الأركان بالرأي والسمـر
فما أنت إلا السيف سل على العدى
يذوقون منه الموت بالفتكة البكـر
وقفت بوجه الظلم تهدم صرحـه
بصدق وإيمان وسيـفك والفكـــر[3]

---

(١) انظر كتابنا (المضمون الاسلامي في شعر علال الفاسي) ص ٨١ .

(٢) جريدة (البصائر) ع ٧ ص ٦ (١٩٤٧ م) .

ثم يصور الشاعر ما كان لجهاد الأمير عبد الكريم الخطابي من أثر في توعية أبناء المغرب العربي بضرورة النضال لتحطيم الأغلال التي طوقهم بها الطغاة :

ورثت عن الآباء عزا ومنعة
وخلدت آثارا تشع مدى الدهر
وعلمتنا كيف النضال الذي به
نحطم أغلال الطغاة ذوي الغدر
لئن صدك استبداد قوم عن الحمى
فشعبك لا ينساك يا طيب الذكر
بلى إنه يمشي وراءك لاينى
كمشيك للعلياء في السر والجهر[١]

ويكشف الشاعر ، بعد ذلك ، عن مقاصد الجهاد عند الأمير الخطابي والمتمثلة في وحدة تنتظم بلدان شمال إفريقيا صفا واحدا ينعم أصحابه (بحرية غراء طيبة النشر) :

وها أنت ذا تسعى لتحرير أمة
بحزم وإخلاص أيا بطل العصر
تؤمل أن يحيا (الشمال) منهما
بحرية غراء طيبة النشر
تؤمل أن تهديه في حالك الدجى
كما يهتدي الساري بمنبلج الفجر[٢]

وعلى نحو ما صور الشعر جهاد الزعماء لمواجهة الطغيان الصليبي بالحديد والنار ، صور كذلك جهاد زعماء المغرب في ميدان الإصلاح ، والفكر والثقافة ، ومن ذلك ما كتبه الشاعر التونسي مصطفي خريف في تمجيد شخصية ابن باديس ومساعيه في التمكين لعقيدة التوحيد والثقافة العربية :

صغت الحنيفة والعروبة مذهبا
أكرم ، أكرم به من مذهب

(١) (نفسه ص ٦ .
(٢) نفسه ص ٦ .

وبذرت بذراً طيبا وسقيته إلا
خلاص في البلد الكريم الطيب
أشرق بروحك سيدي وأمدنا
بشهاب مقتبس وإملل نكتب(1)

وفي قصيدة أخرى لهذا الشاعر نراه يستخلص من وحي ذكرى ابن باديس أمثلة من مرتكزات الوعي الوحدوي الذي نذر ابن باديس حياته لترسيخه في نفوس أبناء أمته في بلدان المغرب العربي :

قفوا واخشعوا واستلهموا عظة الذكرى
وحيوا الإخا بين الجزائر والخضرا
أرى اليوم ضما واعتناقا ورحمة
وعطفا وأنسا ما أحلى وما أمرا
أرى شامخات الأطلس ارتبطت بنا
وأحكمت الميثاق ما بيننا جهرا
أرى الدين والتاريخ مجمع شملنا
أرى الطبْع والفصحى ، أرى الشعر والنثرا
أرى بيننا روح الإمام تحفها
ملائكة الرحمن في حلل خضرا(2)

ومن الشخصيات التي جاهدت بأدبها وفكرها في بناء الوحدة المغربية الشاعر التونسي محمد الشاذلي خزندار ، ولذلك نجد الشاعر الجزائري محمد العيد حين يبلغه نعي (خزندار) يبادر إلى الدعوة لتعزية (المغرب الأكبر) في شاعره الأكبر :

قم نعزِّ المغرب الأكبر في
شاعر أكبر مرموق مكانا
أيها المغرب أجمل في الأسى
وعزاء في عزيز عنك بانا(3)

(1) انظر ، ديوان (شوق وذوق) ص ٩٠ .
(2) نفسه ص ٤٢ .
(3) انظر ، ديوان محمد العيد ص ٤٨٠ .

إن الشاعر لم ينس ، وهو يصور جهاد (خزندار) ، أن يحث على الوحدة بين بلدان المغرب لأن فيها قوتها ، وينعى الفرقة لأن فيها ضناها :

إنما تـــونس عضو جـــد في
هيكــل المغــرب فاشتــد كيانـــا
بـورك المغـــرب مـــن دار لنـــا
بوأتنـــا مـــن مغــــانيها الكنانـــا
نحن فيها أسرة واحـــــــــدة
إخــوة دينـــا وجـــنسا ولسانـــا
فـــتت الفرقـــة في أعضادنـــــا
إن منها أبـــــدا كل ضنانـــــا
عالجوهـــــا بـــــاتحاد جامــــع
ناجــع المفعـــول ينفــي الشنانـــا
ضمـــن الله بـــه العـــز لنـــا
ونفـــى الذلـــة عنـــا والهوانـــا[1]

ولقد كان تأسيس (مكتب المغرب العربي) بالقاهرة سنة ١٩٤٧ ، برئاسة المجاهد عبد الكريم الخطابي تجسيدا للوعي الوحدوي لدى زعماء الهيآت الحزبية في الأقطار الثلاثة والمتمثل في عزمهم على (العمل العربي بعد توحيد كفاحهم والحصول على استقلالهم)[2] ، وقد شاءت الأقدار الإلهية أن يستشهد سنة ١٩٤٩ ، في حادثة طائرة بسماء (باكستان) ، ثلاثة من رجال هذا المكتب المجاهدين ، هم : محمد بن عبود من المغرب ، وعلي الحمامي من الجزائر ، والحبيب ثامر من تونس ، فوقف الشاعر المغربي ابن ثابت يبكي في فقدهم جهاد المغرب العربي :

وما أنـــا أبــكيهم رفاقـــا أضعتهم
ولكننـــي أبكـــي الجهـــاد المثاليـــا
وما أنـــا أبـكيهم ضحايـــا ثكـــلتهم
وإن كان هذا متلف النفس قاسيا
ولكننـــي أبكـــي نجومـــا تألـــقت
ومغربنـــا الدامـــي يخوض الدياجيـــا[3]

---

(١) نفسه ص ٤٨١ .

(٢) انظر ، نصوص مؤتمر المغرب العربي — القاهرة ١٩٤٧ .

(٣) انظر ، عبد الكريم بن ثابت ، ديوان الحرية ص ٩٥ .

وهو ، بعد ذلك ، يذكر تضحياتهم في سبيل تحرير بلادهم حتى استشهدوا :

سلام عليهم أكرم الله موتهم
رجالا أرادوا للبلاد المعاليا
صقوراً تهادوا في السماء وكلهم
ربيب جهاد قد تحدى الدواهيا
جنوداً أضاعوا في سبيل بلادنا
ومن أجلنا روحا عزيزا وغاليا[1]

٣ ـ الوحدة كمعطى لجهاد المغرب العربي .

إن أحداث الجهاد التي صاغها زعماؤه والذين اتبعوهم من البذل ، والتضحية ، والدم ، وحبهم العارم للوطن ـ العقيدة ، على ما تبينا في الفقرتين السابقتين ، كان من معطياته ذلك الوعي الوحدوي الذي أفصح عنه الشاعر المغربي سواء حين رصد في شعره حدث الجهاد أو استوحى زعامة الجهاد .

وفي هذه الفقرة نحب أن نقف على نماذج مما رسمه الشاعر المغربي في قصيدة الجهاد من صور لهذه الوحدة القائمة بالقوة المنشودة الموعودة بالفعل . ومن ذلك ما يطالعنا به مفدي زكرياء في قصيدة يستلهم فيها حدثا هو حدث عودة السلطان محمد الخامس من المنفى وإعلان استقلال المغرب :

كفر الألى قالوا (الشمال ثلاثة)
ودعوا إلى إذلاله بالنار
نصبوا العصي على الحدود سفاهة
ويسعوا إلى توزيعه لضرار
والمغرب العربي شعب واحد
ملء العروق دم العروبة جاري[2]

(١) نفسه ص ٩٩ .

(٢) ديوان شوق وذوق ص ٧٨ تونس ١٩٦٥ .

وفي قصيدة أخرى يستوحيها من حدث هام أيضا هو حدث استقلال تونس يرسم صورة للمغرب العربي وكأنه طائر قلبه الجزائر وجناحاه المغرب وتونس ، يقول مخاطبا القطر التونسي :

المغـــرب العـــربي أنتَ جناحـــه
حـــرك جنـــاحك يصعـــد المنطـــاد
ولتشهـــد الدنيـــا هنـــالك وحـــدة
جبـــارة تفتـــح لها الآبـــاد[1]

وعند الشاعر التونسي مصطفى خريف أن (الشمال) ، أي شمال إفريقيا ، بلاد تؤلف بين قلوب أهليها العقيدة ، والموقع ، والتاريخ :

إنما قطرنـــا (الشمـــال) المفـــدى
ونبينـــا فخـــر الأنـــام الهادي
وحـــدة لـــن تنـــال منها الليـــالي
أو تداعـــى شوامخ الاطـــواد
فلتجـــل في الشمـــال شرقـــا وغربـــا
قائـــلا : هـــذه البـــلاد بـــلادي
تحكـــم الأطـــلس الشوامخ ميثـــا
ق الإخـــاء المكين رغـــم العـــوادي

كم أراق الدماء أجدادنا فيها احتفاظا بالمجد من عهد عاد[2] ويتناول شاعر آخر هو محمد المرزوقي هذه المعاني ، فيقول :

ما تونس ، والمغرب الأقصى وما الـ
أخت الجزائـــر غير شعب واحـــد
جمعت عنـــاصره القرابـــة في الدمـــا
في الدين ، في لغة وأصل ماجد

(١) انظر ، ديوان (تحت ظلال الزيتون) ص ١٣١ .
(٢) ديوان شوق وذوق ص ٧٨ .تونس ١٩٦٥ .

في وحـــدة موروثـــة موثوقـــة
تـــرك الجدود تراثهـــا للحاقـــد[1]

لكن ، من يحقق هذه الوحدة ؟
والجواب من قصيدة (المغرب العربي) لأحمد سحنون :

من دينه الإسلام يأبى أن يـرى
أبنـــاءه في ذلـــة وصغـــار

إن نام فهـو اليوم يهجر نومـه
لا خير في نـــوم بـــغير قـــرار

واليـوم يقتحـم الصعـاب مجاهـدا
ويخوض للعليـــاء كل غمـــار

ويرى اتحاد الـرأي خير وسيلـة
ويـرى الجهـاد وظيفـة الأحـرار

بالحب سوف يعيـد سالـف مجده
وبـــالاتحاد يفـــوز بالأوطـــار[2]

على أنه مما تجدر الإشارة إليه في ختام هذا العرض أن وعي الشاعر المغربي بالوحدة ، كقيمة عقدية ، لم يكن ليقف عند حدود المغرب العربي ، بل كان يتجاوزها إلى آفاق ومستويات أرحب وأوسع للوحدة كان يتمثلها في وحدة كبرى متكاملة تصل القاصي بالداني على أساس عقدي يلحم بين مشاعر أبناء الأمة الاسلامية وأفكارهم ، وهو ما عنينا بدرسه في أعمال أخرى[3] .

د . حسن الوراكلي

تطوان (المغرب)

(١) انظر ، محمد المرزوقي ، من شعر الكفاح ص ٤١ .

(٢) جريدة (البصائر) ع ٨٧ ـــ ١٩ ـــ (١٩٥٢) .

(٣) أنظر ، كتابنا (المضمون الاسلامي في شعر علال الفاسي) منشورات مكتبة المعارف ص ١٣٣ وما بعدها . ودراستنا عن (الجامعة الاسلامية في الشعر العربي الحديث) .

مصادر ومراجع

١ ــ أحمد بن خالد السلاوي الناصري : **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى** ج ٢ ، ٩ . ص ، دار الكتاب ــ الدار البيضاء (١٩٥٤م) .

٢ ــ أحمد بن محمد المقري التلمساني : **أزهار الرياض في أخبار عياض** ، ج ١ . مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي . ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر (١٣٥٧هـ ــ ١٩٣٩م) ــ القاهرة .

٣ ــ د . حسن الوراكلي : **الاسلام والغرب** ، الناشر ، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال ــ طنجة (١٩٨٧م) . **المضمون الاسلامي في شعر علال الفاسي** . الناشر : مكتبة المعارف ــ الرباط (١٤٠٤هـ ــ ١٩٨٤م) .

٤ ــ خيرية عبد الصاحب وادي : **الفكر القومي العربي في المغرب العربي** . منشورات وزارة الثقافة والاعلام ــ العراق (١٩٨٢م) .

٥ ــ سيد قطب : **في ظلال القرآن** ج ١ ، ٣ . ط ٥ (١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٧م) .

٦ ــ د . صالح خرفي : **الشعر الجزائري** ، الناشر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ الجزائر .

٧ ــ عباس فرحات : **ليل الاستعمار** ، ترجمة أبي بكر رحالة ــ مطبعة فضالة (١٩٦٢) .

٨ ــ عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي : **صحيح الجامع الصغير** ، منشورات المكتب الإسلامي ــ بيروت .

٩ ــ عبد الكريم ثابت : **ديوان الحرية** ، سلسلة (كتاب العلم) رقم ٥ .

١٠ــ علي بن محمد بن الأثير : **الكامل في التاريخ** ، ج ١ ، ط ، مصر ١٩٣٨م .

١١ــ علال الفاسي : **المغرب العربي منذ الحرب العالمية الأولى** . مطبعة دار أمل ــ طنجة . **نداء القاهرة** . المطبعة الاقتصادية ــ الرباط (١٩٥٩م) . **السياسة البربرية في مراكش** . مطبعة الرسالة . **الحركات الاستقلالية في المغرب العربي** . الناشر : دار الطباعة المغربية ــ تطوان (١٩٤٨) .

١٢ــ مصطفى خريف : **ديوان شوق وذوق** ط . تونس (١٩٦٥م) .

١٣ــ محمد بن الأمير عبد القادر : **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر** . ط . الاسكندرية (١٣٢٠م) .

١٤ــ محمد العروسي المطوي : **الحروب الصليبية في المشرق والمغرب** . الناشر : دار الغرب الإسلامي .

١٥ــ محمد العيد : **ديوان محمد العيد محمد علي خليفة** . الناشر : الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ــ قسطنطينة (١٩٦٧م) .

١٦ــ محمد العمراوي : **ديوان محمد بن ادريس العمراوي** . مخطوط تحت رقم (ج ٨٤٥) بقسم المخطوطات ــ الخزانة العامة (الرباط) .

١٧ــ محمد الميلي : **ابن باديس وعروبة الجزائر** . الناشر : دار العودة ــ بيروت (١٩٧٣م) .

١٨ـ محمد المرزوقي : **من شعر الكفاح** . ط . تونس (١٩٧٣م) .
١٩ـ محمد المنوني : **مظاهر يقظة المغرب الحديث** ج ١ ، مطبعة الأمينية (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م) .
٢٠ـ محمد الفاضل ابن عاشور ، **ومضات فكر** . الناشر : الدار العربية للكتاب (١٩٨١) .
٢١ـ مفدي زكرياء : **ديوان (من وحي الأطلس)** ط . المغرب (١٩٦٦م) . **ديوان (تحت ظلال الزيتون)** ، **دار النشر ـ تونس (١٩٦٦)** .

مجلات وصحف

١ ـ جريدة البصائر (الجزائر) : ع ٧ (١٩٤٧م) . ع ٧٨ ـ ٧٩ (١٩٥٢م) .
٢ ـ العروة الوثقى : ع ٢ (١٣٠١هـ) .
٣ ـ العلم الثقافي (المغرب) : ع ١٨٢ (١٩٧٣م) .
٤ ـ مجلة الأصالة (الجزائر) ع ٢ (١٩٧٥) .
٥ ـ مجلة الفكر (التونسية) : ع ١ س ٥ (١٩٥٩م) .

حول دور الترجمة الأدبية في تشكيل صورة العرب في الأقطار الأوروبية والغربية

د. عبده عبود (*)

عندما نكتب في شئون الترجمة الأدبية أو نبحث فيها ، فإن أبحاثنا تدور في معظم الأحيان حول نقل الأعمال الأدبية الأجنبية إلى اللغة العربية ، أي حول التعريب ، وقلّ أن نعالج في أبحاثنا شئون الترجمة الأدبية من العربية إلى اللغات الأجنبية ، أي « التعجيم » (1) . ولهذه الظاهرة أسباب متعددة ، يأتي في طليعتها حقيقة أنّ الترجمة التعريبية تمسّ الثقافة العربية بصورة مباشرة . فالآثار الأدبية التي تنقل إلى العربية تصبح ، بمجرّد تعريبها ، جزءًا لا يتجزأ من الثقافة العربية . وعندما نكتب حول تلك الترجمات ، فإننا نكتب في أمور ترتبط بثقافتنا القومية (2) . أما السبب الثاني فيتمثّل في صعوبة رصد ما يترجم إلى اللغات الأجنبية من آثار أدبية عربية واستقصائه . فالباحث يجد نفسه في هذه الحالة أمام عدد هائل من اللغات الأجنبية ، التي لا يمكنه أن يلمّ بها جميعًا . أضف إلى ذلك أنّ متابعة الإصدارات الجديدة ، حتى في لغة أجنبية واحدة ، كالإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية ، ليس بالأمر السهل . فهو يتطلّب ، من بين ما يتطلبه ، توافر إمكان استخدام المراجع البيبليوغرافية المختلفة ، وهذا غير متاح إلّا لباحث مقيم في البلد الناطق بتلك اللغة الأجنبية ، حيث المكتبات العامّة الكبرى التي تمتلك أجهزة ضخمة من المكتبيّين المتفرغين ، الذين ينهضون بعبء وضع الفهارس

(*) المؤلف : درس اللغة الألمانية وآدابها ، وتخصّص في الأدب المقارن في جامعة فرانكفورت بألمانيا الغربية ، في مجال الأدبين العربي والألماني . وقد نقل إلى العربية كتابي « قصص لأنا زيغرز » (١٩٨١) و « الدراما الحديثة في ألمانيا » (١٩٨٣) . له عدد كبير من الأبحاث المنشورة باللغتين العربية والألمانية ، وكتاب باللغة الألمانية حول استقبال الرواية الألمانية الحديثة في الوطن العربي (فرانكفورت ١٩٨٤) ، يعمل عضوًا للهيئة التدريسية في كلية الآداب بجامعة البعث في حمص بالجمهورية العربية السورية .

(1) على الرغم من أنّ استخدام هذا المصطلح قد شاع في الأونة الأخيرة ، فإننا نميل إلى عدم استخدامه ، لما يخلّفه في النفس من ظلال سلبيّة مردّها اشتقاق هذه الكلمة ، أي التعجيم ، من (عجم) ، وارتباطها اللغوي بكلمات : الأعاجم والعجماوات ، والعجمة . [راجع شحاته الخوري (١٩٨٩)] .

(2) عندما يترجم النصّ الأدبي من لغة إلى أخرى ، فإنه يهاجر من ثقافة لغة المصدر وأدبها إلى ثقافة لغة الهدف وأدبها ، مبدّلًا بذلك هويته الثقافية . ولهذا تعتبر الترجمة عملية « هجرة » يقوم بها النصّ .

البيبليوغرافية في شتى ميادين النشر ، ومن بينها ميدان الترجمة الأدبية ، وهي مهمة يعجز أيّ باحث منفرد عن إنجازها بطبيعة الحال . وثمّة سبب ثالث يكمن وراء قلّة الخوض في شئون ترجمة الأعمال الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية ، ألا وهو عدم توافر الوعي بأهمية هذه المسألة . فكثير من الناس يعتقدون أنها قضيّة لا تعنينا ، نحن العرب ، بقدر ما تعني الشعوب التي تنقل الآثار الأدبية العربية إلى لغاتها ، وذلك لأنّ ثقافات تلك الشعوب هي التي تغتني بهذه الترجمات . أما نحن فسيّان عندنا ، في رأي هؤلاء ، أترجمت إبداعاتنا الأدبية إلى اللغات الأجنبية ، أم لم تترجم . إنّ منطق أولئك الذين يرون استقبال الإبداعات الأدبية العربية في العالم الخارجي شأنًا ثقافيًا أجنبيًا ، لا يجوز للعرب ولا يسعهم ، أن يتدخلوا فيه ، ينطلق من حقيقة أنّ من يتلقّى عملًا أدبيًا ، وطنيًا كان ذلك العمل أم أجنبيًا ، فإنه يفعل ذلك بدافع من حاجته كمتلقٍ ، لا إنطلاقًا من حاجة لدى الجهة المرسِلة . وهم ينطلقون في ذلك من حقيقة معروفة للجميع ، ألا وهي أنّ عمليات التلقي الأدبي تخضع بصورة عامة لحاجات جمالية وفكرية قائمة في نفس المتلقي [1]ويستنتجون من ذلك أنّ عملية التلقي تعنيه وحده ، ولا تعني أحدًا سواه . وعندما يطبقون تلك المقولة الصحيحة جزئيًا على استقبال الإبداعات الأدبية العربية في الخارج ، تكون نتيجتها المنطقية أنّ تلك المسألة تعني المتلقين الأجانب وحدهم ، ولا تعنينا . فهم يحدّدون ما إذا كانوا بحاجة إلى استقبال أيّة إبداعات عربية ، وما نوع تلك الإبداعات ، ومتى يستقبلونها ، وكيف . إنّ الذين يحاجّون هكذا يُخرِجون مسألة استقبال الإبداعات الأدبية العربية في العالم الخارجي من دائرة الاهتمام العربي ، ويعفون أنفسهم بالتالي من عناء دراسة ذلك الإستقبال .

ميزان ثقافي :

ولكن أصحيح أن استقبال الأدب العربي في الخارج هو شأن ثقافي أجنبي بحت ، لا يعني العرب ، ولا يتطلّب منهم أن يؤثّروا في مجراه ؟ في رأينا لا بدّ من التأكيد على أنّ لنا ، نحن العرب ، مصلحة ثقافية كبيرة في أن يُستقبل أدبنا في العالم الخارجي بصورة مناسبة كمّاً ونوعاً . وإذ نقول إنّ هذه المصلحة ذات طبيعة ثقافية ، ونضع خطّاً تحت كلمة « ثقافية » فلكي نستبعد كلّ تفكير في المصلحة المادية أو التجارية ، التي يمكن أن تنتج عن منح حقوق ترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية . فالمردود المالي لتلك العملية رمزيّ جدّاً ، ولا يشكّل بالتالي مخرجًا من الضائقة المادية ، التي يعاني منها كثير من الأدباء العرب [2] . إنّ مصلحتنا في أن يستقبل الأدب العربي في الخارج هي إذن مصلحة ثقافية أولًا وأخيرًا . وإذا شئنا أن نكون أكثر تحديدًا فإننا نقول : إنها مصلحة ثقافية خارجية ، تتمثل في تعديل ميزاننا الثقافي الخارجي ، كي لا يكون خاسرًا ، إن لم نقل كي يكون رابحًا . فتمامًا كما لكلّ أمة ميزان تجاريّ خارجي ، تحرص على ألا يكون العجز فيه كبيرًا ، فإنّ

(١) راجع بخصوص هذه المسألة W. Reese (1980) ; M. Naumann (1984)

(٢) في معظم الحالات لا تعود عملية ترجمة الابداعات الأدبية العربية بأي مردود مالي على المؤلفين . فحقوق الترجمة ملك للناشر ، لا للمؤلف . وفي كلّ الأحوال ينبغي ألا تكون هناك أية أوهام بهذا الخصوص .

لكل أمة ميزاناً ثقافياً خارجيًا ، يحسن ألّا تكون درجة العجز فيه عالية أيضًا . قد يبدو استخدام مفهوم مستمد من عالم الاقتصاد ، كمفهوم « الميزان الثقافي الخارجي » ، أمرًا مستهجنًا ، وقد يعترض أحدهم على هذا المفهوم قائلًا : إنّ الثقافة ليست سلعة تخضع للتبادل ، وقوانين العرض والطلب مثل السلع المادية ، وبالتالي لا يمكن أن يكون في العلاقات الثقافية عجز ولا فائض . وردّنا على ذلك أنه لا يمكن لأحد أن ينكر أو أن يتجاهل حقيقة أنّ في عالم اليوم ، وبصورة موازية للعلاقات التجارية الدولية ، علاقات ثقافية دولية ذات بنى معينة ، تطورت وترسخت بصورة مشابهة للعلاقات الاقتصادية ، وإن لم تكن مطابقة لها كلّ التطابق . فتمامًا كما يوجد في عالم اليوم قوى عظمى ، تمارس الهيمنة الاقتصادية والسياسية والعسكرية ، ودول ضعيفة متأخّرة ومهيمَن عليها اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا ، توجد أقطار مهيمنة ، وأخرى مهيمن عليها ثقافيًا . وتمامًا كما تسود في العلاقات الاقتصادية الدولية بنى متناقضة وغير متكافئة ، دفعت العديد من أقطار العالم الثالث إلى حافةّ البؤس والمجاعة ، تسود في العلاقات الثقافية الدولية بنى غير متوازنة ولا متكافئة ، تقوم على التغلغل والهيمنة(١) . ولربّ قائل إنّ العلاقات الاقتصادية غير المتكافئة تؤدّي إلى تراكم الديون ، وإلى الوقوع في التبعية السياسية في نهاية الأمر ، وهذا ما لا ينطبق على العلاقات الثقافية . إن حجّة كهذه صحيحة من ناحية ، وغير صحيحة من ناحية أخرى . فاختلال العلاقات الثقافية لا يؤدي إلى تراكم الديون ، ولا إلى الارتهان السياسي ، ولكنه يؤدي إلى أشكال أخرى من التبعية والارتهان ، تخدم التبعية الاقتصادية والسياسية وتكرسها بصورة غير مباشرة . فالتبعية الثقافية لا يمكن إلّا أن تكون جزءًا من تبعية شاملة ، اجتماعية – حضارية ، تمثّل التبعية الاقتصادية والسياسية وجهها الأبرز ، ولكنّ التبعية الثقافية تمثل وجهها الآخر ، الذي تربطه بالوجه الأول علاقة وظيفية . فالتبعية نظام اجتماعي – حضاري شامل ، لا يمكن أن يكون مقتصرًا على جانب واحد من جوانب المجتمع . وكلّ خلل يحدث في جانب من جوانب التبعية قد يهزّ منظومة التبعية برمّتها . وبالمقابل فإنّ كلّ تحرّر اقتصادي – سياسي يظّل مهددًا ما لم يكمله تحرر ثقافي ويدعمه (٢) . ولهذا السبب نجد أنّ القوى المهيمنة اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا في عالم اليوم تبذل جهودًا كبيرة في ميدان التغلغل الثقافي الخارجي ، وتنفق على نشاطاتها الثقافية الخارجية المتنوعة أموالًا طائلة ، يبدو إنفاقها للوهلة الأولى ضربًا من التبذير الذي لا مسوّغ له (٣) .

---

(١) يرجع الفضل في بلورة هذه المقولة إلى الباحث العربي الدكتور بسام طيبي ، أستاذ العلاقات الدولية في جامعة غوتنغن الألمانية الغربية . لمزيد من التفصيلات راجع الفصل الأول من كتابه (B. Tibi (1981) . أما الأدبيات المتوافرة باللغة العربية حول مسائل التغلغل الثقافي فهي كثيرة ، ولا يتسع المجال لا يرادها جميعًا ، ولذا فإننا نكتفي بالإشارة إلى : (عزيز الحاج ، ١٩٨٣)

(٢) نستند في تصورنا لمنظومة التبعية إلى مقولات الباحث والمفكر العربي الدكتور سمير أمين (١٩) .

(٣) لقد أوجدت كلّ دولة من الدول الصناعية الغربية المتطورة نظامًا متكاملًا للنشاطات الثقافية الخارجية ، وهو نظام له أجهزته ومؤسساته ، التي تمارس تلك النشاطات بصورة مباشرة ، كما تفعل الملحقيات الثقافية في سفارات تلك الدول ، أو بصورة غير مباشرة من خلال « منظمات وسيطة » لها كيان مستقل نسبيًا ، ولكنها تموّل ويُشرف عليها من قبل وزارات الخارجية في المقام الأول . أما أبرز مؤسسات العمل الثقافي الخارجي فهي المراكز الثقافية المنتشرة في معظم عواصم البلدان الأجنبية ، حيث تمارس نشاطات ثقافية مثل تعليم اللغات الأجنبية ، وعرض الأفلام والمسرحيات ، وإقامة المعارض الفنية والمحاضرات والندوات والحفلات الموسيقية .. ويلي المراكز الثقافية من حيث الأهمية مؤسسات « التبادل الجامعي » ، التي تقدّم المنح الدراسية للطلاب الجامعيين وللخريجين الذين يودّون إتمام دراساتهم العليا في جامعات الدول الغربية .
أما الأموال التي تنفقها الدول الغربية على نشاطاتها الثقافية الخارجية فهي طائلة حقًا ، مما يثير من حين لآخر انتقادات بعض الأوساط المتقوقعة الانعزالية =

خلل في العلاقات الأدبيـة

والعلاقات الأدبية السائدة في عالم اليوم لا تخرج عمومًا عن الإطار المشار إليه آنفًا ، أي بنى الهيمنة والتغلغل ، التي تحكم العلاقات الثقافية بين الأقطار الصناعية المتطورة ، المسماة بالمراكز ، وأقطار العالم الثالث المتأخرة ، المسماة بالأطراف أو الهوامش . فالعلاقات الأدبية جزء لا يتجزأ من العلاقات الثقافية وينطبق عليها ما ينطبق على تلك العلاقات . وتأخذ بنى الهيمنة والتبعية في العلاقات الأدبية أشكالاً متعددة ، يأتي في مقدمتها دراسة الآداب الأجنبية في الجامعات ، والترجمة الأدبية فعلى صعيد دراسة الآداب الأجنبية فى العالم العربي نجد أنّ كليات الآداب في الجامعات تضمّ كلّها أقسامًا لدراسة الأدب الإنكليزي ، ويضم قسم كبير منها أقسامًا لدراسة الأدب الفرنسي ، وهناك في بعض الكليات أقسام للأدب الألماني والروسي . وأقسام الآداب الأجنبية في الجامعات العربية أقسام مكتظة ، يدرس في كلّ منها آلاف الطلاب [1] .أما في جامعات الأقطار الأوروبية والغربية عمومًا ، فلا يُدرس الأدب العربي إلّا على نطاق ضيّق جدًا ، ويُعد طلّاب كلّ قسم من أقسام الاستشراق في تلك الجامعات بالعشرات ، ناهيك من أنّ أقسامًا كهذه غير موجودة إلّا في بعض تلك الجامعات فقط [2] . ومقابل كلّ طالب أوروبي يدرس الأدب العربي هناك مئات الطلاب العرب الذين يدرسون الآداب الأوروبية . ألا يمثّل ذلك شكلًا صارخًا من أشكال التبعية الثقافية ؟ نرجو ألا يُعتبَر هذا القول دعوة إلى الكفّ عن دراسة الآداب الأوروبية في الجامعات العربية ، فنحن لا ننكر ضرورة دراسة الآداب ، ولكننا نرى أنّ الأدبين الإنكليزي والفرنسي ليسا الأدب العالمي ، وإذا صحّ أننا بحاجة للانفتاح على الآداب الأجنبية ، فلننفتح على الآداب الأجنبية كلّها ، أو على الآداب الرئيسة منها على الأقلّ ، لا على أدبين فقط . كذلك لا يمكننا القفز فوق حقيقة أنّ الانفتاح على الآداب الأوروبية من جانب العرب لا يقابله انفتاح على الأدب العربي من جانب الأوروبيين ، مما يجعل العلاقات العربية — الأوروبية في ميدان الأدب مختلّة بشدّة لغير صالح العرب . وتلك حقيقة نذكّر بها في وقت استأنف فيه العرب والأوروبيون حوارهم الثقافي المتعثر ، الذي يتم بين طرفين : طرف يمتلك خطة متكاملة مدروسة بعناية ، ومؤسسات للعمل الثقافي الخارجي ، وهو الطرف الأوروبي ، وطرف لا يمتلك هذا ولا ذاك ، ألا وهو الطرف العربي .

--- التي لا تعي أهمية العمل الثقافي الخارجي ، ولكنّ القائمين على ذلك العمل لا يحارون جوابًا ، وسرعان ما يسكتون تلك الانتقادات ، مشيرين إلى أنّ ما ينفق على النشاطات الثقافية الخارجية هو استثمار للمستقبل ، تخدم السياسة الخارجية ، وبالتالى المصالح السياسية الخارجية للبلاد المعنيّة على المدى الطويل . ولقد تكوّن في الدول الغربية إجماع على أنّ العمل الثقافي الخارجي يمثّل دعامة أساسية من دعائم السياسة الخارجية (راجع بهذا الخصوص : B. C. Witte (1987)

(١) يدرس في قسم الأدب الإنكليزى بجامعة « البعث » ، وهي أحدث الجامعات السورية وأصغرها ، (٣٥٠٠) طالب وطالبة ، أما جامعات دمشق وحلب واللاذقية فإنّ عدد طلاب قسم الأدب الإنكليزي في كلّ منها يربو على ذلك بكثير . فكم عدد الطلاب الذين يدرسون اللغة العربية وآدابها في جامعات الأقطار الناطقة بالإنكليزية ؟ لمزيد من المعلومات يرجى الرجوع إلى الدليل الذي تصدره كل جامعة من الجامعات العربية .

(٢) لمن يود التأكد من ذلك إلى دليل الجامعات في كل قطر من الأقطار الغربية .

سبيلان لتلقي الإبداعات الأدبية

إذا إنتقلنا إلى حركة الترجمة الأدبية ، أو بتعبير أوسع حركة استقبال الأدب العربي في الأقطار الأوروبية والغربية (١) ، فإننا نجد خللًا لا يقلّ عن الخلل الذي لا حظناه على صعيد دراسة الآداب . فكيف يُستقبل الأدب العربي في تلك الأقطار ؟

لا بدّ لنا بادىء ذي بدء من الإشارة إلى أنّ هناك سبيلين رئيسين لذلك الاستقبال : أولهما استقبال ذلك الأدب بصورة مباشرة عن لغته الأصلية ، وهو في الواقع أفضل أشكال الاستقبال الأدبي . فعندما يستقبل المرء عملًا أدبيًا على هذا الشكل ، فإنه يستقبله بصورة كاملة ، ويتعرّف إلى مقوماته الجمالية والمضمونية الأصلية ، بعيدًا عن وساطة المترجم ، التي تعني بالضرورة انحرافات أسلوبية ومضمونية ، أصبحت تعرف بـ « خيانة » المترجم . الا أن استقبال العمل الأدبي الأجنبي دون توسيط ترجمي يشترط أن تتوافر في المتلقي كفاءة لغوية وثقافية كافية ، أى قدرة على استيعاب ذلك العمل في لغته الأصلية بصورة مناسبة ، وهو شرط غير متحقق إلّا في عدد قليل من الأجانب . فالعربية ليست لغة واسعة الانتشار خارج الوطن العربي كلغة أجنبية ، وذلك لأسباب كثيرة ، أبرزها تخلّف تدريسها للأجانب وقصوره . لذا فإن استقبال الإبداعات الأدبية العربية عن لغتها الأصلية غير متيسر إلّا لفئة محدودة جدّاً من الأجانب ، وهي فئة تدرس الأدب العربي وتتخصص فيه . أما السواد الأعظم من الأجانب الذين يتلقون الأدب العربي ، أو يمكن أن يتلقوه ، فهم بحاجة ماسة إلى التوسيط الترجمي ، أي إلى أن تُنقل الأعمال العربية إلى لغاتهم ، قبل أن يتمكنوا من استقبالها . وهكذا فإنّ تلقي الأدب العربي في الخارج يتوقّف في نهاية الأمر على ترجمة أعمال من ذلك الأدب إلى اللغات الأجنبية .

حركة الترجمة الأدبية

من المعروف أن لنقل الأعمال الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية مشكلاته ، شأنه في ذلك شأن كلّ ترجمة أدبية . فكل ترجمة من هذا النوع تنطوي بالضرورة على خسارة شكلية أو مضمونية ، أو على الخسارتين معا . وكلما كان العمل الأدبي عظيما ، كلما كان عصيا على الترجمة . (٢) أما التعادل أو التكافؤ المطلق في الترجمة الأدبية ، فهو أمر مستحيل التحقيق ، ولذا أخذ علماء الترجمة يستعيضون عنه بمفهوم « التعادل الديناميكي » « أو النسبي » ، بل إن بعضهم استبدل مفهوم « التعادل » بمفهوم « التقارب » (٣) . ولكن رغم كل ما يقال

---

(١) لا نتطرق في هذا البحث إلى استقبال الأدب العربي في أقطار العالم الثالث ، وذلك لأننا لا نعرف عنه الشيء الكثير ، رغم أننا نعي أهميته البالغة .

(٢) من أفضل الأمثلة التي يمكن أن يسوقها المرء للتدليل على صحة هذه المقولة رائعة الأديب الكلاسيكي الألماني يوهان ف . غوته « فاوست » التي نقلت إلى العربية عدة مرات ، ولكن تلك الترجمات العربية كانت بعيدة عن التعادل الجمالي والمضموني مع بعد النص الأصلي عن المترجم بعد الأرض عن السماء . راجع : ي . ف . جوته (١٩٥٨) (١٩٥٩) (١٩٨٠) (١٩٨٩)

(٣) فيما يتعلق بشؤون الترجمة الأدبية ونظريتها يرجى الرجوع إلى : J. Levy (1969) الذي نعتبره الأفضل في بابه ، وهو كتاب ترجم عن التشيكية إلى العديد من لغات العالم ، ولكنه لم ينقل بعد إلى العربية ، كما ننصح القارىء الذي يجيد الألمانية بالرجوع إلى كتاب (F. Apel (1983) وبخصوص مفهوم التعادل الجمالي في الترجمة الأدبية نحيل القارىء إلى (ي . نايدا ١٩٧٦) (K. Reiss (1971) ; W. Koller (1983)

عن « خيانة » المترجم ، تظلّ الترجمة السبيل الوحيد إلى تمكين متلقين لا يجيدون اللغة الأصلية للعمل الأدبي من استقبال ذلك العمل . ولهذا فلا بديل عن الترجمة ، إذا أردنا لاستقبال الأدب العربي في الخارج ألاّ ينحصر في فئة صغيرة من المستعربين . فماذا عن حركة نقل الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية ؟

يصعب على الباحث أن يقدم صورة وافية عن تلك الحركة في بحث قصير كهذا . فموضوع كبير وهامّ من هذا النوع يستحقّ أن تفرد له عدّة رسائل دكتوراه ، تعالج كلّ واحدة منها استقبال الأدب العربي في إحدى اللغات الأجنبية . ومن الجدير بالذكر في هذا السياق أنّ الموضوع لم يُدرس بعد ولو بصورة تمهيدية ، وذلك بأن تُحصر الترجمات الأدبية التي تتمّ عن العربية إلى اللغات الأجنبية بيبليوغرافيًا . وكلّ ما هو متوافر حاليًا هي مقالات وأبحاث متفرقة حول ما تُرجم إلى لغة أجنبية معينة من إبداعات أدبية عربية . فهناك ، على سبيل المثال ، أكثر من بحث حول ما تُرجم إلى الألمانية من أعمال أدبية عربية [1] ، ونتوقّع أن تتوافر أبحاث مشابهة حول ما تُرجم إلى الإنكليزية والفرنسية والأسبانية والروسية . كما تنشر الصحافة العربية من حين لآخر أخبارًا حول ترجمة أعمال أدبية عربية إلى اللغات الأجنبية [2] . ومن المؤكّد أنّ فهرس الترجمات الذي يصدر عن منظمة الأمم المتحدة ، يقدّم خدمة كبيرة للباحث ، ولكنّ المعلومات التي يحويها ذلك الفهرس غير تامّة .[3] ومع أنّ المرء لا يستطيع أن يقدّم حاليًا صورة دقيقة ووافية عن عمليات استقبال الأدب العربي من خلال الترجمة ، فإنّ بوسعه ، انطلاقًا من المعلومات المتوافرة ، أن يتبيّن المعالم الأساسية لذلك الاستقبال .

الجانب الكمّيّ

من الناحية الكمّية يلاحظ أنّ ما يُنقل إلى اللغات الأجنبية (الأوربية تحديداً) من أعمال أدبية عربية أقلّ بكثير مما ينقل إلى العربية من أعمال أدبية أجنبية . ومع أنّ المرء لا يستطيع الإدلاء على هذا الصعيد بأقوال دقيقة إحصائيًا ، وذلك لعدم توافر الدراسات البيبليوغرافية الكافية ، يمكننا القول : إنه مقابل كلّ عمل أدبي عربي يترجم إلى اللغات الأوروبية ، تُترجم عدة أعمال أدبية أوروبية إلى اللغة العربية . إنّ كلّ المعلومات والمؤشرات المتوفرة

---

(١) فيما يتعلق بترجمة أعمال أدبية عربية إلى اللغة الألمانية راجع بحثنا : (ع . عبود ١٩٨٧) .

(٢) أثناء قيامنا بإعداد هذا البحث نشرت إحدى المجلات الأسبوعية العربية (الأفق ، العدد ٢٦٧ ، ١٦ / ١١ / ١٩٨٩) خبر صدور ترجمة سويدية لديوان الشاعر العربي الفلسطيني محمود درويش ، كما قرأنا في إحدى الصحف السورية (البعث ، ١١ / ١٢ / ١٩٨٩) خبر صدور ترجمة روسية لأعمال الشاعر الفلسطيني معين بسيسو . وفي ربيع ١٩٩٠ صدرت بالألمانية ترجمات لبعض أعمال رفاعة الطهطاوي (R. al- Tahtawi (1990) ونوال السعداوي (N. El- Saadawi (1990) وحنان الشيخ (H. al- Scheich (19990) ويحي طاهر عبد الله (J. T. Abdallah (1990) ، كما حملت الصحافة العربية خبر نقل عدد كبير من آثار الروائي العربي الكبير نجيب محفوظ إلى اللغات الأجنبية . ولكنّ نشر أخبار من هذا النوع يخضع لعوامل الصدفة ، أكثر مما يعبر عن سعي لتغطية منهجية لحركة ترجمة الابداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية .

(٣) نعني بذلك السلسلة البيبليوغرافية السنوية (Index Translatorum) وهو فهرس يورد ما تزوده به الجهات الرسمية القطرية من معلومات حول ما يصدر في أقطارها من ترجمات ولكن إذا كانت تلك الجهات ، في الوطن العربي مثلًا ، مقصّرة في جميع البيانات البيبليوغرافية المتعلقة بحركة الترجمة في بلادها ، فكيف تستطيع أن تزوّد الـ (يونسكو) بتلك البيانات . ولهذا لا غرابة في ألا يحتوي هذا الفهرس إلّا على معلومات قليلة حول الترجمة في الأقطار العربية .

حول حركة الترجمة الأدبية بين اللغة العربية واللغات الأوروبية (إذا أخذت تلك اللغات كمجموعة) تدلّ على وجود خلل كبير في بنية تلك الحركة لصالح الآداب الأوروبية ، ولغير صالح الأدب العربي .

وفي السياق نفسه من الملاحظ أن الأعمال الأدبية العربية التي تترجم إلى اللغات الأوروبية تصدر في معظم الحالات عن دور نشر صغيرة ، وفي طبعات محدودة ، ولا تصل بالتالي إلى جمهور عريض من المتلقين ، مما يجعل تأثيرها محدودًا ، ويجعلها عاجزة عن أن تساهم بفاعلية في تعريف الرأي العام الغربي بالأدب العربي [1] . ولعل أبلغ وأظفر برهان على ذلك هو الاستغراب والاستهجان اللذان قابل بهما النقد الأدبي في بعض الأقطار الأوروبية منح جائزة نوبل للآداب للروائي العربي نجيب محفوظ في عام ١٩٨٨ . ومن المفيد أن نورد ما كتبه بتلك المناسبة أحد النقاد الأدبيين في واحدة من كبرى الصحف اليومية الألمانية الغربية ، فقد كتب : « نزلت إلى المكتبات ، وسألت عن أعماله المترجمة إلى الألمانية ، فلم أعثر إلّا على ترجمة لرواية بوليسية عنوانها « اللصّ والكلاب » ، وقيل لي إنّ ترجمة لرواية أخرى قد صدرت في برلين الشرقية ، ولكنها غير متوافرة في المكتبات . وما فاجأني أكثر من ذلك هو أنّ الصحافة لم تتفق حتى على شكل واحد لكتابة اسمه . فهناك من يسميه « مخفوتس » ، بينما يدعوه آخرون « مهفوس » أو « مهفوز » ، وأنا أتساءل : كيف تمنح جائزة نوبل لأديب لا يعرف الرأي العام اسمه الصحيح ؟ » . ومع أنّ السفير الألماني الغربي في مصر قد ردّ على الناقد الآنف الذكر في رسالة وجهها إلى الصحيفة الألمانية ، ولام الناقد ، آخذًا عليه جهله وعجرفته الثقافية ، فإنّ ذلك لا يلغي حقيقة عنيدة ، ألا وهي أن الرأي العامّ في الأقطار الغربية لا يعرف عن الأدب العربي إلا القليل ، وأنّ الأدب العربي لم يزل مهملاً ومحاصرًا في تلك الأقطار [2].

الجانب النوعي

هذا عن الجانب الكمي لاستقبال الأدب العربي المترجم إلى اللغات الأجنبية (الأوروبية) ، فماذا عن الجانب النوعي لذلك الاستقبال ؟ إننا نعني بالجانب النوعي أمرين أساسيين هما : اختيار الأعمال الأدبية المترجمة ، وجودة الترجمة .

بالنسبة للنقطة الأولى فمن الملاحظ أنّ دور النشر الغربية تعتمد في عمليات اختيار أعمال من الأدب العربي للترجمة على المترجمين أنفسهم ، وهم في أكثر الحالات من المستعربين ، كما تستعين في حالات أخرى بآراء بعض أساتذة الاستشراق ، الذين يقدمون المشورة لدور النشر . وإذا أخذنا بعين الاعتبار أنّ المترجمين أنفسهم يكونون غالبًا خريجي أقسام الاستشراق ، أمكننا القول إنّ عملية الاختيار لا تخرج عن الوسط الاستشراقي ، وهو أمر

---

(١) على سبيل المثال نذكر أنّ معظم ما صدر بالألمانية من ترجمات لأعمال من الأدب العربي الحديث قد صدر عن دار نشر صغيرة في برلين الغربية اسمها (Fdition Orient) وعن داري نشر سويسريتين صغيرتين هما (Unionsverlag) و (Lenos) أما صدور ترجمة ألمانية لأثر أدبي عربي حديث في دار نشر ألمانية كبيرة فهو شذوذ عن القاعدة .

(٢) جرت تلك المساجلة الفنية بالدلالات على صفحات جريدة (Frankfurter Allgemeine Zeitung) ، وهي إحدى الصحف اليومية الألمانية الكبرى وتلعب صفحاتها الثقافية ، وملحقها الثقافي الأسبوعي ، وملحق الأدب الذي تصدره فصليًا ، دورًا كبيرًا في توجيه الحركة الثقافية الألمانية . (راجع مقالنا : ١٩٨٨) .

يبدو جيدًا للوهلة الأولى . أو ليس المستشرقون أشخاصًا درسوا الأدب العربي وتخصصوا فيه ، وبالتالي فهم مأهّلون أكثر من أية جهة أخرى لترشيح أعمال أدبية عربية للترجمة ؟ هذا صحيح من الناحية النظرية . أما من الناحية الواقعية فمن الملاحظ أنّ قسمًا كبيرًا من المستشرقين الأوروبيين ليسوا على إطلاع كاف على الأدب العربي الحديث ، وذلك لأسباب كثيرة ، نذكر منها :

(أ) النزعة الاستشراقية التقليدية إلى الإعراض من الثقافة العربية الحديثة ، والانصراف الكلّي إلى الثقافة العربية القديمة ، التي يسمونها « كلاسيكية » ، ويكرسون جهودهم للتأليف والبحث والتحقيق في إطارها (١) .

(ب) بطء المترجمين والمستشرقين الأوروبيين في قراءة النصوص العربية ، مما يجعل كمية الأعمال الأدبية التي يطلعون عليها محدودة نسبيًا . فقدرة المرء على القراءة في لغته الأم تكون بطبيعة الحال أكبر بكثير من قدرته على القراءة في لغة أجنبية ، ولا سيما إذا كانت تلك اللغة هي العربية .

(جـ) عدم وصول الإصدارات الأدبية والنقدية العربية إليهم بسرعة وانتظام . ومع أنّ المكتبات العربية التي أفتُتحت في بعض العواصم الأوروبية في الأعوام الأخيرة قد ساعدت على توفير المطبوعات العربية في أوروبا ، فإنّ إمكان متابعة ما يستجدّ في الساحة الأدبية العربية من هناك مازال محدودًا . وفي كلّ مرّة يلتقي فيها المرء مستشرقين فإنه يلمس مدى الصعوبة التى يجدونها فى متابعة الإصدارات الأدبية والنقدية العربية ، ولهذا فإنهم يسافرون إلى الأقطار العربية كلّما أتيحت لهم الفرصة ، وذلك بغرض تحديث معلوماتهم ، والاطلاع على ما يستجد في الساحة الثقافية العربية واقتناء الإصدارات الجديدة (١) .

كل هذه الأمور تنعكس على الاختيارات التي يقدم عليها المترجمون ، وتجعل كثيرًا من اختياراتهم مستغربًا بالنسبة إلينا في العالم العربي . فهم يترددون ، وكثيرًا ما يعرضون عن ترجمة أعمال نعتبرها جماليًا وفكريًا من روائع الأدب العربي الحديث ، بل والأدب العالمي . ومن الملاحظ أنّ المستشرقين الأوروبين يقيّمون النوعية الجمالية للأعمال الأدبية العربية تقييمًا مختلفًا عن تقييمنا ، نحن العرب ، لتلك الأعمال . وهذا أمر طبيعي . فرؤية كلّ شعب لثقافته ، أي رؤية الأنا ، تختلف بالضرورة عن رؤية الشعوب الأجنبية ، أي رؤية الآخر ، لتلك

---

(١) أنظر أدوار سعيد وتحليله الخلفيات والتاريخية والأيديولوجية لتلك النزعة (١٩٨١) .

(٢) من الضروري أن نشير في هذا السياق إلى أنّ هذا النوع من الصعوبات التي يواجهها المستشرق الأجنبي ذو طبيعة عملية بحتة ، ولا علاقة له البتّة بدأب المستشرق وجلده . فكثير من المستشرقين الأوروبين يتمتعون بأخلاق عمل تستحق أن يُحتذي بها ، وهم يتعمقون في مجال اختصاصهم تعمقًا تمنّى أن يتحلّى به أكبر عدد من الباحثين العرب . وعلى سبيل المثال فقد زارت المستشرقة الألمانية المعروفة روترا ودفيلاندت في أواخر ١٩٨٩ م المنطقة العربية ، وألقت في الجامعات التي زارتها ثلاث محاضرات ، كان أبرزها وأكثرها استثارًا بالاهتمام محاضرة حول « صورة المرأة الأوروبية في الأدب العربي الحديث » . (المؤلفة ، ١٩٨٩ ، مخطوط) . ومع أنّ هذه المستشرقة متخصصة في الأدب العربي الحديث ، وقد كتبت فيه دراسة مقارنية رائدة عنوانها « صورة الأوروبين في الأدب القصصي والمسرحي العربي الحديث » (راجع : R. Wielandt (1980)) ، فقد لاحظ مستمعو المحاضرة الآنفة الذكر أنّ الباحثة قد أغفلت روايات هامة جدًا بالنسبة لموضوع بحثها ، مثل روايتي شكيب الجابري « قدر يلهو » و « وداعا يا أفاميا » ، وروايتي فاضل السباعي « الظمأ والينبوع » و « ثمّ أزهر الحزن » ورواية حنا مينا « الربيع والخريف » ، بينما أسهبت في الاستشهاد بأعمال روائية ليس لها قيمة فنية أو فكرية كبيرة . وخلال النقاش تبيّن أنّ ذلك لا يرجع إلى سوء نية ، ولا إلى تقصير ، بل إلى سبب براغماتي بسيط جدًا ، يتمثل في أنه لم تتح للباحثة فرصة الاطلاع على الآثار الأدبية التي أشرنا إليها . ومن هنا تأتي أهمية تقديم مساعدة عملية للمترجمين والمستشرقين الأجانب ، وذلك بمدهم بالكتب والمجلات .

الثقافة[١] . ومن الملاحظ أيضًا أنّ شهرة الأديب العربي تلعب دورًا أساسيًا في ترشيح أعماله للترجمة إلى اللغات الأجنبية . فالمترجمون الأجانب قلّ أن يقدموا على نقل أعمال لأديب عربي لم تتخط شهرته حدود بلاده . لهذا نجد أنّ معظم الأعمال الأدبية العربية الحديثة المنقولة إلى لغات أجنبية هي أعمال لأدباء مشهورين ، مثل نجيب محفوظ ، وغسان كنفاني ، ويحي حقي ، والطيب صالح ، ومحمود درويش ونزار قباني .[١] ولايتعارض ذلك مع ما قلناه آنفا حول اختيارات المترجمين الأوروبيين لأن التعارض ظاهريّ ، في رأينا ، وإذا أمعنّا التفكير في بنية حركة ترجمة الآثار الأدبية العربية إلى اللغات الأوروبية نجد أنّ ذلك التناقض قائم في بنيتها ، التي تتحكم فيها عوامل متضاربة ، تطرّقنا إلى بعضها في سياق هذا البحث . من ناحية أخرى يبدو لنا أن حركة استقبال الأدب العربي الحديث في فرنسا متقدمة على مثيلاتها في الأقطار الأوروبية الأخرى . فقد اتسعت لتشمل كتّابًا معاصرين ، من أمثال صنع الله إبراهيم ، وجمال الغيطاني ، وإدوار خراط ، وهاني الراهب ، وعبد السلام العجيلي . ومن الملاحظ أنّ حركة الترجمة إلى الأسبانية والإنكليزية والروسية والألمانية قد أحرزت في الأعوام الأخيرة تقدمًا ملموسًا ، وقد جاء منح جائزة نوبل للآداب للروائيّ العربي نجيب محفوظ في عام ١٩٨٨ فأعطى تلك الحركة دفعًا جديدًا[٢] .

ومن السمات البارزة لحركة نقل الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية أنّ تلك الحركة قد تمحورت حول جنس أدبي واحد ، هو الجنس الملحمي ، من قصة ورواية ، وسط إعراض نسبي عن الأجناس الأدبية الأخرى ، من شعر غنائيّ ودراما . وتلك حقيقة مرّة بالنسبة لأمّة كانت حتى وقت قريب ترى في الشعر ديوانها والجنس الأكثر عراقة وتقدمًا في أدبها . ولكنّ استقبال الأدب العربي في الخارج يسلك دروبًا خاصّة به ، وذلك لاعتبارات تختلف عن تلك التي تتحكم في استقبال هذا الأدب ضمن بيئته القومية . فمن هذه الاعتبارات حقيقة أنّ الشعر الغنائيّ ، المرتبطة باللغة أوثق الارتباط ، يفقد قسطًا كبيرًا من جماله عند نقله من لغة المصدر إلى لغة الهدف ، مهما كان المترجم بارعًا ، مما حمل كثيرين على اعتبار الشعر جنسًا أدبيًا غير قابل للترجمة [٣] . أما الدراما فهي جنس أدبي مرتبط بالعرض المسرحي ، ولا يتجسد إلا فوق خشبة المسرح . [٤] ويبدو أنّ العالم الخارجي ، ولأسباب لا مجال هنا لتفصيلها ، غير مهتمّ كثيرًا بعرض مسرحيات عربية في مسارحه ، وإن كان بعض المسرحيات العربية ، وهو قليل ، مثل مسرحيات سعد الله ونوس ، قد تُرجم إلى لغات أجنبية ، ولا نعرف

---

(٣) لقد حدا هذا الاختلاف في المنظور التأويلي ببعض منظري الأدب إلى وضع نظرية تأويل خاصة بالآداب الأجنبية ، أطلقوا عليه تسمية « علم تأويل الغربة » (راجع : G. Neuner (1988))

(١) ثمة على هذا الصعيد بعض الاستثناءات ، التي نذكر منها قيام المستشرق والمترجم السويسرى المعروف « هارتموت فهندريش » بترجمة مختارات من قصص محمد المخزنجي – إلى الألمانية (راجع : M. al- Machsangi (1987)) . والشيء نفسه يمكن أن يقال على أعمال أدبية ليحي طاهر عبد الله وحنان الشيخ (أنظر المراجع المشار إليها في الحاشية ١٤) .

(٢) نستند في تقديرنا هذا إلى ما نشرته الصحافة العربية من معلومات حول ترجمة الابداعات الأدبية العربية إلى الفرنسية . ولا نمتلك أية دراسات ببليوغرافية دقيقة حول هذا الموضوع .

(٣) فيما يتعلق بمشكلات ترجمة النصوص الشعرية نحيل القارىء إلى الباب الثاني من كتاب : [J. Levy (1969)]

(٤) راجع فالترهينك (١٩٨٣) ، ص ١١ وما يليها..

ما إذا كان قد عرض أيضًا .(١) مقابل هذه العقبات التي تعترض استقبال الشعر والمسرحية تجد الأعمال القصصية والروائية إقبالًا من جانب المترجمين والقراء على حد سواء . فهي لا تضع المترجم أمام مشكلات لا قبل له بحلّها كما يفعل الشعر ، ويتّم تلقيها عبر المطالعة ، خلافًا للمسرحية . لذا نجد أنّ أكثر ما ترجم إلى اللغات الأجنبية من أعمال أدبية عربية ينتمي إلىْ جنسي القصة والرواية .

نلاحظ أيضًا أنّ حركة ترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية قد تمحورت حول أقطار عربية دون سواها . فقد حظي الأدب العربي المصريّ بحصّة الأسد من الترجمة ، وهو أمر له مسوغات موضوعية ، تتلخص في أنّ ذلك الأدب هو أقدم الآداب القطرية العربية وأغناها . أما الأدب القطري الثاني الذي نال قسطًا وافرًا من الترجمة ، فهو الأدب العربي الفلسطيني ، الذي نشط استقباله في الخارج لأسباب سياسية معروفة ، إضافة إلى نضجه الجمالي والفكري . ولكنّ الاعتبارات التي تسوغ إيلاء الأدب العربي في مصر وفلسطين اهتمامًا خاصًا لا تبرر اغفال الأدب العربي في الأقطار العربية الأخرى التي اقتصر تمثيلها في بعض الحالات على أنطولوجيا قصصيّة واحدة ، وتعرض البعض الآخر لتجاهل تام (٢) .

ومن المعروف أن أحسن استقبال العمل الأدبي الأجنبي يتوقف في المقام الأول على جودة الترجمة ، أي على مدى تكافئها الدلالي والأسلوبي مع الأصل . فأعظم الأعمال الأدبية قابلة لأن تُمسخ وتقزّم من خلال ترجمة رديئة . (٣)وبالطبع فإنّ تقييم نوعية ما ترجم إلى اللغات الأجنبية من ابداعات أدبية عربية لا يجوز أن يتمّ بصورة إجمالية ، بل لا بدّ من تقييم كلّ ترجمة على حدة . ولكن من الملاحظ أنّ المترجمين الأجانب يتحلّون عمومًا بضمير مسلكي جيّد ، وقّل أن يلجأ أحدهم إلى « سلق » الترجمة التي ينجزها بدافع تجارى ، كما يفعل بعض المترجمين العرب(٤) . وإذا وجدنا في تلك الترجمات تشويهًا ، فإنّ مرده يكون في أغلب الحالات عدم فهم النص الأصلي على الوجه الصحيح ، مما يؤدّي إلى تفسيره تفسيرًا خاطئًا ، وترجمته بصورة خاطئة (٥) . ويقتضي منّا الإنصاف

---

(١) نعرف من معلومات صحفية أنّ بعض مسرحيات سعد الله ونوس قد ترجمت إلى ثلاث لغات أجنبية على الأقلّ هي : الروسية والألمانية والفرنسية .

(٢) بهذه المناسبة نجد من واجبنا التنوية بسلسلة كتب « استطلاعات » (Erkundungen) التي تصدرها دار نشر « Volk und Welt » الألمانية ، التي تقدم للقارىء الألماني أفضل ما في الآداب الأجنبية من قصص قصيرة . وقد صدرت ضمن هذه السلسلة مختارات قصصية عربية (١٩٧١) ، وجزائرية (١٩٧٣) وفلسطينية (١٩٨٣) وعراقية (١٩٨٥) ، وكان أخر ما صدر ضمن تلك السلسلة مختارات من القصة القصيرة المصرية ، اختارتها وزودتها بحواش وخاتمة ، و أمنت قسما كبيرا من قصصها المستشرقة والمترجمة الألمانية دوريس كيلياس ، التي كانت قد ترجمت روايتي نجيب محفوظ « اللص والكلاب » و « زقاق المدق » إلى الألمانية (راجع : D. Kilias (1989)) . وحبذا لو قامت الجهات المعنية باستقبال الآداب الأجنبية في العالم العربي بتقييم تجربة « استطلاعات » والاستفادة منها .

(٣) لقد بيّنا بصورة نقدية ملموسة كيف قُزّم الأديب الكلاسيكي الألماني الشهير فريدريش شيللر من خلال ترجمات عربية رديئة ومشوهة ، تمّ نقل معظمها عن لغات وسيطة ، لا عن لغة المصدر الأصلية . راجع بحثنا (١٩٨٦) .

(٤) الترجمات الأدبية الرديئة في الأدب العربي كثيرة ، وقد حلّلنا الترجمة العربية لرواية ها ينريش مان « الملاك الأزرق » ، وهي ترجمة قام بها خيرات بيضاوي ، بصورة تفصيلية في كتابنا [A. Abboud (1984)] . بهذا الخصوص راجع كذلك بحثنا (١٩٨٩ / ب) ، وبحث بسام طيبي (١٩٨١) .

(٩) يعتبر ليفي إساءة فهم النصّ الأصلي مصدرًا أساسيًا من مصادر الأخطاء الترجمية [J. Levy (1969)] .

أن نقرّ بأنّ بعض المترجمين الأوروبيين قد أظهروا موهبة فائقة في ترجمة الإبداعات الأدبية العربية . نذكر من هؤلاء المترجمتين الألمانيتين « فيبكة فالتر » و « دوريس كيلياس » ، والمترجم السويسري « هارتموت فهندريش » . فقد حازت السيدة فالتر عام ١٩٨٩ على جائزة « فريدريش ريكرت » للترجمة الأدبية عن العربية ، ونالت السيدة كيلياس في العام نفسه جائزة دار نشر « فولك أندفيلت » تقديرًا لألمنتها رواية « زقاق المدق » لنجيب محفوظ . أمّا السيد فهندريش ، الذي نقل إلى الألمانية روائية وقصصية لغسان كنفاني وسحر خليفة وصنع الله إبراهيم ومحمد المخزنجي وطاهر يحي عبد الله ، فقد أظهر في نشاطه الترجمي اتقانًا وغزارة يستحقّان التقدير (١) .

المصلحة الثقافية العربية

في ضوء هذا العرض السريع الموجز لسبل وواقع استقبال الابداعات الأدبية العربية من خلال الترجمة إلى اللغات الأجنبية ، يمكننا القول إنّ العلاقات الأدبية بين العرب والأوروبيين تعاني من خلل كبير لغير صالح العرب ، وبالتالي فإن للعرب مصلحة ثقافية في أن يزول ذلك الخلل ، لتصبح تلك العلاقات متوازنة ومتكافئة ،.وهذا لا يتمّ إلّا بتشجيع استقبال الأدب العربي في الخارج ودعمه . ولمن يريد منا أن نكون أكثر وضوحًا وتحديدًا نقول : إنّ استقبال الأدب العربي في الخارج ، مباشرة أو عبر الترجمة ، يحمل إلى الشعوب المستقبلة معلومات عن المجتمع العربي وحضارته وقضاياه . وإذا كان الإنسان بطبعه عدوّاً لما يجهل ، فإن استقبال الأدب العربي يمكن أن يساهم في إزالة العداء الذي تكنّه قطاعات واسعة من الرأي العام الغربي للعرب وقضاياهم ، وهو عداء تكوّن وتراكم على مرّ القرون ، لأسباب تاريخية معروفة . ومع أن تلك الأسباب قد زالت ، فإن بعض الأوساط الغربية مازالت تمارس تشويه صورة العرب ، مستغلّة المظاهر السلبية التي برزت في الواقع العربي الحديث . ومن الواضح أنّ تلك الأوساط تتلقى دعمًا من الصهيونية ، التي تبذل قصارى جهدها لتشويه صورة العرب في الرأي العام العالمي ، كي تبرر للعالم اغتصابها لفلسطين ، وممارساتها العنصرية ضدّ الشعب الفلسطيني ، وعدوانها المتواصل على الأمة العربية . لذا فإنّ العرب مطالبون ببذل جهد إعلامي وثقافي خارجي كبير ، يمحو تلك الصور القوالبية المشوّهة ، (ستريوتايب) التي رسختها القوى المعادية للأمة العربية في أذهان الشعوب الأوروبية والغربية بشكل خاصّ ، ليحلّوا محلّها صورًا أصحّ وأكثر دقّة وأمانة (٢) . ضمن هذا الإطار يمكن أن يلعب استقبال الأدب العربي في الخارج دورًا هامًّا . فهو يقدّم للمتلقين الأجانب صورة صادقة عن المجتمع العربي ، بإيجابياته وسلبياته ، بإنجازاته ومشكلاته ، وهي صورة أكثر إقناعًا من تلك الصورة الدعائية التي يقدّمها الإعلام السياسي العربي . ومع أنّ الصورة التي يقدّمها الأدب تنطوي على سلبيّات ، فإنها قادرة على أن تنفذ إلى مشاعر المتلقين وعقولهم في آن واحد ، فتجعلهم أكثر تفهمًا للمجتمع العربي وحضارته ، وتلك هي الخطوة الأولى على طريق التعاطف مع

---

(١) لمزيد من المعلومات راجع بحثنا المشار إليه في الحاشية (١٣) .

(٢) أخذ العرب في الأعوام الأخيرة يولون اهتمامًا ملحوظًا لدراسة صورهم في الخارج ، وقد صدرت عدّة دراسات حول هذا الموضوع ، نذكر منها : سامي مسلّم (١٩٨٥) .

العرب ، والتضامن مع قضاياهم العادلة [1] . وللدور الذي يمكن أن يضطلع به الأدب في تحسين صورة العرب في الخارج وجه آخر . فمن المعروف أنّ الإعلام المعادي يحاول تصوير العرب أمّة بلا حضارة ، وأن ينسب كلّ الإنجازات الحضارية العربية إلى عناصر غير عربية . ومن هنا فإن استقبال الأدب العربي في الخارج قادر على أن يساهم بفاعلية في تصحيح تلك الصورة [2] . فهو يضع في متناول المتلقي الأجنبي أعمالًا أدبية متطورة فنيًا وفكريًا ، يمثل وجودها لذاته إنجازًا حضاريًا عربيًا . فأمّة بلغ أدبها القديم والحديث هذه الدرجة من التطور ، لايمكن أن تكون أمّة همجية ، كما يصورها الإعلام المعادي . ولرب قائل : إنّ كلّ هذه الأمور تصب في خانة واحدة ، هي الدور الإعلامي الخارجي ، الذي يمكن أن يلعبه استقبال الأدب العربي في الخارج . أو لا يضطلع ذلك الإستقبال بأي دور أدبي بالمعنى الضيّق أي الجمالي ، للكلمة ؟ وجوابنا هو أن ذلك الاستقبال يلعب دورًا كهذا بالتأكيد . فعندما يستقبل الأدباء الأجانب الإبداعات الأدبية العربية بصورة خلّاقة منتجة ، فإنهم يتأثرون بها شكليًا ومضمونيًا ، مما يساهم في إغناء الآداب الأجنبية وتطوّر الأدب العالمي . وتاريخ العلاقات الأدبية بين العرب والشعوب الأخرى . شرقية كانت أم غربية حافل بالأمثلة على الدور التجديدي الجمالي ، الذي يمارسه الأدب العربي عندما يُستقبَل بصورة خلّاقة منتجة من قبل الأدباء الأجانب . لنذكر ، على سبيل المثال ، ما كان للمقامة والموشحات وقصص ألف ليلة وليلة ، وقصص كليلة ودمنة ورسالة الغفران وقصة حيّ بن يقظان وقصة ليلى والمجنون من أثر في الآداب الأجنبية ، حيث أثرى الأدب العربي الأدب العالمي بأجناس أدبية ، وتقنيات وأساليب فنية ، وصور وخيالات ومعان وأغراض وتيمات جديدة [3] . فقد تم ذلك كله نتيجة لاستقبال الأدب العربي في الخارج استقبالا ابداعيا منتجا . ولا نعتقد أن الدور التجديدى الجمالي ، الذي يمارسه الأدب العربي في الأدب العالمي ، قد انتهى . ولعل الحكايات الخرافية الفنية ، وقص حكواتي المقاهي ، التي يستخدمها بعض القاصين العرب ، الذين يكتبون باللغات الأجنبية ، من أمثال جورج شحادة ، والطاهر بن جلون ، ورفيق شامي ويوسف نعوم ، خير مثال على أن الأدب العربي مازال يرفد الأدب العالمي بأشكال فنية وتمات جديدة [4] . وغني عن الشرح أن مؤثرات ابداعية كهذه تساهم بدورها في تشكيل صورة العرب في الخارج ، وتقدمهم للعالم الخارجي في صورة أمة صانعة للحضارة في الماضي والحاضر ، تبدع الأدب والفن الراقيين .

---

(١) يخطيء من يعتقد أنّ الإعلام الثقافي الخارجي ينبغي ألّا يعرض غير الجوانب الإيجابية ، وأن يخفي السلبيات التي ينطوي عليها الواقع العربي . فإعلام كهذا يستخفّ بعقول المتلقين الأجانب ، ويعطي بالتالي مردودًا عكسيًا . أمّا الإعلام الخارجي السليم فيقدم صورة متوازنة وصادقة للمجتمع العربي ، بإنجازاته ومشكلاته ، فيكسب بذلك احترام المتلقي الأجنبي وثقته . والأدب المترجم إلى اللغات الأجنبية يؤدّي تلك الوظيفة على أفضل وجه .

(٢) من أبرز الذين تصدّوا لهذا الزعم المستشرقة الألمانية الكبيرة « زيغريد هونكة » ، التي بينت في كتابها الشهير « شمس العرب تسطع على الغرب » (١٩٨٦) ما قدمه العرب والمسلمون من إنجازات حضارية كبيرة .

(٣) راجع بهذا الخصوص محمد غنيمي هلال (١٩٨٧) ؛ مفيد الشوباشي (١٩٦٨) ؛ صلاح فضل (١٩٨٥)

(٤) الأخيران أديبان من أصل عربي ، يكتبان بالألمانية . وقد استخدم رفيق شامي في كتاباته شكل الحكاية الخرافية الشرقية ، وكتب يوسف نعوم بأسلوب الحكواتي ، فرفدا الأدب الألماني المعاصر بشكلين فنيين جديدين .

مترتبـات

إذا اتفقنا على أنّ لنا ، نحن العرب ، مصلحة ثقافية كبيرة في أن يُستقبل الأدب العربي في العالم بصورة مناسبة ، يكون علينا أن نستخلص ما يترتب على ذلك من نتائج عملية ، هي في رأينا ما يلي :

١ – متابعة ما يترجم إلى اللغات الأجنبية من آثار أدبية عربية بصورة دقيقة ، وحصره بيبليوغرافيًا . وهذه مهمة ينبغي أن تمارس بصورة مركزية ، وعلى المستوى القومي . ولعلّ أفضل جهة مؤهّلة للقيام بها هي « المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم » . (أليكسو) . وبالمناسبة فإنّ الأقطار المتقدمة كلّها ، التي تعي مصلحتها الثقافية الخارجية ، تلجأ إلى إنجاز مؤلفات بيبليوغرافية من هذا النوع [1] .

٢ – الاهتمام بالمترجمين الأجانب ، الذين ينقلون الإبداعات الأدبية العربية إلى لغاتهم ، وتقديم كلّ دعم وتشجيع ممكنين لهم ، لأنهم يسدون للأمة العربية خدمة ثقافية كبيرة . ونذكر من أشكال الدعم والتشجيع :

(أ) مدهم بالكتب والمجلات الأدبية والنقدية والفكرية العربية ، لتمكينهم من الاطلاع على كلّ ما يستجد في الأدب العربي والثقافة العربية ، وهذا أقل ما يمكن أن يقوم به الطرف العربي ، وأضعف الإيمان .

(ب) تسهيل حصول المترجمين الأجانب على حقوق ترجمة الأعمال الأدبية إلى لغاتهم .

(ج) تقديم منح دراسية واطلاعية قصيرة للمترجمين الأجانب ، كي يتمكنوا من الإقامة في الوطن العربي ، والاطلاع عن كثب على ما يستجد في المجتمع والثقافة العربيين من تطورات .

(د) توجيه الدعوات إلى المترجمين الأجانب لحضور الندوات والمؤتمرات الأدبية والثقافية العامة والمشاركة فيها بأبحاث ومداخلات ، إذا رغبوا في ذلك .

(هـ) إقامة ندوات حول ترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية ، يشارك فيها ، إضافة إلى المترجمين الأجانب ، مختصون في شؤون الترجمة ، ووجوه أدبية عربية معروفة [2] .

(و) إحداث جوائز وميداليات تشجيعية ، تمنح لمترجمي الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات الأجنبية . وهذا أسلوب ناجع وفعّال لتشجيع المترجمين الأجانب [3] .

(ز) تشجيع المختصين في اللغات والآداب الأجنبية من العرب على نقل الإبداعات الأدبية العربية إلى اللغات

---

(١) هناك على سبيل المثال عدد كبير من الإصدارات البيليوغرافية حول العلاقات الأدبية الألمانية – السكندينافية ، والألمانية – الفرنسية ، والألمانية – الإنكليزية ، والألمانية البولونية ، بل الألمانية – العربية (M. Maher u. W.Unle)1979) فلماذا لا نتعلم من تجارب الآخرين على هذا الصعيد ؟

(٢) إنّ هذا النوع من اللقاءات ضروري جدًا ، فهو يعرف المترجمين الأجانب بعضهم بالبعض الآخر ، ويؤدي إلى قيام تنسيق وتعاون بينهم ويحفزهم على الإقدام على ترجمة مزيد من الأعمال الأدبية . لذا نجد الأقطار المتقدمة ، التي تعي أهمية الترجمة الأدبية ودورها في العلاقات الثقافية الدولية ، تلجأ إلى تنظيم ندوات كهذه بصورة دورية . فما أحوجنا إلى إقامة ندوات كهذه ، ندعم بها ترجمة أدبنا إلى اللغات الأجنبية ، ونكسر هذا الطوق الثقافي الخارجي المريع ، الذي ضربه حولنا أعداء أمتنا ، وساهمنا في تكريسه بجهلنا وتخلفنا .

(٣) على هذا الصعيد نقترح أن يضاف إلى الجوائز العربية القائمة (جائزة الملك فيصل ، جائزة سلطان العويس وغيرها) بند خاص بالترجمة والمترجمين ، كما نقترح إحداث جوائز خاصة بالترجمة ، تمنح للمترجمين الأجانب والعرب الذين لهم إنجازات بارزة في مجال الترجمة عن العربية إلى اللغات الأجنبية .

التي يجيدونها ، والتصدّي للفكرة الخاطئة ، القائلة إنّ المرء لا يستطيع أن يترجم إلّا إلى لغته الأم [١] .

٣ - حثّ دور النشر الأجنبية وتشجيعها على نشر إبداعات عربية مترجمة إلى اللغات الأجنبية ، ويكون ذلك من خلال إجراءات نذكر منها .

(أ) تسهيل عملية الحصول على حقوق الترجمة .

(ب) قيام الجهات الثقافية والإعلامية والدبلوماسية العربية بشراء كمية معتبرة من نسخ كلّ أثر أدبي عربي يصدر بلغة أجنبية .

(ج) إعلام دور النشر الأجنبية بالأعمال الأدبية والفكرية البارزة ، التي تستحقّ أن تترجم إلى اللغات الأجنبية ، وذلك بواسطة نشرة دورية ، تتولّى التعريف بالإبداعات الأدبية العربية الهامة وبأصحابها .

(د) دعوة الناشرين الأجانب المهتمين بالأدب العربي إلى المؤتمرات والندوات الأدبية والثقافية الهامّة ، وتعريفهم بالأدباء والناشرين العرب .

٤ - لا نرى وجود أي سبب وجيه لعدم قيام دور نشر عربية ، رسمية كانت أم خاصة ، بنشر ترجمات لأعمال من الأدب العربي باللغات الأجنبية . فهناك في العالم تجارب ناجحة لأمم تولّت بنفسها التعريف بابداعاتها الأدبية من خلال الترجمة ، نذكر منها التجربتين الصينية والسوفياتية . فقد أحدث كلّ من الصين والإتحاد السوفياتي سابقاً دور نشر باللغات الأجنبية ، ونشر فيها ترجمات لابداعاته الأدبية . ولولا ذلك لما عرف العالم الخارجي الكثير عن الأدبين الصيني والسوفياتي المعاصرين . وفي رأينا فإنّ العرب بحاجة إلى خطوة مشابهة ، يتغلبون بواسطتها ، ولو بصورة جزئية ، على العزلة الثقافية الشديدة ، التي يعانون منها على الصعيد الخارجي . وما دامت الأقطار العربية تنفق أموالًا طائلة على نشاطاتها الإعلامية الخارجية ، فلماذا لا توجه جزءًا من تلك النشاطات إلى العمل الثقافي الخارجي ، في صورة نشر ترجمات لإبداعات أدبية عربية باللغات الأجنبية ؟!

٥ - إيلاء أهمّية خاصة لترجمة الإبداعات الأدبية العربية إلى لغات شعوب العالم الثالث ، والشعوب الإسلامية بوجه خاص . فأوروبا ليست العالم ، وشعوب العالم الثالث ، وفي مقدمتها شعوب العالم الإسلامي ، هم شركاؤنا في التاريخ والمصير ، ولنا مصلحة كبيرة في أن نتواصل معهم ثقافيًا . ومن المؤكد أنّ العرب يرتكبون خطأً جسيماً إذا قصروا نشاطهم الثقافي الخارجي على الأقطار الأوروبية والغربية ، وما رسوا بذلك المركزية الأوروبية نيابة عن الأوروبيين ، بدافع من التبعية الثقافية لأوروبا .

---

(١) هناك أمثلة كثيرة تدحض الرأي القائل بأنّ المرء لا يترجم بصورة مناسبة إلّا إذا كانت لغته الأمّ هي لغة الهدف . ومع أنّ هذا الرأي واسع الإنتشار ، وله مبرراته ، فإنه رأي خاطىء وضارّ جدًا . فهو يحرم الأمة العربية من الاستفادة من مواهب أبنائها الذين يملكون كفاءة وموهبة في حقل الترجمة التعجيمية ، ويؤدي بالتالي إلى الاعتماد على المترجمين الأجانب . ومن الأمثلة الملموسة التى تدحض الرأي الداعي إلى ترك الترجمة التعجيمية للمترجمين الأجانب ، السيدة سلمى الخضراء الجيوسي على صعيد الترجمة إلى الإنكليزية ، والشاعر عبد اللطيف اللعبي على صعيد الترجمة إلى الفرنسية ، والمرحوم الدكتور ناجي نجيب الذي قام بترجمة عدة أعمال أدبية هامة من العربية إلى الألمانية . راجع بهذا الخصوص بحثنا المشار إليه في الهامش (١٣) .

٦ – وأخيرًا نرى من الضروري أن نشجّع الأجانب على تلقي الأدب العرب عبر لغته الأصلية ، وذلك لا يكون إلّا بتطوير تعليم العربية لغير أبنائها . ففي سياق تعليم العربية للأجانب نستطيع أن نعرفهم إلى أبرز الأدباء العرب وأهم الإبداعات الأدبية العربية . ومن المؤكد أن تعليم العربية لغير أبنائها ينبغي أن يشكّل أحد وسائلنا الرئيسية لتعريف العالم الخارجي بثقافتنا عمومًا ، وبأدبنا على وجه الخصوص [1] .

وبعد : فإنّ لنا ، نحن العرب ، مصلحة ثقافية كبيرة في أن يُستقبل أدبنا في العالم بصورة مناسبة . والترجمة هي السبيل الرئيس لتعريف العالم بابداعاتنا الأدبية .

ولكنّ حركة نقل تلك الإبداعات إلى اللغات الأجنبية مازالت دون المستوى المطلوب ، وهذا يقتضي تدخلنا لدعم تلك الحركة وتشجيعها ، من خلال إجراءات ملموسة على صعيد المترجمين والناشرين والمتلقّين . فنحن لسنا مطالبين برعاية مصالحنا السياسية والاقتصادية والأمنية فحسب ، بل نحن مدعوون أيضًا ، وبالدرجة نفسها ، لرعاية مصالحنا الثقافية الخارجية . أو ليس العمل الثقافي الخارجي هو الشكل الأحدث والأرق والأذكى للسياسة الخارجية ؟

---

(١) فيما يتعلق بالدور الذى يمكن أن يلعبه تعليم العربية لغير أبنائها في الإعلام الخارجي العربي راجع مقالنا (١٩٨٩) ، وارجع أيضًا إلى علي محمد القاسمي (١٩٧٩) ، ص ١٥ – ٤٨ ورشدي أحمد طعيمة (١٩٨٩) ، ص ٣١ – ٣٤ ، وسلمان داوود الواسطي (١٤٠١ هـ) ص ٢٢٠ – ٢٣٥ .

مراجع البحث

١ - العربية

— أمين ، سمير (١٩٧٤) التطور اللامتكافىء . بيروت : دار الطليعة .
— جوته ، يوهان فولفغانغ (١٩٥٨) : فاوست . تعريب محمد عوض محمد . القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة .
— جوته ، يوهان فولفغانغ (١٩٦٩) : مأساة فاوست . تعريب محمد عبد الحليم كرارة . الاسكندرية ، منشأة المعارف ، ١٩٦٩ .
— جوته ، يوهان فولفغانغ (١٩٨٠) : فاوست الترجمة الكاملة ترجمة سهيل أيوب ، دمشق (الينابيع)
— جيتة (١٩٨٩) فاوست ترجمة وتقديم عبد الرحمن بدوى ، الكويت ، من المسرح العالمي ، ٢٣٢ — ٢٣٤ .
— الحاج ، عزيز (١٩٨٣) الغزو الثقافي ومقاومته ، بيروت المؤسسة العربية .
— الخوري ، شحادة (١٩٨) : دراسات في الترجمة والمصطلح والتعريب : دمشق : دار طلاس .
— سعيد ، ادوار (١٩٨١) : الاستشراق المعرفة ، السلطة ، الإنشاء . نقله إلى العربية د . كمال أبو ديب ، مؤسسة الأبحاث العربية بيروت .
— الشوباشي ، محمد مفيد (١٩٦٨) : رحلة الأدب العربي إلى أوروبا . القاهرة : دار المعارف .
— طعيمة ، رشدي أحمد (١٩٨٩) : تعليم العربية لغير الناطقين بها مناهجه وأساليبه . منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ، الرباط .
— طيبي ، بسام (١٩٨١) : حول حركة ترجمة الأعمال العلمية والأدبية من اللغات الأوروبية إلى العربية . في : شؤون عربية ، ٧ / ١٩٨١ ، ص ١١٦ — ١٢٩ .
— عبود ، عبده (١٩٨٦) : أهكذا يكون المسرح العالمي ؟ حول الترجمة العربية لمسرحيات شيللر . الحياة المسرحية .
— عبود ، عبده (١٩٨٧) : نحو الخروج من القمقم . الأدب العربي الحديث في ضوء ترجمة أعماله إلى الألمانية . في البيان .
— عبود ، عبده (١٩٨٨) : سبيل الأدب العربي إلى العالمية . نجيب محفوظ نموذجا . الأسبوع الأدبي ، العدد (١٤٦) .
— عبود ، عبده (١٩٨٩) : العمل الثقافي العربي في الخارج ، وتدريس العربية لغير الناطقين بها . « الأسبوع الأدبي » ، ع ١٦١ .
— عبود ، عبده (١٩٨٩ / ب) : الرواية الألمانية الحديثة في ضوء تلقيها في العالم العربي . عالم الفكر / المجلد ١٩ / العدد الرابع .
— فضل ، صلاح . (١٩٨٥) : تأثير الثقافة الإسلامية في الكوميديا الإلهية . بيروت : دار الآفاق الجديدة .
— فيلاندت ، روتراود (١٩٨٩) : صورة المرأة الأوروبية في الأدب العربي الحديث .
— القاسمي ، علي محمد (١٩٧٩) : اتجاهات حديثة في تعليم العربية للناطقين باللغات الأخرى . الرياض ، جامعة الرياض .
— مسلم ، سامي (١٩٨٥) : صورة العرب في صحافة ألمانيا الاتحادية ، بيروت ١٩٨٥ . (مركز دراسات الوحدة العربية) .
— نايدا ، يوجين أ (١٩٨٦) : نحو علم للترجمة . ترجمة ماجد النجار . بغداد (وزارة الثقافة) .
— هلال ، محمد غنيمي (١٩٨٧) : الأدب المقارن . بيروت : دار العودة .
— هونكه ، زيغريد (١٩٨٦) : شمس العرب تسطع على الغرب . ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي . ط ٨ ، بيروت . دار الآفاق .
— هينك ، فالتر (١٩٨٣) : الدراما الحديثة في ألمانيا . ترجمة وتقديم عبده عبود . دمشق (منشورات وزارة الثقافة) .
— الواسطي ، سلمان داوود (١٤٠١ هـ) : دارسو اللغة العربية من الأجانب ونوعياتهم في : وقائع ندوات تعليم العربية لغير الناطقين بها ، الجزء الثاني ، مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٢ - الأجنبية

— **Abboud, Abdo (1984):** Deutsche Romane im arabischen Orient, Frankfurt/M. Bern.
— **Abdallah, Jachja Taher (1990):** Menschen am Nil, Aus dem Arabischen von Hartmut Fähndrich und Irmgard Schrand, Basel.
— **Apel, Friedmar (1983):** Die literarische Übersetzung, Heidelberg.
— **Kilias, Doris (1989):** 32 ägyptische Erzähler, Berlin.

— **Koller, Werner (1983):** Einführung in die Übersetzungswissenschaft, Heidelberg.
— **Levy, Jiri (1969):** Die literarische Übersetzung. Theorie einer Kunstgattung, Frankfurt Bonn.
— **Al- Machsangi, Muhammad (1987):** Eine blaue Fliege . A. d. Arab v. Hartmut F ähndrich, Basel.
— **Maher, Mustafa u. Wolfgang Ube(1979):** Deutsche Autoren in arabischer Sprache, München.
— **Naumann, Manfred (1984):** Blickpunkt Leser, Leipzig.
— **Neuner, Gerhard (Hg.) (1988):** Kulturkontraste im DaF- Unterricht, München.
— **Reese, Walter (1980):** Literarische Rezeption, Stuttgart.
— **Reiss, Katharina (1971):** Möglichkeiten und Grenzen der Übersetzungskritik, München.
— **El- Saadawi, Nawal (1990):** Rirgelreihen. A. d. Arab. v. Susanne Enderwitz, Frankfurt/m.
— **Al- Scheich, Hanan(1990):** Sahras Geschichte. A. d. Arab. v. Verenika Theis, Basel-
— **Al- Tahtawi, Rifa^ca (1990):** Ein Muslim entdeckt Europa. Hrsg. v. Karl Stowasser, München.
— **Tibi, Bassam (1981):** Die Krise des modernen Islams, München.
— **Wielandt, Rotraud (1980):** Das Bild der Europäer in der modernen arabischen Erzähl- und Theaterliteratur, Beirut Wiesbaden.
— **Witte, Berthold C. (1987):** Förderung der deutschen Sprache als Teil auswärtiger Kulturpolitik. In: D; Sturm (Hg.), Deutsch als Fremdsprache weltweit, München 1987, S. 159-172.

من الشرق والغرب

فضيحة (ليسنكو)

د . سمير رضوان

سادت — على المستويات والعامة — فى مجتمعاتنا العربية وهى تسعى فى مسيرتها المضنية نحو التقدم خلال العقود الأربعة الأخيرة بعض المقولات التى شابها الخطأ ، وأخرى صحيحة لكن تفسيراتها لم تكن موفقة . وتكمن خطورة مثل هذه المقولات فى أن الإيمان فى صحتها أوشك أن يكون عقيدة عند بعض المسئولين . من أمثلة هذه المقولات : (الثقة قبل الخبرة) ، (البحث التطبيقى قبل البحث الأكاديمى) ، (لاخير فى علم لاينفع الناس) . والقول الأول لا شك فى خطئه جملة وتفصيلا . إذلا قيمة على الاطلاق لثقة لا تتوفر لديها الخبرة . أما القول الثانى ففيه خلط واضح . فالتطبيق لا يتحقق إلا تتويجا لبحوث أكاديمية مكثفة . والقول الثالث صادق كل الصدق ولكن مفسريه كثيرا ما يجانبهم الصواب . فالعلم الذى ينفع الناس ليس بالضرورة — كما يحاول البعض تفسيره — هو الذى يترجم مباشرة إلى توفير الخبز والملبس ووسائل الرفاهية . بل هو فى الواقع كل معرفة جادة مبنية على أسس صحيحة ، فمثل هذا العلم دون سواه هو الطريق إلى فائدة الناس — طال الأمد أم قصر .

لقد ظلت الأفكار تلح على خاطرى وأنا أتوغل فى قراءة كتاب (فضيحة ليسنكو) الذى يتناول بالوصف والتحليل والنقد حقبة متأخرة من تاريخ الاتحاد السوفييتى اختلط منها الحابل بالنابل ، وتصدى أثناءها لأمور عملية من لم يكونوا أهلا لها . مؤيدين بدعم من الساسة . وأما أشبه أحداث الأمس القريب فى الاتحاد السوفييتى ببعض أحداث اليوم فى أوطاننا العربية . أحداث فيها الكثير من الادعاء والقليل من العلم . وأنا أقدم هذا الكتاب الآن للقارىء ، ولن يغيب فطنته أن الفائدة مما نتعلمه من تجارب الآخرين تكمن فى مقدار اتعاظنا من أخطائهم وإفادتنا من صوابهم .

فضيحة (ليسنكو) أم فضيحة الليسنكوية ؟

مؤلف كتاب فضيحة ليسنكو هو ديفيد جورافسكى أستاذ التاريخ فى جامعة نورثوسترن الأمريكية . وقد طبعت هذا الكتاب مطبعة جامعة شيكاغو عام ١٩٧٠م . ولجورافسكى مؤلفات أخرى شبيهه بالكتاب الحالى مثل (الماركسية والعلوم الطبيعية) و (أصال الستالينية وتبعاتها) .

ورغم ان عنوان الكتاب يوحى بأنه يتناول سيرة ليسنكو — أشهر أدعياء العلم فى روسيا الحديثة — فمجاله فى الواقع أرحب من ذلك ، فهو يتناول مذهب الليسنكوية وفضائحها أكثر مما يتناول سيرة ليسنكو أحد أكبر أقطاب هذا المذهب . لقد ساد فى الاتحاد السوفييتى فيما بين عامى ١٩٣٥ ، ١٩٦٥ م بمجال علوم الوراثة والزراعة دعى متعصب ، مارس سلطة دكتاتورية واسعة على جميع المختصين فى هذا المجال من علماء الاتحاد السوفييتى — ذلكن هو ليسنكو الذى تمكن من إقناع أقطاب المسئولية السياسية فى الاتحاد السوفييتى فى تلك الحقبة بأن ما أسماه بعلم (الأحياء الزراعية) كفيل بأن يحقق زيادة كبيرة فى الغلة الزراعية بلا تكلفة تذكر . وكان من جراء ادعائه هذا أن سحب المسئولون وغير المسئولين على السواء ثقتهم فى العلماء الحقيقيين ، ففقد الكثيرون منهم وظائفهم وراحوا ضحية للدجل العلمى المكثف ، وتفسخت علوم الأحياء على جميع مستويات الدراسة وأوشك البحث العلمى فى هذه التخصصات على التوقف ، ثم كان لهذا الدجل أثر مدمر على الزراعة والإنتاج الزراعى فى الاتحاد السوفييتى . وعندما تنبه المسؤلون السوفييت فى النهاية إلى أنهم كانوا ضحية دجل منظم سحبوا ثقتهم فى ليسنكو ومذهبه فإنها بذلك علم (الأحياء الزراعية) الذى كان أحد مخترعاته الزائفة .

ويتناول جوارافسكى — مؤلف هذا الكتاب — العوامل الخاصة التى مكنت لليسنكو من التأثير على المسئولين وفرض سلطان بلا حدود على الزراعة والبحوث الزراعية فى روسيا . من هذه العوامل ما يختص بالوضع الخاص للزراعة الروسية وبالعلوم الطبيعية وبالإيديولوجيات والسلطة السياسية وأحسب أن تلخيص هذه الأمور والتعليق عليها قد يسهم فى التنبيه إلى أمور من هذا القبيل فى أوطاننا العربية ، فالأدعياء لا يخلو منهم مجتمع بشرى أبدا .

الزراعة فى أوربا الغربية والاتحاد السوفييتى

ومن المعروف أن الزراعة — كممارسة — قد حققت قدرا من التطور والتقدم فى العالم حتى من قبل أن تصبح علما بالمعنى الحديث — ومن ثم فقد نمت الثقة فى علوم الزراعة وتعاظمت منذ نشأت فى شتى أرجاء المعمورة ، ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا الاتحاد السوفييتى فيما بين الثلاثينات والستينات من القرن الحالى .

فقد تباعد علم الزراعة فى تلك الحقبة عن أساليب الزراعة المعروفة — وطرق أساليب (مبتكرة) بغية تحقيق أهداف لم تتحقق . ومن هنا نشأت فى روسيا أزمة ثقة حقيقية فى علوم الزراعة — أو على الأصح فى العلماء الذين كانوا قائمين على البحوث الزراعية فى ذلك الزمن . والواقع أن قيمة العلم تكمن فى مدى استعداد المجتمع لقبول المشورة العلمية واحترامها أكثر مما تكمن فى قدرة العالم نفسه على تقديم هذه المشورة . وقد ظلت مجتمعات العالم على ثقتها فى العلوم الزراعية — أما المجتمع الروسى فقد اهتزت هذه الثقة لديه .

كانت الزراعة فى غرب أوربا ما بين القرنين السابع عشر والتاسع عشر تعتمد على أسلوب يعرف بأسلوب (تنويع

المحاصيل) فمن قبل كانت الأرض الزراعية تزرع لتعطى محصولا واحدا من الحبوب ثم تبور باقى العام ، وبعد تطبيق أسلوب تنويع المحاصيل أدخل نظام الدورات الزراعية حيث زراعة محاصيل الحبوب تتبادل مع زراعة محاصيل أخرى على مدى السنة ــ مثل محاصيل البقول واللفت والبطاطس والبنجر . ومن التجربة والخطأ تعلم الفلاح أن البقول بالذات كانت تحسن من إنتاجية التربة بسبب إثرائها بالمواد النيتروجينية .

ومع اندلاع الثورة الصناعية التحق الكثير من العمال فى أوربا بالمصانع وهجروا الزراعة . وهنا نشأت حاجة ملحة إلى تطوير الأساليب الزراعية تطويرا جذريا وأدخل للمرة الأولى تعبير (الفلاحة العلمية) . ولا ينبغى أن ينخدع القارىء بهذا التعبير فقد كانت الزراعة حتى تلك اللحظة مازالت تعتمد على أسلوب التجربة والخطأ . ولم تكن كلمة (العلمية) عندئذ تتجاوز محاولة الخروج عن الأساليب المعروفة (وتجربة) طرق زراعة جديدة . وكانت نشأة الزراعة العلمية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فهى الفترة الزمنية التى شرع عندها الكيميائيون والبيولوجيون فى محاولة تفسير ما كان يفعله الفلاح على أسس علمية . وهنا توفرت للعلماء بعض المعارف التى أهلتهم لإسداء النصح للفلاح ليحسن زراعته . فقد تعرف العلماء مثلا على أن البقوليات تحمل على جذورها بكتيريا تثبت النيتروجين الجوى وتحوله إلى مواد نتيروجينية متاحة للنبات ، فاقترحوا استخدام المخصبات النيتروجينية غير العضوية فى الزراعة : ومع بداية القرن العشرين شرع علماء الوراثة بدورهم فى استثمار معارفهم لكى يستنبطوا سلالات نباتية جديدة . ورغم أن محاولاتهم الأولى كانت مخيبة للآمال فقد كان واضحا أن الزراعة تزداد ثقتها فى العلم يوما بعد يوم ــ وترسخ لدى الفلاح اقتناع بأن الزراعة سوف لا ترقى إلا على أكتاف البحوث الوراثية بالذات ــ وهذا ما أثبتت الأيام صحته .

أما فى الاتحاد السوفيتى فقد سلكت الممارسة الزراعية منهجا معاكسا لمنهج غرب أوربا على طول الخط ــ فقد ظل الفلاح الروسى منذ بداية (المجتمع الاقتصادى الحر) فى عام ١٧٦٥ م لا يستجيب لنداءات العلماء الداعية إلى ابتكار أساليب فلاحية جديدة ، وقد ظل الأمر على تلك الصورة حتى عام ١٩٢٩ م حينما حاولت حكومة ستالين تحديث الزراعية بالقوة من خلال إنشاء المزارع الجماعية . وحتى ذلك العام (١٩٢٩ م) كانت الزراعة فى روسيا مازالت تعتمد على الأسلوب القديم ــ حيث كانت تزرع الأرض بالحبوب ثم تبور باقى العام .

علم روسى متقدم وزراعة متخلفة

ولا يحسبن أحد أن العلوم فى روسيا كانت متخلفة ، بل العكس هو الصحيح . فقد كان علماء التربة الروس يتمتعون بسمعة مرموقة على مستوى العالم . وكان علم النبات متقدما ، وفى ذلك الزمن شرع علماء النبات السوفييت فى إعداد أكبر مجموعة فى العالم من النباتات الحية ، وكانوا يمهدون بذلك إلى إجراء دراسات حول تهجين النباتات واستنباط سلالات محسنة طبقا لمعارف الوراثة المتوفرة فى ذلك الحين . كان العلم إذن متقدما بينما كانت الزراعة متخلفة . ولابد أن هذا الوضع الشاذ قد نشأ من محاولة الحكومة الروسية تحديث الدولة دون اعتبار لتركيبها الاجتماعى . فقد كان العلم والعلماء يستحوذون على جل اهتمام الدولة ــ بينما كانت الفلاحة والفلاحون مهملين . وظل الأمر كذلك حتى قامت الثورة عام ١٩٠٥ م التى أولت الفلاح الصغير حق الحوز

اهتماما بالغا . فحققت الزراعة الروسية فى السنوات الأولى من الثورة تقدما ملحوظا . على أن تقدم العلوم الزراعية ــ التى كانت تلقى كل الدعم من قبل الثورة ــ كان يفوق بمراحل تقدم (الزراعة العلمية) . وأخذت هذه الفجوة فى الاتساع فجابت سمعة العلم الروسى آفاق الأرض . واعترف العالم للباحث الروسى دوكيوشيف Dokuchaev بأنه مؤسس علم التربة الحديث ، وللعالم بريانشينكوف Prianashnikov بريادة مدرسة الكيمياء الزراعية التى وضعت فى مصاف المدرستين الألمانية والفرنسية الرائدتين . وأولى معهد النبات التطبيقى فى روسيا استنباط سلالات نباتيه قيمة عناية خاصة ونجح فى ذلك على المستوى البحثى . ولكن الفلاح الروسى كان بمعزل كامل عن كل هذا التقدم بل وعن السلالات القيمة المبتكرة التى أنتجها العلماء الروس .

وكان من نتيجة هذا التناقض الواضح أن نشأ فكر معارض من قبل من يمكن تسميتهم (بالعلماء الكاذبين). وما أكثر هؤلاء فى شتى المجتمعات . وناصبت هذه الطبقة الحاقدة البحوث العلمية العداء . من أمثلة هؤلاء بوغرشيفسكى Bogushevskii الذى أشاع مقولة مغلوطة مفاداها أن أساليب الزراعة فى أوربا الغبية لا تصلح إلا للغرب . وعلى روسيا أن تبتكر طرقا جديدة تماما خاصة بها ولا تصلح إلا لها . وبلغ تعصبه لأفكاره هذه حد رفضه إجازة رسالة علمية حكمها لأنها مبنية على الطرق الزراعية العلمية التى كانت متعارفاً عليها فى هذا الوقت . ولم يكن بوغوشيفسكى إلا واحدا من مجموعة كبيرة من أدعياء العلم الذين تكاثروا بصورة غير عادية فى تلك الحقبة .

بربرة العلم فى روسيا

واستقطب العلماء الكاذبون مشاعر الكثير من الساسة الذين رأوا فى العلماء الحقيقيين (طبقة) ، وشن هذا التحالف حربا نفسية ضد العلماء ، وصلت ذروتها عندما نادى البعض (ببربرة) العلم ، واكتسب هذا النداء دعما لا حدود له عندما نادى الرئيس السوفييتى كالينين نفسه بذلك أمام العلماء مباشرة ، ودافع عن هذا الاتجاه الجديد مذكرا بفوائد الغزوات البربرية لروما ، وانتهى إلى أن بربرة العلم أمر ضرورى (حتى ينبت فى هذه الأرض علم ديمقراطى بسيط) . ولا شك أن القارىء يستبين من هذا الجو مدى تأثير الفكر الماركسى المعادى (للطبقات) على مشاعر المسئولين تجاه العلم والعلماء . ومع ذلك فلم تكن هذه الموجة الغذائية قد مست محتوى العلوم الطبيعية حتى ذلك الوقت . ولو غضضنا النظر عن مثل هذه المعارك النفسية لوجدنا أن العلماء والساسة كانوا لا يزالون على قدر كبير من الوفاق ، وليس أدل على ذلك من أن لينين عندما كان قد نفى الفيلسوف الدينى والاجتماعى سوروكين Sorokin كرر تحذيره (لرفاقه) من أن المختصين فى مجالات العلوم الطبيعية لاينبغى مطلقا أن يعاملوا بمثل هذا الأسلوب مهما كانت آراؤهم السياسية . ولعل العلماء والساسة كانوا مازالوا تحت تأثير هذا التحذير الموجه إليهم من القطب الماركسى الكبير حينما توصلوا إلى اتفاقية غير مكتوبة تقضى بأن (يترك العلماء السياسة للشيوعيين ، ويترك الشيوعيون العلوم الطبيعية للعلماء) . على أن البعض من مؤرخى تلك الفترة من عمر الاتحاد السوفييتى يرون أن القادة الروس كانوا يميلون منذ البداية إلى خلع أفكار ماركسية على العلوم الطبيعية . لهذا كان الانتهازيون من العلماء الكاذبين لا يكفون عن الضرب على هذا الوتر بين آن وآخر ، وكان

الساسة السوفييت يميلون إلى محاباة عملاء من المشتغلين بالعلم مثل ويليامز Williams وميتشورين Michurin (وإن كان مؤلف الكتاب الحالى لا يميل إلى هذا الرأى) .

وفى يناير ١٩٢٩ م عقد مؤتمر علمى عن الوراثة والتهجين تجلت فيه روح الوفاق بين (البلشفية) و (والعلوم الزراعية) ، وبارك مئات العلماء . وعلى رأسهم فافيلوف Vavilov ، ما أسموه بزواج البلشفية بالعلوم الزراعية .

ولكن شهر العسل سرعان ما انتهى قبل انقضاء هذا العام . وأجج ستالين مرة أخرى أزمة الثقة بين الساسة والعلماء . وبادر بالقضاء على المعايشة السلمية التى كان لينين قد أوصى رفاقه برعايتها بين الساسة (والبروجوازية) . ثم تمادى فى هذا الاتجاه فهاجم العلماء هجوما عنيفا ، ووصف بحوثهم بأنها عديمة الجدوى ولا فائدة منها ، وطالت فترة العداء للعلم والعلماء طوال الحقبة الستالينية على مدى ما يربو عن ثلاثة عقود . وفى المقابل لذلك حظى أدعياء العلم بدعم المسئولين السوفييت وعلى رأسهم « ستالين » نفسه .

ميتشورين

كان من أبرز هؤلاء الأدعياء ميتشورين T.V. Michurin الذى كان يفتقر تماما إلى الخبرة العلمية بل لقد كان تأثيثه العلمى مقتصرا على شهادة مدرسيه فحسب ، ولكنه جعل من نفسه خبيرا فى تهجين أشجار الفاكهة . وكان يمتلك مزرعة فواكه صغيرة ضعيفة الإنتاجية فقدمها هدية لوزارة الزراعة لكى تحولها إلى محطة تجارب ومازال الكثيرون فى شتى أنحاء العالم يعتقدون أن ميتشورين كان قد حقق نجاحا باهرا فى استنباط سلالات قيمة من نباتات الفاكهة ــ وأنه على الرغم من ذلك ظل مجهولا حتى (اكتشفه) لينين . وحينما تربع ستالين على قمة السلطة فى روسيا أعلن عداءه للعلم والعلماء كما ذكرنا ، ورفع شعار (الممارسة قبل النظرية العلمية) . وركب ميتشورين والكثيرون من أمثاله هذه الموجه ــ وضربوا على وتر الماركسية الحساس حينما أعلنوا إيمانهم بأن (البيئة) لا (الوراثة) هى التى تلعب الدور الحاسم فى تهجين النبات ، ضاربين عرض الحائط بكلّ الحقائق العلمية التى كانت معروفة فى ذلك الحين . وليس كمثل تلك الأقوال يصادف هوى فى نفوس الساسة السوفييت . والغريب أن جميع تجارب ميتشورين فى مزرعته الخاصة التى كان يهدف من ورائها إلى استنباط سلالات من الفاكهة ينافس بها سلالات غرب أوربا . جميع هذه باءت بالفشل الذريع فى السنوات الأولى . ولم يكن يفعل فى تلك التجارب سوى محاولة تطعيم سلالات من جنوب الاتحاد السوفييتى على سلالات من شماله بغية الحصول على هجن تتحمل برودة الشتاء ، ولم يكن هو أول من اقترح هذا الأسلوب بل كان شائعا بين الزراع . ولما استيقن من فشل هذا الأسلوب تحول إلى (التهجين) وابتكر ما أسماه (بالخلط الخضرى) ؛ وادعى أن هذه الطريقة تمكن من تهجين السلالات بل و (الأنواع) النباتية المختلفة (طبقا لأبسط قواعد الأحياء لا يمكن تهجين نوعين من الأحياء أبدا إلا من خلال مزارع الأنسجة ، وتكون الهجن هنا عقيمة) . وتتلخص طريقه الخلط الخضرى فى تطعيم

السلالة الأولى (أو النوع الأول) على السلاله الثانية (أو النوع الثانى) تمهيدا لحدوث تلقيح خلطى بين أزهار السلالتين (أو النوعين) ينجم عنه هجن جديدة .

وفشل هذا الأسلوب أيضا فسعى ميتشورين إلى طريقة ساذجة من الوجهة العلمية . وذلك أنه كان يجمع حبوب اللقاح من السلالتين ويخلطهما معا ثم يلقح بهما أعضاء التأنيث فى زهور السلالة الأخرى . وغنى عن الذكر أن نجاح التلقيح هنا يرجع إلى أن الأعضاء المؤنثة لكل سلالة قد تلقحت فى الغالب بحبوب لقاحها الموجودة فى المزيج وليس بالضرورة بحبوب اللقاح الخاصة بالسلالة الأخرى . على أنه ادعى النجاح فى الحصول على سلالات تتحمل برودة الشتاء باستخدام ذلك الأسلوب — وأخرى ثمارها أفضل مذاقا ، وأطول قابلية للتخزين . ولتجنب الخوض فى المشاكل الوراثية التى تنجم عن تكاثر مثل هذه السلالات بالأسلوب الجنسى التقليدى ادعى إمكان اكثارها خضريا وكان ميتشورين لا يؤمن على الإطلاق بقيمة الوراثة فى تهجين النباتات . وكان يردد رأيا مغلوطا مفاده أن الطبيعة تنحو إلى الاختلاف العشوائى باستمرار ومن ثم تستحيل المحافظة على السلالات القيمة أثناء التكاثر الجنسى . وثابر ميتشورين بعد ذلك طويلا على الكتابة للمسئولين عن طريقته الجديدة التى يستطيع بها تطوير الزراعة الروسية تطويرا جذريا بهدف خدمة الوطن . ورغم أن المسئولين كثيرا ما وصفوه بأنه خبير فى تهجين النبات فقد استمروا فى التحفظ تجاه مطالبته المستمرة بأن يعين رئيسا لاحدى محطات الدولة الخاصة باستنباط سلالات الفاكهة . وكان قد أحاط نفسه بقدر كبير من الدعاية حتى إنه تلقى دعوة الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩١٣ م للعمل هناك بمرتب سنوى قدره ٣٢ ألف دولار . وهو مرتب يبلغ ثمانية أضعاف أعلى مرتب كانت تمنحه فى ذلك الوقت الهيئة التى وجهت إليه الدعوة . وعندما شكلت السلطات الروسية لجنة فنية لفحص مئات السلالات القيمة التى ادعى أنه أنتجها ، وذلك عام ١٩٣٠ م لم تجد لديه سوى سلالة واحدة يمكن أن يشهد لها بالجودة ، كذلك لم تحقق مزرعته أى قدر من النجاح فى تسويق سلالاته المزعومة . وتضاربت التقارير الرسمية عنه ولكنها على وجه العموم لم تكن تميل إلى الإيجابية . والذى لاشك فيه أنه استطاع بالفعل استنباط عدد قليل من سلالات الفاكهة القيمة ، على أن هذا العدد لم يكن يبرز بحال تلك الدعاية الهائلة التى أحاط نفسه بها . وكان يمكن لاسطورة ميشتورين أن تنتهى عند هذا الحد لولا إصراره على المطالبة بتحويل مزرعته إلى شبكة لاستنباط السلالات فى منطقة كاملة . وبطريقة أو بأخرى تمكن من اجتذاب الرئيس كالينين لزيارة هذه المزرعة عام ١٩٢٢ م . وكان لهذه الزيارة أثر عميق على أسطورة ميتشورين . فانهال عليه التكريم وتلقى سيلا من المعونات ، وذاع سيطه وأطلقت الصحافة عليه اسم (أبى التفاح) ، وذلك أثناء الاحتفال بيوم مولده السبعين فى عام ١٩٢٥ م . وأفردت له (برافدا) مساحة كتب فيها يمتدح أكثر من مائة سلالة على حد زعمه استنبطها فى (دراساته) . كانت قيمة كل منها الاقتصادية قد ازدادت بمقدار عشرة أضعاف على الأقل . فانهالت عليه عروض الشراء — وكثيرا ما كان المشترى يصدم فى السلالات التى اشتراها . وكان ميتشورين يبرر ذلك بأن معظم سلالاته لا تصلح إلا لمناطق من روسيا بعينها . أو أن المشترى (لايطبق الطرق التى ابتكرها بحذافيرها) . ومازالت هناك أسئلة حول الرجل بلا إجابة : ما هى بالضبط مدرسته لتهجين النباتات ؟ ما هى النقاط التى تختلف فيها هذه المدرسة عن المدارس الأخرى ؟ وما قيمتها على ضوء أسس الوراثة العلمية ؟ وتجدر

الإشارة هنا إلى ميشترويين ــ شأنه شأن معظم أقرانه من العلماء الكاذبين ــ كان لا يؤمن بصحة قوانين مندل للوراثة ــ ولا يكف عن مهاجمتها منافقة للسلطة الماركسية . وكان من الطبيعى ــ عند هذا الحد ــ أن يستقطب ميتشورين وأقرانه اهتمام الباحثين الجادين الذين شرعوا فى دراسة مزاعمهم ، واثبتوا بالتجربة بطلان ادعاءاتهم . من أمثلة ذلك ما نشره العالم الشهير فافيلوف من تشكيك حول صحة سلالة كان ميتشورين قد زعم أنه استنبطها من تهجين البطيخ مع القرع . ولم يحر جوابا على هذا التشكيك ، على أن معظم العلماء كان يميلون إلى تبرير أخطاء ميتشورين ــ ولعل ذلك كان اتقاء لغضب السلطة ــ واعتبر البعض أن أعماله كانت ذات صبغة (تطبيقية) لا تأبه كثيرا بالأسس العلمية ، وهذا عذر أقبح من الذنب . وكان معظم العلماء الجادين يميلون إلى تجاهل ميتشورين كلية ليوفروا عليه وعلى أنفسهم الحرج .

العلماء الفلاحون

أثناء الحقبة الستالينية راجت الدعوة للنزول بالبحوث الزراعية إلى مستوى الفلاح فى الحقل (طالما أن العلماء لافائدة من علمهم) . وفى عام ١٩٢٩ م دعت صحيفة بدنوتا **Bednota** (ومعناها الفلاحون الفقراء) إلى بناء جيش ممن أسمتهم (بالعلماء الفلاحين) ، ودعتهم إلى ممارسة التجارب الزراعية فيما أسمتها (بالمختبرات الكوخية) ولاقت هذه الدعوة استجابة كبيرة وسارع نحو ٢٣ ألف عضو للانضمام إلى هذا الجيش . وكان السبب وراء هذه الدعوة هو قلة الخبراء الزراعيين فى القرى ، ونقص الاعتمادات المالية ، مضافا إلى ذلك بالطبع أزمة الثقة فى طبعة العلماء لدى المجتمع . ودعت الصحيفة العلماء إلى إجراء بحوث فى أكواخهم على مشاكل مثل القضاء على الأعشاب الضارة ، وأنسب الطرق لجمع السماد العضوى ونثره ، وإدخال البرسيم فى الدورة الزراعية ، وبشراء بذور السلالات المشهود لها بالقيمة العالية ، وإنبات البطاطس قبل زراعتها .

وجرت (البحوث) فى معظم المختبرات الكوخية على مواضيع مثل محاولة زيادة نمو النباتات من خلال نقع البذور فى محاليل الأملاح أو فى المياه الطبيعية أو فى عصير مخلفات الحيوانات . وغنى عن الذكر أن الصحيفة أسندت إلى الفلاحين مهام لا يقوى على القيام بها إلا الخبراء . ولم يكن أحد من العلماء الفلاحين يسعى بالطبع إلى إدخال الزراعة الحديثة إلى أرضه بقدر ما كان يسعى إلى اقناع الآخرين بأن المحلول الذى اقترحه لنقع البذور هو أفضل المحاليل على الإطلاق . وليس لإنسان أن يتوقع من مثل هؤلاء (الباحثين) أكثر مما توصلوا إليه من نتائج جد متواضعة إضافة إلى ذلك لجأ بعض العلماء إلى دراسة عوامل أخرى قد تحفز نمو البذور مثل الإشاعات !!

واتسمت الدراسات فى هذه المرحلة بالتسطيح والبعد عن العمق ، ولم يكن ذلك بالأمر المستغرب بالطبع . وحذر العلماء الكبار من مغبة هذه الاتجاهات . فهاجم عالم فسيولوجيا النبات الشهير مكسيموف **Maksimov** هذه الطريقة البحثية التى أصبحت شائعة ، وحذر من الأعتقاد بأن هناك (خلطة سحرية) ستتكشف قريبا ، وسوف تحدث نموا هائلا إذا ما نقعت البذور فيها . وقد كانت معالجة البذور قبل زراعتها هى إحدى أحداث الطرق الزراعية فى ذلك الوقت . وكانت مثل هذه المعالجة تتضمن التنظيف واختبار الإنبات والتجفيف بالتسخين

والغمر فى الكيمياويات لقتل الآفات . ثم أبدى مكسيموف تحفظه الشديد على جعل البحوث الزراعية إحدى مهام الفلاحين .

وكانت فلسفة العلماء الفلاحين تتناقض على طول الخط مع المثل الألمانى الشائع (أدرس أولا ثم جرب بعد ذلك) الذى قلبوه فأصبح (جرب أولا ثم ادرس بعد ذلك إن شئت) . وكانوا يعتبرون الدراسة مضيعة للوقت والمال . وكانت حجتهم فى ذلك أن الزراعة فى الاتحاد السوفييتى كانت مازالت بدائية للغاية بحيث كان باستطاعتهم فى هذه المرحلة زيادة الغلة الزراعية بنسبة تتراوح بين ٤٠ و ٤٥٪ دون أية تكاليف تذكر .

ليسنكو والليسنكوية

يعتبر ليسنكو مثالا نمطيا معبرا عن (فلسفة) العلماء الفلاحين ، وذلك على الرغم من أنه كان ــ على نقيض ميشتورين ــ متعلما . وقد سيطر الأسلوب الفلاحى على تفكير ليسنكو تماما أثناء سنوات عمله فى معهد كييف للزراعة . وكان من القلائل الذين يتقنون حق الإتقان الإعلان عن أنفسهم والدعاية لها . ففى عام ١٩٢٧ حينما كان مازال فى التاسعة والعشرين من عمره ، ويعمل فى محطة تجارب مجهولة فى أذربجان نجح فى حث (برافدا) على دعمه والإعلان عنه فكتبت عنه مقالة جاء فيها أنه (نجح فى حل مشكلة تسميد الحقول بلا سماد أو أملاح (ولو كان هذا القول صحيحا فلاشك أن المقصود به إدخال البقول فى الدورة الزراعية لإثراء التربة بالأزوت ــ كما جاء فى مقالة (برافدا) أن ليسنكو أثبت أن محصولا شتويا للبازلاء يمكن زراعته فى اذربجان (فتتحول بذلك الحقول المجدبة إلى الخضرة اليانعة فى فصل الشتاء مما سوف يرحم الماشية من وطأة الجوع ، ويجعل الفلاحين يقضون شتاءهم ناعمى البال دونما ارتعاش إشفاقا من الغد) . ومن أغرب ما كتب عنه أيضا أنه (نحيف ــ بارز عظام الوجنتين ــ كث الشعر ... ليسنكو هذا يبعث فى الإنسان الإحساس بألم الأسنان ... فليمنحه الله الصحة ــ إنه رجل ذو مظهر حزين ــ لا تتذكر منه سوى أن عينه الكئيبة تحملق فى الأرض بنظرة وكأنه يهم بقتل شخص ما . لقد ابتسم مرة واحدة فقط ، ذلك العالم الحافى القدمين ...) أما محصول البازلاء الذى روجت (برافدا) له فلم يثبت جدارته خلال السنوات المتعاقبة . ولم يكن موضوع البازلاء هذا سوى الأول من سلسلة من المواضيع المبهرة عن نجاحات زراعية مزعومة ، كان يحتفى بها عند إعلانها فى الصحف ، ثم سرعان ما تنسى وتهمل من قبل العامة ، وهنا يتجاهلها الليسنكويون تجاهلا تاما . ولابد من الاعتراف لليسنكو بمقدرته الفائقة على تسخير الصحافة للترويج له . فمن الغريب أن معظم صحف الاتحاد السوفييتى وعلى رأسها (برافدا) ظلت تمتدح اكتشافاته العبقرية فى مجال الزراعة من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٦٤ م ، ثم انقلبت بعد ذلك تهاجمه . ولم يكن يعنى بالنظريات العلمية فيما يطلقه من آراء . لذلك غالبا ما كانت هذه الآراء تلقى اعتراضا واستنكارا من قبل المختصين . ومن أمثلة هذه الآراء ما ذكره من أن (كل نبات يحتاج إلى قدر معين من الحرارة ، ولو عبرنا عن هذاالقدر بالكالوريات لأمكن حل مشكلة الزراعة فى الشتاء على ورقة قديمة صغيرة الحجم) . والذى عناه ليسنكو) بقدر معين من الحرارة عبر عنه فى أولى مقالاته الأساسية المنشورة عام ١٩٢٨ بما أسماه (درجات النهار) وليس بالكالوريات مما حط من مستوى المقالة لدى العلماء .

ثم إنه حاول أن يوجد علاقة بين الزمن والحرارة التى تحتاجها سلالة نباتية حتى تتدرج فى نموها عن طور البادرة إلى البلوغ ، وذلك من خلال دراسة العلاقة بين النمو ويوم السنة ودرجة الحرارة . وانزلق إلى أخطاء احصائية لا ينزلق إليها مبتدىء ، كما أنه لم يلق بالا لنتائج سابقيه ممن درسوا هذه الأمور ، ولقد انتقده العالم الرائع البسيط مكسيموف الذى كتب أنه يجد فى مقالته سوى نقطة واحدة أو نقطتين اثنتين ضئيلتين تستحقان بعض الثناء . واستجاب ليسنكو لهذا النقد العلمى بأسلوبه الذى اشتهر به ، وهو الرفض التام والغاضب لكل نقد يوجه إلى عمله . ولم يكن ليسنكو يأخذ من نتائج تجاربه إلا ما يدعم وجهة نظر سيطرت عليه منذ البداية ويهمل ما سواها . من أمثلة ذلك أنه كان يرى أن تبريد البذور الخاصة بمحاصيل الشتاء لأيام قليله هو العامل الأوحيد الذى يؤثر فى وفرة المحصول الناتج . وفى مؤتمر علمى كبير عقد عام ١٩٢٩ م هاجم مكيسوف مرة أخرى دراسات ليسنكو ورفض النتائج التى توصلت إليها رفضا حاسما ، وقال ما نصه (لا تأتى نتائج ليسنكو بأى جديد على الإطلاق . وهى ليست اكتشافات علمية بالمعنى المتعارف عليه . وكان ليسنكو قد شرح فى ذلك المؤتمر لقوة (اكتشافه) الذى ارتبط باسمه وكان أكبر الأسباب فى شهرته وهو الأرباع Vernalizahon . وفجوى هذا الاكتشاف هو أن نقع حبوب القمح الشتوى فى الماء عند درجة منخفضة — يجعل هذه الحبوب قادرة على الإنبات عند زراعتها فى بداية الربيع ويوفر فترة بقائها فى التربة طوال الشتاء كما كان متبعا قبل هذا الاكتشاف — أى أن التبريد فى الثلاجة يغنى عن التبريد فى الحقل طوال الشتاء .

وفى عرضه لنتائجه ادعى ليسنكو أن القمح الشتوى الذى تعرض للإرباع أعطى غلة أوفر من القمح الربيعى عند المعالج . وشكل المسئولون المتعاطفون مع كل ما كان يقوله ليسنكو لجنة لتقويم هذا الإكتشاف ، فقرظته ونصحت بإجراء اختبار موسع على الإرباع . ومن قبل أن يجرى ذلك الاختبار سلمت تلك اللجنة الصحف خبرا مثيرا مفاده (لقد وجد ليسنكو بالفعل حلا لمشكلة موت المحاصيل أثناء الشتاء البارد) ولابد أن نذكر القارىء هنا بأن أوكرانيا كانت قد مر عليها شتاء فى غاية البرودة عام ١٩٢٧ — ١٩٢٨ م . فهلكت بسبب الصقيع خمسة ملايين هكتار من القمح الشتوى . ولعل فى ذلك ما يفسر الحماس والاستبشار الذين قابلت الصحافة بهما تلك الأخبار ، التى لم تكن مؤكدة على الإطلاق . ولابد أن يتذكر القارىء أيضا أن العلماء الجادين فى روسيا كانت آراؤهم متضاربة حول أسباب تلك الكارثة ، إذ لم يكن علم الإنسان قد تقدم بعد لتفسير أسباب موت النبات بالصقيع . وقصارى ما كان متفق عليه بين العلماء حينئذ هو أن أسباب الموت معقدة للغاية ويحتاج تفسيرها إلى بحوث متعمقة ومتأنية . فى مثل هذه الحالة النفسية يمكن للقارىء أن يتصور إن إعلان ليسنكو فى عام ١٩٢٩ م بأنه وجد الحل من خلال طريقة الأرباع البسيطة قد كانت له جاذبية شديدة واستطاع ان يستحوذ على مشاعر العامة — أما عقول العلماء فظلت متحفظة . وفى أكتوبر عام ١٩٢٩ م نقل ليسنكو من محطة تجاربه المجهولة فى إذربجان إلى (معهد تربية النبات) فى أوديسا ، وهو أهم مركز للبحوث الزراعية فى أوكرانيا . وأطلقت دعايات مكثفة حول (الأرباع) . ولكن كبار العلماء ظلوا على تحفظهم — وهو موقف لم يكن ينال رضا السلطة بالطبع . لذلك كانوا يهادنون فى تهجمهم على الأرباع بأقصى مالديهم من دبلوماسية . مثال ذلك أن مكسيموف عبر عن تقديره الشديد لجهود ليسنكو من أجل مساعدة الزراعة — وذلك حينما وجه إليه سؤالاً عن الأرباع — ثم قرن ذلك بأسفه إذ لم يلاحظ أية مهارة من جانبه (أى ليسنكو) فى كسب تعاطف العلماء الزراعيين تجاه

نتائجه . ثم حذر بشدة من التسرع والمبالغة فى التوقعات ، فالمشكلة العلميه أعوص من أن تحل بمثل ما اقترحه ليسنكو . والحقيقة أن التجربة التى كانوا قد ادعوا نجاحها لم تكن قد أجريت إلا على نصف هكتار من الأرض الزراعية . ولم تجر سوى « مره واحده » . ولم تؤكد نتائجها فى تجارب لاحقة ، وربما كانت تلك النتائج واعدة فى ذلك الحين ، ولكنها يقينا لم تكن كافية للحكم الحاسم على الأرباع كحل عملى لموت النباتات أثناء الشتاء .

ستالين مع الليسنكوية .. ضد العلم

وأثبتت التجارب الموسعة فيما بعد أن تحفظ العلماء الزراعيين كان فى محله تماما . وكان طبيعيا أنهم لم يجرؤوا — وعلى مدى نحو ٣٥ عاما — على الجهر بالهجوم على ليسنكو والليسنكوية اللذان كان يحظيان بدعم السلطة السياسية . وزاد موقفهم ضعفا أنهم لم يكن فى استطاعتهم تقديم أى بديل للإرباع كحل لموت المحاصيل فى الشتاء . وفى ديسمبر عام ١٩٢٩ م ألقى ستالين فى أحد المؤتمرات واحدة من أشهر خطبه ، نادى فيها بأن (التطبيق يأتى قبل النظرية) ، فانحاز بذلك للسياسيين المؤيدين لليسنكو ضد العلماء المختصين الذين وصفوا (وبالعجز والتقصير والحقد على العاملين المخلصين من أبناء الشعب) . وكان هذا الانحياز بمثابة الضوء الأخضر لأدعياء العلم من الليسنكويين ، فاستشرى نفوذهم منذ ذلك الحين وطوال فترة حكم ستالين ، وكان التعاطف مع هؤلاء يقابله فى الجانب الآخر تجاهل العلماء وقسوة عليهم واضطهاد لهم وممارسة إرهاب حقيقى ضدهم ، حتى بلغ الأمر أن أنكر عليهم بعض المسئولين السوفييت حق الوجود بالمرة . وتعتبر هذه السنوات أحلك حقبة مرت على علم الزراعة وعلمائه فى روسيا . فى خلال هذه الحقبة صال ليسنكو وجال فى شتى الشئون الزراعية . وكانت هيئة الزراعة وأكاديمية لينين قد اتخذا معا قرارا طموحا يقضى بوقف زراعة أصناف القمح السائدة آنذاك وتعميم زراعة سلالات جديدة مشهود لها بالجودة وتحمل برودة الشتاء بدلا منها — على أن يتم ذلك فى فترة زمنية لاتتجاوز عامين . وكان هذا أمراً مستحيل التحقيق حتى فى أكثر الدول تقدما من الناحية الزراعية . لكن المسئولين السوفييت كانوا مقتنعين بأن إنجاز هذا المشروع من خلال (المزارع الاشتراكية الضخمة) ممكن فى هذا الزمن القصير . كما كانت هناك طموحات تتعلق بتحسين البطاطس عن طريق استنباط سلالات مقاومة للأمراض تصلح للزراعة فى المناطق ذات الصيف الطويل الجاف . وطبقا لآراء الخبراء الزراعيين كان استنباط مثل هذه السلالات يحتاج إلى نحو ١٠ — ١٢ سنه كحد أدنى . على أن المسئولين السياسيين طالبوا هنا أيضا بإيجاز هذا العمل فيما لا يزيد عن ٤ — ٥ سنوات . ومن أجل تحقيق كل هذه الأهداف الطموحة اتفق رجال السلطة على أن هناك أسلوبين لا ثالث لهما . يقضى أولهما بضرورة أن تلجأ جميع المحطات الخاصة بتربية النبات إلى (تبنى تكنولوجيا أجنبية حديثة تتعلق بأحدث طرق استنباط السلالات المبينة على حقائق الوراثة) . أما الأسلوب الثانى فكان نقيضا للأسلوب الأول ، إذ كان يرى (بضرورة الخروج عن دائرة البحث العلمى ، الذى يعوق كل تقدم فى مجال التطبيق) . وأيا كان الأسلوب الذى سيتفق عليه) كان على الحزب بكامله وعلى جميع الهيئات السوفييتية والقاعدة العريضة من فلاحى المزارع الجماعية والعمال فى مزارع الدولة الإسهام فى تحقيق هذه الأهداف القومية وعبر العلماء الحقيقيون عن استعدادهم لحمل هذه المسئولية الجليلة شريطة أن توفر لهم الدولة الإمكانات اللازمة — مثل (صوبات) مكيفة الهواء وبعض التجهيزات الأخرى . ورغم أن ليسنكو أعلن تأييده

لهذه الخطط الطموحة فهو لم يستجب لها على الفور ، بل تريث حتى عام ١٩٣٣ م .

ثم بدأ العمل فى هذا المجال بالفعل عام ١٩٣٤ م ، (بدون حاجة إلى أية تجهيزات خاصة ـــ ولا حتى الصوبات المكيفة الهواء) . وشرع فى استنباط سلالة محسنة من القمح الربيعى . وقطع على نفسه عهدا مؤكدا بأن تصبح هذه السلالة الجديدة متاحة لاختبار الإنتاجية عام ١٩٣٥ م ـــ أى فى غضون زمن كان يقل كثيرا عن الزمن الذى حدده المسئولون فى خططهم الطموحة . وأعلن ليسنكو أن الحل يكمن فى الأرباع مرة أخرى . وكالعادة كانت طريقته غاية فى البساطة . وكل ما فعله أنه التقط سلالة من القمح الربيعى (لا تحتاج إلا لفترة أرباع قصيرة) بينما (تحتاج إلى فترة إضاءة طويلة) ، وهجن هذه السلالة مع أخرى (تحتاج إلى فترة أرباع طويلة وفترة إضاءة قصيرة أما ما الذى كان يعنيه على وجه التحديد بفترات الأرباع الطويلة والقصيرة ؟ فهذا مالم يكلف نفسه مشقة شرحه لأحد . وكان يردد دائما بأنه يعتنق فى دراساته مبدأ (المعرفة المسبقة) . بمعنى أنه يستطيع التنبؤ بما سوف تتمخض عن تجاربه من قبل أن يجريها . وطبقا لهذا المبدأ كان على التهجين المذكور أعلاه أن يتمخض عن (سلالة قمح ربيعى سريعة النضج) و (لذلك) سوف تصبح هذه السلالة أكثر انتاجه من السلالتين المهجنتين معا . ولم يكلف نفسه بالطبع مشقة دراسة أجيال هذا التهجين المتعاقبة ليرى إن كانت تلك الصفات المرغوبة سوف تتوراث أم تتنحى فيها . ذلك لأنه على حد قوله قد اختار أبكر النباتات من الجيل الأول (عالما مسبقا) أن صفاتها القيمة سوف تتوارث فى الأجيال المتعاقبة . وكل ما ذكره ليسنكو هنا هو الذى كشف لعلماء الزراعة عن مدى جهل الليسنكوية بأبسط قواعد العلوم الوراثية ـــ فضلا عن غرورها وحمقها . وكان ليسنكو قد أنشاء بنفسه صحيفة ـــ وكان من الطبيعى أن يسميها (الأرباع) . وفى منتصف عام ١٩٣٥ م نشر على صدر صفحتها الأولى بعنوان صارخ ما نصه (تأكيد التوقعات النظرية) . وأعلن أنه انتهى بالفعل من التوصل إلى السلالات المطلوبة طبقا لخطط الدولة الطموحة فى خلال فترة زمنية تقل عن نصف الفترة التى كان المسئولون يطمعون فى الحصول على السلالات خلالها . وكان هذا النجاح المزعوم صفعة جدية على وجوه العلماء الجادين مثل فافيلوف وغيره ، الذين عادوا ليصبحوا مادة للتوبيخ والسخرية من قبل المسئولين على صفحات الجرائد . ووصفوا إنجازات ليسنكو بأنها الدليل القاطع على عجز العلم الواضح فى مجال حل مشاكل الشعب الزراعية وكان من البديهى أن يلقى المسئولون على ليسنكو بمسئوليات جسام جديدة وأن يمعنوا فى تجاهل الباحثين والعلماء الذين آثروا الصمت الشديد .

وكانت الحرب العالمية الثانية فرصة متاحة أمام ليسنكو وأعوانه كى يثبتوا فيها مرة أخرى كفاءة نهجهم المعادى للبحث العلمى . وتركزت مشاركة ليسنكو فى المجهود الحربى على طلبه من أصحاب الحدائق فى المدن أن ينموا فى حدائقهم سيقان البطاطس لزراعتها بدلا من الدرنات ـــ كما كان شائعا . ومن ثم (فلم يكن يتحتم على صاحب الحديقة الاحتفاظ بالدرنات للزراعة وحجبها عن الناس الذين هم فى أمس الحاجة إليها كطعام) . ومن أجل تحسين محاصيل الحبوب حث ليسنكو الزراع على (تدفئة الحبوب قبل زراعتها) . وياله من تناقض سجله العلماء عليه وهو الذى كان قد أسس نظرية الارباع على تبريد الحبوب قبل نثرها . ولكن كان على الجميع

أن يفعلوا كل ما يوصى به ليسنكو . وفى آخر عام ١٩٤٥ شن هجوما قاسيا على علم الخلية وعلى أفكار دارون حول الانتخاب الطبيعى ــ أى أنه هاجم (بيولوجيا القرن العشرين) . واستحدث نظرية عارض بها الانتخاب الطبيعى . وكان رأيه حول أصل الأنواع أقرب إلى رأى لا مارك الذى لم يكن يؤمن إلا بدور البيئة فى الوراثة . ومما كتبه ليسنكو أن ــ(بادرات البلوط النامية تجمعات كثيفة لايضعف بعضها البعض الآخر بسبب التنافس على الماء والضوء والغذاء . وكان يقصد بذلك معارضة القول الشائع (البقاء للأقوى) ولكن غاب عنه أن أمثاله لا ينطبق على هذه الحالة ، فالنباتات لا تحتاج إلا للضوء والماء والأملاح ــ وكلها على درجة واحدة من الوفره فلا مجال للتنافس عليها . إنما تتنافس الحيوانات مثلا على الفريسة النادرة . وقد أكد ليسنكو أن (التنافس لايحدث إلا بين الأنواع المختلفة من الأحياء ، أما أفراد النوع الواحد فانها على العكس من ذلك تتعاون من أجل الجماعة ثم يحاول تأييد هذه الفكرة فيقول (إن بادرات البلوط الضعيفة لاتموت إلا من أجل أن تبقى البادرات القوية) . ولاشك أن القارىء ــ حتى غير المختص يلاحظ التناقض والخلط الواضحين فى أفكار ليسنكو . ولقد كانت هذه الأفكار بمفهوم العلم ــ حتى فى ذلك الوقت ــ فضيحة ، ولكنه لم يكن يدرك ذلك بالطبع . وبدأ بابا جديدا من تاريخ (نجاحاته الساحقة) فأخذ ينصح الفلاحين بزراعة البادرات فى مجاميع كثيفة بدلا من زراعتهافرادى ــ ناصحا بترك البادرات لتخفف من هذه الكثافة بأسلوب طبيعى (وأبسط الفلاحين دراية بالزراعة يعلم أن هذا هراء) . وظل نجم ليسنكو يسطع يوما بعد يوم ، وفى المقابل ظل التشكيك فى علم الزراعة وعلمائه المختصين يتكثف لدى المسئولين والعامة . وكان على جميع النظريات والمكتشفات العلميةأن تنتحى أمام سلطان ليسنكو الذى وضعت الدولة السوفييتية على عاتقه مسئولية تنفيذ (خطة ستالين لتغيير الطبيعة) .

سقوط الليسنكوية

ومات ستالين فى مارس عام ١٩٥٣ م . ولم يكن هذا العام قد انقضى بعد حينما عرى المسئولون السوفييت جهاز الإرهاب الجبار الذى كان قائما فى فترة حكمه . واقتضى ذلك أن يعترفوا بشجاعة علانية بأن الزراعة فى الاتحاد السوفييتى منيت بفشل ذريع وأصابها الفساد والتفسخ . وهاجموا الأوضاع التى سادت إبان حكم ستالين والتى أدت ضمن ما أدت إلى (تركيز السلطة بلا مسئولية .. وانتشار المسئولية بلا قوة) . وكان كل ذلك يؤذن بسقوط الليسنكوية . على أن هذا السقوط تأخر وقوعه ١١ عاما بعد موت ستالين . ذلك لأن الليسنوكية كانت نتاجا لنظام متكامل . والنظام لايزول على الفور بمجرد موت فرد واحد . والمؤرخون الذين رصدوا تلك الفترة من تاريخ الاتحاد السوفييتى يلاحظون أن موت ستالين أدى إلى تسارع تغيرات كانت قد بدأت بالفعل أثناء حياته فى السنوات القليلة الأخيرة من عمره . وفى هذا الجو النفسى الجديد نفض العلماء عن أنفسهم غبار الخوف والتحفظ . وانهال النقد على ليسنكو وأفكاره من كل اتجاه . ولايحسبن أحد أن الليسنكوية استسلمت على الفور ــ بل ظلت تدافع عن مواقعها بكل ما لديها من قوة . وكان أحد علماء الكيمياء الحيوية الروس قد ألف كتابا ــ لم يسمح بنشره فى الاتحاد السوفييتى إلى اليوم ــ فند فيه أفكار ليسنكو وانتقدها بشدة ، فما كان من رئيس أكاديمية لينين للزراعة ــ الذى كان من أقوى المتعصبين لليسنكو ــ إلا أن طالب رسميا عام ١٩٦٤ بمعاقبة هذا

العالم جنائيا ــ متهما إياه بأنه (من أعداء الشعب) ، غير أن هذه المحاكمة لم تتم إلى اليوم . وفى عام ١٩٥٥ م أعلن العلماء السوفييت أن الأوان قد آن لاعادة فتح النقاش حول قوانين الوراثة الذى كان قد أغلق بتأثير الليسنكوية واستبدادها . وذهب العلماء إلى أبعد من ذلك فطالبوا المسئولين برفع يد السلطة على العلم كى تتوفر للعلماء والباحثين حرية العمل والتعبير المطلقة ــ وهو المطلب الذى لا غنى عنه من أجل بحث عملى جاد . ووجد المسئولون الروس أنهم قد أصبحوا فى موقع الدفاع عن النفس ، ذلك لأنهم شعروا بوطأة الكارثة التى حاقت بالزراعة فى روسيا فى ذلك الوقت . وكان همهم الأكبر أن يدلهم العلماء والخبراء إلى ما هو (صحيح ونافع) ولقد استغرق الأمر بعد ستالين ١١ عاما لكى تتأكد السلطة تماما من أن علم البيولوجيا الزراعية الذى اخترعه ليسنكو هو فى الواقع لغو وهراء . وخلال هذه الأعوام كان هناك صراع خفى بمكاسبها والعلماء الجادين ، وكان بعض مظاهر هذا الصراع يبدو فى العلن بين الحين والآخر ، وانجلى هذا الصراع عام ١٩٦٤ عن سقوط الليسنوكية بلا عودة .

كلمة ختاميـــة

لم يعن كاتب هذه المقالة بتلخيص كتاب (فضيحة ليسنكو) بقدر ما حاول أن يستخلص منه كل ما يؤيد الفكرة المحورية من وراء تأليفه . فمن الواضح أن مؤلف الكتاب يرمى إلى إلقاء الضوء على حجم الكارثة التى تنجم عن كفر السلطة (فى الاتحاد السوفييتى) بقيمة العلم ، وتلهفها على أن تسمع من العلماء ما يتفق مع إيديولوجية الدولة . وهذه ظاهرة يمكن أن تقع فى كل زمان ومكان . ولم يغب عن ذهن كاتب هذه المقالة أن مؤلف الكتاب يعتنق (إيديولوجية) معارضة (للايديولوجية الماركسية .. ومع ذلك فلا يملك منصف ــ حتى من الماركسية أنفسهم ــ إلا أن يوافقه على أن هذه الحقبة من عمر الاتحاد السوفييتى كانت مظلمة . فالحقيقة المؤلمة أن ليسنكو لم يشغل مطلقا بالبحث العلمى الجاد ، وذلك بالرغم من الشهرة التى أحاطت به إلى اليوم بأنه أحد علماء فسيولوجيا النبات البارزين ، وباحث له آراء هامة فى علم الوراثة . وقصارى ما نجح فيه فى الواقع هو أنه احتمى بالسلطة وفرض نفسه فرضا على علماء وعلم زمانه . وعلى الجانب الآخر كان الستالينيون يعتقدون أنهم ساسة (عمليون) وما نشأة علم (الأحياء الزراعية) ثم انهياره على هذه الصورة إلا أحد المظاهر السلبية الخطيرة (لنظرة ستالين العملية) هذه ولاشك أن علماء العالم لايمكنهم الادعاء بأنهم دائما على صواب مطلق . على أنهم بالتأكيد أقرب خلق الله إلى هذا الصواب فى مجالات دراساتهم . ورغم أن المسئولين السوفييت كانوا يؤمنون بذلك ومازالوا يؤمنون به ، فلقد تطرق الشك إلى نفوسهم على مدى نحو ٣٥ عاما ، كانت كفيلة بتوجيه ضربة قاسية إلى التقدم الزراعى فى روسيا ، ما زال يعانى من أثارها إلى اليوم ، جزاءً على كفر السلطة بقيمة العلم وشأنه .

شخصيات وآراء

نجيب محفوظ
ورواية الاستدعاء التاريخي

د . حلمي محمد القاعود

يكاد « التاريخ » أن يكون اللعبة الأدبية المفضلة لنجيب محفوظ فقد بدأ حياته بترجمة كتاب عن مصر القديمة . ثم كان أول إبداعه فى مجال الرواية ثلاث روايات تاريخية على التوالى هى : عبث الأقدار (١٩٣٩) ، **رادوبيس** (**١٩٤٣**) ، **كفاح طيبة** (**١٩٤٤**) ، **ويمكن القول** إن جلّ رواياته تدور حول التاريخ القديم والحديث ، وتتكىء ثلاثيته الشهيرة [بين القصرين ـــ قصر الشوق ـــ السكرية (١٩٥٦ ـــ ١٩٥٧)] مع روايات القاهرة الجديدة (١٩٤٥) ، خان الخليلى (١٩٤٦) ، وزقاق المدق (١٩٤٧) ، بداية ونهاية (١٩٤٩) وغيرها ، على تاريخ مصر الحديثة وتتناول أبرز قضاياه القومية والاجتماعية الأيديولوجية من خلال تصوّر يتطوّر من مرحلة إلى مرحلة وفقاً لتطوّر مفاهيم الكاتب وأساليبه الإبداعية .. ولم تتوقّف اللعبة الأدبية المفضلة لنجيب محفوظ عند رواية معيّنة ، بل استمرّ يمارسها حتى الآن بطريقة وأخرى ، باعتبار « التاريخ » منبعاً غنيًّا بالأفكار والحوادث والشخوص .. وكنت ذات يوم فى أوائل السبعينيات قد قابلت الأستاذ « يحيى حقى » وسألته عن الجديد الذى يقدّمه « نجيب محفوظ » فقال لى : الحرفة .. ويقصد بذلك الأداء الروائىّ المبهر الذى يتشكّل فى صورةٍ جديدةٍ مع كلّ عملٍ جديد .. كان « يحيى حقى » يقصد أيضاً ، أن « المضمون » لم يعد فيه جديد لدى « نجيب محفوظ » ، ولكنى رأيته بدأ من عام ١٩٨٢ ، وبخاصة منذ روايته « الباقى من الزمن

ساعة » ينعطف نحو أفكار جديدة ورؤى مغايرة تختلف عما سبق أن عالجه فى رواياته السابقة ، مما أشرت إليه فى أكثر من دراسة نشرتها من قبل .

وإذا كان « نجيب محفوظ » يعالج فى رواياته التاريخية الأولى [عبث الأقدار ، رادوبيس ، كفاح طيبة] أحداث التاريخ وشخوصه مباشرة من خلال الصياغة الروائية الفنية التقليديّة وما تقتضيه من ترتيب وبناء ، فإنه فى رواياته التى اتّكأت على التاريخ فيما بعد ، قد اكتفى باستدعاء التاريخ كإطار عام يطرح من خلاله الأحداث والشخوص والرؤى التى يريد .. ملحمة الحرافيش « مثلاً التى نشرت عام ١٩٧٧ ، استدعى فيها تاريخ الفتوات فى مصر الحديثة ومواطن تجمعهم فى العباسية والحسينية وبولاق والعطوف والدرّاسة وباب الشعرية ليطرح من خلال هذه النوعية البشرية فى المجتمع المصرى ـــ أو القاهرى تحديداً ـــ رؤاه وتصوّراته حول قضايا العدل والحق والقوة والسلطة وتتابع الأجيال مازجاً بين اللحظة التاريخية والتصوّر الخيالى أو « الفانتازيا » .. لقد تطوّر استدعاء التاريخ لدى « نجيب محفوظ » من التاريخ الحقيقى الذى يطابق بأحداثه وشخوصه وعِبَرِهِ الواقع المُعاش إلى حد كبير كما نرى فى عبث الأقدار ، رادوبيس ، كفاح طيبة ؛ إلى روح التاريخ كما نرى فى روايتيه « أمام العرش » (١٩٨٣) ورحلة ابن فطومة (١٩٨٣) ، مروراً باستدعاء أحداث التاريخ كما رأينا فى الثلاثية وغيرها ..

إن استدعاء روح التاريخ مرحلة جديدة ومتقدّمة فى أدب نجيب محفوظ ، لأنها واكبتْ فى تصوّرى انقلاباً فكرياً ، عبرّ عن نفسه بتغيرّ فى المفاهيم إلى حدّ كبير ، مع التركيز على قضايا كبرى تتجاوز المراحل السابقة مما ستكشف عنه قراءة روايته « ابن فطومة » موضوع التطبيق لهذا المبحث .

فى الماضى كانت تُضْنى « نجيب محفوظ » قضية الوطن مع الاحتلال والمستبدّين ، فغاص فى عمق التاريخ الفرعونى القديم ليعرض لنا صورة من الصراع حول ما ينبغى أن يكون عليه الحكم ـــ بين الشعب والكهنة (باعتبارهم مثقفى ذلك الزمان) وبين الأسرة الفرعونية الحاكمة [عبث الأقدار ورادوبيس] وكأنه كان يعالج فى ذلك الحين ما يعانيه المصريون مع حكّام زمانهم فى الثلاثينيات والأربعينيات .. كما يعرض صورة للكفاح العظيم الذى خاضه المصريون القدماء ضد « الهكسوس » الغزاة بقيادة « أحمس الأول » حتى تم طردهم ودحرهم وملاحقتهم إلى خارج الحدود [كفاح طيبة] .

وفى العصر الحديث عالج قضايا الوطن باستدعاء التاريخ القريب .. سجل أحداث ثورة ١٩١٩ فى الثلاثية وصراع الطبقات وتطوّرها وما أصابها من تغيير فى أعمال كثيرة : بداية ونهاية ـــ خان الخليلى ـــ القاهرة الجديدة ـــ زقاق المدق .. وكان فى هذه الروايات وغيرها ينطلق من واقعيّة متعدّدة الألوان ـــ إن صح التعبير ـــ لينتصر لفكرة « الحلّ بالعلم » وحده .. ويمكن القول أيضاً إن « نجيب محفوظ » استطاع أن يوظّف ذاكرته توظيفاً جيداً ، حين استدعى ذكرياته .

ليدلى برأيه فى مجموعة الأشخاص والزعماء الذين أثروا فى حياة مصر منذ الثلاثينيّات من خلال روايته « المرايا » .. لقد قدم الشخوص فى فصول مستقلة ، كل شخصية بملامحها وسماتها الحقيقية التى يعرفها من عاصروا تلك الفترة ، وكان عليه كى يتفادى الحرج ــ لوجود بعضهم أحياء ، أو كى لا يغضب أقارب الأموات ، أن يختار لكل شخصية اسماً مستعاراً . !

التاريخ إذاً ، يلحّ على نجيب محفوظ باعتباره جزءاً من كيان الأمة متصلاً بواقعها ومستقبلها ، وعنصراً فعالاً فى تكوين هويّتها وشخصيّتها .. ولذلك يستدعيه مباشرة أو بطريقة غير مباشرة ، وقد أكثر من استدعائه فى الحالة الثانية .. وفى هذا المبحث لا يستدعى التاريخ القريب ــ وإن كان فى حقيقة الأمر يعالجه ــ ولكنه يستدعى التاريخ القديم وظلاله ، ليبحر فى أعماقه ، ويتحرر من قيود الواقع ومؤاخذاته ..

ولعل روايتيه « أمام العرش » و « رحلة ابن فطومة » تمثلان الاستدعاء التاريخى المنطلق فى اتجاه أكثر خصوبة وثراء وغنى على المستويين الفكرى والفنى ، مما يُغْرى بالتوقف عندهما طويلاً ، وإذا كان البحث يهدف إلى قراءة رواية « ابن فطومة » باعتبارها الأنموذج الذى يستدعى التاريخ أو روح التاريخ فى إطار أكثر رحابة ــ واتصالاً بالحاضر ، فإن إشارة سريعة إلى « أمام العرش » سوف تكون مفيدة ، باعتبارها قد كتبت فى العام نفسه الذى صدرت فيه « ابن فطومة » ، وسبقتها مباشرة فى الصدور ، ثم إنها تلت روايته « الباقى من الزمن ساعة » التى تعدّ ثلاثية مركّزة وموجزة ، تكمل الثلاثية الشهيرة ، حيث تتناول الفترة من عام ١٩٣٦ وتوقيع المعاهدة بين مصر وانجلترا حتى حادث المنصّة عام ١٩٨١ ؛ من خلال ثلاثة أجيال .

(٢)

تحمل رواية « أمام العرش » عنواناً فرعياً يقول : « حوار مع رجال مصر من مينا حتى أنور السادات » ، وهذا العنوان قد يكون أكثر دقة ، لو استبدل كلمة « محاكمة » بكلمة « حوار » .. فالحوار الذى نراه فى الرواية ما هو إلاّ محاكمة روائية تاريخية تجرى فى محكمة العدل المكونة من أوزوريس ، وإيزيس وحورس وتحوت الكاتب ، ويَمْثُل أمامها حكام مصر ، حيث يوجه إليهم الاتهام فى الشئون التى قصرّوا فيها ، فتظهر فى المحكمة الجوانب الإيجابية والسلبية للحاكم ، ثم يَصْدُر الحكم بشأنه ، فإما أن يخلد فى النعيم ، أو يخلد فى الجحيم ، أو يخلد فى منطقة بين النعيم والجحيم .. والخالدون فى النعيم هم الأبطال الذين خدموا الأمة وانحازوا إلى الشعب ، وكانوا أمناء فى حمل الرسالة التى كلّفوا بها ، أما الخالدون فى الجحيم فهم الظالمون المستبدون الطغاة ، الذين أذلوا الشعب أو حرموه نعمة الحرية والقوة والرخاء .. يبقى أصحاب المنزلة الثالثة وهم التافهون الضعفاء الذين كانوا مجرّد صورة مهزوزة لا قيمة لها .. إنهم يخرجون من الباب الغربى ليخلدوا فيما بين النعيم والجحيم .. إنهم على « الأعراف » !

ويلاحظ أن المُقَدَّمين إلى المحاكمين يضمّون بعض الحكماء والزعماء والكهنة وأفراد الشعب العاديّين ،

وكل منهم يمثل فكرة ما أو نمطاً معيناً كان له تأثيره على الشعب بصورة وأخرى ، وأحسب ذلك قد جاء لتتكامل الصورة التاريخية لمصر ..

كما يلاحظ أن تشكيل المحكمة قد تكوّن من الرموز المقدسة فى التصوّر المصرى القديم [أوزوريس ، إيزيس ، حورس] وهى تمثل روح الشعب وأمله ، وحكمها لا تشوبه شائبة من الإنحياز أو المحاباة أو التحامل .. ولكنه حكم « عادل ومحايد » .. وإن كان هذا الحكم يضع فى اعتباره الظروف التى تمرّ بها الشخصية موضوع المحاكمة ، وينظر إلى مجمل الإيجابيات والسلبيات ، فإن تغلبت الأولى كان النعيم ، وإن تغلبت السلبيات كانت الثانية .. ومن كانت صفحته خلوا من الإيجابيات والسلبيات ذهب إلى مقام التافهين .. وبالطبع فإن الرموز المقدسة هنا متأثرة برؤية المؤلف **وتصوّره** ، مما سنراه فى أكثر من موضع ، مما يجعل الأحكام موضع أخذ وردّ بالنسبة للقارىء ..

وحيثيات الإدانة فى المحاكمة تركّز على انتقاد الحرب والاستعباد والعنف والاستبداد والغزو من جانب الحكّام ، حتى لو جاء هذا المنهج بالخير العميم الذى يشمل البلاد كلها ، فالتجارة أفضل منه فى تحقيق الرخاء — وهو ما عبر عنه الوزير **أمحتب** وزير الملك « زوسر » :

« كان رأيى أن العلاقات التجارية أنجح من الغزو فى تأمين الحدود ، وأن نفقات المعبد يجب أن تؤخذ من مصر ويعفى منها أهالى النوبة الفقراء ، كما رجوت ألا نرسل البعثات إلى الصحراء الشرقية حتى نوفّر لها الرعاية الطبية والتموين الكافى ولكن مولاى كان متلهّفاً على دعم أسباب الأمان والرخاء لمصر وأهلها ..(١) .

وفى المحاكمة نلمح وعياً حاداً بتاريخ مصر القديمة ، وصراعات الحكام والأحقاد التى كانت تشتعل فى كثير من الفترات ، مما ترتب عليه أن تفقد مصر الكثير من أبنائها وخيراتها .. وهو ما يجعل الحوار أو الاتهام فى المحاكمة يدور غالباً حول إدانة الحروب فى ظلّ ضعف الدولة ، والقبول بالسلام بديلاً عن الحروب غير المجدية ، ولعل أوضح الصور المعبّرة عن ذلك ما جاء فى محاكمة الملك سيتى الأول . فقد سأله تحتمس الثالث :

تحتمس — لِمَ لمْ تستمرّ فى محاربة الحيثيين ؟

فقال سيتى الأول :

---

(١) أمام العرش ، مكتبة مصر ، القاهرة ، د . ت ، ص ١٣ .

ـــ شعرت بأن جيشى قد أنهكت قواه ، بالإضافة إلى أن الحيثيّين كانوا قوماً أشداء فى القتال .. فقال تحتمس الثالث :

ـــ المعاملة الوحيدة المجدية مع عدوّ قوى هى القضاء عليه لأعقد معاهدة صلح معه !

فقال سيتى الأول :

ـــ معاهدة الصلح بديل معقول عن حرب غير مجدية ..[1] وبالطبع ، فإن الإلحاح على مسألة الحرب والسلام يستمرّ منذ محاكمة مينا حتى محاكمة السادات لتصل الرواية ـــ بالحوار ـــ إلى الإقناع بالبديل المعقول بعيداً عن الحرب غير المجدية ..

إن مهارة الكاتب فى إقامة المحاكمة جعلته يطرح ما يقال عن « المتهم » إيجاباً وسلباً ، ويترك للقارىء مهمة الحكم الحرّ الذى قد لا يتأثر كثيراً بالحكم « الأوزوريسى » المقدس .. إنه يترك فرصة كبيرة أمام المتلقى كى يتأمل ويقارن ويراجع ، ثم يحكم .. ولا يمنع ذلك أن يستشعر القارىء أن المؤلف ينحاز أو يتعاطف مع بعض الشخصيات ، كما يتعاطف مثلاً مع رموز حزب الوفد التاريخيين ، وبخاصة « سعد زغول » و « مصطفى النحاس » ، فقد بدت صورتهما من أبهى الصور أمام محكمة « أوزوريس » ، وتحوّلا إلى أغنية عذبة وجميلة ، وها هو مصطفى النحاس يوصف على لسان « أبنوم » « بالثائر الثالث فى حياة شعبنا » ويخاطبه الملك اخناتون بقوله :

« تقبل حبى أيها الزعيم ، إنك مثلى تفانياً فى الإيمان بالإله الواحد ، والإخلاص للمبادىء الطاهرة ، ومثلى أيضاً فى حب البسطاء من الشعب والاختلاط بهم دون حاجز عن التعالى أو الكبرياء ، ومثلى تعرّضت لعداوة الأدغال وعبّاد السلطة وأسرى الأنانية حياً وميتاً ، ومثلى أخيراً فيما حظيت به نشوة النصر وما ابتليتَ به من الجمود والهزيمة ، ولكن أبشرْ فالنصر فى النهاية لنا .. »[2] . وواضح أن مَيْل « نجيب محفوظ » لحزب الوفد القديم ، كان وراء رسم الصورة البهيّة للزعيمين الوفديّين ـــ وهو ميل مشهور عبّر عنه فى أكثر من موضع وأكثر من مناسبة ..

وفى ختام الرواية يلخص نجيب محفوظ الصورة التى ينبغى أن تكون عليها مصر من خلال الحوار بين ملوك مصر القديمة والحديثة حيث يدعو الملوك والحكام إلى عبادة الإله الواحد والتحرّر من أية عبودية أرضيّة والحرص على وحدة الأرض والشعب والإيمان بالعمل والعلم والحكمة والأدب والشعب والثورة والقوة والحكم الديمقراطى والعدالة الاجتماعية المطلقة والحضارة والسلام[3] .

(١) السابق ، ص ٨٦ .

(٢) أمام العرش ، ١٨٩ ، ١٩٠ .

(٣) راجع ما قاله الملوك والحكام : ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

إن هذه الصورة خلاصة توفيقية لما آمن به كل ملك أو حاكم من حكام مصر قديماً وحديثاً .. وتجمع المبادىء الصالحة التى عملوا على تنفيذها وتحقيقها ..

ويلاحظ أن نجيب محفوظ مع تحوّلاته الفكرية أخذ يطرح بجسارة موقفاً جديداً ينصف الإسلام باعتباره صورة للعدل المطلق حتى مع المخالفين له من الطوائف الأخرى(١) وإن لم يمنعه ذلك من إبراز نقاط ضعف لدى بعض الحكام المسلمين وولاتهم(٢) وفى المقابل فإنه لم يهتمّ ببعض الشخصيات المهمّة فى هذا السياق مثل « صلاح الدين الأيوبى » و « المظفر قطز » ، واكتفى بإشارات عابرة لا تضعهما فى الصورة الملائمة كرمزين من أهم الرموز الظافرة فى حياة مصر والمصريين . فضلاً عن كونهما يمثّلان صورة للتقوى والورع والتجرّد والحدب على الرعيّة ، وربما كان دافع « نجيب » إلى هذا الإهمال كونهما أصل غير مصرى ، ولكنهما شعنا أم أبينا قد حكما مصر وأحرزا لها أعظم انتصارين فى التاريخ ، حطين وعين جالوت .. ومن غير المعقول أن يخصص نجيب محفوظ ثلاثة فصول لأفراد عاديين من الشعب المصرى ليوحى بأن الأقباط (النصارى) هم جوهر مصر وتكوينها ، بينما لا يحظى صلاح الدين وقطز بمثل هذه الفصول(٣) .

تبقى ملاحظة مهمة للغاية ، وهى إغفال دور الشعب فى هذه المحاكمات .. فالشعب بعيد عن مجريات الأحداث ، دوره دائماً دور التابع السلبى ، وقد يكون هذا صحيحاً إلى حد كبير ، ولكن هناك مراحل أخذ فيها الشعب زمام المبادرة .. وإذا كانت الرواية تعتمد على شخوص جاهزة وأحداث مسجلة سلفاً ، فإن الحوار قد أفضى بالكثير من الرؤى والتصورّات .. وكان يستطيع أن يبرز دور الشعب بصورة أكثر عدالة لا تضعه فى دور الخاضع لحكامه دائماً ، المنتظر لما يفعلون .

إن رواية « أمام العرش » جديرة بأن تثير الكثير من العراك الفكرى ، أكثر مما تثير من الاهتمام الفنى ، فقد أخذت مادتها من التاريخ ، ومن خلال التركيز والتكثيف استطاعت أن تعتمد على أبرز المعالم والملامح التى تراها فى الشخصية الجاهزة أو بمعنى آخر الشخصية المستدعاة من العالم الآخر ، وأنطقها الكاتب برؤيته ورؤاه فى أسلوب صاف ومباشر ، فصارت محلاً للتساؤل حول ما تقول أو ما يقال لها وعنها .

(٣)

إذا كان « نجيب محفوظ » قد جعل المحاكمة الممتدة من عهد مينا إلى عهد السادات عنصر التشويق والإثارة « الذى يشدّ القارىء حتى نهاية الرواية ، فإنه فى روايته « رحلة ابن فطومة » يقدم محاكمة من نوع آخر .. إنه

---

(١) انظر ما كتبه عن أحمد بن طولون ، وابنه خمارويه ، الرواية ، ص ١٤٤ ــ ١٤٦ .

(٢) انظر مثلاً ما كتبه عن عبد الله بن عبد الملك ــ وقرة بن شريك ، وأسامة بن يزيد ، حيث أكد ظلمهم وجورهم وعسفهم وفسادهم حتى قال عن عهودهم (الدين إسلامى والحكم رومانى) راجع الرواية : صفحات ١٣٢ ــ ١٣٥ . وهو رأى يحتاج إلى مراجعة وتمحيص .

(٣) انظر مثلاً صفحات ، ١٣٦ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٢ . ويلاحظ أن مصطلح الأقباط فى مدلوله ليس قاصراً على النصارى وحدهم ، بل يشمل سكان مصر من المسلمين والنصارى معاً .

يحاكم عصراً وواقعاً وسلوكاً من خلال رحلة تقوم بها الشخصية الرّئيسة ، وهى رحلة تذكّرنا برحلات شخوص ألف ليلة وليلة ، بل إنها تبدو كأنّها مستمدّة منها ومن عالمها الساحر الخلاّب .. وإن كان المؤلف قد وضع أقدامنا على أرض الواقع ، واستطال بقاماتنا فى قلب التاريخ .

قبل أن تبدأ الرّواية نجد إشارة على الغلاف الداخلى تقول : « نقلاً عن المخطوط المدوّن بقلم قنديل محمد العنّابى الشهير بابن فطومة » .. فهنا « مخطوط » ينقل عنه الكاتب ، وينتسب إلى الماضى أو التاريخ ، ويعنى أن شخوص الرواية وأحداثها تفلت من إطار المعاصرة وملابساتها ، وترتد إلى زمان بعيد وواقع بعيد ، وإن كنّا مع ذلك نعيش زماننا وواقعنا بصورة ما ..

ويبدو أن دلالة الاسم « قنديل محمد العنابى » الشهير بابن فطومة ، تنطلق بنا فى اتجاهين . الاتجاه الأول ما يوحى به الاسم « قنديل محمد العنابى » ، والثانى ما توحى به الشهرة أو النسبة (ابن فطومة) . فالاسم « قنديل » يحمل فى طيّاته معانى النور والإضاءة والإرشاد ، و « محمد » يشيرَ إلى طبيعة الجوّ الإسلامى الذى صار « محمد » عنواناً عليه . أما اللقب « العنّابى » المنسوب إلى العناب ففيه من إيحاءات اللون والطعم والرائحة ، ما يمزج بين الحلاوة والمرارة والحزن وعبق التاريخ ووقار الماضى .. إن « قنديل محمد العنابى » يوحى بعالم زاخر من المعانى والإيحاءات سنتقلّب فى أرجائه عبر الرواية حيث نذوق حلاوة الحلم ونعانى مرارة الواقع .

أما ما يوحى به اسم الشهرة أو النسبة « ابن فطومة » ، فلعلها تذكرنا على الفور بابن بطوطة » ، الرحالة المسلم الشهير ، الذى فتح العيون والقلوب على عوالم جديدة مليئة بما يبهر ويثير .. وهو ما يتطابق مع رحلة ابن فطومة بطل رواية « نجيب محفوظ » ، حيث تبدو عالماً جديداً موّاراً بالشخوص والأحداث والأعاجيب .

إن رحلة ابن فطومة هى الإطار التاريخى الذى استدعاه نجيب محفوظ ليعالج من داخله واقع الأمة الإسلامية ، ولهذا فإننا لا نجد إشارة إلى زمان الرواية .. إنه زمان مجهول لا وجود له إن صح التعبير بالرغم من أنه يشير إلى نقله عن مخطوط . فى أى زمان كان هذا المخطوط أو إلى أى عصر ينتمى ؟ سؤال بلا إجابة .. وإن كانت هنالك إجابة ؛ فإنها تعنى ببساطة أن الكاتب لم يغادر زمنه ولا عصره ، ولذا ترك المسألة الزمنية بلا تحديد ولا توصيف .. الوقائع أو الأحداث وحدها تشير إلى أيامنا وواقعنا .

أما المكان فهو واضح وإن لم يشر إليه صراحة إنه « القاهرة » بروائحها الساحرة وعبقها التاريخى : « ومهما نبا بى المكان فسوف يظل يقطر ألفة ، ويسدى ذكريات لا تنسى ، ويحفر أثره فى شغاف القلب باسم الوطن . سأعشق ما حييت نفثات العطارين ، والمآذن والقباب . و .. »(١) .

---

(٣) رحلة ابن فطومة ، مكتبة مصر ، د. ت ، ص ٥ . [تشير القائمة الخاصة بمؤلفات الكاتب أن الرواية نشرت فى عام ١٩٨٣ . وإن لم يذكر التاريخ على غلافها كما هى عادة الناشرين] .

إن المكان يتجاوز الوطن [مصر] ليمتد إلى العالم أو ما وراء العالم المنظور ، حيث يصنع الخيال عالماً آخر له ملامحه ومعالمه التى يسجلها ابن فطومة فى رحلته المثيرة والمبهرة « قمت بتلك الرحلة وحدى عقب وفاة أبى ، فزرت ديار المشرق والحيرة والحلبة ، ولولا الظروف المعاندة لزرت الأمان والغروب والجبل . ولكن القافلة وقفت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهلية فى دار الأمان .. »(١) .

إن المكان عنصر أساس ومهم فى البناء الروائى لرحلة ابن فطومة ، حيث تنعقد من خلاله المقارنة بين دار الإسلام وبقية الديار من حيث الواقع والمستقبل .. فدار الإسلام هى العذاب الذى يتعذب به ابن فطومة بسبب ما يجرى فيها من تخلف وظلم وقهر ، وهى الحلم الجميل الذى يحلم ابن فطومة بتحقيقه لتكون موطناً للعدل والحرية والتقدم كما يفترض ، والرحلة إلى بقية ديار العالم تمثل اللهفة إلى تحقيق هذا الحلم . « .. أريد أن أعرف ، وأن أرجع إلى وطنى بالدواء الشافى .. »(٢) .

وأتصور أن المكان يشكّل « عقدة » الرواية ، فمنذ البداية نجد أن ابن فطومة منذ حداثته مولع بالرحلة والمشاهدة ، مشوق إلى التعرف إلى أماكن جديدة وعالم جديد :

ـــ حدثنى عن مشاهداتك ياسيّدنا .

فحدثنى بسخاء حتى عايشت بخيالى ديار المسلمين المترامية ، وتبدى لى وطنى نجماً فى سماء مكتظة بالنجوم . وقال :

ـــ ولكن الجديد حقًّا لن تعثر عليه فى ديار الإسلام !

وتتساءل عيناى عن السبب فيقول :

ـــ جميعها متقاربة فى الأحوال والمشارب والطقوس ، بعيدة كلها عن روح الإسلام الحقيقى ، ولكنك تكتشف دياراً جديدة وغريبة فى الصحراء الجنوبية ... »(٣) .

المكان له حضوره الواضح والفعال باعتباره محققًا للحلم أو نافياً له ، ولذا فإن « قنديل » من خلال حديثه

---

(١) السابق ، ص ٩ .

(٢) السابق ، ص ١٩ .

(١) رحلة ابن فطومة ، ص ٨ ، ٩ .

مع معلمه الشيخ « مغاغة الجبيلى » يطرح قضية دار الإسلام وما أصابها وكيف يعالجها ، أو كيف يأتى لها « بالدواء الشافى » .. « منذ حداثتى وأنا أتلقى أجمل الكلمات رغم ارتطامى بأقبح الفعال »(١) .. هذا التناقض يطرحه « قنديل » على معلمه من خلال دار الإسلام حيث المفارقة بين طبيعة الإسلام وواقع المسلمين :

.. سألته :

ــ إذا كان الإسلام كما تقول . فلماذا تزدحم الطرقات بالفقراء والجهلاء ؟!

فأجابنى بأسى :

ــ الإسلام اليوم قابع فى الجوامع لا يتعداها إلى الخارج !

ويفيض فى الحديث فيلهب الأوضاع بنيرانه .. حتى الوالى لا يسلم من شرره . وقلت له :

ــ إذن إبليس هو الذى يهيمن علينا لا الوحى .

فقال برضا :

ــ أهنئك على قولك ، إنه أكبر من سنك ..

ــ والعمل يا سيدنا الشيخ ؟

فقال بهدوء :

ــ أنت ذكى ، وكل آت قريب .. »(٢) .

المكان يلحّ فى هذا الحوار (الطرقات المزدحمة بالفقراء والجهلاء ــ الإسلام داخل الجوامع وليس خارجها ــ إبليس يهيمن على المكان والناس لا الوحى) .. وهذا الإلحاح يبرز دور المكان كعنصر أساس فى بناء الرواية

---

(٢) السابق ، ص ٧ .

(١) السابق ، ص ٨ .

باعتباره المريض الذى يحتاج إلى « الدواء الشافى » [دار الإسلام ودور أخرى] ، أو السّليم الذى تتمثل فيه علائم الفتوة والقوة والرخاء والأمن [دار الغرب ودار الجبل] .

(٤)

تتكون رحلة ابن فطومة من ستة فصول تمثل معالم المكان الإنسانى الذى يدور فيه الحلم للحصول على الدواء الشافى ، ثم فصل قصير سابع يربط النهاية بالبداية . والفصول الستة تحمل أسماء أمكنة تبدأ منها وتدور فيها رحلة ابن فطومة .. الفصل الأول عن الوطن ، والثانى دار المشرق ، والثالث دار الحيرة ، والرابع دار الحلبة ، والخامس دار الأمان ، والسادس دار الغروب .. وتكاد مساحة الفصول الخمسة الأولى تتساوى ، أما الفصل السادس وفصل النهاية فهما أقل الفصول فى الرواية مساحة .

والكاتب فى صياغته للرواية يعتمد على التركيز والتكثيف الأسلوبى بصورة تشبه ما فعله فى روايته « أمام العرش » مع الفارق أنه هنا يصنع شخصيّة تنمو وتتحوّل وتواجه الكثير من الأحداث ، ولكنه — من خلال ضمير المتكلم — يجنح إلى الصياغة الشاعرية المستندة إلى حوار بارع ، قصير الجملة غالباً يختزل فيه أحداثاً وأخباراً وأشخاصاً . مضيفاً بذلك جديداً إلى الحرفة والمضمون معاً ، كما سنرى فى الاقتباسات التى ترد فى السياق .

فى الفصل الأول — الوطن — تبدأ إرهاصات الرحلة ودوافعها .. قنديل محمد العنابى الشهير بابن فطومة . الابن الثامن لتاجر غلال مترع الثراء .. أنجب سبعة تجار مرموقين ، وحين تجاوز الثمانين — متمتعاً بالصحة والعافية — تزوج فطومة الأزهرى — بنت السابعة عشر ، محدثاً فى أسرته غضباً وشغباً ، وجاء « قنديل » ليؤكد الهزيمة ويجدد الغضب . وتعهده الشيخ « مغاغة الجبيلى » فلقّنه العلم : قرآناً وحديثاً ولغة وحسابا وأدبا وفقها وتصوفا ورحلات .. » وكأىّ سرّ مغلق شدّنى إلى حافته ، وغاص بى فى ظلماته ، وضرّم النار فى خيالى ، وكلما ساءنى قول أو فعل رفّت روحى حول دار الجبل . وراح الشيخ مغاغة الجبيلى ينوّر عقلى وروحى ويبدد الظلام من حولى ، ويوجه أشواقى إلى أنبل ما فى الحياة «[1] . وأراد « قنديل » أن يتزوج « حليمة عدلى الطنطاوى » ولكن الحاجب الثالث يطلبها لتكون زوجته الرابعة ، فيتزوجها لأنه لا قبل لأبيها بالرفض ، فينكسر قلب « قنديل » ويزداد تحطماً بعد أن تزوجت أمه « فطومة » من الشيخ « مغاغة الجبيلى » « بدأ كل شيء كالحاً ، بدءاً من أبسط الأفراد مثل الشيخ عدلى الطنطاوى حتى الوالى نفسه ، مروراً بأناس ومعاملات تستحق الطوفان ليحلّ محلّها عالم جديد نظيف .. لم أتأثر بعطف أمى وحزنها ، ولا حِكَم الشيخ مغاغة التى ذرها على . بدت لى الدنيا صفراء كريهة لا تحتمل ولا تعاشر .. «[2] .

(١) رحلة ابن فطومة ، ص ١١ .

(٢) السابق ، ص ١٨ .

يبدأ تفكير قنديل فى الرحلة هرباً من الواقع الردىء : « .. أريد أن أعرف ، وأن أرجع إلى وطنى المريض بالدواء الشافى .. واستحوذ علىّ الحلم ، وتلاشى الواقع . وتراءت دار الجبل لعين خيالى كنجم معشوق يعتلى عرشه وراء النجوم ، فنضجت الرغبة الأبدية فى الرحلة على لهيب الألم الدائم »[1] .

الواقع يدفع إلى الرحلة ، والشيخ مغاغة يحرّض عليها ، وأشواق الكشف والبحث والحلم تحث على التصميم والاستمرار للحصول على الدواء الشافى ..

واقع الإسلام مملوء بالفقر والجهل والقهر ، والإسلام مستكين داخل جدران الجوامع ، وإبليس يهيمن على المسلمين لا الوحى .. وقد ذاق « قنديل » لسعة القهر حين حُرم من خطيبته التى صارت زوجاً رابعة للحاجب الثالث للوالى ولم يستطع أبوها أن يرفض ، وذهبت هى إلى لألاء الملك ، ولعله أسكرها وبهر عينيها ..

تركته أمه وحرمته العطف والحنان وتزوجت ..

والشيخ مغاغة يمثّل بالنسبة له النور الذى يكشف الواقع ويوضح مفاسده ، ويبشر بالحلم ويرشد إلى طريق تحقيقه .. إنه أول من حدّثه عن رحلة لم تكتمل إلى آفاق جديدة فأثار أشواق لدرجة الاشتعال ، ثم قال :

ـــ قمت بتلك الرحلة وحدى عقب وفاة أبى ، فزرت ديار المشرق والحيرة والحلبة ، ولولا الظروف المعاندة لزرت الأمان والعزوب والجبل ، ولكن القافلة وقفت عند الحلبة بسبب قيام حرب أهلية فى دار الأمان ...

ويحدجنى بنظرة غريبة ثم يقول :

ـــ وهى ديار وثنية !

فهتفت :

ـــ أعوذ بالله !

ـــ ولكن الغريب لا يلقى فيها أو فى الطريق إليها إلا الأمن لحاجتها الملحّة إلى التجارة والسياحة ..

(١) السابق ، ١٩ ــ ٢٠ .

فهتفت مرة أخرى :

ـــ ولكنها ملعونة ..

فقال بهدوء :

ـــ لا حرج على المشاهد .

ولِمَ لمْ تعاود الكرّة ؟

ـــ ظروف الحياة والأسرة أنستنى أهم هدف من الرحلة وهو زيارة دار الجبل .

فسألته بشغف :

ـــ وما خطورة دار الجبل ؟

فقال متنهداً :

ـــ تسمع عنها الكثير ، كأنها معجزة البلاد ، كأنها الكمال الذى ليس بعده كمال ... »[1] .

إن الشيخ « مغاغة الجبيلى » يظل رمزاً للعلم والمعرفة واستكناه المستقبل بالرغم من زواجه بأمه : « وأخذت فى الاستعداد للرحلة مسترشداً بأستاذى الشيخ مغاغة فملأت حقيبة بالدنانير وثانية بالملابس وثالثة باللوازم ومنها الدفاتر والكتب .. »[2] .

إن الوطن يمثل الجزء الواقعى من رحلة ابن فطومة ، وهو التعبير فى الوقت ذاته عن دار الإسلام وما أصابها من بؤس وهوان وقهر ومظالم .. وبمجرد أن تبدأ الرحلة ، وينتقل ابن فطومة من دار الإسلام إلى الديار الأخرى يبدأ الجزء الخيالى أو الحلم الذى يعيشه « قنديل » إلى أن ينتهى المخطوط .

(١) رحلة ابن فطومة ، ص ٩ ، ١٠ .

(٢) السابق ، ص ٢٠ .

(٥)

دار المشرق ..

بداية الرحلة ، الحلم ، حيث يصمم « قنديل » على خوض التجربة فيذهله ما يرى فى دار المشرق وبقية الديار .. إن الوطن صورة ، وبقية الديار صورة أخرى مقابلة للوطن .. فى بعضها عيوبه وإن كانت هناك ميزات لا تتوافر فيه ، وعن طريق المفارقة نعيش حالة من النقد المرير للوطن وما يجرى من مظالم ومآس .. فقنديل يحمل الوطن معه أنّ سار وأنّى ارتحل ، والمقارنة لا تتوقف ولا تنتهى ..

فى دار المشرق استغرب قنديل لأمرين : العرى والفراغ « الناس ، النساء منهم والرجال على السواء ، عرايا تماماً كما ولدتهم أمهاتهم ، والعرى عادة مألوفة لا تلفت نظراً ، ولا تثير اهتماماً ، كلٌّ ذاهب لوجهته .. ولا يثير الغرابة إلا الغرباء أمثالى لما يرتدون من ملابس .. »[1] ، ويتمثل الفراغ فى هذا الامتداد الهائل للصحراء ، لا قصور ولا بيوت ولا شوارع ولا حوار .. مجرد تجمعات من خيام تقوم على غير نظام يتجمع أمامها نساء وفتيات يغزلن أو يحلبن البقر .. « الحق أنى لم أتماد فى نقد مظاهر البؤس فى هذا البلد الوثنى الذى قد يكون له من وثنيته عذر ، ولكن أى عذر أعتذر به عن أمثال هذه المظاهر فى بلدى الإسلامى ؟ وقلت لنفسى .

ــ أنظر وسجل واعترف بالحقيقة المرّة .. »[2] .

ودار المشرق عبارة عن عاصمة وأربع مدن ، لكل مدينة « سيّد » هو مالكها يملك المراعى والماشية والرعاة ، الناس عبيده يخضعون لمشيئته نظير الكفاف من الرزق والأمن « يا له من نظام غريب ! إنه يذكرنى بالقبائل الجاهلية . ولكنه مختلف ــ كما يذكرنى بملاك الأرض فى وطنى ولكنه مختلف أيضاً جميعها تمثل درجات متفاوتة من الظلم ، وعلى أى (حال) فإننا ــ نحن دار الوحى ــ أفظع من سائر الخلق .. »[3] .

ويصف ابن فطومة قصر « سيد العاصمة » . وكيف جلب له المهندسين والعمال من دار الحيرة وزوّده بأجمل الأثاث والتحف التى تفخر بصنعها دار الحلبة . ويتكلم عن عبادة أهل المشرق الوثنيين للقمر ، وطقوس

---

(١) السابق ، ص ٢٨ .

(٢) السابق ، ص ٢٩ .

(٣) السابق ، ص ٣٣ ، ويلاحظ أن وصف الديار على لسان ابن فطومة تصحبه دائماً عملية النقد والمقارنة بين ما يرى وبين ما هو كائن فى الوطن ، وإن كان أحياناً يضطر إلى الحذر والصمت : « وأعدلت حذرى فاكتفيت بالإصغاء حابساً ملاحظاتى النقدية كما يجدر بالغريب » (الصفحة نفسها) .

عبارتهم التى تقوم على الرقص والغناء والسكر والغرام ، ويعلق على رضا أهل المشرق بحياتهم الوثنية التعسة واعتبار أنفسهم « أسعد الشعوب » [قلت لنفسى ، إنه فقدان الوعى بلا زيادة ولا نقصان ..][1] .

ويسجل ابن فطومة صراعه الداخلى مع ما يراه من انحلال وعربدة وبين إيمانه وتقواه بعد أن أذهلته حفلات الشارقة وطقوسهم « ورجعت وأنا أترنح من شدة الانفعال ، وقبضة الشهرة تشدّ بعنف على أعصابى الملتهبة ، ولبثت فى غرفتى بالفندق ساهراً على ضوء شمعة ، أدوّن كلمات فى دفترى ، وأفكر فى المحن التى تتربص بإيمانى وتقواى ، وأتذكر عهد تربيتى الدينيّة والعقلية على يد الشيخ مغاغة الجبيلى .. »[2] .

ويتعرض ابن فطومة لتجربتين مهمتين فى دار المشرق أولاهما لقاؤه مع كاهن القمر أو حكيم دار المشرق ، وثانيتهما زواجه من فتاة مشرقية . فى لقائه مع الكاهن يعرض كل منهما ما يؤمن به ونظام داره ، ويقوم على المقارنة والحجة ، وأبرز ما فيه وتساق الفكر الفكر مع السلوك عند المشارقة بالرغم من وثنيّتهم وبؤسهم ، والانفصام بين العقيدة والتطبيق عند المسلمين .. يتحدث قنديل عن الأخوة الإسلامية فيقول :

« .. الناس عندنا أخوة من أب واحد وأم واحدة لا فرق فى ذلك بين الحاكم وأقل الخلق شأناً .. » ولكن الكاهن يلوح بيده استهانة ويرد عليه :

« .. لست أول مسلم أحادثه ، إنى أعرف عنكم أشياء وأشياء ، ما قلت هو حقاً شعاركم ولكن هل يوجد لتلك الأخوة المزعومة أثر فى المعاملة بين الناس ؟ »[3] .

وينتهى « قنديل » من المناقشة مع الكاهن إلى نتيجة تثير حسرته :

ــــ « ديننا عظيم وحياتنا وثنية ! »[4] .

أما تجربة زواج قنديل من « عروسه » فتكشف من استعباد الحاكم للناس فى دار المشرق ، وخضوع البشر هناك لمبدأ « المنفعة » وحياة « اللذة » . وتفاصيل الزواج تكشف عن الصراع بين منهج الإسلام ومنهج الوثنية .. وعندما ينشّىء أولاده على الإسلام ، فإن السلطة فى دار المشرق تتخذ موقفاً حازماً وحاسماً ، حيث ترى فى ذلك « كفراً ! » وتحرم « قنديل » من المرأة والأولاد ، ويضطر للرحيل إلى دار الحيرة !

---

(١) الرواية ، ٣٤ .

(٢) الرواية ، ٣٨ .

(٣) الرواية ، ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) الرواية ، ص ٤٨ .

وتبدو دار المشرق فى تصوير نجيب محفوظ أقرب إلى جوّ « ألف ليلة وليلة » ، إنها خيال يحكمه الفكر الباحث عن الحقيقة من خلال هذا العالم الساحر ، الذى يقارن به ما يجرى فيه ، ولكنه خيال يصيب رحّالتنا ابن فطومة أو « قنديل » بالإحباط والخيبة ، بعد أن فقد زوجه « عروسه » وأبناءه « رام ، وعام ، ولام » — تأمل دلالة الأسماء وعلاقتها بجو ألف ليلة وليلة — ثم تدفعه محاولة التعبير عن « هويته » وممارسة عقيدته إلى الرحيل قهراً « عنوة » .

لقد صارت « دار المشرق » — بالرغم من كل شىء — مثالاً للاتساق بين الفكر والسلوك ، ثم الصدق مع النفس ، وإن كانت فى الوقت ذاته صورة مخزية للاستبداد والتخلف !

(٦)

دار الحيرة ، مرحلة جديدة فى رحلة ابن فطومة إلى « دار الجبل » — الحلم الجميل والحصول على الدواء الشافى لجراح الوطن — وإن كانت جزءاً من منظومة الديار التى تشكل الصورة المقابلة للوطن .. ويواجه ابن فطومة فى دار الحيرة عالماً آخر جديداً مليئاً « بالدماء والرغاريد ! » تحكمه الشرطة بقبضة من حديد ، وتحركه سطوة القوة والغزو .. دين الحيرة عبادة الملك ، فالملك هو الإله ، وتستبد المقارنة بابن فطومة : « ألا يتصرف الوالى فى وطنك كأنه إله ؟ »[1] ، والمعارضة غير مسموح بها فى الحيرة ، « وشد بصرى حقل من الأعمدة مسوّر بسياج من حديد فاقتربت منه حتى رأيت أن رءوساً آدمية منفصلة عن أجسادها تتدلى من هامات الأعمدة . ارتعدت لهول المنظر ، ولا أنكر أننى رأيت صورة مصغرة منه فى صباى فى وطنى » إنهم يعرضون الرءوس للزجر والتأديب والعظة . واقتربت من حارس وسألته :

— هل يستطيع غريب أن يعرف جريمة هؤلاء القتلى ؟

فأجابنى بجفاء :

— التمرّد على الملك الإله !

فذهبت مسدياً إليه شكرى ، وأنا على يقين من أنهم شهداء للعدل والحرية قياساً على ما يقع عادة فى بلاد الوحى . إنه عالم غريب حافل بالجنون ، وستكون معجزة حقاً إذا وجدت الدواء الشافى فى دار الجبل . وسألت هام صاحب الفندق مساء :

(١) رحلة ابن فطومة ، ص ٦١ .

ـــ ماذا فى دار الحيرة من مواقع تستحق المشاهدة خارج العاصمة ؟

فقال الرجل بثقة :

ـــ عدا العاصمة لا يوجد إلا الريف وليس به ما يسرّ الرحالة ..

وعكفت على تدوين المشاهد فأراحنى ذلك من التفكير فى عروسه وأبنائها [أسرته التى فقدها فى دار المشرق] . وسهرت ليلة فى ملهى فهالتنى عربدة السكارى وفسق الفاسقين مما يعفّ قلمى عن الخوض فيه .. »(1) .

تتعقد أحداث الرواية / الرحلة . يريد ابن فطومة أن يبقى على أمل أن تنتصر الحيرة على المشرق فيسترد أسرته الضائعة ، ويدعوه نداء إلى مواصلة الرحلة مع القافلة ليصل إلى دار الجبل .. ولكنه يبقى ويلتقى بالحكيم « ديزنج » . ويحدث له حادث خطير يشكل منعطفاً رئيسياً فى حياته . ويجرى بين قنديل وديزنج حوار مقارن عن دار الإسلام ودار الحيرة ، مثلما جرى مع كاهن القمر فى دار المشرق ينتصر فيه ديزنج لاستبداد الملك الإله وحكمه المنحرف ، ويخاطب قنديل على البعد شيخه مغاغة الجبيلى :

ـــ أيهما أسوأ يا مولاى ، من يدّعى الألوهية عن جهل أم من يطوع القرآن لخدمة أغراضه الشخصيّة ؟ »(2) .

وعندما تأتى الأنباء بانتصار جيش الحيرة على دار المشرق ، ويوشك حلمه باستعادة أسرته المفقودة ، يتدخل الحكيم « ديزنج » لانتزاع « عروسه » ـــ زوج قنديل ـــ عنوة وبقوة النفوذ ، فيتذكر الحاجب الثالث للوالى الذى سرق منه « حليمة » فى الوطن ! والمفاجأة بعدئذ أن يؤخذ قنديل بعد القبض عليه ليحاكم أمام محكمة تشبه محاكم الثورة : صاحب الإتهام هو القاضى هو صاحب النفوذ على شهود الزور ! وتحكم المحكمة بسجنه مدى الحياة ! وضاعت عروسه والأولاد وحلم الرحلة ، والعمر الجميل ، ويذوق قنديل طعم اليأس المرير ويعرف أنه حقيقة تقع لا حكاية تروى .. وفى السجن يلتقى بالسجناء وكلهم من ذوى جرائم العقائد والسياسة ، كلهم من الأحرار الذى تضيق بهم الأجواء الفاسدة .. كلهم يشكو ، وكلهم حائر بين الواقع القبيح والحلم الذى لا يتحقق ! ودار الجبل وطن الكمال البعيد الذى لم يصل إليه أحد بعد .

تتغير الأحوال ، وينقلب قائد الجيش على الملك الإله ويحل محله ويصدر عفو عام عن السجناء السياسيّين

(1) السابق ، ص ٦٤ ـــ ٦٥ .

(2) رحلة ابن فطومة ، ص ٧٠ .

ما عدا « ديزنج » الذى دخل السجن عقب الانقلاب .. عشرون عاماً مضت على قنديل بين الأسوار والغرف المظلمة .. ويخرج مع اعتذار من مدير السجن :

ـــ نحن آسفون لما حل بك من ظلم يتنافى مع مبادىء وقوانين الحيرة ، وقد تقرر أن يردّ إليك مالك ومتاعك عدا الجارية التى غادرت البلاد »[1] .

ويقع قنديل فى حيرة : هل يرجع إلى وطنه وهو معدود من الأموات على هذه الحالة من الجدب والخيبة . أم يواصل الرحلة ولا يلتفت إلى الوراء ؟ وينتصر الحلم باستمرار الرحلة .. والسعى من أجل « الدواء الشافى » .. لقد كان الإحباط هو حصاد الرحلة حتى الآن : دار المشرق يحكمها البؤس والوثنية والقهر ، ودار الحيرة تحكمها القوة والاستبداد وتأليه الملك ، مع الفارق أن دار الحيرة فيها من يعارض ، وتعلق رأسه على أسوار العاصمة أو يرزح فى سجونها طويلاً حتى ينقلب نظام الحكم !

(٧)

دار الحلبة هى المحط التالى فى رحلة ابن فطومة ، وهى مدينة الحرية ! « دهشت لسماع الكلمة الملعونة فى كل مكان .. »[2] كلمة الحرية ملعونة ، لم يسمع بها فى دار المشرق ولا دار الحيرة ، ولكنه سمع بها فى دار الحلبة .. وتأمل دلالة « الحلبة » وما فيها من صراع أو تنافس يدور فى إطار الحرية ! إنها مدينة مبهرة ، شبكة من الشوارع لا تعرف لها أولاً من آخر ، صفوف من العمائر والبيوت والقصور حوانيت بعدد رمل الصحراء تعرض من ألوان السلع ما لا يحيط به حصر ، مصانع ومتاجر ودور لهو ، حدائق كثيرة متعددة الأشكال والألوان ، تيارات لا تنقطع من النساء والرجال والهوارج ، أغنياء وكبراء وفقراء أيضاً وإن كانوا أحسن درجات من فقراء الحيرة والمشرق ، ولا يخلو طريق من فارس من فرسان الشرطة . ملابس الرجال والنساء متنوعة ، وللجمال حظ موفور وكذلك الأناقة ، ويصادفك الاحتشام كما يصادفك التحرّر القريب من العرى ، والجد والرزانة يؤاخيان المرح والبساطة .. لأول مرة يوجد بشر لهم وجودهم ووزنهم وإدلالهم بأنفسهم .. فى دار الحلبة أدهشت « قنديل » أشياء كثيرة ، ومما أدهشه وجود جثة امرأة قتيلة فى إحدى الحدائق والشرطة تستجوب بعض الأفراد بشأنها ، ومرور مظاهرة من الرجال والنساء يهتفون بمطالبهم الغريبة والشاذة والشرطة تتبعهم دون أن تتعرض لهم بخير أو شر .. ثم كانت المفاجأة العظمى عند الظهيرة حيث سمع أذان الظهر : الله أكبر ..

وثب قلبى فى صدرى وثبة عنيفة أشعلت النار فى حواسى . ربّاه إنه أذان . هذا مؤذّن يدعو إلى الصلاة فهل الحلبة دار إسلامية ؟! . واندفعت على هدى الصوت حتى وجدتُ جامعاً عند مدخل شارع . لم أسمع هذا

---

(١) السابق ، ص ٨٥ .

(٢) رحلة ابن فطومة ، ص ٨٨ .

الصوت ولا رأيت هذا المنظر منذ ربع قرن . إنى أولد من جديد وكأنما اكتشف الله لأول مرة . ودخلتُ المسجد ، توضأتُ ، وقفتُ فى صفّ ورحتُ أصلى الظهر فى فرحةٍ متوهجة ، بعيْنٍ دامعةٍ ، وصدرٍ منشرح . وتمت الصلاة ومضى الناس ينصرفون ولكنى تسمّرتُ فى مكانى حتى لم يبق فى الجامع إلا الإمام وأنا . هرولت نحوه ، حويته بين ذراعىّ ، وانهلت عليه تقبيلا . استسلم لانفعالى هادئاً مدركاً باسماً ، ثم تمتم :

ـــ أهلاً بالغريب ..

وجلسنا غير بعيد من المحراب . قدمت له نفسى فقدم لى نفسه ، الشيخ حمادة السبكى ، من أهل الحلبة الصميمين . قلت بأنفاس مضطرِبة وصوت متهدج :

ـــ ما تصوّرتُ أن الحلبة دار إسلاميّة ..

فقال بهدوء :

ـــ الحلبة ليست من ديار الإسلام ..

ولما قرأ دهشتى قال :

ـــ الحلبة دار الحرية ، تمثّل فيها جميع الديانات ، فيها مسلمون ويهود ومسيحيون وبوزيون ، بل فيها ملحدون ووثنيون ..

فازددت دهشة وسألته :

ـــ كيف تأتّى لها ذلك يا مولاى !

فقال ببساطة :

ـــ كانت فى الأصل وثنية وأتاحت حريتها الفرصة لكل من شاء أن يدعو إلى دينه ، وتوزّعت الديانات أهلها فلم تبق اليوم إلاّ قلة من الوثنيّين فى بعض الواحات !

فسألت واهتمامى يتصاعد :

ـــ وبأى دينٍ تلتزم الدولة ؟

ـــ الدولة لا شأن لها بالأديان ..

ـــ وكيف توفّق بين أهل الملل والنحل ؟

فقال بوضوح :

ـــ تعامل الجميع على قدم المساواة الكاملة .. »[1] .

دار « مذهلة » ومزلزلة « للدفاع .. الحرية التى يراها « قنديل » فى دار الحلبة لم يسمع عنها من قبل .. حرية « جاوزت الحدود .. لكنها مقدّسة فى إسلام الحلبة :

ـــ لو بعث نبيّنا اليوم لأنكر هذا الجانب فى إسلامكم ..

فتساءل بدوره :

ـــ ولو بعث عليه الصلاة والسلام أما كان ينكر إسلامكم كله ؟!

آه .. صدق الرجل وأذلّنى بتساؤله .. »[2] .

فى دار الحلبة تبدأ ملامح الحلم تتشكّل فى وجدان « قنديل » ، والحرّية هى الشىء المذهل والمزلزل للدماغ ، وما يراه فى دار الحلبة يستحوذُ على كثير من خياله تجاه دار الجبل التى يحلم بها .. هنا فى دار الحلبة رئيس الدولة « بالانتخاب تبعاً لمقاييس علمية وأخلاقية وسياسية ، ويحكم لمدة محددة ثم يعتزل ، وتجرى انتخابات جديدة . وللرئيس مجلس « من أهل الخبرة فى جميع الأنشطة يعاونه بالرأى ، وعند الاختلاف يعتزلون ويجرى الانتخاب من جديد .. إنه نظام حسن .. كان الأجدر بالمسلمين أن يبشروا به قبل غيرهم »[3] .

الدولة فى دار الحلبة تتولّى الأمن والدفاع والمشروعات العامة التى يعجز عنها الأفراد كالحدائق والجسور والمتاحف والمدارس المجانية للنابغين من الفقراء والمستشفيات المجانية كذلك ، ولكن جلّ الأنشطة فردية .. ولا يمكن اعتبار الناس فى دار الحلبة أسعد البشر ما دام هناك أغنياء وفقراء ومجرمون ، فضلاً عن القلق الذى تسبّبه الأطماع المتبادلة بين الحلبة والحيرة فى الجنوب ، وبين الحلبة والأمان فى الشمال ، كذلك فإن الخسائر إذا اجتاحت الحلبة فإنها تهدّد حضارتها الفريدة بالاندثار ، أما الاختلافات الدينية فإنها لا تمرّ دائماً بسلام .. ولكن فيض الحرية هو الشىء المذهل والمزلزل للدماغ ، لم يره قنديل فى وطنه ولا فى دار المشرق أو دار الحيرة على السواء .. ثم إنه يُفاجأ هنا بالإسلام .. إنه عالم جديد ، وإسلام جديد !

صادفتنى تقاليد غريبة تعتبر فى وطنى بعيدة عن الإسلام ، فقد رحّبت بى زوجة الإمام وكريمتها بالإضافة إلى ابنيه . وتناولنا الغداء على مائدة واحدة . بل قدمت إلينا أقداح نبيذ .. إنه عالم جديد وإسلام جديد . وارتبكتُ

(1) رحلة بن فطومة ، ص ٩٢ ـــ ٩٤ ، وقد آثرت الإطالة فى هذا الاقتباس للكشف عن ملامح دار الحلبة .

(2) السابق ، ص ٩٥ .

(3) رحلة بن فطومة ، ص ٩٦ .

لوجودِ المرأة وكريمتها ، فمنذ بلغتُ مشارف الشباب لم تجمعنى مائدة طعام مع امرأةٍ لا أستثنى من ذلك أمّى نفسها . ارتبكتُ وغلبنى الحيارُ و لم أمسّ قدح النبيذ . قال الإمام باسماً :

ـــ دعوه لما يريحه ..

فقلت :

ـــ أراك تأخذُ برأى أبى حنيفة ؟

فقال :

ـــ لا حاجة بنا إلى ذلك فالاجتهاد عندنا لم يتوقف ، ونحن نشرب مجاراة للجو والتقاليد ولكننا لا نسكر .. »[1] .

إن إسلام الحلبة كان تجربة جديدة بالنسبة لابن فطومة ، فهو مزيج من الإسلام الحقيقى مع تقاليد غربية : اجتهادٌ غير واضح الأسس ، ونبيذ واختلاط وامرأة تعمل مثل الرجال تماماً . وتمثيل للسيرة النبوية فى باحة الجامع من خلال جرأة تُظهرُ النبىّ والصحابة والكفار معاً ، ولكن ابن فطومه يخرج من التجربة بأن إيمان هؤلاء الناس مع وجود تلك الشوائب صادق وأمين .. الصدق والأمانة من سمات دار المشرق المتخلّفة ودار الحيرة المستبدة ودار الحلبة الليبرالية .. أما الوطن ففيه انفصام وانشطار وانفصال ، بين العقيدة والسلوك والفكر والتطبيق ، إن إسلام الوطن يذبل .. « الإسلام يذوى على أيديكم وأنتم تنظرون .. »[2] هكذا قالت سامية ابنة الإمام لقنديل وهى تقارن بين حال المرأة فى صدر الإسلام وبين واقعها الراهن .

ويتعرض ابن فطومة لتجربةٍ مماثلةٍ لما مرّ به فى دار المشرق ودار الحيرة حيث يلتقى بحكيم الحلبة « مرهم الحلبى » ـــ وتأمل معنى أو دلالة « مرهم » ـــ ليخوض معه فى حوارٍ مماثل حول دار الإسلام ودار الحلبة ، وينتصر حكيم الحلبة لأفكاره العقلانية ، التى لا تؤمن بالغيب ، ولا تعترف إلاّ بالعقل حَكَماً وإلّها ! والعقل هو صاحب الفضل فى صناعة التجربة المتقدمة فى دار الحلبة .. والعقل هو الذى اختار الحرية منهجاً لدار الحلبة .. كل تحرّرٍ خير ، وكل قيدٍ شرّ ، وبالعقل أنشأت الحلبة نظاماً للحكم حرّرها من الاستبداد ، وقدّست العمل ليحررّها من الفقر ، وأبدعت العلم ليحرّرها من الجهل .. إنه طريق طويل بلا نهاية دفع أهل الحلبة ثمنه عرقاً ودماً ليتحرروا من الخرافة والاستبداد . ومع انتقاد « مرهم » لدار الإسلام فإنه يقررّ إيمانه بمبدأ الجهاد فى الإسلام وإن كان يفسّره تفسيراً عدوانياً ، ويعتبره مبدأ عظيماً لا يملك المسلمون الشجاعة الكافية للاعتراف به ..

---

(١) السابق ، ص ٩٩ ، ولا أدرى ما رأى أبى حنيفة الذى يقصده فى هذا الصدد !

(٢) السابق ، ص ١٠٠ .

كان طبيعياً أن يكون الهمّ الفكرى — إن صحّ التعبير — أكثر إلحاحاً على ذهن « قنديل » ووجدانه فى دار الحلبة ، وأن يكون التأمّل والتحاور والمقارنة عصب وجوده فيها ، وإن لم يمنعه ذلك من الاستمتاع بحياة الحرية فى الحلبة ، وأن يجد عملاً يتكسب منه ، وأن يتزوج من « سامية » إبنة إمام الجامع « حمادة السبكى » وفقاً لنظام الحلبة ، وأن يصبح أباً لمصطفى وحامد وهشام .. وتبدو عملية الزواج ارتباطاً بجانبٍ ما فى الدار التى يحلّ بها « قنديل » .. فزواجه من « عروسه » فى دار المشرق كان يمثّل ارتباطه بالجانب الفطرى فى جمال وعفويته وتلقائيته ، وزواجه بسامية فى دار الحلبة كان حنيناً إلى وطنه وانجذاباً إلى عقيدته المفقودة طوال سنوات عديدة منذ خروجه من الوطن .

يعيش « ابن فطومة » حرباً بين الحلبة والحيرة . وتنتصر الحلبة ، وتسيطر على الحيرة والمشرق جميعاً ، وفى غمرة الفرح بعودة الجيش الظافر تظهر منشوراتٌ تهاجم الدولة وتتهمها بأنها ضحّت بأبناء الشعب لا لتحرير المشرق والحيرة ولكن من أجل مصالح ملاّك الأراضى والمصانع والمتاجر ، وأنّها كانت حرب « قوافل » لا مبادىء .. وتظهر فى المقابل نشرة تتهم أصحاب هذه المنشورات السابقة بأنهم أعداء الحرية وعملاء دار الأمان . ونتيجة لذلك تقدم مظاهراتٌ صاخبة تهاجم دار الأمان وتطعن فى اتفاقيّة التنازل لها عن عيون المياه .. ويجتمع الحاكم بمجلس أهل الخبرة ويَصْدُرُ قرارٌ بالإجماع بإلغاء اتفاقية عيون المياه واعتبار العيون ملكيّة مشتركة بين الحلبة والأمان كما كان الحال قديماً ، ويتحدثُ الناس عن حربٍ جديدة محتملة بين الحلبة والأمان !

ويتحاور « قنديل » مع الشيخ السّبكى حول الأحداث عن طبيعة الحرية والفوضى والأساس الأخلاق لإلغاء اتفاقية المياه :

« .. كنت أمس فى زيارة للحكيم « مرهم » الحلبى فقال لى إن تحرير البشر أهم من هذه القشور .. فهتفت :

— القشور ! .. لا بد من أن الاعتراف أساس أخلاق .. وإلا انقلب العالم إلى غابة !

فقالت سامية ضاحكة :

— لكنه كان ومازال غابة !

وقال الإمام :

— انظر يا قنديل إلى وطنك دار الإسلام فماذا تجد به ؟ .. حاكم مستبد يحكم بهواه فأين الأساس الأخلاق ؟ ورجال دين يطوّعون الدين لخدمته فأين الأساس الأخلاق ؟ وشعب لا يفكر إلا فى لقمته فأين الأساس الأخلاق ؟ !

اعترضت حلقى غُصّة فسكتّ .. »(١) .

وبالرغم من أن « قنديل » أحسّ بنشوة الحياة فى « دار الحلبة » حيث أصبح له بيت وأسرة وعمل ، وعاش حياة الحرية بلا قهر ولا عسف ولا محاذير ورأى الحرية وقد تجاوزت الحدود ، فإن حلمه بالوصول إلى دار الجبل — موطن الكمال — لم يتوقف .. ففى دار الحلبة افتقد الأساس الأخلاقى للحضارة ، ولم ترضه تماماً صورة الإسلام فيها .. وظل الحصول على « الدوار الشاف لوطنه » يغذّى حلمه بالرحيل أو الرحلة إلى دار الجبل .

(٨)

دار الأمان ، المحطّ التالى لدار الحلبة فى الطريق إلى دار الجبل .. ودار الأمان شتاؤها قاتل ، وخريفها قاس ، وربيعها لا يحتمل . وأفضل فصولها الصيف .. والحرية فى دار الأمان مفقودة ، على العكس تماماً من دار الحلبة ، الحرية مفقودة حتى فى دورة المياه ! والحرية الفردية عقوبتها الإعدام ، والعدل أساس النظام لا الحرية :

— أنظر إلى الطبيعة ، أساسها القانون والنظام لا الحرية !

— ولكن الإنسان من دون الكائنات يتطلّع دائماً إلى الحرية ..

— إنه صوت الشهوة والوهم ، لقد وجدنا أن الإنسان لا يطمئن قلبه إلاّ بالعدل ، فجعلنا من العدل أساس النظام ، ووضعنا الحرية تحت المراقبة ..

— أهذا ما يأمركم به دينكم ؟

— نحن نعبد الأرض باعتبارها خالق الإنسان ومدّخر احتياجاته .

— الأرض ؟

— وهى لم تقل لنا شيئاً ولكنها خلقت لنا العقل وفيه الغنى عن أى شىء وآخر . .

ثم واصل بكبرياء :

— دارنا هى الدار الوحيدة التى لن تصادفك فيها أوهام أو خرافات !

استغفرت الله فى سرّى طويلاً .. قد يجد الإنسان لوثنية دار المشرق عذرا ، ومثلها دار الحيرة ، ولكن دار الأمان بحضارتها الباهرة كيف تعبد الأرض ؟ وكيف تبوىء عرشها رجلاً منها فتنزله منزلة الملك الإله ؟ إنها دار عجيبة . أثارت إعجابى إلى أقصى حد ، كما أثارت اشمئزازي لأقصى حد . ولكن ساءنى أكثر ما آل إليه

---

(١) رحلة ابن فطومة ، ص ١١٧ — ١١٨ .

حال الإسلام فى بلادى . فالخليفة لا يقلّ استبداداً عن حاكم الأمان ، وهو يمارسُ انحرافاته علانيةً ، والدين نفسه تهرّأ بالخرفات والأباطيل ، أما الأمة فقد افترسها الجهل والفقر والمرض ، فسبحان الذى لا يحمد على مكروه سواه .. »(١) .

فى دار الأمان تقدّم مادى عظيم ، عمائر عظيمة متشابهة ، والشوارع خالية ، والحدائق واسعة ومتنوّعة ، وهناك رعاية اجتماعية للأطفال والمسنين ، وفى دار الأمان مصانع ومتاجر ومراكز للتعليم والطب لا تقلّ عن أمثالها فى الحلبة ، والجميع رجالاً ونساء يعملون ، ولكل طائفة زى بسيط ، ويتبعون نظاماً صارماً فى حياتهم ، ولكن وجوههم جادة ومرهقة وخطاهم مسرعة .. ورئيس الأمان تنتخبه الصفوة التى قامت بالثورة وقضت على مّلاك الأرض وأصحاب المصانع والمستبدّين ، «يتولى منصبه مدى الحياة ويعزلونه إذا انحرف .. ويهيمن على الجيش والأمن والزراعة والصناعة والعلم والفن ، لأن الدولة صاحبة كلّ شيء ، ويحظى الرئيس مع رجاله بنظام غذائى خاصّ يشذّ عما تخضع له جموع الشعب . وامتياز الطبقة العليا له أسبابه فى دار الأمان ، ولا يخرق نظام العدل السائد .. وخطر لى أن أرى الأمور بوضوح أكثر من ذى قبل . أجل إن لدار الحلبة هدفاً وقد حقّقته بدقة ، وإن كذلك لدار الأمان هدفاً وقد حققته بدقة ، أما دار الإسلام فهى تعلن هدفاً وتحقّق آخر باستهتار وبلا حياء وبلا محاسب ، فهل يوجد الكمال حقّا فى دار الجبل ؟»(٢) .

أصيب « قنديل » بالإحباط فى دار الأمان ، وبخاصة عندما شاهد رءوساً آدمية منفصلة عن أجسادها قد غُرستْ فى أسنّة الرماح ، ووصف أصحابها بالخيانة والتمرّد لأنهم تدخّلوا فيما لا يعنيهم .. ولكن همّ الوطن لا يزال يطارده :

ــــ أترى الحياة فى وطنك الأول أو وطنك الثانى خيراً من حياة الأمان ؟

فقلت بمرارة :

ــــ دع وطنى الأول فأهله خانوا دينهم .. »(٣) .

أصبح « قنديل » كهلاً ، لقد قضى عمراً طويلاً فى المشرق والحيرة والحلبة والأمان ولم يعثر على الدواء الشافى ، ولكن عزيمته مازالت صلبة ، ومازال مصرًا على الوصول إلى دار الجبل بالرغم من المعوّقات ، وقيام الحرب بين الحلبة والأمان !

---

(١) رحلة ابن فطومة ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

(٢) السابق ، ص ١٣٩ .

(٣) السابق ، ص ١٤١ .

(٩)

دار الغروب .. حلم غامض ، غير واضح .. ولكنها واحة للراحة النفسية والروحية .. وأشرقت الأرض بنور ربها فرأيت صحراء مترامية مستوية وجوًّا صيفيًّا حنوناً ، كما رأيت الغزلان تثب هنا وهناك حتى أطلقت عليها صحراء الغزلان . وامتد السفر شهراً فعانينا عناءً غير ذى عنف يبشر بالحسنى . وفى هزيع من الليل بشرنا صوت بأننا بلغنا حدود دار الغروب .. »[١] .

أهل دار الغروب ، لا يتكلمون ولا ينطقون ، خُيِّل إلى « قنديل » أنها غابة من الصم البكم العمى ، ولكن جمالها يكاد يجعلها « جنة بلا ناس » أو هى جنة الغائبين وخيراتها مبذولة بلا حساب .. وفى غابتها شيخ يقصده القاصدون ، ويذهب إليه « قنديل » .

ـــ ماذا تريد ؟

ـــ رحّالة يمضى من دارٍ إلى دار وراء المعرفة .

فأغمض عينيه دقيقة ثم فتحهما وقال :

ـــ غادرتَ دارك للمعرفة ، ولكنك حدْتَ عن الهدف مرّات ، وبددت وقتاً ثميناً فى الظلام ، وقلبك موزع بين امرأة خلفتها وراءك وامرأة تجد فى البحث عنها ؟ .. »[٢] .

ويستمر الحوار فى لغة صوفية وجوّ صوفى حول أهل الغروب وطبيعتهم وغايتهم . إنهم مهاجرون من شتى الأنحاء جاءوا إعراضاً عن الهواء الفاسد واستعداداً للرحلة إلى دار الجبل .. ويعلم « قنديل » أن نجاحه فى التدريب الرّوحى بدار الغروب سيؤهله لرحلة العمر ، ولكنه يُفاجأ بأن من يذهب إلى دار الجبل ، لن يعود منها ، وسوف ينسى بها الدنيا وما فيها :

ـــ لكن وطنى فى حاجة إلىّ ..

فسألنى متعجباً :

ـــ وكيف تركته ؟

ـــ قمت بالرحلة بأمل أن أرجع إليه بخبرة يكون فيها خلاصه .

---

(١) رحلة ابن فطومة ، ص ١٤٥ .

(٢) السابق ، ص ١٤٩ .

فقال الشيخ بامتعاض :

ـــ إنك من الهاربين ، تعلّلت بالرحلة فراراً من الواجب ، لم يهاجر أحد إلى هنا إلا بعد أن أدى واجبه ، ومنهم من خسر زهرة عمره فى السجن فى سبيل الجهاد لا بسبب امرأة ..

فهتفت جزعاً :

ـــ كنت فرداً حيال طغيان شامل ..

ـــ هذا عذر الخائر ! »[1] .

ويتحول قنديل إلى تلميذ مخلص للشيخ الذى يعلمه مع الآخرين كيفية التركيز والغوص فى الذات ، ويحدثهم عن دار الجبل بيقين :

ـــ هناك (دار الجبل) بالعقل والقوى الخفية يكتشفون الحقائق ويزرعون الأرض وينشئون المصانع ويحققون العدل والحرية والنقاء الشامل .

وأرجع إلى عزلتى وأنا أتخيل اليوم الذى أُسلِّطُ فيه قواى على كل معوجّ فى وطنى لأنشئه من جديد مقاماً صالحاً لقوم صالحين .. »[2] .

وتبدأ الرحلة الطويلة إلى دار الجبل .. بحثاً عن اليقين والدواء الشافى الذى حدثهم عنه الشيخ فى دار الغروب التى احتلها أهل الأمان لدواعى الحرب مع الحلبة !

(١٠)

يشير نجيب محفوظ فى ختام روايته إلى إصرار « قنديل » أو ابن فطومة على التأهب للرحلة بعزيمة لا تقهر ، ويقول بأنه لم يرد فى أى كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك .. هل واصل الرحلة أو هلك فى الطريق ؟ هل دخل دار الجبل وأى خط صادفه فيها ؟ وهل أقام بها لآخر عمره أو رجع إلى وطنه كما نوى ؟ وهل يعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة ؟

---

(١) رحلة ابن فطومة ، ص ١٥٢ .

(٢) السابق ، ص ١٥٥ .

عِلْمُ ذلك كلّه عند عالم الغيب والشهادة .

وواضحٌ أن رحلة ابن فطومة هذه لم تكن إلاّ رحلة هجاءٍ لواقع المسلمين وأحوالهم المعاصرة من خلال عباءة التاريخ المُتخيَّل ، فقد بدأ بتقديم صورة الوطن الذى جار على « قنديل » وحرمه من خطيبته « حليمة » وحرمه من تحقيق حلمه ، وأخذ منه أمّه رمز الحب والحنان والعطف .. فلم يبق أمامه إلا الرحيل فى ديار المشرق والحيرة والحلبة والأمان والغروب وكلها تعطى الصورة المقابلة للوطن بإيجابياتها وسلبياتها .. وإن كانت الإيجابيات غير موجودة فى الوطن ، فإن سلبيات الدّيار جميعها موجودة فى الوطن .

فى المشرق ، وثنية وتخلّف وقهر .. وفى الوطن مثلها .. وفى المشرق أيضاً صدق مع النفس ، ولكنه لا يوجد فى الوطن .

فى الحيرة ، الملك إله واستبداد وصلف .. وفى الوطن مثلها .. وفى الحيرة أيضاً .

فى الحلبة ، منطق الغابة وانحراف وفقر وميكافيللية وفى الوطن مثلها .. وفى الحلبة أيضاً حرية وإبداع وحضارة ، ولا يوجد فى الوطن مثلها .

فى الأمان ، استبداد وقهر وطبقة متميزة ، وفى الوطن مثلها .. وفى الأمان أيضاً عدل ومدنية ومساواة ، ولكنه لا يوجد فى الوطن مثلها ..

فى الغروب سلام وصفاء وجنة بلا ناس .. وفى الوطن لا يوجد سلام ولا صفاء ولا جنة ! فى الجبل الكمال ، وفى الوطن النقص ..

إن صورة الوطن كما صورها ابن فطومة فى رحلته المثيرة تبدو سلبية تماماً .. أما بقية الديار ففيها عناصر إيجابية متفاوتة إلى جانب السلبيات ، وإن كانت دار الحلبة تمثل الإيجابيات الأكثر ، وذلك إذا اعتبرنا « دار الغروب » .

مرحلة انتقال بين عالم البشر الناقص ودار الجبل التى تمثل الكمال فى أبهى صورة . ثمة مجال للمقارنة بين دلالات الأسماء فى عناوين الفصول .. فالوطن صار علامة على دار الإسلام فى صورتها العامة ووضعها الحضارى .. أما دار المشرق الوثنية المتخلّفة فلعلها ــ مع دار الحيرة ــ تضمّ العالم الأسيوى أو دوله المتخلفة بالأحرى (جنوب آسيا والصين) .. تبقى دار الحلبة رمزاً واضحاً للعالم الرأسمالى فى أمريكا الشمالية وأوربة باعتباره « ليبراليا » تتحقق فيه الكلمة الملعونة (الحرية) إلى حدّ الفوضى والتجاوز .. وكما سبقت الإشارة فإن لفظة « الحلبة » تعطى مدلول

الصراع والتنافس ، وكلاهما يحكم العالم الغربى فى ظلال الحرية . أما دار الأمان فتشير بكل ملامحها التى عرضت لها الرواية إلى النظام الشمولى أو الشيوعى الذى يحكم السوفيات وشرق أوربة (قبل الزلزال الفكرى والعقدى الذى طفت ملامحه فى أواخر عام ١٩٨٩) .. وهو نظام يرفع شعار العدل ، ولا يعترف بالحرية الفردية ..

وإذا اعتبرنا دار الغروب مرحلة انتقال بين الواقع الذى يحكم ديار العالم ، والحلم الذى تمثله دار الجبل ، فإن لفظة « الغروب » لها إيحاؤها الفنّى بانتهاء الرحلة ، فضلاً عن التلميح إلى عناصر « الدواء الشافى » الذى كان يحلم به « قنديل » لعلاج وطنه ، والذى يعتقد « شيخ » الغروب أنه موجود هناك فى دار الجبل :

ـــ هناك (دار الجبل) بالعقل والقوى الخفيّة يكتشفون الحقائق ويزرعون الأرض وينشئون المصانع ويحققّون العدل والحرية والنقاء الشامل »[١] .

يصير الجبل رمزاً للشموخ والرفعة والسمو ، والارتفاع بعيداً عن السلبيات والمآسى ، وتتحدد عناصر الدواء الشافى : العقل + الغيب + الزراعة + الصناعة + العدل + الحرية + النقاء .

ولو راجعنا المحاكمات التى جرت فى رواية « أمام العرش » ، لوجدنا هذه العناصر تشكّل بطريقة ما عناصر الحكم على الشخصية التاريخيّة التى تقف أمام المحكمة ، وتدفع بها إلى الخلود أو الجحيم أو مقام التافهين ، ثم إن نجيب محفوظ ذات يوم عبّر عن هذه الفكرة [الدواء الشافى] بصورة أخرى فى روايته « قلب الليل » ، حين تصوّر نظاماً للوطن ينهض به من كبوته يقوم على « روحانية » الإسلام ،.والعدالة الاجتماعية فى الاشتراكية ، والليبرالية الفكرّية فى الرأسمالية[٢] .معتقداً أن هذا النظام الانتقالى سيكون المنقذ من الضلال والتخلّف ، ولكنه هنا يبدو ، وقد توسع فى معالجة الفكرة من خلال وعى أفضل بمعطيات التصوّر الإسلامى ، مما رأيناه فى مجال المقارنة بين ما رآه قنديل فى ديار الغربة ، وما يجرى على أرض أو دار الإسلام وقد تكرّر كثيراً ، وبخاصة عندما كان يرى ميزة جيّدة أو نظاماً حسناً فى بعض الديار : « كان الأجدر بالمسلمين أن يبشروا به قبل غيرهم .. »[٣] ، أو عندما يرى الشريعة كأنها مطبقة فى ديار غريبة دون أن تطبق فى الوطن ، أو أن هذه الديار لا ينقصها إلا إعلان الإسلام :

« ـــ لو أنكلم تطبقون الشريعة ؟!

ـــ لكنكم تطبقونها !

---

(١) رواية ابن فطومة ، ص ١٥٥ .

(٢) عالجت هذه المسألة بتفصيل أكثر فى دراسة نشرت من قبل ، وقد بدا لى أن الكاتب يومها قد توهّم أن الإسلام قد قصّر عن تحقيق مشروعه !

(٣) رواية ابن فطومة ، ص ٩٦ .

فقلت بإصرار :

ـــ الحق أنّها لا تطبق »[1] .

لقد استطاع نجيب محفوظ أن ينعطف نحو قضايا الإسلام والمسلمين فى رواية « رحلة ابن فطومة » وبعض رواياته الأخيرة ، بصورة أكثر نضجاً من ذى قبل ، والنضج الذى أعنيه فى المفهوم والتصوّر ، لأن النضج الفنى لديه سابق ورائد ، بل إنه يزداد مع مرور الأيام تألقاً وإبهاراً .. ويكفى أنه فى « رحلة ابن فطومة » استدعى التاريخ ، من خلال حيلةٍ فنّية معروفة [الرحلة] ألحّ عليها كثيرون ، السندباد ، جاليفر ، أليس فى بلاد العجائب ، حول العالم فى ثمانين يوماً ، جحا فى جانبولاد .. إلخ ، ثمّ يشكّل منها بناءً فنّياً رائعاً ومبهراً ، ويعالج من خلاله أخطر قضايا الأمة ، فى لغةٍ شفّافةٍ راقيةٍ ، وحوارٍ مركّز مضىء .

(١) السابق ، ص ٩٧ ، ويقصد بتطبيق الشريعة ـــ كما يبدو من سياق الحوار ـــ للنظام الشامل والحضارى للإسلام فى الحرية والعدل والعلم والأخلاق والسياسة والزراعة والصناعة والتجارة .. إلخ ،وليس مجرد المظاهر الجزئية والشكلية وحسب .

مطالعات

مصادر دراسة المأثورات الشعبية في التراث العربي

الدكتور : محمد رجب النجار

مدخـــل

١ ـ الفرق بين التراث والمأثورات :

يشكل التراث الشعبي جزءا لا يتجزأ من التراث العربي المدون ، غير أن هذا التراث الشعبي ينقسم ـ بدوره ـ قسمين كبيرين ، أحدهما لا يزال ـ بوظائفه الحيوية ، الفكرية والنفسية والجمالية ـ حيا فاعلا ومؤثرا في بنية الفكر العربي حتى اليوم ، وهذا هو ما يسميه علماء الفولكلور بالمأثورات الشعبية ، أما القسم الآخر ، فهو هذا الجزء من المادة أو العناصر الفولكلورية التي تحجرت أو توقفت وظائفها منذ زمن بعيد ، وتحولت إلى مجرد « رواسب ثقافية » احتفظت بها كتب التراث العربى ، ولم تعد لها ـ الآن ـ من قيمة سوى قيمتها التاريخية ، وقد أطلق عليها أصحاب الموسوعات القدامى كالنويرى والقلقشندى مصطلح « الأوابد » على حين يطلق بعض الفولكلوريين العرب المعاصرين مصطلح « التراث الشعبي » وذلك أن مصطلح التراث الشعبي ـ في رأيهم ـ هو المصطلح الأوسع الذى يتضمن العناصر أو المادة الفولكورية بقسميها :

الحيّة (المأثورة ، والجمع مأثورات) ، وغير الحيّة (الأوابد أو الرواسب التراثية) وهذا ما فعله قديما ، علماء العرب ، إبّان عصر الجمع والتدوين ، حين قاموا بجمع هذه المادة الشعبية بقسميها ، وكان أن ميزوا الحية منها بأنها « الذائعة بين العوام » أو « الذائعة لذلك العهد » . ولو أخذنا مثالا لذلك أغنيّة من أغاني ترقيص الأطفال رواها لنا ابن النديم : (الفهرست ص ١١٢ طبعة بيروت المصورة عن فلوجل) والتى وتقول كلماتها التى كانت تترنم بها الأم العربية وهى ترقص طفلها :

بابـــا وشبّـــا
وعـاشا حتـى دبّـا
شيخـا كـبيرا أحنـى
... إلـخ

فإن الأمر المؤكد أن هذه الأغنية لم تعد تردد أو تروى ، ومعنى هذا أنها لم تعد حية فاعلة . على حين لو أخذنا أغنية أخرى ــ أقدم منها ــ من أغاني العمل مثل تلك التي كان يترنم بها النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، عند حفر الخندق إبان غزوة الأحزاب مطلعها :

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدقنـا ولا صلينـا
...... إلخ

فمن المؤكد أنها لا تزال حية فاعلة حتى اليوم .. وإن تغيّرت وظائفها ــ مثلها مثل تلك الأغنية الدينية الذائعة التي كان يتغنى بها ــ على أنغام الدفوف ــ نسوة يثرب ، لدى استقبالهن للرسول صلى الله عليه وسلم على مشارف المدينة المنورة :

طلع البـدر علينـا ••• من ثنيات الـوداع
وجب الشكر علينا ••• ما دعـا لله داع
أيها المبعـوث فينـا ••• جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة ••• مرحبا يا خير داع

غير أن التمييز بين العناصر الشعبية الحية والعناصر غير الحية أو المتحجرة يقتضي أن نقوم ــ باديء ذي بدء ــ بجمع هذه العناصر جمعا مكتبيا ، في ضوء سياقها الثقافي والتاريخي ، من مصادر التراث العربي المدون ، ثم تصنيفها تصنيفا فولكلوريا معاصرا ، يسهل معه رصد هذه المادة أو العناصر الفلكلورية المتناثرة في كتب التراث ، وحصرها ، وسهولة العودة إليها تمهيدا للإفادة منها في الدراسات العلمية الحديثة ، وهذا هو ما حدا بنا إلى القيام بمشروع جمع العناصر الفولكلورية في التراث العربي ، وهو الآن في مرحلته التجريبية ويشرف على تمويله مركز التراث الشعبى لدول الخليج العربية .

٢ ــ من الجاحظ إلى ابن خلدون
أو من مرحلة الجمع الميداني إلى مرحلة الدراسة

لا شك أننا مدينون لجيل الموسوعيين العرب العظام من أمثال الجاحظ وابن قتيبة والمسعودى والثعالبى والمرزبانى وأبي حيان التوحيدي وابن عبد ربه والأصفهاني والطبرى والثعالبى والخطـيب البغدادى وابن قيم الجوزية والنويرى والقلقشندى والسيوطى والمقريزى والابشيهى ونظرائهم كثير في جمع المادة الفولكلورية العربية ــ على امتدادها الطويل والعريض في الزمان والمكان العربيين ــ بل ندين أيضا لهؤلاء العلماء الموسوعيين بأقدم أساليب الجمع الميداني ــ كما سنرى وشيكا ــ وبأقدم مناهج التصنيف في بعض المجالات الفلكلورية كالأمثال والأغاني والقصص والحكايات مثلا ، بل إننا مدينون أيضا لعالم موسوعي عظيم هو ابن خلدون في مقدمته التي بوأته مركز الصدارة في فلسفة التاريخ ونشأة العلوم الاجتماعية ، مدينون له أيضا بتأسيس علم الفولكلور العربي نفسه وكان ذلك نفحة من نفحات العبقرية الخلدونية الخالدة فعلى يديه أخذت المادة الفولكلورية الضخمة التي جمعها جيل الموسوعيين شكلها المنهجي وإطارها العلمي ولأول مرة في الفكر

العربى والعالمى ... **فهو أول عالم يقوم بدراسة العلوم الشعبية أو الفولكلورية من حيث هى : أدب شعبى ، وعادات وتقاليد ، ومعتقدات ومعارف شعبية ، وحرف وصناعات وفنون جمية ، فى إطارها العلمى الصحيح ضمن دراسته عن علم العمران والاجتماع البشرى** .. وهو أول عالم يقوم بدارستها دراسة موضوعية طبق منهج علمى محّدد التزم به ، يقوم على تعريف المجال الفولكلورى ، ونشأته ومراحل تطوره ، وموضوعاته وأبرز علمائه وأهم الكتب المصنفة فيه ... **وهو فى ذلك كله صاحب وجهة نظر تأسيسية داخل هذه المجالات العلمية الشعبية التى عرفتها أوروبا بعد ذلك بثلاثة قرون تحت مصطلح « فولكلور »** الذى صكّه وليم جون تومز سنة ١٨٤٦ ، وتتجلى وجهة النظر التأسيسية تلك ، فى نقد المادة الفولكلورية وتمحيصها واتخاذ موقف عقلانى منها ، قد يقوم على الرفض أحيانا ، كما هو الحال فى العلوم السحرية (كما سنرى وشيكا فى الفقرة الخاصة بذلك) وقد تقوم على تصحيح المفاهيم أحيانا أخرى ، كما هو الحال فى الطب الشعبى أو البدوى الذى شاع خطأً كما يقول باسم الطب النبوى (انظر فقرة التراث الطبى فى هذا البحث) وقد تقوم أحيانا أخرى على التعاطف مع المادة الفولكلورية ، والدفاع عنها وتحليلها تحليلا نقديا يؤكد به آراءه ووجهة نظره التى تكون عندئذ خارجة عن العرف السائد بين علماء عصره ، ومألوف علومهم ومسلماتهم العلمية أو (المدرسية) ، كما فعل فى دفاعه دفاعا علميا وفنيا — لأول مرة — عن الأدب الشعبى عامة ، واللهجات والشعر الشعبى البدوى والحضرى (انظر المقدمة ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، الصفحات من ١٢٦٨ — ١٣٥٥ من الجزء الرابع) وتنفرد دراسته عن الشعر الشعبى وفنونه المتنوعة بأكثر من أربعين صفحة (انظر المقدمة ، فصل : أشعار العرب وأهل الأمصار لهذا العهد ، ج ٤ ص ١٣١٢ — ١٣٥٥) عدا عشرات النصوص المتناثرة فى موضوعات متعددة بالمقدمة ، ولهذا كله لا غرو أن نقول :

إن ابن خلدون هو مؤسس علم الفولكلور العربى ، منذ نهاية القرن الثامن الهجرى .

٣ — القراءة الفولكلورية للتراث

أيا كان موقف العلماء العرب المعاصرين من التراث العربى المدون ، وأيا كانت المعركة الدائرة بينهم حول هذا التراث ، معه أو ضده ، **فإن هذا البحث ، يتضمن دعوة مباشرة وصريحة إلى قراءة هذا التراث قراءة فولكلورية ، أعنى من منظور فولكلورى ، فى ضوء معطيات هذا العلم الجديد ، علم الفولكلور** ، فان مثل هذه القراءة سوف تكشف موقع المأثورات الشعبية من السياق التراثى العربى ومن البنية الاجتماعية والتاريخية والثقافية ، كما أنها سوف تسهم أيضا فى غربلة التراث — من رؤية معاصرة — تفيد من عناصره الحية الفاعلة ، تستلهمها وتطورها ، وتقف عند عناصره غير الحية ، فتجعلها وقفا على الدرس الأكاديمى فقط ، إن مثل هذه القراءة لا تجعل فهمنا لواقعنا الاجتماعى المعاصر أكثر واقعية وموضوعية فحسب ، بل تخرج بقضية التراث من كونها قضية الماضى لذاته أو كونها إسقاطا للماضى الذهبى على الحاضر المحبط ، إلى كونها قضية الحاضر نفسه من ، وجهة كونه ، أى الحاضر ، حركة صيرورة تتفاعل داخلها منجزات الماضى وممكنات المستقبل تفاعلا ديناميا صاعدا ، بمعنى أن النظر إلى التراث — من منظور فولكلورى معاصر — يمكّننا من إعادة امتلاك

هذا التراث على أساس جديد تتكون عناصره المعرفية والفكرية من مجموع العناصر الحية والمحركة لعملية بناء الحاضر المعاصر التى هى فى الوقت نفسه عملية بناء للمستقبل المنشود .

إن قراءة تراثنا الفكرى والحضارى المدون ، من وجهة نظر علم الفولكلور ومناهجه ونظرياته ، أى طبقا لرؤية معاصرة ، ليس مجرد مرحلة من مراحل الوعى بالذات القومية ، بل أيضا سوف تسهم ، كما تساعدنا على فهم أعمق للظواهر الفولكلورية الحية ، الايجابية أو السلبية ، فنعمل على تطويرها أو استلهامها أو تغييرها أو تجاوزها ، كما أنهاستسهم فى إضفاء قدر من الجدّة على هذا التراث . وحسبنا أن نشير لعمل موسوعى عظيم لاجدال فى قيمته ومكانته التراثية هو موسوعة الحيوان للجاحظ الذى صنفها على غرار كتاب الحيوان لأرسطو فى علم الحيوان ، ووقفنا على ما تضمنه من معلومات ، ورحنا نتساءل ماذا يتبقى منها للتاريخ الآن ، أى فى عصر العلم الحديث ؟ لكانت الإجابة سلبية تماما ، ومع ذلك فإن مكانة هذه الموسوعة لم تتزعزع حتى اليوم ، ليس لقيمتها التاريخية فحسب ، بل إنها تتضمن ثروة فولكلورية ضخمة فى مجالات متعددة كالمعارف والمعتقدات الشعبية ، والعادات والتقاليد ، والثقافة المادية ، والفنون الشعبية ، ولاسيما الفنون القولية (مثل الحكايات الأسطورية الشارحة وقصص الحيوان التعليمية ، والأمثال والألغاز والأشعار والنوادر والأقوال الدارجة ، والعبارات المسجوعة التى كان العرب يقولونها على لسان الحيوان ، وغير ذلك مما يندرج فى مجال الأدب الشعبى) وهو ما يمكن قوله أيضا عن موسوعه الحيوان الكبرى للدميرى .

وأعتقد أنه فى ظل غياب هذه القراءة الفولكلورية ، سوف تبقى أحكامنا على التراث العربى ، ومن ثم العقل العربى غير صحيحة وغير موضوعية ، وتعميمية صارخة ، وفوقية متعالية . ومن حسن الحظ أن جيل التراثيين العرب ، لم يعرفوا تلك التفرقة البغيضة بين ثقافة العامة وثقافة الخاصة ، فهيأوا بذلك لنا مادة فولكلورية خصبة وطاغية ، تكشف لنا عند الدرس العلمى عن جذور الثقافة الشعبية العربية ، والفولكلور أبرز جوانبها ، وهذا يعنى فى التحليل العلمى الأخير « وحدة الثقافة » للمجتمع العربى ، الناجمة عن وحدة الإرث أو التراث الفكرى والحضارى المشترك ، ويؤكد مقولة التواصل الثقافى العربى . ودون أن نتسرع ، الآن ، فى إصدار أحكامنا حول جدوى قراءة التراث العربى ، قراءة فولكلورية ، دعنا الآن نَقُمْ بجولة كاشفة ، غايتها استنطاق هذا التراث فولكلوريا .... فقط ، ثمة ملاحظة منهجية ، هى أنه فى ضوء هذا التراكم الكمى والنوعى الكبير لمصادر التراث العربى المدون ، لا نملك . الا « الانتقائية » لنماذج من هذه المصادر التى حرصنا على أن تكون ، فى معظمها ، منشورة ومحققة تحقيقا علميا حديثا ، قدر الإمكان ، ولها بالطبع — صلة وثيقة بالمأثورات الشعبية العربية ، مادةً وعلماً .

أولا : التراث اللغوى العام

وكتب المعاجم والأمالى اللغوية

لاجدال فى أن المكتبة اللغوية التراثية حافله بكنوز المؤلفات والمصنفات اللغوية ، منذ بدء عصر التدوين العربى ، وأن كثيرا جدا منها عرف طريقه إلى النشر والتحقيق العلمى .. من هذه الكنور اللغوية ، على سبيل المثال لا الحصر : أمالى القالى ، والزجاجى ،

والسهيلى ، وابن الشجرى ، والمرتضى ، واليزيدى ، وكتب الاشتقاق لابن دريد وللأصمعى ، والاشباه والنظائر للخالديين ، وفقه اللغة للثعالبى ، وكتاب جمهرة اللغة لابن دريد ، ومجالس ثعلب اللغوية ، وديوان المعانى ، والفروق فى اللغة لأبى هلال العسكرى وكتاب المعانى لابن قتيبة ، وديوان الأدب للفارابى ، والكامل فى اللغة والأدب للمبرد والمجمل لابن فارس ، والخصائص لابن جنى والكتاب لسيبويه ، والمزهر للسيوطى ، والبارع فى اللغة لاسماعيل بن القاسم القالى البغدادى ومعجم ما استعجم للبكرى ، والمخصص لابن سيده ، وله أيضا كتاب المحكم ، وكذلك معجم العين للخليل ، والصحاح للجوهرى والقاموس المحيط للفيروز آبادى ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدى ، وأساس البلاغة للزمخشرى ، وتهذيب اللغة للأزهرى ، وكتب النوادر والتعليقات فى اللغة ، وكذلك بعض الكتب اللغوية المتفرقة التى كتبت إبّان عصر الرواية والاستشهاد اللغوى واستطاعت أن تنجو من غوائل الزمن وبراثن الضياع ، من مثل الأنواء والأزمنة والأمكنة وكتب النبات والمطر وكتب الخيل والإبل (انظر على سبيل المثال : كتاب الإبل للأصمعى ، كتاب النبات للأصمعى ، كتاب الخيل لأبى عبيدة ، كتاب أسماء الخيل لابن الأعرابى ، كتاب الأيام والليالى والشهور للفراء ، كتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوق ، وكتاب الأزمنة لقطرب النحوى ، كتاب الأزمنة والأنوار لابن الأجدابى ، كتاب الأنواء عند العرب للدينورى ، كتاب الأنواء لابن خرداذبه ، كتاب المطر لأبى زيد الأنصارى ، كتاب المطر والسحاب للبلازرى ، رسالة فى أسماء الريح لابن خالوية ... إلخ) ويمكن أن نضيف إلى ما سبق كتاب الثعالبى الرائع المعروف بثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ذى القيمة الفولكلورية والبالغة ومما يدخل فى تراثنا اللغوى وله علاقة بالمادة الفولكلورية **كتب الأضداد اللغوية** (مثل أضداد ابن الأنبارى ، والأصمعى ، والسجستانى ، وابن الدهان ، وابن السكيت ، وقطرب وغيرهم) .

ومما يدخل كذلك : الكتب اللغوية التى عالجت **لحن العامة** من مثل لحن العوام للزبيدى (وكتاب الرد على الزبيدى فى لحن العامة لابن هشام) وكتاب ما تلحن فيه العامة للكسائى ، وكتاب الفاخر للمفضل بن سلمة (فى العبارات والتراكيب الدارجة والملحونة) وكتاب الزاهر فى معانى كلمات الناس لابن الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨ هـ (وهو محقق أيضا فى جزأين كبيرين) ، والكتاب كله مخصص لرصد أو بالأحرى لجمع أقوال الناس العاديين وعباراتهم وألفاظهم الدارجة فى الحياة اليومية ، وتدوينها ودراستها وبيان أصولها ومعانيها وما تنطوى عليه من بلاغة فائقة) وكذلك كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت ، وكتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان لابن مكى الصقلى وكتاب تقويم اللسان لابن الجوزى ... إلخ .

ويمكن لدارسى الفولكلور أن يفيدوا من هذا التراث اللغوى فى أمرين أساسيين : أحدهما منهجى ، والآخر موضوعى .. **أما الإفادة المنهجية فتتجلى فى استخلاص منهج عربى فى الجمع الميدانى للمأثورات الشفهية** ، يمكن أن يفيد منه الفولكلوريون اليوم ، وهو ما دعا — ولا يزال — يدعو إليه الدكتور سعد الصويان (انظر كتابه **جمع المأثورات الشعبية** ، مركز التراث الشعبى قطر ، ١٩٨٥) ذلك أن التراث اللغوى العربى ، كان فى أساسه تراثا شفاهيا ، ثم قام بجمعه اللغويون العظام من جيل العلماء الأوائل

كالاصمعى وأبى عبيدة وأضرابهما جمعا ميدانيا من أفواه الرواة فى البوادى العربية ، كما نعلم ، إبّان عصر الرواية فهم من هذه الناحية **جامعون ميدانيون** بالمعنى الدقيق (لمزيد من التفصيل ، انظر : كتاب الرواية والاستشهاد باللغة للدكتور رجاء عيد ، وكتاب رواية اللغة للأستاذ عبد الحميد الشلقامى وكتاب البحث اللغوى عند العرب للدكتور أحمد مختار عمر) وقد حفزنا بحث سعد الصويان إلى مواصلة الطريق من حقل معرفى آخر هو حقل الحديث النبوى وأسلوب جمعه وتدوينه وتصنيفه وتوثيقه ، فكتبنا دراستنا **علم رواية الحديث . وأصول الجمع الميدانى للمأثورات الشعبية عند العرب** ، كتاب التراث الشعبى رقم ٢ بعنوان أبحاث فى التراث الشعبى ص ١٦٧ ــ ٢٠٨ بغداد ١٩٨٦ .

وأما **الإفادة الموضوعية** فتتجلى فيما تتضمنه كتب المعاجم واللغة من مادة فولكلورية خصبة وغزيرة ، فهى تتحدث عن لغات العرب ، ولهجاتها وأشعارها وأمثالها وحكمها ووصاياها وألغازها ومعاظلاتها ومراثيها ونوادرها وأغانيها الشعبية ، وقصصها وحكاياتها وخرافاتها وأساطيرها .. فهى من هذه الناحية وعاء أكبر للآداب الشعبية ، كما أنها تتحدث عن عادات العرب وتقاليدهم وأنماط سلوكهم كما تتحدث عن معارفهم **ومعتقداتهم الشعبية فى الكون والوجود والحياة** ، (والحيوان والنبات والجماد ...) كما تتحدث كذلك عن ثقافتهم المادية وفنونهم الشعبية ، وما يتعلق بذلك كله من وصف للأدوات للحرف ، وللصناعات ، وللطب وللأدوية ، وللأطعمة والأشربة ، وللمسكن والبنيان وللأزياء والملابس وما يتعلق بها ، وأدوات الزينة وأنواعها وأسمائها ... إلى غير ذلك مما يدخل فى مجال العلوم الفولكلورية الحديثة ..

إننا لو أعدنا قراءة هذه الموسوعات اللغوية ــ على سبيل المثال ــ قراءة فولكلورية ، واستخرجنا منها العناصر أو المواد الشعبية وأعدنا تصنيفها ثانية ، طبقا للحقول الفولكلورية المعروفة **لتهيأ لدينا عدد رائع من المعاجم الحضارية المتخصصة** التى يمكن أن يفيد منها أيضا المؤرخون وعلماء الاجتماع والانثروبولوجيا (الاثنوجرافيا ، الاثنولوجيا) والمعنيون ــ عموما ــ بدارسة التاريخ الاجتماعى والتاريخ الحضارى للشعب العربى ، وغيرهم كثير . وليس هذا بدعا ، بل لقد نجح بعض المستشرقين فى تطبيقه ، **مثل المستشرق الهولندى المعروف دورى الذى أخرج لنا سنة ١٨٤٣ ، أى منذ أكثر من مائة سنة أول معجم متخصص فى الأزياء هو « المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب »** معتمدا فى ذلك على المعاجم العربية فى المقام الأول وكان من جراء ذلك أن اكتشف الثغرات اللغوية الموجودة فى معاجمنا التى توقفت منذ أمد بعيد بعد تاج العروس فكان أن وضع معجمه اللغوى الضخم المعروف **« تكملة المعاجم العربية »** لتدارك هذا الأمر .

ثانيا : التـــراث الشعـــرى :

إذا وضعنا فى الاعتبار أن المعيار اللغوى الذى يأخذ به علماء الفولكلور العرب ، لم يعد فيصلا بين أدب الصفوة (الرسمى) وأدب العامة (الشعبى) وانما المعيار الفارق ، هو **المعيار الوظيفى** الذى يجعل من الأدب تعبيرا عن الوجدان الجمعى للجماعة (قبيلة أو شعبا) فيكون بذلك لسان حال الجماعة ، وديوانها الفنى المعبّر ــ فكريا ونفسيا وجماليا ــ عن أحلامها وتطلعاتها وقيمها العليا ، وآلامها وهمومها وقضاياها العامة ، وأن يكون هذا التعبير أو الإبداع الفنى ــ فى أساسه ــ قائما على **المشافهة** فى أدائه وتواتره ،

خاضعا لمقتضيات هذه « الشفاهية » من حذف أو إضافة أو تعديل فى النص تبعا لنوعية الجمهور المتلقى ورغباته ، ولطبيعة الموقف الأدائى فكريا ونفسيا ، وقدرة الذاكرة الإنسانية للرواة ، ومهارة المؤدين ، إذا وضعنا ذلك كله فى الاعتبار ونظرنا إلى التراث الشعرى العربى وجدنا أنفسنا أمام كثير من الألوان والفنون الشعرية التراثية التى يمكن أن تندرج تحت الإبداع الشعرى الشعبى عن العرب ، وهى كثيرة منها :

١/٢. شعر الحداء والرجز

لا شك فى شعبية هذا اللون من الشعر ، طبقا لما وصلنا من نصوص عن العصرين الجاهلى والإسلامى ، فقد كان إنشاده غناء وإبداعه مرتجلا وموضوعاته شعبية بدءا من حداء الإبل ، والهجاء والفخر مرورا بأغانى المهد والطفولة ثم أغانى العرس ، وأغانى العمل وما أكثرها ، حتى وصف الأخفش ، فن الرجز ، بأنه فن العرب ، يعنى العامة ، فهو الذى يترنمون به فى عملهم ، وهو الذى يترنمون به فى أسواقهم وسوقهم ، وهو الذى يحدون به وانتهاء بأناشيد الحروب ، والنُّواح وأدعية المتسولين (لمزيد من التفصيل انظر : حسين نصار ، الشعر الشعبى العربى ،١٩٦٢، القاهرة) .

٢/٢ المعلقات والشعر الجاهلى

لا بأس أن نقسم الشعر الجاهلى إلى اتجاهات أربعة : **شعر المعلقات السبع ، وشعر الشعراء الصعاليك** (الشنفرى وتأبط شرا وعروة بن الورد) **وشعر الشعراء الفرسان** (المهلهل ، عبد يغوث ، عامر بن الطفيل ، حاتم الطائى ، وعمرو بن معديكرب ، دريد بن الصمّة ، عبيد بن الأبرص ، السموأل ، أمية بن أبى الصلت وأضرابهم) وشعراء المديح أو شعراء الملوك والبلاط (الأعشى ، النابغة ، علقمة الفحل ، المثقب العبدى ، المتلمس ، عدىّ بن زيد) وباستثناء شعراء البلاط ، فإن الاتجاهات الثلاثة الأخرى هى **اتجاهات شعبية** صدر فيها أصحابها عن وجدان جمعى ، وهو وجدان القبيلة ، فعبروا عن قضاياها وتطلعاتها وقيمها وفضائلها ومآثرها وتاريخها (الشفاهى أصلا) وحروبها وانتصاراتها وذادوا عنها ضد أعدائها بل كانوا أداة الحرب القولية فيها ، ومن هنا قال **ابن رشيق** فى بيان وظيفة الشاعر الجاهلى فى قبيلته « أنه يحمى أعراضها ، ويدافع عن أحسابها ، ويخلّد مآثرها ، ويشيد بذكرها » ولهذا أيضا لا غرو أن يجمع التراثيون العرب ابتداء بالجاحظ وانتهاء بابن خلدون ، على أن الشعر هو ديوان العرب ، وأخبارهم ، وحكمهم « فى الجاهلية وصدر الإسلام ، ومن ثم فهو — فى التحليل الأخير — تراث شعبى شفاهى .

ويمكن أن يلحق بذلك أيضا كمّ شعرى شعبى هائل ، مجهول القائل ، ذاع فى العصر الجاهلى ، وإبان عصر الفتوح الإسلامية العظيم ، ونراه مبثوثا فى كتب الأدب وكتب المغازى والسير والفتوح وأيام العرب فى الجاهلية والإسلام . وكتب التاريخ العام ، وبعض هذه النصوص أو القصائد الشعرية تصل الواحدة منها إلى قرابة الألف بيت (فى التاريخ الشعبى والأساطير العربية ، على نحو ما ورد فى كتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شريه) ومع ذلك فان هذا الحكم الشعرى الهائل لم يجمع ولم يلق حظه من الدراسة حتى الآن بحجة أنه مجهول القائل ، وكأن مرور خمسة عشر قرنا من الزمان لا تكفى لإضفاء الشرعية التراثية عليه ، وهو — شئنا أم أبينا — جزء من تراثنا العام ، وما كان يصل إلى عصر التدوين فى القرن الثالث

الهجرى ما لم يكن شعرا شعبيا حيا وظل يتردد على ألسنة الرواة فى المجتمع العربى الشعبى آنذاك .

٣/٢ شعـــــر الأوابـــد

ضرب من الشعر صرخ به شعراء القبائل والأمصار فى وجه الولاة والعمال المستبدين ، مثبوت فى كتب الأدب والتاريخ العام وفى بعض المجموعات الشعرية النادرة (وقد عرف بعضها طريقه إلى النشر العلمى المحقق مثل مجموعة القصائد المفردات لطيفور) ومعظم شعرائه مجهولون خشية بطش هؤلاء العمال أو انتقام الولاة من قبائلهم وقراهم ، وقليل منهم معروف مثل الراعى النميرى فى بعض قصائده ومثل البوصيرى فى أوابده ضد العمّال والولاة فى العصر المملوكى . وقد اشتق هذا اللون من الشعر اسمه من آبدة الدهر ، أى المصيبة التى لا تهون على مر الأيام ، والعار الذى لا يمحى أبد الدهر ، يعنون قصائدهم أو أوابدهم الشعرية التى فضحوا فيها هذا العامل أو ذلك الوالى .. ويبقى أبناء القبائل وأهل القرى والأمصار يرددون هذا الشعر ويتوارثونه ويحرصون الحرص كله على روايته كلما حَزَبَهم أمر من الأمور أو اضطهدهم وال ظالم .

٤/٢ شعر اللصوص والشطار

وهو ضرب من شعر الرفض الاجتماعى ذاع بين الرواة والعامة ، بنزعته المتمردة ودلالاته الاجتماعية والطبقية والاقتصادية ، حتى ليروى لنا الجاحظ فى البيان والتبيان ، أن من لم يرو شعر اللصوص وأحاديثهم كان لا يعّد من الرواة فى عصره . وقد أثبتنا مدى شعبية هذا الشعر على مر العصور ، فى كتابنا حكايات الشطار والعيارين (الكويت ذات السلاسل ، ط ٢ ١٩٨٨) .

٥/٢ شعر المكدين والطوافين والجوالين

من شعر الرفض الاجتماعى أيضا ومن نماذجه القصيدة الساسانية الشهيرة التى رواها لنا الثعالبى وتقع فى أربعمائه بيت مليئة بمصطلحات أهل الكدية ولغاتهم الخاصة وتقاليدهم وآدابهم وعاداتهم وقضاياهم ، وكانت تشكل دستورا بين المكدين فى هذا العصر ، وهى لشاعر جوال يدعى محمد بن عبد العزيز السوسى ، ومثلها أيضا قصيدة أبى دلف الشهيرة ، وهناك أيضا شاعر المكدين المعروف الأحنف العكبرى وقصائده الشعبية الذائعة بدلالاتها الاجتماعية وعناصرها الفولكلورية .

٦/٢ الشعـــر الساخـــر

ضرب من دواوين الشعر الشعبى ، ظاهره المجون والرقاعة وباطنه السّخر والتمرد يفيض بروح النقد الشعبية الدالة ، ومن هنا كانت تحتشد له الجماهير الشعبية أقصى ما يكون الاحتشاد كما يروى لنا المؤرخون مع الشاعر الشعبى المعروف ابن سودون . ومن هؤلاء الشعراء أيضا ابن لنكك البصرى ، وأبى الرقعمق ، وابن سكرة والجزار المصرى ونصر بن أحمد الخبز أرزى وابن الحجاج (وقد حُقّق ديوانه فى جامعة لندن فى رسالة دكتوراه أخيرا) **وابن الحجاج يعد فى رأى كثير من الباحثين بأنه زعيم الشعراء الشعبيين فى عصره على حد تعبير آدم متز فى كتابه عن تاريخ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع** (١ : ٤٩٧) والحق أن ابن الحجاج قد حظى بشهرة واسعة فى عصره بين العامة والخاصة ، ولهذا كثيرا ما كان يباع ديوانه بخمسين إلى سبعين دينارا فى ذلك العصر .. وكان الشريف الرضى نقيب العلويين وأكثر أصحاب المكانة فى الدولة العباسية من أكبر

المعجبين به . ويمكن أن يلحق بهذا الضرب من الشعر الشعبى الساخر **شعر النقائض** ، بروحه الشعبية الساخرة وبقالبه الفنى ، ووظائفه وغاياته ، وبأسلوب أدائه ، وجماهيره المحتشدة والمتعصبة (انظر شوقى ضيف ، الشعر وطوابعه الشعبية) وانظر أيضا نقائض جرير والفرزدق ، وديوان الأخطل ، وما تتضمنه من تعرية للواقع الاجتماعى للقبائل وعاداتها وتقاليدها ومثالبها ومفاخرها ... إلخ .

٧/٢ الشعــر العــذرى

كثير من شعر الغزل العفيف يعد شعبيا ، كما هو الحال فى ديوان مجنون ليلى ، وأخباره وقصصه ، وما نسب إليه ، حتى شك القدماء أنفسهم فى وجوده التاريخى ، وتكمن أهمية هذا اللون من الشعر ، فيما يعكسه من واقع اجتماعى ونفسىّ وطبقى . (لمزيد من التفصيل انظر الشعر وطوابعه الشعبية ، شوقى ضيف) .

٨/٢ شعر المديح النبوى المتأخر

تعد مدائح البوصيرى النبوية ، والصرصرى ، وعبد الرحيم البرعى ، ودواوين أخرى ، ضربا من الشعر الشعبى ، كانت تردده المجتمعات الشعبية فى الأفراح والمواسم والمناسبات الدينية المتعددة وتحفظه عن ظهر قلب ، ليس فقط لأسباب دينية ، وإنما أيضا لأنه كان يحقق لها وظائف نفسية ويلبى لها احتياجات اجتماعية كثيرة ، لهذا لا غرو أن ينتشر هذا الضرب من الشعر فى العصرين المملوكى والعثمانى (لمزيد من التفصيل انظر دراستنا عن بردة البوصيرى ، قراءة فولكلورية ودراستنا عن « فن النبويات ، رحلة فى المكان والزمان والوعى) وانظر أيضا المجموعة النبهانية فى المدائح النبوية (وهى تحتوى على خمسة وعشرين ألف بيت فى المديح النبوى ، ولم تلق حظها من الدراسة حتى الآن) .

٩/٢ الشعر المرتجل وفنونه

يعد الشعر المرتجل ضربا من ضروب الشعر الشعبى الذى كانت تتبارى به القبائل العربية فى البوادى .. كما أن فنونه المتنوعة **كالمماتنة والتمليط** تمثل الأصل التاريخى والفنى لبعض الفنون الشعرية الشعبية الذائعة فى منطقة الخليج مثل **فن القلطة** (لمزيد من التفصيل ، انظر لنا بعض الدراسات عن هذه الفنون التراثية الشعبية فى مجلة البيان ، الأعداد ١٨٣ ، ١٨٦ سنة ١٩٨١ ــ الكويت) ومن أهم المصادر لهذا الضرب من الشعر : كتاب نضرة الأغريض فى نصرة القريض للمظفر بن فضل العلوى ، وكتاب بدائع البدائه لعلى بن ظافر الأزدى .

١٠/٢ الفنون الشعرية غير المعربة

لا جدال فى شعبية هذه الضرب من الشعر الملحون ، بفنونه وقوالبه المتعددة ، **مثل الزجل ، وفن المواليا (أو الموّال) والقوما ، والكان وكان ، والشعر البدوى الذى ذاع فى المشرق العربى ، وعروض البلد وهو ضرب من الشعر ذاع فى المغرب العربى** ، ومن أهم المصادر التراثية التى حفلت بهذا الضرب من الشعر الشعبى (والعامى) ودراسته : مقدمة ابن خلدون (**وفيها دافع ابن خلدون دفاعا علميا عن القيمة الفنية والجمالية والغايات الوظيفية ، الفكرية والنفسية للشعر البدوى ولشعر عروض البلد ، لأول مرة فيما بين أيدينا من كتب** التراث) وكتاب العاطل الحالى والمرخص الغالى

لصفى الدين الحلّى ، والدّر المكنون فى سبعة فنون لابن إياس ، وسفينة الملك ونفيسة الفلك لمحمد بن إسماعيل وعقود اللآل فى الموشحات والأزجال للنواجى ، وبلوغ الأمل فى فن الزجل لابن حجة الحموى ... الخ .

١١/٢ مجاميع أخــرى

أما فى الشعر المعرب ، فبمقدورنا أن نذكر مجموعة من المجاميع والمصادر الشعرية الأخرى التى نرى أنها تحتوى على نصوص شعبية أخرى ، (غير دواوين الشعراء بالطبع) أو تتضمن مادة فولكلورية يمكن أن يفيد منها دارسو الشعر الشعبى العربى : المفضليات ، الأصمعيات ، جمهرة أشعار العرب للقرشى ، الأشباه والنظائر للخالديين ، دواوين الحماسة وشروحها ، ديوان الهذليين وشرحه للسكرى ، وشرح المعلقات للأنبارى ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وفحول الشعراء للأصمعى ، والمحمدون من الشعراء للقفطى ، والمطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية ، والورقة لابن الجراح ، ومنتهى الطلب من أشعار العرب لابن ميمون ويتيمة الدهر لثعالبى وكتاب الأنوار ومحاسن الأشعار للشمشاطى (وهو كتاب محقق فى جزأين كبيرين وبالغ القيمة بالنسبة للفولكلوريين فهو يتضمن الأشعار التى قيلت فى كثير من الموضوعات التى تندرج اليوم تحت المجالات الفولكلورية المعروفة ، ولا سيما الصناعات والحرف والآلآت وغيرها مما يدخل فى مجال الثقافة المادية ، وكذلك العادات والتقاليد ، وكذلك المعارف والمعتقدات الشعبية ، وهذه الأشعار مصنفة تصنيفا موضوعيا تسهل معه الاستفادة العلمية من الكتاب) ومثله أيضا كتاب : نزهة الأبصار فى محاسن الأشعار ، لشهاب الدين أبى العباس العنالى ، وكتاب معجم الأدباء لياقوت ، وشذرات الذهب لابن العماد ، وبهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البّر .. إلخ .

ثالثا : التراث الموسوعى والمجاميع الأدبية وكتب المعارف العامة والتراث النقدى والبلاغى

لا مراء فى أن التراث العربى المدون حافل بالكثير من الكتب الموسوعية أو ذات الطابع الموسوعى ، فى المجالات العلمية والأدبية والبلاغية والنقدية والمعارف العامة ، شعرا ونثرا ، ولاجدال أيضا فى أن أصحاب هذه الموسوعات لم يفرقوا بين ثقافة الخاصة وثقافة العامة عند رصد معلوماتهم ومروياتهم وأخبارهم عن العرب ، واحتفوا بالثقافة ، بمفهومها الأنثروبولوجى الدقيق ، ولامراء أيضا فى أن الفضل فى جمع المادة الفلولكلورية العربية يعود إلى هذا الرعيل الأول من الموسوعيين العرب العظام الذى بدأ بالجاحظ وانتهى بابن خلدون ، وهذه بعض نماذج للكتب الموسوعية أو ذات الطابع الموسوعى فى التراث العربى فى عدة مجالات كالأدب واللغة والنقد والبلاغة والأخبار والمعارف العامة وكلها حافلة بالمادة الفولكلورية المتنوعة والهائلة ، **غير أن مشكلتها أنها مبعثرة هنا وهناك ، تنتظر من يقوم بجمعها جمعا مكتبا علميا لا يفقدها سياقها التاريخى أو الثقافى ، ثم يقوم بعد ذلك بتصنيفها تصنيفا علميا وفق مناهج التصنيف الدولية أو العربية للفولكلور** ، حتى يسهل العثور عليها والوقوف عندها ، تمهيدا لدراستها ، والعودة إليها وقت الحاجة ، فى يسر وسهولة ويأتى على رأس هذه النماذج : البيان والتبيين ، والحيوان للجاحظ (وسائر مؤلفاته) والكامل فى اللغة والأدب للمبرد ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى (وسائر مؤلفاته) وأدب الكاتب ، والمعارف ،

وعيون الأخبار لابن قتيبة والتمثيل والمحاضرة ، وثمار القلوب ، وخاص الخاص للثعالبى (وسائر مؤلفاته) ورسائل إخوان الصفا وخلاّن الوفا ، ومحاضرات الأدباء للراغب الأصفهانى ، والإمتاع والمؤانسة لأبى حيان التوحيدى ، والأخبار الموفقيات للزبير بن بكار ، وإحصاء العلوم للفارابى ، ومفاتيح العلوم للخوارزمى ، ولباب الآداب لأسامة بن منقذ ، وزهر الآداب وثمر الألباب للحصرى ، والمنثور والمنظوم لطيفور ، وإحياء علوم الدين للغزالى والمزهر للسيوطى ، (وكثير من مؤلفاته الأخرى) وكتب المحاسن والمساوىء — وما أكثرها ، ومن أشهرها مؤلفات الجاحظ والبيهقى فى هذا المجال . ونهاية الأفكار ونزهة الأبصار ، صنعه عبد الله بن قاسم الحريرى ، وجواهر الأدب فى معرفة كلام العرب للأربلى ، ونهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى ، وصبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى ، وحياة الحيوان الكبرى للدميرى ، والمستطرف فى كل فن مستظرف للأبشهى ، والكشكول والمخلاة لبهاء الدين العاملى ، وثمرات الأوراق فى المحاضرات لابن حجة الحموى ونزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب للتيفاشى .

ومن كتب التراث النقدى والبلاغى التى تحتفى أحيانا بالمادة الفولكلورية البالغة القيمة — بالنسبة للمعنيين بدراسة الآداب الشعبية : كتاب البرهان فى وجوه البيان لاسحق بن وهب ، والجامع الكبير فى صناعة المنظوم من الكلام والمنثور ، والمثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير (ضياء الدين) والعمدة فى صناعة الشعر ونقده لابن رشيق وكتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، ونقد الشعر لقدامه ، والشعر والشعراء وكتاب المعانى الكبير لابن قتيبة ، ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجنى ، وتحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر لابن أبى الأصبع ، والفلك الدائر على المثل السائر لابن أبى حديد ، لابن قتيبة ، وفحوله الشعراء للأصمعى وطبقات الشعراء لابن سلام والشعر والشعراء لابن قتيبه ، وعيار الشعر لابن طباطبا ، وأدب الكتاب لابن درستوية ، والوساطة للقاضى للجرجانى ، والموازنة للآمدى ، والموشح للمرزبانى ، وسر الفصاحة للخفاجى ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجانى (عبد القاهر) وغرائب التشبيهات لعلى عجائب التشبيهات لعلى بن ظافر الأزدى ، وحسن التوسل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين محمود ، الطراز لابن حمزة العلوى ، ونصرة الثائر على المثل السائر للصفدى ، خزانة الأدب وأيضا مناهج التوسل إلى مباهج الترسل لابن حجة الحموى ، وشرح عقود الجمان فى علم المعانى والبيان ، والإتقان فى علوم القرآن للسيوطى . وتجدر الإشارة إلى أن كتب التراث النقدى والبلاغى يمكن أن تفيدنا ، ليس فقط فى حفظ أو تقديم مادة فولكلورية متناثرة هنا وهناك ، وردت عبرا أثناء شروح الشراح وتعليقات المؤلفين والمصنفين ، وإنما أيضا يمكن أن تفيدنا فى دراسة بعض فنون الأدب الشعبى ، مثل فنون الألغاز والمعاياة والمعمى واللحن والأحاجى والرمز والإشارة والكناية وفن المعاظلات اللسانية ، وفن الأمثال وحكايات الحيوان والقصص الخرافية ، على نحو ما أفدنا منها فى دراساتنا لهذه الفنون . (انظر دراستنا : فن الأحاجى والألغاز فى التراث العربى ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية — جامعة الكويت — ع ٢٠ م٥ خريف ١٩٨٥ ، ص ص ١٣٤ — ١٨٢)

رابعا : كتب التراث الأدبى القصص

هناك مجموعات قصصية تراثية هائلة ، لم تلق —

للأسف ــ حظها من الدارسة حتى اليوم ... برغم أنها تراث شعبى مدون فى المقام الأول ، ليس فقط لأن الفن الحكائى أو القصصى القديم ، **هو فن شعبى بالضرورة** ، بل لأنها ــ تعكس ــ أقوى وأصدق ما يكون الانعكاس ــ قدرا هائلا من واقع الحياة اليومية ــ ومن ثم الثقافة الشعبية ــ للمجتمع العربى فى البوادى والأمصار العربية الإسلامية ، قلّ أن تجد لها نظيرا فى مصادر تراثية أخرى ...

ويكفى أن نذكر هنا على سبيل المثال ، قصة أبى القاسم البغدادى ، المنسوبة تارة إلى مؤلف مجهول يدعى أبا المطهر الأزدى ، والمنسوبة تارة أخرى ، إلى مؤلف معلوم هو أبو حيان التوحيدى ... فهذه القصة تنفرد باحتواء حوارها على أندر وأكبر مجموعة من ألفاظ السباب الفاحشة التى كانت شائعة فى الحياة العامة لبغداد إبّان القرنين الثانى والثالث الهجريين ، وجمعها اليوم وترتيبها أبجديا ــ على سبيل المثال ــ **يشكل أول معجم عربى فى هذا الباب الذى لم يجرؤ أحد من معاصرينا ــ حتى الآن ــ ولا أظنه يجرؤ ، على كتابة أو تصنيف معجم من** هذا النوع ، على حين تحفل الثقافات الأخرى المعاصرة ، بمثل هذه المعاجم الطريفة ، والبالغة القيمة ، من حيث الأهمية الثقافية والدلالة الاجتماعية وقد فعلناها غير أنا لم نجد ناشراً لها بالطبع ، حتى اليوم .

وهناك أيضا ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ المجموعة القصصية الكبرى المعروفة باسم نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة للتنوخى ، وقد نشرت فى عدة مجلدات ضخمة .. وكذلك مجموعته الثانية التى نشرت أيضا فى عدة مجلدات تحت عنوان « الفرج بعد الشدة » (وما أكثر المجموعات القصصية التراثية التى تحمل أيضا هذا العنوان نفسه) كما أن هناك مختصرات لها ، كان ينسخها الورافون ويعملون على إذاعتها ... ضمن بضاعة رائجة جدا جعلت بعض ذوى الجباه العريضة من كتّاب السلطة وأدبائها أو من الفقهاء المتزمتين يصبّون جام غضبهم على القصاص والوراقين جميعا . (انظر على سبيل المثال كتاب القصاص والمذكرين لابن الجوزى ، وانظر أيضا على سبيل المثال ما كتبه الغزالى عن القص والقصاص فى الجزء الأول من كتابه الذائع إحياء علوم الدين (ص ٣٤ ــ ٣٨) ، ووجهة نظره أن فن القص يعمل على إلهاء الناس عن أداء الشعائر الدينية . **ولكن فن القصة ــ وهو فن شعبى كما ذكر ــ فن الفطرة المتمكنة من المجتمعات الشعبية حتى يمكن القول بأن الإنسان كائن قصصى** .

وهناك أيضا المجموعات الكبرى المتمحورة حول **القصص الفكاهى** والحكايات المرحة التى عرفت فى التراث العربى باسم النوادر ، مثل نوادر البخلاء ، ونوادر النوكى ، ونوادر الطفيليين ، ونوادر الممخرقين ونوادر الحمقى والمغفلين ، ونوادر الأذكياء وغيرها مما ورد فى كتب الفكاهات القصصية أو القصص عند العرب مثل نثر الدرر للآبى ، وجمع الجواهر فى الملح والنوادر للحصرى ، وأخبار الحمقى والمغفلين ، وأخبار الأذكياء لابن الجوزى ، ونزهة النفوس ومضحك العبوس (مجهول المؤلف) وأخبار البخلاء ، والتطفيل للخطيب البغدادى ، وأخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى ، ونوادر قراقوش المنسوب لابن مماتى ، ونوادر قراقوش للسيوطى أيضا ، ونوادر جحا (مجهول المؤلف) .

وهناك أيضا القصص العاطفى والاجتماعى ، وأيام العرب (ضرب من القصص التاريخى والفروسى) وهناك أدب المقامات القصصى ، ومثله المنامات ،

والنماذج التراثية لهذه الأشكال القصصية ذائعة ومعروفة ، وهناك الأدب التمثيلي الشعبي (مثل بابات ابن دانيال الكحال) الذى يعرف بخيال الظل ، وهناك أيضاً قصص الجان ، والخوارق وأبرز نماذجه ألف ليلة وليلة ، والتوابع والزوابع لابن شهيد ، وهناك القصص الدينى ، وقصص الأنبياء ، والأولياء والقديسين والمتصوفة ، وكذلك الأدب القصصى على لسان الحيوان ، وهو نوعان أحدهما حكاية الحيوان وهو ضرب من القصص القصيرة ، ولها وظائف تعليلية شارحة (أسطورية) أو وظائف تعليمية وعظية (أدبية) ومن أشهر نماذجها كليلة ودمنة ، وسلوان المطاع فى عنوان الأتباع لابن ظفر الصقلى ، وكتاب فاكهة الخلفاء وفاكهة الظرفاء لابن عرب شاه وغيرها . والنوع الآخر رواية الحيوان مثل رسالة تداعى الحيوان على الإنسان لإخوان الصفا ، ورسالة الصاهل والشاحج لأبى العلاء المعرى ، وهناك أيضا السير الشعبية العربية المدونة باللغة المتفاصحة . وهناك كذلك القصص الفلسفي مثل قصة حى بن يقظان التى تعد أعظم قصة أبدعتها العصور الوسطى فى الآداب العربية والعالمية على السواء ، ثم قصة الغفران لأبى العلاء المعرى بمغزاها النقدى ، السياسى والاجتماعى . ولعل عودة عجلى إلى فهرست ابن النديم توقفنا على هذا الكم الهائل من أسماء القصص والحكايات التى كانت رائجة فى عهده ، وأنماطها المتعددة (انظر الفهرست ص ٣٠٤ ـــ ٣٠٨ ، ص ٣١٣ ـــ ٣١٤ ، طبعة بيروت المصورة عن فلوجل) .

ومما له مغزى فى هذا المقام أن القصص العربى تجاوز الحدود الجغرافية واللغوية وترك بصماته جلية على الآداب القصصية العالمية .. ثم بعد ذلك تردد وراء بعض المستشرقين الرافضين للثقافة العربية (مثل رينان) وتردد أن العرب أمة غير قصصية .. إن هذا التراث القصصى العربى الهائل والذى لا يمكن تقييمه اليوم إلا بمنظور فولكلورى يمكن أن يدرأ عن العقل والفكر العربى كثيرا من التهم ، ويثبت أن العرب ، شأنهم شأن غيرهم من الشعوب ، عرفوا التراث الأسطورى والقصصى والتمثيلى والملحمى ـــ على المستوى الشعبى ـــ وأن الخيال العربى لم يكن يوما محدودا أو عقيما .

ومن الجدير بالذكر أيضا أن قصص الخاصة (الرسمية) فى التراث العربى قد استلهم أصحابه قصص العامة الشعبية ، فقصص المقامات مستلهمة من قصص الشطار والمكدين ، وقصص التوابع والزوابع مستلهمة من قصص الجان وقصة الغفران مستلهمة من قصص الاسراء والمعراج الشعبية (لمزيد من التفصيل حول شعبية التراث القصصى عند العرب ، انظر دراستنا « دعوة إلى دراسة تراثنا القصصى فى ضوء مناهج بحث الفولكلور » مجلة البيان العدد ١٥٩ يونيو ١٩٧٩ ـــ الكويت) .

خامسا : كتب الأمثال والألغاز :

يعد التأليف والتصنيف فى مجال الأمثال علما قائما بذاته ، وقد حفلت المكتبة التراثية بكم لا بأس به من التراث المَثَلى أو كتب الأمثال ، مثل : أمثال عبيد بن شريه ، وصحارى العبد ، والمفضل الضبى وأبى عكرمة الضبى والسدوسى وأبى عبيدة والأصمعى وأبى زيد الأنصارى وأبى عبيد القاسم بن سلام ، وابن الأعرابى وابن السكيت وابن حبيب والجاحظ وابن قتيبة وثعلب والأصفهانى والثعالبى والعسكرى والوحدى والميدانى والزمخشرى وغيرهم كثير . وقد عرفت كثير من كتب الأمثال التى صنفها هؤلاء

طريقها إلى النشر المحقق وخضعت للدراسة العلمية الحديثة .. كما نعلم ، فكان أن كشفت هذه الدراسات والبحوث عن القيمة اللغوية والأدبية والفولكلورية والمنهجية لهذا اللون من ألوان التراث العربى ، فهى إلى جانب قيمتها اللغوية ، والأدبية وما تتضمنه من **قصص الأمثال** ، بجميع أنواعها (التعليلية أو الأسطورية الشارحة والحكايات الشعبية الخرافية والاجتماعية والتاريخية وقصص الحيوان المرتبطة بها) تتضمن بالضرورة مادة فولكلوريةً أصيلة تتعلق بالحياة الشعبية — فالأمثال مرآة الشعوب — كالعادات والتقاليد والمعتقدات والمعارف الشعبية ولا سيما ما يتعلق منها بالأنطولوجيا الشعبية وما يتعلق بها من تطورات شعبية عن الوجود والكائنات .. وأخرى عن عالم الحيوان وعالم النبات ، وأخرى عن الطب الشعبى ، والعلاجات الشعبية ، ومنها ما يتعلق بالبيئة وتضاريسها ومناخها واقتصادها وتاريخها والعلاقات الاجتماعية والطبقية السائدة فيها ... إلخ . وإلى جانب هذا وذاك **تمدنا هذه المؤلفات بمناهج دقيقة فى التصنيف العلمى (للأمثال) فقد عرف جامعو الأمثال العربية منهج التصنيف المعجمى** ، ثم **المنهج الموضوعى** ، وأخيرا **المنهج الدلالى** ، **وقد انفرد التراث العربى بهذا اللون من تصنيف الأمثال حتى اليوم** (انظر دراستنا عن الأمثال الشعبية فى التراث العربى ، دراسة فى مناهج التصنيف ، مجلة المأثورات الشعبية — قطر — ع س ص ص)

واللافت للنظر فى عناية القدماءً بالأمثال أنهم — أول الأمر — قد عنوا بها لأسباب لغوية (وهذا هو السر فى أن علم الأمثال قد نشأ فى كنف اللغويين العرب ، حتى ليندر أن تجد لغويا لم يصنف فى الأمثال) ثم ما لبث أن تطورت غايات فى هذا العلم فى القرن الثالث الهجرى فاتجهت اتجاها أدبيا صرفا ، وعندئذ عرفت أمثال العامة والمولدين طريقها إلى التدوين فى هذه المصنفات دون حرج لغوى .. والجدير بالذكر كذلك أن أمثال العرب لم يكن يقصد بها لذلك العهد — أى إبان عصر الرواية أو الجمع والتدوين — غير الأمثال البدوية ، فهى من هذه الناحية — على فصاحة لغتها وسمو تعبيرها — أمثال شعبية بالمعنى الدقيق ، مفهوما ووظيفة . ومن هنا تتجلى قيمتها التاريخية والعلمية والمنهجية لدارسى الفلولكلور .

أما بالنسبة للمؤلفات العربية فى مجال **الألغاز والأحاجى** والفنون المتفرعة عنهما ، فلن نعيد هنا ما سبق أن أشرنا إليه ، عند حديثنا عن التراث النقدى والبلاغى فى فقرة سابقة (هى الفقرة : ثالثا) وأهتمام القدماء بدراسة الفنون اللغزية ، ولن نقف هنا أيضا عند دراستنا المنشورة عن فن الأحاجى والألغاز فى التراث العربى ، فقد سبقت الإشارة إليها فى الفقرة المذكورة . وما أكثر ما ورد فى تراثنا الموسوعى ، والشعرى ، والنقدى ، والفقهى واللغوى ، من ألغاز وأحاج ، وحسبنا أن نشير هنا إلى **أن التراث العربى ، هو أول تراث عالمى يعرف التأليف المعجمى ، فى مجال الألغاز** ، وعلى الرغم من ضياع معظم هذه المؤلفات والمعاجم ، فقد وصلنا واحد منها ، يعود فى تأليفه إلى القرن السادس الهجرى ، هو كتاب « **الإعجاز فى الأحاجى والألغاز** » الذى صنفه — على حروف المعجم — مؤلفه سعد الدين بن على بن القاسم الحظيرى البغدادى (ت ٥٦٨ هـ) وقد أوشكنا الآن على الانتهاء من تحقيقه . ومن أسف أيضا ، أن معظم التراث اللغزى لا يزال مخطوطا حتى اليوم .

سادسا : التراث الدينى

نقصد بالتراث الدينى هنا الموروث الأسطورى

الذى يتعلق **بأديان العرب فى الجاهلية**، كما نعنى به أيضا هذا النوع من **القصص الأسطورية** التى لا سند لها من واقع أو تاريخ، وقد عرفت طريقها إلى الموروث الدينى تحت اسم **الإسرائيليات** وبخاصة تلك المنسوبة إلى وهب بن منبه وكعب الأحبار، وقد امتلأت بها كثير من كتب التفسير القرآنى وكتب القصص النبوى أو قصص الأنبياء، ومن الغريب أن التراثيين العرب من علماء التفسير لم يجدوا غضاضة فى تضمينها شروحهم، ذلك أنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من تأثيرها القصصى العجائبى الخارق والتى كانت تشبع نهم الخاصة والعامة إلى معرفة المزيد من تاريخ الأنبياء وقصص الأمم البائدة وأساطير الأولين على ما فيها من وثنيات وأباطيل لا يقبلها عقل ولا منطق، وقد آن الآوان لأن نعيد النظر فى هذه الإسرائيليات الهائلة التى تملأ تراثنا الدينى ولا سيما كتب التفسير بالترهات والخرافات التى كان النبى محمد (ص) أول من حاربها، وكذلك فقهاء المسلمين المستنيرين (وعلى رأسهم أحمد بن حنبل) الذين ذكروا مرارا وتكرارا أن ثلاثة لا أصل لها: التفسير والملاحم والمغازى، ومع ذلك فإن كتب التفسير تفيض بالروايات الإسرائيلية والأقاصيص الأسطورية كما ذكرنا، تماما كما يفيض تراثنا بالملاحم (ويقصد بها هنا التنبؤ بأحداث الدول ووقائع الملوك ومستقبل الأمم) أما كتب السير والمغازى فهى تلك التى تتضمن — ولا سيما فى مقدمتها — كثيرا من التهاويل والمبالغات والخرافات وبخاصة مروياتها عما قبل الإسلام، ولعل هذا ما حدا بابن هشام إلى تهذيب سيرة ابن إسحق عند روايته لها حتى عرفت باسم سيرة ابن هشام، مع أنه مجرد راوية لها، بل إن سيرته ذاتها، لا تزال تمتلىء بكثير مما يجعلنا ننظر إليه بشىء كبير من الحذر والحيطة الحقيقيين، وعموما فان الوضع شائك — فى ضوء المناخ العلمى السائد — **وكل ما أدعو إليه أن يعاد النظر فى هذه الإسرائيليات. وما يتبعها من تفسير وملاحم ومغاز، من منظور قصصى وفولكلورى، وليس من منظور دينى، تنزيها لتفسير كتاب الله من جهة وللإسلام ونبيه الكريم من جهة أخرى، بل تنزيها لفكرة النبوة ذاتها وتقديسا لمبدأ الرسالات السماوية خاصة وأعتقد أنه قد حان الوقت للمبادرة إلى تحقيق ذلك.**

وكذلك نقصد بالتراث الدينى كل ما يتعلق **بالمذاهب والمعتقدات الدينية والأسطورية الخاصة بغير المسلمين** من أصحاب الحضارات المجاورة أو من أصحاب البلاد التى فتحها المسلمون، واختلطوا أو احتكوا بثقافاتهم الأصلية أو المحلية السائدة — قبل الإسلام — فى بلاد فارس وبلاد الروم ومصر والمغرب وأفريقيا، وكان لزاما على التراثيين العرب أن يفقهوا معتقداتهم ومذاهبهم بشىء كبير من التفصيل إبان الصراع الشعوبى بينهم وبين الفرس، وأن يقفوا عليها، لفهم ثقافاتهم لأسباب سياسية أو دينية أو اقتصادية أو أدبية أو اجتماعية، ولا سيما بعد أن شرع عامة المسلمين يشاركون أصحاب هذه البلاد المفتوحة فى بعض شعائرهم وطقوسهم وبخاصة فى الأعياد، وبالأطعمة والأزياء والأشربة والأدوية، ومشاركتهم أيضا الاعتقاد فى تأثير الكائنات الغيبية، العلوية والسفلية، الخارقة، فى حياة الإنسان. ويدخل ضمن دائرة التراث **أيضا**، كما أعنيه هنا، **كتب الملل والنحل** فى التراث العربى، وهذه قائمة بأسماء كتب التراث الدينى، على سبيل المثال لا الحصر:

كتاب الأصنام للكلبى، وأديان العرب لليعقوبى،

وكتاب الأصنام وما كانت العرب والعجم تعبد من دون الله تبارك اسمه لابن فضيل الكاتب ، وكتاب شرائع الأديان (قبل الإسلام) للبلخى (وله أيضا كتاب الرد على عبدة الأصنام) وجامع البيان فى تأويل آى القرآن المعروف بتفسير الطبرى ، وعمدة التفسير لابن كثير ، ومفاتيح الغيب المعروف بالتفسير الكبير لفخر الدين الرازى (وله أيضا كتاب عصمة الأنبياء ، وكتاب فضائل الصحابة ، وكتاب الملل والنحل) والكشاف عن حقائق التنزيل للزمخشرى ، والجامع لأحكام القرآن العظيم للتسترى ، والتفسير القيم لابن قيم الجوزية ، ولباب التأويل فى معانى التنزيل للخازن البغدادى ، والجواهر الحسان فى تفسير القرآن للثعالبى .

ومن كتب التراث الدينى عموما كتاب الدرة الفاخرة فى كشف علوم الآخرة ، وكتاب الدرر الحسان فى البعث ونعيم الجنان للسيوطى ، وكتاب الروح لابن قيم الجوزية ، وكتاب الآخر تلبيس إبليس ، وكشف الحجاب والراية عن وجه أسئلة الجان للشعرانى ، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى . ومن كتب قصص الأنبياء حسبنا أن نشير إلى سيرة ابن هشام ، وعيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير لابن سيد الناس وكتاب قصص الأنبياء أو خلق الدنيا وما فيها لأبى الحسن محمد الكسائى ، وكتاب العرائس فى قصص الأنبياء للثعلبى النيسابورى ، ودلائل النبوة للبيهقى ، ودلائل النبوة للأصفهانى ، وقصص الأنبياء لابن كثير .. ويبدو أن **قصص الأنبياء قد صيغت شعرا أيضا ، إذ يذكر السبكى فى طبقاته (٢ : ١٠٨) أن أبا رجاء الأسوانى (ت ٣٣٥ هـ) له قصيدة (واحدة) ذكر فيها أخبار العالم وقصص الأنبياء بلغت مائة وثلاثين ألف بيت شعر ؟ !!!** وبالطبع فإن هناك الكثير من المصادر التى تتناول حياة الأنبياء والأولياء والزهاد ، حياة كل منهم على حدة فى كتاب مستقل ، وكذلك بعض القصص الدينى مثل قصة يوسف والعزيز وزليخة ، وقصة أصحاب الكهف ، وقصة طسم وجديس ، وقصة عاد الأولى ، وقصة هبوط آدم ، وحديث آدم وولده ، وقصة النبى موسى .. الخ ومعظمها مجهول المؤلف مما يشى بأصلها الإسرائيلى أساسا ، **ولا حرج فى أن نشير إلى أن كتب الفقه تتناول كثيرا من جوانب الحياة اليومية فى المجتمع الشعبى المسلم** ، هذه الجوانب التى تدخل اليوم فى صميم الدراسات الفولكلورية كالعادات والتقاليد ، وأنماط السلوك ، والأطعمة والأشربة وآدابها والنذور وآداب الزيارة والمائدة والنظافة ، والأضاحى ، ودورة الحياة (من الميلاد إلى الزواج إلى الوفاة) .. إلخ وليس ثمة تناقض بين موضوعات كتب الفقه وحياة المجتمع الشعبى المسلم من الناحية الفولكلورية ، **فالإسلام هو بؤرة الثقافة العربية التى يعد الفولكلور أبرز جوانبها** ، وقد أشار ابن النديم فى فهرسته (ص ٢٠٩ وما بعدها) إلى مجموعة كبرى من هذه الكتب الفقهية (بعضها محقق الآن) ذات صلة وثيقة بأنماط السلوك والعادات والتقاليد المشروعة وغير المشروعة ، الحلال والحرام ، الأوامر والزواجر ، والمواعظ والآداب التى ينبغى أن يتحلى بها المسلم البسيط فى حياته اليومية وتحدد علاقته بالآخرين ، وتشكل جوهر معتقداته الشعبية .

أما بالنسبة للمصادر التى تحدثت عن التراث الدينى لغير المسلمين وتفيض بالموروث الأسطورى الدينى الوثنى ، فهى كثيرة ، ويمكن العودة اليها فى فهرست ابن النديم تحت عنوان المذاهب والمعتقدات (ص ٣١٨ — ٣٥١) . ويمكن أن تشكل ركيزة

علمية وتاريخية لما يسمى بالفولكلور الدينى فى التراث العربى .

أما فى مجال الملل والنحل فحسبنا أن نشير إلى كتاب الملل والنحل للشهرستانى ، والفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسى ، والفَرْق بين الفِرَق للبغدادى ، وتحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرزولة للبيرونى .. وهذه المؤلفات كلها بالغة الأهمية فى مجال الدراسات الفولكلورية والاثنوجرافية والاثنولوجية بما فى ذلك دراسة الأديان المقارنة ، والفولكلور الدينى والثقافة الشعبية .

سابعا : التراث الصوفى

على الرغم من أن كثيرا من الباحثين المحدثين يؤثرون الفصل أو التمييز بين مايسمى بتصوف الخاصة أو الصفوة ، وتصوف العوام أو التصوف الشعبى ، وبالرغم من أنهم ينتصرون للنوع الأول ، ويرونه اتجاها إيجابيا ، ويتهمون النوع الثانى بالإغراق فى الشعوذة والدجل والإيمان بالخرافات والغيبيات ، ويرونه اتجاها سلبيا ، فإننا نرى التصوف — بنوعيه — اتجاها شعبيا فى توجهاته ودوافعه وغاياته ، ولاسيما فى العصرين المملوكى والعثمانى — لأسباب لامجال لذكرها هنا — ولهذا فليس محض مصادفة أن يطلق المجتمع الشعبى العربى على كثير من شيوخ التصوف لقب « السلطان » بكل ما يعنيه ذلك من سلطة روحية قاهرة ، خضعت لها المجتمعات والطوائف والأصناف الشعبية عن رضا وطواعية ، بعد أن فَقَدت الثقة فى « سلطانها » الرسمى أو الشرعى ، إبان عصور الأفول الحضارى للعرب ، وأيا كان الأمر ، فان جل ما يعنينا هنا أن التصوف — لتلك العهود — كان يشكل تيارا فكريا غلابا ، تمكن — بذلك — من تشكيل الوجدان العربى الجمعى بكل أبعاده الرافضة أو المتمردة أو المحبطة الأمر الذى انعكس على ثقافة المجتمع المادية والفنية ، وعلى شعائره وطقوسه الجماعية ، ومعارفه وتصوراته ومعتقداته الشعبية ، فضلا عما انعكس على أدبيات التصوف عامة ، وتراثه الأدبى والشعرى خاصة ، فكان ديوان الشعر الصوفى ، وكان الغناء الصوفى ، وكان القصص الصوفى الذى يفيض بالمعجزات والكرامات والخوارق ... إلى غير ذلك من ابداعات فنية وأدبية تعنى الباحثين الفولكلوريين ... ولأن ابداع التراث الصوفى الشعبى لم يدون إلا من خلال مؤلفات كبار رجالات التصوف التى تزخر بها مكتبتنا التراثية ، فالأفضل الاستعانة بها ، من مثل :

قوت القلوب فى معاملة المحبوب لأبى طالب المكى ، وقرة العيون ومفرح القلب الحزين للسمرقندى (وله أيضا بستان العارفين ، وتنبيه الغافلين) وروض الرياحين فى حكايات الصالحين لليافعى ، ومكاشفة القلوب للكاش ، ومشارق أنوار القلوب لابن الدباغ ، ونزهة الأرواح وروضة الأفراح للشهرزوى ، ومدارج السالكين لابن قيم الجوزية ، وروضة الناظرين للوترى ، والروض الفائق فى المواعظ والرقائق للحريفيش ، وجامع كرامات الأولياء للنبهانى ، وبهجة النفوس لأبن عطاء الله السكندرى ، والتعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ، واللمع للسراج ، والأنوار القدسية فى معارف قواعد الصوفية للشعرانى (ومؤلفاته عموما) والصوفية والفقراء لابن تيمية ، وكتاب الفلاكة والمفلوكين لشهاب الدين أحمد بن على الدلجى (الفلاكة لفظ فارسى ، يعنى الفقر والفقراء) بالإضافة إلى مؤلفات كبار المتصوفة ودواوينهم الشعرية ، مثل ابن عربى والتسترى والحلاج وغيرهم .. إلى جانب مجموعة كبرى من التصنيفات

الصوفية المجهولة المؤلف ، وتتمحور عنواناتها تحت قسمين كبيرين أحدهما دلائل الخيرات ، والآخر مجموعة الأوراد الكبرى ، وذلك كله أمر يعنى باحثى الفولكلور عامة ء والمعنيين بدراسة المعارف والمعتقدات الشعبية خاصة .

ثامنا : التراث التاريخى :

وكتب المغازى والسير وفتوح البلدان

وكتب الأنساب والطبقات والتراجم

لايكاد يضارع التراث الدينى والتراث اللغوى والأدبى فى المكتبة العربية التراثية شىء سوى التراث التاريخى ، فالمكتبة التراثية — كما نعلم — تحفل بالمئات من المصادر التاريخية الكبرى ، ذات الطابع الموسوعى أحيانا ، والمعجمى أحيانا أخرى ، فهى الى جانب قيمتها التاريخية تحفل بالوقائع والأحداث ذات الطابع الفولكلورى ، وتشير إلى مختلف الطبقات والفئات وأصحاب المهن والحرف والصناعات الشعبية ، وأدواتها ، وتراثها الأدبى والفنى والاجتماعى ، وتفصح عن ثقافة أصحابها ، ومن ثم ثقافات الشعوب التى ينتمون اليها (طرائق معيشتها وعاداتها وتقاليدها ومعارفها ومعتقداتها وأساطيرها وفنونها وأنماط سلوكها .. الخ .) **مما يفيد منه المعنيون بدراسة الفولكلور من منظور رأسى تاريخى مقارن ، وكذلك المعنيون بدراسة التاريخ الاجتماعى والحضارى للشعب العربى . ولعل من أهم كتب التاريخ العام والمغازى والسير وفتوح البلدان :** سيرة ابن هشام ، والدرر فى اختصار المغازى والسير لابن عبد البر ، والأخبار الطوال للدينورى ، وفتح مصر لابن زنبل ، وفتوح الشام للواقدى ، وفتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكم ، وقصة فتوح البهنسا (**تاريخ شعبى**) والفتح القدسى للعماد الأصفهانى ، وكتاب البدء والتاريخ للمقدسى ، وكتاب التيجان لوهب بن منبة ، وكتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شريه ، وكتاب الاكليل للهمدانى ، وتاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، ومروج الذهب للمسعودى ، وتاريخ الأمم والملوك للطبرى ، وتاريخ الدولة والملوك لابن الفرات ، والمختصر فى تاريخ البشر لابن الفدا ، وتتمته لابن الوردى ، والإعلام بتاريخ الإسلام لابن قاض شهبة ، والبداية والنهاية لابن كثير ، والكامل لابن الأثير ، وكتاب التنبيه والاشراف للمسعودى (فى أخلاق الشعوب) وكذلك له كتاب أخبار الزمان ، وكتاب تجارب الأمم لابن مسكويه ، وتاريخ اليعقوبى ، والتاريخ الكبير لابن عساكر ، وعيون التواريخ لابن شاكر ، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزى ، والتبر المسبوك للسخاوى ، والمنتظم فى تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزية ، والأوراق للصولى ، ومنتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور لأبى المحاسن بن تغرى بردى ، وبدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن اياس ، وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر لابن خلدون ، والعبر فى أخبار من غبر ، وتاريخ دول الإسلام للذهبى ، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعى ، ومرآة الزمان لابن الجوزى ، وعجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى .

واذا كانت المصادر السابقة فى البدء والتاريخ العام ، فثمة عدد آخر فى تاريخ العواصم والأمصار ، يعرف باسم فضائل البلدان (وتاريخها الشعبى) مثل : أخبار مكة للأزرقى وتاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، وبغداد لطيفور ، والفضائل الباهرة فى

محاسن مصر والقاهرة ، وكتاب النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن ابن تغرى بردى ، وتاريخ مصر وولاتها للكندى ، وأخبار مصر لابن ميسر ، وحسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة للسيوطى ، ونزهة الأيام فى محاسن الشام للبدرى ، ومثير الغرام بفضائل القدس والشام للمقدسى ، والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل لمجير الدين ، والدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب لابن شحنة ، والسير الحلبية لابن برهان الحلبى ... ثم كتاب المغرب لابن سعيد ، وكتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب للمقرى ، والمونس فى أخبار افريقيا وتونس لابن أبى دينار القيروانى ، وكتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين (فى أخبار الدولة الموحدية) لابن أبى صاحب الصلاة ، ويلحق بهذه المؤلفات التاريخية أيضا مجموعة من الكتب التى صنفها التراثيون العرب تحت عنوان **كتب الأوائل** ، التى تعالج التاريخ القديم لكثير من الأمم والشعوب معالجة اسطورية (قبل الإسلام) مثل كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى (فى تاريخ الفرس) وكتاب الأوائل لابن قتيبة ، وكتاب الأوائل للحسن بن محبوب وغيرها من مؤلفات البدء والتاريخ التى نهج أصحابها المنهج التقليدى فى التاريخ العربى الذى يؤثر أصحابه أن يمهدوا لمؤلفاتهم بالحديث عن تاريخ البشرية منذ البدء ، منذ هبوط آدم من الجنة حتى عصرهم .. الأمر الذى جعل مقدمات هذه الكتب حافلة بالتراث أو **التاريخ الأسطورى** .. فضلا عن أصحاب الكتب التاريخية المبكرة ، مثل التيجان ، وأخبار ملوك اليمن وتاريخ الطبرى والمسعودى وغيرهم كثير ، **لم يكن يميزون كثيرا بين القص والتأريخ ، فكان أن امتزج لديهم القصص بالتاريخ والخيال بالواقع ، وخاصة فى مقدماتهم (التاريخية ؟ !) فإذا ما وضعنا فى الاعتبار أن مصادرهم ـــ فى معظمها كانت تعتمد على الروايات الشفاهية المأثورة استطعنا القول دون حذر كبير إن هذه المادة التاريخية ، هى فى آخر الأمر مادة فولكلورية فى المقام الأول ، وكان هذا هو سر الحملة التى حملها ابن خلدون على معظم المصادر التاريخية العربية القديمة ...**

أما على مستوى **تاريخ القبائل والأنساب** ، فحسبنا أن نشير إلى جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، وأنساب العرب للسمعانى ، وكتاب نسب قريش للمصعب الزبيدى ، وأنساب الأشراف للبلاذرى ، واللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير ، وجمهرة أنساب قريش للزبير بن بكار ، ونهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى . كما يلحق بهذا النوع من المؤلفات طائفة أخرى من كتب التراث يدور موضوعها حول **المفاخر والمآثر والمنافرات القبلية** ، مثل كتاب المنافرات بين القبائل وأشراف العشائر وأقضية الحكام بينهم فى ذلك ، لابن الحسن النسابة ، كما يلحق بها أيضا طائفة من الكتب ، موضوعها يدور حول **مناقب الأمم ومثالب الدول . مثل كتاب مفاخر العرب والعجم ، وكتاب مناقب الترك ومفاخر الفرس أو العكس ، مثل كتب مثالب الفرس ، أو مثالب العرب ، التى ازدهرت إبان الصراع الشعوبى وغير خاف أهمية مثل هذه المؤلفات فى دراسة أنساق القرابة العربية ومدلولاتها الاجتماعية ، أو فى دراسة ثقافات وفولكلور الشعوب والدراسات الاثنوجرافية والاثنولوجية ، المقارنة .**

أما على مستوى **كتب الطبقات والتراجم** ، فحسبنا أن نؤكد أن المكتبة العربية التراثية حافلة بهذا الضرب من الموضوعات احتفالا كبيرا **قائما على التصنيف المعجمى أو الزمنى أو سنى الوفاة ،**

.أو المهن والحرف ، أو المعتقدات والمذاهب .. أو الأقاليم .. الخ . ومن هذه المصادر على سبيل المثال لا الحصر :

أخبار العلماء بأخبار الحكماء ، وإنباه الرواة على أنبا النجاة للقفطى ، وارشاد الأريب الى معرفة الأديب ، المعروف بمعجم الشعراء لياقوت الحموى ، وطبقات الأطباء والحكماء لابن جلجل (ت ٣٧٧ هـ) وعيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدى ، وبغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة للسيوطى ، ووفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ، والوافى بالوفيات للصفدى ، وفوات الوفيات لابن شاكر ، وخريدة القصر وترجمة أهل العصر للعماد الأصفهانى ، ومعجم الشعراء للمرزبانى ، ومعجم الشعراء للصولى ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام ، وكتاب المعمرين من العرب للسجستانى ، وبغية الملتمس فى تاريخ رجال الاندلس لأحمد بن يحيى ، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبى نعيم الأصفهانى ، وشذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى ، والدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى ، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوى ، وخلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر للمحبى ، والطبقات الكبرى لابن سعد ، وسير أعلام النبلاء للذهبى ، والاستيعاب لابن عبدالبر ، وأسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ، والاصابة فى تمييز الصحابة ، ولسان الميزان لابن حجر العسقلانى ، وميزان الاعتدال فى نقد الرجال ، وتذكرة الحفاظ للذهبى ، وطبقات أو تذكرة الحفاظ للسيوطى ، وطبقات الشافعية للسبكى ، وطبقات الشافعية للاسنوى ، والفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، وطبقات النساك لابن سعد الأعرابى ، والطبقات الكبرى للشعرانى ... الخ . وهذه التراجم للأعلام ، هى ، فى آخر الأمر ، إلى كونها تعكس ثقافات العصور والأمصار ، تحوى ثروة أدبية وفنية كبرى ، وتفيد فى الحالين المعنيين بدراسة الفولكلور عامة ، والأدب الشعبى خاصة .

تاسعا : التراث الجغرافى :

وكتب تقويم البلدان والرحلات

وغرائب الموجودات وعجائب المخلوقات

كثيرة هى المصادر الجغرافية التى احتفى أصحابها بوصف الشعوب ، والثقافة والحياة الشعبية ـــ فى ضوء المعطيات المناخية والبيئية ـــ لكثير من البلدان والأمصار ، والمناطق العربية وغير العربية ، الإسلامية وغير الإسلامية على السواء ، مما يوفر مادة فولكلورية وثقافية ثرة للمعنيين بذلك ، من هذه المصادر :

صورة الأرض لابن حوقل ، وصورة الأقاليم للبلخى ، وكتب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك لابن حوقل ، والمسالك والممالك لابن خرداذبه والمسالك والممالك للاصطخري ، ومسالك الأبصار فى ممالك الأمصارى للعمرى ، وزبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك للظاهرى ، والمغرب فى بلاد أفريقيا والمغرب للبكرى ، ونزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للادريسى ، وتقويم البلدان المعروف بجغرافية أبى الفدا ، والبلدان لليعقوبى ، ومعجم البلدان لياقوت الحموى (ويتضمن ثروة أدبية وفولكلورية هائلة) والأعلاق النفيسة لابن رسته ، ثم هناك آثار البلاد وأخبار العباد للقزوينى ، والآثار الباقية من القرون

الخالية للبيرونى ، والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزى ، وكذلك تحفة الاحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات المباركات للسخاوى ، وكذلك كتب الديارات ، وعلى رأسها كتاب ديارات الشابشتى الذى يفيض بوصف الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية والأدبية الخ .

كذلك يتصل بتراثنا الجغرافى **تراث الرحلات الاستكشافية ، والجغرافية والعلمية والتاريخية ، التى قام بها الرحالة العرب ، وعنوا فيها بوصف الشعوب وطقوسها ومعتقداتها وأساطيرها وثقافاتها وآدابها القصصية** (مثل قصص السندباد وقصة أو رحلات المقررين ورحلة اكتشاف سد يأجوج ومأجوج) **وأعيادها ومواسمها وشعائرها** ... الخ . **مما يوفر مادة علمية ضخمة لعلماء الانثربولوجيا ، الاثنوجرافيا والاثنولوجيا ، والفولكلور ، جميعا** .. ومن هذه الرحلات : رحلة سلام الترجمان ، رحلة ابن موسى المنجم ، وكتاب مستفاد الرحلة والاغتراب للتجيبى ... رحلة سليمان التاجر ، رحلة ابن وهب القرشى ، رحلة اليعقوبى ، رحلة ابن فضلان ، رحلة ابن حوقل ، رحلة المقدسى ، رحلة أبى دلف ، رحلة السيرافى الى الهند والصين ، رحلة البيرونى ، رحلة ابن بطلان ، رحلة المسعودى ، رحلة أسامة بن منقذ ، رحلة الهروى ، رحلة ابن خلدون ، رحلة التجانى ، ورحلة ابن جبير ، ورحلة الخيارى المعروفة بتحفة الأدباء وسلوة الغرباء . كما يلحق أيضا بهذا اللون من التراث — ولنفس الأسباب والغايات السابقة — **كتب العجائب والغرائب** ، مثل : عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى (ولهذا الكتاب أيضا قيمة بالغة للمعنيين بدراسة الطب ، والأدوية والأغذية الشعبية عند العرب وغيرهم) وكذلك كتاب نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر للدمشقى المعروف بشيخ الربوة ، وكتاب عجائب الهند ، بره وبحره وجزايره للناخذاه الرامهرمزى بزورك بن شهريار ، وكتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لابن الوردى ، وكتاب الافادة والاعتبار فى الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة فى أرض مصر (أو رحلة البغدادى) وكذلك تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المعروفة برحلة ابن بطوطة (أنظر للأهمية كتابى : أدب الرحلات ، دراسة تحليلية من منظور اثنوجرافى ، فولكلورى ، حسين فهيم ، عالم المعرفة ، ع ١٣٨ ، الكويت ، ١٩٨٩) .

وليس من شك فى أن البحث الجغرافى المعاصر ، قد تجاوز كثيرا المادة العلمية التى وردت فى هذه المؤلفات جميعا ، وبدت عندئذ وكأنها مجرد اساطير وأشباه أساطير ... **ومن هنا فان القيمة الحقيقية لهذه المؤلفات تكمن فيما تتضمنه من مادة اثنولوجية واثنوجرافية وفولكلورية** ، ومن الطريف أيضا أنها هى نفسها التى تفسر كما تفند لنا كثيرا من الترهات والأساطير التى كانت تؤمن بها الشعوب كالتنين أو غيره من الحيوانات الأسطورية والكائنات الخرافية ، باعتبارها فى الواقع العلمى — مجرد ظواهر طبيعية ، مناخية وبحرية معروفة لأرباب البحر وربابنته ، ان هذه الجغرافيا التراثية ، هى مدخلنا الصحيح ، إلى دراسة **الجغرافيا الفولكلورية** .

عاشرا : التراث السياسى والاقتصادى والأخلاقى :

يحفل التراث العربى كذلك بمجموعة من ذخائر الكتب التى تعنى بأدبيات السياسة والاقتصاد ومايرتبط بهما أيضا من أدبيات اجتماعية وأخلاقية

عامة . وتكمن أهميتها فى بيان علاقة العامة أو الطبقة المحكومة بالطبقة الحاكمة ، وما ينبغى أن يكون عليه « المواطن الصالح » من الرعية من وجهة نظر السلطان .. كما تكمن أهمية بعض هذه المؤلفات ، ولاسيما كتب الخراج والحسبة — فى بيان الوضع الاقتصادى والكشف عن المهن والصناعات الشعبية وسائر الأصناف والطبقات الشعبية ، وعاداتها وتقاليدها المهنية وابداعاتها الأدبية والفنية ، وأدواتها الانتاجية وأوضاعها الاجتماعية... الخ .

ومن هذه المؤلفات ، **فى السياسه** : كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة وكتاب السياسة لابن حزم ، والأحكام السلطانية للماوردى ، والأحكام السلطانية لأبى يعلى الفراء ، وبدائع السلك فى طبائع الملك لابن الأزرق ، وسلوك المسالك فى تدبير الممالك لابن أبى ربيع ، والطرائق الحكمية فى السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية ، وقواعد الأحكام فى مصالح الأنام للشيخ عز الدين بن عبدالسلام ، وسراج الملوك للطرطوشى ، والتاج فى أخلاق الملوك للجاحظ ، والسياسة المدنية للفارابى ، والمنهج المسلوك فى سياسة الملوك للشيزرى ، والتبر المسبوك فى نصائح الملوك للغزالى ، والفخرى فى الآداب السلطانية لابن الطقطقى ، وتحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام لابن جماعة ، وكتاب تحفة الأمراء فى أخبار الوزراء لأبن الحسن الهلالى ، وكتاب الوزراء للصولى ، والوزراء والكتاب للجهشيارى ، وأدب الوزير للماوردى ، وكتاب الإشارة إلى من نال الوزارة لأبى القاسم الصيرفى ، وكتاب قوانين الدولة لابن مماتى ، وكتاب الولاة والقضاة للكندى ، وأدب القاضى للماوردى ، وكتاب الاقتضاب فى أدب الكتاب لابن السيد البطليوسى ، وكتاب السياسة الكبير والصغير للسرخسى ، وكتاب الأدب الكبير والصغير لابن المقفع بمدلولاته وأفكاره السياسية الناضجة فى مجال أدبيات السياسة وتحديد العلاقة بين الراعى والرعية ، على أساس من العدل والمساواة ومعرفة الحقوق والواجبات .

أما على مستوى المؤلفات التى عالجت **قضايا المال والاقتصاد** وما يرتبط بهما من أدبيات ، فهى كثيرة منها : الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، والخراج لأبى يوسف ، والخراج وصناعة الكتابة لقدامة ابن جعفر ، والخراج ليحيى لابن آدم القرشى ، الاستخراج لأحكام الخراج بن رجب الحنبلى ، والاشارة إلى محاسن التجارة لأبى الفضل جعفر بن على الدمشقى ، وكتاب أكرية السفن (عن القانون التجارى البحرى من القرن الرابع الهجرى) تأليف خلف بن أبى فراس ، وهو محقق أيضا . وكتاب معالم القربة فى أحكام الحسبة لابن الأخوة ، ونهاية الرتبة فى طلب الحسبة للشيزرى ، والحسبة فى الإسلام لابن تيمية ، وآداب الحسب للسقطى ... الخ .

أما فيما يتعلق **بالأخلاق العامة** (للرعية الصالحة) فثمة مؤلفات كثيرة منها : أدب الدنيا والدين للماوردى ، والآداب النافعة لجعفر بن شمس الخلافة الأفضلى ، والمدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات من البدع المحدثة والعوائد المنتحلة لابن الحاج المغربى (ويقع فى أربعة أجزاء تكاد تكون متفردة فى وصف الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مصر خاصة فى أوائل القرن الثامن الهجرى) وكتاب الحكمة الخالدة أو تهذيب الأخلاق لمسكويه ، وكتاب مداواة النفوس فى تهذيب الأخلاق والزهد فى الرذائل لابن حزم ، وكتاب الزواجر فى النهى عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمى ، وهناك أيضا مجموعة الرسائل الكبرى

فى هذا المجال ، مثل رسالة الصحابة لابن المقفع ، ورسالة فى الصداقة لأبى حيان التوحيدى ، ورسائل الجاحظ ، وأبى العلاء المعرى ، والغزالى ، والهمذانى ، والصابى ، والخوارزمى وغيرهم كثير .

ويبقى أن نفرد الإشارة إلى ثلاثة كتب فريدة فى هذا الباب ، باب التراث السياسى والاقتصادى والاجتماعى والأخلاقى النفسى ، إبان عصور المماليك ، هى : كتاب معيد النعم ومبيد النقم للسبكى ، وكتاب إغاثة الأمة فى كشف الغمة للمقريزى ، بالإضافة إلى كتاب مشاكلة الناس لزمانهم لليعقوبى (تحقيق وليم ملورد — بيروت ، ١٩٦٢) وذلك لمن يعنيهم دراسة الشخصية القومية ، والتاريخ الاجتماعى والحضارى .

حادى عشر : التراث الطبى

وكتب الأمراض والأدوية والعقاقير والطب النبوى أو الشعبى العربى

إلى جوار الطب المزاجى (العلمى) الذى كان يمارسه الفلاسفة والحكماء وعلماء التنجيم ، كان هناك مايسمى بالطب البدوى ، أو العربى (الشعبى) الذى عرف أيضا باسم الطب النبوى ، وقد شاع التأليف فيه ، الأمر الذى حدا بابن خلدون أن يعترض على هذه التسميه ، تنزيها لرسول الله ﷺ الذى بعث كما يقول « ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولاغيره من العاديات » اللهم إلا إذا « استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الإيمانى ، فيكون له أثر عظيم » على حد تعبيره فى المقدمة (ج٣ ص ١٢٤٤ ، تحقيق على عبد الواحد وافى ، ط ٢) وأيا كان الأمر ، فما أكثر المؤلفات ، فى النوعين ، الطب المزاجى العلمى ، والطب البدوى الشعبى ، والتى تتناول الأمراض ، والأدوية ، والعقاقير والأغذية ، ويمكن أن يفيد منها أعظم الفائدة المعنيون بدراسة الطب الشعبى وطرائق التداوى بالأعشاب والنباتات ، كما يفيد منها أيضا المعنيون بدراسة المعتقدات والعادات الشعبية كالإصابة بالعين والتفسير الغيبى للأوبئة والطواعين التى تجتاح بعض المناطق دون غيرها ، وكذلك المهتمون بالعلاج بالرق والتعاويذ والتمائم (ولنصوصها قيمة أدبية تعنى دارسى الأدب الشعبى أيضا) ومعالجة الأمراض النفسية كالصرع (الطب النفسى) الذى كان العرب قديما يعتقدون أنه ناجم عن دخول الشياطين والأرواح الشريرة فى جسم الإنسان وسكنت فيه ، وكذلك المهتمون بالعلاجات السحرية من الباحثين التى كانت تشكل قديما اعتقادا كبيرا ، ليس فقط لدى المجتمعات الشعبية ، بل أيضا لدى أصحاب الطب المزاجى (العلمى) من الفلاسفة والحكماء أنفسهم (إذ كانوا يؤمنون ، شأنهم شأن سائر الشعوب ، بالعلاقة بين الطب وعلم السحر ، وكذلك بينه وبين علم التنجيم) وعموما فهذه قائمة بأشهر المؤلفات من **التراث الطبى النبوى أو العربى** .

نكتفى هنا بذكر بعض النماذج ، من كتب الطب النبوى ، وأخرى من كتب الطب الروحانى مثل طب النبى للنسفى ، الطب النبوى لابن قيم الجوزية ، الطب النبوى للذهبى ، الأحكام النبوية فى الصناعة الطبية لأبى الحسن الكحال ، وكذلك — **فى مجال العلاجات السحرية** — ثمة كتب منها : الطب الروحانى للشيزرى والطب الروحانى للكندى ، والطب الروحانى للجسم الإنسانى لإسماعيل المغربى .

وكتاب « فى علل اختلاف الناس فى أخلاقهم وسيرهم وشهواتهم واختيارهم لقسطا بن لوقا » (وهو مفيد كذلك للمعنيين بدراسة الطب النفسي وعلم الأخلاق وعلم الجمال لذلك العهد من منظور فولكلورى) أما فى مجال **الطب والصناعة الطبية** الخاصة بالفلاسفة والحكماء ، ولاتخلو من قيمتها الفولكلورية الجيدة ، فهى على سبيل المثال لا الحصر :

كتاب كامل الصناعة الطبية لعلى بن عباس (الذى يعد من أعظم كتب التراث الطبى العربى) وشأنه شأن كتاب القانون فى الطب لابن سينا ، والموسوعة الطبية المعروفة بالتصريف للزهراوى ، وكتاب التيسير فى الطب لابن زهر الأندلسى ، وكتاب الكليات لابن رشد (فى الطب) وكتاب المرشد الصحى لابن ميمون ، والذخيرة فى علم الطب لثابت بن قرة ، والكفاية فى الطب المنسوب لعلى بن رضوان ، والكافى فى الطب لأبى نصر العين زربى وكتاب فردوس الحكمة للطبرى (على بن سهل) وفيه شرح للتعاويذ والرق والتمائم والعلاجات السحرية وكتاب « الحاوى فى الطب » وكتاب الخواص ، وكتاب طب الفقراء وكلها للرازى ، وتقويم الأبدان فى تدبير الإنسان لابن جزلة ، ودعوة الأطباء لابن بطلان ، وتدبير الأصحاء للكندرى ، وكتاب تسهيل المنافع فى الطب والحكمة لإبراهيم الأزرق ، وكتاب الكمال والتمام لابن ماسويه (فى علم الأمراض العام) وكتاب المدخل إلى صناعة الطب للسرخى (وله مقالة لطيفة فى النمش والكلف) وهناك أيضا عدد من المؤلفات الطبية المتخصصة فى علاج بعض أعضاء الجسد ، مثل المقالات العشر فى العين لحنين بن إسحق ، وله أيضا مقالة معروفة باسم القول فى حفظ الأسنان واستصلاحها ، وكتاب الفصد لاسحق بن عمران ، وكتاب المعدة وأمراضها ومداواتها لابن الجزار ، وتذكرة الكحالين (مجهولة المصنف) وكتاب « تدبير الحبالى والأطفال والصبيان وحفظ صحتهم ومداوتهم من الأمراض العارضة لهم » لأحمد بن محمد البلدى ، وكتاب « خلق الجنين وتدبير الحبالى والمولدين » لابن سعيد القرطبى ، وكتاب المرشد للتميمى (وجميع هؤلاء الأطباء كانوا يؤمنون ، كما يوصون مرضاهم ، بالعلاجات السحرية) والكتابان الأخيران مفيدان للمعنيين **بدراسة فولكلورية الحمل والولادة** .

كذلك حفظت لنا المكتبة التراثية عددا من الكتب يصل إلى اثنى عشر كتابا يطلق عليها أصحابها كتب **المجربات** قليل منها معروف المؤلف مثل « بغية المحتاج فى المجرب من العلاج » لداود الأنطاكى ومعظمها غير معروف المؤلف ، نظرا لعلاقة هذا النوع من العلاج بعلوم السحر والتنجيم آنذاك . وهناك أيضا طائفة من الكتب المتخصصة فى **الأمراض التناسلية والجنسية** وعلاجاتها ، كذلك هناك بعض المنظومات الطبية التى تندرج تحت **النظم التعليمى** مثل أشعار ابن سيناء فى الطب والشفاء . **أما فى مجال كتب العقاقير أو العلاج بالأدوية والأغذية والأعشاب والنباتات** ، فهى كثيرة ، منها : تفسير أسماءالأدوية المفردة لابن جلجل ، وكتاب أعيان النبات والشجريات الأندلسية لأبى عبيد البكرى ، والجامع لصفات أشتات النبات للادريسى ، ومرادفات الأدوية لابن ميمون ، والحاوى فى علم التداوى للشيرازى ، والجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ، شرح أسماء العقار لابن عمران القرطبى ، ومنافع الأدوية ودفع مضارها للرازى ، وهذا الكتاب العظيم « الأغذية » لحنين بن اسحق ، والداء والدواء لابن قيم الجوزية ، وهذا الكتاب الذى لايزال مشهورا فى المجتمعات الشعبية العربية باسم تذكرة داود ، واسمه بالكامل تذكرة أولى الألباب ، والجامع للعجب العجاب لداود

الأنطاكى » كما يزودنا ابن النديم بقائمة كبرى من المؤلفات الطبية التى ضاع معظمها (الفهرست ص ٢٨٦ ــ ٣٠٣ ، طبعة بيروت المصورة عن طبعة فلوجل) ومن بينها أول معجم فى العقاقير ، هو « كتاب الأدوية المفردة على الحروف » لإسحق بن حنين (الفهرست ، ص ٢٩٨) .

ثانى عشر : التراث العلمى :

علوم التنجيم والطلسمات والسحر والكهانة والزجر والملاحم والزايرجة وأسرار الحروف والسيميــاء والكيميــاء

ثمة طائفة كبرى من العلوم التراثية عرفت باسم العلوم العقلية تفرقة لها عن العلوم النقلية أو الشرعية ، كما عرفت أيضا باسم العلوم الحكمية أو علوم الفلسفة والحكمة « التى كانت للأمم التى قبلهم » مثل فارس والروم والكلدانيين والسريانيين ومن عاصرهم من القبط . وهذه العلوم العقلية كما صنفها الفلاسفة أربعة أصناف : المنطق والرياضيات والطبيعيات والإلهيات ، وتتفرع عن كل من هذه العلوم الأمهات فروع تتفرع عنها ، ويعنينا منها فى هذه الفقرة تلك العلوم الفروع التى تتناول المغيبات من المرئيات والمسموعات التى وصفها ابن خلدون فى مقدمته بقوله « وهذه العلوم كلها موجودة فى عالم الإنسان ، لايسع أحدا جحدها ولا إنكارها » (١ : ٥٢٦) وتشمل : (أ) علوم السحر والطلسمات والكهانة والعرافة والفراسة والعيافة وزجر الطير وأهل الأثر وأصحاب القرانات وادراك الغيب بالرياضة والادراك الروحانى والتنجيم واستخراج الغيب عن طريق حساب الجمل والسيمياء والطب الروحانى والانفعال الروحانى والانقياد الربانى ، والاصابة بالعين ، وفتح المندل وخط الرمل وقراءة الكف والشعوذة أو الشعبذة .

(ب) علم أسرار الحروف والصناعات المتفرعة عنه كالاطلاع على الأسرار الخفية والزايرجة واستخراج الأجوبة من الأسئلة والمعاياة وحساب النيم .

(جـ) حدثان الدول والأمم ومايرتبط بذلك من نبوءات سياسية كالملاحم والكشف عن مسمى الجفر .

(د) علم الكيمياء أو علم جابر (بن حيان) كما كان يسمى أيضا (وهو علم ينظر فى المادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذى يوصل إلى ذلك . ويهدف الى تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن رفيعة (وأيا كان رأى الفلاسفة فى ذلك كالفارابى وابن سينا ، فان هذا العمل لايكون إلا بالطرق السحرية ، كما يقول ابن خلدون ، لمزيد من التفصيل ، انظر مقدمته ٤ : ١٢٢٤) .

ومن الجدير بالذكر أن هذه العلوم جميعا ليست من العلوم المشروعة فى الإسلام ، ومعظمها مستحدث بعده ، وماهى إلا مغالط يجعلونها كالمصائد لأهل العقول المستضعفة ... وقد ولع بها الخواص وأذاعوها بين الملوك والسوقة لهذا العهد (مقدمة ابن خلدون ١ : ٥٤٠) والتطلع إلى هذا طبيعة للبشر ، مجبولون عليها (المقدمة ٢ : ٩٢٩) ومن ثم فابن خلدون على الرغم من رفضه لتعاطى هذه العلوم عقليا ونقليا ، فإنه يرى أنها حقيقة واقعة ، وجود السحر لامرية فيه بين العقلاء وقد نطق به القرآن ، كما يقول ، غير أن ممارسة هذه العلوم السحرية مهجور من جميع الشرائع

لما ينطوى عليه من « كفريات وشرك » ولما فيها من الضرر ، ولما يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره (المقدمة ٣ : ١٢٤٧) أما وجهة تحريم الكيمياء ، فلأسباب اقتصادية وأخلاقية ، اذ تهدف الغاية من هذا العلم إلى تزييف العملة وهو مايقوض دعائم العمران كما يقول ابن خلدون (٤ : ١٢١٥) ومع ذلك فهى « من المنكرات الفاشية فى الأمصار » (٢ : ٩٢٩) وكتب فيها كثير من العلماء والفلاسفة والحكماء .. ورفضها البعض الآخر ، ومنهم ابن خلدون نفسه الذى وقف منها موقفا نقديا ، فرصد هذه العلوم « المحظورة » ووقف على أسرارها ثم أخضعها للنقد الموضوعى والتمحيص العقلانى والدرس العلمى ، وأفرد لها حوالى ربع صفحات مقدمته — على طولها — كذلك عالجها غيره من العلماء العرب ، وأصدروا بشأنها أحكامهم (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ، واحصاء العلوم للفارابى) .. وأيا كانت نتائج هذه المعالجات العلمية — سلبا وايجابا — لهذه العلوم السحرية ، **فإن الدرس المنهجى والعلمى الذى ينبغى ألا يغيب عنا فى هذا المقام هو ألا نقف من الفولكلور أو المأثورات الشعبية — كما يفعل البعض — موقفا رافضا منذ البداية** ، بحجة أنها مأثورات رجعية ومتخلفة ... الخ . دون أن نجمعها ثم نخضعها بداية — للدرس العلمى والتحليل الموضوعى ، دون أن نتسرع فى اصدار أحكام حمقاء فى بعض الأحايين ، وعليه فنحن — المعاصرين — أمام حقيقة واقعة ، وهى أن المكتبة التراثية العربية لاتزال حتى اليوم تزخر بالكثير من المؤلفات التى تتناول هذه العلوم السحرية وصنعتها ، بعضها منثور ، وبعضها منظوم .. ومن أمهات هذه المؤلفات مايلى : المدخل فى صناعة التنجيم للقبيصى ، مصنفات ورسائل ابن سينا فى علم الحروف ، ورسائل ابن عربى مثل قرعة الطيور لاستخدام الفأل والضمير ، ورسالة مواقع النجوم ومطالع أهلة الأسرار والعلوم ، وعلم النجوم للبلخى (وله أيضا كتاب القوارع) وكتاب فرج المهموم فى تاريخ النجوم لابن طاووس ، والتفهيم فى أصول التنجيم للبيرونى ، ورسالة فى السيميا لابن الحاج المغربى (وله أيضا كتاب سحر وطلاسم القاهرة) ورسائل البونى المشهورة مثل رسائله فى أحكام الرمل وخصائص الكواكب ودلائل البروج ، وله أيضا كتابه الذائع « شمس المعارف الكبرى » أو شمس المعارف ولطائف العوارف فى علم الحروف والخواص (ويعد هذا الكتاب عمدة كتب السحر حتى اليوم) المدخل إلى صناعة النجوم للسرخسى ، والمدخل إلى صناعة التنجيم للصيمرى (وله أيضا كتاب أحكام النجوم) وكتاب الفراسة للرازى (وله كذلك رسالة فى الحكم على أسرار الكف) وكتاب الوجيز فى السحر والمعجزة للكرمانى ، وكتاب البيان عن الفروق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات لأبى بكر الباقلانى ، والدر المنظوم وخلاصة السر المكتوم فى السحر والطلاسم والنجوم (جزآن) للكشنانى ، وكتاب الذهب الإبريز (فى علم الرمل) لابن زنبل الرمال ، وكتاب القيافة والفأل والزجر للمدائنى (ت ٢٢٥ هـ) ورسائل جابر بن حيان ، وخواص الأحجار للبيرونى ، وأزهار الأفكار فى خواص الأحجار للتيفاشى ، وعلم الأكسير (مجهول المؤلف) ومطولة الصنعة الإلهية (الكيمياء القديمة) لابن أبى الاصبع ، وفى مجال العلاج الروحانى والنفسى بالطرائق السحرية هناك كتب كثيرة مثل الطب الروحانى للكندى والطب الروحانى للشيرازى والطب الروحانى للجسم الإنسانى لإسماعيل المغربى ... الخ .

ولأن هذه العلوم (السحرية) محظورة ، ومن ثم مؤلفاتها ، فان كثيرا ممن تعاطوها وكتبوا فيها آثروا ألا يذكروا أسماءهم ، ومن ثم فكثير منها ، مما وصلنا مجهول المؤلف ، ومصنفة فى المكتبات العربية الكبرى تحت عنوانات مثل : رسائل فى علم الجفر والملاحم ، رسائل فى علم الحروف والأسماء ، رسائل فى علم الزايرجة ، رسائل فى الفراسة ، رسائل فى معرفة خطوط الكف ، رسائل فى فتح المندل ، رسائل فى قرعة الرجال والنساء ، رسائل فى علم الرمل والأشكال الرملية ومافيها من الضماير و « كتاب الجفر الجامع المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه » .

ويزودنا ابن النديم بقائمة لابأس بها من المؤلفات فى هذا الموضوع ، بعضها عرف طريقه إلى النشر . (انظر الفهرست ص . ص . ٢٦٥ — ٢٨٥ بشأن المؤلفات فى علم الفلك والتنجيم ، كذلك ص . ص . ٣٠٨ — ٣١٣ بشأن الكتب المؤلفة فى التعزيم والمعزمين والسحرة والطلسمات والمشعبذين وكذلك ص . ص ٣١٤ — ٣١٧ بشأن المؤلفات الخاصة بالتفاؤل والتشاؤم وزجر الطير وكتب التعاويذ والرق ، وكذلك الصفحات ٣١٧ — ٣١٨ بشأن المؤلفات الخاصة بالجواهر واستخدام الكنوز والدفائن بالطرق السحرية ، وكذلك الصفحات ٣٥١ — ٣٦٠ بشأن أهل الكيمياء والصنعاويين من الفلاسفة) .

ولاشك فى أن هذه المؤلفات التى حسبت طويلا على تراثنا العلمى لم تعدلها اليوم قيمة علمية تذكر ، اللهم إلا قيمتها الفولكلورية .

ثالث عشر : التراث الفروسى

وكتب الخيل والبيطرة والصيد والبيزرة

لامراء فى أصالة الفروسة العربية ، بطولةً ورياضةً وصيداً قبل الاسلام وبعده ، الأمر الذى فرض نفسه على التراثيين العرب ، فكتبوا عن الخيل وانسابها (ولهم فى ذلك قصص أسطورى تعليلى رائع) كما كتبوا عن تقاليد الفروسية العربية وشيم الفرسان وخلائقهم وبطولاتهم وأدابهم فى السلم والحرب (ولهم فى ذلك تراث ملحمى رائع يعرف فى المجتمعات الشعبية باسم السير الشعبية العربية ، التى لم تكن فى حقيقة أمرها الا تأريخا لبطولة هؤلاء الفرسان ، وللفروسية العربية ، ولثالوثها القيمى الخالد : المرأة — الحب — الدين (ومن ثم لم يستطع الفارس العربى أن يتسم ذروة البطولة الملحمية إلا إذا أشهر سيفه جهادا فى سبيل الله دفاعا عن الإسلام ، الأرض والإنسان والمعتقد) كذلك كتب التراثيون العرب عن رياضة الصيد بالخيل ، والمطارد والمصائد ، وما يتعلق بهذه الرياضة (الشعبية من آداب الصيد بالصقور والجوارح وقوانينه ، فيما عرف لديهم باسم البيزرة ولهم فى ذلك مؤلفات كثيرة ، تؤكد شعبية هذه الرياضة فى البوادى والحضر على السواء .. كذلك كتبوا عن السيوف والسهام وأنواع السلاح وآلات الحرب وأدوات الفروسية ولوازمها كالسرج ، واللجام .. (وهو أمر له قيمته العلمية بالنسبة للحرف والصناعات الشعبية) كما كتبوا أيضا فى أنواع الخيل ، واختيارها وأمراضها وعلاجاتها فيما عرف لديهم بعلوم البيطرة .

وكان طبيعيا أن ينعكس عالم الفروسية ، بطولةً

ورياضةً ، على عالم الابداع الأدبي فكان بذلك تراثاً أدبياً شعبياً رائعاً يتعلق بعالم الفروسة العربية ، والحرب ، والحماسة ، والصيد ، والرياضة ... وهنا تكمن أهمية هذا الموضوع ، وأهمية مصنفاته التراثية بالنسبة للمعنيين بدراسة الآداب الشعبية والطبائع والعوايد الفولكلورية . وحسبنا أن نشير إلى بعض المصادر ، من مثل :

أنساب الخيل في الجاهلية والاسلام لابن الكلبي ، وكتاب الخيل للأصمعي وكتاب أسماء خيل العرب وفرسانها لابن الأعرابي ، وكتاب السرج واللجام لابن دريد ، وكتاب الفتوة لابن المعمار (وهو من أكثر الكتب التراثية أهمية في بيان تقاليد الفروسية العربية وقيمها في العصور الوسطى) وكتاب الفروسية لابن قيم الجوزية ، وكتاب نهاية السؤل والأمنية في تعلم أعمال الفروسية ، وكتاب الفروسية وعلاج الخيل لبكتوت الرماح (وله أيضا كتاب علاج الدابة) وكتاب قطر السيل في أمر الخيل للبلقيني ، وكتاب الفروسية والبيطرة في علامات الخيل وعلاجاتها لأبي حزام بن يعقوب الختلي ، وكتاب كامل الصناعتين المعروف بالناصري في البيطرة لابن البيطار ، وكتاب الكمال في الفروسية وأنواع السلاح وآدابه العمل بذلك وصفات السيوف والرماح (مجهول المؤلف) وكتاب السيوف والحديد للكندي ، وكتاب القول التام في الرمي بالسهام للسخاوي ، وكتاب الفروسية والمناصب الحربية لنجم الدين حسين الرماح المعروف بالأحدب ، وكذلك كتاب تحفة المجاهدين في العمل بالميادين للاجين الحسامي ، وكتاب التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية لابن منكلي ، وكتاب التذكرة الهروية في الحيل الحربية لعلي بن أبي بكر الهروي وكتاب مستند الأجناد في آلات الجهاد لابن جماعة ، وتبصرة أرباب الألباب في كيفية النجاة في الحروب من الأسواء للطرسوسي ، وتفريج الكروب في تدبير الحروب للأنصاري .

أما في مجال الصيد والرياضة بالخيل واللعب بها والبيزرة ، فيكفي أن نشير هنا إلى كتاب الأعتبار لأسامة بن منقذ ، وكتاب المنصوري في البيزرة ، والجمهرة في علوم البيزرة لعيسى بن حسان الأسدي ، وكتاب القانون في علم البيزرة ، وكتاب البزاة والصيد ، وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب الصيد والجارح ، وكتاب الصيد والطرد ، وكتاب الصيد والبيزرة ، وكتاب البيزرة وهذه الكتب جميعا مجهولة المؤلف ، غير أن بعضها عرف طريقه إلى النشر العلمي المحقق في السنوات الأخيرة . ولعل أهم كتاب وصلنا في مجال الصيد والطرد هو كتاب المصائد والمطارد من تأليف كشاجم (ت ٣٥٨ هـ) وقد نشره المجمع العلمي بدمشق سنة ١٩٥٤ .

وتشكل هذه المصادر تراثا شعبيا متقدما ، **لما يطلق عليه — علميا وعالميا — فولكلور الصيد .**

رابع عشر : التراث الموسيقي والغنائي

يشكل التراث والموسيقي والغنائي حيزا كبيرا في المكتبة التراثية ، وما يرتبط بعالم الموسيقا والغناء والرقص من وصف لمجالس اللهو والطرب وآلات الموسيقا ووصف للجواري والقيان ، ووصف الظرف والظرفاء والمتظرفات ، وشروط المسامر والنديم ، وتقاليدهم وآدابهم ، ووصف لطرائقهم وأنماط سلوكهم وأزيائهم وحليهم ، ووصف لأدوات الزينة وأواني الأطعمة والشربة وما يكتب عليها من أشعار ، وكذلك وصف الرياحين والورود والهدايا الخاصة ،

ومجالس الأنس والطرب وما تتضمنه من أثاث ورياش وبسط ووسائد ، منقوش عليها بأجمل الخطوط والألوان .. وما يروى عن هذه المجالس من أشعار مرتجلة على البديهة ، ومن آداب وقصص وحكايات وأسمار ونوادر وفكاهات تشكل ثروة أدبيـة وفولكلورية رائعة فى وصف بعض الطبقات لتلك العصور . كذلك تتحدث هذه المؤلفات عن نشأة فنون الموسيقا والغناء ووظائفهما الفنية والجمالية والعملية والروحية والدينية ، وما قيل فى ذلك من حكايات طريفة وآراء وأفكار ناضجة ، أعنى لا تزال صحيحة وفاعلة حتى اليوم ، كما تسهب فى وصف أنواع الموسيقا وكيفية صناعتها والمواد المستخدمة فيها ، وما يرتبط باختراعها من حكايات تعليلية طريفة .. كما عنيت هذه المؤلفات أيضا بالحديث عن بعض الموضوعات ذات الصلة الوثيقة بالحرف والفنون الشعبية حديثا يكشف فى الوقت نفسه عن قيمتها المادية والاجتماعية والجمالية .. ونظرا لأن عالم الموسيقا والغناء — بمستوييه الشعبى والرسمى — كان يلقى عناية الخلفاء والسلاطين والطبقات الشعبية جميعا ، فقد كثرت المصنفات فيه إلى الحد الذى يفرد معه ابن النديم ، فى فهرسته بابا مستقلا له هو « الفن الثالث من المقالة الثالثة ، فى أخبار العلماء وما صنفوه من الكتب ، ويحتوى على أخبار الندماء والجلساء والأدباء والمغنين والصفادمة والصفاعنة والمضحكين وأسماء كتبهم » **ومن الجدير بالذكر أن يشير ابن النديم فى هذه المصنفات إلى أول معجم فى أسماء المغنين ، مرتب على حروف المعجم ، وقد وضعه حسين بن موسى النصبى للخليفة المتوكل ، وسماه كتاب الأغانى على حروف المعجم** (أنظر الفهرست ص ١٤٥) كذلك يشير ابن النديم (ص ١٥٦) إلى معجم مماثل عند حديثه عن « قريص » المغنى ، فيذكر أن له « كتاب صناعة الغناء وأخبار المغنين وذكر الأصوات التى غنى فيها على الحروف ، ولم يتمه ، والذى خرج منه ألف ورقة » . وعلى كل حال فلا يزال تحت أيدينا مؤلفات أخرى كثيرة (قد عرف معظمها طريقه إلى النشر) منها على سبيل المثال لا الحصر : موسوعة الأغانى العظيمة للأصفهانى التى تعد من أعظم المصادر التراثية الغنية بالعناصر والمواد الفولكلورية فى مشرق العالم العربى ومغربه ، فى العصور الإسلامية ، وقبل الإسلامية على السواء . وللأصفهانى نفسه مجموعة مؤلفات أخرى مثل كتاب القيان ، والمغنين ، وكتاب لأماء الشعراء ، وكتاب الغلمان والمغنين ، وكتاب الحانات ، وكتاب الغناء لإبراهيم بن المهدى ، وكتاب الأغانى الكبير لإسحق بن إبراهيم الموصلى ، ومن مؤلفاته أيضا كتاب الرقص والزفن ، وكتاب المنادمات ، وكتاب النغم والإيقاع ، وكتاب قيان الحجاز ، وكتاب منادمة الأخوان وتسامر الخلان . وكتاب العود والملاهى للمفضل بن سلمة ، وكتاب اللهو والملاهى لابن خرداذبة ، وله أيضا كتاب أدب السماع وكتاب الندماء والجلساء ، وكتاب النغم ليحى بن على المنجم ، وكتاب كمال أدب الغناء للحسن بن أحمد ، وكتاب الموسيقا الكبير للفارابى وكتاب السماع لابن القيسرانى ، وكتاب المجمل فى الموسيقا للرازى ورسالة الكندى فى الموسيقا (وفيها وصف مفصل للمارسة العرب الموسيقا) ورسالة فى الموسيقا لابن سينا ، ورسالة السماع والغناء وأثرهما فى النفس لأبى حيان التوحيدى (ضمن كتابة المقابسات) ورسائل ثابت بن قرة فى الموسيقا (وتتضمن وصفا دقيقا لصناعة الآلات الموسيقية) ودرة التاج (فى الموسيقا) للشيرازى ، ورسالة فى الموسيقا للطوسى ، والكافى فى الموسيقا للحسين بن زيله ، والموشى أو الظرف والظرفاء للوشاء ، وكتاب

أدب النديم لكشاجم ، والمحاسن والمساوىء للبيهقى وكتاب الغناء والمغنين للمرزبانى وكتاب المتطرفين والمتطرفات لجحظة ، وله أيضا كتاب أخبار الطنبوريين وكتاب طبقات المغنين لأبى أيوب المدينى ، وله أيضا كتاب النغم والإيقاع ، وكتاب أخبار ظرفاء المدينة ، وكتاب قيان مكة وكتاب قيان الحجاز ، وكتاب اللهو والملاهى فى الغناء والمغنين والندماء والمجالسة وأنواع الأخبار والملح للسرخسى ، وله أيضا كتاب الموسيقا الكبير وكتاب المدخل إلى علم الموسيقا .

ومن الكتب المجهولة المؤلف — وما أكثرها — كتاب الظراف ، وكتاب مدح النديم ، كتاب فى أخبار الظراف والمتماجنين والمتظرفات ، كتاب الطنز واللهو ، كتاب المديح فى الولائم والدعوات والشراب ، كتاب المتظرفين والمتظرفات ونوادر الغلمان والخصيان وكتاب المحرقة ، وكتاب الملح والمحمقين ، وكتاب جامع الحماقات وأصل الرقاعات ، وديوان الخلاعة ، وكتاب النوادر والمضاحك ، وكتاب ترويح الأرواح ومفتاح السرور والأفراح .

وتتجلى قيمة هذه المؤلفات جميعا — ليس فقط فى حقل الموسيقا والغناء ، وإنما أيضا فيما تتضمن من عناصر ومواد فولكلورية أخرى ، ولا سيما للمعنيين بدراسة الأدب الشعبى ، وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية .

خامس عشر : فى فنون متنوعة

هذا طائفة أخرى من المصادر التراثية فى مجموعة من الفنون المتنوعة التى تتعلق موضوعاتها بالمأثورات الشعبية ولاسيما فى جانبها القولى أو الأدبى ، وسنذكر هنا فقط أسماء الكتب ، دون تعليق ، ففى تصنيفها — إلى حقول فولكلورية محددة كفاية

١/١٥ — فى الحلى وأدوات الزينة والجواهر

منها :

« فى كتاب الجواهر وصفاتها وفى أى بلد هى ، وصفه الغواصين والتجار » تأليف يحيى بن ماسويه (ت ٢٤٣ هـ) وكتاب الحلى لمحمد بن جعفر القزاز (ت ٤١٢ هـ) كتاب الذخائر) والتحف لابن الزبير ، نخبة الدهر فى أحوال الجوهر لابن الأكفانى ، وكتاب التلخيص فى معرفة الأشياء لأبى هلال العسكرى وكتاب الجماهر فى معرفة الجواهر للبيرونى وآخر بالاسم نفسه منسوب للغزالى وكتاب فخر المشط على المرآة لابن الشاه الظاهرى ، وكتاب الحلى للنمرى وكتاب الحلى (مجهول المؤلف) رسالة فى الأحجار والخرز (مجهول المؤلف) رسالة فى الأحجار الكريمة لأبيفانيوس . الدرة البيضاء فى صناعة الياقوتة الحمراء (مجهول) رسالة فى المعادن (مجهول المؤلف) أزهار الأفكار فى خواص الأحجار للتيفاشي ، قطف الأزهار فى خصائص المعادن والأحجار لأحمد المغربى .

٢/١٥ — فى العطور والطيب :

منها :

كتاب العطر للكندى ، وله أيضا كتاب كيمياء العطر ، وكتاب العطر للشطرنجى ، وكتاب العطر لإبراهيم بن العباس ، وكتاب العطر لحبيب العطار ، كتاب العطر وأجناسه للمفضل بن سلمه ، ومن

الكتب المجهولة المؤلف كتاب العطر ، كتاب الطيب ، كتاب العطر والتركيبات .

١٥/٣ ــ فى التحف والهدايا :

معظم هذه الكتب التى جاءت تحت هذا العنوان مجهولة المؤلف وبعضها معروف ولكنه لايزال مخطوطا ، ومنها : كتاب الهدايا للمرزباني وكتاب الهدايا للجنديسابورى ، وكتاب التحف والهدايا للخالديين (تحقيق سامى الدهان) .

١٥/٤ ــ فى الطبيخ والحلوى :

كتاب الطبيخ لإبراهيم بن المهدى ، وآخر لإبراهيم ابن العباس الصولى ، وكتاب الطبيخ لابن الأنبارى ، والأنموذج فيما ورد في الفلوذج لمحمد بن طولون الدمشقى وكتاب الطبيخ للبغدادى ، وكتاب الطبيخ ليحيى بن على أبى منصور الموصلى ، وكتاب الطبيخ لجحظة وله أيضا كتاب السكباج وفضائلها ، وكتاب الطبيخ لابن خرداذبه وكتاب الخبز والزيتون ، وكتاب حرب اللحم والسمك لابن الشاه الظاهرى ، ثم هذا الكتاب الفريد ، كتاب الطبيخ ، الذى كتبه السرخسي للمعتضد على الشهور والأيام .

١٥/٥ ــ فى آداب المائدة :

ومنها :

كتاب أدب الموائد لابن خلاد الرامهرمزى ، وكتاب المديح في الولائم والدعوات والشراب للمرزبانى ، وكتاب الضيفان (مجهول المؤلف) إلى جانب الكتب المستقلة التى كتبها فقهاء المسلمين فيما يخص آداب الطعام . فضلا عما كتبوه أيضا من رسائل منفصلة ، فيما يتعلق بآداب المائدة من حلال وحرام .

١٥/٦ ــ فى المواسم والأعياد :

ومنها :

لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف لزين الدين الحنبلى ، كتاب الأعياد وفضائل النوروز للصاحب بن عبّاد ، كتاب رمضان للصولى ، كتاب رمضان وما قيل فيه للخراز ، كتاب رمضان لعلي بن هارون ، وله أيضا كتاب النوروز والمهرجان (وتتضمن هذه الكتب جانبا قوليا أدبيا يعنى دارسى الأدب الشعبى) .

١٥/٧ ــ فى أصول التهاني :

ومنها :

وصول الأمانى فى أصول التهانى للسيوطى ، وكتاب مختار الأغاني فى الأخبار والتهانى لابن منظور ، وغيرها (وهذه الكتب لها أيضا قيمة أدبية) .

١٥/٨ ــ فى أيمان العرب (صيغ القسم أو الحلف) :

ومنها :

كتاب أيمان العرب فى الجاهلية لإبراهيم بن عبد الله البجيرامى (ولهذه الصيغ دلالاتها الاجتماعية والدينية والشعبية والأدبية واللغوية) .

١٥/٩ ــ فى الأسماء والألقاب والكنى :

ومنها :

السامى فى الأسامى للميدانى . الكنى والأسامى للدولابى ، كتاب الكنى والألقاب لعباس القمي ، كتاب الأسماء والكنى والألقاب للبلخى وله كتاب أسامى الأشياء ، كتاب الأسماء والكنى للمدينى ، ومن الكتب التى تلقى الضوء ايضا على هذا الموضوع كتاب المؤتلف والمختلف فى أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم للآمدى ، وكتاب ألقاب الشعراء ، وكتاب كنى الشعراء لابن حبيب . (ولهذه الكتب قيمة لغوية وأدبية أيضا ، تعنى المهتمين بدراسة اللهجات والآداب الشعبية)

١٠/١٥ فى المعمرين والوصايا :

ومنها :

المعمرون ، والوصايا ، للسجستانى ، كتاب المعمرين للهيصم بن عدى ، الوصايا وحكم العرب والعجم للمرزبانى .

١١/١٥ فى الشيب والخضاب :

ومنها :

الشيب وآدابه وفضل ألوانه والخضابات وترتيب مقدماته (مجهول المؤلف) ذم الشيب ومدح الشباب وما قيل فى ذلك نثرا ونظما (وينسب لابن حماد) وكتاب الشيب والخضاب لعبد الرحمن بن سعيد .

١٢/١٥ فى المراثى والتعازى :

ومنها :

التعازى والمراثى للمبرد ، كتاب المراثى للمرزبانى التعازى لعلي بن محمد المدائنى ، كتاب الرثاء والتعازى لابن خلاد الرامهر مزى كتاب النوائح (مجهول المؤلف) ولهذه المؤلفات قيمة اجتماعية ولغوية وأدبية تعنى دارسى الفولكلور .

١٣/١٥ ــ فى أدب الزيارة ، والاستنجاد بالمقبور :

ومنها :

زيارة القبور والاستنجاد بالمقبور لابن تيمية ، وكتاب التسليم والزيارة للمرزبانى ، والكواكب السيارة فى ترتيب الزيارة (عادة ما يقصد بالزيارة هنا زيارة قبر الرسول عليه السلام) .

١٤/١٥ ــ فى العشق والعشاق :

كثيرة هى المؤلفات التى كتبها التراثيون عن عاطفة الحب وقد أشرنا إلى بعضها من قبل ــ فى التراث القصصى ــ ولكن كثيرا منها يتناول هذه العاطفة بالتحليل الدقيق ، فيتحدث أصحابها عن ماهية الحب وعلاماته وأنواعه وآثاره فى النفس وقبح المعصية وفضائل التعفف والعقبات التى تحول دون تحقيق هذه العاطفة السامية كالعقبات الاجتماعية أو العادات والتقاليد والعقبات الاقتصادية مثل غلاء المهور والعقبات النفسية كالغيرة . . الخ الخ ، فضلا عما قيل فى ذلك كله من شعر وأمثال وألغاز وحكايات وقصص ، ومن هنا تتجلى القيمة الاجتماعية والنفسية والأخلاقية والاقتصادية والأدبية الرائعة لهذه المؤلفات التى نذكر منها هنا على سبيل المثال ، الكتب التالية :

طوق الحمامة فى الألفة والألاف لابن حزم ، مصارع العشاق للسراج ، ديوان الصبابة لابن حجلة ، والزهر للأصفهانى ، وتزيين الأسواق بتفضيل أسواق العشاق لداود الأنطاكى ، وأخبار

المتيمين للبلاذرى وأخبار المتيمين للمرزبانى ، وكتاب ربيع المتيّم فى أخبار العشاق لابن خلاد الرامهرمزى ، وروضة المحبين ونزهة المشتاقين لابن قيم الجوزية ، وأشعار النساء اللاتى أحببن ثم أبغضن للعتبى ، وكتاب ذم الهوى لابن الجوزى ، وكتاب المتيّمين المعصومين (مجهول المؤلف) .

٥/١٥ ـــ فى أخبار النساء :

ومنهـــا :

أخبار النساء لابن قيم الجوزية ، بلاغات النساء لطيفور ، كتاب النساء للهيثم بن عدى ، وله أيضا كتاب مناكح الأشراف وأخبار النساء ، نساء الخلفاء لابن الساعى ، أشعار النساء للمرزبانى ، أخبار النساء لابن شاه الظاهرى ومناكح أزواج العرب لابن الكلبى ، وكتاب المناكح للواقدى ، وكتاب الحرة والأمة لابن داود ، وكتاب أخبار النساء لابن صاحب النعمان ، وله أيضا كتاب نشوة النهار فى أخبار الجوار وكتاب المستظرف فى أخبار الجوارى للسيوطى ، وكتاب النساء وما جاء فيهن من الخبر ، ومحاسن ما قيل فيهن من الشعر والكلام الحسن لهارون من على والمرصع فى الآباء والأمهات والأبناء والبنات لابن الأثير (تحقيق إبراهيم السامرّاق) .

١٦/١٥ ـــ فى تدبير الحبالى وتربية الأطفال والصبيان وأحكام المولود :

ومنهـــا :

كتاب تحفة المودود بأحكام المولود لابن قيم الجوزية ، وكتاب سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار القيروانى ، وكتاب تدبير الحبالي والأطفال والأجنة لابن يحيى البلدي ، وله أيضا رسالة فى تدبير الأطفال والصبيان . وتلقى هذه الكتب وأمثالها كثيرا من الضوء على فترة الحمل ـــ اجتماعيا ـــ وعلى مرحلة الولادة والطفولة ، وما يتعلق بها من عادات وتقاليد وأغان شعبية ، فيما يعرف باسم فولكلور الحمل والولادة .

١٧/١٥ ـــ فى المرضى والزمنى من ذوى العاهات وأشعارهم وأمثالهم :

من أهم الكتب فى هذا الموضوع كتاب البرصان والعرجان والعميان والحولان للجاحظ وعنه نقلت الكتب التالية له ، ومنها كتاب تاريخ الزمنى والعرجان والمرضى والعميان لشبيب العصفرى ، وتكمن قيمة هذه الكتب فى أمرين بالنسبة لدارسى الفولكلور ، انها تتضمن الأشعار والأمثال والألغاز والأقوال والكنى والعبارات الشعبية التى قيلت فى هؤلاء المرضى من ذوى العاهات ، والأمر الآخر أنها تتضمن الرؤية الاجتماعية والعادات والتقاليد ونظرة المجتمع اليهم والحرف والصناعات التى تمايزوا بها .

١٨/١٥ ـــ فى أخلاق العامة :

ومنهـــا :

كتاب الملهى لأبى عقالٓ الكاتب (فى أخلاق العوام) كتاب نوادر أهل الشرفية ونوادر أوساط الناس ونوادر السفلة والوضعاء (مجهول المؤلف) كتاب مساوىء العوام وأخبار السفلة والأغنام للصيمرى وله أيضا كتاب دعوة العامة ، وكتاب الراحة ومنافع العيارة ، وكتاب فضل العربيات على الحضريات للمدائنى ، وكذلك رسالة فى السالكين وطريف اعتقاد العامة للسرخسى ، وكتاب الحمالين والحمالات (مجهول المؤلف) وكتاب الهمج والرعاع

وأخلاق العوام (مجهول المؤلف) وكتاب السنن والآداب على مذاهب العامة لابن أبى الثلج ، وكتاب شرى الرقيق وتقليب العبيد لابن عبدون (تحقيق عبد السلام هارون) .

١٩/١٥ فى الشعبذة وألعاب الحواة :

كثير من هذه الكتب التى وردت تحت العنوان السابق مجهولة المؤلف ، ولاتزال مخطوطة ، وقليل منها معروف المؤلف ، ولم يقدر لى أن أقف على هذه المؤلفات ، ومن ثم سأكتفى بوصف ابن النديم لها لبيان دلالاتها الشعبية ، وأهم الكتب التى ذكرها ، فيقول (ص ٣١٢) من الفهرست :

١٥ / ٢٠ فنون الشطرنج والنرد

« أول من لعب بالشعبذة فى الإسلام عبيد الكيس ، وآخر يعرف بقطب الرحا ، ولهما فى ذلك عدة كتب منها كتاب الشعبذة لعبيد الكيس ، وكتاب الخفة والدك والقف لقطب الرحا ، وكتاب بلع السيف والقضيب والحصى والسبج (الخرز) وأكل الصابون والزجاج والحيلة فى ذلك ، وكتاب المخرقة لعبيد الكيس ، وآخر من رأينا ممن يلعب بالخفة « منصور أبا العجب ، ومات عن مائة وخمس عشرة سنة وكان يقول « لعبت بين يدى المعتمد » .

مثل كتاب أنموذج القتال فى نقل العوال لابن أبى حجلة التلمسانى ، والأرجوزة الشطرنجية لأحمد الكيوانى ، وأرجوزة ابن الهبارية (فى الشطرنج) ونزهة أرباب العقول فى الشطرنج المنقول لابى زكريا الحكيم ، وكتاب الشطرنج للبلخى .

٢١/١٥ فى أشعار الجن وأخبارهم :

هذه مجموعة من المؤلفات فى أخبار الجن وأشعارهم وأنسابهم وطبائعم وممالكهم وعلاقاتهم بعالم الأنس ، معظمها مجهول المؤلف ، وكلها مخطوطة تقريبا ، ولكنها قابعة فى مكتباتنا تحت عنوانات متعددة مثل :

كتاب أخبار الجن ، كتاب أشعار الجن ، كتاب أخبار الجن والانس ، كتاب الجن المنسوب إلى ابن الكلبى ، كتاب أخبار الجن المنسوب إلى لقيط المحاربى ، أشعار الجن للمرزبانى ، كتاب أحاديث الجن والانس المنسوب للحسن بن محبوب ، وأنساب الجن لاريوس الرومى وله أيضا كتاب أولاد أبليس وتفرقهم فى البلاد وما يختص به كل جنس منهم فى العلل والأرواح ، وكتاب طبائع الجن ومواليدهم للوهق . (ويبدو أن هذه الكتب مستلة من الكتب التى تحدثت عن الجن ، مثل : مروج الذهب للمسعودى ، والحيوان للجاحظ) .

٢٢/١٥ فى تعبير الرؤيا :

كثيرة منها : تعبير الرؤيا لابن سيرين ، الأوفاق للغزالى ، الأشارة فى تفسير العبارة لإبراهيم الطولونى ، وكتاب تعبير الرؤيا للحسن بن محبوب ، وكتاب الرؤيا لابن الشاه الظاهرى ، وألفية بن الوردى فى تعبير المنامات ، وكتاب الإشارات فى تفسير العبارات وتأويل الرؤيا المنامية للسالمى ، وكتاب تعطير الانام فى تعبير المنام للنابلسى ، كتاب تعبير الرؤيا لابن قتيبة ، كتاب تعبير الرؤيا للكرمانى ، كتاب تعبير الرؤيا على مذاهب أهل البيت (مجهولة المؤلف) ومن

الجدير بالذكر أن تعبير الرؤيا كان علما قائما بذاته ، وفيه دراسات ومصنفات كثيرة ذكرها ابن خلدون فى مقدمته (٣ : ١٢١٥ ـــ ١٢١٨)

وتبقـى كلمـة :

أما وقد شب علم الفولكلور العربي عن الطوق ، أو كاد ـــ فيما أعتقد ـــ ، فأرجو ألا يظن ظان ـــ من غير حقل الفولكلور ـــ أننى ، لشديد حماستى ، أريد أن أسحب البساط من تحت أحد ، يعلم الله أننى ما قصدت إلى شيء من هذا قط ، ولن أقصد إليه أبدا ، إنني أحاول فقط أن أثبت « شرعية » البحث العلمي في الفولكلور ، من واقع تراثنا المدّون ، الفكرى والحضارى ـــ على ضخامته وامتداده ـــ في المكان والزمان العربيين . كما أحاول أن أبرهن على شرعية المادة الفولكلورية الحيّة التى يمارسها الشعب العربي ، واعيا ولا واعيا ، على الرغم من الحدود السياسية المفروضة عليه ـــ وهى شرعية قوامها العروبة والإسلام ... ففيهما تكمن منابع الفولكلور العربي ، وفيهما أيضا تكمن أسباب وحدته ، وأسرار حيويته ... ودواعي أصالته .

فإذا ما اتفقنا على هذه الشرعية أو المشروعية ، وأظن أننا متفقون ، فإننا عندئذ ، وفي أثر هذه الجولة الأفقية والرأسية عبر بحار التراث العربي ، وفي ضوء مصادره (المنشورة أو المحققة على الأقل) ، نستطيع أن نزعم صدق الدعوة التى تدعو إليها هذه الدراسة (أقصد الدعوة إلى قراءة التراث العربي من منظور فولكلورى) ونستطيع أن نزعم كذلك صدق جدواها العلمية ، المعرفية والمنهجية ، فضلا عن غاياتها الحضارية والقومية .

إن مثل هذه القراءة لن تعمق فهمنا واحترامنا للتراث ـــ دون قداسته ـــ بإضفائها روحا أو دماء جديدة عليه فحسب ، ولكنها أيضا سوف تعمق وعينا بأنفسنا ـــ ماضيا وحاضرا ومستقبلا ـــ وهذا أمر بالغ الأهمية تماما في هذه المرحلة من تاريخنا ، بحثا عن الذات العامة وتحقيقا لها ، في خضم التحديات التاريخية الكبرى التى تواجهها الأمة العربية ، قوميا وسياسيا ، عسكريا واقتصاديا ، فكريا وروحيا ، علميا وتكنولوجيا ، من دون أن تفقد هويتها الحضارية وأصالتها الثقافية أمام مغريات الحداثة والمعاصرة ومعطياتها الطاغية ، تماما فعلت دولة صناعية عظمى ، هى اليابان في حل هذه المعادلة الصعبة ، من دون أن تضحي بتراثها الفولكلورى وبغير أن تفقد ريادتها التكنولوجية في الوقت نفسه . لهذا ، فإننا بهذه الدعوة ، الدعوة إلى قراءة التراث العربي من منظور فولكلور لا ندعو إلى التخلف ومضيعة الوقت بين أضابير بالية اسمها التراث ، كما يزعم بعض المستغربين ، وانما إلى فتح نافذة جديدة ، برؤية جديدة ، نطل معا ، منها وبها ، على تراثنا المدون ... وأعتقد أنها محاولة جديرة بالمحاولة ، ففي ظل غياب قراءة فولكلورية للتراث ، قراءة علمية ، قوامها استنطاق هذا التراث فولكلوريا ، وأداتها النظر فيه : جمعا وتصنيفا ودراسة واستلهاما في ضوء معطيات علم الفولكلور ، فانه سوف يبقى الخلط قائما بين المعقول واللا معقول في تراثنا ، وما دمنا نؤمن بأن التراث القومي بشقيه ، الشفاهي والمدون ، يصوغ دوما جوهر الثقافة الجمعية للشعوب ـــ والفولكلور

أبرز جوانبها وقلبها النابض كما نعلم — فان هذه القراءة الفولكلورية التى ندعو اليها تشكل — في رأينا — خطوة أساسية نحو تحديد الفكر العربي ، بل هي قادرة قبل غيرها على الكشف عن قيم من التراث ؛ معرفية ومنهجية ، تضع — بوعى وعلم — تراثنا في مواجهة العصر ، باتجاه تحديث أصالتنا وتأصيل حداثتنا .



ترحب المجلة باسهام المتخصصين فى الموضوعات التالية :

(أ) أثر الغزو العراقى فى الفكر العربي المعاصر

(ب) الاعلام المعاصر .

(ج) الفكر العربي المعاصر .

(د) مدارس النقد الأدبي .

(هـ) الفلكلور والفنون المعاصره .

(و) التعليم العالي .

دائرة الحوار (دعوة لاضافة باب جديد في « عالم الفكر »)

إن الطبيعة الجادة للدراسات والبحوث التي تنشر في « عالم الفكر » تعني ، بحكم التعريف في حالات كثيرة ، أنها لاتمثل فصل الخطاب أو جّماع القول في الموضوع الذي تتناوله . وفي سعي « عالم الفكر » الحثيث لتحقيق المزيد من التواصل مع قرائها ، فإنها تنظر في أمر إضافة باب جديد فيها بعنوان « دائرة الحوار » ، تنشر فيه ما تتلقاه من تعليقات مركزة وجادة ومتعمقة ، وملتزمة بالمنهج العلمي وأدب الحوار في التعليق ، مع ردود كتاب الدراسات الأصلية على هذه التعليقات . وتتطلع « عالم الفكر » إلى أن يصبح هذا الباب منبرا لتبادل ثريّ ومفيد للآراء يمثل إضافة مجدية لما تنشره من دراسات وأبحاث ، وبما يحقق تفاعلا فكريا مطلوبا ومحمودا بين قرائها وكتابها .

و « عالم الفكر » تفتح الباب ، على سبيل التجربة ، لقرائها لرفدها بتعليقاتهم فيما بين ٥٠٠ ـ ١٠٠٠ كلمة ، حول ماينشر فيها . فإذا ما وضحت استجابة القراء والكتّاب للفكرة ، وأدركت الاسهامات حجما معقولا ومستوى لائقا يبرر إضافة مثل هذا الباب ، بشكل غير دوري ، فسوف تبادر إلى ذلك ، شاكرة لقرائها وكتّابها حرصهم على التفاعل البناء معها وفيما بينهم لزيادة عطائها الفكري .

مجلس الادارة

الاشتراكات

٦	دنانير
٦٠٠	مليم
٧	دراهم

حوالة مصرفية

المشترك الى

13002

الثمن
٤٠٠ فلس